ISSN: 2090 - 0449
www.kanhistorique.org

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ

كان التاريخية

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨

السنة الثالثة عشرة
العدد الخمســــون

تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
ديسمبر ٢٠٢٠ – ربيع الثاني ١٤٤٢

Historical Kan Periodical

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء



مسجلة في الدليل العالمي DRJI
مسجلة في الدليل العالمي Citefactor
حاصلة على معرّف الوثيقة الرقمي DOI
مسجلة في الفهرس العلمي العالمي ISI
متوفرة عبر دار ناشري للنشر الإلكتروني - الكويت
حاصلة على معامل التأثير العربي للمجلات العلمية (1.3)
مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (688814)
حاصلة على اعتماد «المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية»

مفهرسة في Root Indexing
مفهرسة في كروسريف Crossref
مفهرسة في دار المنظومة السعودية
مفهرسة في قاعدة البيانات معرفة - الأردن
مفهرسة في قاعدة بيانات المنهل – الإمارات
مفهرسة في قاعدة البيانات العالمية EBSCO
مفهرسة في Eurasian Scientific Journal
مفهرسة في الباحث العلمي Google Scholar





دورية كان التاريخية.- س١٣، ع٥٠ (ديسمبر ٢٠٢٠/ ربيع الثاني ١٤٤٢)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 13, no. 50 [December 2020]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٠.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2020.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



ISSN: 2090 – 0449 Online

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البيليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام





الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

كان التاريخية

حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



The Sheikh and His Guide
Carl Haag. Drawings
1820 -1915 Duitsland

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

 historicalkan

 groups/kanhistorique

 kanhistorique

 kanhistorique.blogspot.com

 goodreads.com/kanhistorique

 www.kan.nashiri.net

أَخْلَاقِيَاتُ النَّشْرِ

دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلّات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللآزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.

يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



دَّورية كَان التَّارِيْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرفِوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَّسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدَة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية،... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَر

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس- يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني: **info@kanhistorique.org**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: **mr.ashraf.salih@gmail.com**

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّاب الْعَدَدِ



مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الأم الكبرى للآلهة، الربة سبيل في شمال إفريقيا القديمة
ربة للخصب والإخصاب



عبد السلام بحاج
باحث دكتوراه تاريخ القديم
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتوخى هذا المقال الذي بين أيدينا، التعريف بعبادة الربة الشرقية الفريجية، التي كانت تدعى بأم الآلهة سبيل، والتي دخلت إلى مجال شمال إفريقيا، خلال حقبة الاحتلال الروماني. عن طريق روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، التي استقدمتها من بلاد فريجيا بالأناضول خلال القرن الثاني ق.م. ويهدف أيضًا، إلى محاولة نفض الغبار، عن العبادات الوثنية في إفريقيا الرومانية بصفة عامة. وعبادة هذه الربة سبيل بصفة خاصة. خصوصًا وأن موضوع العبادات الوثنية، لم ينل حظه من الدراسة والتنقيب، وبالأخص من طرف الباحثين المحليين. وقد اتبعنا لتحقيق هذه الغاية، طرق الجمع والتصنيف، انطلاقا من جمع النقوش اللاتينية، التي لها صلة بالموضوع، والتي تعتبر من المصادر الحية، التي تعبر بشكل عميق، عن صدق إحساس وكلام الشخص صاحب التقدمة. كما أنها تُعَدّ المصدر الرئيس للوثائق المعتمدة في معالجة هذا العمل، وذلك انطلاقا من هم البحث عن الحجة اللازمة للوصول إلى الحقيقة التاريخية كما كانت. ثم جمعنا بعد ذلك، بعض النصوص الأدبية الكلاسيكية، التي عاصرت هذه العبادة، وأخيرًا قمنا بجمع وقراءة بعض النصوص والمقالات المعاصرة، التي تطرقت لهذه العبادة. وهكذا سنعمل على التنقيب في تفاصيل هذه العبادة الشرقية، في إفريقيا الرومانية خلال القرون الميلادية الأربعة الأولى. على مجال ترابي، يمتد من جهة الشرق، من مقاطعة الطرابلسية بليبيا الحالية، مرورًا بإفريقيا البروقنصلية في البلاد التونسية الحالية، فبلاد نوميديا بالجزائر الحالية، وأيضًا بموريطانيا القيصرية، وصولاً إلى موريطانيا الطنجية بالمغرب الحالي. وذلك انطلاقًا من مساءلة هذه النصوص، واستنباط مكنوناتها والكشف عن خباياها، للتمكن من البحث في أصول هذه الربة، وزمن إدخالها إلى روما، ثم استقدام عبادتها إلى شمال إفريقيا، عن طريق رسمي أو عن طريق الجنود الأسيويين العاملين في الجيش الروماني المرابط بالمنطقة، أوعن طريق التجار الشرقيين المقيمين في بعض الحواضر المحلية. وسنرصد أيضا انتشار هذه العبادة في المجال الإفريقي، واقتران الربة سبيل بعدة معبودات أنثوية وذكورية، وعلى رأسها الربة الحامية لقرطاجة كايلستيس. كما سندرس أيضًا بعض الصفات والألقاب، التي تحلت بها الربة خلال هذه الفترة، وكذلك بعض الوظائف، التي امتازت الربة الفريجية بإفريقيا، وعلى رأسها وظيفة الخصوبة الزراعية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أكتوبر ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

التاريخ الديني؛ المعبودات الوثنية؛ شمال إفريقيا؛ الحقبة الرومانية؛ الربة سبيل

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.200628

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد السلام بحاج. "الأم الكبرى للآلهة، الربة سبيل في شمال إفريقيا القديمة: ربة للخصب والإخصاب".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٤ – ٢٠.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: assoubahaj2012@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

يستشعر الباحث المقبل، على خوض غمار التنقيب عن المعبودات الوثنية في مجال شمال إفريقيا خلال الحقبة الرومانية، ندرة وشحًا في المادة المصدرية، سواء الأدبية منها أو الأثرية والإيبيغرافية اللاتينية، وهذا ما اعترض سبيلنا، عندما بدأنا عملية البحث عن المعبودة الأنثوية سبيل في هذا المجال إفريقيا. وقد انطلقنا في عملية البحث، انطلاقًا من عدة أسئلة كانت تؤرقنا، منها ما هو معرفي تاريخي، ومنها ما هو أنطولوجي وجودي يرتبط بالذات الباحثة. والتي يمكن تلخيصها فيما يلي: لماذا ارتبطت وظيفة الإخصاب الزراعي أساسًا بمعبودات أنثوية كالربة سبيل؟ فهل لهذا علاقة بمكانة المرأة في المجتمع الأميسي واكتشافها للزراعة؟ أم بوظيفة المرأة الإخصابية من الناحية البيولوجية؟ أم كما ترى الباحثة نصيرة بن الصديق أن كل المعبودات الأنثوية هن ربات للخصب والإخصاب، تسعى دومًا لجلب الخير وطرد الشر؟ إذا ما تم التسليم بوجود ظاهرة التوفيقية، فهل ساهمت الربة سبيل، في التعريف بمعبودات محلية، وفي حفظها من النسيان وإن تحت مسميات أجنبية كالربة كايلستيس مثلاً؟ هل تملك هذه عبادة هذه الربة، التي حملت على المنطقة، في شكل حجر أسود noir bétyle un، تقاطعات وامتدادات مع الطقوس الدينية للعبادات، التي ستعرفها المنطقة لاحقًا؟

إن دراسة المعبودات الوثنية عامة، والمعبودة سبيل خاصة، تعرض لها الباحثون الأجانب منذ أواسط القرن التاسع عشر. وتتجلى أهمية هذه الأبحاث، في كونها حاولت النبش في الآثار المادية، التي خلفها أتباع هذه المعبودة وغيرها من المعبودات. وذلك في شكل أعمال حفريات ودراسات تاريخية، خلفت جمع المصنفات الإيبغرافية والأثرية. ويأتي على رأس هذ ه الأبحاث، التي اهتمت بدراسة عبادة الإلهة سبيل، الأطروحة الجامعية للراحل (Graillot Henri) هنري غرايو، التي أنجزها سنة ١٩١٢، تحت عنوان "عباد الربة سبيل أم الآلهة في روما وفي أرجاء الإمبراطورية الرومانية"، والتي تناولت بالتحليل عبادة سبيل في روما وفي المقاطعات الرومانية.

وبناءً على ما سبق، تعتبر الربة سبيل، الإلهة الفريجية، معبودة شرقية، تتمتع بخاصيات الخصوبة الزراعية، وهي الأم الكبرى لكل الكائنات الحية، وخاصةً النباتات، فهي حامية الزرع والكروم، تقترن عبادتها بالرب أتيس (Attis) الذي تتجدد ولادته كل فصل ربيع. تنتشر عبادتها في الحوض المتوسطي، كمروضة للحيوانات الضارية خصوصًا الأسود، وملكة للطبيعة وربة للخصوبة الزراعية. تم استقدامها من آسيا الصغرى إلى روما، ثم انتقلت عبادتها كمعبود رسمي بعد ذلك، إلى إفريقيا فكيف تم ذلك؟

أولاً: في أصول الربة الفريجية سبيل

ظهرت أم الآلهة في أعالي جبال الكبيل (Kybéles) حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م. في البلاد التي ستسمى فيما بعد بفريجيا بآسيا الصغرى. وقد كانت على رأس المعبودات المحلية في مدينة بيسنونت (Pessinonte) المقدسة، وهي عاصمة مقاطعة فريجيا. تقع على أحد أكبر طرق القوافل التجارية، التي تعج بالتجار والزوار القادمين لزيارة هذه المدينة المقدسة[١]، تقام لها الحفلات في فصل الربيع، كتعبير عن انبعاث الطبيعة من جديد، بالطقوس الفرجوية المعهودة لسبيل، بدقات الطبول وأصوات المزامير ورقص حول المعابد، وتقديم قرابين للفرجة[٢].

طلب مجلس الهيئة الكهنوتية le sacré collège des Décemvirs من السلطات الحاكمة بروما سنة ٢٠٥ ق. م. إدخال عبادة أم الآلهة رسميا إلى روما، وذلك بعد الهزائم التي تكبدها الرومانيون أمام جيوش القائد الإفريقي حنبعل[٣].

استقدمت السيدة السمراء من آسيا الصغرى على شكل حجر أسود، في الرابع من أبريل سنة ٢٠٤ ق. م. ودخلت أسوار روما[٤] كمعبود للمجتمع البطريكي والعامة معًا، وذلك بغرض طرد العدو القرطاجي، كما تنبأ بذلك مجلس الهيئة الكهنوتية، فصارت المعبودة المفضلة للرومانيين[٥]، ولكن كيف دخلت عبادة سبيل إلى إفريقيا؟

قبل الحديث عن تسرب هذه العبادة إلى شمال إفريقيا، أورد تعريفا لهذه المعبودة على لسان الإخباري أبوليوس أصيل مدينة مادور البونية، حيث يقول لي لسات الربة: "أنا الطبيعة والأم الكونية، وسيدة كل العناصر، وأصل الأزمان، وملكة الأرواح، وملكة الأموات والأحياء ...أعرف بأسماء متعددة.. يسميني الفريجيون بيسونوتيكا (Pessununtica) أم الآلهة... وأنا الإلهة القديمة للمحاصيل الزراعية.. لا يوجد في الكون إلا شعبين اثنين، ممَنْ ينادونني باسمي الحقيقي: الملكة إيزيس. إنهم الإثيوبيون، الذين توجد أراضيهم في اتجاه شروق الشمس والمصريون[٦]" هذا المقتطف إشارة إلى أن سبيل كانت مماثلة للربة إيزيس عند المصرين والإثيوبيين، كما ترى الباحثة (Stone) أيضًا أن مفهوم أم الآلهة عند اللبيين، هي الإلهة الكبرى الخالدة[٧].

تم إدخال ديانة سبيل إلى إفريقيا كعبادة رسمية، بمبادرة من السلطات البلدية[٨]. كما يذهب إلى ذلك كل من الباحث الفرنسي مارسيل لوغلاي والباحث دي سكوراك H.Pavis d' Escurac، حيث ظهرت هذه العبادة بشكل مزدهر في الحقبة السويرية (١٩٣م – ٢٣٥م). على نقائش مدينة قرطاجة ومدينة تيبازا (tipasa)، وموقع ميليف (Milev)، وماسكولة (Mascula) وغيرها[٩]،. وقد ظهرت منذ زمن مبكر في مدينة لبدة الكبرى Lepcis Magna بالطرابلسية. حيث تشير نقيشة مؤرخة بسنة ٧٢ للميلاد[١٠]، إلى ذلك ويذهب المؤرخ غزيل Gsell، إلى أن النقائش الخاصة بالمعبودة سبيل مؤرخة، بين فترتي حكم كل من الإمبراطور سبتموس سوروس والإمبراطور قسطنطين[١١]. ويرى الباحث الفرنسي جون باي (Bayet)، أن هذه العبادة لم تلق حظوظ الاستقبال الكبرى في إفريقيا الرومانية[١٢]. ربما لتشبث الأهالي بمعبوداتهم الليبية/ البونية : تانيت /كايلستيس، رغم ارتباط عبادة أم الآلهة بالسياسة الرومانية في المنطقة[١٣].

ثانيًا: ألقاب الربة سبيل

حملت المعبودة الفريجية في إفريقيا، عدة ألقاب، منها لقب "الأم المقدسة" la sainte mère في موقع ميليف Milev[١٤]. وأيضا دعيت " بالمقدسة جدا "[١٥] la très sainte في مدينة تيبازا Tipasa النوميدية، ربما تعبر صيغة المبالغة، على شدة تعلق العابد بالمعبود. كما لقبت بالمقدسة Sancta في نقائش عثر عليها في نفس المدينة أيضًا[١٦]. وفي موقع شرشال البحري (قيصرية عاصمة الملك يوبا الثاني)[١٧]. ولقبت أيضًا بالأوغسطية في موقع مكتار النوميدي[١٨]. وربما قد تكون اقتبست هذا اللقب من الربة الليبية – البونية كايلستيس Caelestis. لأن لقب المقدس هو لقب شرقي، يحمل معاني البركة. كما ظهرت تحت مسمى "الأرض الأم" Terra Mater في نقيشتي[١٩] موقع عنونة/ تبلبيس Thibilis، فلقب الأم بمفرده، حملته سبيل منذ زمن مبكر جدا. أي قبل دخول عبادتها للعاصمة روما ولإفريقيا الرومانية[٢٠]. كما عرفت أيضًا بـ Aerecura أي "التي تأخذ حذرها من الثروة" وهي خاصية للأرض المغذية[٢١]. وفيه إشارة لوظيفة سبيل الزراعية، ولتوفيرها للخيرات التي يتغذى عليها البشر.

ألقاب سبيل	الموقع الذي عُثر فيه على النقائش	عدد النقائش
المقدسة	ميليف تبازا شرشال	٥
الأرض الأم	تبليس	٢
Aerecura	تبليس	١
الأوغسطية	زاما مايور مكتار	٢
الأم الكبرى للآلهة	زاما مايور مكتار تبازا	٣

ثالثًا: مماثلة الربة الفريجية بمعبودات أخرى

ارتبطت الربة سبيل (Cybèle) بمجموعة من المعبودات الأنثوية والذكورية، من بينها الربة كايلستيس. التي اشتركت معها في جملة من النعوت، كالصولجان (le sceptre) رمز السلطة الملكية. وامتطاء وقيادة الأسود، كما أن الزوج ساتورن/ كايلستيس يماثل الزوج أتيس/ سبيل، كمعبودات زراعية تشرف على أشغال الحقول[٢٢]. حيث يظهر نقش حجري بموقع ميديدي (Mididi)، ربة جالسة على أسد، تشير إلى الربة سبيل أو لسبيل/ كايلستيس[٢٣] أما في مدينة تبسة، فيظهر نقش حجري الرب ساتورنوس مع المعبودة سبيل، ويجلس بينهما أسد، ينظر نحو الربة الجالسة والمتوجة بوشاح[٢٤] (غطاء الرأس). كما تمت مطابقة أم الآلهة بالأرض الأم[٢٥] Mater Terra، وفي عدة مواقع، تبدو سبيل كما لو أنها تأويل (interpretatio) إغريقي روماني للربة البونية عشتارت (Astarté). حيث يتعلق الأمر بربتين للخصوبة تحملان صفة الأسد، كما عثر على صنم من الخزف المشوي لعشتارت Astartéوهي تحمل آلة الطبل، وهي ميزة أساسية لسبيل[٢٦].

تتطابق سبيل في موقع عنونة (Thibilis)، القريب من موقع هيبون (عنابة) مع الربة فينوس (Vénus)[٢٧]، كما جعلها القديس أوغسطين هي وتلوس معبودًا واحدًا[٢٨]. وتم أيضًا مطابقتها بأثينا الليبية التي ذكرها هيرودوت في التواريخ[٢٩]، وتوجد آثار المطابقة على نقود مدينة أويا (oea). ويتعلق الأمر

إذن بتوفيقية (Syncrétisme) ليبية رومانية تتلاءم مع السياسة الأوغسطية، وتدخل في إطار حركة رومنة المدينة ومعبوداتها، حيث يرى الباحث لوغلاي (Leglay)، أن مماثلة الربة تلوس والأرض الأم بسبيل أمر مرجح.[٣٠]

أما فيما يخص المعبودات الذكورية، فقد تم اشراكها مع يانوس الأب (Janus Pater)، حيث قدم لهما مذبح في مدينة مكثار[٣١]، كما تم إشراكها مع ساتورنوس كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وقد لعب الرب لبير باطر (Liber Pater) في صيغته الإفريقية، حيث تمت مماثلته ببعل هامون أي بالإله المحلي، الذي يحمل في يده، على النصب البونية عنقود عنب – دورًا كبيرًا في تطوير عبادة الأم الكبرى.[٣٢] وبما أنه تمت مماثلة الربة سبيل بالمعبودة عشتارت، التي كانت قرينة للرب أبولون (Apollon) في كل من مدينتي كرطة وتاموغادي، حيث تمت مماثلة الشاب أتيس بأبولون في نقيشة تاموغادي (Timga) وبالإله إسكولابيوس أيضًا، وهؤلاء هم ورثة الرب إشمون (Eshmoun) قرين[٣٣] عشتارت.

رابعًا: انتشار عبادة سبيل وتوزيعها الجغرافي

توجد عبادة أم الآلهة تقريبًا في كل المرافئ التجارية للساحل الإفريقي، بدءًا بمدينة حضروميت (Hadrumète) البونية، كمركز رئيس لتصدير قمح وزيت البزاق إلى موانئ الضفة الشمالية، فقرطاجة المستوطنة اليوليانية والتي صارت تحت حكم أغسطس، المدينة أكثر إشعاعًا في المنطقة، و Hippo) Diarrytus (بنزرت) وقيصرية (شرشال) التي أقام فيها الرومانيون ميناءً عسكريًا Portus Magnus (وهران)[٣٤].

توغلت عبادة سبيل في الداخل حتى وصلت إلى الهضاب العليا، عثر في الحوض الخصب للمجردة على بقايا عبادة أتيس قرب موقع ممبراسا (Membressa)، وهو يترأس بلا شك أشغال الزراعة، في ضيعة أحد الأتباع[٣٥]. كما عُثر على معابد لأم الآلهة في موقع كل دوكة (Thugga)، وموقع مادور Madaure، حيث يوجد به معبد لأم الآلهة، وهو من إنجاز مالك ضيعة، وهو يشغل منصب بروقراطور إمبراطوري[٣٦]. كما عثر على نقود، تحمل رأس الربة متوج بصولجان، في مدينة لبدة الكبرى lepcis Magna، بمقاطعة الطرابلسية شرقا. كما توجد بها أيضا نقائش لاتينية مهداة لسبيل في عدة مناطق أخرى من إفريقيا الرومانية، وعبادتها متطورة في هذه المقاطعة[٣٧]. وقد وصلت عبادة الربة في جهة الغرب من شمال إفريقيا، إلى موقع بناصا الموجود على الضفة اليمنى لوادي سبو بالمملكة المغربية الحالية[٣٨]. وهي نقيشة مكرسة، من أجل سلامة الإمبراطور الروماني تتوس أورليوس هادريانوس.

دخلت عبادة الأم الكبرى إلى مدينة كرطة المدينة البونية بامتياز، في نفس الوقت الذي تم فيه إدخال عبادة الثالوث الكابتولي للمدينة (جوبتر وجنون ومنرفا)، كما تم إحداث معبد رائع لسبيل في موقع اسطيف بالقيصرية، سنة ٢٨٨ للميلاد -مما يدل على كثرة أتباعها بالموقع – وبه أيقونة من الفضة للربة[٣٩]. تركت عبادة سبيل آثارًا في منطقة زاما الكبرى، وفي موقع مديدي (Mididi)، وعرفت عبادة سبيل انتشارًا كبيرًا في موقع لامبيز Lambèse الذي كان مستقرًا للجيوش الرومانية التي تحرس خط الليمس من هجمات قبائل الرحل الثائرة، وذلك بسبب استقدام أغلبية جنود الفليق الثالث الأغسطي، المستقر في المنطقة، من مناطق آسيا الصغرى والأقاليم الدانوبية، وهكذا انتشرت عبادة الأم الكبرى في المدن التي شيدها الفليق عند قدم جبال الأوراس، فبنوا لها معابد في كل من موقع ماسكولة (خنشلة بالجزائر الحالية) (Mascula)، وبموقع تاموغادي (Tamugadi) (معبد لأم الآلهة)[٤٠].

عرفت عبادة الربة سبيل ازدهار بإفريقيا الرومانية في العهد السويري، أي الفترة التي اقترنت فيها أم الآلهة بالرب الإفريقي إسكولابيوس/ إشمون في مدينة قرطاجة. حيث تعتبر الباحثة سمادجا أن المقاطعات الإفريقية، هي التي عثر فيها على أكبر عدد من النقائش، في غرب الإمبراطورية للربة سبيل[٤١]. ورغم أن الباحث الفرنسي جون بايي Bayet، يرى أن عبادتها غير مرحب بها عند الأفارقة[٤٢]، فإنه في عهد الإمبراطور فاسبيان Vespasien، أقام شخص محلي الأصل، يدعى أنوبعل إدبعل أسمونيس Iddibal Annobal Asmunis معبدًا للربة الفريجية، في موقع لبدة الكبرى lepcis Magna. واسم هذا الشخص مقدم الإهداء، مشتق من اسم الرب بعل هامون البوني/ الليبي. وقد بلغت مصاريف هذا البناء، حوالي ٢٠٠ ألف سسترس. ويتعلق الأمر إذن بمبادرة محلية، تحت إشراف السلطة الرومانية، حيث يتزامن هذا الإنجاز، مع عملية إعادة تجديد عمارة المدينة، وذلك منذ النصف الأول من القرن الميلادي الأول، وتبرز منه رغبة الطبقة المهيمنة، في إظهار هيمنتها الاجتماعية، بشراكة مع السلطات الرومانية[٤٣] وبمباركة منها.

تمتد عبادة سبيل في إفريقيا على مستوى المجال ومستوى الزمن أيضًا، حيث بدأت في الانتشار مع القرن الميلادي الأول واستمرت إلى القرن الميلادي الرابع، كما تشير إلى ذلك نقيشة لبدة الكبرى المؤرخة بالقرن الأول للميلاد(٤٤). وقد تولت هذه الربة بالمنطقة عدة وظائف، من بينها وظيفة الخصب الزراعي، هذه الوظائف التي كانت الشغل الشاغل للمزارعين والفلاحين بالمنطقة. فماهي تجليات هذه الوظائف؟

خامسًا: من وظائف الربة سبيل

تمتلك الربة الفريجية وظيفة الخصوبة الزراعية، فهي سيدة الحصاد، التي تحمي الخصوبة، كما تحمي الكروم أيضًا(٤٥). ولا غرابة أن يتم إدخال عبادتها إلى إفريقيا، عمومًا والبروقنصلية بالخصوص، حيث جاء المزارعون الرومانيون المستوطنون يبحثون عن الثروة في استغلال ضيعات قروية، فالنسبة لهؤلاء شكلت الأم الكبرى للآلهة معبودًا وطنيًا، وواحدة من القوى الحامية للإمبراطورية وعنصرًا من عناصر الحضارية اللاتينية(٤٦) كما شكلت بالنسبة للأهالي معبودًا للخصوبة الزراعية، ففي عدة مواقع تظهر سبيل كتأويل إفريقي روماني للربة البونية (Astarté) عشتارت(٤٧) أو للأم الأرض(٤٨)، حيث يتعلق الأمر هنا بمعبودتين للخصوبة الزراعية(٤٩).

عُثر في معبد قرطاجة على نقيشة(٥٠)، تمثل تقديم قربان الثور والكبش معا. حيث زين الجزء العلوي للمعبد برأس كبش ورأس ثور، إهداء لأم الآلهة من أجل سلامة الإمبراطور ذو الأصول الإفريقية سبتموس سوروس (Septime Sévère)، وأجري ذلك أثناء حفل تعويم سبيل بحضور شخصيات سامية مدنية ودينية(٥١). تشير نقيشة موقع مكتار(٥٢)، أيضًا إلى قربان الثور المقدم للربة الفريجية، وفي هذا إشارة إلى طلب الخصوبة الزراعية. وفي موقع تبليس القرية الفلاحية الكبرى(٥٣)، عثر على نقيشتين تحملان قرابين الكبش والثور معًا.(٥٤)

خَاتِمَةٌ

إذا كانت عبادة أم الآلهة سبيل، لم تلق الإقبال الشعبي المرجو في إفريقيا كما يرى الباحث جون بايي (Bayet)، فإلى ماذا يعزى حضورها في موقع مليف، الذي كان تحت حماية الربتين كايلستيس ونوتركس، وبسيغوس (Sigus) المدينة الليبية القديمة، وتيبازا (Tipasa) النوميدية، التي حافظت على معابدها البونية؟ وبمدينة سيكافنريا(Sicca Veneria) المدينة المقدسة من طرف القبائل الأهلية، وأيضًا بموقع بناصا الموري؟ وفي دوكة حيث توجد أغلبية السكان من الأهالي(٥٥). يرجع هذا، ربما لكونها عبادة رسمية، تم إدخالها بقرارات إدارية رومانية رسمية، أو لأن معابدها كانت" أكثر تنظيما من الناحية الدينية" حيث يسمى بـ "المكان المقدس" معبد للربة سبيل في موقع سطيف (Setif) بموريطانيا القيصرية(٥٦).

ويحتمل أيضًا انخراط أتباعها، في جمعيات دينية يترأسها كبير الكهنة (Antistes)، الذي يفوق الكاهن مرتبة، ويعتبر سيدًا لكل الأتباع المنضوين تحت لواء الجمعية.(٥٧) التي كانت تمارس طقوسا تعبدية وفرجوية، نجد لها مثيلا في جدبات طائفة "عيساوة" في مدينة مكناس بالمغرب، والتي قد تكون استمرارية لطقوس وثنية، في ظل عبادة توحيدية ألا وهي الدين الإسلامي. كما أن المقاطعة الإفريقية، تُعَدّ المقاطعة الرومانية التي أعطت أكبر عدد من النقائش للربة سبيل، ومعظمها مكرس من أجل سلامة الأباطرة، مما يؤكد الطابع الرسمي للمعبودة الفريجية(٥٨). وقد تأقلمت هذه الربة مع التقاليد المحلية، واكتسبت بعضًا من صفات الربة الإفريقية كايلستيس، مما ساعدها على الانتشار في إفريقيا البروقنصلية، وفي جميع المقاطعات الأخرى، بإفريقيا الرومانية خصوصًا خلال القرن الميلادي الثالث وبداية القرن الميلادي الرابع(٥٩).

وأخيرًا؛ فإننا نعتبر البحث في التاريخ الديني لشمال إفريقيا، في الحقبة القديمة، التي تسبق المسيحية والإسلام. ضرورة ملحة ومغامرة كبرى، تفرض على المؤرخين خوضها، للإسهام في فهم الماضي التاريخي للمنطقة، الذي نعتقد أنه ما يزال ممتدًا في حاضرنا.

الملاحق



صورة رقم (١)

تظهـر الربـة سـبيل وهـي تركـب عربـة تجرهـا الأسـود، وعشيقها الرب أتيس متكأ على شجرة

PREVOST Jacques Henri, Petit manuel de l'humanité, les antiques religions à mystères, cahier 35 .p. 3.



صورة رقم (٢)

الربة سبيل والطبل المميز لها

PREVOST, Petit manuel...op.cit.p.4.

الاحالات المرجعية:

(1) Graillot Henri, Le Culte de Cybèle, mère des dieux à Rome et dans l'empire Romain, Paris, 1912, pp. 16- 17
(2) Ibid, p. 19.
(3) Ibid, p. 529; Cumont Franz, Les Religions Orientales dans le paganisme Romain, Ernest Leroux, éditeur, Paris, 1905, p.57-58.
(4) Bayet Jean, Histoire politique et psychologique de la religion romaine, Payot, Paris, 1957, p. 124 .
(5) Rolle Pierre Nicolas, Recherches sur le culte de Bacchus, symbole de la force productive de la nature, tome I, Paris.1824,p.272.
(6) Stone Merlin, Quand le Dieu était femme, à la découverte de la grande déesse, source de pouvoir des femmes, édition l'étincelle, Paris, 1979, p. 61 .
(7) Apulée, Métamorphoses, XI,5 .
(8) Le Glay Marcel, Le paganisme en Numidie et dans les Maurétanie sous l'empire romain ; état de recherches entre 1954 et 1990, In Antiquités africaines, n° 42, 2006, p .83 ; Cadotte Alain,La Romanisation des dieux, l' interprétatio romana en Afrique du Nord sous le Haut Empire, Brill,leiden Boston .2007, p. 240
(9) CIL, VIII, 4846 ; ILAlg, I, 1983 ; Cadotte ,La Romanisation ...op.cit,p. 107 .
(10) CIL, VIII, 22671 .
(11) Gsell Stéphane, Autel romain de Zana (Algérie), In Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-lettres,75°année,n°3,1931,p.255.
(12) Bayet, Histoire politique ...op.cit, p.205.
(13) Graillot, Le Culte de Cybèle ...op.cit, p. 528 ; Smadja Elisabeth, Divination et idéologie impériale en Afrique romaine, In Pouvoir, divination et prédestination dans le monde antique, Besançon, Institut des Sciences et Techniques de l'Antiquité, 1999, p.310 ; SANDERS .G, Les Galles et le Gallat, in Homages à Maarten J . Vermasern, Recueil d'études offerts par les auteurs de la Série, Etudes préliminaires aux religions orientales dans l'Empire Romain à Maarten J. Vermasern le 7 Avril 1978, coordonné par, Margreet de Boer, Edridge .T.A,Leidn E.J.Brill, 1978, p.1091.
(14) Graillot , Le Culte de Cybèle...op.cit, p.531.
(15) Ibid, p. 531.
(16) Cadotte, La Romanisation ...op.cit, p.243.
(17) CIL, VIII, 9401 .
(18) Cadotte, La Romanisation des dieux...op.cit, p.243 ; CIL, VIII,19981 ;CIL, VIII, 23400 .
(19) ILAlg,II,4647; CIL, VIII, 5524; Saint Augustin, La cité de Dieu .VII, 28 ;voir aussi VII, 16 (a propos de Cérès)
(20) Graillot , Le Culte de Cybèle ...op.cit, p.3 ; Cumont , les Religions Orientales ...op.cit, p.58.
(21) Cadotte, La Romanisation...op.cit, p. 244.
(22) Graillot, Le Culte de Cybèle...op.cit, p.529 ; Visconti Mongez Ennio Quirino, Iconographie ancienne ou recueil des portrais authentiques des Empereurs, Rois, et Hommes, Illustrés de l'antiquité, Iconographie greque, volume 2, Bibliotheca Regia Monacensis, Paris, 1817, p.103.
(23) Cadotte, La Romanisation...op.cit, p.239.
(24) Graillot, Le Culte de Cybèle ...op.cit, p.532.
(25) Ibid, p. 531 .
(26) Cadotte, La Romanisation...op.cit, p.239.
(27) Cadotte, La Romanisation...op.cit, p. 240.
(28) Saint Augustin, Cité de dieu, VII, 28.
(29) Hérodote, Histoire d'Hérodote,IV,CLXXX, traduit par LARCHER, tome deuxième, Paris, Charpentier, 1850 .
(30) Cadotte, La Romanisation ... op.cit, p.242.
(31) Le Glay Marcel, Les Syncrétismes dans l'Afrique ancienne, in Françoise Dunant et Pierre Léveque, Les Synccrétismes dans les Religions de l'Antiquité , colloque de Besançon (22-23 Octobre 1973) Leiden E.J.Brill.1975, p.143.
(32) Graillot, Le Culte de Cybèle...op.cit, p.533 ; CIL, VIII, 16440.
(33) Cadotte, La Romanisation...op.cit, p.239.
(34) Graillot , Le Culte de Cybéle...op.cit,p.522.
(35) Ibid , p.523.
(36) Ibid, p. 524
(37) Cadotte, La Romanisation ...op.cit, p. 240.
(38) AE, 1957,63 ; IAM, 93. Pro salute Imp(eratoris) Caes(aris) Titi Aeli Hadrian[i Antonini] Aug(usti) Pii,p(atris) p(atriae), templum matri deum [. . .] ex decreto ordinis Tib(erii) Claudii Iu lianus et Saturninus, du(u)muiri, \fratres, a solo faciendum curauerunt.
(39) Graillot, Le culte de Cybèle ...op.cit, p. 525.
(40) Ibid, p.527 .
(41) Cadotte, La Romanisation ...op.cit, p.240 ; Smadja Elisabeth et Geny Evelyne, Pouvoir, Divination ...op.cit,p.310.
(42) Bayet, Histoire ...op.cit , p. 205 .
(43) Cadotte, La Romanisation...op.cit , p.241.
(44) AE,1950,151 .
(45) Graillot , Le Culte de Cybèle ...op.cit, p.522 ; Cumont, Les Religions Orientales ...op.cit, p.62.
(46) Graillot , Le Culte de Cybèle ...op.cit, p.522 ; Cumont, Les Religions Orientales ...op.cit, p.62.
(47) Graillot , Le Culte de Cybèle ...op.cit, p.522 ; Cumont, Les Religions Orientales ...op.cit, p.62.
(48) Le Glay Marcel, Les Syncrétismes dans l'Afrique ancienne ...op.cit, p.143.
(49) Cadotte, La Romanisation des dieux...op.cit , p. 236 .
(50) CIL,VIII,24521.
(51) Gsell,Autel romain...op.cit,p.255.
(52) CIL,VIII,23400 ;CIL,VIII,23401.
(53) Gsell,Autel romain...op.cit,p.265.
(54) CIL,VIII,5524.
(55) Graillot , Le Culte de Cybèle...op.cit, p.530.
(56) Ibid , p. 530.
(57) Ibid, p. 531 ; Gsell,Autel...op.cit,p.258.
(58) Smadja E lisabeth, Divination et idéologie impériale...op.cit , p.310.
(59) H.Pavis d'Escurac, La Magna Mater en Afrique, Bulletin Archéologique Algérienne,Volume 6,1975,p.223.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من التراث المادي لواحات المغرب الصحراوي
قصر السلطان بواحة تغجيجت أنموذجًا



د. رشيد صديق
باحث متعاون مع المركز الوطني للنقوش الصخرية
وزارة الثقافة
المملكة المغربية

مُلَخَّص

*نميزت واحة تغجيجت كغيرها من الواحات الصحراوية المغربية خلال أهم مراحلها التاريخية باستقرار بشري قديم، بصم مظهرها الطبيعي ببقايا أثرية تنطق بعبقرية ساكنتها المحلية. وبحكم موقعها الاستراتيجي فإنها شكلت محطة هامة للقوافل التجارية الصحراوية الواقعة على الطريق الساحلي التي تزود فيها القوافل بالميرة والسلع قبل التوغل نحو الصحراء. وتعتبر عمارة وتراث الواحات من البقايا الأثرية والشواهد المادية التي تحكي أحداثًا تاريخية عرفتها هذه المجتمعات الواحية عبر مراحل متتالية امتدت منذ فترات ما قبل التاريخ واستمرت إلى المرحلة الوسيطية والحديثة. على العموم، تزخر واحة تغجيجت بتراث معماري متنوع ومتعدد الأشكال والأنماط. ومن أهم الأشكال المعمارية الموجودة بها نجد نظام "القصور" الفريد من نوعه. إذن، سوف نحاول في هذا المقال العلمي التطرق إلى دراسة أثرية تحليلية ووصفية لمعلمة تاريخية والتي حيرت الكثير من الباحثين المغاربة والأجانب ألا وهي قصر السلطان: **تيكمي أوگليد**. وتجدر الإشارة، أن إشكالية التأريخ لقصر **تيكمي أوگليد** مازالت مطروحة إلى حدود الساعة. ففي غياب أبحاث أركيولوجية معمقة وشاملة، فإننا لا يمكن الحسم في الكرونولوجية التاريخية لهذه المعلمة الأثرية. فإلى جانب الروايات الشفوية المحلية والمصادر المكتوبة والأبحاث الأركيولوجية السابقة، فقد طرح خلال السنوات الأخيرة نقاش معرفي حول ارتباط القصر بفترة استقرار اليهود بواحات تغجيجت خاصة بواحة تيغيرين. فإلى أي حد يستقيم هذا الطرح؟ إذن، إن الاعتماد على معيار المقارنة بين خصوصيات العمارة المحلية والرسمية أمر صعب للغاية، حيث يطالها أحيانًا تأويلات خاطئة. لهذا يبقى الاجتهاد العلمي لتأريخ المعلمة مفتوحًا في وجه الباحثين، في انتظار وثائق تاريخية وأعراف محلية أو أبحاث أثرية شاملة ومعمقة والتي ستكون مفتاحًا أساسيًا لفك العديد من القضايا الشائكة والمتضاربة حول تاريخ القصر السلطاني "**تيكمي أوگليد**" بواحة تغجيجت.*

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٨ أكتوبر ٢٠٢٠
تـاريخ قبــول النشــر: ١١ نوفمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

القصر؛ التراث المعماري؛ الواحة؛ تيكمي أوكليد؛ التراث والآثار

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.200635

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رشيد صديق. "جوانب من التراث المادي لواحات المغرب الصحراوي: قصر السلطان بواحة تغجيجت أنموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٢١ – ٢٩.

Corresponding author: sadik.rachido@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

تتوفر واحة تغجيجت كغيرها من الواحات الصحراوية المغربية على تاريخ وتراث غني ومتعدد الأشكال والروافد، حيث تجسد العناصر والمكونات التراثية جانبًا من الهوية التاريخية والحضارية للإنسان الواحي الذي ساهم في إنتاج وتراكم هذا الإرث التاريخي والحضاري عبر مراحل تاريخية. ويقوم هذا التراث على جذور ضاربة في عمق التاريخ الثقافي والاجتماعي الصحراوي، فهو نتاج مشترك بين الإنسان والطبيعة، يمتد متناميًا عبر الزمان والمكان على مجال جغرافي واسع، ويعبر عن ذاته وأصالته وخصوصياته المتنوعة والفريدة.

وتكتسي أهمية الموضوع في الحضور القوي لمعلمة "قصر السلطان" وأدورها الاقتصادية والتجارية والتاريخية بواحات واد نون خاصة والصحراء عمومًا في الدراسات الأكاديمية، الشيء الذي دفعنا إلى البحث عن المكانة التاريخية والأثرية لهذه المعلمة. كما أن اهتمام البعثات العلمية الأركيولوجية المغربية والأجنبية بدراسة المواقع الأثرية بالجنوب المغربي وبواد نون خصوصًا، ساهم بشكل أساسي في تحفيزنا إلى البحث والتنقيب عن هذه المعلمة الأثرية "قصر السلطان"، ونفض الغبار عن أهم معالمها الحضارية والتاريخية القديمة المتنوعة والمتعددة الروافد والمتجذرة في الذاكرة الجماعية للإنسان الواحي.

إجمالاً، تزخر واحة تغجيجت بتراث عمراني ومعماري متنوع ومتعدد الأشكال والأنماط. إذن، سوف نحاول في هذا المقال العلمي التطرق إلى دراسة أركيولوجية تحليلية ووصفية لمعلمة تاريخية والتي حيرت الكثير من الباحثين المغاربة والأجانب ألا وهي قصر السلطان: تيكمي أوكليد

أولاً: حول مفهوم القصر

توجد بالواحات المغربية مباني تتسم بالعظمة والسمو، وتتشكل أساسًا من بنايات معمارية تعرف بالقصر. وكلمة قصر مفادها المنزل، وقيل كل مبنى من حجر، فسمي بذلك لأنه تقصر في الحرم[١]. اصطلاحًا، يقصد بالقصر صنف من السكن التقليدي تشتهر به الواحات الجنوبية الممتدة بين الأطلس وتخوم الصحراء. فهو تجمع سكني متلاحم[٢]، يشكل بذلك مدينة أو قرية تشغل مساحات كبيرة[٣]. وتقطن فيه مجموعات بشرية تنتمي إلى أصول عرقية مختلفة تجمعهم مصالح وأهداف اقتصادية واجتماعية وسياسية مشتركة[٤]. ويوجد في أماكن استراتيجية مرتفعة تحيط به أسوار سميكة تحتوي على مداخل وأبراج للمراقبة[٥].

وتتوفر الواحات والصحارى على قصور محصنة تدعى تيكمي (Tigmui)أشبه بنظام أكادير وايغرم[٦]. ويمثل القصر نمطا معماريا فريدا من نوعه سوءًا من حيث الشكل والمحتوى. ويتكون من مجال مشترك قوامه السور الخارجي والأبواب الرئيسة والساحات العمومية والأزقة ودار القبيلة والمسجد والمصلى ومجال خاص يشمل المنازل وملحقاتها وغيرها من المرافق[٧]. كما عرف أيضًا، بتلك الوحدات السكنية التي تراعي مجموعة من المتغيرات الايكولوجية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية من حيث الشكل والمورفولوجية والمساحة ومواد البناء[٨]، ويوفر الترابط الاجتماعي الغائب في غيرها من أماكن الاستقرار[٩].

ثانيًا: الموقع الجغرافي

يقع القصر على قمة جبل سراس المنتمي لسلسلة جبال باني المطلة على واحات تغجيجت من الجهة الجنوبية، بين إحداثيات "29°4’14.56 شمالاً، و"9°24’02.87 غربا على ارتفاع ألف متر (تقريبا ٩٩٠م) من القمة الجبلية المشرفة على الواحة خاصة من الناحية الشرقية. فهي (القمة) عبارة عن جرف صخري يطل على الجهات الأربعة للواحات. وينتمي القصر حسب بعض الدراسات إلى نطاق شبكة القلاع المحصنة في الجنوب المغربي[١٠].

ويضيف ريكارد بروسبير (Ricard Prosper) أن قصر **تيگمي أوگليد** يقع على "مرتفع يتشكل من ممر صعب التسلق في الجانب المقابل للفتحة التي يجري فيها وادي صياد، تستغرق الرحلة إلى الأعلى أكثر من ساعة لكن تمكنا من اكتشافه، كما في الطائرة، وفي جميع المنخفضات المحيطة والتي تفصل الكتلة الجبلية على طول حدود مائلة حادة. وفي الجنوب الغربي نخيل تغجيجت، أما في الجنوب الشرقي نجد معدر ادولڭان، وفي اتجاه الشمال الشرقي أيت حربيل وسهل أسيف خيبر. وأخيرًا، بلدة إذ براهيم. وعلاوة على ذلك، لا شيء يحجب للعين في جميع الجوانب، ولا أثر للحياة، يمكن أن تقول إنه يشبه منظر سطح القمر، فالمساحة الشاسعة والسكون جد مؤثر[١١]".

ثالثًا: إشكالية التسمية

يطلق بعدة تسميات على هذه البناية المعمارية ومنها: **تيگمي أوگليد**، أڭادير أوفلا، دار السلطان، أڭادير إزناكن، قصر السلطان، تيڭمي نبرتقيس. وهي تسميات متعددة لمعلمة

أثرية واحدة. إلا أن التسمية الأكثر استعمالاً وتداولاً بين أهالي الواحات وباقي المناطق المجاورة هي **تيگمي أوگليد** أو (Tigmui Aguelid). في حين يستعمل الباحثون في تاريخ المغرب والجنوب المغربي بالخصوص تسمية دار السلطان.

وتتكون التسمية **تيگمي أوگليد** من كلمتين: الأولى، تيگمي أي الدار أو البيت. والثانية، أگليد أي الملك أو السلطان. ومن هذا المنطلق فإن أول الإشارات المعرفية المشتقة من خلال هذه التسمية هي قيمة ومكانة هذه المعلمة الأثرية من حيث الرمز والدلالة. فمن الناحية الرمزية، توحي بوجود معلمة أو بناية خاصة لأحد ملوك أو رؤساء القبائل المتعاقبة على حكم الواحات. أما من الناحية الدلالية، فالأهمية التاريخية والاجتماعية للبناية تؤشر على وجود نظام وتراتبية اجتماعية داخل الواحات خلال العصور الوسطى من جهة. ومن جهة ثانية توحي على السلطة السياسية والإدارية التي لعبتها هذه المعلمة في تاريخ واحات واد نون والواحات المغربية الصحراوية[١٢].

فمنذ الوهلة الأولى، تدل تسمية الموقع على وجود قصر ضخم له قوة وعظمة وحمولة تاريخية واجتماعية ضاربة في تاريخ واحات تغجيجت. ولقد ساعدتنا الدلالة الطوبونيمية في معرفة أصلها الامازيغي واكتشاف العديد من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عاشتها واحات تغجيجت خلال المرحلة الوسيطية. ومن هنا نود طرح عدة تساؤلات: هل فعلا هذه البناية استقر فيها السلطان؟ ومتى شيدت؟ ولأي غرض خصصت له؟ ولماذا تم اختيار هذا الموقع الاستراتيجي الصعب؟

رابعًا: الدراسة الأثرية

٤/١-المعطيات التاريخية

ترى بعض الدراسات والأبحاث بأن القصر المدروس يعود تاريخه إلى المرحلة المرابطية خاصة فترة حكم علي بن تاشفين التي عرفت بناء القلاع والحصون في وجه الموحدين[١٣]. وفي هذا السياق يؤكد الباحث مصطفى ناعمي أن دراسة الطبيب دغكسيـ الميدانية تؤشر أن القصر معلمة أثرية مرابطية يرتبط اسمها بالسلطان الصنهاجي، مما يوحي على تواجد إزناگن أي قبيلة زناكة الصنهاجية بتغجيجت[١٤]. كما ترى الباحثة الفرنسية جاك موني، بأن قصر **تيگمي أوگليد** معلمة مرابطية الأصل[١٥]، حيث قام المرابطون ببناء معامل إنتاج المعادن بها. إضافة إلى مجموعة من الأبراج والحصون بالواحات المجاورة[١٦]. ومن جهة أخرى، يرى الضابط الفرنسي دولاريول أن قبيلة أيت حربيل ساهمت في تشيد القصر (أگادير زناگ) خلال تواجد إگيزولن بالواحات أي قبيلة جزولة[١٧]. ففي تغجيجت يوجد قصر شيد خلال القرن الثاني عشر، أقيم أثناء عهد المرابطين مع إسطبلاته وملحقاته (خزان المياه، صهاريج...) قرب حي الخزفيين[١٨]. كما أضاف ألفرد لوشاتولي بأن قصر تغجيزت هو أكبر بناية معمارية توجد بجانب وادي صياد، وهو بمثابة مركز قبيلة إذ براهيم سابقا[١٩].

٤/٢-التحريات الاركيولوجيا والأثرية

وحسب الدراسات والحفريات الأثرية الحديثة المنجزة خلال السنوات الماضية، ترى بأن قصر **تيگمي أوگليد** شيد خلال المرحلة الموحدية[٢٠]، وهذا الأمر يؤكده الباحث يوسف بوكبوط، حيث يرى بأن التصميم الهندسي لباب الرواح بمدينة الرباط يشبه كليا تصميم باب القصر السلطاني "**تيگمي أوگليد**" بواحة تغجيجت المركز. وفي مقابل هذا، ترى بعض الدراسات أن تاريخ بناء البناية يرجع إلى سنة ١١٥١-١١٥٢م، وهي مرحلة تزامنت مع بداية حملة عبد المؤمن الموحدي ضد المجالات الواحية الصحراوية[٢١]. إن هذا الاتجاه الأخير، خلق نوع من الاختلاف بين الآراء السابقة، حيث تزكي جل الدراسات السابقة الموقف الأول، في حين أن الدراسات الأركيولوجية ترى بأن المعلمة الأثرية المدروسة ترجع إلى الحقبة الموحدية. فإلى أي حد يمكن اعتبار القصر معلمة موحدية الأصل؟

٤/٣-الفرضيات

نكاد لا نختلف تمامًا مع المعطيات التاريخية السابقة، فقد تكون فرضية المد الموحدي ووصولهم إلى الواحات واستقرارهم بها زمن عبد المؤمن الموحدي، هي الدلالة الوحيدة لإنتساب هذه المعلمة إلى المرحلة الموحدية، بحيث جهز هذا الأخير خلال سنة ١١٤٦م جيشا إلى نول لمطة بقيادة عبد الله بن أبي بكر ونيكي وعبد الله وعمن بن ميمو[٢٢]... وضرب أهوكار سلطان لمتونة ووحد الحسين بن سليمان صاحب تاعكيزت[٢٣] أي تغجيجت حاليا. إذن، يمكن القول بأن المعلمة الأثرية مرابطية الأصل وموحدية بين التعديلات والتغييرات التي أضافها الموحدون على الهندسة المعمارية للقصر، حيث من المعروف تاريخيا، أن الموحدين عملوا على طمس بعض المعالم المرابطية وإطفاء معالم جديدة لجعل البنايات المعمارية المرابطية موحدية بامتياز. وتبقى هذه المعلمة التاريخية حسب الدراسات الميدانية (دغكسي، ريكارد، ناعمي) مرابطية من حيث الأصل والبناء، وموحدية من حيث الشكل الهندسي (بوكبوط)[٢٤].

٤/٤-الرواية الشفوية

ترجع الروايات الشفوية بأن تاريخ بناء المعلمة تزامن مع فترة صراع بين حاكم واحات تغجيجت وبعض المجموعات البشرية المستقرة بأسفل وادي صياد والذي دام لسنوات طويلة. ومع مرور الوقت، فكر الحاكم أي السلطان ببناء هذه المعلمة فوق جبل سراس والاستقرار بها لسيطرة على المجال الواحي الصحراوي. وبعد أزيد من عشر سنوات، رجع الصراع بين القبيلتين "ففكر السلطان بتسمين ثور وأطلقه في اتجاه وادي صياد، وعند وصوله قامت القبيلة المستقرة بأسفل الوادي بذبحه، فإذا بهم وجدوه أكل كمية كثيرة من الشعير والقمح الصلب، فقالوا: "ما دام السلطان يتوفر على مخزون مهم من الحبوب، فإننا لا نستطيع مواجهته لسنوات طويلة. فقررت القبيلة بوقف الصراع والحصار على قصر **تيكمي أوكليد**، تم هاجرت إلى نواحي سوس"[٢٥].

٥/٤-وصف المعالم والبقايا الأثرية

تنتصب المعلمة الأثرية "تيكمي أوكليد" على مساحة كبيرة، تتخذ شكلاً هندسيًا رباعي الأضلاع، ويحيط بها سور عالي يتراوح علوه أربعة أمتار. وتقدر مساحتها الإجمالية ب ($120m \times 155m = 18600m^{2}$). كما تتوفر على مدخلين رئيسيين: الباب الأول، أمامي وهو الرئيسي للقصر والذي يطل على واحة تغجيجت المركز وتڭموت. فهو باب ضخم غير نمطي من حيث الحجم والقياسات، وفريد من حيث الهندسة والزخرفة المعمارية.

أما الباب الثاني فهو خلفي صغير الحجم، يطل على سهول ومنبسطات واحة تيخبرين وتيترت وأداي أيت حربيل وأيت إلول. بالإضافة إلى أبراج للمراقبة والحراسة التي تبلغ تسعة أبراج مستطيلة ومربعة الشكل موزعة على سور البناية بشكل منظم، بحيث تتوسط البوابة الرئيسة للقصر ببرجين بارزين في حين أن الأبراج المتبقية مقسمة على السور[٢٦]، ومنها ثلاثة أبراج صغيرة الحجم للسور الموالي لجهة الشمال الغربي والمطلة على منخفض زناڭن آو زناڭز، والبرجين المتبقين في جهة الجنوب الشرقي للقصر.

أما كسوة الباب، فهي مكونة من الأحجار المنجورة المتناسقة وقد أعطت تشكيلة زخرفية رائعة للقصر. والواجهة الأمامية مركبة من أحجار منقوشة لأنها وضعت بتصميم هندسي دقيق ورفيع، الشيء الذي سمح بتشكيل زخرفة متناسقة ودقيقة. كما توجد بقبب المدخل الرئيسي أشكال هندسية شبه أسطوانية، أضافت جمالية معمارية خاصة للمدخل. ومن هذا الأخير، يمتد دهليز يظهر كبهو يتخذ شكلاً مستطيلاً، توجد به بوابتان واحدة من الجهة اليمنى والثانية من الشمال. وتسمح هذه الأخيرة بولوج الدرج الأيسر قصد الصعود إلى السطح. ومن المدخل الرئيسي غرفة صغيرة تتجه نحو البهو عبر دهليز يتوفر على بابين مقوسين.

وتوجد بالقرب من البوابة الداخلية للقصر خزانات مائية أو ما يُسمي محليًا بتنوطفين (Tinoutfiyine). يبلغ عددها ثلاث خزانات مغطاة على شكل أسطوانة. وهي عبارة عن غرف محفورة في باطن الأرض مشيدة بشكل احترافي ومتقن، تبلغ مساحتها ($190m^{2}$). وهي متصلة بقنوات مائية داخل القصر وخارجه نحو الصهريج الخارجي ولها ستة فتحات متنوعة الأشكال ومدخلين رئيسين لاستقبال المياه، مبنية باستعمال الحجارة والجير والجبس. وتختلف الغرفة الثالثة عن السابقتين من حيث المساحة، لكنها شيدت بنفس التقنية وهي الحجارة المتراصة. وقد طلي سطح الخزانات بالجير والجبس لمنع التسربات والتشققات الخارجية.

ولا شك أن عنصر الماء لعب دورًا مهمًا في زيادة تحصين القصر من خلال تزويده بالخزانات المائية والاحتفاظ بالماء وتوفيره لفترات الجفاف والصيف وأثناء الحروب، وربما وظفت خنادق محفورة خارج أسوارها تملأ بالماء عند الحصار أو الهجوم لزيادة التحصين[٢٧]. وقد تبين لنا ذلك انطلاقا من وجود قنوات صغيرة لتصريف مياه الخزانات نحو الصهريج الخارجي. ففي الجهة الشمالية من القصر مازالت آثار غرف ومساكن موجودة جلها مبنية بالحجارة ومزودة بقنوات لتصريف مياه الأمطار نحو الخزانات، لكنها غير واضحة التصميم والمعالم الهندسية.

ومن الملاحظ أن سور القصر يحمل الكثير من علامات البناء المرابطي والموحدي في نفس الوقت. إذ يبلغ طوله الإجمالي ٦٥٠ متر، وعرضه مترين وارتفاعه ما بين ٤ إلى ٧ أمتار. ويتشكل من جدارين مبنيين بواسطة الحجارة والطين، وقد ارتبطت بقوة الملاط المستعمل يتوسطهما ممر صغير نحو أبراج المراقبة. يبدو لنا من خلال الزيارة الميدانية أن نظام الأسوار بالقصر يتشابه كثيرًا مع الأسلوب الموحدي ذو التحصينات الدفاعية القوية.

وبخصوص تقنيات ومواد البناء فهي طبيعية ومحلية. فالقصر كله مبني بالحجارة المنجورة، باستثناء جدار صغير مبني بالطوب المحلي قاعدته من الأحجار. وقد استعملت مادة الجبس في تزين السقوف والواجهة الأمامية للباب الرئيسي للقصر، والجير في تغطية الجدران وتسقيف البناية لمنع تسربات المياه

وطلاء الممرات نحو الأبراج. وتنقسم تقنيات البناء بالقصر إلى ثلاث تقنيات رئيسية: أولا، تقنية تشكيل الحجارة، وتتجلى في بناء الأبواب الرئيسة والثانوية. وثانيًا، تقنية بناء القباب، وهي متطورة من حيث الشكل، وتوجد بقبب المدخل الرئيس وبالخزانات المائية وهي نصف أسطوانية ذات أضلاع حادة. وأخيرا، تقنية بناء الأسوار والغرف بالحجر المنجور المتوسط والغير منظم بواسطة الملاط الممزوج بالطابية والجير. وقد تم اختيار هذه التقنية لتناسقها مع بيئة الواحات وقوتها وتأقلمها مع الظروف الطبيعية الصحراوية.[٢٨]

إن التأثير المرابطي حاضر بقوة في عمارة القصر. وهناك مؤشرات دالة على حضور الجذور التاريخية المرابطية والموحدية بهذه المعلمة في آن واحد. ففي يومنا هذا من الصعب جدًا الحسم في تاريخ المعلمة انطلاقا من المقارنة بين المآثر المرابطية والموحدية، فربما قد تكتنف هذه المعلمة خبايا وألغاز أخرى، قد تساهم الحفريات الأثرية في معرفة جزءًا منها وتجاوز تلك الفرضيات والمقارنات العامة من حيث هندسة الأبواب أو أسلوب البناء والتقنيات.

وخلال التحريات الميدانية، تمكنا من العثور على مجموعة من القطع الفخارية العادية المحروقة والمزخرفة أمام السور الشمالي للقصر[٢٩]، وبالضبط قرب الصهريج المائي الداخلي من الجهة الشمالية الغربية للمدخل الرئيس، وهي مزججة ومحلية الصنع. إضافة إلى بقايا صهر المعادن في الجناح العلوي للقصر وخارج السور الخلفي. وهي إشارات حية عن وجود حي الخزفيين وأفران المعادن والفخار داخل القصر أو معامل إنتاج المعادن التي أكدتها موني خلال دراستها[٣٠]. كما توجد في الطابق الأوسط من القسم العلوي الشمالي بناية ضخمة طولها (١٦) متر وعرضها (٨) أمتار، وهي ملتصقة بالقسم السفلي عبر ممر ضيق ومنعرج، ومن المؤكد أن تكون بناية السلطان وأسرته وبعض أعوانه. وأخيرًا، في الطابق العلوي، يوجد فضاء صغير نفترض أنه مخصص لصنع السلاح والقذائف والبارود والبنادق المستعملة ضد الهجومات.

عمومًا، لقد لعب القصر دورًا مهمًا في إطفاء شعلة عصيان جزولة المناصرين للمرابطين من جهة ومراقبة عبور القوافل التجارية من ناحية أخرى، حيث تقع المعلمة الأثرية على محور تمدولت- نول لمطة الذي سيصبح بعد عصيان محمد أمركال خلال (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، تمدولت- تكاوست محورًا تجاريًا قويًا[٣١]. كما استطاع أصحاب السلطة بالقصر الاستفادة من الضرائب المفروضة على القوافل التجارية العابرة للواحات المدروسة في اتجاه الصحراء.

وبحكم الموقع الاستراتيجي للقصر فإنه اطلع بمهام وأدوار متعددة خلال العصر الوسيط منها: مراقبة العبور خاصةً الطريق الرابطة بين تمدولت بالمواقع الغربية لدرعة ونول لمطة وتكاوست عبر إفران الأطلس الصغير بواسطة أبراج للمراقبة الخارجية منها برج أدرار سراس وأدرار ادوطاطاس. وكذا الطريق المتجه جنوبًا نحو أوليل غربًا ووادان شرقًا، عبر تيندوف وزمور وإيجليل وصولا إلى أوداغوشت وتمبكتو، حيث كان النشاط التجاري في بلاد الواحات خلال الفترة الوسيطية يعتمد على تجارة المعادن والملح والزراعة..، وهذا ما يفسر قوة المرابطين في السيطرة على هذه المجتمعات الواحية الصحراوية اجتماعيًا، اقتصاديًا، وسياسيًا وعسكريًا. إلى جانب هذا، لعب قصر **تيڭمي أوڭليد** خلال المرحلة الموحدية دورًا مهمًا في استقبال الخلفاء الموحدين أثناء الحملات العسكرية أو خلال زياراتهم لواحات تغجيجت وواد نون والتي أسفرت في التحكم على مناحي المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالواحات وبالأطلس الصغير[٣٢].

خَاتِمَةٌ

يكتسيـ موضـوع القصـور بواحـات تغجيجـت وواد نـون والصـحراء عمومًـا، أهميـة بالغـة في دراسـة التـاريخ الاجتمـاعي والثقافي للواحات منذ العصور القديمة إلى المرحلة الراهنة من جهـة. كمـا يعكـس المراحـل التاريخيـة لتطـور المجتمـع الـواحي الصحراوي، فهو أكبر مؤشر عن وجود البقايا المادية الشاهدة على مختلف الأحداث التاريخية والاجتماعية المرتبطة بالعمارة الواحية الصحراوية من جهة ثانية.

عمومًا، يمكن اعتبار المعلمة الأثرية "تيڭمي أوڭليد" من بين القصـور الصـحراوية الفخمـة والمواقـع التاريخيـة والتجاريـة القديمـة. فهـي جانـب مـن العمـارة المشـيدة بالحجـارة[٣٣] بـدل الـتراب المـدكوك، الشيـء الـذي سـاهم في بقائهـا قائمـة ومتماسـكة تقـاوم الظـروف الطبيعيـة والمناخيـة لقـرون مـن الزمن وطريقة البناء الاحترافية، حيث يظهر لنا ذلك من خلال البناء الصخري المنظم للسور الخارجي والداخلي للقصر.

وتجدر الإشارة، أن إشكالية التأريخ لقصر **تيڭمي أوڭليد** مازالـت مطروحـة إلى حـدود السـاعة. ففـي غيـاب أبحـاث أركيولوجيـة معمقـة وشـاملة، فإننـا لا يمكـن الحسـم في الكرونولوجيـة التاريخيـة لهـذه المعلمـة الأثريـة. فـإلى جانـب الـروايات الشـفوية المحليـة والمصـادر المكتوبـة والأبحـاث الأركيولوجية السابقة، فقد طرح خلال السنوات الأخيرة نقاش معـرفي حـول ارتبـاط القصـر بفـترة اسـتقرار اليهـود بواحـات تغجيجـت خاصـة بواحـة تيخـبرين. فـإلى أي حـد يسـتقيم هـذا الطـرح؟ إذن، إن الاعتمـاد عـلى معيار المقارنـة بـين خصوصـيات العمارة المحلية والرسمية أمر صعب للغاية، حيث يطالها أحيانًا تأويلات خاطئة. لهـذا يبقـي الاجتهـاد العلمـي لتـأريخ المعلمـة مفتوحًـا في وجـه البـاحثين، في انتظـار وثـائق تاريخيـة وأعـراف محليـة أو أبحـاث أثريـة شـاملة ومعمقـة والـتي سـتكون مفتاحًـا أساسـيًا لفـك العديـد مـن القضـايا الشـائكة والمتضـاربة حـول تاريخ القصر السلطاني "**تيڭمي أوڭليد**" بواحة تغجيجت.

الملاحق (الصور والأشكال)



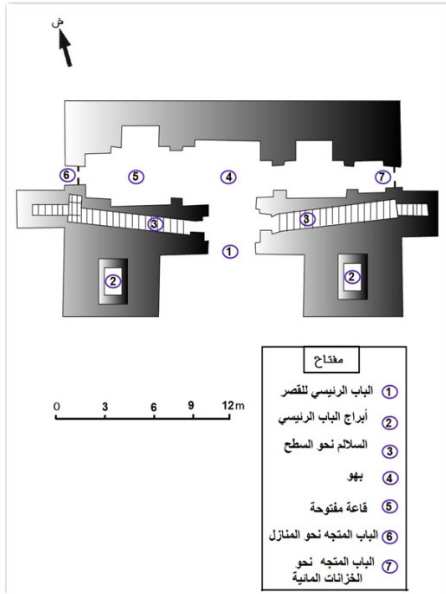
المدخل الرئيس للقصر



الباب الخلفي للقصر



مخطط قصر تيڴي أوڴليد



التصميم الخاص للمدخل الرئيس



الخزانات المائية للقصر"تنوطفين"



بقايا مساكن وغرف داخل القصر



الصهريج المائي للقصر



نماذج من القطع الفخارية المزخرفة والعادية



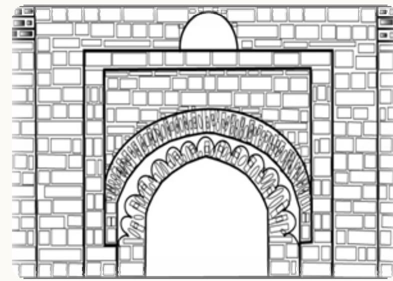


مقتطفات من الحفريات الأثرية المنجزة من طرف البعثة الاسبانية المغربية **بتيكّمي أوكّليد** سنة ٢٠٠٥





الأشكال الهندسية المتواجدة بعقود وقبب القصر





البوابة الرئيسة للقصر: الصورة والشكل الهندسي

الاحالات المرجعية:

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة القصر، ج ٦، المطبعة المصرية، مصر، ١٣٠٠هـ/ ١٨٧٧م، ص ٤١١.

(٢) أحمد مولود أيده الهلال، **مدن موريتانيا العتيقة: قصور ولاتة وودان وتشيت وشنقيط**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص ٣٥.

(3) Nadir Marouf, **Eléments d'analyse des ksour, espèces maghrébin pratiques enjeux**, acte colloque de taghit 23-26 Novembre 1987, ENAG, éd. Algérie 1989, p 85.

(4) R, capot Rey, **Greniers domestique et grenier fortifies au Sahara le cas de Gourara**, travaux de l'institut de recherches sahariennes, T 14, 1956, p 1151.

(5) L, leluraux, **Le Sahara, ses oasis, instruction de Léon carrée**, édition Bacouier, Alger, 1934, p 47.

(٦) عبد العزيز بنعبد الله، **سوس بوابة الصحراء (سوس الأقصى وسوس الأدنى: المغرب كله)**، بدون طبعة ودار النشر، ٢٠٠٤، ص ٣٧١.

(٧) محمد أيت حمزة، **مادة القصر**، معلمة المغرب، ج ١٩، ص ٦١٣٨-٦١٣٩.

(٨) معلمة المغرب الأقصى، **مادة أنواع السكن بالصحراء**، ج، ٢٦، ملحق ٣، دار الأمان الرباط، ط ١، ٢٠١٤، ص ٦٢-٦٣.

(٩) محمد أمراني علوي، **القصور بالجنوب المغربي**، مجلة المناهل، ع ٨٨، يناير ٢٠١١، ص ٢١٣.

(10) Patrice Cressier, **Dar al-sultan, les confins de l'empire almohade**, dossier d'archéologie, N° 365, 2013, p 28.

(11) Ricard Prosper, **Une forteresse maghrébine de l'Anti-Atlas (XIIe siècle)**, dans IV(e) Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes d'Afrique du Nord, Alger, 1939, p 641-650.

(12) Ricard Prosper, **op.cit**, p 642.

(١٣) انظر **معلمة المغرب الأقصى**، ج ٤، ص ١١٢٧.

(١٤) مصطفى ناعمي، **مادة تاغاجيجت**، معلمة المغرب، ج ٦، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا ١٩٩٢، ص ٢٠٦٩.

(15) Jacques Meunier, **Le Maroc Saharien Des Origines Au XVI siècle**, vol 1, 1982 p 277.

(16) Ibid., p ١٢٥.

(17) De la reulle, **Les Tekna Berbérophones du haut oued Seyed les id Brahim et leurs tributaires**, C.H.E.A.M, université de Paris, N457, 1941. p 4.

(18) Lévi-Provençal Evariste, **L'histoire des Almohades**, Paris, 1928, p 194.

(19) Alfred Le chatelier, **Tribus du sud Ouest marocain Basins côtiers entre Sous et Draa**, Parais, 1891, p 75.

(٢٠) استنتاجات توصلت إليها الحفريات الأثرية التي قام بها فريق مشترك مغربي إسباني في علوم الآثار والتراث تحت إشراف الأستاذ يوسف بوكبوط على امتداد مجرى واد نون خلال السنوات الماضية.

(21) Patrice Cressier, op.cit., p 643.

(٢٢) حسن حافظي علوي، **واحات بلاد المغرب من القرن ٤هـ / ١٠م إلى القرن ٨هـ / ١٤م**، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ، ج ٢، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ٢٠٠٤-٢٠٠٥م، ص ٢٠٢.

(٢٣) أبي بكر الصنهاجي (البيدق)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية**، ص ٧٢.

(٢٤) تم تأكيد هذه المعلومة خلال عملنا الميداني أثناء إنجاز الرفوعات الهندسية بالقصر.

(٢٥) رواية شفوية ح، م، ٦٥ سنة، واحة تغجيجت، أبريل ٢٠١٤.

(٢٦) يرى ابن خلدون أن الأسوار تعد شرطا ضروريا لإقامة المدن والقصور وهو يوازي اختيار الموقع المرتفع بوفرة الماء. للمزيد من التفاصيل انظر: عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، (المقدمة)، مكتبة المدارس، دار الكتاب بيروت، ١٩٦١، ص ٦١٧.

(٢٧) لبنى زبير، **الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين (٩١٦-١٠١٩هـ/ ١٥١٠-١٦٥٩م)**، دار الأمان الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٦، ص ٢١٢.

(٢٨) مينة المغاري، **مدينة موكادور-السويرة: دراسة تاريخية وأثرية**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ص٤٩٧.

(٢٩) يؤكد الأستاذ عبد الله فيلي أن صناعة الفخار تكون بالقرب من سور المدينة أو خارجه لكونها صناعة ملوثة. انظر، عبد الله فيلي، عز الدين كرا، **معطيات أثرية حول المجال العمراني لمدينة أزمور في العصر الوسيط**، ندوة أعمال أزمور: حاضرة دكالة، جامعة شعيب الدكالي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة أعمال وحدات التكوين والبحث، ع ٣، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٨٣.

(30) Jaques Meunier, **op.cit.**, p 125.

(٣١) الجماعة القروية تغجيجت، **التشخيص التشاركي المجالي**، ٢٠٠٩، ص 65.

(٣٢) الجماعة القروية تغجيجت، **المرجع السابق**، ص 66-65.

(٣٣) عبد العزيز توري، **العمارة المغربية مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور**، مجلة المناهل ع ٧٣-٧٤، وزارة الثقافة المغربية، ذو الحجة ١٤٢٥ الموافق فبراير ٢٠٠٥، ص٢٥.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

نماذج من حواضر المغرب المندثرة خلال العصر الوسيط
من خلال المصادر والمراجع



رشيدة الشانك
باحثة في سلك الدكتوراه
جامعة ابن طفيل – القنيطرة
المملكة المغربية

مُلَخّصْ

غالبًا الحديث عن مدن العصر الوسيط، يرتبط في ذهن العديد من القُرّاء والدارسين، بالمدن التي استمر إشعاعها وتجددت أدوارها، مثل فاس، مراكش الرباط مكناس، وتتجاهل المدن التي كان مصيرها التدهور والتحول إلى أطلال ورسوم، أم مدفونة تحت التراب لا نعرف حتى موقعها كما هو الشأن بالنسبة لبعض المدن المغربية (البصرة، تمدولت، حجر النسر، نول لمطة، تدغة، زكندر، المدينة الغربية، داي، تيط، غساسة، تيكساس، لمزنة، واللائحة طويلة. الاهتمام بالمدن المندثرة، هو اهتمام بالمدينة الوسيطية بصفة عامة، والمدينة المندرسة بصفة خاصة، هو قراءة في الأدب الجغرافي الحافل بأسماء مدن لم تعدّ على الخريطة، مما جعلنا نطرح مجموعة من الأسئلة سنحاول الإجابة عنها. ففيما يتعلق بدراسة المدن الوسيطية المندثرة، لا نجد مؤلفات خاصة مباشرة بهذا الموضوع، رغم ظهور بعض الدراسات المونوغرافية، كما هو الشأن بالنسبة، لسجلماسة، أغمات، مدغرة، لهذا سأهدف من خلال هذه الدراسة، الحديث عن اختفاء بعض مدن العصر الوسيط واندثارها، والعوامل المتحكمة فيها. من خلال سرد نماذج من مدن اختفت وخربت رغم أنها ومن خلال المصادر كانت تتميز بغناها وبكثافتها السكانية. فحين ندرس هذه المدن المندثرة كما قال المؤرخ محمد زنيبر نعترف أن الزمن فعل فعلته. وللإحاطة بالموضوع رغم قلة المادة المصدرية المتعلقة بخراب المدن واندثارها، حاولنا البحث في هذا الموضوع، معتمدين على المنهج الشمولي، ومن خلاله طرحنا كإشكالية للبحث: أسباب اختفاء هذه المدن رغم أهميتها، ثم أهم الاستنتاجات في ضوء نتائج البحث، عن ضرورة إعادة كتابة تاريخ هذه المدن المندرسة، واللجوء إلى التنقيب الأثري والبحث الإركيولوجي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٤ سبتمبر ٢٠٢٠
تـاريخ قبــول النشــر: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

مدن العصر الوسيط؛ مندثرة؛ داي؛ نول لمطة؛ البصرة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.202108

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رشيدة الشانك، **"نماذج من حواضر المغرب المندثرة خلال العصر الوسيط من خلال المصادر والمراجع"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٣٠ – ٣٦.

Corresponding author: rachidaechanik2016@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

الذي لم يندثر خبره لم ينته أمره، مدن اندثرت ولكن ظلت خالدة في كتب التاريخ. لعبت أدوارًا هامة في تاريخ المغرب: كسجلماسة البصرة نول لمطة بادس، داي، غساسة، تامدولت. مقالي هذا محاولة لدراسة مدينة المغرب الوسيطية، وخاصةً تلك التي اندثرت، لكن نصادف اسمها في كتب التاريخ والجغرافيا، الرحلات، كتب المناقب والأنساب، وفي معطيات الكتابات على النقود أو المباني، في المرويات الشفوية، الآن ولسوء الحظ لا تحمل أسماءها الخرائط الحديثة. مدن اندثرت أو أصبحت مجرد أطلال أو مطمورة تحت التراب. مقالي هذا سيهدف إلى التعريف بتاريخ مدننا خاصة المندثرة التي لعبت أدوارا في فترات هامة من تاريخ المغرب كمدينة داي، البصرة، ونول لمطة. معتمدين على منهج علمي لم نخرج عليه في عملنا هذا وهو: النهج التاريخي المعتمد على الوصف التعريف ثم التحليل والتركيب، باعتبارها الآليات الكفيلة بدراسة هذا الموضوع.

قبل الحديث عن خراب بعض مدن المغرب الوسيط، يتفق الجميع على أن المغرب عرف حركة عمرانية مهمة مع الدول الكبرى التي حكمته: الأدارسة، المرابطين الموحدين والمرينيين، رغم المشاكل السياسة والأخطار الخارجية (حروب، فتن، وكوارث طبيعية) ولكن العديد من هذه المدن لم تستمر، هل لأنها أي "المدن المندثرة" لم تحترم الشروط الضرورية التي يجب أخدها بعين الاعتبار عند تأسيس المدن؟ "أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها."[١] أو ما حدده ابن خلدون في إطار جلب المنافع ودفع المضار "فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعًا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك من في الممتع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحرأو نهر بها،"[٢] أو كانت هناك عوامل أخرى متداخلة ساهمت في تراجعها أو في تحولها إلى مجرد بقايا وأطلال أو مدفونة تحت التراب. بل أحيانًا أخرى لا نعرف حتى موقعها."[٣]

وفي إطار البحث واستقراء المراجع التي تناولت موضوع الخراب واندثار مدن العصر الوسيط، حاولنا طرح عدة تساؤلات: عن اختفاء بعض مدن العصر الوسيط وخرابها بالمغرب؟ مظاهر هذا الخراب؟ وتحديد أسبابه ونتائجه؟

أولاً: مدن المغرب المندرسة في العصر الوسيط

قليلة هي الدراسات التي اهتمت بموضوع اندثار المدن في تاريخ المغرب_ فقط نجد إشارات متناثرة وقليلة لا تشفي غليلنا في المصادر التاريخية والجغرافية، ويتم غالبًا الحديث عن هذه المدن في إطار الحديث عن السلاطين وما أحدثوه من بناء أو تدمير. فأثناء قراءة للمصادر الوسيطية نلاحظ بعض الإشارات لمدن خربت أو استأصلها الحكام، أو أقاموا مدنا على حساب مدن أخرى أو أن إهمالها أدى إلى تراجعها. هذه المدن تجعلنا نسأل عن أسباب ازدهار الحركة العمرانية في العصر الوسيط؟ ثم لماذا اندثرت هذه المدن الوسيطية؟ كسجلماسة، أغمات، نول لمطة، البصرة، داي، نكور المزنة، بادس.

المادة المصدرية المتعلقة بخراب المدن، هي فقط مجرد إشارات بسيطة عن حصار مدينة، سقوطها أو دمارها مثلاً "الآن أصبحت خرابًا "كانت وأصبحت خرابًا".. بدون تفسير أسباب هذا الخراب ومظاهره، فالمصادر الوسيطية تتحدث عن المدن في سياق حديثها عن أحداث وصراعات سياسية خاضتها دول المغرب في العصر الوسيط، وبالتالي يصعب تحديد كيفيات الخراب الذي لحق بالمدن، ومظاهره والوسائل التي سخرت في الأعمال التخريبية، وكيف تم استئصال بعض المدن؟ في المقابل تركز المصادر على بعض المدن وحصارها وما لحقها من تدمير، وخاصةً الحواضر الكبرى "كراسي الملك" حصار مراكش وفاس ومكناس من طرف الموحدين مثلاً، والتدمير الكبير الذي لحق المدينة ومعاناة الساكنة من جراء طول الحصار. بينما تدمير نكور من طرف يوسف بن تاشفين، لم يزد عن جملة واحدة "وفتح مدينة نكور وخربها ولم تعمر بعد"[٤].

ملاحظة أخرى كذلك، وجود أسماء مدن في المصادر الجغرافية اختفت الآن ولا نعرف سبب اختفائها ولا حتى موقعها، مذكورة في المصادر في حكم "المفقودة "لا نعلم مكانها فكيف نعرف سبب اختفائها، فمحقق كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"[٥] أحمد التوفيق يشير إلى عبارة "لم نتمكن من تحديد موقعها"[٦] أو لم يعدّ لها ذكر عند أهل تلك البلاد. ففي حديثه عن نفيس يشير "هي منقرضة الآن "وقد أعي الباحثين التخمين في تحديد موقعها انطلاقًا من النصوص"[٧] ونفس العبارة نصادفها كذلك مع محقق كتاب "الروض الهتون"، مؤرخ المملكة عبد الوهاب بن منصور، حين حديثه عن بعض المواقع القديمة. وهذا يجعل العمل صعبًا فهل نعلم اليوم مكان مدينة ازقور حتى نعرف هل الماء كان سبب اختفائها!!

إشكالية أخرى وهي المصادر التي تعرضت لانعكاسات الهجرة الهلالية والمعقلية على مدن المغرب الأقصى في العصر الوسيط، وما ألحقته هذه القبائل من دمار وفوضى وفساد ونهب، وما ساهمت فيه من تهجير قسري لساكنة بعض المناطق بشمال إفريقيا، مصادر فيها نوع من المبالغة وحتى التحامل، وفي المقابل استهانت بما خلفته هذه القبائل على الحضارة المغربية وحصرت التأثير في تعريب المنطقة فقط، هذه المصادر يجب التعامل معها بنوع من الحيطة والحذر عند استيفاء مادتها الخبرية والاستفادة مما أوردته من أخبار متعلقة بموضوع دراستنا.

ومن الدراسات التي تساءلت عن اختفاء بعض المدن الوسيطية المنجمية مقال للأستاذ الموساوي العجلاوي معنون بـ "تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب (٢هـ-٧هـ/٨م-١٣م) أشار إلى اختفاء مدينة تذغة المنجمية وبعض الفرضيات عن سبب اختفائها يفسر ذلك "فالفرشة المائية المستعملة في منجم ايمضر تصب عبر الخطارة في واد أقا معدن، نظرًا لحمولته القوية من مادة الزرنيخ كما دلت على ذلك التحليلات المختبرية للفرشة المائية لمنجم ايمضر، وربما يكون الزرنيخ سببًا من أسباب محتملة لاختفاء مدينة تدغة المذكورة في النصوص العربية القديمة."[٨]

ثانيًا: نماذج من المدن المندثرة

٢/١-مدينة" داي" ضحية العنف الموحدي

ثورة مدينة "داي"[٩]: من بين الانتفاضات التي أهملت المصادر ذكرها، انتفاضة حصلت بمدينة "داي" من المدن الهامة التي ذكرها البكري "حصن داي وهو في وسط غيضة كبيرة من أجناس الشجر ولهم سوق حافلة يجتمع فيها رفاق فاس والبصرة وسجلماسة بضروب الأمتعة[١٠] وذكر خيراتها الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق "مدينة النحاس والقطن "ومن مدينة اغمات مع الشرق والشمال إلى مدينتي داي وتادلة أربعة أيام وبين داي وتادلة مرحلة ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها وهو نحاس حلو لونه إلى البياض"[١١] وفي الصفحة نفسها يشير مدينة داي صغيرة لكنها كثيرة العامر والقوافل عليها صادرة وواردة ويزرع بها وبأرضها كثير القطن"[١٢].

وعند صاحب روض المعطار "بينها وبين أغمات أربعة أيام، وبين داي وتادلة مرحلة، وداي في أسفل جبل خارج من جبل درن، وبها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس في أقطار الأرض ولونه الى البياض، هي مدينة صغيرة كثيرة العامر، والقوافل عليها واردة وصادرة ويزرع فيها القطن الكثير"[١٣] ويشير المستشرق Gauthier في مقال نشر سنة ١٩٢٦م في مجلة هيسبيريس بعنوان مدينة "أوداي" أي مدينة اليهودي"[١٤] وكانت داي من قواعد منطقة تادلا ذكرها البكري والادريسي والحميري وهي مدينة صومعة في بني ملال."[١٥] حسب محقق كتاب "التشوف إلى رجال التصوف "أحمد التوفيق، تمت الإشارة إلى أن تادلا قاعدتها مدينة داي مذكورة في كتب أوصاف البلدان والمسالك على أنها مستخرج معدن النحاس ومزرعة القطن وملتقى الرفاق الحاملين للسلع من جميع الافاق."[١٦]

احتضنت نشاطًا صوفيًا مبكرًا وحسب بعض المصادر أرسل القاضي عياض قاضيًا إلى داي بعد فشل ثورته بسبتة سنة (٥٤٣هـ-١١٤٩م)"[١٧]، وأكره صوفي يدعى أبا يعقوب بن علي المؤذن على ولاية الحسبة ببلد داي (٥٤٣هـ-١١٤٩م)"[١٨]. تزعم الثورة في "داي" ثائر يدعى "عتاب"[١٩] واعتمادًا على إشارتين انفرد بهما ابن الزيات التادلي في التشوف "قيل إنه يطلب الملك فقتل وطلب أصحابه"[٢٠]. اندلعت الثورة، في بداية عهد يوسف بن عبد المؤمن، وبالضبط سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م) ويعتبر الزيات المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الشخصية الذي يكتنفها غموض كبير رغم أنه ثائر ارتبط اسمه بتخريب داي، فقد تجاهلته كتب المناقب والقليل المتوفر يصفه أنه زعيم قبلي أعلن ثورته في داي "لطلب الملك" بمساندة قبائل المنطقة[٢١].

يُعَدّ الأستاذ أحمد التوفيق، هو أول مَنْ نبه إلى أهمية الإشارة إلى عتاب في تحقيقه للتشوف ورجح أن يكون لحركة عتاب سند من العصبية، وقبائل تادلا مرشحة لها "فقبائل المنطقة كلها صنهاجية وليست من المصامدة الذين أيدوا الموحدين[٢٢]"، وقد أشير كذلك إلى ما عُرف من كراهة أهل "داي" لنحلة الموحدين وخروجهم عليهم المرة تلو المرة وذلك ما يفهم من تكرار فتح تادلا وداي. وابن القطان في نظم الجمان يبين ذلك" وفي ستة وعشرين وخمسمائة تحرك رضي الله عنه إلى داي مرة ثانية ورد سرية إلى بلد هزرجة وهم غافلون فقتلهم قتلاً ذريعا"[٢٣]. وقد جلا والده (والد صاحب التشوف) حسب محقق الكتاب عن مدينة داي"[٢٤] يوم جلا عنها أهلها وتشتتوا في البلدان"[٢٥] وكان ذلك سنة تسع وخمسين وخمسمائة أي السنة الموالية لوفاة عبد المؤمن بن علي، ويبدو أن عددًا من التادليين نزلوا جانب الشرقي من مدينة مراكش بعد النكبة"[٢٦]، وفي الجزء الخاص بأبي العباس السبتي" ثم طرأ

على أهل داي ما طرأ من الجلاء من بلدهم وافتراقهم في البلاد عام تسعة وخمسين وخمسمائة[٢٧].

فتدمير داي سنة (٥٥٩هـ/١١٦٤م)، بعد سنة واحدة من وفاة عبد المومن هو رسالة لكل المناطق التي تفكر في الخروج عن طاعة الموحدين، ودرسا لِمَنْ يتجرأ على دولتهم ورسالة مفادها أن الدولة ما تزال قوية، رغم وفاة عبد المومن بن علي (٥٥٨هـ/١١٦٣م). غير أن ما يستشف من مختلف المصادر التاريخية هو أن السنتين المواليتين لوفاة عبد المؤمن يحيط بهما غموض لشدة الاضطرابات وتوالي المؤامرات حتى من طرف أبناء عبد المومن أنفسهم، بحيث لم يبايع أبو يعقوب يوسف بيعة الجماعة إلا يوم الجمعة ثامن ربيع الأول عام (٥٦٠هـ/١١٦٥م)، فخراب مدينة داي إذن حكمته ظروف خاصة جدًا ارتبطت بمصير السلطة الموحدية الفتية.

٢/٢-مدينة البصرة من التأسيس إلى الخراب

(٢/٢) ١-البصرة (التسمية والتأسيس)

البصرة تعني الحجر الأبيض، وقيل أرض فلان بصرة تعني الطين العلك الجيد مما يفيد أن بالمنطقة تربة جيدة، والبصرة"[٢٨] مدينة مغربية وتسمية البصرة المغربية على غرار مدينة البصرة المشرقية يطرح العديد من التساؤلات التي لم تحاول المصادر المكتوبة الإجابة عنها، إلا أن الوزان يورد إشارة مقتضبة في هذا الصدد فيقول: "وسميت بالبصرة تذكيرًا ببصرة بلاد العرب"[٢٩]، فهو نوع إذن من الالتزام من طرف المغاربة – حسب الأستاذ محمد بن تاويت- "نحو الشرق وخاصة العراق بما فيه البصرتان."[٣٠] مدينة البصرة كانت حاضرة بقوة في كتب الجغرافية الوسيطية لمكانتها السياسية ولأهميتها الاقتصادية وتشير هذه النصوص لإمكانياتها المتنوعة، فهي المدينة المقتصدة "عليها سور ليس بالمنيع ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسير من شرقيها ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى افريقية وغيرها"[٣١]، وهي من مدن كور السوس الأدنى "حسب المقدسي"[٣٢]

عن مؤهلات البصرة كتب البكري: "البصرة مدينة كبيرة واسعة، وهي أوسع تلك النواحي مرعا وضرعا، ولكثرة ألبانها سميت ببصرة الدبان وتعرف أيضا ببصرة الكتان، كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجارتهم بالكتان وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة..."[٣٣] وهي على "تل صغير يشرف على نهرين أحدهما في الغرب والأخر في الشرق وهي كثيرة المياه إلا أن ماءها زعاق."[٣٤] المعلومات نفسها تقريبا نجدها عند صاحب "الروض المعطار" الذي يشير إلى موقعها بين طنجة وفاس من أرض المغرب ليميزها عن بصرة المشرق فهي –حسب هذا الأخير- "أوسع تلك النواحي مرعى وأكثرها زرعا ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الدبان وتعرف ببصرة الكتان، وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة."[٣٥]

وحول تأسيس المدينة تجمع المصادر التاريخية على أن البصرة أسست على عهد الأدارسة"[٣٦] دون أن تحدد لنا بالضبط في عهد أي أمير إدريسي تم الأمر، وهنا نجد اختلافًا بين مختلف المصادر فمنها من أكد قيامها في عهد إدريس الثاني ودليل أصحاب هذا الرأي ما عثر عليه من دراهم يعود تاريخ سكها لعهد إدريس الثاني ضربت بالمدينة، في حين حدد الوزان تأسيسها سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م) وعلى يد محمد بن إدريس"[٣٧]، ومن المرجح أن يكون الرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب لوجود الدليل المادي، وأيضًا لكونها دخلت في التقسيم الذي قام به إدريس بين إخوته.

إذن فمدينة البصرة شيدت بعد مدينة فاس، والتي كانت تعرف صراعات بين عدوتيها عدوة القيروان -التي تقطن بها قبائل البربر- وسكان عدوة الأندلسيين– حيث يقطن المهاجرون من قرطبة-"[٣٨]، ومن غير المستبعد أن يكون إدريس الثاني قد فكر في تشييد مدينة بعيدة عن فاس تكون بمثابة مدينة خلفية تفد عليها حاشية الإمام في أوقات الشدة والرخاء كمدينة استجمامية، وهذا ما قد يستفاد من إشارة كل من الوزان ومارمو لكربخال. ذلك أنه من "عادة ملوك فاس أن يذهبوا إليها لقضاء الصيف بسبب برودة المياه والغابات، ولأنها من أحسن أماكن الصيد لكنها دمرها الخليفة المذكور (القائم الشيعي)".[٣٩]

(٢/٢) ٢-انهيار وخراب البصرة

أغلب ما كتب عن خراب البصرة ربط تهديمها بالصراعات السياسة بين الأمراء الأدارسة وبين خصومهم من العبيديين والأمويين والمكناسيين"[٤٠]، فقد شن المكناسيون بزعامة موسى بن أبي العافية عدة حملات ضد الأدارسة في فاس والبصرة وحجر النسر، حيث هدفوا إلى استئصالهم فأجلوهم عن مدنهم الكبرى كفاس والبصرة، إذ بعدما استولى ابن أبي عافية على فاس وأعمال المغرب"[٤١] سنة ٣١٣هـ اتخذ الأدارسة من مدينة البصرة عاصمة لفلولهم إلا أن هذه الأخيرة ليست - حصينة ولا منيعة- ففر الناجون منهم إلى الريف وحجر النسر. إن ضعف تحصين المدينة جعلها فريسة سهلة لعمليات التخريب الناتجة عن حملات أعداء الإمارة الإدريسية ومنافسيها على شرعية الحكم ببلاد المغرب، فكان أن تعرضت

للخراب حسب صاحب البيان على يد أبي الفتوح يوسف بن زيري الصنهاجي أمير إفريقيا، والذي رحل بجنوده منها بعد تخريبها إلى بلاد برغواطة."[٤٢]

تشير أغلب المصادر التي تناولت الحديث عن مدينة البصرة، أنها لم تكن تتوفر على موارد مائية عذبة، "لها مياه عن خارجها من عيون وبساتين"[٤٣] كما أن "ماء المدينة زعاق... وخارجها في جنانها عيون كثيرة وآبار عذبة"[٤٤]، وجود الماء خارج المدينة كان يشكل تهديدًا لها أمام أي حصار خارجي. عمومًا لم يبق من المدينة اليوم بعد اندراسها –حسب أحد الدارسين- "سوى الأطلال المهدمة من السور الذي كان يحيط بالمدينة وهذا الجزء من السور، يمتد من الغرب إلى الشرق أي من المنطقة العليا نسبيا إلى المنطقة المنخفضة حسب ما كشف عنه آخر بحث أثري."[٤٥]

٣/٢-نول لمطة مدينة القوافل

(٣/٢) ١-نول لمطة في المصادر الوسيطية

رغم جهلنا التام لتاريخ وظروف نشأة هذه العاصمة التجارية، فإن موقعها الاستراتيجي" كآخر مدن الإسلام"[٤٦] و"المدينة كبيرة في أول الصحراء نول لمطة"[٤٧] أما صاحب الاستبصار "أول بلاد الصحراء على نهر كبير يصب في البحر المحيط"[٤٨] أهلها موقعها لاحتلال مكانة تاريخية هامة، اقتصاديا وسياسيا خلال الفترة المرابطية، تشهد وفرة الأنقاض على أن المدينة كانت تشمل حيزا هاما ربما قريتي أسرير وتيغمرت"[٤٩]، (وإنما سميت نون لمطة لأن قبيل لمطة يسكنونها، وماؤها جار، وهي آخر بلاد سوس)[٥٠]. تعتبر من أهم العواصم الإفريقية التاريخية بعد مدينة سجلماسة ذات الشهرة العالمية، كانت أزهى أيامها مع المرابطين، حيث عرفت بوصول يحيى بن عمر رخاء وسعة لم تعرفهما من قبل، لكن مع الموحدين أشارت المصادر إلى الانتقام العنيف لعبد المومن حيث قام بإنزال أشد عقاب بمدينة نول لمطة وسكانها، فالمدينة أبدت في بداية العهد الموحدي مقاومة كبيرة وتصدت لهجمات الموحدين، كما كثرت ثورات سكانها عليهم وقد ورد في أخبار المهدي بن تومرت رسالة إلى القبائل الأمازيغية الصحراوية والمتمردة يهددهم قائلاً "ويل لأهل سوس وجيرانهم جزولة ولمطة..."[٥١]، وفي إشارة أخرى فكانت الضغينة تخرج من بلاد نول لمطة"[٥٢].

(٣/٢) ٢-عقاب مدينة نول لمطة

عاشت هذه المنطقة أسوأ حالاتها مع الموحدين، حيت لم تخضع إلا بعد مقاومة شديدة، وقد قام عبد المومن بإنزال أشد العقاب بمدينة نول لمطة"[٥٣] وسكانها، عقابا لهم على وفائهم للمرابطين الذين كانت علاقتهم باللمطيين وثيقة، خاصةً حين نعلم مكانة وكاك بن زلو اللمطي ومرجعيته الأساسية في تأسيس الدولة المرابطية، لهذا كان عقاب الموحدين قويا "شوهدت نساؤهم وقطعانهم وهي تباع على أبواب مراكش"[٥٤]. هكذا انتقل جزء هام من سكان المدينة على إثر الهزيمة أمام الموحدين إلى حيث أسسوا مدينة تكاوست، التي عرفت ازدهارًا كبيرًا خاصةً بعد تحول الطرق الداخلية نحو السواحل، إلا أن ازدهارها لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما ظهر مركز آخر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي استرعى انتباه التجار ويتعلق الأمر بمدينة كلميم[٥٥].

خَاتِمَةٌ

بعد اطلاعنا على ما تيسر من المصادر التاريخية، التي أشارت إلى أسماء مدن لم نعد نسمع بها الآن وهي شبه مجهولة من العامة، خلصنا إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها فيما يلي:

- من خلال دراستنا للمصادر العربية الوسيطية: يتوفر المغرب الأقصى على العديد من المدن القديمة التي اندثرت ولم يعد لها وجود، وقد احتفظت المصادر العربية بأسماء العديد منها كنور، وبادس، ومدن أخرى بقيت على شكل أطلال وأثار شاهدة على حقبة تاريخية معينة من تاريخ المغرب مثل وليلي وشالة، ثم هناك مدن استطاعت أن تتطور مع مرور الزمن بل وتفرض نفسها اليوم وبالأخص المدن الساحلية كطنجة وسبتة والتي ساعدتها الظروف الطبيعية على الاستمرار والتجديد.
- كم هائل من المدن المندثرة يفرض علينا طرح تساؤلات جوهرية وأساسية حول المصير الذي انتهت إليه، وحول زوال الحياة الحضرية وتلاشي التمدن من مواقع هي اليوم إما بقايا خراب أو مطمورة تحت التراب غساسة، المزنة، الغريبة...فكتب الجغرافيا تشير وتقدم لنا العديد من المعلومات المفيدة ولكن موجزة عن الطرق أو المسالك التي تربط بين المدن: يورد لنا البكري عددا من أسماء المدن بين سبتة وفاس اندثرت معظمها اليوم، ويشير إلى غناها وخصبها وتجارتها من سبتة إلى دمنة عشيرة مذكورة مرحلة، ومنها إلى موضع يعرف بالكنيسة، (...) فمنتيامن إلى أفتيس وهي مدينة صالحة كثيرة الخير. ولكن هذه المدن غالبا لا يعرف سبب اختفائها أو اندثارها بل حتى لا يعرف

مكانها الآن، هي أسماء ظلت فقط مسجلة ومؤرخة في الكتب.. ذكره لهذه المدن يعني وجود كثافة سكانية مهمة ونشاط اقتصادي وازدهار عمراني، فمن خلال كتب الجغرافية يمكننا جس نبض المغرب في فترات مختلفة من تاريخه الاقتصادي والاجتماعي.

- مدن مخلدة في كتب التاريخ والجغرافيا في حكم المفقودة، غير معروف مكانها بالتحديد.. كأقلام زقور حجر النسر. ماسة وبالتالي يطرح ذلك إشكاليات كبرى أننا نبحث عن شيء وسط المفقود مثلا هل نحن نعلم اليوم مكان مدينة أفتيس كي نعرف سبب اختفائها.
- دعوة لإعادة كتابة تاريخ مدننا خاصة المدن المندثرة التي لعبت أدوارًا في فترات هامة من تاريخ المغرب البصرة، تامدولت، نول لمطة، طيط، حجر النسر واللائحة طويلة.
- الاهتمام بالمدن المندثرة من شأنه أن يبين حجم المجهودات التي ما تزال تنتظر الأثريين إن أردنا أن نكون فكرة عامة عن التمدين في الفترة الوسيطية، خاصة أن المعطيات التاريخية والجغرافية تشجع ذلك، حيث حددت أسماء مدن مندثرة التي هي حلقة ضمن حلقات مفقودة في تاريخ العصر الوسيط وملف كبير مطروح أمام البحث الأركيولوجي المغربي، ليعيد قراءة تاريخ بعض المدن المندثرة.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن ابي الزرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، طبعة دار المنصور، الرباط ١٩٧٢، ص٣٣.

(٢) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مراجعة سهيل ركاز، ج٢، دار الفكر بيروت ١٩٨٣، ص٦١٧-٦٢٨.

(٣) أبو يعقوب يوسف يحيى التادلي ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٢، الطبعة الأولى الرباط ١٤٠٤/١٩٨٤م مقدمة المحقق من صفحة ٥ إلى صفحة ٣٠.

(٤) ابن أبي الزرع، **روض القرطاس**، مس، ص١٤٣

(٥) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، إحالة ٢٨، ص ٩٠

(٦) ابن الزيات، **التشوف الى رجال التصوف**، إحالة١٤٨، ص١٣١

(٧) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، إحالة ٢٨، ص٩٠،

(٨) الموساوي العجلاوي، **تقنيات استخراج المياه الباطنية، من مناجم الفضة**، (٥٢_٥٧/٥٨_١٣م) ندوة الماء في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم١١، دجنبر ١٩٩٦

(٩) مدينة قديمة بوسط المغرب، اندثرت وقامت على أنقاضها مدينة بني ملال الحالية والمعروف عند الرحالة والمؤرخين العرب في تسميتها أنها مثل "داء"وزنا ومعنى، لما عرفت به من تعدد الأمراض لكثرة ما بها من عيون وشلالات وما يتبع ذلك من مستنقعات، أما عن تاريخ المدينة فالمشهور أنها من إنشاء المرابطين، في القرن الخامس(١١م) المصادر تارة على أنها حصن وتارة على أنها مدينة. كانت لها شهرة واسعة في العصر الوسيط قـ١١م /١٢م، بعد هذا التاريخ اختفى اسم المدينة التي عاشت كحاضرة لتادلا نحو مائة وسبعين سنة، وعن نهاية مدينة داي يحددها نص التشوف يقول: أنه طرأ على أهلها في هذه السنة ٥٥٩هـ١١٦٣م ما طرأ وافترقوا في البلدان، ومن المؤرخين من أرجع هذا التدمير إلى العهد الموحدي ٥٥٩هـ، مادة (داي) محمد حجي، **معلمة المغرب**، ج١٢، مطابع سلا ١٤٢١هـ_٢٠٠٠م، ص ٣٩٥٤.

(١٠) **المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري، الجزء الخاص ببلاد المغرب**، دراسة وتحقيق زينب الهكاري، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص٢٧٦

(١١) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في احتراق الأفاق، الجزء الأول، المجلد الأول**، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ٢١٨

(١٢) المرجع نفسه، ص٢٤١

(١٣) محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه الدكتور إحسان عباس، طبع على مطابع هيدلبرغ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤، ص٢٣١.

(14) GAUTIER ER) Madinat _Oudia in Hesperis , 1926 t.4 pp.5-25

(١٥) معلمة المغرب، مدينة داي، الجزء ١٢

(١٦) ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، ص١٩.

(١٧) المغراوي محمد، **الموحدون وأزمات المجتمع**، منشورات جذور، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ص٣٩.

(١٨) ابن الزيات، **التشوفإلى رجال التصوف**، ص١٦٨.

(١٩) ثائر ارتبط اسمه بثورة الموحدين، أدت إلى تخريب داي. ورغم ذلك فلم يرد ذكره إلا عند ابن الزيات التادلي في إشارات عرضية لذلك لا نستطيع تحديد اسمه الكامل ولا ملامح شخصيته على وجه الدقة. قام عتاب بانتفاضة ضد الدولة الموحدية في بداية عهد يوسف بن عبد المؤمن، وبالضبط ٥٥٩هـ_١١٦٤مانطلاقا من مدينة داي التي كانت مركزا صوفيا نشيطا، وأدت هذه الانتفاضة إلى قيام الموحدين بمطاردة "أشياخ المريدين بسبب ما نسب إلى عتاب حتى قيل إنه يطلب الملك فقتل وطلب أصحابه، **مادة (عتاب)** محمد المغراوي، **معلمة المغرب، الجزء١٨**، مطابع سلا ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٥٩٧٣-٥٩٧٤. ابن الزيات ، التشوف إلى رجال التصوف، ص ٣٩٥-٤٠٢.

(٢٠) ابن الزيات، **التشوفإلى رجال التصوف**، ص٣٩٥.

(٢١) محمد المغراوي، **الموحدين وأزمات المجتمع**، ص٣٨.

(٢٢) ابن الزيات، **التشوفإلى رجال التصوف**، مقدمة المحقق، ص٢٠.

(٢٣) ابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار زمان**، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي الطبعة الثانية، ص٦٨.

(٢٤) ابن الزيات **التشوف، إلى رجال التصوف**، ص ١٣٤، الحميري، **روض المعطار**، ص٢٣١.

(٢٥) الحميري، **روض المعطار**، ص٢٣١.

(٢٦) الحميري، **روض المعطار**، م.س، ص٢٠.

(٢٧) الحميري، **روض المعطار**، م.س، ص٤١٦.

(٢٨) مدينة البصرة جوار الطريق الحالي الرابط بين مدينتي سوق الأربعاء ووزان، وقد بنيت هذه المدينة في موقع مناسب وسط أراضي زراعية واسعة، وقرب واد امضى الذي يجري خارج سورها الغربي في حين امتد الوادي منبسطا شمال شرقها لينفتح على حوض لوكس، والمتأمل لموقعها سيدرك مزاياه الطبيعية والاقتصادية والبشرية، فإليه يعود الفضل في وجودها وازدهارها طيلة العصر الوسيط "قدور أحمد **المعمورة والبصرة: دراسة مقارنة**، ضمن الندوة الوطنية تحت عنوان **قصبة المهدية تراث ومؤهلات**، أيام ٢٢و٢٣ أبريل ٢٠٠٣، ك، آ.ع.إ، القنيطرة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٦، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م، ص٣٨.

(٢٩) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر وآخرون ج١ ص١٢٠.

(٣٠) محمد بن تاويت، **المغرب ودول الخليج عبر التاريخ الإسلامي**، مجلة المناهل، العدد ٢٧، سنة ١٩٨٣، ص١٠٦.

(٣١) أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، مدينة ليدن مطبعة بريل سنة ١٩٢٨، ص٨١.

(٣٢) المقدسي المعروف بالبشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**، الناشر مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٥٩.

(٣٣) البكري، **المسالك والممالك**، م، س، ص٢١٨.

(٣٤) أبي عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، ص١١٠.

(٣٥) الحميري، **روض المعطار**، مصدر سابق، ص١٠٨.

(٣٦) **مادة (البصرة)** أحمد شرقاوي اقبال، **معلمة المغرب، ج٤**، مطابع سلا، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٢٠٤-١٢٥٥.

(٣٧) الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، ص٢٤٠.

(٣٨) أبي عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، مكتبة المثنى بغداد، ص١١٦، محمود اسماعيل **الأدارسة في المغرب الأقصى حقائق جديدة**، ١٧٢هـ/٣٧٥هـ، مكتبة الفلاح، ١٩٨٩م/١٤٠٩، ص١٠٥.

(٣٩) مارمول كربخال، **أفريقيا**، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الجزء الثاني، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، ص١٩٦.

(٤٠) **مادة "البصرة" معلمة المغرب**، أحمد الشرقاوي إقبال، ج٤، مطابع سلا ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٢٥٥.

(٤١) علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي، **الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية**، مطبعة الشباب بمصر، ١٣٤٩هـ، ص٧٧، البكري، **المسالك والممالك**، م س، ص١٢٦.

(٤٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق، كولان وليفي بروفنصال، ج١، دار الثقافة بيروت لبنان، ط٣، ١٩٨٣م، ص٢٣٥.

(٤٣) ابن حوقل، **صورة الأرض**، مصدر سابق، ص٨١.

(٤٤) البكري، **المسالك والممالك**، مصدر سابق، ص٢١٨.

(٤٥) امليد محمد، **المدن الادريسية منذ أواخر القرن الثاني إلى نهاية القرن الرابع الهجريين**، دراسة تحليلية تركيبية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، السنة الجامعية، ١٩٩٧-١٩٩٨ص١٤٠.

(٤٦) البكري، المصدر السابق، ص١٦١.

(٤٧) الحميري، **روض المعطار**، ص٥٨٤.

(٤٨) مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م. ص٢١٢

(٤٩) ناعمي مصطفى، **الصحراء من خلال بلاد تكنة: تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**، منشورات عكاظ الرباط، ١٩٨٨، ص٧٨

(٥٠) الحميري، **روض المعطار**، ص٥٨٤.

(٥١) البيدق أبو بكر الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط ١٩٧١، ص٦٧.

(٥٢) ابن أبي الزرع، **روض القرطاس**، ص٢١٧.

(٥٣) مدينة بوابة الصحراء أهم محطة طرق القوافل التجارية العابرة من المغرب إلى العمق الإفريقي، ما كان يسمى سلفاً ببلاد السودان، قال عنها البكري "ومدينة نول آخر مدن الإسلام وأول العمران من الصحراء وتسير السفن من ساحل نول إلى واد السوس ثلاثة أيام ونهرها يصب في البحر المحيط، ومن مدينة نول إلى وادي درعة ثلاث مراحل "_" أن قرية أسرير القريبة من مدينة كلميم بنيت على أنقاض مدينة نول لمطة "إحالة محققة **المسالك والممالك لابي عبيد البكري الجزء الخاص ببلاد المغرب**، زينب الهكاري، ص١٨٨. ناعمي مصطفى **الصحراء من خلال بلاد تكنة**، ص٨٠-٨١-٨٤.

(٥٤) قد يكون التاريخ التقريبي هو ١١٤٥م، كما أشار ناعمي مصطفى في مؤلفه **الصحراء من خلال بلاد تكنة** ص٨٧.

(55) Amri Lahoucine**Pouvoir_Réligion et Société_Etude Anthropologique du Phénoméne de la Zaouia au Maroc_le cas de Tazerwalt**_thése de doctorat-Paris, 1988. p145.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

ملامحٌ من التَصوُراتِ المَذهَبية في شَرقِ أَفرِيقيا خلال العَصرِ الوَسيط
المذهبان الشافعي والإباضي أُنموذجًا

د. إسماعيل حامد إسماعيل علي



أستاذ جامعي
باحث في تاريخ أفريقيا الوسيط
القاهرة – جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

يرصد هذا المقال ملامح من التصورات المذهبية والفكرية التي ذاعت في شرق أفريقيا خلال 'العصر الوسيط' لاسيما فيما يرتبط بكل من المذهبين الشافعي والإباضي اللّذين يُعتبران من أكثر المذاهب الدينية التي انتشرت في هذه المنطقة من القارة الأفريقية خلال تلك الفترة، وكذلك من خلال التنوع الفكري، وكذا التناقض المنهجي بين المذهبين، ما بين الغلو والشطط الفكري من جانبٍ، والاعتدال والوسطية من جانبٍ آخر. وشهدت تلك المنطقةُ قدوم العديد من الهجرات العربية والإسلامية، مُتنوعة المذاهب، والمشارب الفكرية، والدينية، وكذلك الإثنية منذ ظهور الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب، ما بين مُهاجرين من العرب، والفرس، وكذلك الهنود، وغيرهم من الإثنيات الأخرى. ولعل هذا التنوع العرقي لهؤلاء المهاجرين المسلمين كان مما زاد من فكرة التنوع الفكري والمذهبي الذي ذاع في العديد من مناطق شرق أفريقيا بصفة عامة، ومن ثم كان أكثر تلك المذاهب انتشارًا بين المسلمين في هذه البلاد كلٌ من المذهب الإباضي، والمذهب الشافعي على وجه التحديد. ويحاول المقال رصد هذين المذهبين، وذيوعهما، وأثرهما الفكري في شرق أفريقيا، وكيف كانت العلاقة بين أتباعهما، وذلك باستخدام منهج البحث والتحليل التاريخي الذي يقومُ عبر نقد، وتحليل الروايات المصدرية، ومقارنتها بالروايات الأخرى. وقد أشارت هذه الدراسةُ إلى أن المذهب الشافعي كان الأكثر انتشارًا بين كل مذاهب أهل السنة في بلاد شرق أفريقيا جنوبي البحر الأحمر، وفي أكثر الممالك والإمارات الأفريقية الواقعة على المحيط الهندي بصفة عامة. كما أكدت الدراسةُ على أن أتباع المذهب الشافعي كانوا من أصحاب المناهج الدينية المعتدلة، وهم أصحاب المذهب الوسطي، وهم أصحاب منهج ومذهب معتدل بصفة عامة، وأن العديد من المصادر التاريخية أثنت عليهم، وعلى حسن دينهم، وصلاحهم، واحترامهم للآخر.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٨	سبتمبر	٢٠٢٠
تـاريخ قبـــول النشـــر:	١٦	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المذاهب الفكرية؛ الخوارج؛ المذهب الإباضي؛ شرق أفريقيا؛ بلاد الزنج؛ المذهب الشافعي؛ بلاد الزيلع

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.202109

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إسماعيل حامد إسماعيل علي. "ملامحٌ من التَصوُراتِ المَذهَبية في شَرقِ أفريقيا خلال العَصرِ الوَسيط: المذهبان الشافعي والإباضي أُنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٣٧ – ٤٨.

Corresponding author: ismailhamedd@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

يتناول المقال لمحاتٍ من التصورات، والأفكار، والأيديولوجيات المذهبية التي ذاعت بين سكان شرق أفريقيا، امتدادًا من مناطق الساحل الغربي للبحر الأحمر، والقرن الأفريقي، وحتى ساحل شرق أفريقيا المعروف باسم "بلاد الزنج" التي كانت مقصدًا للعديد من الهجرات عبر التاريخ خاصة بعد الإسلام حيث وفدت عليها هجرات عربية وإسلامية من شتى البقاع لاسيما من "جزيرة العرب"، ومن فارس، والهند، وغيرها من بلاد جنوب شرق آسيا، ومن ثَمَّ سادت العديدُ من المذاهب الدينية والفكرية في هذه البلاد. وسوف يُركز هذا المقال على المذهبين "الشافعي" و"الإباضي" اللذين كانا لهما تواجدٌ واضحٌ بين غالبية السكان هناك، ومع وجود انحسار واضح للمذهب المالكي عكس ما ذاع في شمال أفريقيا، والسودان الغربي. وترجع أهميةُ المقال من خلال تناول المذهبين "الشافعي" و"الإباضي" لاسيما مع بروز اختلاف التصور والاتجاه الفكري الخاص بهما، فـ"المذهب الشافعي" من المذاهب الإسلامية المُعتبرة التي تميل للوسطية، دون تكلف، أو غُلو، بينما "المذهب الإباضي" يُعد أحد فروع أيديولوجية "الخوارج" بما يحمله من مظاهر الغلو الفكري والديني. ولعل من أبرز الدراسات السابقة التي ترتبط بفكرة هذا المقال: عبد الرحمن محمد علي شمس الدين: جهود علماء شرق أفريقيا في خدمة مذهب الإمام الشافعي، مجلة العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، عددا، اكتوبر ٢٠١٩م، وهي دراسة مهمة، لكنها اقتصرت على الحديث عن جوانب تخص المذهب الشافعي، ودور علماء المذهب في ذلك. وكذلك يرتبط بتلك الدراسة: أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن ٦هـ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨م، لا سيما من خلال الارتباط المذهبي بين شرق أفريقيا وبلاد اليمن، وجزيرة العرب.

أولاً: الخوارج

١/١-أصلهم ونشأتهم وفرقهم

يُطلق اسمُ "الخوارج" على أول الفرق التي ظهرت فيما يبدو في تاريخ الإسلام[١]، ولعل أول ما بدأ من فكر الغُلو والتطرف الذي ارتبط بهم كان في خلافة "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه (٣٥-٤٠هـ)، لما خرجت عليه طائفةٌ يوم "صفين" سنة ٣٧هـ في أيام "الفتنة الكبرى" التي وقعت بعد النبي (ﷺ)[٢]. إذ اعترض هؤلاء على "التحكيم" التي وافق عليها الإمام علي بن أبي طالب مع الفريق الآخر الذي كان يقوده الصحابي "مُعاوية بن أبي سفيان"، وقالت الخوارج آنذاك: "لا حُكم إلا لله"[٣]. ولم يكتف "الخوارج" بذلك الموقف، وخروجهم من جيش الإمام علي بن أبي طالب، بل إنهم اتهموه بالكُفر، ثم دبروا قتله على يد أحدهم، ويُدعى "عبد الرحمن بن ملجَم المُرادي"، لما كان الإمامُ علي يُنادي على الناس لصلاة الفجر سنة ٤٠هـ[٤]. وغالى أتباعُ هذه الفرقة، وكانت لهم أفكارٌ مُتطرفة، تُغلفها عصبية الفكر الأُحادي، وبرز ذلك لاسيما من خلال ما يُعرف عنهم بالتزيد في "تكفير من لا يُوافقهم" في أفكارهم، ومنهجهم، وربما يكفي لإدراك ذلك القول بأنهم كفَّروا كبار الصحابة، ومن ثم لم يكن من المُستغرب أن يُخرج العلماءُ من اشتط منهم، وعدوهم من غُلاة الخارجين عن الدين[٥].

وتعددت فرقُ "الخوارج"، وطوائفهم، وقيل إنهم كانوا يبلغون قرابة "عشرين" فرقة[٦]، وحاول البعضُ أن يُحصي أعدادهم، وقالوا إن أهم فرقهم: المُحكِمة الأُولى، والأزارقة، والصُفرية، والعجاردة، وقد افترق منها: فرق الخازمية، والشعيبية، والمعلومية، والمجهولية، وأصحاب "طاعة لايُراد الله بها"، والصلتية، والأخنسية، والشبيبة، والشيبانية، والمعبدية، والرشيدية، والمكرمية، والحمزية، والشمراخية، والإبراهيمية، والواقفة، وكذلك "الإباضية"، وهي من أشهر فرق الخوارج، وافترقت الأخيرةُ (أي: الإباضية) لفرقتين: الحفصية، والحارثية[٧]، ومنها اليزيدية، وهم من الإباضية، والميمونية من "العجاردة"، قال عنهم البغدادي: "فإنهما فرقتان من غُلاة الكُفر الخارجين عن فرق الأُمة"[٨]. ويذهب البعضُ الآخر إلى أن "الخوارج" أطلقوا على أنفُسهم تلك التسمية انطلاقًا من الآية: "ربنا أخرِجنا من هذه القَريةِ الظَالمِ أهلُها"، وهو ما يدلُ في رأي البعض على فكرة أساسية لديهم، وهي اعتزالهم كافة الفرق التي أضرمت نيران الفتنة بين الصحابة[٩]. ويرى الباحثُ أن هذا الرأي لا يتسقُ البتة مع فكر "الخوارج"، إذ إنهم كانوا سببًا رئيسًا في وقوع "الفتنة"، وهم من أضرموا نيرانها، وشقوا صفوف المسلمين آنذاك.

والراجح أنهم دُعوا بـ"الخوارج" لدى غالبية أهل الإسلام، لأنهم خرجوا عن "الملة الوسطية" التي يدعو لها الإسلام بسبب غلوهم[١٠]. وقد اختلف أهلُ العلم فيما يجمع تلك الفرق العديدة من "الخوارج" على اختلاف مذاهبهم، ومشاربهم. فالبعضُ يذكر أن الذي يجمعهم تكفير علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، و"الحكمين"، وأصحاب "يوم الجمل"، كما أنهم كفروا من رضي بتحكيم الحكمين، وقالوا بـ"تكفير كل من يرتكب

الذنوب"، وكذا يدعون الناس لوجوب الخروج على الإمام الجائر[١١]، ومنهم من يُحرم طعام "أهل الكتاب"، ومنهم من "يُوجب القضاء على من نام في نهار رمضان، ثم احتلم في نومه"[١٢]. ومنهم من يزعم أنه "لا صلاةٌ واجبةٌ على المسلم، إلا ركعة واحدة صباحًا، وركعة أُخرى بالعشي"، ومنهم من يرى "أن أداء مناسك الحج يجوز القيام بها في جميع شهور السنة"[١٣]، وزعمت طوائف "أن أهل النار في لذة ونعيم، وكذلك أهل الجنة"[١٤]. ولاريب أن أكثر أفكارهم شاذة، وتحمل الكثير من الزيغ، وتُخالف ما هو معلومٌ من ثوابت الدين. وعلى هذا ضل "الخوارج" في أفكارهم، حتى أُخرج بعضُهم عن الدين بسبب إفراطهم في "الراديكالية" الفكرية، وقالوا أقوالاً تُعارض ما ورد القرآن صراحة[١٥]. ولعل من أكثر ما يعيب فكر "الخوارج" بجانب شططهم، أنهم لا يقبلون بالرأي أو الفكر الآخر، فإما أن تكون معهم، وعلى منهجهم، أو تكون من أهل الكُفر والضلال في زعمهم، وهو تضييق لسعة الإسلام، وتسامحه المعروف مع الآخر، وهو ما أساء لهذا الدين الحنيف بسبب ذلك.

٢/١-فرقة الإباضية

تُعَدّ "الإباضية" من أكثر فرق "الخوارج" انتشارًا في العالم الإسلامي، وكانوا أكثرهم هجرة وتأثيرًا، وأجمع "الإباضية" على القول بإمامة "عبد الله بن إباض"[١٦]، وقد كانت له مكانةٌ كبيرة لديهم، ولهذا حملوا اسمه، وسُموا بـ"الإباضية"، وهو من أتباع "نافع بن الأزرق" (ت: ٦٥هـ/٦٨٥م)، وهذا الأخير كان زعيم فرقة "الأزارقة"، ومن اللافت أن "ابن إباض" كان قد ترك شيخه بسبب غلوه[١٧]. وكان ظهور "ابن إباض" أيام "مروان بن محمد" (ت: ١٣٢هـ) آخر خلفاء بني أمية (٤٠-١٣٢هـ)[١٨]. وافترق "الإباضية" لعدة فرق أُخرى، لكن يجمعهم القول بأن كُفار هذه الأمة، وهم من يخالفهم، برآء من الشرك والإيمان، وأنهم ليسوا بمؤمنين ولا مُشركين، ولكنهم كفارٌ، وقد حرموا دماءهم في السر، واستحلوها في العلن، ويزعمون أن هؤلاء "المُخالفين" لهم محاربون لله ورسوله، وأنهم لا يدينون بدين الحق[١٩]. وعن أفكارهم، وغلوهم، يقول ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ): "وشاهدنا الإباضية عندنا بالأندلس يُحرمون طعام أهل الكتاب، ويُحرمون أكل قضيب التيس، والثور، والكبش، ويُوجبون القضاء على من نام نهارًا في رمضان، ثم احتلم.."[٢٠].

ومع هذا الغلو، يرى البعضُ أن عقيدة "الإباضية" فيها ما يتفق لحد ما مع العقيدة الصحيحة[٢١]. وينسب البعضُ لهم بعض المآثر في تاريخ الإسلام، ومنها القول بأنهم أول من دون "الحديث الشريف"[٢٢]. ولا ينكر أحد دور الخوارج "الإباضية" في نشر الإسلام في شرق وغرب أفريقيا، وهو ما لا يمكن غض الطرف عنه رغم كل شيء. وانقسم "الإباضية" بدورهم لأربع فرق: الحفصية، والحارثية، وأصحاب طاعة لا يُراد الله بها، واليزيدية[٢٣]. وهذه الأخيرة يجعلها البعضُ من غُلاة الخوارج "لقولهم بنسخ شريعة الإسلام في آخر الزمان"[٢٤]. ولعل ارتباط المذهب الإباضي بأرض عُمان، وانتشاره بكثرة في هذه البلاد[٢٥] ويرجع ذلك إلى أن أحد مؤسسي المذهب، وهو "جابر بن زيد"، المكني بـ"أبي الشعثاء" ولد في "نزوى" بعُمان سنة ٢١هـ/٦٤٢م[٢٦]. وجابر هو معلم "ابن إباض"، وقد اشتُهر "ابن إباض" بإخلاصه في الدفاع عن أفكار وآراء معلمه[٢٧]. وعن العلاقة بين الإباضية وعُمان، يقول القزويني: "عُمان: كورةٌ على ساحل بحر اليمن.. بها اجتماع الخوارج الإباضية في زماننا، وليس بها من غير هذا المذهب إلا غريب، وهم أتباع عبد الله بن إباض"[٢٨]. ورغم ذلك عُرف المذهب بـ"بن إباض"، وليس معلمه. ويحاول البعضُ إظهار "الإباضية" بأنهم الأقرب لأهل السنة من سائر فرق الخوارج، ومن ثم القول بأنهم لا يتهمون المُخالفين بكُفر الملة صراحةً، بل يرونهم كُفارًا بالنعم والأحكام، وينبذون العنف، ولا يبدأون بالعدوان، ولا يستحلون أموال مخالفيهم، ولا قتل ذراريهم[٢٩]. ويُؤمن "الإباضيةُ" بالمبدأ المعروف بـ"التقية الدينية" لتفادي بطش الحُكام، واستبدادهم بهم، وهم يدعون لأفكارهم دون إشارة، ولا رغبة في المواجهة مع الحكام وولاة الأمر، وهم في ذلك الأمر يبدون أكثر حذرًا من غيرهم من فرق "الخوارج"، ومن ثم فلديهم ما يُطلق عليه "إمامة الكِتمان"، وهي فكرةٌ ترتبط بسرية الدعوة لديهم، لأن الجهر بها قد يحمل الكثير من الأخطار على أتباع المذهب، فإذا تمكن لهم الأمرُ، أعلنوا "إمامة الظهور"، ومن ثم يصير إمامُهم معروفًا للكافة، سواءً "الإباضية"، أم غيرهم[٣٠].

ثانيًا: هجرات الإباضية المُبكرة إلى شرق أفريقيا

يبدو أن غلو أكثر فرق "الخوارج" في فكرهم كان سببًا رئيسًا في أن يتعرضوا لبطش الحُكام الذين كانوا يرون فيهم خطرًا داهمًا يُهدد كيان دولة المسلمين، خاصة مع ميلهم لإثارة الفوضى، ورغبتهم دومًا في الخُروج على الحكام، وُولاة الأمر[٣١]. ومن المعلوم أن "الخوارج" كانوا قد أعلنوا بوضوحٍ العداء لحكام "الدولة الأُموية" (٤٠-١٣٢هـ)، واعتبروهم مُغتصبين للسلطة، وأثاروا خلال تلك الحقبة القلاقل والفتن في أطراف دولة الأمويين[٣٢]، وكانت "عُمان" أحد المواطن الرئيسة لهذا الفكر، إذ اعتنق أكثر السكان أفكارهم[٣٣]. وعلى هذا اشتهر العُمانيون

بـ"الثورات" ضـد حُكـام بـني أميـة، واتبعـوا ذات الـنهج ضـد بـني العباس (١٣٢-٦٥٦هـ)[٣٤]. وهو ما يؤكد أن فكرة التمرد والفوضى ترتبط دومًا بـ"الخوارج"، فالعباسيون كان يختلفون في منهجهم، وفكرهم عن بني أمية، ومع ذلك تعامل "الخوارج" معهما بذات الطريقة، وهي المعارضة.

١/٢-هجرة أُسرة الجُلَندي إلى شرق أفريقيا (٦٥هـ/٦٨٤م)

قـام "الإباضـية" بالعديـد مـن الثـورات وحركـات التمـرد في العديد من بلاد العالم الإسلامي، سواء في المشرق، أم في بلاد المغرب، وشمال أفريقيا ضد الأُمويين[٣٥]، وكان من أشهر تلك الثورات التي قاموا بها تلك التي كانت ضد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ)، وتزعم الثورة سُليمان وأخوه سعيد، وهم من بني عباد الجلندي[٣٦]، وهم من عرب "الأزد" اليمنيين الذين هاجروا لعُمان[٣٧]، ولذا اشتهروا بـ"أزد عمان". ثم أرسل الخليفة جيشًا كبيرًا للقضاء على ثورة الإباضية، وهو ما اضطر أبناء الجلندي للهروب لساحل شرق أفريقيا سنة ٦٥هـ[٣٨]. وتُعد هذه الهجرة من أقدم "الهجرات الإباضية" إلى أفريقيا. ويبدو أن "الجلنديين" كانوا من القوة إذ استطاعوا أن يقيموا دولة إباضية في عُمان سـنة ١٣٢هـ[٣٩]، وهـي ذات السـنة الـتي سـقطت فيهـا الدولـة الأُموية، ثم قامت على أنقاضها الدولة العباسية، ولعل إباضيو عُمان استغلوا تلك الفترة، وما شهدته من عدم الاستقرار. ثم قدمت جماعات بني الجلندي لساحل شرق أفريقيا المعروف بـ"بر الزنج"، أو بلاد الزنج[٤٠] للخلاص بحياتهم، ولا نعلم تحديدًا المكان الـذي نزلـوا فيـه في البدايـة، لكـن يُعتقـد أنهـم نزلـوا في "أرخبيـل لامـو"، ويقـال أيضًا إنهـم نزلـوا "حـدبو" الـتي أسسـها "الإباضيـة" شمال "ممباسا"[٤١] (كينيا حاليًا). ويُشير البعضُ إلى أن تأسيس "باتـة" يرجـع لحـوالي سـنة ٦٩هــ/٦٨٩م[٤٢]. وهـو مـا يتفـقُ مـع الهجرات "الإباضية" لهذه البلاد، وهو ما يعني أن استقرارهم في شرق أفريقيا يؤرخ للنصف الثاني من القرن الأول الهجـري (٧م). ولـنكن أكـثر إنصـافًا، فـلا سـبيل لإنكـار دور هـؤلاء "الجلنـديين" الإباضية في نشر الإسلام في شرق أفريقيا منذ القرون الهجرية الأُولى[٤٣]. وجدير بالذكر أن "العُمانيين" كانوا من أكثر الجماعات العربيـة الـتي لعبـت دورًا في تجـارة المحـيط الهنـدي، وازدهـار التجـارة بـين "جزيـرة العـرب" و"شرق أفريقيـا"، كمـا قـاموا بالوسـاطة التجاريـة بـين شرق أفريقيـا، وأسـواق جنـوب شرق آسيا[٤٤]. ويؤيـد ذلك أن أحد الأساطيل التي خرجت من موانئ عُمان، ثم اتجهت إلى شرق أفريقيا، وكان أسطولاً كبيرًا جدًا، إذ بلغت عدد السفن به نحو ألف سفينة[٤٥]. ورغم أن تلك الإشارة ربمـا تحمـلُ بعـض المبالغـة، إلا أنهـا تؤكـد في ذات الآن قـوة النشـاط التُجـاري الـذي قـام بـه العُمـانيون في سـاحل أفريقيـا الشرقي. ولاريب أن وجود أُسر عربية حاكمة في ممالك الساحل الأفريقـي الشرـقي خاصـة مـن جانـب جماعـات مـن "الإباضـية" ساهم لحد كبير في تنشيط الحركة التجارية في هذه البلاد[٤٦].

وأدى التواجد العربي وخاصة من جانب "العُمانيين" لحدوث اختلاط، وتصاهر، وكذا امتزاج حضاري وثقافي بين الشعوب والقبائل المحلية التي تقطن ساحل شرق أفريقيا من ناحية، والمهاجرين العُمانيين، وغيرهم من التُجار العرب والمسلمين من ناحية أخرى، كما أدى ذلك لظهور أنماط ثقافية وفكرية تُعبر عـن ذلـك المـزيج الفكـري والإثـني الـذي يجمـع بـين الثقـافتين: الأفريقيـة المحليـة والعربيـة الإسلامية الوافدة، وهما نمطان ثقافيان لهما أصولٌ وروافد فكرية متنوعة، وهو ما يبدو واضحًا فيمـا يُعـرف بــ"الثقافة السـواحلية"[٤٧]. كمـا ظهـرت "اللغـة السواحلية" نتيجة لذلك التلاقح والامتزاج الحضاري بين هاتين الثقافتين، وكانت هذه اللغة تُكتب بالحروف العربية، كما دخلتها العديد من الألفاظ العربية، وهذه اللغة ما تزال حتى الآن لغة أكثر الشعوب التي تقطن ساحل شرق أفريقيا[٤٨].

٢/٢-هجرة النبهانيين الإباضية إلى شرق أفريقيا

هاجرت جماعاتٌ عربية بزعامة الملك النبهـاني "سليمان بـن سليمان بـن مظفـر" بعـد سـقوط "الـدولة النبهـانية" في عُمان حوالـي سـنة ٦٠١هـ، وكـان مقصـدهم "جزيـرة باتـة" عـلى سـاحل شرق أفريقيـا، فلمـا وصـلوا هنـاك، وجـدوا بهـا خليطـًا بشريًا ومـذهبيًا مـن المسـلمين، وغـيرهم بالطبـع، لاسيما مـن جانـب العرب والفرس الذين سبقوهم في الهجرة لتلك المنطقة[٤٩]. ويبـدو أن ملـك "النبهـانيين" كـان يتمتـع بشخصـية آثـرة، حيـث استقبله العرب من قاطني تلك البلاد بحفاوة، واحترام يليق به، خاصـة وأن أكـثرهم كـانوا مـن ذوي الأصـل العُمـاني. ثـم تـزوج الملكُ "النبهاني" من ابنة حاكم هذه الجزيرة، واسمه: "إسحاق"، ثم تنازل الحاكم الأفريقي بعد ذلك عن العرش للنبهانيين، وعلى هـذا تأسسـت "الأُسرة النبهـانية" في شرق أفريقيـا الـتي امتـد نفوذها لأجزاء كبيرة من سواحل شرق أفريقيا، وقد دام ملكهم هناك حتى القرن ١٣هـ/١٩م[٥٠]. وكـان ملـك "النبهـانيين" في عُمـان إبان زيـارة ابـن بطوطـة (ت: ٧٧٩هـ) منتصـف القـرن ٨هـ/١٤م، يُـدعى "أبا محمد بـن نبهـان"، وهـو ملكٌ ينتسب لقبيلة الأزد[٥١]. وعلى أية حال كان أهل قلهات، وهم من إباضي عُمان آنذاك يـدينون بالـولاء والطـاعة لـ"ملك هُرمـز"، أي أنهـم لـم يكونـوا يتمتعون بالاستقلال التام في حكم أنفسهم حسب رواية ابن

بطوطة، ورغم أنهم من طوائف "الخوارج" المعروفين، "لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم، لأنهم تحت طاعة ملك هرمز"[٥٢].

٣/٢-الإباضية البُوسعَيدية واليعَاربة في شرق أفريقيا

وفدت العديدُ من الهجرات "الإباضية" العُمانية الأخرى مثل "البوسعيد" و"اليعاربة"، وهؤلاء المهاجرون قدموا إلى شرق أفريقيا، وساهموا بدورهم في إضافة العديد من التأثيرات الفكرية، والثقافية، وكذلك الحضارية في هذه البلاد التي هاجروا إليها، ويأتي في مقدمتها دور تلك الجماعات في نشر الإسلام، وكذلك التقاليد والثقافة العربية بين السكان المحليين في شرق أفريقيا[٥٣]. كما أنهم لعبوا دورًا مهمًا في صد الهجمات العدائية التي قام بها المستعمرون البرتغاليون على سواحل شرق أفريقيا والتي كان يُغلفها التعصب المسيحي بشكلٍ واضح في ذلك الوقت. وعلى هذا كان دور اليعاربة والبوسعيديين في شرق أفريقيا لاسيما على ساحل تنزانيا وزنجبار مهمًا في التأصيل الحضاري، وتأكيد الوجود العربي، والثقافة العربية، وكذلك تأكيد الوجود الفكري الخاص بـ"المذهب الإباضي" في هذه البلاد، والذي صار آنذاك في رأي الباحث أقل راديكالية وعدائية، مقارنةً بحال الإباضيين إبان الحقب الأخرى الغابرة.

ثالثًا: المذهب الشافعي في شرق أفريقيا

يُنسب "المذهب الشافعي" إلى الإمام: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع (الشافعي) (١٥٠–٢٠٤هـ)[٥٤]، المولود في غزة سنة ١٥٠هـ، وتوفي الشافعيُ بالقاهرة سنة ٢٠٤هـ[٥٥]. وقد حفظ الشافعي القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، ثم قرأ الموطأ على الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ) بالمدينة في العاشرة من عمره[٥٦]. ثم استقر في "بغداد"، وزار قبر "أبي حنيفة" (٨٠-١٥٠هـ)، وطاف الشافعي بالكثير من بلاد الإسلام لنشر العلم، ثم طاب له المُقام بمصر في آخر المطاف[٥٧]، حيث قدم الشافعي سنة ١٩٩هـ، وأقام بالقاهرة خلال المرحلة الأخيرة من حياته، وبقي بها حتى وفاته (٢٠٤هـ)، ثم دفن بالفسطاط[٥٨]، وقبر الشافعي معروف، والزيارة إليه تكاد لا تنقطع[٥٩]. وكان منهج الإمام الشافعي يقوم في الأساس على فكرة الاعتدال والوسطية في الدين، وكان منهجًا بعيدًا كل البعد عن التشدد، والغلو، ولهذا يقول: "إذا صح الحديثُ، فهو مذهبي.."[٦٠]. وقد أثنى العلماء على الإمام الشافعي، وفكره، ومنهجه في الفقه، حتى قال أحدهم: "ما رأيتُ مثل الشافعي، ولا رأى هو مثل نفسه.."[٦١]. ويُعتبر الشافعي أول من ألف في أصول الفقه، وفي أصول الحديث، وأول من ألف في أحكام القرآن[٦٢]. ويذكر الرازي أنهم كانوا قبل الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون، ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانونٌ كُلي مرجوع إليه في معرفة أدلة الشريعة، فاستنبط الشافعيُ علم أصول الفقه[٦٣].

٣/١-قُدوم المذهب الشافعي إلى شرق أفريقيا

كتب الله لفقه الشافعي، ومذهبه، أن ينتشر في شتى بلاد العالم الإسلامي لاسيما شرق أفريقيا، حيث انتشر "المذهب الشافعي" في العديد من المدن هناك، وصارت لهذا المذهب فيما يبدو في المصادر السيادة المذهبية في العديد من بقاع هذه البلاد على باقي المذاهب الأخرى[٦٤]. وربما كان من أسباب ذلك الوجود الواسع لـ"مذهب الشافعي" في شرق أفريقيا بفضل انتشاره في بلاد اليمن، وقد كان انتشار مذهبه هناك مرتبطًا فيما يبدو بقدوم الشافعي ذاته لهذه البلاد، حيث تبعه الكثيرون من أهل اليمن[٦٥]. ومن المعلوم أن اليمن كانت أكثر البلاد تأثيرًا مذهبيًا ودينيًا لاسيما في بلاد القرن الأفريقي، وأسهمت اليمنيون أكثر من غيرهم في انتشار الإسلام في هذه البلاد[٦٦]. وحسب ابن بطوطة، ساد مذهب الشافعي خلال القرن ٨هـ/١٤م في العديد من بلاد شرق أفريقيا، إذ كان المذهب منتشرًا في مقدشو، وكلوة، وممباسا[٦٧]، وغيرها من ممالك شرق أفريقيا[٦٨]. كما انتشر المذهب في بلاد الزيلع[٦٩] التي تُعد من أهم المناطق التي استقر بها هذا المذهب في شرق أفريقيا[٧٠]. وكانت غالبية السكان في تلك البلاد على المذهبين الحنفي والشافعي أكثر من غيرهما[٧١]. بينما كان مذهبُ مالك يكاد لا يكون له تواجد بشكل واضح مقارنة بحاله في شمال أفريقيا، وفي بلاد السودان الغربي والأوسط.

٣/٢-المذهب الشافعي في سودان وادي النيل

كان لمذهب الشافعي وجود ملحوظ في حوض النيل الأوسط، ويُقصد به أقاليم السودان الحالي، أو ما يُعرف بـ"سودان وادي النيل"، كما ذاع على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، حيث مال إليه سكان "سواكن"[٧٢]، وانتشر في "طوكر" شرق السودان، وربما يرجع ذلك بفضل الصلات التي جمعت بين سكان هذه المناطق التجارية مع جزيرة العرب. كما انتشر المذهب أيضًا في "مملكة الفونج"، أو "السلطنة السنارية" التي تأسست مع بدايات القرن ١٠هـ/١٦م بعد سقوط "مملكة عُلوة"[٧٣]. وقد انتشر المذهب الشافعي فيما يبدو على يد الشيخ "محمد بن قرم"، وهو الفقيه الشافعي المعروف الذي درس على يد "الخطيب الشربيني" (ت: ١٥٦٩/١٥٧٠م)، ثم جاء هذه الفقيه إلى سودان وادي النيل عام ١٥٦٣م، وبعد أن طاف بالكثير من البلاد استقر في "بربر"، وقام بنشر مذهب الشافعي هناك، وقد كان من تلاميذه: الشيخ "عبد الله العركي"، والفقيه

ابـراهيم الفـرضي، وكــذلك القــاضي الشــافعي المعــروف "دشين"[٧٤].

ويُشير البعضُ إلى أنه ربما وقعت بشكل أو بآخر بوادرٌ من التنـافس المـذهبي بـين أتبـاع كـل مـن "مـذهب الشـافعي" و"مذهب مالك" في سودان وادي النيل، وكانت الغلبة لـلمذهب المالكي، ويبدو أن سبب ذلك يرجعُ إلى أن أكثر المُهاجرين إلى سـودان وادي النيـل كـانوا مـن القبائـل والبطـون العربيـة الـتي وفدت مـن صـعيد مصـر، وكـان تـأثير "المـذهب المـالكي" هنـاك أقـوى مـن مـذهب الشـافعي[٧٥]. ورغـم ذلـك بقـي لـ"مذهب الشافعي" وجودٌ ملحوظٌ في بعض أقاليم سودان وادي النيل بصفة عامة، كما أن بعض المدن صار فيها "المذهب الشافعي" أقوى بشكلٍ واضح من المذاهب الأخرى لاسيما في سواكن، وطوكر، وحلفاية الملوك، وربما أربجي، وكذلك منطقة الجزيرة فيما بين النيلين الأزرق والأبيض[٧٦]. ولعل من الأدلة على ذلك، يقول "ود ضيف الله": "ثم قدم الشيخ محمد بن قرم بدار بربر، وأدخل فيها مـذهب الشافعي، وانتشر مذهبه في الجزيرة، ثـم قـدمت المشـايخة، وحطـت مدينـة الحلفايـة.."[٧٧]. وتشـير هـذه الرواية أيضًا لقوة مذهب الشافعي، وانتشاره في هذه البلاد. كمـا كـان للشـافعية قـاضٍ في سـودان وادي النيـل، وكـان مـن أشهرهم "القـاضي دشـين"، وهـو القاضي الشافعي المعروف، وكان يشتهر بين الناس بلقب "قاضي العدالة"[٧٨]، وهو المولود بمدينة "أربجي"[٧٩]، وهي المدينة التي أقامها العرب في "مملكة عُلوة" قبل سقوطها مع بدايات القرن ١٠هـ/١٦م[٨٠]. وعن انتشار "المذهب الشافعي" والمنافسة مع غيره من المذاهب الأخرى، في منـاطق سـودان وادي النيـل، يشـير الـدكتور يوسـف فضـل حسن إلى أنه المذهب الشافعي دخل السودان على يد الشيخ محمد بن علي بن قرم الشافعي المصري الذي زار كلًا مـن: سنار، وأربجي، وبربر، ثم اتخذ من الأخيرة مقامًا له، ومنها نشر بعض تلاميذه "المذهب الشافعي"، وإن لم يصيروا جميعًا من أتباع المـذهب، ومـن ثـم وقعـت نـوع مـن المنافسـة المذهبيـة بـين المذهبين الشافعي والمالكي، ثم انتهت بانتصار المالكية، ورغم ذلك ظلت منطقتا "سواكن" و"طوكر" على المذهب الشافعي حتى يومنا هذا[٨١]. وعلى أية حال نالت كُتب الشافعي، وكذلك الكتـب الـتي علـق فيهـا العلمـاء، وعملـوا شروحًـا لمصـنفات الشافعي في هذه البلاد، ومن أهم الكتب الشافعية التي راجت خـلال عصر مملكـة الفـونج: "منهـاج الطـالبين"، وهـو مـن أهـم المصنفات في الفقه الشـافعي" صنفه الإمـام "النـووي"، وكذلك ذاع كتاب "منهج الطُلاب" الذي ألفه زكريا بن محمد الأنصاري. إلخ، وغير ذلك من أمهات كتب الفقه الشافعي[٨٢].

٣/٣-ملامـحٌ مـن انتشـار المـذهب الشـافعي في سـاحل شرق أفريقيا

يجدُر القولُ من جانب آخر إن مذهب الشافعي انتشر بشكلٍ قوي في العديد من بلاد شرق أفريقيا، لاسيما المناطق التي تقع على السـاحل الجنـوبي للبحـر الأحمـر، وكـذلك عـلى سـواحل شرق أفريقيـا الـتي تطـل عـلى "المحـيط الهنـدي". ولاريـب أن مـذهب الشـافعي وجد في تلك البلاد بيئةً ملائمة لأتباعه، واتجاهاتهم الفكرية، والدينية، وهي التي سار عليه الإمام الشافعي في فهمه للدين، وطريقته في الفقه. ومن الواضح أن انتشار المذهب في شرق أفريقيا يرجع بشـكل لاريـب فيـه مـن خـلال الصـلات الـتي جمعـت بـين السـكان والشـعوب القاطنـة في هـذه الـبلاد مـن ناحية، وسكان اليمن وجزيرة العرب من ناحية أخرى، فلا شك أن التـأثيرات الفكريـة الوافـدة إلى سـواحل شرق أفريقيا كانت في المقـام الأول بفضـل ذلـك التجـاور الجغـرافي مـع بـلاد الحجـاز، والـيمن، وهـو مـا سـهل بـدوره انتقـال العديـد مـن التـأثيرات الفكريـة والمذهبيـة بـين الطـرفين[٨٣]. كما كان أحد روافد هذه التأثيرات الفكريـة والمذهبيـة مـن ناحيـة أخـرى بفضل التـأثيرات الوافـدة مـن مصـر الـتي سـاهمت بـدورها في انتشـار مـذهب الشـافعي، ثـم انتقلـت تلـك التـأثيرات بـدورها إلى العديـد مـن منـاطق شرق أفريقيـا، وكـان ذيـوع ذلـك التـأثير المـذهبي عـلى الـراجح عـبر منـاطق سـودان وادي النيـل والـتي كـان لهـا دور لا يُمكن إنكاره في انتشار "مذهب الشافعي إلى بلاد شرق أفريقيا، وسـواحل المحـيط الهنـدي الأفريقيـة، حيـث قـدم لتلـك الـبلاد العديـد مـن علمـاء وفقهـاء الأزهـر، وكـان مـنهم بالطبـع فقهـاء المذهب الشافعي، الذين عملوا على نشر هذا المذهب، ومن ثم انتقـل تـأثير علمـاء الشـافعية بعـد ذلـك إلى بعـض المنـاطق الجنوبية والشرقية، وكان من بينها بالطبع العديد من مناطق شرق أفريقيـا[٨٤]. ولعـل مـن أدلـة ذلـك أن المـؤرخ العُمـري (ت: ٧٤٩هـ) يشير لانتشار مذهب الشافعي في شرق أفريقيا، ومن تلـك الـبلاد الـتي ذاع فيهـا "مملكـة أوفـات"، وهـي أكـبر ممالـك الزيلع[٨٥]. وعن ذلك يقول: "وهي (أي أوفات) أقرب أخواتها إلى الديار المصرية.. وملكها يحكم على الزيلع..وهو في وقتنا اليوم شافعي المذهب، وغالبها شافعية.."[٨٦].

وربما يُفهم من كلام العُمري أن أكثر بلاد الزيلع ربما كانوا شافعية المذهب في أيامه، وقد كان الملك في أقوى وأكبر تلك الممالك (الزيلع) في زمانه شافعي المذهب، وكذلك كان على

دربه غالبية السكان في بلاده. ويؤيد ذلك الطرح بأن البعض يشير من ناحية أُخرى إلى أن مذهب الشافعي كان هو السائد في بلاد القرن الأفريقي منذ حوالي القرن ٧هـ(٨٧). وعن انتشار هذا المذهب في القرن الأفريقي، يشير البعض، ومنهم الدكتور عبد الرحمن شمس الدين، إلى أن هذا المذهب انتشر، وتوسع نطاقه بفضل المراكز الدينية التي كانت موجودة في هذه البلاد، وعلى هذا تميزت تلك البلاد بالتوسع في قراءة المصنفات والشروح الفقهية على مذهب الشافعي(٨٨). كما ذاعت مصنفات الإمام الشافعي، وشروحها، في بلاد القرن الأفريقي، ومنها: "سفينة النجاة"، و"متن أبي شجاع"، و"حاشية الباجوري"، وكتاب "الاقناع"، و"منهاج النووي"، و"عُمدة السالك"، وغيرها من أمهات كتب الفقه الشافعي(٨٩). وتعد رواية "ابن بطوطة" (ت: ٧٧٩هـ) من أهم المصادر التي أشارت لانتشار مذهب الشافعي في العديد من الدول والممالك على ساحل شرق أفريقيا. وإذا حاولنا تتبع رواياته في هذا الصدد، فأول تلك الإشارات كانت لما زار "زيلع"، حيث أشار إلى أنها "مدينة البرابرة"، ثم قال: "وهم طائفةٌ من السودان، شافعية المذهب.."(٩٠). كما يُشير ابن بطوطة في ذات الوقت لوجود مذهب الرافضة هناك أيضًا(٩١)، وربما يقصد بالرافضة وجود طوائف من الخوارج والشيعة في هذه البلاد. ولاريب أن "مذهب الرافضة"، يُقصد به بصفة عامة غُلاة الشيعة، وهم الذين يمكن المقارنة بينهم وبين طوائف "الخوارج" فيما يرتبط بالغلو الديني، والراديكالية المذهبية. ولعل وجود غالبية شافعية هناك، مع وجود بعض غلاة الرافضة يشير لتسامح الغالبية الشافعية مع غيرهم من ذوي المذاهب الأخرى، وهي سمةٌ واضحة من سمات المذهب. وتؤكد المصادر أيضًا ذات الذي أشار إليه ابن بطوطة، فالمقريزي (ت: ٨٤٥هـ) يذكر أن غالبية السكان في "مملكة أوفات" من بلاد الزيلع كانوا على مذهب الشافعي(٩٢). هذا إلى جانب إشارة المقريزي الأخرى فيما يخص وجود أعداد ممن ينتمون للمذهب الحنفي هناك(٩٣). وهو ذات الأمر الذي أشار إليه العُمري (ت: ٧٤٩هـ)، والقلقشندي (ت: ٨٢١هـ)(٩٤) أيضًا حول انتشار مذهب الشافعي في أوفات، ومن المعلوم أن رواية العمري أقدم من رواية ابن بطوطة، والقلقشندي، والمقريزي، ولكن جميعهم يؤكدون انتشار المذهب الشافعي في هذه البلاد(٩٥). وعن سكان أوفات، يقول المقريزي: "وغالب أهلها شافعية المذهب، وكثر فيهم بعهدنا الحنفية، وكلام أهلها باللغة الحبشية، ويتكلمون أيضا بالعربية.."(٩٦).

ولعل انتشار مذهب الشافعي في "مملكة أوفات" يؤكد الوجود القوي له في باقي الممالك في بلاد الزيلع جنبًا إلى جنب مع المذهب الحنفي. ويرى الباحث أن التقارب الجغرافي بين اليمن ومملكة أوفات، وباقي بلاد الزيلع كان من أسباب انتشار مذهب الشافعي في هذه البلاد، يقول القلقشندي: "إن بينها (أي: أوفات) وبين عدن من اليمن في البحر ثلاث مجار.."(٩٧). كما يذكر المقريزي أن سكان "مملكة دوارو"، وهي الأخرى من ممالك الزيلع"، أنهم كانوا من أتباع "المذهب الحنفي"(٩٨). وهذا يشير بشكل أو بآخر لوجود ملحوظ لأتباع "المذهب الحنفي" في عدد من مناطق شرق أفريقيا. ومن اللافت أنه لما ذهب "ابن بطوطة" إلى "سلطنة مقدشو"، غير أنه لم يخبرنا بالمذهب السائد لدى أهل تلك البلاد بشكل صريح، لكن الراجح أن سكانها كانوا شافعية المذهب أيضًا، لأن أكثر البلاد من حولها كانوا على هذا المذهب. ثم سافر ابن بطوطة بعد ذلك إلى "مملكة كلوة" (أو كلوا)، وهي من بلاد الزنج، ثم الى "جزيرة منبسى" (ممباسا)(٩٩)، والتي أشار إليها أيضا بأنها مدينة كبيرة، بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر، ثم يقول عن مذهب سكان تلك البلاد بأنهم شافعية المذهب، كما ينعته بأنهم "أهل دين وعفاف.."(١٠٠)، وهو إشارة لاعتدال دينهم، ومذهبهم، وأنهم ليسوا من الغلاة. ثم أفاض "ابن بطوطة" في الحديث عن دين أهل تلك المملكة المسلمة، حيث يشير الى أن مساجدهم كانت مقامة من الخشب، كما أنها كانت مشيدة بطريقة متقنة، ويوجد عند باب كل مسجد هناك آبار للمياه، يبلغ عمق بعضها من ذراع الى ذراعين(١٠١). ثم يصل ابن بطوطة لـ"كلوة"، ويذكر أنها من أحسن المدن، ثم يذكر أن أهل تلك البلاد هم أهل جهاد في سبيل الله، لأنهم يجاورون قبائل من الوثنيين الزنوج، ثم يمتدح ابن بطوطة أهل تلك البلاد، ومذهبهم، حيث يقول: "والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب.."(١٠٢).

ولعل هذا يُشير إلى حسن عقيدة أصحاب "المذهب الشافعي"، فهم أخف حدة من أتباع المذهب المالكي المشهورين بحماستهم لمذهبهم، وربما لحد الإفراط في ذلك، فغالبية الشافعية في شرق أفريقيا كانوا يتسمون بالتقوى والصلاح، ولا يبدو في مذهبهم شيء من القوة أو العنف على غرار بعض المذاهب الأخرى. وتؤكد رواية ابن بطوطة مرة أخرى انتشار "المذهب الشافعي" في العديد من ممالك شرق أفريقيا، وأنه كما هو واضح المذهب السائد بين أكثر السكان والشعوب في تلك البلاد، بينما لم يشر بشكل واضح لوجود أي

من المذاهب الأخرى، سوى المذهب الحنفي الذي ينتشر في بعض مناطق الزيلع. ويمكن القول إنه رغم مرور الزمن، فلايزال مذهب الشافعي هو السائد في العديد من بلدان شرق أفريقيا، ولعل من دلائل ذلك أن أكثر المسلمين في بلاد الحبشة هم من السنة، وهم على "المذهب الشافعي" مع وجود قلة من أتباع كلٍ من "المذهب المالكي" من جانب، و"مذهب الأحناف" من جانب آخر[١٠٣].

خَاتِمَةٌ

وبعد هذه الاطلالة التاريخية الموجزة على المذهبين الإباضي والشافعي في شرق أفريقيا، وتأثيراتهما في هذه البلاد، يمكن أن نخرج ببعض الاستنتاجات، ولعل منها:

- يُعَدّ "المذهب الإباضي" أحد أقدم مذاهب "الخوارج"، وهو المذهب هو الذي لعب دورًا سلبيًا في شق صف وحدة المسلمين خلال القرون الأولى للإسلام، حيث ساهمت فرق الخوارج الى تأجيج الفتن، والصراعات منذ أواخر خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ)، وساهموا في قتل الخليفة الثالث (أي عثمان)، ثم أشعلوا أتون الفتن أيام خلافة على بن أبي طالب (٣٥-٤٠هـ)، ثم تسببوا في قتله، وكان ذلك على يد أحد أتباع مذهب الخوارج.
- أشارت هذه الدراسةُ إلى أن المذهب الشافعي كان الأكثر انتشارًا بين كل مذاهب أهل السنة في بلاد شرق أفريقيا جنوبي البحر الأحمر، وفي أكثر الممالك والإمارات الأفريقية الواقعة على المحيط الهندي بصفة عامة، مع وجود قوي في ذات الوقت لمذهب الأحناف لاسيما في بلاد الزيلع، ووجود قوي للمذهب المالكي في السودان الشرقي (أي: سودان وادي النيل).
- أكدت الدراسةُ أن أتباع المذهب الشافعي كانوا من أصحاب المناهج الدينية المعتدلة، وهم أصحاب المذهب الوسطي، وهم أصحاب منهج ومذهب معتدل بصفة عامة، وأن العديد من المصادر التاريخية أثنت عليهم، وعلى حسن دينهم، وصلاحهم، واحترامهم للآخر.
- بينت الدراسةُ أن الشافعية أظهروا تسامحًا ملحوظًا مع أصحاب المذاهب الأخرى في مناطق شرق أفريقيا، ولاسيما في المناطق التي كان يكثر فيها أصحاب المذهب الشافعي.
- على الرغم من أن الإشارات التاريخية الواردة في المصادر لا تتحدث بشكل واضح عن حدوث صراع مباشر بين المذهبين الشافعي والإباضي في شرق أفريقيا، إلا أن وجود المذهبين أكثر من غيرهما من المذاهب الأخر هناك، بجانب وجود المذهب الحنفي، مع وجود الخلافات الفكرية والدينية التي لا تخفى على أحد بين أفكار كل منهما، ربما يؤيد ذلك فكرة وجود التنافس بشكلٍ أو بآخر بين أتباع المذهبين، حتى وإن لم تذكر المصادرُ شيئًا عن ذلك، لاسيما مع قيام بعض الممالك الإسلامية على مذهب السنة، وكانت على "مذهب الشافعي"، وتحملت مكابدة نشره في هذه المنطقة، إضافة لوجود ممالك أخرى إباضية في هذه المنطقة أيضًا.
- أشارت الدراسةُ لوجود نوع من المنافسة بين المذهبين الشافعي والمالكي في مناطق سودان وادي النيل (أي السودان الشرقي)، وإن كانت منافسة هادئة لم تأخذ شكلاً من أشكال العنف الديني مطلقًا، ولكن بدت فيها قوة أتباع مذهب مالك، وانتشارهم في هذه البلاد.

الاحالات المرجعية:

(١) للمزيد عن الخوارج وأفكارهم، انظر ابن حزم: **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، جـ٣، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٢٧، وانظر كذلك أيضًا عبد القادر البغدادي: **الفرق بين الفرق**، تحقيق: محمد محيي عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٠٨، محمد الطيب النجار: **تاريخ العالم الإسلامي**، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٥٢-٥٣، هـ. أ. جب وجـ. هـ. كالمرز: **الموسوعة الإسلامية (الميسرة)**، ترجمة: راشد البدراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٣٥٥.

(٢) المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، جـ٢ المكتبة التوفيقية، ص٣٧٣، ابن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانية**، ص٨٣، ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ٣، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ص١٨٧.

(٣) للمزيد عن القصة التاريخية لرفع المصاحف في يوم صفين سنة ٣٧هـ، ثم التحكيم بين الفريقين اللذين كانا يقودهما علي بن أبي طالب وهم أهل العرق، وفريق معاوية وهم أهل الشام انظر ابن كثير: **البداية والنهاية**، جـ٧، تحقيق: أحمد أبوملحم (وآخرين)، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ص٢٨٧.

(٤) ابن طباطبا: **الفخري**: ص٨٣، وكان "الخوارج" قد دبروا قتل كل من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، إذ إنهم اعتبروا الثلاثة رُؤوس الفتنة، وأئمة الضلال حسب زعمهم، وقالوا: فلو شرينا أنفسنا، فأتينا أئمة الضلال، فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد، ثم قال ابنُ ملجم: "أنا أكفيكم علي بن أبي طالب" (وكان من أهل مصر)، وقال "برك بن عبدالله": "أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان"، وقال ثالث (وهو عمرو بن بكر): "أنا أكفيكم عمرو بن العاص"، ومن ثم تعاهد هؤلاء الثلاثة، وتواثقوا بالله ألا ينكص أحد منهم عن صاحبه الذي توجه اليه حتى يقتله، أو يموت دونه، فاتخذوا أسيافهم، سموها (انظر، الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، جـ٣، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ، ص١٧٥-١٧٦).

(٥) البُغدادي: **الفرق بين الفرق**، ص٨١. وعن مصطلح "الخوارج"، يقول محمود إسماعيل: "أما مصطلح الخوارج، فقد اختلفت الآراءُ حول أسباب صياغته، وفي كل الأحوال تظهر بوضوح تأثيرات الأيديولوجيا.. وبعد انشقاقات الخوارج على أنفسهم إلى فرق متعددة، نسبت هذه الفرق تسمياتها إلى زعاماتها.." (محمود إسماعيل: **دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٠٣).

(٦) البغدادي: المصدر السابق، ص٨١.

(٧) المصدر السابق، ص٨١.

(٨) البغدادي: المصدر السابق، ص٨١.

(٩) محمود إسماعيل: **دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي**، ص١٠٣.

(١٠) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص١٠٣.

(١١) البغدادي: المصدر السابق، ص٨١.

(١٢) ابن حزم: **الفصل في الملل والنحل**، جـ٣، ص١٢٧.

(١٣) المصدر السابق، ص١٢٧–١٢٨.

(١٤) المصدر السابق، ص١٢٨.

(١٥) ولعل تكفير الخوارج لبعض كبار الصحابة من أذم ما أتوا به واجتمعوا عليه من الضلال، ولهذا يقول الامام الطحاوي: "نُحب أصحاب رسول الله (ﷺ)، ولا نُفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغُض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم...وحُبهم دين، وإيمان، وإحسان، وبُغضُهم كفرٌ ونفاق وطغيان.." (ابن أبي العز: **شرح العقيدة الطحاوية**، المكتبة التوفيقية، دون تاريخ، ص٤٠١.

(١٦) البغدادي: **الفرق بين الفرق**، ص١٠٨، مصطفى الشكعة: **إسلام بلا مذاهب**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٣٥.

(١٧) عبد الرحمن سالم: **الإباضية**، ص١٨.

(١٨) القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٥٦-٥٧.

(١٩) البغدادي: **الفرق بين الفرق**، ص١٠٨-١٠٩.

(٢٠) ابن حزم: **الفصل**، جـ٣، ص١٢٧.

(٢١) وللمزيد عن الاباضية، العُمري: **مسالك الأبصار (المختصر)**، جـ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص١٢٦، القلقشندي: **صبح الأعشى**، جـ١٣، ص٢٢٥، مصطفى الشكعة: **إسلام بلا مذاهب**، ص١٣٦.

(٢٢) مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص١٣٦، وهذا القول فيه شك كبير إن لم يكن خطأ من الأصل، فالمعروف أن أول من دون الحديث كانوا الصحابة، فكان عبد الله بن عمرو بن العاص يدون الحديث، وكانت له صحيفة يدون فيها ما يسمعه من كلام النبي (ﷺ)، وكانت تدعى "الصادقة" (وللمزيد عن صحيفة "الصادقة" لعبد الله بن عمرو، انظر ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، جـ٣، ص٣٠٥).

(٢٣) البغدادي: **الفرق بين الفرق**، ص١٠٩.

(٢٤) المصدر السابق، ص١٠٩.

(٢٥) عُمان: يقال حسب ما ورد في بعض الروايات إن اسم "عُمان" في الأصل نسبة لشخص كان يدعى (عمان)، ويزعمون أنه من بن بغان بن إبراهيم عليه السلام (القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٦). وهو قول ضعيف، فالنبي إبراهيم عليه السلام لم يكن له ولد باسم (بغان)، ولا ورد شيء عن ذلك لا في الكتب السماوية الثلاثة، ولا في المصادر التاريخية المعتبرة.

(٢٦) عبد الرحمن بن سالم: الإباضية (**موسوعة الفرق والمذاهب في العالم الاسلامي**)، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة ٢٠٠٧م، ص١٥، ويبلغ تعداد الاباضية منذ أواخر القرن ٢٠م حوالي ثلاثة أرباع سكان عمان (**تاريخ الدولة الاسلامية** (تأليف نخبة من العلماء): جـ٢، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، ٢٠٠٩م، ص٢٠٤).

(٢٧) عبد الرحمن بن سالم: **الإباضية**، ص١٨–١٩.

(٢٨) القزويني: **أخبار البلاد**، ص٥٦.

(٢٩) عبد الرحمن بن سالم: **الإباضية**، ص١٩.

(٣٠) يتفق الخوارج مع جمهور المسلمين بوجوب نصب الامام ليطبق شرع الله في الأرض، وهم لا يقولون بوجوب الخروج على الحاكم الظالم كما يرى سائر الخوارج، والغالب لديهم إعلان البراءة منه، والإباضية لا يشترط ونكون الإمام أم الحاكم قرشي وغير ذلك (عبد الرحمن سالم: **الاباضية**، ص٢٠–٢٢).

(٣١) هـ. جب: **الموسوعة الاسلامية**، ص٣٥٦–٣٥٧، جولد تسهير: **العقيدة والشريعة في الاسلام**، ترجمة: محمد يوسف موسى (وآخرين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م، ص١٩٢-١٩٣.

(٣٢) جولد تسهير: المرجع السابق، ص١٩٢.

(٣٣) محمد عبد الله النقيرة: **انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا**، دار المريخ، الرياض، د. ت، ص٨٤.

(٣٤) النقيرة: المرجع السابق، ص٨٤، يشير جب الى أن أكثر ثورات الخوارج خطرًا على الأمويين تلك التي تزعمها نافع بن الأزرق، وهي التي جعلت للخوارج سيطرة مؤقتة على فارس وكرمان، وغيرهما من الولايات الشرقية وشكلت تهديدًا للأمويين والآراضي التابعة لهم (جب: **الموسوعة الاسلامية**، جـ١، ص٣٥٧).

(٣٥) جب: المرجع السابق، ص٣٥٧، جولد تسهير: ص١٩٢، النقيرة: المرجع السابق، ص٨٥. وللمزيد عن هجرة بني الجلندي، انظر حجاجي إبراهيم: **العمارة الإسلامية في شرق أفريقيا**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٤١. ومن المعلوم أن الإباضية لعبوا دورًا مهما في السودان الغربي وشمال أفريقيا، حيث ساهموا في تأسيس دول قامت على قاعدة المذهب الإباضي، ومنها "الدولة الرستمية" في تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر)، كما ساهم الإباضية هناك في ازدهار الحركة التجارية الصحراوية، وكذلك ساهموا في نشر الدعوة الإسلامية التي ارتبطت بالحركة التجارية (حسين سيد عبد الله مراد: صنغي، **ضمن كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي**، جـ٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، القاهرة، ٢٠١٥م، ص١٢٠٣).

(٣٦) محمد عبد الله النقيرة: المرجع السابق، ص٨٥.

(٣٧) **قبيلة الأزد**: تذكر المصادر العربية أن الأزد من ولد الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن أدد بن زيد بن كهلان، ومن قبائلهم الغساسنة ملوك بلاد الشام، وهم بنو عمرو بن مازن بن الأزد، ومنهم الأوس والخزرج أهل يثرب، وهم الأنصار رضي الله عنهم، ومن الأزد خزاعة، وبارق ودوس.. إلخ (وللمزيد عن قبيلة أزد عمان، وأنسابهم، وبطونهم، انظر العمري: قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين (**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**)، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م، ص٧٧). وقيل: هم بنو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ (ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٣٣٤. ويوجد بطنٌ آخر باسم "الأزد" وهم منسوبون إلى الأزد بن عمران بن عمرو بن عامر، كما يوجد أزديون آخرون ينتسبون إلى أزد الحجر، ومنهم الإمام أبو جعفر الطحاوي الأزدي (انظر ابن القيسراني: **كتاب الأنساب المتفقة**، تحقيق: لجنة من المحققين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٦).

(٣٨) محمد عبد الله النقيرة: المرجع السابق، ص٨٥.

(٣٩) مصطفى الشكعة: **إسلام بلا مذاهب**، ص١٥٢.

(٤٠) **بلاد الزنج**: يقصد بها في المصادر بلاد ساحل شرق أفريقيا التي تمتد من مقدشو شمالاً، وحتى ميناء سفالة الذهب (سوفالا) جنوبًا، وهذه الأخيرة تقع في موزمبيق حاليًا، وللمزيد عن هذه البلاد، المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص١٧-١٨، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٦٤. وللمزيد عن هذه البلاد، انظر:

Zoe March: East Africa through Contemporary Records, Cambridge, 1961, P. 2.

J. Spencer Trimmingham: A History of Islam in West Africa, Oxford University Press, London, 1975, P. 85.

(٤١) النقيرة: **انتشار الاسلام**، ص٨٥.

(٤٢) المرجع السابق، ص٨٥.

(٤٣) تأليف مجموعة من الباحثين: **المسلمون في إقليم شرق افريقيا السواحلية**، منظمة الدعوة الاسلامية، الخرطوم، ٢٠٠٩م، ص٥١.

(٤٤) المسعودي: **مروج الذهب**، جـ١، ص٨٤، وانظر أيضًا: باسيل دافيدسون: **أفريقيا القديمة**، ترجمة: نبيل بدر، سلسلة الشرق والغرب، عدد٣٩، القاهرة، ص٦٥، جمال زكريا قاسم: **المصادر العربية لتاريخ شرق أفريقيا**، الجمعية التاريخية المصرية، مجلد١٤، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٧٤-١٧٥.

(٤٥) شوقي عبد القوي عثمان: المرجع السابق، ص43-44.

(٤٦) مصطفى الشكعة: **إسلام بلا مذاهب**، ص١٥٢.

(٤٧) الثقافة السواحلية ثقافة نتجت عن الاختلاط بين العرب والفرس المسلمين مع السكان المحليين على ساحل شرق أفريقيا، وهي البلاد المعروفة ببلاد الزنج، (انظر رولاند أوليفر: **موجز تاريخ أفريقية**، ترجمة: الدكتورة دولت أحمد صادق، سلسلة دراسات أفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٠٣ وما بعدها، وانظر عبد الرحمن عثمان: **أوضاع المسلمين في إقليم شرق أفريقيا**، ص٥٣-٥٩).

(٤٨) شوقي عبد القوي عثمان: المرجع السابق، ص٤٥.

(٤٩) النقيرة: **انتشار الإسلام**، ص١٠٣.

(٥٠) المرجع السابق، ص١٠٣.

(٥١) ابن بطوطة: **الرحلة**، جـ١، ص٢٤٧.

(٥٢) المصدر السابق، ص٢٤٧، أشار ابن بطوطة إلى أنه لما زار بلاد عمان كانت عاصمتها في ذلك الوقت تدعى نزوا وهي مدينة في سفح الجبل، وتحف بها البساتين والأنهار، وأهلها يعتنقون مذهب الاباضية، وهم يصلون الجمعة وقت الظهر أربع ركعات على غير ما يقوم به أهل السنة ومن عاداتهم أنهم إذا فرغوا من صلاة الجمعة قرأ الإمام بعض الآيات من القرآن ثم يقول خطبة يترضى فيها على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، بينما كان يسكت عن ذكر عثمان وعلي بن أبي طالب. وهؤلاء الإباضية إذا أرادوا الحديث عن الإمام على أو ذكره كانوا يقولون اسمه كناية، فيقولون: ذكر عن الرجل أو قال الرجل (يقصدون عليا). بينما كان هؤلاء الاباضية يترضون عن ابن ملجم قاتل على وينعتونه باسم "البعد الصالح قامع الفتنة" (انظر ابن بطوطة: **الرحلة**، جـ١، ص٢٤٦).

(٥٣) عبد الرحمن عثمان: **أوضاع المسلمين في إقليم شرق افريقيا**، ص٥١.

(٥٤) السيوطي: **حُسن المحاضرة**، جـ١، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٤٦.

(٥٥) للمزيد عن ترجمة الامام الشافعي انظر الشافعي: **الرسالة**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٣ وما بعدها، ابن كثير: **البداية والنهاية**، جـ١٠، ص٢٦٢ وما بعدها، ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، جـ٢، ص١٧٦–١٧٧، السيوطي: **حسن المحاضرة**، جـ١، ص٢٦٤، ابن اياس: **بدائع الزهور**، جـ١، ص١٤٣، عبد العزيز الشناوي: **الأئمة الأربعة**، مكتبة الايمان، المنصورة، ٢٠٠٦م، ص٣ وما بعدها.

(٥٦) ابن اياس: **النجوم الزاهرة**، جـ١، ص١٤٣–١٤٤.

(٥٧) وعن ارتباط الإمام الشافعي بـ"أرض مصر"، تذكر المصادر التاريخية أن أم الشافعي كانت قد رأت في منامها وكانت

لاتزال حاملاً بابنها الشافعي أن نجما خرج من بطنها، وكان له ضوء عظيم، ثم سقط هذا النجم بأرض مصر، ثم طارت من هذا النجم شظايا، وتناثرت منه ي سائر الآفاق. فلما ت. أم الشافعي هذه الرؤية التي رأتها، الوا لها: سيخرج من بطنك مولود، كون من كبار العلماء، ويخص علمه أهل مصر دون غيرها من البلدان، ثم ينتشر علم هذا الابن في سائر بلاد الدنيا (ابن إياس: **بدائع الزهور**، جـ١، ص١٤٣).

(٥٨) ابن إياس: جـ١، ص١٤٤–١٤٥.

(٥٩) يذهب أهل العلم إلى أن الشافعي هو الذي جعله الله على رأس المائة الثانية من مجددي العلم في أمة الإسلام، قال أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ): "إن الله يقيض للناس في رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله (ﷺ) الكذب، فنظرنا في رأس المائة الأولى عمر بن عبدالعزيز، وفي رأس المائتين الشافعي.." (السيوطي: **حسن المحاضرة**، جـ١، ص٢٦٤).

(٦٠) الشافعي: **كتاب الرسالة** (ترجمة الإمام الشافعي)، ص٥. قال عنه تلميذه الفقيه المصري يونس بن عبد الأعلى: "لو جمعت أمة لوسعهم الشافعي.." (ابن تغري بردي: **النجوم الزاهر**، جـ٢، ص١٧٦–١٧٧).

(٦١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهر**، جـ٢، ص١٧٧.

(٦٢) الشافعي: **الرسالة**، ص١١. وقال بدر الدين الزركشي: "الشافعي أول مَنْ صنف في أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس.." (انظر، الشافعي: **الرسالة** (مقدمة المحقق)، ص١١).

(٦٣) الشافعي: المصدر السابق، ص١١.

(٦٤) وللمزيد عن انتشار مذهب الشافعي على ساحل شرق أفريقيا أكثر من غيره من المذاهب الأخرى، انظر ابن بطوطة: **الرحلة**، جـ١، ص٢٢٩، وانظر ابن بطوطة: جـ١، ص٢٣٣-٢٣٤. وانظر حسن جوهر (وآخرون): **الصومال**، سلسلة شعوب شعوب العالم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، ص٥٦.

(٦٥) ابن كثير: **البداية والنهاية**، جـ١٠، ص٢٦٣. وللمزيد عن دور التأثير اليمني في انتشار المذهب الشافعي في شرق أفريقيا، انظر أيمن فؤاد سيد: **تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن ٦هـ**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٥٨، محمد عبد العظيم الخولي: **العرب ودورهم الحضاري في شرق أفريقيا سلطنة كلوة (٦٧٦-٨٢٤هـ)**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١١م، ص٢٦-٢٧. وكان من أوائل علماء الشافعية الذين ساهموا في نشر المذهب الشافعي في اليمن أبو القاسم بن محمد الجمي (ت: ٤٣٧)، ويقال إن مذهب الشافعي ومؤلفاته قبل أبي القاسم وأصحابه لم تكن مشهورة في بلاد اليمن (أيمن فؤاد سيد: **المذاهب الدينية في بلاد اليمن**، ص٥٩-٦٠). يقول أيمن فؤاد سيد: "صار مذهب الشافعي هو مذهب لدول السنية التي حكمت اليمن، وكان ملوك وسلاطين هذه الدول حريصين على تنشئة أولادهم على اعتناق هذا المذهب، ودراسة أصوله.." (**تاريخ المذهب الدينية في بلاد اليمن**: ص٦٣).

(٦٦) عبد الرحمن محمد علي شمس الدين: **جهود علماء شرق أفريقيا في خدمة مذهب الإمام الشافعي**، مجلة العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، العدد الأول، اكتوبر ٢٠١٩م، ص١١٠.

(٦٧) **مقدشو**: تقع في شرق أفريقيا، وهي عاصمة الصومال، وقد نالت هذه المدينة شهرة كبيرة خلال العصر الوسيط، وكانت سلطنة مزدهرة بفضل موقعها، ودورها في ازدهار حركة التجارة على سواحل شرق أفريقيا. وعن مقدشو، يقول القلقشندي: "وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة، وخط الأستواء.. وهي مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة.. ولها نهر عظيم أشبه بنيل مصر" (القلقشندي: **صبح الأعشى**، جـ٥، تقديم: الدكتور فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٣٣٦).

(٦٨) ابن بطوطة: **الرحلة**، جـ١، ص٢٢٩، وكذلك ص٢٣٣-٢٣٤. ولا يزال المذهب الشافعي له وجود قوي في بلاد الصومال حاليا ويدرس هذا المذهب أكثر من غيرهن يقول حسن محمد جوهر: "وفي قرى الصومال وبواديها مساجد كثيرة، ووسط الأحراش مساجد تقام في الخلاء، وتفرش بالعشب، ومع بساطتها يحرص الصوماليون على اقامة شعائرهم الدينية فيها.. ويلقن العلماء في هذه المساجد تلاميذهم العلوم الدينية ومذهب الإمام الشافعي بخاصة" (حسن محمد جوهر: **الصومال**، ص٥٦).

(٦٩) **بلاد الزيلع**: وهي تشتهر باسم بلاد الطراز الإسلامي، وه سبع ممالك قامت على ساحل البحر الأحمر القريب من بلاد الحبشة، وتقع آراضي البلاد حاليًا في دولة ارتيريا. وأكبر هذه الممالك أوفات، أو جبرت (جبرة)، ومن ممالكها أيضا: بالي، أرابيني، شرحا، دراة، دوارو (للمزيد عن هذه الممالك، انظر العمري: **مسالك الأبصار**، جـ١، ص١٩٥، القلقشندي: **صبح الأعشى**، جـ٥، ص٣٢٥-٣٣٠).

(٧٠) العمري: جـ١، ص١٩٥.

(٧١) انظر القلقشندي: **صبح الأعشى**، جـ٥، ص٣٢٥-٣٣٠، المقريزي: **الإلمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الإسلام**، ص٢٣٤-٢٣٥، ابن بطوطة: **الرحلة**، جـ١، ص٢٣٠-٢٣٥.

(٧٢) **سواكن**: ميناء على ساحل "البحر الأحمر"، وتجد جزيرة أيضًا تحمل ذات الاسم، يقع في السودان حاليًا، لعب دورًا مهمًا في التجارة عبر البحر الأحمر، وكذلك في رحلات الحج، وقد زادت أهمية سواكن بعد دمار ميناء عيذاب جنوب شرق السواحل المصرية على يد سلاطين المماليك.

(٧٣) **سلطنة الفونج**: اختلف الآراء حول أصل الفون<، ما بين الأصل العربي، أو الأصل الأفريقي الزنجي.. إلخ، ولكن على أية حال تحالف الفونج مع عرب العبدلاب في مملكة علوة، وتمكنوا من اضعاف مملكة علوة، واسقط حكم ملوكها المعروفين اسم العنج، ومن ثم تم اعلان تأسيس سلطنة الفونج على يد زعيمهم الملك عمارة دنقس (للمزيد، أحمد بن الحاج أبو علي: **مخطوطة كاتب الشونة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٨م، ص١٢٩، الشاطر بصيلي عبد الجليل: **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، مكتبة الشريف الأكاديمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص١٩ وما بعدها).

(٧٤) ود ضيف الله: كتاب **الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين**، تحقيق: يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للنشر، دون تاريخ، ص٤-٥، كرم الصاوي: **ممالك النوبة**، ص٣٤٦-٣٤٧.

(٧٥) ود ضيف الله: **كتاب الطبقات**، ص٤-٥.

(٧٦) المصدر السابق، ص٤-٥.

(٧٧) ود ضيف الله: (مقدمة المحقق)، ص٥.

(٧٨) ود ضيف الله: **الطبقات**، ص٢١٢.

(٧٩) **أربجي**: مدينة معروفة في سودان وادي النيل، أقامها العرب من قبيلة جهينة في بلاد علوة، وهي المملكة الكبرى الثانية في بلاد النوبة مع مملكة المقرة التي سقطت في حوالي سنة ٧٢٣هـ ومن ثَمَّ قامت على أنقاضها دولة الكنوز الإسلامية في بلاد النوبة. وللمزيد عن تأسيس أربجي، انظر أحمد بن الحاج علي: كاتب الشونة، ص٤، وانظر أيضًا محمد محمد أمين: العبدلاب، ص١٩٣. وانظر:

Mcmichel: A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922, P. 139.

(٨٠) **مملكة علوة**: هي المملكة الثالثة من ممالك النوبة المسيحية، والمملكتان الأخريتان هما: مملكة نوباديا جنوب مصر، والثانية مملكة المقرة. وكانت عاصمة علوة مدينة سوبا. وقد هاجر الهنيون إلى علوة بكثافة بعد سقوط مملكة المقرة (سنة ٧٢٣هـ)، وتزاوج الجهنيون العرب مع زعماء علوة مما أدى لانتقال الحم للعرب، ثم أخذت مملكة علوة تضعف مع قوة الوجود العربي لاسيما بعد التحالف مع الفونج ضد ملوك علوة. ثم سقط علوة بعد ذلك مع بدايات القرن ١٠هـ/١٦م (وللمزيد، الفحل الفكي الطاهر: **تاريخ وأصول العرب بالسودان**، طبعة الخرطوم، دون تاريخ، ص١٢-١٣، وانظر إسماعيل حامد إسماعيل علي: **قبيلة جهينة ودورها الحضاري في مصر وسودان وادي النيل**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١٦م، ص٢٤٢-٢٤٣).

(٨١) ود ضيف الله: مقدمة المحقق، ص٥.

(٨٢) المصدر السابق، (مقدمة المحقق)، ص٥.

(٨٣) كرم الصاوي باز: **ممالك النوبة**، ص٣٤٦–٣٤٧.

(٨٤) المرجع السابق، ص٣٤٧.

(٨٥) العمري: **مسالك الأبصار**، جـ١، س١٩٥.

(٨٦) المصدر السابق، س١٩٥.

(٨٧) عبد الرحمن شمس الدين: **جهود علماء شرق أفريقيا**، ص١١٠.

(٨٨) المرجع السابق، ص١١٠.

(٨٩) المرجع السابق، ص١١٠.

(٩٠) ابن بطوطة: **الرحلة**: جـ١، ص٢٢٩– ٢٣٠. وللمزيد عن انتشار "المذهب الشافعي" بمدينة "زيلع" (الزيلع)، انظر عبد المجيد عابدين: **بين العرب والحبشة**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٥م، ص١٥٦.

(٩١) ابن بطوطة: **الرحلة**، ص٢٣٠.

(٩٢) المقريزي: **الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام (رسائل المقريزي)**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٣٥.

(٩٣) المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٩٤) القلقشندي: **صبح الأعشى**، جـ٥، ص٣٢٦.

(٩٥) وعن انتشار مذهب الشافعي في بلاد الزيلع، يقول عبد المجيد عابدين: "ومن مضافاتها زيلع، وهي فرضة من فرض هذه البلاد، وأهلها مسلمون، وغالب أهلها شافعية" (عابدين: **بين العرب والحبشة**، ص١٥٦).

(٩٦) المقريزي: المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٩٧) القلقشندي: **صبح الأعشى**، جـ٥، ص٣٢٨.

(٩٨) المقريزي: المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٩٩) **ممبسا**: مدينة مشهورة تقع على ساحل شرق أفريقيان أو ما يعرف باسم بلاد الزنج، وتقع هذه المدينة حاليًا في كينيا، وكانت لها شهرة تجارية مهمة خلال العصر الوسيط، وللمزيد عن هذه المدينة، انظر

(١٠٠) **الرحلة**: جـ١، ص٢٢٩ – ٢٣٠. وللمزيد عن المذهب الشافعي في سلطنة كلوة الإسلامية، انظر محمد عبد العظيم الخولي: **العرب ودورهم في شرق أفريقيا**، ص٢٦.

(١٠١) ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٣٣.

(١٠٢) المصدر السابق، ص٢٣٣.

(١٠٣) عطا محمد كنتول: **أوضاع المسلمين في أفريقيا الشرقية** (أوضاع المسلمين في أفريقيا دول جنوب الصحراء)، منظمة الدعوة الاسلامية، معهد مبارك قسم الله للبحوث والتدريب، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم ٢٠٠٩م، ص٩، ويشكل المسلمون في أثيوبيا أكثر من ٥١ في المائة من عدد السكان، وهو ما يعادل حوالي ٢٦ مليون نسمة حسب تعداد أواخر القرن العشرين لميلادي (عطا كنتول: المرجع السابق، ص٨-٩). كما أن سكان الصومال في الوقت الحالي والذين تصل نسبة المسلمين هناك إلى أكثر من ٩٩ % من نسبة السكان (أي حوالي سبعة ونصف مليون نسمة-حسب إحصاء سنة ١٩٩١م) غالبيتهم على "المذهب الشافعي" (عطا كنتول: المرجع السابق، ص١٢). أما المسلمون في جيبوتي (حوالي ٩٦ % من جملة سكان هذه البلاد حسب احصاء سنة ١٩٩١م) فهم أيضا من أتباع "المذهب الشافعي" (عطا كنتول: المرجع السابق، ص١٣).

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

صورة المجتمع الهندي في كتابات الرحالة المسلمين قديمًا

كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" للبيروني نموذجًا



د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ مشارك الأدب العربي والنقد

باحث في التاريخ والحضارة والفكر

محاضر في كلية التربية الأساسية – الكويت

مُلَخّص

ينهض كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة' للعالم المسلم الكبير أبي الريحان البيروني كنموذج دال على أدب الرحلة في بعده التوثيقي العلمي، فالمؤلف عالم له مكانته الكبرى في التراث العلمي العربي الإسلامي، بمؤلفاته العلمية الفذة، في علوم نظرية وعملية وتطبيقية؛ ظلت مرجعا لقرون عديدة لكل من أراد الإبحار والتعلم، ولا تزال تشكل علامات مضيئة في تراثنا الإسلامي العلمي والفلسفي. وقد جاء كتابه المذكور متجاوزًا أدب الرحلة في مفهومه الدارج، والذي يقوم فيه الرحالة بتسجيل الطرائف والعجائب التي تخلب الألباب، وتشوق القراء، ليجعل كتابه مثارًا للمسامرة والتفكه، وتحقق له الشهرة والقربى والحظوة. أما البيروني فقد أراد تقديم صورة صحيحة عن الهند، ينأى عما هو ذائع عنها في المخيلة العربية، من جهالات وأساطير وحكايات، وهي غاية حميدة، تضافرت مع رغبته في إيجاد مرجع علمي شامل عن الهند في عقائدها وعلومها وجغرافيتها، تعين كل من أراد فهم المجتمع الهندي، ومعرفة خباياه، خاصة دعاة الإسلام، وهم ينطلقون لنشره في بلاد لها تاريخها وحضارتها وثقافتها وآدابها الراسخة، والضاربة بجذورها تاريخيًا. في ضوء ما تقدم، تأتي هذه الدراسة، من أجل قراءة هذا الكتاب برؤية تحليلية، تسعى إلى فهم خطابه، ومعرفة السياقات الثقافية والزمنية والمكانية التي أنتجته، وعلاقته بشخصية البيروني العالم والباحث والمترجم والمحقق. لذا، فقد جاءت الدراسة في محاور، متدرجة من العام إلى الخاص، ومن الفكرة إلى المثل، حيث تم التعريف بشخصية البيروني وتكوينه العلمي، ثم الظروف التاريخية التي جعلته يرتحل إلى الهند مرات عديدة، ودوافع تأليفه للكتاب، ومن ثَمَّ استعراض بنية الكتاب، على مستوى المتن والأبواب والطروحات العلمية والفكرية والدينية فيه. أيضًا، فقط توقف الباحث عند الخطاب المقدم في الكتاب بدءا من خطبة البيروني في المقدمة، ثم تحليل النص على مستوى المخاطب، والسرديات والاقتباسات والاستشهادات، وطريقة البيروني في إيراد المعلومات، وربطها، وتعميقها، وأيضًا تبسيطها بالشرح والتحليل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ يونيو ٢٠٢٠

تاريخ قبـول النشـر: ١٥ أغسطس ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

أدب الرحلات؛ الرحلة العلمية؛ الرحالة المسلمون؛ البيروني؛ المجتمع الهندي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.202205

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مصطفى عطية جمعة. "صورة المجتمع الهندي في كتابات الرحالة المسلمين قديمًا: كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص٤٩ – ٦٢.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mostsfaateia@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

تنبع أهمية هذه الدراسة في كونها تسلط الضوء على كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" للعالم المسلم الكبير أبي الريحان البيروني، بوصفه نموذجا دالا على أدب الرحلة في بعده التوثيقي العلمي، فالمؤلف عالم له مكانته الكبرى في التراث العلمي العربي الإسلامي، بمؤلفاته العلمية الفذة، في علوم نظرية وعملية وتطبيقية؛ ظلت مرجعا لقرون عديدة لكل من أراد الإبحار والتعلم، وما تزال تشكل علامات مضيئة في تراثنا الإسلامي العلمي والفلسفي. وقد جاء كتابه المذكور متجاوزًا أدب الرحلة في مفهومه الدارج، والذي يقوم فيه الرحالة بتسجيل الطرائف والعجائب التي تخلب الألباب، وتشوق القراء، ليجعل كتابه مثارًا للمسامرة والتفكه؛ يحقق له الشهرة والقربى والحظوة. أما البيروني فقد أراد تقديم صورة صحيحة عن الهند، ينأى عما هو ذائع عنها في المخيلة العربية، من جهالات وأساطير وحكايات، وهي غاية حميدة، تضافرت مع رغبته في إيجاد مرجع علمي شامل عن الهند في عقائدها وعلومها وجغرافيتها، تعين كل من أراد فهم المجتمع الهندي، ومعرفة خباياه، خاصة دعاة الإسلام، وهم ينطلقون لنشره في بلاد لها تاريخها وحضارتها وثقافتها وآدابها الراسخة، والضاربة بجذورها تاريخيًا.

في ضوء ما تقدم، يكون الهدف من الدراسة هو السعي إلى تقديم قراءة لهذا الكتاب برؤية تحليلية، تسعى إلى فهم خطابه، ومعرفة السياقات الثقافية والزمنية والمكانية التي أنتجته، وعلاقته شخصية البيروني، العالم والباحث والمترجم والمحقق. لذا، فقد جاءت خطة الدراسة في محاور، متدرجة من العام إلى الخاص، ومن الفكرة إلى المثل، حيث تم التعريف بشخصية البيروني وتكوينه العلمي، ثم الظروف التاريخية التي جعلته يرتحل إلى الهند مرات عديدة، ودوافع تأليفه للكتاب، ومن ثَمَّ استعراض بنية الكتاب، على مستوى المتن والأبواب والطروحات العلمية والفكرية والدينية فيه.

أما منهجية الدراسة فهي منهجية تحليل الخطاب حيث توقف الباحث عند الخطاب المقدم في الكتاب بدءًا من خطبة البيروني في المقدمة، ثم تحليل النص على مستوى المخاطب، والسرديات والاقتباسات والاستشهادات، وطريقة البيروني في إيراد المعلومات، وربطها، وتعميقها، وأيضًا تبسيطها بالشرح والتحليل، بالإضافة إلى المنهج التاريخي للتعرف على ظروف تأليف الكتاب، وطبيعة العصر المعيش فيه، والوقوف على خصائص المجتمع الهندي قديما. آمل من الله أن تكون هذه الدراسة سببا في إيجاد تراكم معرفي حول كتابات البيروني الرحالة والأديب خاصة، وفي تراثنا عن أدب الرحلة ذي الطابع العلمي عامة.

أولاً: البيروني العالِم والرحّالة والتاريخ

لا يمكن النظر إلى شخصية أَبُي الرَّيْحَانِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ البِيرُونيّ (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م—٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)[١] على أنه رحّالة فحسب، ولا سبيل لقراءة رحلته إلى الهند بمعزل عن تكوينه العلمي، فهو عالم فذ عبقري، متعدد المواهب والقدرات والمعارف والعلوم، بل إنه أتقن كل ما ألّف فيه في مجالات: الفلسفة، الفلك، الجغرافيا، الجيولوجيا، الصيدلة، الرياضيات، الترجمة، والتاريخ والتأريخ. فجاء منجزه في مدونات الرحلات كجزء من مشروعاته ومؤلفاته العلمية. وبعبارة أدق، فإننا لا يمكن فهم البيروني الرحّالة والمؤرخ بمعزل عن فهم نبوغه وعطائه في علوم أخرى.

لقد اعتنى البيروني مبكرًا بالبحث والتأليف في حياة الشعوب: تقاليدها، وصناعاتها، والتعريف بأهلها، بجانب الجانب الجغرافي المتعلق بالسهول والجبال والوديان والأنهار والبحار، والذي ينعكس بلا شك على حياة السكان وطبائعهم ونشاطهم الاقتصادي، وحياتهم الاجتماعية، مع دراسة وتوثيق علومهم ومعارفهم. ونظرًا لإجادته اللغة السنسكريتية، فإن السلطان محمود الغزنوي اصطحبه معه في فتوحاته إلى الهند، ثم طلب منه تأليف كتاب، يشمل تعريفا ببلاد الهند، وثقافتها، وتاريخها، وعادات أهلها، ودياناتها، بهدف مساعدة دعاة المسلمين في نشر الإسلام بين ربوعها، وهو ما قام به البيروني بالفعل[٢].

في ضوء هذه الغاية، جاء كتاب البيروني عن الهند نوعيا في صياغته ومعلوماته والمستهدف منه، فموسوعية البيروني العالم والأديب والفيلسوف؛ أهّلته ليقرأ المجتمع الهندي قراءة علمية، ويقدم معلومات وافية مفصلة، تتجاوز المفهوم البصري الذي يعتمده الرحّالة عادة، في تسجيل ما يشاهدونه أو يعيشونه بأنفسهم، إلى تقديم كتاب علمي متكامل عن مجتمع الهند بكل اتساعه وضخامته؛ خدمة لمشروع السلطان محمود الغزنوي، والذي كون سلطنة ضخمة في أفغانستان، وكان له طموحه الأكبر في فتح الهند، ونشر الإسلام به، فطلب من البيروني مرافقته في غزواته للهند، ومن ثم وضع مؤلَّف جامع عنها، ليتواكب الفتح مع العلم، ويمتلك دعاة الإسلام في الهند معرفة كافية على أسس علمية، ووفق معلومات دقيقة.

شنّت الدولة الغزنوية حملات واسعة على شمال الهند، من خلال حملات عسكرية متتابعة، وصل عددها إلى تسع عشرة حملة، خلال الفترة من (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م- ٤٢٢هـ/١٠٣٢م)، وقاد السلطان محمود بن سبكتكين بنفسه منها ست عشرة حملة، في أكبر عملية فتح إسلامي للهند في العصور الوسيطة، حتى أصبح الإسلام والثقافة الإسلامية راسخين في المجتمع الهندي، على المستوى العقدي والاجتماعي والثقافي. وكانت خطط الغزنويين الحربية دالة على خبرة ودراية في مواجهة الأخطار، وفهم طبيعة الشعب الهندي؛ في سعي منهم لأن تكون الهند ميدانا رحبًا لنشر الإسلام، ودعم الدولة الغزنوية بمواردها الاقتصادية[٣]. وهي الفترة التي عاصرها البيروني، وكان شاهدا على أحداثها، فلا غرو أن يتوحد خلف مشروع السلطان محمود، بوصفه أحد العلماء الملتحقين في بلاطه، ومن الذين نالوا حظوة كبرى لديه، نظرا لتميزه العلمي، ونبوغه بشهادة علماء عصره جميعًا.

وقد ربطت صداقة وطيدة بين البيروني والسلطان محمود، والأخير كان أكبر من البيروني بعامين فقط، وكان السلطان ذا همة عالية، ورغبة في تكوين مملكة قوية، وهذا ما حققه في العام ١٠٢٠م، حيث امتدت حدود مملكته ألف ميل من الشمال إلى الجنوب، ونحو ضعفي ذلك من الشرق إلى الغرب[٤].

إن قرب البيروني من السلطة والسلطة لا يعني ممارسته النفاق السياسي الممجوج الذي نجده عند رحالة آخرين، والذي يُكسِب أصحابه الكثير من الشهرة والذيوع، لذا، تأتي مدوناتهم الرّحلية متناغمة مع ميول أهل السلطة في زمنهم[٥]، فأخلاق البيروني لا تعرف التزلف ولا النفاق، فهو عالم ومخترع ومبتكر، نال شهرة ضخمة منذ شبابه، وكان شديد الإخلاص في طلب العلم ونشره، وهو ما أبانته رحلته للهند التي شملت تأريخًا وتدوينًا وتسجيلاً وتوثيقًا لأحوال الهند وثقافتها، وجاء خطابها المدون- كما سيرد بعدئذ- بموضوعية وحيادية، مستقاة من روحه الموضوعية.

هذا، وبالنظر إلى السياقات التاريخية في القرن الرابع الهجري، زمن البيروني، وما قامت به السلطنة الغزنوية من جهود في فتح الهند ونشر الإسلام وسط آسيا، على الرغم من كونها مملكة مستقلة عن الخلافة العباسية في بغداد، نجد نظرة البعض السلبية إلى الممالك المستقلة البعيدة عن عاصمة الخلافة في بغداد، ويسود رأي بأن هذه الممالك كانت علامة على تفكك دولة الخلافة الإسلامية، وتراجعا في سلطة الإسلام، قياسا على حقب الدولة الإسلامية المركزية والوحدوية، التي حكمت المسلمين منذ الخلافة الراشدة والأموية وحتى الخلافة العباسية الأولى ثم الثانية، والتي إن شهدت مراحل ضعف، في حقب زمنية عديدة، إلا أنها كانت رمزًا دينيًا وحضاريًا وسياسيًا سامقًا، وهذا ما يشهد له التاريخ بأن سلطة الخليفة في بغداد كانت دوما محل تقدير واحترام من ملوك وسلاطين المسلمين في الأقاليم والدول المستقلة، بل إنهم حرصوا على التبعية له، والمناداة باسمه على المنابر. فلم يكن من شأن الانقسام بين بلدان العالم الإسلامي؛ أن يؤدي إلى ضيق معنى الإسلام والوطن الإسلامي، بل صارت كل الأقاليم- وإن تعددت- تؤلف مملكة واحدة، تسمى مملكة (دار) الإسلام، تمييزا لها عن دار الكفر (أو الديانات الأخرى) في الأمم المجاورة، مما أدى إلى قيام وحدة إسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية، تمتد من كاشغر في أقصى الشرق إلى السوس الأقصى في المغرب، كما تشمل أيضًا بلاد الهند، وبحر فارس، ومملكة السودان، وشمالي بلاد الروم، وما يتصل بها من أراضي الترك والصقالبة والبلغار والأرمن وغيرهم[٦]، فمن أهم مزايا الحضارة الإسلامية أنها شديدة التنوع في أشكالها الثقافية وتنظيماتها الاجتماعية في البلدان المفتوحة، مع احتفاظها بجوهرها الإسلامي، في مسرح جغرافي هائل الاتساع[٧]، مما أدى إلى بناء مجتمع متعدد الأعراق والجنسيات داخل العالم الإسلامي، مع توافر سبل الاتصال الإيجابي مع الشعوب الأخرى، بتنشيط التجارة، فتواصل المسلمون مع شعوب الهند والصين مبكرا، قبل فتح هذه البلاد بقرون[٨]، مما ساعدهم على تقديم صورة مشرقة عن الإسلام.

وقد تنقل البيروني وغيره من العلماء في أرجاء دار الإسلام، طالبا العلم، ومتواصلا مع الملوك والسلاطين، بدون النظر إليه بوصفه غريبا عنهم. وجاءت جهود السلطان محمود الغزنوي للتمدد في بلاد الهند، ونشر الإسلام فيها، وضمها إلى مملكته، مستظلا براية الخلافة الإسلامية، ومواصلاً جهود من سبقوه من فاتحين، موقنا أن ذلك يصب في صالح مملكة الإسلام مترامية الأطراف.

أما الإسلام في الهند، فتذكر المراجع التاريخية أن الثقافة الإسلامية وردت إلى الهند من جهة خراسان وبلاد ما وراء النهر، فشعوبها هي الأقرب في الجغرافيا للهنود، وكان جنود الفتح الإسلامي من أبنائها، ولما بلغ الإسلام الهند، أنتج حضارة إسلامية امتاحت من حضارة الهند القديمة وفلسفاتها وعلومها، كما نهض من بلاد الهند جَمْعٌ كثير من العلماء المسلمين، خاصة عندما صارت لاهور قاعدة الملك في أيام

الدولة الغزنوية وتطورت لتكون مركزًا للعلوم والفنون. وتتابع الأمر مع جهود ملوك المملكة الغورية الذين فتحوا مدينة دلهي واتخذوها عاصمة للهند، وأصبحت قبلةً ومآبًا للعلماء، حتى وفد إليها أرباب الفضل والكمال من كل ناحية وبلدة، فدرسوا وأفادوا عهدًا بعد عهد، ولم تزل كذلك إلى آخر عهد الملوك التيمورية(٩).

وهو ما يفسر لنا طبيعة كتاب البيروني عن الهند، وما فيه من تفصيل وتعميق وإحاطة بكل علوم الهند ومعارفها وفنونها، ليكون مرجعا للدعاة المسلمين. فالهند أمة عظيمة التاريخ والحضارة والثقافة، ولابد من فهم هذا، لمن أراد الولوج إلى عالمها، ونشر ديانة جديدة مثل الإسلام، مصحوبة بثقافة وعلوم ومنجز حضاري كبير. وبعبارة أخرى: لا يمكن غزو أمة متحضرة، ونشر دين ومعارف وثقافة جديدة فيها، بدون الفهم العلمي والموضوعي لثقافتها وحضارتها، وإلا ستبتلع الأمة المتحضرة الغزاة وتشبعهم بثقافتها، إذا كان الغزاة همجًا رعاعًا لا حضارة ولا ثقافة راقية عندهم. والمثل الواضح على ذلك التتار، الذين كانوا شعبًا بدائيًا، لا يعرفون استقرارًا ولا حضارة، بضاعتهم ونشاطهم منحصر في الغزو والنهب، وإسقاط الدول، وقد تمكنوا من تكوين إمبراطورية ضخمة، بعدما أفنوا شعوبًا، وهدموا ممالك، إلا أنهم سرعان ما تأثروا ثم ذاب في شعوب دار الإسلام، بحضارته الزاهرة، التي غزوها، في بلاد فارس والمشرق العربي والشام، بفعل عوامل متعددة منها: إعجابهم واتباعهم بالتصوف الإسلامي، وزواجهم من المسلمات، واقتداؤهم بما رأوه من تحضر السكان المسلمين في وسط آسيا وفارس والعراق، فأسلموا وخدموا الإسلام عندما حكموا(١٠).

وقد استبق البيروني كتابه عن الهند، بالاطلاع على تراث الهند العلمي، من خلال مصاحبته للسلطان محمود الغزنوي ثلاث عشرة مرة إبان حملات السلطان على الهند، فخالط البيروني المجتمع الهندي، نخبة وعامة وقرأ أسفارهم، وعرف تقاليدهم وشرائعهم، وألمّ بطرائق تفكيرهم وحكمتهم(١١). كما قام البيروني بترجمة اثنين وعشرين كتابا من اللغة السنسكريتية إلى العربية، ومن أبرز هذه الكتب: جوامع الموجود لخواطر الهنود، قانون الأركند، خيال الخسوفيين، راشيكات الهند، الساماكاليتا وفيه نظام الأعداد الهندي ترجمة النظريات الرياضية لبرهما سدهانتا. كما قام أيضًا بترجمة كتبٍ من العربية إلى السنسكريتية، وجلُّها من التراث الإغريقي، ومن أبرزها: أصول إقليدس، كتاب المجسطي لبطليموس، كتاب عن صنعة الإسطرلاب(١٢). مما يعني أن رحلات البيروني لم تكن للمشاهدة والسياحة والتعرف على أحوال شعوب الهند فقط، وإنما اندمج في الحياة العلمية الهندية، وغشي مكتباتها ومجالسها العلمية، فقام بما يشبه عملية الحوار الحضاري والثقافي، عبر الترجمة والاطلاع والحوار، في جهد دؤوب متميز.

فجاء كتابه عن الهند متميزا في إضافته العلمية والأدبية. وكما قال أحد الرحالة: "إذا لم تضف الرحلات إلى قائمة المعرفة البشرية، فإنها تصبح ضارة". لأنها شهادة على العصر والمجتمع الذي عاشه المؤلف الرحالة، فيجب أن تكون شاملة لكافة جوانبه، ويحركها هدف نبيل. ويجب أن تكون دقيقة في معلوماتها، وإحصاءاتها، وتواريخها، وحوادثها، وتفصيلاتها، وأيضًا خرائطها ورسومها وصورها. فالرحلة وثيقة حية، ونتاج معاينة ومعاناة، وأذواق منقحة، مما يجعلها مصدرًا هامًا للدراسات التاريخية المقارنة، والدراسات الثقافية بجانب كونها من أدب الرحلات(١٣). فمدونات أدب الرحلات الرصينة، تتأسس على الإضافة المعرفية العميقة، والتي تتجاوز الفردانية والأحاديث السائرة عن أحوال الملوك، قصورهم وخدمهم، ومظاهر العمران وأحوال الشعوب في البلدان(١٤)، إلى تقديم نشاط الإنسان وإبداعه وابتكاراته وثقافته، وهذا لابد أن يكون في أمامية الصورة، أما ما عداه فيكون في خلفيتها(١٥). فبعض الرحّالة دونوا الطرائف ووصفوا العجائب في حياة الشعوب، وبالغوا في ذلك من أجل جذب القراء لكتبهم، ولكن البيروني نأى عن ذلك، ليقدم لنا كتابا جمع العلم في منتهاه، والتاريخ وأخباره، وعرّفنا بطبائع الهنود النفسية والاجتماعية، ولم يهمل معالم الهند، وما تتميز به في طبيعتها، وأيضًا في مبتكراتها العمرانية والعلمية، ليكون كتابه فريدا يجمع التاريخ والعلوم وأدب الرحلات والفنون.

تتبقى نقطة مهمة، تجب الإشارة إليها، وتتعلق بتنازع دول عديدة تتنازعه للبيروني جنسيتها، فأوزبكستان تتفاخر به، وهي التي تضم سمرقند وطشقند وبخارى وترمذ، وأخرجت كبار علماء الحديث أمثال: البخاري ومسلم والترمذي، كما تدعي إيران، نسبته إليها، فقد أجاد لغتها وعاش فيها، وكذلك جمهوريتا طاجيكستان وأفغانستان، وقد قضى البيروني فيهما شطرًا من حياته، كما تتفاخر القومية التركية بنسبته إليها، لأنه ولد في خوارزم، التي هي من أعمال جمهورية تركستان حاليًا. ونتمسك به نحن العرب، لأن جلّ مؤلفاته كانت باللغة العربية(١٦). وفي الحقيقة هذا التنازع مبني على أساس التعصب للهويات القومية، وجنسيات الدول التي رسمت حدودها حديثًا، وكل هذا،

لم تعرفه الحضارة الإسلامية، وقد عاش في كنفها عرقيات وشعوب وجنسيات كثيرة، اعتنقوا الإسلام، وتعلموا علومه، وأبدعوا بالعربية، مثلما دونوا كتبًا بلغاتهم الأصلية، وفي جميع الأحوال، كان التفاخر الشعوبي نزعة مدانة دينًا وأخلاقًا، ولا يمكن قراءة المنجز الحضاري الإسلامي على أسس قومية أو حدودية.

ثانيًا: كتاب رحلة البيروني

يقع كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" وفق النسخة التي بين أيدينا في (٦٤٧) صفحة، شاملة الفهارس والجداول والرسومات والخرائط، وهو يشكل مرجعا علميا شاملا عن الهند، لأنه يحمل منهج علماء المسلمين الثقاة في قراءة المجتمعات غير المسلمة، قراءة دقيقة، تتوخى الحق والحقيقة، وتنتصر لما هو موضوعي مؤصل علميا، مما جعل الكثير من دارسي تراث البيروني، يتوقفون متعجبين أمام هذا الكتاب، ورأى بعض المستشرقين أن كل ما كتب عن الهند قبل هذا الكتاب يعد لعب أطفال، بجانب تحقيق البيروني[١٧].

وستتم دراستنا لهذا الكتاب وفق منهجية قوامها التحليل الدلالي للمتن النصي، الذي لا يكتفي بما هو وارد في النص المدون، وإنما يبدأ من العنوان، يقرأه في ضوء مضمون الكتاب، والغاية منه، كما ينظر إلى الفهرس بأبوابه، والذي يقدم رؤية متكاملة منسقة، توضح دقائق الكتاب. ومن ثَمَّ ينصرف الجهد إلى تحليل الخطاب، والسعي إلى الوقوف على مزايا الأسلوب، ومنهجية التناول، وطريقة إيراد المعلومات، والقارئ المستهدف ضمنيا، وغير ذلك من النقاط، التي تفسر بعضها بعضا، في ضوء أن الباحث لا يكتفي بالعرض، وليست تلك غايته، وإنما يسعى إلى الغوص حول الدلالات، والوقوف على الأبعاد والمرامي، فالنص لا ينفصل عن عصره، مثلما هو جزء لا يتجزأ من ذات مؤلفه، وتحضر في ثنايا المتن الكثير من الإشارات العلمية والفكرية، النابعة من الثقافة الإسلامية، ممزوجة بالثقافات الأخرى.

ثالثًا: العنوان والنهج والطروحات

يمكن أن نعد العنوان مدخلا واستراتيجية لفهم الكتاب، ذلك أن العنوان جزء أساس من متن النص، ولا يمكن النظر إليه بوصفه اختزالاً للنص، وإنما له مقاييسه وأشكاله وأسسه، التي توجب التوقف عنده فحصًا ودرسًا على مستوى اللفظ والدلالة. فالعنوان يؤلّف "على مستوى التعبير مقطعًا لغويًا يعلو النص، تتحكم به قواعد سيميائية، تعمل على بلورة موضوعه، وتحديد رمزيتها وترميز دلالتها، في مفردة أو عبارة ذات أجزاء، تتعاقب لأداء وظيفة صياغة العنوان وتشكّله؛ انطلاقا من أن ثمة توازيًا شكليًا ودلاليًا بين العمل وعنوانه"[١٨]، والدلالة السيميائية تعني أن العنوان يتحول من مجرد جزء من النص/ الكتاب، إلى كونه علامة تميز الكتاب، خاصةً إذا وجد الكتاب رواجًا لدى النخبة والعامة، وهو ما تحقق لكتاب البيروني منذ تأليفه.

فمن الملاحظ أن مؤلفي الكتب التراثية حرصوا على التجويد في اختيار عناوين كتبهم، وصياغتها بشكل جذاب لغويًا ونغميًا، مع ارتباطها بالدلالة الكلية للكتاب، وهو ما نجده في عنوان كتاب البيروني، والذي صيغ مفصلا معمقا دالا، وفق ما درجت عليه الكتب التراثية فالعنوان: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، مميز في بنيته اللغوية، من خلال السجع بلفظتي (مقبولة، مرذولة) وكلتاهما طباق دال على التوكيد والنفي، التوكيد من خلال الدلالة المتوخاة وهي تقديم معلومات ومعرفة محققة يقبلها العقل، والنفي لما عداها من أخبار ومقولات راجت لدى القارئ العربي عن الهند، ولا سند علميًا لها، واقعيًا أو مرجعيًا.

فيمكن القول إن العنوان يمثل استراتيجية محورية لفهم منهج البيروني في كتابه، والذي يسعى إلى تقديم كل ما هو محقق وعلمي عن المجتمع الهندي، ومناقشة ونقض كل ما هو غير علمي. وبذلك يكون العنوان علامة على رؤية ومنحى، يعلن عنهما البيروني منذ البدء، ويصبح الكتاب نفسه "بنية معادلية كبرى؛ طرفاها العنوان/ النص، وربما شكل بنية رحمية تولد معظم دلالات النص"[١٩]، بمعنى أن دلالات عديدة يمكن إنتاجها من خلال دراسة علاقة التواشج بين العنوان والمتن النصي إذا أعدنا فهم العنوان في ضوء مضمون الكتاب.

يستهل البيروني مقدمة كتابه بتوضيح أمر يتصل بلب مدونات أدب الرحلات، ألا وهو التفرقة بين الخبر المنقول عن كتابات أو مرويات سماعية، وبين من يعاين ببصره ويشاهد بأم عينيه، ويشهد بنفسه، فالأول يعني أن المؤلف ينقل عن آخرين شفاهة أو تدوينا، أما الثاني فإن المؤلف يسجل ما رآه بعينيه، وليس من رأى كمن سمع، وهو ما يجذب القراء لأدب الرحلات، فالرحالة هو مؤلف يسجل كتابيًا ما رآه بصريا. لذا، يقرر البيروني في خطبة الكتاب: "إنما صدقَ قولُ القائل: "ليس الخبر كالعيان"، لأن العيان هو إدراك عين الناظر عينَ المنظور إليه، في زمان وجوده، وفي مكان حصوله، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان، والنظر لقصورهما على الوجود الذي لا

يتعدى آنات الزمان، وتناول الخبر إياها، وما قبلها من ماضي الأزمنة، وبعدها من مقتبلها، حتى يُعمَّ الخبر لذلك الموجود والمعدوم معًا. والكتابة نوع من أنواعه، يكاد أن يكون أشرف من غيره، فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم؟"[٢٠].

إنه يثبت أهمية المعاينة الذاتية من قبل المؤلف الرحالة، ويجعلها فوق نقل الخبر، ولا يعني ذلك-عنده-التقليل من الخبر المدون والمنقول، وإنما يجعل الخبر الممتزج مع الرؤية العينية المباشرة؛ يعلو على الخبر المنقول، مع الإشادة في الوقت نفسه بأهمية الخبر المنقول، فكيف نعرف أخبار الأمم القديمة لولا كتب التاريخ وأخبارها؟ وهو نهج موضوعي دال على سمو شخص البيروني، الذي لا يحقر جهدًا أو عطاء. مع تحذيره بعدئذ من أن هناك ناقلي أخبار، لا يتحرون الحقيقة، " لتفاوت الهمم، وغلبة الهراش، والنزاع على الأمم"، وهناك من هو "مخبر عن كذب، في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر..، ومن مخبر عنه متقربا إلى خير بدناءة الطبع، أو متقيًا لشر من فشل أو فزع"[٢١]، وغير ذلك من دواعي الاختلاق وعدم التحقق في إيراد الخبر ونشره، وكلها تنأى عن العلمية والموضوعية.

ثم يخلص إلى قضية الكتابة والأخبار عن الهند، وكيف أنها تعرضت إلى كثير من النقل المغلوط، والإخبار المذموم، فيقول موضحا مشكلة من تناول أديان الهند ومذاهبهم: "إلى أن أكثرها (مما) هو مسطور في الكتب؛ هو منحول، أو بعضها عن بعض منقول ملقوط، مخلوط غير مهذوب، على رأيهم غير مشذب، فما وجدت من أصحاب كتب المقالات أحدا قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مداهنة، سوى أبي العباس الإيرانشهري...(فقد) حرص على تحرير ما عرفته من جهتهم ليكون نصرة لمَنْ أراد مناقضتهم، وذخيرة لمن رام مخالطتهم"[٢٢].

يتضح من الاقتباس السابق، أن البيروني انتهج في تدوين كتابه نهجا جمع ما بين الأديب الرحّالة عندما يدوّن رحلاته، ومنطق العالِم عندما يتحرى المعلومات. فقد اطلع على كل ما سجّله المؤلفون المسلمون عن الهند وأديانها ومذاهبها، واكتشف أن غالبية ما ذُكِرَ عنها مشوه أو يعتريه الكذب والنقل الخطأ والخلط الذميم، وعدم التهذيب ولا التشذيب، وما وراء ذلك من أهواء، لا تصمد أمام الموضوعية العلمية. واستثنى في ذلك عالما واحدا، وهو أبو العباس الإيرانشهري، والذي وضع سفرًا عن الأديان الأخرى، ونقل بدقة عن بعض المراجع الهندية أخبارا عن عقائدهم، وهذا ما تحقق منه البيروني بالفعل. ثم ينبه على أمر مهم، وهو أن المعرفة الصحيحة عن المجتمع الهندي هي السبيل الوحيد لمن أراد الفهم ثم النقاش والنقض والنقد لهم.

ولو أسقطنا مناهج قراءة المجتمعات الأخرى المعاصرة على ما انتهجه البيروني، سنجد أنه يلتقي مع منهجية كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد، والقائم على الانتصار للشرق والإسلام كما هو وواقع ومفهوم لدى المسلمين، وليس كما تخيله المستشرقون المرتبطون بدوائر الاستعمار، فصاغوا كتابات عن الشرق تتوافق مع العقلية الأوروبية الاستعلائية، التي تحط من شأن الشعوب والأديان المخالفة لها. لذا، يشدد إدوارد سعيد على أهمية أن تقدّم ثقافات الشعوب منزهةً عن السياسة، بمعنى أن تكون علمية محايدة، تعلو على المعتقدات المذهبية وترتقي فوق الحزبية أو التحيزات ضيقة الأفق[٢٣]، والتي تنتج في النهاية التشويه وعدم الدقة، والتعميم القائم على الجمود المذهبي والقناعات المسبقة.[٢٤]

ولا نذهب بعيدًا عندما نقرر أن البيروني واجه مشكلات مع العقلية العربية، عندما وجد مفاهيم مغلوطة شائعة بين المسلمين، لا تقدم الحقيقة عن الهند. لذا، أدان أن تصبح الهند وجماعاتها وأعراقها ودياناتها وعلومها "من الأسمار والأساطير يُستمَع لها تعللاً بها والتذاذا، لا تصديقا لها واعتقادًا"[٢٥]. وبذلك يرفض الصورة الشائعة عن الهند في مخيلة المسلمين، بوصفها بلاد العجائب المروية للسمر.

على صعيد آخر، فإن البيروني يشدد على أن كتابه ينأى عن محاججة عقائد الهنود من المنظور الإسلامي، فيقول: "وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل، حتى أستعمل فيه بإيراد حجج الخصوم، ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورِدُ كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم، فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم عن رموز نحلتهم، ومواضعات ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم، إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد"[٢٦]. لقد أوضح البيروني أن كتابه كتاب "حكاية"، ومفهومها لغويًا: ما يُحكى أو يُقص، وقعَ أو تُخِّيل[٢٧]، فالحكي يشمل الضدين، ما هو قائم وحادث بالفعل على وجه الحقيقة، وما هو متخيل، وإن كان السيوطي يحدد دلالة اللفظ بإيراد لفظ المتكلم على حسب ما أورده في الكلام[٢٨]، أي وفق مقصود المتكلم الحقيقي، فينفي بالتالي عنصر التخيل أو الاختلاق. وقد احتاط البيروني، فذكر بعدها:" فأورِدُ

كلام الهند على وجهه.. كما لا أذكرً مع كلامهم كلام غيرهم"، أي يذكر المعلومة عن الهند على حقيقتها، متحريًا أن يورد كلامهم بشكل مستقل، قبل أن تحضر المقارنة مع معارف اليونان أو الصوفية أو النصارى، كما يورد، وبكثرة مختلف السرديات والحكايات المرتبطة بالمعلومة المذكورة، والمأخوذة من مصادرها الأصلية في المراجع الهندية، أو أن البيروني قد سمعها بنفسها في محاوراته ورحلاته.

يلتقي هذا النهج مع ما يسمى في أدب الرحلات بـ "التدوين الموضوعي"، ويعني: اختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب، ولابد أن تتسق هذه الموضوعات مع الهدف الأساسي الذي من أجله دوّن الرحال رحلته، وقد يراعي في هذا الاختيار التسلسل الزماني المكاني أو لا يراعي، وقد يتخذ هذا النهج شكلا علميا، فيتتبع موضوعا بعينه"[٢٩].

فالموضوع هو الهند مجتمعًا وثقافة ودياناتٍ ولغة وعلومًا، وقد احتوى الكتاب على ثمانين بابًا، تغطي كل شيء عن الهند، ويمكن بلورتها في الموضوعات الآتية[٣٠]:

الموضوع الأول: ما يتعلق بدياناتهم، وعقائدهم، ويشمل الأبواب (١- ٧، وكذلك ١٠- ١٢، ٢١،٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٢، وكذلك من ٤٣-٤٦، وكذلك من ٦٥- ٦٩، وكذلك من ٧٠ – ٧٥ ، ٧٧- ٧٨)، وذلك بذكر ما يتصل بإيمانهم بالله سبحانه وتعالى، ما بين إيمان الخواص بالله، واعتقاد العوام وفي ذكر معتقداتهم الحسية والعقلية، وفي سبب الفعل، وتعلق النفس بالمادة، في ذكر المجامع ومواضع الجزاء في الجنة والنار، وكيفية الخلاص من الدنيا. وكذلك ما يتصل بالسنن والنواميس والرسل، وعبادة الأصنام والمنصوبات، والكتب الدينية عندهم مثل بيذ والبرانات وكتبهم الملّية. وتصورهم عن الجنة والنار والسموات السبع والأرضين، وخلق العالم وفنائه. والقصص الدينية المشهورة عندهم. ومواسم الحج ومواضع الزيارات الدينية، وتقديم القرابين، والمباح والمحظور من الأطعمة والمشروبات، والصدقة، وآداب النكاح، وفي الكفارات، وعقوبة الزاني والسارق، والصيام وأيامه وآدابه، وحكم الميت، والتعامل مع جسده، وذكر الأيام المعظمة والمنحوسة عندهم، ومواسم الأعياد والأفراح.

الموضوع الثاني: ويتعلق بأجناس الخلائق وأسمائهم، ويشمل الأبواب (٨ ، ٩، ٦٣، ٦٤)، ويتناول طبقات المجتمع الهندي، ومراتب البراهمة وتدرجاتهم. **الموضوع الثالث**: علوم الهند ولغاتها وآدابها، وتشمل الأبواب (١٣- ١٧، وكذلك ١٩،٢٢، ٢٩، وكذلك من ٥٠ - ٥٧) فيذكر ما جاء في كتبهم من النحو والشعر، وكذلك علوم النجوم والفلك، والجهات العشر وعلاقتها بهبوب الرياح، وموازينهم للسلع، وحروف الهجاء، وطرق الكتابة وأنواع الخطوط، والأرقام الحسابية، وعلم الكيمياء، وما يحبونه في الصيد البري، وعلوم الفلك والنجوم والكواكب.

الموضوع الرابع: جغرافية الهند وتضاريسها وعلوم المناخ والطقس، والزمن، وتشمل الأبواب (١٨، ٢٥، ٢٧، ٢٨، وكذلك من ٣٠-٤٣، وكذلك من ٥٨- ٦٢، ٧٩، ٨٠)، بوصف الجبال والأنهار، وتصورهم عن القطب الجنوبي، ووصف الأنهار التي تخرج من جبالهم. وتصورهم عن المعمور من الأرض، ومقولاتهم عن خطوط الطول، وتقسيم اليوم، ووصف الليل والنهار، وما يقصر عن اليوم، وتقسيم الشهور والسنين، والفصول الأربعة، وحركة المد والجزر، والكواكب السبعة.

الموضوع الخامس: التاريخ وأخبار عن بعض ملوكهم، ويشمله الباب(٤٩).

وعندما نتأمل ما سبق، نجد جملة أمور، يمكن مناقشتها في النقاط التالية:

أولها: الرؤية الشمولية التي ألّف بها البيروني كتابه، وجعله شاملا لكل جوانب الحياة في المجتمع الهندي، معتمدا في ذلك على اطلاع دقيق وموثق على العلوم الهندية، ومعاشرته المباشرة للنخبة والعامة، فجاء كتابه سفرًا ضخمًا، دقيقًا في معارفه.

ثانيها: تنوعت موضوعات الكتاب، لتجيب عن مختلف الأسئلة المتوقعة والمتصلة بمعتقدات وأديان وعادات وتقاليد ومعارف الهنود، بما يجعلها تقدم صورة شبه متكاملة عن الهند، المجتمع والناس والتقاليد والحياة، وبما يخدم أي داعية أراد التوغل في المجتمع الهندي، ومخاطبة شعبها، أو كل من سعى لمعرفة صحيحة، بعيدا عن القصص المتواترة عن الهند، والتي تحصره في حكايات خرافية أو أديان وثنية، وعقائد كافرة أو تكتفي بما ورد من حكمة على ألسنة الطير والحيوان، في كتاب كليلة ودمنة، والذي ترجمه عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ)، واكتسب مكانة كبيرة في الثقافة العربية، لقصصه الشيقة، وحكمته البليغة، وإن كان قد قدّم معرفة مبتسرة عن المجتمع الهندي، تجعله يبدو غائما غير واضح المعالم في مخيلة القارئ العربي.

ثالثها: تم التركيز بشكل لافت على الدين والمعتقد، وقد احتل (٣١) بابًا من الأبواب الثمانين للكتاب، ناهيك عن اتساع المساحة المدونة وكثرة ما تحويه من تفصيلات شارحة وموضحة، قياسا ببقية الموضوعات الأخرى، وربما يعود هذا إلى رغبة البيروني في تعريف العربي المسلم بديانات الهند، التي

تشكل أساسا لحضارتها وثقافتها، وليست مجرد شعب يركب الأفيال، ويقدس الأبقار؛ كي يعي القارئ المسلم حقيقة المجتمع الهندي، ومن ثم يحسن التعامل معه، فلا يمكن لأي داعية مسلم أن يدعو إلى الإسلام، أو يتواصل ثقافيا وحضاريا مع مجتمع عريق في الحضارة، متدين ثقافته وعاداته وتقاليده. وإذا دققنا في طبيعة المعلومات الواردة عن الدين، نجد أن البيروني استند إلى أصول الكتب الهندية الدينية القديمة، فلم ينقل عن الغير، ولم يكتب ما شاهده من ممارسات دينية فقط، وإنما قرأ الكتب، ودخل المعابد، وعاين الشعائر، قبل أن يكتب. أيضًا، فإن البيروني أورد كل ما يتعلق بالديانات الهندية، المتنوعة ما بين الوثنية والطوطمية والأصنام وغيرها، ومنهم من يعتقد بوجود الله سبحانه وتعالى. ومن أبرز ديانات الهند: البوذية، والجينية، والسيخية، وقد انقسمت هذه الأديان إلى عقائد كثيرة، بآلهة متعددة، ورموز وأشكال لا حصر لها، كما آمنوا بأن هناك رئيسا للآلهة، يندرج تحته مرؤوسين، أي آمرا ومأمورين، وأن رئيس الآلهة هو رب الأرباب، وإله الآلهة، ثم جمعوا الآلهة في إله واحد، وأقروا بعقيدة التثليث التي تشابه المسيحية، كما أنهم فتحوا الباب للإيمان بالمسيحية[٣١]، وقد نبه البيروني إلى ذلك، مفصلا كل ما يتصل بالأخلاق والسلوكيات والعبادات وكذلك أمور الصيام والصدقة والحج والوفاة، حتى أحكام الحيض والنفاس والنكاح.

ومن هنا، يسهل على الداعية المسلم التعامل مع هذه الفسيفساء الدينية، ونشر الإسلام بعقيدته التوحيدية الحنفية النقية، وتبيان صفات الله وأسمائه، فهو ديانة لها منظومة متكاملة من الأخلاق والسلوكيات، ويوفر إجابات عن مختلف الأسئلة الدنيوية والأخروية، فيكون بمثابة المنقذ لمن أراد الدين الصحيح، خاصة إذا تعلق الأمر بمحاورة أقوام لهم معتقداتهم وطقوسهم الوثنية.

رابعها: أشار البيروني إلى التركيبة الاجتماعية المعقدة للمجتمع الهندي، المستندة إلى طبقات، أساسها ديني ودنيوي، يقول: " وقد كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم إلى تصنيف الناس إلى طبقات ومراتب، يحفظونها عن التمازج والتهارج، ويحظرون الاختلاط عليها بسببها، ويلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة أو حرفة، ولا يرخّصون لأحد في تجاوز رتبته، ويعاقبون من لم يكتفي بطبقته "[٣٢]، وربما كان هذا السبب الذي وقف عائقا بعض الشيء أمام انتشار الإسلام، عندما شاهد الهنود معاملة المسلمين لبعضهم البعض، وقيمة المساواة بينهم، خاصة أن فاتح الهند السلطان محمود الغزنوي كان نموذجا في الخلق القويم، حريصا على نشر الإسلام، غير مكتف بالسيطرة على البلاد وضمها له، فلم يعتدْ الهنود أن يجدوا شعبا يتساوى فيه الجميع عندما يصطفون في الصلوات، أو يجلسون للطعام، دون أثرة أو تفاخر أو أنانية.

وتعتمد تراتبية الناس في المجتمع الهندي على النسب، فهناك أربع طبقات، هي على الترتيب في المكانة: البراهمة، الجند، التجار والصناع، العبيد والخدم، وهناك أيضًا المنبوذون، والذين يشابهون أولاد الزناء، ولا يدخلون في الطبقية الاجتماعية، وقد تأثر الهنود بهذه النظرية العنصرية، بسبب التقائهم بالآريين، وتمازجهم معه، والآريون يرون أنهم جنس يسمو على سائر الأجناس، وكلمة آري تعني "النبيل"، ومن ثم انتشرت الفكرة في الديانة الهندوسية، ثم تحولت لمسلَّمة اجتماعية مطلقة[٣٣]. فكل فرد هو نتاج طبقته الاجتماعية التي ولد فيها، ولا أمل أمامه إذا كان وضيعًا في أصله بارتقاء درجات السلم الاجتماعي، كما أن أبناء الطبقة العليا يحافظون على مكانتهم، والغريب أن أبناء الطبقات لا يتخالطون فيما بينهم، فإذا تصادف أن تجاوروا في مطعم أو مشرب أو مجلس، فإنهم يضعون حوائل بينهم.

وهو ما أكده البيروني، في تعليقه على هذا الأمر، فيقول: "وللهند في أيامنا من ذلك أوفر الحظوظ، حتى أن مخالفتنا إياهم، وتسويتنا بين الكافة إلا بالتقوى، أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام"[٣٤]، فالأمر مستقر، ببنيات اجتماعية طبقية لا يمكن تجاوزها، وعلى الداعية المسلم أن يكون واعيا لهذا، فالنسب له بعد ديني واجتماعي.

على جانب آخر، فإن الهنود لديهم أشكالا عدة من الأنكحة تشكل فوضى في الأنساب، وقد أفاض البيروني في توضيحها، ومنها أنكحة كانت عند العرب في الجاهلية، مثل نكاح الاستبضاع، وزاد عليها الهنود بنكاح البدل، بأن يتبادل الرجلان زوجتيهما، كما شاع نكاح المقت، بأن ينكح الولد زوجة أبيه بعد وفاته، أو ينكح الأب امرأة الابن. ويعلق البيروني على ذلك بقوله: "إنما حكيت هذا، ليعرف بإزائه حس الحق، ويزداد ما باينه عند المقايسة قباحة"[٣٥]، وهو ما يضاد منظومة الشريعة الإسلامية التي تتحرى مواضع النطف، وتمنع كافة أشكال نكاح المحارم والمفاسد.

خامسها: جاء إسهاب البيروني في وصف كل ما يتصل بعلوم الهند من فلك ولغة وآداب وأشعار وحكمة وكتب بجانب إشارات إلى التاريخ والملوك والحكماء؛ من أجل اكتمال المعرفة

لغويا وعلميا وجغرافيا وفلكيا وحسابيا وقانونيا، كما أشار تفصيلا إلى ألعابهم خاصة لعبة الشطرنج[٣٦]، كما ذكر ألوان السحر لديهم، ومنها السحر الأسود، والسحر الذي يعيد العجوز شابًا[٣٧] وغير ذلك.

وقد يعنّ استفهام عن عدم وجود أبواب مستقلة تحكي تاريخ الهند بشكل مباشر، بمعنى عرض حقبه الزمنية، والممالك التي تتابعت على أرض، وأخبار الحكام والملوك، في بلد شهد استقرارًا على جانبي أنهاره منذ فجر التاريخ، والذي يكون سببًا مباشرا لقيام الحضارات, ولعل السبب الأساسي الذي يفسر هذا الاستفهام هو غاية البيروني ذاتها في تقديم رؤية معرفية تكاملية، مما يعني عدم التبحر في التاريخ، إلا بالقدر الذي يفسر ظواهر الحاضر، فوجدنا توغلا في التاريخ عندما يتعلق الأمر بالأنساب أو الأنكحة أو الطبقات أو حتى تطور الأديان المختلفة، فيحكي المؤلف مسبباتها وأحداثها في ضوء ما اطلع عليه، في الكتب أو فيما سمعه، أو اطلع عليه.

وهناك سبب آخر، يتصل بمكانة التاريخ في الثقافة الهندية، فعلى الرغم من امتداد الحضارة الهندية في التاريخ لآلاف السنين، فإن المدون عن تاريخها نزر قليل، مما دفع بعض المؤرخين المعاصرين إلى اتهام البراهمة الهنود بافتقادهم الحس التاريخي؛ فجلّ منتوج الحضارة الهندية متجليا في كتابات روحية وفلسفية، نجدها في الملاحم الكبرى مثل "ماهاباراتا"، و"رامايانا"، و"بوراناس"، وفيها استشهادات من التاريخ، لشخصيات تميزت روحيًا وأخلاقيًا ودينيًا، بما يعني أن المؤلفين الهنود كانوا منهمكين بالدين وليس بالتاريخ. وعندما حكمت الإمبراطورية المغولية المسلمة الهند، انحصر التاريخ المدون في البلاط الإمبراطوري، وحركة القادة والفتوحات. كما أن أساطير الديانة الهندية ترسخ فكرة التجسيد الإلهي، وأن الإله يتجسد في بعض البشر ليكون عونا لهم، كما آمنوا بفكرة تناسخ الأرواح[٣٨]. مما يقلل الإيمان بدور الفرد، فلا قيمة ولا دور له، لأن الإله تجسد فيه، أو أنه يحمل روحا لإنسان آخر.

ونرصد كتاب البيروني الكثير من القصص المأخوذة عن كتب الأساطير الهندية، كما تكثر الإشارة إلى كتب الملاحم والأساطير الهندية في ثنايا المتن. وعلى العموم، فإنه يمكن القول، بأن من ينتهي من قراءة هذا الكتاب، يستبين له كل شيء تقريبا عن الثقافة الهندية، فيستطيع العيش بينهم، ومحاورتهم، وهو واع تماما لتقاليدهم ومعتقداتهم وعلومهم، ملما بالكثير من مصطلحاتهم.

رابعًا: بنية الخطاب وسماته

دلّت بنية الخطاب في الكتاب على مجموعة من السمات والمكونات التي تميزه أسلوبيًا ومضمونيًا ومعرفيًا؛ عن غيره من كتب الرحلات، مما يجعله مؤلَّفًا نوعيًا. لذا، تهدف مقاربتنا إلى الوقوف على التكوين والبنية في أسلوب الكتاب، وذلك من خلال النظر في نهج البيروني في الخطاب، والصياغة، وعرض المعلومات وقصّ السرديات، وأيضًا النظر في حضور التاريخ والثقافات الأخرى.

بداية، فإن أي مؤلف يضع قارئا مفترَضًا في حسبانه وهو يصوغ كتابه فلا يمكن فهم نص الكتاب فهما كاملاً، إلا إذا نظرنا إلى طبيعة القارئ المستهدف، والذي سيفيدنا بلا شك في إعادة بناء للفكرة التي كوّنها المؤلف عن القارئ والموضوع ضمن محدداته التاريخية[٣٩]، مما يؤدي إلى فهم أكثر لذات المؤلف وأفكاره وغاياته وطريقته في التأليف، ولتصبح قراءة النص عملية بناء للمعنى، وليس الكشف عنه فقط[٤٠]، فأي نص يقرأ في سياقاته التاريخية، وفي ضوء الغاية التي يرومها المؤلف، ونظرته إلى مدى احتياج القارئ للمادة المقدمة له معرفيًا وفكريًا.

وإذا نظرنا إلى القارئ المستهدف في كتاب البيروني سنجده القارئ العربي المسلم في عصره، وأن الكثير من التنبيهات التي صاغها البيروني في متن النص تشير إلى رغبته في تعريف هذا القارئ بالمجتمع الهندي معرفة صحيحة، من أجل تأسيس علاقة ثقافية حضارية، قوامها معرفة الآخر/ الهندي بشكل صحيح، وتعريف الذات الحضارية المسلمة به، واطلاعها على علوم الهند وثقافتها، بدون استعلاء حضاري، أو اغترار معرفي، أو تحقير لأديانهم وعاداتهم ومجتمعهم.

وربما يكون هذا النهج انعكاسًا لما قام به البيروني بنفسه خلال رحلاته وإقامته الطويلة في الهند، حيث كان خير سفير للعقل المسلم في القرن الرابع الهجري من خلال محاوراته مع علمائها ونخبتها، الذين رحّبوا به عالما يجيد لسانهم، ومطلعًا على علومهم، مقدّمًا إليهم ترجمات وشروحات للعلوم الحضارية الإسلامية، مع تجربة العقل المسلم فلسفيا، وشروح المسلمين للتراث الفلسفي اليوناني، ولا سيما أن الهنود لم يطلعوا على الفلسفة اليونانية نظرا لجهلهم باللغة اليونانية، مما أدى إلى علو منزلة البيروني بينهم عندما رأوا ترجماته للغتهم[٤١]، فقد كان الهنود يصفون اليونانيين بأنهم أنجاس[٤٢]، في جهل شديد بتراثهم الفكري والحضاري.

توجه البيروني بخطاب عقلاني هادئ إلى القارئ العربي، فيستهل كتابه، بأنه لا يمكن معرفة أي مجتمع إلا من خلال الاتصال المباشر معه، والمقاربة لحياة شعبه، والوقوف على تقاليدهم وثقافتهم؛ بمنهجية علمية، يقول: "يجب أن نتصور أمام مقصودنا الأحوال التي لها يتعذر استشفاف أمور الهند، فإما أن يسهل بمعرفتها الأمر، وإما أن يتمهد لها العذر، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة"[٤٣]. فمفردة (استشفاف) دالة على أن السبيل للمعرفة الصحيحة لابد أن يكون باستقراء واطلاع وموضوعية، ففي جميع الأحوال، ستعود الفائدة على من أراد الوصال/ التواصل، فمن يبغي دراسة الثقافة الهندية، يكون بين حالين، كلاهما إيجابي: إما بسهولة المعرفة إذا عزم على التعلم، أو التماس العذر له إذا لم يطلع بعد. فالجاهل بأحوالها له العذر، وعليه أن يحول قطيعته المعرفية إلى وصال، وأن يجعل الوصال سببا في الوقوف على الحق، فإن صعب عليه الأمر له المعذرة حتى يعرف.

ثم يواصل كلامه موضحًا أوجه الاختلاف بين العرب وبين الهند بذكر جملة من الأسباب الواقعية، فيشير إلى أن: "القوم يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الأمم، وأولها اللغة، وإن تباينت الأمم بمثلها، ومتى رامها أحد لإزالة المباينة، لم يسهل ذلك، لأنها في ذاتها طويلة عريضة"[٤٤]. فعنصر اللغة سبب رئيس في صعوبة التواصل بين المسلمين والهنود، فاللغة الهندية ذات جذور وقواعد ومخارج حروف تختلف تماما عن اللغة العربية، ثم يقول: "إنهم يباينوننا بالديانة مباينة كلية، لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا، وعلى قلة تنازعهم في أمر المذاهب فيما بينهم، بما سوى الجدال والكلام، دون الإضرار بالنفس أو البدن أو الحال"[٤٥]. فهناك اختلاف عميق على مستوى الدين، والتصورات العقدية، فالمسلمون أمة دينها واحد، وإن تعددت مذاهبها، ولكن تبقى هناك ثوابت لا يمكن مناقشتها تتعلق بالعقيدة والعبادات، ويكون الاختلاف المذهبي في الفروع، بعكس واقع الديانات الهندية التي هي في الأساس وضعية بشرية، وهي أقرب إلى الحكمة وتهذيب الروح، مع غموض مفهوم الإله. وبالتالي، لا يمكن مقاربة الثقافة الهندية من بوابة الإسلام، أي نحكم عليهم وفقا لتصوراتنا، وليس وفقًا لواقعهم القائم، أو أن تتأثر أحكامنا عليهم بثقافتنا. ويشير البيروني إلى خاصية مهمة في حياتهم الدينية، فهم على اختلاف دياناتهم، لا يتقاتلون، وإنما يتناقشون ويتحاجون، فلا صراعات دينية لديهم، مما يدل على رقيهم الحضاري، الذي ينأى بهم عن أي صراع بدني سببه القناعات الدينية.

أما عن مظاهر تجلي التاريخ وأشكاله في الكتاب، فقد جاء معلومات وقصصا منجّمة متفرقة، تعميقًا لفكرة أو إثراء لمعلومة في ثنايا المتن؛ في حرص من البيروني على علاج النقص -لدى القارئ العربي في عصره- عن الثقافة الهندية التي عندما حضرت في الوعي العام، بدون تعميق تاريخي سياسيا كان أو اجتماعيا، فغالبية الكتب التي تمت ترجمتها عن الهند، لم تشمل تاريخهم، وإنما اهتمت بحكمتهم وقصصهم[٤٦]، كما أن المراجع التاريخية الإسلامية، اقتصرت على فتوحات المسلمين للهند، والتي بدأت منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري، في عهد الخلافة الأموية، وظلت متراوحة ما بين مد وجزر. ويمكن القول إن الصورة العامة لتمثيل التاريخ الهندي في كتابه هي عبارة عن معلومات موجزة، متناثرة، تفسر بعضًا مما يذكره عن الثقافة الهندية، أو تستشهد ببعض ما جاء عن ملوكهم وفلاسفتهم في سياق أيضًا بعض الممارسات الدينية والمفاهيم والسلوكيات، أو تبين بعض العادات والتقاليد.

والمثال الأبرز عن ذلك، ما يذكره عن أصول شريعتهم في التاريخ، فيشير إلى أنها صادرة عن "رشين" الحكماء، وأن هناك رسولا جاءهم اسمه "نارايِن"، والذي أباح لهم أشياء كثيرة، قبل أن ينسخها "باسديو" الذي حرم عليهم البقر وغيره[٤٧].

كما يشير إلى من خلال بعض الأمثلة إلى الأمم التي غزت الهند منذ قديم الزمان، وأن الديانة المجوسية انتشرت في الهند، وفارس، والعراق حتى وصلت إلى حدود الشام، وقد تفاخر ملك الفرس "إسفنديار"، بأن بيوت النار مشتعلة من بلاد الروم إلى الصين، ثم انحسرت لتكون في العراق وفارس، وتنجلي عن الهند. ثم يشير إلى دخول محمد بن القاسم بن المنبه الذي دخل إلى بلاد السند ثم أوغل في الهند، ووطأ أرض كندهار، ووطئ كشمير، يعارك مرة، ويسالم مرة، ولم يستقر الإسلام في الهند، بسبب سخائم متراكمة[٤٨]. فمن خلال عباراته القصيرة، يوضح علاقة المسلمين بالهند، والتي بدأت مع الفتوحات المبكرة للقائد الكبير محمد بن القاسم (٧٢-٩٥هـ)، والذي توغّل في أراضي الهند، واستطاع أن يضع قدما للمسلمين في مواطن كثيرة، وسهّل الأمر لمن جاء بعده، ولكن المشكلة أن الإسلام لم يستقر في الهند، مثلما استقر في الباكستان، شمالي الهند، حيث أقيمت ممالك إسلامية عديدة، سعت إلى مواصلة غزو الهند الذي تحقق من قبل الدولة السامانية، حتى يصل إلى منجزات الدولة الغزنوية، وذلك "أيام الترك، حين تملكوا بغزنة في أيام السامانية، ونابت الدولة ناصر الدين سبكتكين، فآثر الغزو، وتلقّب به، وطرّق لمن بعده في توهين جانب الهند طرقا

سلكها يمين الدولة محمود، رحمهما الله، نيّفا وثلاثين سنة، فأباد بها خضرآءهم، وفعل من الأعاجيب في بلادهم ما صاروا به هباء منثورًا، وسمرًا مشهورًا، فبقيت بقاياهم المتشردة، على غاية التنافر والتباعد عن المسلمين، بل كان ذلك سبب انمحاق علومهم عن الحدود المفتتحة"[٤٩]، فهو يرى أن ما قام به الغزنويون يمثل تثبيتا لدعائم الإسلام في الهند، وإكمالا للبناء الذي بدأه المسلمون منذ القرن الأول الهجري، ساعين إلى نشر الإسلام ثقافة وعقيدة.

على صعيد آخر، فإن التاريخ يتحول إلى سرديات قصيرة، يستشهد بها البيروني في مواضع كثيرة، يعمّق من خلالها المعلومات التي يذكرها، وبعض هذه السرديات أقرب إلى الأساطير والحكايات الخرافية، يوردها المؤلف دون تعليق بالصدق أو بالكذب عليها، ومن ذلك روايته لأسطورة "رام وراماين"، الذي حارب أخاه وقتله، وهدم سدًا ضخمًا من خلال رشقه في عشرة مواضع، وأن هناك ما يسمى بقلعة الشياطين، تدعى "لنك"، وأن هناك جزيرة تسمى "بروامخ"، لا يقتربون منها، لأنها موطنا لأعمال الشر[٥٠]، أورد ذلك، وهو بصدد الحديث عن جغرافية الهند بشكل مفصلاً، رابطا معتقدات الهنود عن أراض شاسعة مهجورة، بأساطير موروثة.

فالملاحظ أن الأساطير تمتزج بالمعارف الهندية بشكل كبير، فالظواهر الطبيعية يتم تفسيرها أسطوريا، مما ينأى بها عن الفكر العلمي المنطقي، وهو ما يستوقف البيروني، حيث يحكي قائلاً معلومة من كتبهم: "إن حرارة الشمس وضياءها ربع حرارة النار وضيائها، وإنها في الشمال تقع في الماء بالليل ولهذا يحمرّ. وفيه أيضًا، أنه كان في القديم الأرض والماء والريح والسماء، فرأى "براهم" تحت الأرض شررة، فأخرجها وجعلها اثلاثا، فثلث منها هي النار المعهودة المحتاجة إلى الحطب، المنطفئة بالماء، وثلث هي الشمس، وثلث هي البرق"[٥١]. فأصبحت الأسطورة عندهم سببًا في نشوء الظاهرة الفلكية، مما يعني أن التفكير العلمي الصحيح غائب في مواضع كثيرة عن العلوم الهندية، أو أنه حاضر بدرجات أدنى، وعندما يتعلق الأمر بالتفسير العلمي المادي فإنه يتلاشى، لصالح التفسير الأسطوري الديني.

ومع ذلك، فإن البيروني يورد المعلومة بكل تفاصيلها، ودون تعليق منه، بالرفض أو القبول. ونرى أن هذا اتجاه محمود من قبله، ودال على وعيه الكبير، بأهمية تقديم ثقافة المجتمع الهندي كما هي قائمة، دون نفي أو مناقشة لخرافاتهم أو أساطيرهم، ذلك أن الدراسات الحديثة، تثبت علمية الأسطورة، وارتباطها بالعقل البشري، لأنها تعبر عن رؤية الإنسان للوجود والحياة، وأنها أول محاولة من العقل الإنساني البدائي أو حتى الحضاري منه لتقديم إجابات عن عشرات الأسئلة عن الكون والآلهة والخلق، بجانب ارتباطها بالفلسفة، والأديان البدائية والوثنية[٥٢].

على صعيد آخر، فإن نهج المقارنة مع الثقافات والحضارات الأخرى حاضر بقوة، في دلالة على موسوعية البيروني، وهو يشير إلى ذلك، بقوله: " ونريد بعد أن نورد تصريح أقاويلهم المستخرج من جهة أرباب شرائعهم، أن ينتصب للإنصاف فإن لاح لنا فيه شيء أو اتفاق مع غيرهم، وإن لم يصيبوا فيه قررناه، لا على وجه الذب عنهم، بل قصدا لإذكاء الطباع لمطالعها"[٥٣]، إن طريقة البيروني في الاستشهاد والإشارة للثقافات الأخرى؛ تقارب منهج الدراسات المعاصرة في المقارنة بين الثقافات أو الحضارات، وبحيادية عالية، باحثا عن أوجه التشابه أو الاختلاف بين ما عند الهند، وما لدى الثقافات والأمم الأخرى، فإن وجد تشابها يقرّه، ويشيد به، وكأنه يؤكد على المنزع الإنساني في الثقافة الهندية مع غيرها من الثقافات الإنسانية، وإذا وجد اختلافا ولو كان شاذا، فهو يورده، دون تعليق أو نقد له، لأنه بصدد تقديم المعرفة المتكاملة عن الهند، وليس في مقام النقد أو النقض، أو حتى النقاش.

ومن ذلك، إشارته إلى أن الهنود لا يختلفون في عدد طبقات الأرض، وإنما يختلفون في الأسماء التي يطلقون عليها، ويعلل البيروني ذلك إلى سعة اللغة الهندية، "فإنهم يسمون الشيء الواحد بأسماء كثيرة جدًا، والمثال الشمس، فإنهم سموها بألف اسم، كتسمية العرب الأسد بقريب من ذلك، بعضها مقتضبة اقتضابا، وبعضها مشتقة من الأحوال المتغيرة فيه أو الأفعال الصادرة"[٥٤]، حضرت هنا المقارنة مع المسلمين، كما أقر بأن الهند تؤمن بأن الأرض سبع طبقات، وهو يطابق المفهوم الديني عند المسلمين، مثلما يجعلون السموات سبعًا أيضًا، وينفي البيروني في موضع آخر بأن هذا يخالف ما يقوله المنجمون عند المسلمين عن السموات، وأيضًا ما يقوله الفرس فيما يسمونه الكشورات[٥٥]، ولعله كان يقصد من هذه المعلومة أن المنجمين في الهند يكتفون بذكر طبقات الأرض أو السموات، بدون ربطها بعلم التنجيم على نحو ما يفعل المنجمون عند العرب أو الفرس، وإن كنا نتحفظ هنا على عدم وضوح المعلومة بشكل جيد، واختلاطها ما بين الديني والتنجيم، مع ثقافات الأمم.

ومن استشهادات الثقافة اليونانية، ما يورده بقوله: "ومن أساطير اليونانيين، أن أيفسطس عشق أثينا، وراودها فدفعته حفظا للعذرة، واختفى لها في بلاد اثينية، وأراد القبض عليها، فدفعته بحربة، حتى تركها، وأرسل النطفة على الأرض فكان منها أرْقتنيوس، وإنه جاء على عجلة مثل رخ الشمس، ومعه ممسك الأعنة راكب، وما في الميدان من في زماننا من رسوم الركض والجري في الفخاخ فهو تشبيه به"[٥٦].

جاء الاستشهاد تعليقًا على وصف البيروني للعبة الشطرنج، وتطرقه إلى أشكال رآها مرسومة، تعبر عن طائر الرخ الضخم، فأورد الأسطورة اليونانية، ليدلل بها على أن طائر الرخ المزعوم إنما هو ذو طبيعة أسطورية، ويربط هنا ما بين تصور الهنود عنه، وما يعرفه عن الأساطير اليونانية، تعميقا للمعلومة. لقد كان النهج في الصياغة الأسلوبية واضحًا، بأنه إذا تتطلب السياق تبيانا أو تعميقا، فإن المؤلف يضرب الأمثلة من الثقافة الهندية أولا، إما بحكاية أو مثَل أو معلومة أو أسطورة، فإن لم يتيسر له، فإنه يستشهد بالثقافة الإسلامية العربية، أو بالثقافة اليونانية أو الفارسية، وقد يورد ما يعرفه من هذه الثقافات في متوالية سردية.

من الملاحظ أيضًا استخدام البيروني الأسلوب العلمي، بتمكن لغوي عال، وبجملٍ قصيرة غالبا، مع إشباع ذائقة القارئ في بعض المواضع بالمحسنات البديعية، جريًا على عادة الكتّاب في عصره، ودفعا للسأم؛ نتيجة جفاف الكتابة العلمية، ولنقرأ مثالاً لذلك: "إن الهند في أمر الترتيب متساهلون، وعن نظام تواريخ الملوك في التوالي متغافلون، وإلى التجازف عند الحيرة والضرورة ملتجئون"[٥٧]. فالسجع هنا سمة بلاغية، على الرغم من أن المعنى المقصود هو نقد مباشر لإهمال الهنود لعلم التاريخ، والذي هو ذاكرة أي أمة، مما يوقعهم في كثير من الحيرة.

أمر آخر، يتصل بالمصطلحات والمفردات الهندية، فقد دوّنها البيروني بنفس نطقها الهندي، ثم قام بشرح معناها أو المقصود منها، ومن الأمثلة على ذلك ما يورده البيروني في شرح أجزاء اليوم، يقول: "سند الأصلي هو الذي بين النهار والليل، وهو الفجر بالغدوات، ويسمونه "سنَد أدّوّ"، أي الذي من الطلوع من الشفق وهو العشيات، ويسمونه "سنَد قستِمن"، أي الذي من الغروب"[٥٨]. فيستطيع قارئ الكتاب أن يكتسب الكثير من المصطلحات الهندية، التي تعينه على فهم الثقافة والمجتمع الهندي. كما تم استخدام الجداول والرسومات والأشكال والخرائط على امتداد الكتاب لتقديم الشرح في الجغرافيا أو الفلك أو اللغة وغير ذلك.

جدير بالذكر، أن البيروني لم يسجل في كتابه أية مواقف شخصية مرّ بها، أو شاهدها بعينيه، أو تجارب تعرض لها، على نحو ما يفعل الرحالة عادة، حينما يذكرون كلمات من مثل: رأيت بأم عيني، شاهدتُ، عاينتُ، صادفتُ، مرّ بي، وغير ذلك، وبعضهم يبالغ في إظهار شجاعته، ومهاراته الفائقة التي جعلته ينجو من مواقف صعبة، بجانب مغامراته وبطولاته[٥٩]، فالبيروني على الرغم من رحلاته الكثيرة إلى الهند، وقضائه أياما طويلة مع أهلها، فإنه تجنب أي إشارة إلى تجارب شخصية أو الإشادة بذاته، لأنه في البدء والمنتهى، عالم جليل، يبتعد قدر استطاعته عن الذاتية، في حرص على تقديم معلومة قيمة للقارئ؛ لأنه ليس بصدد إنجاز كتاب رحلات للتسلية، وإنما عمل سفر ضخم، يخدم به الثقافة العربية الإسلامية، من خلال التعريف بالهند ثقافة وشعبًا ومعارف وأديانًا.

وأخيرًا، فإن كتاب البيروني عن الهند عمل موسوعي، ينبغي قراءته ودراسته بشكل معمق، وبمنهجيات مختلفة، تكشف من ورائها، أبعاد المجتمع الهندي، وكيف استطاع مؤلفه تقديمه الثقافة الهندية، كما يكشف موسوعية البيروني، وقدرته على كتابة نموذج فريد في أدب الرحلات.

خاتِمَةٌ

يمكن أن نصل في ختام هذه الدراسة إلى جملة نتائج:

- إن أدب الرحلات ذا الطبيعة العلمية في حاجة ماسة إلى تسليط الضوء عليه، لتبيان خصائصه، ودراسة بنيات خطابه، وعدم الاكتفاء بنصوص الرحلات الشهيرة، والتي تخالف في أسلوبها الرحلة العلمية، وتقدم صورة بصرية ذاتية أكثر منها علمية.
- هناك خلط لدى الباحثين في تصنيف كتب الرحلات العلمية، فكثيرون يضعونها ضمن الكتب العلمية، وليست من أدب الرحلات، ولفكّ هذا الإشكال، يمكن أن نقرر أن الكتاب العلمي المدون من قبل رحّالة إلى بلد ما، يُعَدُّ من أدب الرحلات، فحرص مؤلفه على إسباغ الطابع العلمي عليه، أمر يحسب له، على شريطة أن تكون كتابته من واقع اطلاع مرجعي على ثقافة البلد التي رحل إليها، ومن خلال تعايشه مع أهلها، ووقوفه على عاداتهم وتقاليدهم.

- شكّل البيروني نهجًا ونموذجًا في كتابة الرحلة العلمية، واستثمر ثقافته الموسوعية في إنتاج كتاب متميز فكرا وأسلوبا ومعلومات وغاية، وهنا ندرك أن مدونات الرحلات تتوقف على مدى ثقافة الرحالة وامتلاكه معرفة عميقة وعلومًا عديدة، وأن كتب الرحلات الشهيرة ألّفها علماء أفذاذ، على تفاوت في قدراتهم وعطائهم.
- جاء منهج البيروني في كتابه ليقدم صورة عن المجتمع الهندي كما يتبدى في فكر العلماء المسلمين الثقاة، الحريصين على الحق والحقيقة، وليست الطرافة والتسلية.
- يُعَدّ كتاب البيروني عن الهند وثيقة معرفية تقدم لنا ملامح المجتمع الهندي وثقافته إبان القرن الرابع الهجري، ويكمل جهود علماء آخرين كتبوا عن الهند إما سابقًا عليه أو لاحقا له، ومن هنا يتعين علينا أن نقرأ تاريخ الهند كما تبدى في كتابات الرحالة والمؤرخين والعلماء المسلمين، للوقوف على أبعاد الصورة في أزمنة مختلفة.
- إن مدونات أدب الرحلات هي نصوص يتقاطع فيها الثقافي والديني، والأسطوري والمتخيل، والممارسة والسلوك، والتاريخي والجغرافي، والشعبي والنخبوي، ويتحتم علينا قراءة هذه النصوص وفق منهجيات عديدة، من أجل المزيد من تسليط الضوء على ما حوته من أبعاد معرفية، ومقارنتها مع نصوص أخرى معاصرة للتفسير والإبانة، أملاً في أن تكون النصوص الرِّحلية رافدًا في الدراسات الثقافية والتاريخية.

الاحالات المرجعية:

(١) ولد في ضاحية من ضواحي خوارزم (من جمهوريات آسيا الوسطى وتسمى الآن أوزبكستان)، وقام برحلات لطلب العلم إلى بلدان مختلفة حوله، وقد أتقن عدداً من اللغات غير العربية، مثل الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية. في الخامسة والعشرين، رحل البيروني إلى جرجان آملا الالتحاق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس وشمجير شمس المعالي، وبالفعل نال حظوة هناك، ونشر أول كتبه وهو "الآثار الباقية، عن القرون الخالية". ثم رجع إلى موطنه بعدما ذاعت شهرته، متصلا بحاشية الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه، الذي عهد إليه ببعض المهام السياسية نظرا لطلاقة لسانه، وعندما استولى على الإمارة الأمير محمود بن سبكتكين حاكم غزنة عام ٤٠٧ هـ، ألحق البيروني بطائفة من العلماء في بلاطه، ولينشر ثاني مؤلفاته الكبرى، وهو: "تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولةٍ في العقل أو مرذولة " كما كتب مؤلفينِ آخرين ضخمين، وهما "القانون المسعودي"، "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم"، وأطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس العرب، فكتبه في النجوم والفلك والمنطق والحكمة، تفوق الحصر، وقيل إن فهرس تجميعها، كان يفوق ستين الورقة. انظر تفصيلاً: **أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية**، علي أحمد الشحات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٧٠ – ٧٤.

(٢) **البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد**، د. أحمد سعيد الدمرداش، سلسلة أعلام الأعلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٠، ١١

(٣) **المعارك الإسلامية في الهند**، د. أحمد محمد الجوارنة، جامعة اليرموك، الأردن، د.ت، ص٢٧، ٢٨.

(٤) **البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد**، د. أحمد سعيد الدمرداش، ص٢٠.

(٥) **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، د. ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ص٩، ١٠. من مثل موقف الرحالة ابن حوقل من الحمدانيين، والأندلسيين والفاطميين، وموقف المقدسي من السامانيين، ويخالفهم موقف ابن فضلان الذي كان دوما في صالح أمنه وقضاياها.

(٦) **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، آدم متز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٩-١١.

(٧) **العلوم عند المسلمين**، هوارد ر. تيرنر، ترجمة: فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٣٦.

(٨) السابق، ص٤٦.

(٩) **الثقافة الإسلامية في الهند: معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف**، عبد الحي الحسني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٥م، ص١٣، ١٤ .

(١٠) انظر للمزيد: **الأثر الحضاري للغزو المغولي للمشرق الإسلامي (٦١٧-٨٠٣هـ)**، د. محمد فايد حسن الوجيه، مجلة

جامعة الناصر، العدد (٦)/ مجلد (٢)، يوليو –ديمسبر٢٠١٥م، ص٤٧٢- ٤٧٧ .

(١١) **البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد**، د. أحمد سعيد الدمرداش، ص٤٣.

(١٢) المرجع السابق، ص٤١، ٤٢.

(١٣) **الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، د. ناصر عبد الرزاق الموافي، ص٤٩، ٥٠.

(١٤) **تاريخ العلم والإنسية الجديدة**، جورج سارتون، ترجمة: إسماعيل مظهر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، ١٩٦١م، ص٥٥.

(١٥) المرجع السابق، ص٦٠.

(١٦) **أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية**، ص٧٢، ٧٣.

(١٧) المرجع السابق، ص٨٤، ٨٥.

(١٨) **ثريا النص: مدخل لدراسة العنوان القصصي**، محمود عبد الوهاب، سلسلة الموسوعة الصغيرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٥م، ص١٠.

(١٩) **السيميوطيقا والعنونة**: د. جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٣)، المجلد (٢٥)، ١٩٩٧م، ص١٠٢.

(٢٠) **كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م، ص١ (بعد تفصيلات الفهرس الطويل والذي وقع في ٧٠ صفحة)

(٢١) المصدر السابق، ص٢.

(٢٢) المصدر السابق، ص٥.

(٢٣) **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٥٥.

(٢٤) السابق، ص٥٣.

(٢٥) **تحقيق ما للهند**.. ص٤.

(٢٦) المصدر السابق، ص٥، ٦.

(٢٧) **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، نشر: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م، ص١٩٠.

(٢٨) **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، د ت، ج٣، ص٢٦٣.

(٢٩) **الرحلة في الأدب العربي**، ص٦٦.

(٣٠) اعتمدنا على الفهرس المذكور في مطلع الكتاب، والممتد من الصفحات (٢-٦٨)، وقد أورده قبل خطبة المؤلف.

(٣١) **أديان الهند الكبرى: الهندوسية، البوذية، الجينية**، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١١، ٢٠٠٠م، ص٢٠٠، ٢٠١.

(٣٢) **تحقيق ما للهند** .. ص٧٥، ٧٦.

(٣٣) **أديان الهند الكبرى**، ص٥٢.

(٣٤) **تحقيق ما للهند** .. ، ص٧٦.

(٣٥) السابق، ص٨٤.

(٣٦) السابق، ص١٤٧، ١٤٨.

(٣٧) السابق، ص١٥٠- ١٥٢.

(٣٨) **المذاهب الكبرى في التاريخ: من كونفوشيوس إلى توينبي**، البان ج. ديدجيري، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص٤٧ - ٤٩.

(٣٩) **الأصول المعرفية لنظرية التلقي**، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله-عمان، ط١، ١٩٩٧م، ص١٦٣.

(٤٠) السابق، ص١٢٣.

(٤١) **أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية**، س٧١، ٧٢.

(٤٢) تحقيق ما للهند.. ص١٧.

(٤٣) ص١٣.

(٤٤) السابق، ص١٣.

(٤٥) السابق، ص١٤.

(٤٦) **علم التاريخ عند المسلمين**، فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م، ص١٣١.

(٤٧) **تحقيق ما للهند** .. ص٨١، ٨٢.

(٤٨) السابق، ص١٥، ١٦.

(٤٩) السابق، ص١٦.

(٥٠) السابق، ص٢٦١، ٢٦٢.

(٥١) السابق، ص٣٩٤.

(٥٢) **الأسطورة والرواية**، ميشيل زيرافا، ترجمة: صبحي حديدي، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٩٨٥م، ص٥.

(٥٣) **تحقيق ما للهند**.. ص١٨٥.

(٥٤) **تحقيق ما للهند**.. ص١٨٥، ١٨٦ .

(٥٥) السابق، ص١٨٥.

(٥٦) السابق، ص٣٤٠، ٣٤١.

(٥٧) السابق، ص٣٤٩.

(٥٨) السابق، ص٣٠٦.

(٥٩) **الرحلة في الأدب العربي**، ص١٥٨، ١٥٩.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

مسألة الحضور التجاري المغربي في أوروبا
خلال العصر الوسيط



د. الطاهر قدوري
أستاذ التعليم العالي مؤهل
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق
وجدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

تحاول في هذه المقالة مناقشة قضية على قدر كبير من الأهمية، وتتعلق بمسألة التجارة الخارجية للدولة المغربية مع دول شمال البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط، ليس على مستوى البضائع التجارية وما اتصل بها من عمليات بيع وشراء ورسوم جمركية، ولكن على مستوى مدى حضور التجار المغاربة بأوروبا قصد مزاولة مختلف العمليات التجارية، ففي الوقت الذي وجدنا العديد من التجار الأوربيين قد استقروا ببلاد المغرب بهدف إتمام مختلف عملياتهم التجارية، غاب المغاربة عن الاستقرار في دول شمال البحر المتوسط بهدف تصريف بضائعهم، فلماذا هذا الغياب؟ هذا التساؤل المحوري هو ما نسعى إلى محاولة البحث فيه من خلال تتبع مختلف المظان التاريخية التي أمكننا الاطلاع عليها، موظفين منهج مقابلة النصوص واستقرائها من خلال مختلف مستويات القراءة الداخلية والخارجية للنص التاريخي، وتعديد زوايا النظر عبر توظيف مجموعة من المصادر الفقهية والجغرافية وكتب التراجم، وقد توصلنا إلى مجموعة من الخلاصات، لعل أبرزها تمثلت في عدم ترغيب الفقهاء المغاربة في العصر الوسيط أن يقيم المسلمون بأرض الكفر حتى لا تجري عليهم أحكامهم، كما أننا نتمسك بنتيجة نراها حاسمة على مستوى إمكانية انخراط الدول الأوربية في حماية التجار المغاربة وتوفير الرعاية لهم، تمامًا كما كانت الدولة المغربية تلتزم بحماية الرعايا الأجانب المقيمين بتراب نفوذها مستندة إلى نصوص الشريعة الإسلامية من قرآن وسنة، فلا نعدم فيها إشارات واضحة إلى ضرورة حماية الأجانب المتعاملين مع المسلمين الأمر الذي لم يكن متاحًا في أوروبا العصر الوسيط، ورغم كل هذا فقد سجلنا أن عددًا من التجار المغاربة استقر بأوروبا لمزاولة مختلف أعمال التجارة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٦	نوفمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبول النشر:	٢١	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الدولة المغربية؛ التجارية الأوروبية؛ التجارة والفلاحة؛ البحر الأبيض المتوسط؛ العصر الوسيط.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.203294

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

الطاهر قدوري، "مسألة الحضور التجاري المغربي في أوروبا خلال العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة -العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٦٣ – ٧٠.

Corresponding author: taharkaddouri@hotmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

رغم تعدد أوجه الصراع العسكري الذي طبع علاقات دول الغرب الإسلامي بدول شمال البحر المتوسط، وذلك بالنظر إلى اختلافات المرجعية الدينية التي كانت تؤثر بشكل كبير في مستقبل العلاقات الدولية في العصر الوسيط، فإن ثمة علاقات دبلوماسية وتجارية كانت تتم على هامش هذه العلاقات المتوترة بين الطرفين، وقد سعى الفقهاء إلى التفريق بين الأمم التي هي في حرب مستمرة ومفتوحة مع الدول الإسلامية، وبين تلك التي لم تكن في حرب مع دار الإسلام. وعلى الرغم من أن الصراع العسكري الذي كان السمة البارزة في حوض البحر المتوسط طيلة العصر الوسيط، فإن المسلمين في مشرق العالم الإسلامي أو مغربه بادروا إلى الانخراط في التجارة الدولية محاولة منهم للاستفادة من عائداتها التي كانت شريانًا حيويًا يغذي خزينة الدولة، خاصة في الجانب المتعلق بتحصيل الضرائب والمكوس التي كان على التجار أداؤها لإدارة الموانئ على الداخل والخارج من المواد.

وقد اعتبرت هذه الرسوم الجمركية معينًا لا ينضب، حرصت مختلف الدول على استمراره حتى تتمكن من ضمان توازناتها المالية، من ثم كانت تسعى إلى استمرار تدفق المواد التجارية تصديرًا واستيرادا، لأن تلبية حاجات السوق من المواد الضرورية كانت من المهام المنوطة بالسلطة المركزية الحاكمة، وفي كثير من الأحيان كانت هي الشرارة الأولى التي تستعر بها نار المعارضة الداخلية.

إلا أن التجارة الخارجية الدولية تطلبت استقرار العديد من الفئات الأجنبية داخل تراب الدولة المستقبلة، والدولة المغربية في العصر الوسيط كانت جزءًا من هذا العالم، سعت إلى الاستفادة من التجارة الخارجية وكانت تتولى حماية العناصر التي كانت تقوم بتنشيط هذا الشريان الاقتصادي، بل لم تكن تتوانى في معاقبة من يعمل على التضيق على التجار الأجانب ويكلفهم بإتاوات خارج ما تقره السلطة الحاكمة، لكن بالمقابل هل وجد من التجار المغاربة من كان يتعاطى لمختلف عمليات التجارة الخارجية خاصة مع الدول الأوربية؟ وإلى أي حد كانت هذه الدول توفر للتجار المغاربة المستقرين بترابها الحماية القانونية على مستوى ممارسة شعائرهم الدينية، وضمان جو من التنافس التجاري دون التضيق عليهم بمختلف الغرامات؟ ولماذا لم تبرز بالمغرب في العصر الوسيط فئة برجوازية قادرة على مراكمة الثروة؟

أولاً: الدولة المغربية والتجارة الخارجية

سعت الدولة المغربية الوسيطية إلى الاستفادة من التجارة الخارجية، فوطدت من صلاتها مع الدول المسيحية خاصة الجمهوريات الإيطالية، وأضحت المدن المرفئية مثل سلا وسبتة وهنين وبجاية والمهدية وتونس، أهم المراسي التي تتولى التنشيط التجاري بين بلاد المغرب والدول النصرانية، فإلى هذه المدن كانت تنتهي القوافل التجارية المحملة بالبضائع وتلك التي تأتي من المدن الأوروبية. هذا الدور التجاري الذي كانت تقوم به الدولة المغربية الوسيطية، جعل العديد من الباحثين يقفون عنده متسائلين عن الأسباب التي كانت وراء عدم استمرار القوافل المغربية القادمة من بلاد السودان إلى أوروبا، واكتفوا فقط بتسهيل وصول هذه المواد إلى الموانئ المتوسطية، ونقل المواد الأوروبية والعودة بها رفقة بعض المواد المغربية إلى بلاد السودان، مكتفين بدور الوساطة التجارية المربحة.[١] وقد أرجع أحد الباحثين هذا السلوك التجاري إلى غياب أسطول تجاري قوي قادر على الوصول إلى أسواق جديدة سواء في أوروبا أو في المشرق العربي[٢].

لكن، إذا كان الأستاذ محمد القبلي[٣]، قد حاول أن يستدرك على ابن خلدون عدم تخصيصه للبحرية التجارية أي حديث، فإننا نسجل أن صاحب المقدمة عقد فصلا خاصة فرده للحديث عن خِطَّةِ الأسطول، وتطور البحرية على عهد مختلف الدول الإسلامية منذ دولة الخلافة بالمشرق حتى عهد المرينيين، وقد ركز في حديثه عن أهمية الوحدات المكونة للأسطول المغربي خاصة على عهد الموحدين، "ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد."[٤] إلا أنه رغم أهمية ملاحظة الأستاذ القبلي، فإننا نعتقد أن هذه القضية يجب معالجتها في إطار شمولي يلامس مختلف المستويات سواء السياسية أو الاقتصادية أو المجتمعية بل وحتى الذهنية التي كانت تحكم التعامل المغربي الأوروبي.

كما أن ابن خلدون لم يكن وحده الذي أشار إلى خطة الأسطول عند المسلمين فقد وقف عندها العديد من المؤرخين وإن لم يخصوها بحديث خاص، وإنما جاء حديثهم عنها متناثرًا بين طيات تآليفهم، وهم يتحدثون على غرار ابن خلدون عن السفن ذات الصبغة العسكرية، وقلما يتحدثون عن السفن التجارية. إلى أن العديد من الدارسين والمهتمين بأمور البحرية في المرحلة الوسيطية يؤكدون أنه من الصعب وضع حدود

فاصلة بين السفن العسكرية والتجارية، وأن السفينة تغير من وظيفتها بحسب الظروف العامة: فإبان سيادة السلم وفترات الهدنة تغلب على السفن الوظيفة التجارية، لكن سرعان ما تتحول السفينة عن هذه الوظيفة إلى العمل العسكري بمجرد تغير الأجواء السياسية، بل وحتى عند ممارستها للنشاط التجاري فإنها كانت تتزود بالأسلحة تحسبًا لأي هجوم من الأعداء خاصة القراصنة.

إلا أن السؤال الذي يطرح بحدة هو لماذا كانت تغلب على تحركات أسطول الدولة المغربية الوسيطية الوظيفة العسكرية؟ ألم تكن سفنها قادرة على الوصول إلى الأسواق الدولية خاصة الإيطالية؟

من خلال تتبعنا لمختلف الإشارات المصدرية يتبين لنا كيف كان بإمكان الأسطول المرابطي والموحدي –مثلاً- الوصول بسهولة كبيرة إلى جزيرة صقلية والجنوب الإيطالي والسواحل الجنوبية الفرنسية، هذا فضلا عن السواحل الشرقية لقطلانية. إلا أننا لم نقف في المصادر على ما يشير صراحة إلى قيام وحدات هاتين الدولتين برحلات تجارية في اتجاه هذه المناطق، مما أبقى الباب مفتوحا على مصراعيه أمام البحرية الإيطالية لاحتكار النقل البحري للمسافرين والبضائع من الموانئ المغربية إلى أسواق أوروبا أو العكس، ولعل هذه الوضعية حالت دون تمكن الدولة المغربية الوسيطية من التحكم في الأسواق العالمية، ولم تمكنها كذلك من التحكم في مستقبلها الاقتصادي وإنتاجها المحلي.

لكن، ألا يمكننا أن نعتبر الدولة المغربية الوسيطية في إطار محاولتها السيطرة على طرق التجارة القوافلية المتجهة إلى بلاد السودان، أنها كانت تحاول احتكار أو على الأقل السيطرة على جزء كبير من بضائع السودان خاصةً الذهب والملح والعبيد التي كانت تجد في أوروبا سوقا نافقة، وظل المغرب المزود الرئيسي لأوروبا من هذه البضائع حتى بداية الفترات الحديثة، وهو ما يعني السيطرة على جزء كبير من التجارة العالمية، فكانت القوافل التجارية تقطع مسافات طويلة، يعاني فيها التجار مختلف المصاعب والمشقة، والتي لم يختلف في خطورتها عن تلك التي كان يكابدها ركاب السفن، وكل هذا كان يهون في سبيل الوصول إلى بضاعة قال عنها أحد سلاطين المغرب "لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع ومن سواهم يحمل الذهب ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب" [٥].

ومن خلال تتبعنا لبعض الفتاوى التي أوردها صاحب أكرية السفن، يتضح أن الفقهاء كانوا يفرقون ولو ضمنيا بين السفر برًا والسفر بحرًا، فلم يكونوا يستحسنون ركوب البحر لغلبة الغرر عليه، واعتبر ركوبه خطرا حتى في الأوقات الملائمة للملاحة، فكيف سيكون موقفهم إذا كان البحر في حالة اضطراب[٦]، وهذا بخالف ما كان عليه الأمر في الرحلات القوافلية. والواقع، إن هذه المسألة في اعتقادنا لا يمكن فهمها إلا من خلال محاولة الوقوف عند قضية الوجود المغربي بأرض الكفر، فمن خلال تتبعنا للوثائق التي بين أيدينا فإنه كثيرًا ما يتم التنصيص على معاملة المسلمين: تجارًا كانوا أو مقيمين بأرض الدولة التي وقعت مع المغاربة معاهدة السلم والتجارة معاملة بالمثل[٧]. ولا ندري ما إن كان المغاربة يتوفرون على ظروف الإقامة نفسها التي كان يتوفر عليها النصارى بالمغرب، مثل الفندق ومؤسساته، وهل كانت الدولة النصرانية تلتزم بضمان حرية المسلمين في ممارسة عملياتهم التجارية ومعتقداتهم الدينية، كما التزمت بذلك الدولة المغربية؟

إلا أنه لا يمكننا أن نقدم أجوبة حاسمة بشأن هذه الأسئلة، ما دمنا لا نتوفر على نصوص أو وثائق صريحة تفيد ذلك، عكس ما بين أيدينا من وثائق عديدة تتعلق بإقامة النصارى بالمغرب وتنص على حمايتهم وحماية مؤسساتهم سواء الروحية منها أو التجارية، ولعل هذا يرجع في كثير من فصوله إلى موقف الإسلام من مسألة وجود غير المسلمين بأرض الإسلام، ووجود المسلمين بديار الكفر. لقد تعامل الفقه الإسلامي مع "الأقليات المسلمة" في إطار ما يعرف بأهل الذمة الذين ترتبت لهم أحكام وواجبات التزم الدين الإسلامي بالسهر على تطبيقها، وأن حقوقهم وواجباتهم وشعائرهم الدينية مضمونة بل ومقدسة، إذ لا يتدخل المشرع بأي حال من الأحوال في شؤونهم وخصوصيات أمورهم طالما أبدوا خضوعا للدولة الإسلامية ولم يحاربوها أو يتحالفوا مع من يحاربها[٨]. ومن هذا المنطلق كانت الدولة المغربية ملزمة باحترام روح الشريعة الإسلامية، وحماية حريات الجاليات المسيحية المقيمة بالمغرب، وبضمان حرية هذه الفئة كانت تضمن أيضا استمرار مصالحها التجارية وتغذية خزينتها بالضرائب والمكوس التي كان يلتزم التجار النصارى بأدائها لإدارة الديوانة.

وبالمقابل لا نجد في المسيحية ما يمكن أن يحمي المسلمين الذين يقيمون في أراضي المسيحية أو يرغبون في المتاجرة معهم، لهذا بادر الفقهاء إلى معالجة مشكلة وجود المسلمين بأراضي الكفر ورأوا فيه أوجه الكراهية، وقد ناقش

بعض فقهاء المالكية هذه المسألة معتمدين على ما رواه الإمام مالك الذي كره الخروج إلى بلاد الحرب قصد التجارة سواء كان مسلكه الطريق البري أم البحري، "قد سئل عن ذلك فقال قد جعل الله لكل نفس أجلا تبلغه ورزقا ينفذه.."[٩]. وكان مرد هذه الكراهية عند الإمام مالك، أنه قاسها على وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام على كل من اعتنق الإسلام مستشهدا بالآيتين القرآنيتين: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا}[١٠]، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[١١]. والآيتان معا نزلتا في ثلة من أهل مكة آمنوا بالله ورسوله (ﷺ)، إلا أنهم تخلفوا عن الهجرة معه (ﷺ). فكان من أثر تصرفهم هذا أن تعرضوا لضروب الفتنة التي أعقبت هجرة الرسول (ﷺ) من مكة إلى المدينة، وقد استثنى القرآن من هذه الفئة أولئك الذين لا قوة لهم على الهجرة من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.[١٢] ومن ثم اعتبرت الهجرة باقية واجبة على كل من أسلم بدار الكفر ليلتحق بدار الإسلام حتى لا تجري عليه أحكام الكفار[١٣].

ولعل الفقهاء كانوا على وعي تام بخطورة إقامة المسلم بين ظهراني الكفار، وذلك مخافة أن تجري عليه أحكامهم، وأن لا يستمروا في أداء الشعائر والفرائض التي أوجبها الشرع، لهذا كانوا يكرهون بقاء المسلم في دار الكفر، وأكدوا ضرورة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام "فإذا وجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة على أن من أسلم ببلد الحرب أن يهاجر ويلحق بدار المسلمين ولا يكون بين المشركين ويقيم بين أظهرهم لئلا تجري عليه أحكامهم، فكيف يباح لأحد الدخول إلى بلادهم حيث تجري عليه أحكامهم في تجارة أو غيرها، وقد كره مالك رحمه الله تعالى أن يسكن أحد ببلد يسب فيه السلف، فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن وتعبد فيه من دون الله الأوثان ولا تستقر نفس أحد على هذا إلا وهو مسلم سوء مريض الإيمان"[١٤].

وقد تشدد الفقهاء في هذا الموضوع أيما تشدد وذلك حرصًا من جانبهم حتى لا يفتن المؤمن في دينه، فأسقطوا إمامة وشهادة من دخل بلاد الحرب طائعا غير مكره "لأنه يبعد أن تجاز شهادة من سافر إلى أرض الحرب للتجارة وطلب الدنيا وهو عارف بأن ذلك لا يجوز له، وأن أحكام الشرك تجري عليه وهو أدنى من هذا يجرح الشاهد وتسقط شهادته"[١٥]. ومن هنا فقد وجب على ولاة المسلمين أن يشددوا حراسة الحدود الموالية للعدو خشية أن يتسرب إليهم ما يمكن أن يعينهم ويقويهم على محاربة المسلمين.[١٦] وفرق الفقهاء في تجارة المسلمين مع الكفار بين نوعين من البضائع، فالمواد التي يمكن أن يتقوى بها الكفار على حساب المسلمين كالكراع أو السلاح أو الحديد أو الرايات أو ما يلبسونه في حروبهم والعبد النصراني فقد منع الفقهاء بيعها لهم، وذلك خشية أن يستعين بها الكافر على قتال المسلمين، أما غير هذا من البضائع مما لا يمكن أن يتقووا بها فلم يمانع الفقهاء من بيعها للكفار.

وتجدر الإشارة إلى أن مسألة منع بيع بعض المواد خاصة المواد الاستراتيجية لم تكن فقط خاصة بالمسلمين، بل يمكن اعتبارها ظاهرة عادية جدا وقد عرفتها كل الأمم، والكنيسة من جانبها كانت تعارض بيع المسلمين بعض المواد الاستراتيجية كالأسلحة والخشب والسفن، بل كانت تفرض غرامات على من لم يلتزم بهذا الأمر، فسلاح منع بيع بعض المواد للدول التي تكون في حالة حرب كانت ظاهرة تمليها الظروف التي تمر منها الدول المتحاربة، فكل دولة كانت ترغب في أن يكون خصومها أو جيرانها أقل قوة منها حتى تضمن استمرارها في المنطقة.[١٧] وعليه، كانت هذه المواد الاستراتيجية ورقة رابحة في يد الدولة المغربية على مر تاريخها الوسيط والحديث تشهرها في وجه الدول المتعاملة معهم خاصة من الأوربيين تحقيقا لتوازن القوى في المحيط الاستراتيجي الدولي.

وهكذا، فقد كان للعامل الديني الثقل الأساس في عدم وجود أعداد مهمة من المغاربة في أرض الكفر تمارس الأنشطة التجارية، ولعل هذا ما يفسر عدم قدرة الدولة المغربية على غزو أسواق أوروبا، واكتفائها بدور الوسيط التجاري بين بلاد السودان وأوروبا، مع تصديرها لمواد فلاحية خلال السنوات التي يقل فيها الإنتاج في أوروبا، أو خلال فترات الجفاف التي كانت كثيرًا ما تتعرض له ضفتا البحر المتوسط. لهذا كان كل طرف يحرص على أن لا يخسر أسواق الطرف الآخر، كما أنه لا يمكننا أن نأخذ بما ذهب إليه "برونشفيك" الذي أرجع سبب قلة التجار المغاربة في أوروبا إلى ضعف تقنياتهم الملاحية[١٨]، وقد أوضح أحد الباحثين أن الأسطول المغربي في الفترة الوسيطية لم تكن تنقصه الإمكانات التي تمكنه من الوصول إلى أوروبا خاصة في سواحلها الجنوبية، وأن تخلف البحرية المغربية لا يمكن الحديث عنه إلا مع النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.[١٩]

ثانيًا: الحضور المغربي التجاري في أوروبا

إلا أنه رغم هذه الكراهية التي عبر عنها الفقهاء حماية لدين التاجر المسلم، فإننا لا نعدم إشارات تكشف عن وجود عناصر مغربية كانت تسافر إلى أرض الكفار لإنجاز عمليات تجارية، وقد التزمت المعاهدات الموقعة مع الدول المسيحية بحمايتهم[٢٠]، ومن هؤلاء يمكن أن نذكر:

اسم التاجر	ديانته	المكان الأصلي	المكان الذي وصل إليه أو استقربه	السبب	المصدر أو المرجع
سعد الخير بين محمد بن سهل بن سعيد الأنصاري	مسلم	الأندلس	الصين واستوطن مكة	لم يذكر السبب	الذيل والتكملة، سفر٤ص ٣٩
سعيد ابن عيشون	مسلم	بطليوس		==	الذيل، سفر٤ ص ٢٢٣
عبد القوي ابن محمد العبدري	مسلم	الأندلس	مصر والهند	طلب العلم	الذيل،٤ ص٢٣٢.
تاجر من المهدية لم يحدد اسمه	مسلم	المهدية	صقلية	التجارة	المعيار، ج٨، ص ٢٠٨
إبراهيم بن بيجو	يهودي	المهدية	صقلية	التجارة	المعيار، ج٨، ص ٢٠٨.
أبـو ذكـرى كـوهين السجلماسي	يهودي	سجلماسة	الهند	التجارة	جواتيابن، ص ٢٦٠
عروس بن يوسف	يهودي	المهدية	الفسطاط+ الهند	التجارة	جواتيابن، ص٢٦١
محمد بن المعلم	مسلم	سبتة	جنوة	التجارة	-محمد الشريف. سبتة، ص ٦٩ Sabta, Ferhat,341 نشاط جنوة ص ٢٣٦.
عزيز Acigo		المغرب لم يحدد مكانه الأول	توفي بجنوة	التجارة	نشاط، ص ٢٣٧
تاجر من سبتة		سبتة	توفي بجنوة	التجارة	Ferhat p 341.
أبو خير أبو سكر			جنوة	التجارة	نشاط، ص ٢٣٤
تاجران سابتيان		سبتة	توفيا بجنوة	التجارة	رحلة بنيامين، ص: ٥٨
تاجر سبتي		سبتة	احتجز في ميورقة	التجارة	محمد الشريف، سبتة، ص: ٦٩-٧٠ فرحات Sabta, p 342

انطلاقًا من هذه الإشارات التي أمكن تجميعها يمكن تلمس الحضور المغربي في العديد من المدن التجارية الأوروبية والمشرقية بل تعداه إلى بلاد الهند، كما أثبتت ذلك وثائق جنيزة القاهرة التي تكشف بما لا يدع مجالا للشك أن عناصر تجارية مغربية من مدن مختلفة وجدت في سواحل البحر الأحمر والهند، وقد قدمت ليس فقط من مدن مشهورة في المغرب مثل سبتة أو بجاية أو المهدية...بل حتى من مدن لم تكن معروفة كجبل "نفوسة ودرعة"[٢١]، ولقد لاحظ أحد الباحثين[٢٢] أن أغلب العناصر المغربية التي وجدت في جنوة طيلة ق ٦ و٧ هـ/ ١٢ و ١٣م ، كانت في وضعية "عبودية أو معتقة"، وأخذت هذه الفئة تقل انطلاقًا من ق٨ هـ/ ١٤م فمن بين ستة وثلاثين عبدا تم إحصاؤه بين سنتي٦٣٦و٦٨٧هـ/ ١٢٣٩ و ١٢٨٨م كان عشرة منهم مغاربة، وأربعة تونسيين: رجل وثلاث نسوة، وامرأة من بجاية وأخرى من سبتة وما تبقى كانوا إما أندلسيين وإما ميورقيين.

إلا أن هذه الإشارات رغم أهميتها لا تقوم دليلاً قويًا على وجود عناصر مغربية تعاطت مختلف ضروب التجارة في بلاد الكفر، ولعل طبيعة المواد التي كانت تجلب إلى بلاد المغرب

من قبل التجار النصارى هي التي زهدت المغاربة في هذه التجارة، خاصةً أن أغلبها كانت مواد كمالية، وأن المواد الأساسية مثل الحبوب والزيتون ومختلف المواشي كانت تنتج محليًا[٢٣]، ولم يشعر المغاربة إلا بأهمية تجارة الذهب فتحملوا المشاق والصعاب حتى تمكنوا من احتكار تجارته، وحققوا من ورائها أرباحا طائلة ، ولعل "شركة الأخوة المقري" خير مثال على هذا النشاط سواء من حيث تنظيمها أو من حيث الأرباح التي حققتها.

لقد قامت هذه الشركة على أكتاف خمسة إخوة ينتمون إلى عائلة المقري، وهم أبو بكر ومحمد وعبد الرحمن وعبد الواحد وعلي، فحفروا الآبار على طول الطريق الرابطة بين تلمسان وبلاد السودان عبر سجلماسة[٢٤]. واتخذوا طبلا للرحيل وراية تتقدم سيرهم، وقاموا بتقاسم الأدوار التجارية فيما بينهم، فكان أبو بكر ومحمد يقيمان في مدينة تلمسان ويتوليان مكاتبة عبد الرحمن المقيم بسجلماسة فيخبرانه بحاجتهما من المواد الصحراوية، ويبينان له مقدار الطلب على هذه البضائع من قبل التجار النصارى الوافدين على المدينة، فيقوم عبد الرحمن الذي كان بمثابة "لسان الميزان"[٢٥] بدراسة طلبات إخوته ويقدر ويكاتب إخوته في ولاته بطلبات السوق، ثم تنقل السلع وتبادل بناء على الطلبات والمكاتبات التي كانت بين الأخوة في المدن الثلاثة : تلمسان وسجلماسة وولاتة.

ونتيجة لهذا التنظيم المحكم فقد حقق الإخوة المقري أرباحًا مهمة "... اتسعت أموالهم وارتفعت في الفخامة أحوالهم"[٢٦] وجمعت بينهم وبين ملوك السودان مراسلات عبر فيها السودانيون عن حاجاتهم إلى الإخوة المقري بفضل ما كانوا يقومون به من تزويد السوق السودانية بمختلف البضائع التي يرغبون فيها. إلا أن الشركة لم تستمر طويلاً، إذ سرعان ما آلت إلى الإفلاس بعد وفاة هؤلاء الخمسة ولم يقم أبناؤهم بمتابعة أعمالهم، ولعل المشاكل التي صادفت المغرب في هذه المرحلة وفتور همة الورثة أدت إلى إفلاس هذه الشركة التي لم يرث منها صاحب نفح الطيب سوى خزانة كبيرة من الكتب تفرغ لقراءتها[٢٧].

وكيف ما كانت الأسباب التي أدت إلى اختفاء هذه الشركة، فإن السؤال الذي يطرح بإلحاح هو هل كانت شركة الإخوة المقري هي الوحيدة التي عرفها تاريخ المنطقة في الفترة الوسيطية؟ ألم توجد شركات أخرى سواء في مستوى هذه الشركة، خاصة في مدينة فاس التي كانت منتهى الطرق التجارية الصحراوية القادمة إليها من سجلماسة؟ ألم يفطن المغاربة إلى تجميع جهودهم في شركات على غرار شركة الأخوة المقري لاحتكار تجارة بعض المواد؟

رغم أهمية هذه الأسئلة، فإن شركة الإخوة المقري تظل ذلك النموذج الفريد في تنظيم التجارة المغربية في اتجاه بلاد السودان، أما في اتجاه أوروبا فقد تكفلت بها العناصر الإيطالية واليهودية، الذين سيقومون بدور كبير في التجارة الخارجية المغربية العابرة للبحر في اتجاه أوروبا أو المشرق الإسلامي، والمحملة بمختلف أنواع السلع هذا فضلا عن نقل الحجاج الراغبين في أداء مناسك الحج.

وقد استند بعض الباحثين[٢٨] على ما ذهب إليه الأستاذ عبد الله العروي[٢٩] الذي يرى أن التجارة البحرية لم يكن يستفيد منها إلا قلة قليلة من المجتمع المغربي، خاصة الأمير وحاشيته، وذلك بحكم الثقل العسكري والسياسي الذي تميز به السلطان، فالسفن التي كانت تحمل بضائع موجهة إلى القصر كانت تعفى من أداء العشر، وأن التجار النصارى لم يكن بإمكانهم بيع شيء من موادهم إلا إذا علم السلطان وحاشيته بها، فإذا راقتهم اشتروها وإلا تدفع العشر وتباع للتجار من أهل البلد، وهذا بخلاف تجارة القوافل التي كانت تمس فئات مجتمعة عديدة وتدر عليهم أرباحا طائلة[٣٠].

ومن ثَمَّ فإن التجارة مع الأوروبيين كانت تتم وتنمو على هامش فئات المجتمع، فالذين كانوا يستفيدون منها هم الأوروبيون والعناصر اليهودية من جهة، والسلطان وحاشيته من جهة أخرى، ولم توظف أموالها للرفع من "القدرة الإنتاجية" لبعض القطاعات الاقتصادية. كما كانت تؤدي في حالة ضعف المخزن إلى تمزق البلاد وظهور العديد من الراغبين في الاستقلال عن السلطة المركزية والذين كانت استفادتهم من هذه التجارة عظيمة بحيث استعانوا بمداخيلها لدعم "مشروعهم الاستقلالي" كما هو الشأن بالنسبة لآل العزفي بسبتة وبعض الأمراء في كل من الجزائر وبجاية والمهدية وتونس.[٣١]

وتجدر الإشارة إلى أن ابن خلدون لم يستحسن مشاركة السلطان في مختلف الأنشطة الاقتصادية خاصة الفلاحة والتجارة ورأى أن ذلك مضرة بالرعية ومفسدة للجباية[٣٢]، وأن الدولة تلجأ إلى هذا السلوك رغبة منها في الزيادة من جبايتها، فتفرض مكوسا جديدة أو تزود في المفروضة سلفا أو مصادرة أموال العمال، "وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم، وأن الأرباح تكون على

نسبة رؤوس الأموال، فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق، ويحسبون ذلك من إدار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم"[٣٣]. وإذا ما لجأ السلطان إلى مزاحمة التجار فإنه سيحدث بهم أضرارا متعددة الأوجه منها، أن التجار أصحاب الأموال البسيطة سوف لن يستطيعوا منافسة السلطان نظرا إلى غناه الذي يمكنه من احتكار السوق "إذ لا يجد من ينافسه في شرائه فيبخس ثمنه على بائعه"[٣٤] وتؤثر هذه الوضعية سلبا على تناقص الجباية التي سيتوقف التجار والفلاحون عن أدائها نظرا لتعطل نشاطهم "فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة، ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش"[٣٥].

وهكذا فإن ابن خلدون عندما كان يرى ألا يزاحم السلطان أصحاب التجارة والفلاحة كان يحرص على التنبيه أن الجباية يمكن أن تستمر وتنمو إذا وجد من يؤديها، إذ كان الفلاحون والتجار والصناع هم الذين يتحملون الضرائب المختلفة التي كانت تبتدئ خفيفة-شرعية-وبميل الدول إلى الاستقرار والدعة وقلة الفتوح ترتفع الضرائب بمختلف أنواعها بل وتفرض ضرائب جديدة. إن ظاهرة مشاركة السلطان لفئات كانت ظاهرة عامة وقد أكدتها مختلف الدراسات التي أجريت على الإشارات التي أفادتنا بها وثائق "جنيزة القاهرة"، والتي تكشف عن حضور السلطان وكبار رجال الدولة في العملية التجارية[٣٦].

والأمر ذاته توضحه العديد من الوثائق المحفوظة في الأرشيفات الأوروبية، كما هو الشأن بالنسبة إلى أحد السلاطين الحفصيين الذي ساهم في صفقة تجارية قام بها التاجر الجنوي أركانتو "Archanto"، وكان الأمير العزفي يمتلك ١/٤ سفينة لتاجر من طارغونيا يسمى «Jaume Castellar»، كما أن الوزير العبد لوادي "هلال" كان يمتلك ٣/٤ سفينة ميورقي Anton، وامتلك السلطان النصري النصف في سفينة الجنوي «Manuelies de Negro»[٣٧]. فهذا الحضور المكثف للسلطان في التجارة الخارجية مع أوروبا هو الذي سمح بنشاط فئتي التجار اليهود والإيطاليين، لم يشجع على ظهور فئة تجارية قادرة على خلق الثروة، وربما التفكير في تنظيم تجارة دولية على غرار ما فعله الإخوة المقري، فمزاحمة السلطان للتجار في السوق حالت دون بزوغ تجار من مختلف المدن المغربية الوسيطية التي كانت لها ثقافة تجارية كبيرة من أن تستمر في أدائها التجاري، مما سمح باحتكار المدن الإيطالية للتجارة الخارجية للدولة المغربية الوسيطية.

خَاتِمَةٌ

بناءً على كل هذا، فإن مسألة الحضور المغربي خارج ديار المسلمين لاسيما في أوروبا وجب النظر إليه من خلال المؤسسة الفقهية، التي لم تكن تحبذ أن يستقر المسلمون عمومًا بأرض لا تدين بالإسلام، وذلك مخافة أن يفتن المسلم في دينه، وتجري عليه أحكام غير المسلمين، ويكون بذلك قد خسر الشيء الثمين المرتبط بدينه وعقيدته، كما أن هذه المسألة نعتقد أنه يجب النظر إليها أيضًا من الجانب "البرجماتي" المرتبط بحجم الربح الذي سيحصل عيه المغربي، مادام التجار الأوربيون قد أكفوه مؤونة الضرب في الأرض من أجل الربح، وتعتقد كذلك أن الحضور القوية للدولة في شخص السلطان وحاشيته في مختلف العمليات التجارية، لم يسعف في تكوين برجوازية تجارية يمكن أن تضطلع بمهام تطوير التجارة الخارجية، ونسج علاقات مع شركائها في البحر الأبيض المتوسط.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، المغرب، ط ١، ١٩٨٧، ص. ٦٠
(٢) محمد القبلي، نفسه، عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤ ص. ٢٢٦.
(٣) **مراجعات**، م س، ص ٢٢٦.
(٤) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١. ١٩٩٣، ص. ١٩٧ وما بعدها.
(٥) ابن الخطيب، **الإحاطة**.. تحقيق عبد الله عنان ، مكتبة الغانجي، القاهرة .١٩٨٣، ج٢، ص. ١٩٢- ١٩٤. المقري التلمساني.. **نفح الطيب**.. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨، ج٥، ص. ٢٠٦، ومن خلال مقابلة رواية ابن الخطيب والمقري فإن صاحب النفح حافظ على النص نفسه الذي أورده ابن الخطيب مع زيادة في آخر النص "وهذا ما يغير من العوائد، ويجر السفهاء إلى المفاسد" ج ٥، ص. ٢٠٦.
(٦) محمد بن عمر، **أكرية السفن**، تحقيق محمد زهود، ط١، ١٩٩٣.ص٣٤.
(7) H. Ferhat, Sabta des origines au XIV siècle, publié par la ministère des affaires culturelle, s.d, El maarif, Jadida, p 342.
(٨) ابن رشد، **المقدمات**.. تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١،د.ت،ج٩، ص. ١٥٦-١٥٧.
(٩) نفسه، ج٢، ص. ١٥١.
(١٠) **سورة الأنفال**، آية ٧٣.
(١١) **سورة النساء**، آية ٩١.
(١٢) ابن رشد، نفسه، ج ٢ص.١٥١-١٥٢.
(١٣) نفسه، ج٢ص.١٥٢-١٥٣.
(١٤) ابن رشد، ج.٢ص.١٥٢,١٥٣.
(١٥) نفسه، ج٢ ص. ١٥٤.
(١٦) نفسه.
(١٧) حول مختلف المواد التي كان يمنع الفقهاء تصديرها يمكن الرجوع لابن رشد، **المقدمات**، ج٢، ص. ١٥٥-١٥٦-١٥٧.
(18) J- Heers, l'Etats de l'occident musulmane au XIII – XIVème siècle, Alger,s.d, p 387-388.
(١٩) محمد الشريف، **سبتة: دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، منشورات جمعية تطوان، سمسر، د.ت...، م.س، ص: ٦٨، مصطفى نشاط، **جنوة وبلاد المغرب، من سنة ٦٠٩هـ إلى ١٢١٢م**.. الرباط،٢٠١٤ ص: ٢٣٨.
(20) De Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale du Maghreb avec les nations Chrétiennes, au moyen âge, Paris. 1886, p 115.
(٢١) جوايتاين، **دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية**، ترجمة عطية القوصي، ط١، الكويت ١٩٨٠، ص. ٢٦٩.
(٢٢) جورج جيهل، **جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط**، ترجمة محمد الشريف، مجلة كلية الآداب، تيطوان، عدد٨، ١٩٩٧، ص. ١٢١-١٢٢. ويستفاد مما أورده بنيامين التطيلي أن السواحل الأوروبية خاصة المتوسطية كانت أماكن مطروقة من طرف التجار المسلمين مثل برشلونة ومورسيا ومونبيليه، يرجع ل: بنيامين التطيلي، **رحلة ابن يونة**، ترجمة وتعليق عزرا حداد، دار ابن زيدون، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص. ٥٠-٥٣.
(٢٣) مصطفى نشاط، م. س، ص. ٢٤١-٢٤٢.
(24) B- Mauny, Tableau g2ographiaue de l'ouest Africain au moyen âge d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Amsterdam, 1967. P. 427.
(٢٥) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، محمد عبد الله عنان، ط٢، القاهرة.١٩٨٣، ج٢. ص١٩.
(٢٦) نفسه.
(٢٧) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٢. ص١٩٢.
(٢٨) محمد الشريف، **سبتة**، م. س، ص.١٠٩-١١٠. ومصطفى نشاط، م.س، ص. ١٤٤.
(٢٩) **مجمل تاريخ المغرب**، م.س، ص. ٢٢٦.
(٣٠) ابن خلدون، **المقدمة**، م. س، ص. ٣١٢، مصطفى نشاط، م. س، ص. ١٤٤.
(٣١) عبد الله العروي، ص. ٢٢٦-الشريف، نفسه، مصطفى نشاط، مقال سابق، ص ١٦٢.
(٣٢) ابن خلدون، **المقدمة**، م. س، ص. ٢١٩-٢٢٠-٢٢١.
(٣٣) ابن خلدون، ص.٢١٩-٢٢٠.
(٣٤) نفسه، ص. ٢٢٠.
(٣٥) نفسه، ص. ٢٢٠.
(٣٦) إف لاكوست، **العلامة ابن خلدون**، ترجمة ميشال سليمان، بيروت، ط١، ١٩٧٤، ص: ٢٠-٢٢-٢٥.
Ch- Picard , la mer et les Musulmans d'occident au mayen âge(VII-XIIème) 1(er) éd, Paris1997, p.168-169
(٣٧) مصطفى نشاط، م. س، ص: ٢٤٩.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

دور الثنائية الجغرافية والقبلية
في تأجيج الصراع المرابطي الموحدي



د. الحسين حديدي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
كلميم وادنون – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يتجلى الهدف من إنجاز هذا المقال في إبراز الدور الذي لعبته الجغرافيا الطبيعية لاسيما ثنائية السهل والجبل، في تفسير بعض الصراعات السياسية التي رافقت قيام بعض الدول وإندراس أخرى في الفترة الوسيطية ببلاد المغرب، على اعتبار أن هذه الثنائية الجغرافية شكلت عاملا من عوامل صمود دول وأفول أخرى نموذج السهول التي كانت مجالات قيام دولة المرابطين ومحل حواضرهم ومنها مراكش، لكونهم ألفوا الفيافي والبيداء المتسمة بالانبساط لما نزحوا من أعماق الصحراء الكبرى، بينما شكل الجبل حصنًا حصينًا للموحدين الذين انطلقوا في بناء دولتهم من أعالي الجبال بالأطلس الكبير جنوب مراكش، إلى جانب إبراز دور العصبية القبلية في تأجيج الصراع المرابطي الموحدي حيث كانت العصبية الصنهاجية وراء قيام وتوحيد الدولة المرابطية للمغرب في القرن (٥ هـ/ ١١م)، في حين ساعدت العصبية المصمودية ابن تومرت على جمع كلمة الموحدين ضد المرابطين، مما ساهم في إسقاط دولتهم وبناء الدولة الموحدية على أنقاضها. فيما يخص دواعي البحث وأهميته تتمثل في نظرنا فيما يقدمه من تفسيرات جديدة قد تبدو منطقية في غياب وثائق تاريخية توضح إلى حد ما أسباب هذا الصراع، على اعتبار أن ما تقدمه المصادر التاريخية من معلومات قيمة حول الصراع المرابطي الموحدي ومصير هذا الصراع وحتميته، فإن هذه المعطيات لوحدها تبقى غير كافية إذا لم يتم الانفتاح على باقي العلوم الإنسانية المساعدة كالجغرافيا وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم التي تقدم معطيات مساعدة يمكن أن تعيد قراءة الأحداث التاريخية برؤية متبصرة ومنهجية مقبولة في تفسير الحدث التاريخي. أما فيما يخص الدراسات التي تناولت الموضوع من هذه الزاوية أو قاربته من هذه النواحي لم نعثر على دراسة بهذا الشكل، على اعتبار أن أغلب الدراسات المصدرية وحتى المراجع التي قاربت موضوع المرابطين والموحدين، ركزت على الجانب العسكري والاجتماعي لقيام هذه الدول أو سقوطها ورصد بعض الجوانب الثقافية والسياسية للدولتين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ أغسطس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الدولة المرابطية؛ المغرب الأقصى؛ دولة الموحدين؛ الدعوة التومرتية؛ الصراعات السياسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.204333

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الحسين حديدي. "دور الثنائية الجغرافية والقبلية في تأجيج الصراع المرابطي الموحدي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٧١ – ٨٠.

Corresponding author: hadidihoucine gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

شهد العصر الوسيط تدافعًا سياسيًا وعسكريًا بين مختلف الكيانات السياسية المتصارعة حول السلطة والزعامة بالمغرب الإسلامي، فكل هذه الكيانات السياسية والعصبيات القبلية لم تستطع توحيد المغرب تحت قيادة وسلطة سياسية، واضحة المعالم والأهداف إلا بعد ظهور وميلاد الحركة المرابطية بالصحراء الصنهاجية، التي وحدت المغرب وتمكنت من لم شتات القبائل الصنهاجية في إطار توحيد العصبية، ورفع راية الجهاد والدعوة إلى ترسيخ المذهب السني المالكي مع الزعيم المرابطي الفقيه عبد الله بن ياسين، الذي وضع الأساس الأول لبناء الدولة المرابطية، وذات الأمر حصل مع العصبية المصمودية التي استطاعت تكوين وخلق كيانات سياسية موحدية، قامت على أنقاض الكيان المرابطي ووسع من نفوذ المغرب إلى مشارف بلاد السودان جنوبا، ثم الأندلس شمالا بفضل سياسة وحنكة الزعيم الروحي والسياسي ابن تومرت، الذي رسم منهج الدولة وكون طبقاتها وعين قضاتها.

وحينما نتوقف للمقارنة بين العوامل المساعدة في انبعاث الدولتين، نستشف أن النظامين معًا قاما في البداية على دعوة دينية أو إصلاحية ترمي إلى ترسيخ التعاليم الإسلامية والسنية بواسطة الزعيم الروحي والسياسي (عبد الله بن ياسين- ابن تومرت)، ثم العصبية القبلية (الصنهاجية- المصمودية) لتوحيد الجهود وتوفير الجيوش والأتباع، فالدولتان معا استطاعتا توحيد المغرب الإسلامي والقضاء على ذلك التمزيق والانشقاق السياسي الذي عرفه المغرب قبل ظهورهما، فكان لهما الفضل في الدفع بحركة التطور والنماء خلال العصور الوسطى وكذلك في انتزاع الزعامة السياسية التي كانت حكرًا على الخلفاء المشارقة (الأدارسة – الخوارج بتاهرت- الفاطميين- الأغالبة...)، وإنتاج قادة وزعماء محليين تعاقبوا على حكم المغرب واستقلاله عن التبعية السياسية للعباسيين في عهد الخلفاء الموحدين.

فكيف تمكن المرابطون من توحيد شتاتهم؟ وإلى أي حد تمكنوا من توحيد المغرب الإسلامي؟ وما الأسباب الكامنة وراء اندثار نجمهم؟ وإلى أي حد كان ابن تومرت مصيبًا ومحقًا فيما نسب من اتهامات للحركة المرابطية؟ وما الغايات والأهداف التومرتية وراء الثورة على السياسة المرابطية؟ وما علاقة ذلك بالقبائل المصمودية؟ وإلى أي حد تجاوبت هذه القبائل ومشروع ابن تومرت السياسي؟ وهل كان للعامل الجغرافي والقبلي دور أساسي في تأجيج الصراع الصنهاجي – المصمودي؟ أسئلة وغيرها تتناسل لتكون عناصر الإشكالية التي سنحاول ما أمكن مقاربتها على ضوء المعطيات القبلية والجغرافية.

أولاً: ظروف نشأة الدولة المرابطية وعوامل امتدادها

١/١-دور عبد الله بن ياسين في التوجيه الديني والسياسي للمرابطين

يتضح من سيرة الإمام عبد الله بن ياسين، أنه زاوج بين العمل الديني والسياسي، (الأخروي- الدنيوي)، وذلك بمحاولته تطهير قلوب أتباعه من أنواع الشرك وحملهم على الطاعة والاستقامة في كل الأحوال، ومن ثم الطموح إلى نشر هذه العقيدة وتوحيدها بين جميع الفئات ببناء كيان سياسي يحمل اسم أتباعه ومريديه ويوحد مختلف التصورات ويستمد قوته من التزام أتباعه وتركهم للحوادث والمخالفات، ومن أجل ذلك ولتحقيق تلك الطموحات، ما إن لمح عبد الله بن ياسين التفاف عدد كبير من أتباعه حول دعوته الدينية، وانتشار الإسلام السني المالكي بين القبائل الصنهاجية حتى بدأت تراوده فكرة بناء كيان سياسي اشتق اسمه من رباطه الأول الذي أسسه بالقرب من السنيغال،[١] والذي أطلق فيما بعد على مريديه، ورفع راية الجهاد ضد المناطق المجاورة، معتبرا أن جل المناطق الشمالية تستوجب الضم والوحدة، وربما كان يهدف إلى لم شتات العصبية الصنهاجية العمود الفقري للدولة المرابطية.

ومن ثَمَّ ترسيخ المذهب المالكي بالمغرب الأقصى والقضاء على النحل التي كانت قبله (المذهب الخارجي – الأباضي-المذهب الإسماعيلي...)، فقد أشار صاحب البيان المغرب إلى عودة ابن ياسين من رحلته العالمية بالأندلس ومروره بمنطقة المغرب الأقصى، إذ عاين قلة العصبيات بالشمال، وضعفها عن السيطرة العصبية الزناتية، وقدر عدد الجيوش بحوالي ٣٠٠٠ جندي وبذلك أدرك أنه يمكنه التغلب عليهم بسهولة بعدما كون أتباعا كثيرين[٢] إذ ما لبث أن تحول من فقيه ديني إلى زعيم سياسي ومن مصلح اجتماعي إلى مجاهد بالسيف. يهدف إلى الوصول للسلطة وتكريس مشروعه الإصلاحي الذي وضع أسسه ورسم منهجه.[٣]

تبعًا لما تقدم، نستطيع القول إن زمن قيام دولة المرابطين اقترن بفراغ سياسي بالمغرب، كما يقول عبد الله العروي، حيث استطاع الملثمون تكوين قوة عسكرية وسياسية بالصحراء بعد أن منحهم عبد الله بن ياسين الزاد الديني والروحي،[٤] فقد تولى ابن ياسين الزعامتين الدينية والسياسية، وفرض سلطانه

على أتباعه وقد عبر البكري عن سلطته الروحية وانقياد القوم له بقوله: "وكان الإمام يحى بن عمر أشد الناس انقيادًا لعبد الله ابن ياسين وامتثالاً لما يأمر به".(٥)

إذا كان من البديهي أن يتحول الإمام عبد الله بن ياسين من زعيم ديني ذو سلطة روحية إلى زعيم سياسي وأحد المنظرين للمشروع السياسي للمرابطين، بعدما عاين كثرة أتباعه وانقيادهم له كما يقول البكري، فما هي أهم مرتكزات هذا التحول؟ بمعنى آخر ما هي الدعائم الأولى التي قامت عليها الحركة المرابطية؟

يذهب ابن خلدون إلى أن الدولة المرابطية قامت على أساس العصبية الدعامة القبلية التي لا تستغني عنه دولة من الدول الوسيطية، وأيضًا على الأساس الديني، وهما العنصران اللذان يمدان الدولة بالقوة.(٦) هكذا توجه المرابطون شمالاً بالصحراء لأجل توحيد العصبية الصنهاجية وجمع شتاتها، في ظل تأييد العلماء والفقهاء وضمانًا لاستمرار تجارة القوافل الصحراوية، ومع منتصف القرن الخامس الهجري، بدأ عبد الله بن ياسين بـ ٣٠٠٠ مرابط فهاجم قبيلة جدالة وانتزع منها الطاعة والولاء عام (٤٣٤ هـ/١٠٤٢م)، ثم اتجه نحو لمتونة فبايعته على الكتاب والسنة، وتابع سيره نحو مسوفة وأخضعها.(٧)

وابتداءً من سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٨م) يمم القائد عبد الله ابن ياسين وأتباعه وجهتهم نحو الشمال، للإطاحة بالعصبية الزناتية،(٨) والسيطرة على المراكز التجارية الهامة بدرعة وسوس، فاستولى على سجلماسة ثم تارودانت بسوس ونواحيها وبعد ذلك توجهوا إلى بلاد المصامدة وفتحوا جبل درن، فبلاد نفيس وسائر البلاد، وبايعت قبائل رجراجة وحاحة أمير المرابطين،(٩) ثم دخل ابن ياسين أغمات وأقام بهما شهرين بعد أن فر أميرها لقوط بن يوسف المغراوي إلى تادلة، وتبعه بعد ذلك وتمكن منه، وزوج أرملته زينب النفزاوية للأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني، ثم قصد بلاد تامسنا يطلب البورغواطيين، وفي ذلك يقول صاحب روض القرطاس: "فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال بورغواطة وما هم عليه من الضلالة رأى أن الواجب تقديم جهادهم على غيرهم، فصار إلى غزوهم في جيوش المرابطين".(١٠)

ولما قضى الله الأمر بقتال الكفرة من البورغواطيين على يد الإمام ابن ياسين، جهز هذا الأخير حملة عسكرية على البورغواطيين، أسفرت عن موت الإمام متأثرًا بجراحه عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)،(١١) لتستأنف المعارك بعده بقيادة الأمير أبي بكر والقائد العسكري يوسف بن تاشفين. فإلى أي حد ساهم أبي بكر في بناء المشروع السياسي الذي رسمه ووضع أسسه ابن ياسين؟

٢/١-ولاية أبي بكر بن عمر اللمتوني وحسمه للصراع المرابطي البورغواطي

مما لاريب فيه أن صراع بورغواطة ضد المرابطين كان نزالاً قويًا لم يستطع فيه المرابطين حسم المعركة، خصوصًا وأن الحرب قبل أن تكون حول طبيعة المعتقد، كانت حربا قبلية لعبت فيها العصبيتان المصمودية والصنهاجية دورًا هامًا، في استمرار القتال واشتداد رحاه بين الجانبين، فكانت مشاعر الانتماء القبلي أقوى وسائل الدعم الحربي في المعركة. بيد أن بسالة المرابطين وطموحهم الجامح وراء استكمال الوحدة والقضاء على العصبيات المناوئة، زاد من هممهم وقوى من عزيمتهم على مواصلة الجهاد بعد تولي أبي بكر قيادة المرابطين أثناء الاتفاق والاجماع الذي عقده عبد الله بن ياسين ساعة الاحتضار بقوله ما نصه: " فانظروا من تقدمونه منكم ويقوم بأمركم ويقود جيشكم، فاتفق رأيهم على تقديم أمر الحرب لأبي بكر بن عمر اللمتوني".(١٢)

وما إن حصل أبو بكر على الدعم الشعبي وفق القانون الشرعي (البيعة)، حتى استنهض العزائم وعبأ القبائل لمواصلة استئناف الجهاد ضد بورغواطة، وبعد صراع مرير أحرز على انتصار متين، تكلل بانكسار شوكة الأعداء وتنفس المغرب منهم الصعداء، وصارت القوة الغالبة للعصبية الصنهاجية وعقيدتها المالكية، فاستأصل بورغواطة وتعقب الفارين من جيوشهم "... وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلامًا جديدًا".(١٣)

وأثناء إقامته بمعية زوجته زينب النفزاوية بأغمات، حوالي ثلاث أشهر استعدادًا لمواصلة الجهاد بباقي المناطق الشمالية الخارجة عن نفوذ المرابطين، علم أبو بكر بنبأ الصراع الذي نشب بين قبيلتي جدالة ولمتونة، حيث قدم عليه رسول من تلك الأقطار " أخبره باختلال أمر الصحراء".(١٤) فتوجه إليها عام (٤٥٣هــ/١٠٦١م)، لتهدئة الأوضاع، وإصلاح ذات البين بين القبيلتين،(١٥) تاركًا أمر المغرب الأقصى بالنيابة تحت تسيير ابن عمه يوسف الذي حقق طموحات ابن ياسين السياسية وآمال أبي بكر العسكرية، بعد توحيده للمغرب الأقصى لأول مرة في تاريخه، من تخوم الصحراء جنوبًا إلى البحر الأبيض المتوسط والأندلس شمالاً، ثم من المحيط غربًا إلى مدينة الجزائر شرقًا،(١٦) فكيف تم له ذلك؟ وما هي الظروف التي ساعدته على اقتناص الحكم من ابن عمه أبي بكر؟

٣/١-جهود يوسف بن تاشفين في توحيد المغرب الأقصى

يُعَدّ يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أنجبتهم الصحراء وكان لهم أبعد الأثر في توحيد المغرب الأقصى، لما عرف عنه من الشجاعة وإيمانه القوي، وهي سمات استمدها من بيئته الصحراوية، بشدتها وقساوتها، فكان لها الأثر البالغ في تكوين شخصيته التي أبرزها في ميدان الجهاد العسكري، ومعلوم أن تلك الانتصارات الواسعة التي حققها إلى جانب المرابطين خلفت في نفسه حبا عميقا للسلطة، ولعل الحادث الذي نشب بالصحراء بين قبيلتي جدالة ولمتونة ونزوح الأمير أبو بكر إلى الصحراء لاحتواء هذا الصراع تاركا ابن عمه خلفا له،[١٧] هو ما زاد من أطماع يوسف في الملك بعدما ذاق حلاوته وعاين ضخامته، وكثرة جنده وأتباعه والتطور الذي حظيت به حاضرة ملكه وعاصمته (مراكش)، فعمل في البداية على استمالة زعماء لمتونة الصحراء، وأغدق عليهم الأموال والهبات لكسب ولائهم، ومساندتهم له في صراعه ضد أبو بكر، ولعبت زينب النفزاوية دورا هاما في حسم الصراع بين الأميرين.[١٨] فقد أشارت على الأمير يوسف بن تاشفين، بمقابلة ابن عمه بنوع من الجفاء والغلظة، وأن يشعره بقوة السلطان ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام، بما يصلح للصحراء حتى يعرف مراده قائلة له: "إن ابن عمك رجل متورع عن سفك الدماء ولا تسهل عليه الفتنة".[١٩]

وبنواحي أغمات التقى الجمعان، فسلم يوسف على أبي بكر راكبًا فرسه، ولم تكن هذه عادته فتعجب الأمير أبو بكر من ضخامة ملك ابن تاشفين ووفرة عساكره، فسأله يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش كلها؟ فأجابه أستعين بها على من خالفني.[٢٠] وبذلك يظهر من لقاء الرجلين أن يوسف لم يكن ليتخلى عن الملك وهو يشاهد أمجاده تتحقق، والركائب والوفود إليه تزحف لتهنئته، ولما أحس أبو بكر بانفلات الأمر من يده وأنه لا جدوى من منازلة يوسف عليه، قبل بهديته وقال في حقها باستكبار: "هذا خير كثير من يوسف" وانصرف إلى الصحراء مجنبًا نفسه سفك الدماء، في الوقت الذي أخذ فيه يوسف على نفسه عهدًا بأن لا يقطع أمرًا دون استشارته، ولا يستأثر بشيء دونه.[٢١]

هكذا، فبعد جهاد دام ربع قرن، جنى يوسف ثمرة أتعابه وبسط سيطرته على المغرب الأقصى، وأحسن بناء دولته وتنظيمها تنظيمًا قبليًا خالصًا، أي أنه اعتمد في إقرار الأمن وجباية الضرائب على قبائل صنهاجية، وأرسل لها القضاة واجتهد للقضاء على أي محاولة للزناتيين لاستعادة السلطة، وحرص يوسف إلى جانب كل هذا ترسيخ الإسلام السني الصحيح عن طريق الفقهاء والشيوخ، الذين أرسلهم إلى منازل القبائل وبناء المساجد.[٢٢] وبذلك بلغت الدولة المرابطية في عهده أقصى حدودها من الأندلس شمالاً إلى أقصى الصحراء جنوبًا ومن المحيط غربًا إلى مدينة الجزائر شرقًا.[٢٣] فما الذي منعه من توحيد المغرب الأوسط؟

إن تمركز وتواجد بني حماد الصنهاجيين بالمغرب الأوسط، حال دون إقبال يوسف بن تاشفين على الإغارة على بني عمومته الصنهاجيين،[٢٤] لكن ما الذي يمنع من توحيد هذه القبائل تحت قيادة المرابطين، وضم أراضيها بالمغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى؟

وفي تقديري، فإن المسألة لا ترتبط بأواصر القرابة القبلية فقط، بل هناك سبب أكثر جدية وواقعية دفع يوسف بن تاشفين إلى التوقف شرقا عند بجاية، ويعزى الأمر إلى الحالة السياسية المزرية والأوضاع المتردية، التي آلت إليها الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بالمشرق، وصراع ملوك الطوائف على السلطة بالأندلس، بالإضافة إلى حروب الاسترداد المسيحية ضد المسلمين، وهو ما جعل يوسف بن تشفين بعد توحيده للمغرب الأقصى، يوجه أنظاره إلى جزيرة الأندلس مستغلاً استنجاد ملوكها لاسيما المعتمد بن عباد لمساعدته على رد العدوان المسيحي.[٢٥]

وبذلك ظفر المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين بانتصار عظيم على قائد المسيحين الفونس في معركة الزلاقة يومه الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م[٢٦]. وغير خاف أن هذا الانتصار الذي منح المغرب هيبة داخليًا وخارجيًا أيام يوسف بن تاشفين، سرعان ما تبدلت أحواله وتراجعت شعبية المرابطين، وضعف ملكهم بعد وفاة يوسف وانتقال العرش لابنه علي. فأين يكمن الخلل؟ هل في شخصية الأمير علي بن يوسف؟ أم في الظروف السياسية التي تولى فيها عرش المغرب؟

ثانيًا: ضعف الدولة المرابطية وقيام دولة الموحدين

تناسلت وتفاعلت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية لتعصف بالدولة المرابطية وبأمجادها وهي في عز عنفوانها، ومن جملتها ما ارتبط بضعف سياسة الولاة، الذين تولوا الخلافة بعد يوسف بن تشفين، ووضع ثقتهم العمياء في جهاز الفقهاء، فضلاً عن ثورة العلماء الناقمين على الوضع القائم بدولة الملثمين، كأبي حامد الغزالي، ومحمد بن تومرت

المصمودي، إلى جانب نكسة المرابطين بالأندلس، وتراجع دور المسلمين في التصدي للمسيحيين المعتدين من القشتاليين والأراكونيين.

٢/١-علاقة المجال الجغرافي السهل والجبل بالصراع المصمودي الصنهاجي

لعب المجال الجغرافي بمعطياته الطبيعية دورًا فعالاً في الصراعات القبلية بالمغرب الأقصى لما لهذا المجال من أهمية في الاستقرار أو الترحال، بحسب الموارد الطبيعية المتوفرة، ويعتبر المجال الأطلسي بسهوله وجباله خير مثال عن هذه الثنائية، التي برزت بشكل كبير أثناء الصراع المرابطي الموحدي، ولعبت دورًا هامًا في حسم الصراع والانتصار للسكان الأصليين من مصامدة الجبل والسهل إبان فترات فتور الدولة المرابطية، فما هي خصوصيات هذا المجال؟

كانت أغمات ونواحيها من سهول الحوز وجبال الأطلس الكبير مجالاً للمصامدة،[٢٧] قبل أن تزحف عليه القوات المرابطية وتحتله، وتضع بذلك حدًا لعيش سكان جبال درن، الذين كانوا يعيشون على ما تدره الأراضي السهلية من منتوجات فلاحية وما توفره المجالات الجبلية من مراعي خصبة للماشية،[٢٨] هذه المجالات كانت تشهد أسواق أسبوعية تركزت في الغالب عند مفترق الوديان، يتناقل فيها القوم أخبار القبائل المجاورة، وكانت هذه الأسواق تحقق الاكتفاء الذاتي لمصامدة الجبل، من خلال تبادل السلع المحلية عن طريق المقايضة، واشتغال النساء في توفير حاجيات أسرهن بالعمل في الحقول.[٢٩]

ومما زاد من أهمية المجالات المصمودية، تواجدها على ممر الطرق التجارية الرئيسة الرابطة بين أغمات وسجلماسة. ولحيوية هذه الطريق تحدث عنها ابن خلدون وعن بلاد مصمودة حين أشار إلى الرواج الملحوظ، الذي جعله قبلة للتجار "فرحل إليهم التجار من الآفاق واختلفت إليهم أهل النواحي والأمصار عمروا الجبال واتخذوا منها أوطانا عدة".[٣٠] بيد أن هذا الرواج التجاري عرف كسادًا وتراجعًا، بتراجع وساطة التجار المصامدة بفعل منافسة الصنهاجيين، وسيطرتهم على التجارة مع السودان خاصة بعد تحويل مسار هذا النشاط، من أغمات أيلان إلى عاصمة المرابطين وحاضرتهم مراكش.[٣١] وإذا كان المجال الجبلي قد تميز بمثل هذه المعطيات، فما الذي يمكن قوله عن نظيره السهلي؟

اتسمت المناطق السهلية بانبساطها وغنى مجالاتها الزراعية، وأهمية أسواقها التجارية وتمركزها على طرق التجارة الكبرى، كلها عوامل ساعدت على ازدهار النشاط التجاري بها،[٣٢] ومنها سوق أغمات الذي ينعقد كل أحد وكان مستودعًا للبضائع والأموال المتجهة للسودان أو الأتية منه.[٣٣] وهكذا ظلت العلاقات الاقتصادية والروابط القبلية بين مصامدة الجبل وصنهاجة السهل تعرف عمليات المد والجزر، إلى أن دخل المرابطون للمجال السهلي، مما نجم عنه تنامي الوعي السياسي للمصامدة بضرورة التوحد والتماسك لمواجهة المرابطين الغرباء، الذين توغلوا شمالاً إلى أن بلغوا مجال المصامدة، فاحتلوا سهل أغمات الذي يصفه الجغرافي الإدريسي بقوله: "تقع أغمات أوريكة في فحص طيب التراب كثير النبات والأعشاب، والمياه لا تنقطع عنه وحوله جنات وبساتين ومكانه أحسن مكان في الأرض".[٣٤]

مثَّل المرابطون عناصر طارئة وغريبة على تلك المنطقة، إذ جاؤوا إليها على شكل فاتحين يحملون دعوة دينية، ويحاربون كل من لم يوافقهم في أفكارهم، إلا أنهم استقروا بمنطقة كانت منتجعا لطائفة من المغاربة، يرجع وجودها إلى ما قبل التاريخ وهي قبيلة مصمودة.[٣٥] ومع مطلع عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)، اختص أبو بكر مقرًا لقيادته العسكرية بأغمات وأعطى الانطلاق لتشييد عاصمة المرابطين، فشارك شيوخ القبائل وأعانوه على البناء بالمال والرجال.[٣٦] هذه المدينة التي استرسل عبد الواحد المراكشي في وصف مؤهلاتها الطبيعية بقوله: " [...] وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها واستولينا على أرحب المدن أحد العيون وأخصبها بلدا في السنين لا يريمها الخصب ولا يتعاطاها ولا يرومها الجذب ولا يتعاطاها تباهي بأزهارها نجوم السماء".[٣٧]

وتفيدنا هذه الرواية في تأكيد أهمية الموقع الجغرافي، الذي استقر به المرابطون سواء من حيث المؤهلات الطبيعية أو من الناحية الفلاحية، علما أن ذات المجال كان في حوزة قبائل مصمودة وبه تم تأسيس عاصمة المرابطين مراكش، التي منها سيستكمل المرابطون حملاتهم العسكرية نحو الشمال لإخضاع السهول المجاورة (سهل تادلة – سايس)، لسهولة الاختراق ولكثرة الجيش المرابطي الجرار، الذي ألف المعارك السهلية وإحراز الانتصارات الواسعة. في المقابل، لم تكن الجبال سهلة الاختراق، لتحصينها الجيد ولاحتوائها على المكامن الخطيرة وفرق العصابات التي يمكن أن تقود الهجومات المباغتة.[٣٨]

هكذا نجد يوسف بن تاشفين بعد إخضاعه للمناطق السهلية، مارس سياسة مخالفة مع المناطق الجبلية إذ سعى إلى مهادنتها وكسب ولائها، ومنح زعماء هذه القبائل (=

الأمغار) نفوذًا كبيرًا وسلطة عظيمة، فهم مسؤولون عن أقوامهم أمام أمير المرابطين،[٣٩] بل جندوا عددًا هائلاً من هذه القبائل في الجيش المرابطي، إلا أن السؤال المطروح لماذا بنى المرابطون عاصمتهم مراكش بسهل الحوز؟

تذهب بعض الدراسات العربية الحديثة إلى تفسير هذا الاختيار بعوامل جغرافية، وهي أن المنطقة التي تم بها بناء مراكش منطقة شبه صحراوية تماثل إلى حد كبير فضاء الصحراء الصنهاجية بالجنوب؛[٤٠] غير أن البعض الآخر من الباحثين، ومنهم عبد الهادي شعيرة رأى أن الهدف من بناء المرابطين لمدينة مراكش بسهل الحوز، إنما استهدف مراقبة مصامدة الجبل، خوفًا من نزوعهم إلى الشر،[٤١] وهو نفس ما ذهب إليه الدكتور عز الدين عمر موسى، حيث أشار إلى أن المصامدة لم يكونوا على وئام مع المرابطين، الذين بنوا عاصمتهم بالقرب منهم ليذللوا من صعابهم.[٤٢]

وباعتبار المناطق الجبلية المصمودية مصدرًا للقلاقل والثورات بالنسبة للمرابطين، استدعى الأمر اتخاذ سياسة حازمة في التعامل مع ساكنتها والحد من خطورتها، ويتجلى ذلك جليًا في وصية يوسف بن تاشفين لولي عهده علي بن يوسف بشأن أهل الأطلس، حيث أوصاه بأن: "لا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة" (=القبلة = الجنوب)، وكأن يوسف بن تاشفين كان يحس أنه سيخرج من جبال الأطلس جنوب مراكش فاتحون جدد يقضون على الدولة المرابطية.[٤٣]

إذا كان المرابطون قد كسبوا ولاء وانضمام القبائل المصمودية السهلية، وتجنيدها في الجيش كقبيلتي هيلانة وأوريكة، فإنهم بالمقابل وجدوا معارضة من لدن القبائل الجبلية، التي ظلت على انكماشها وتقوقعها تتربص من حين لآخر الفرصة للانقضاض على المرابطين بالسهول إلى أن ظهر على الساحة الدينية والسياسية الزعيم والفقيه ابن تومرت، الذي حقق آمالها في استرجاع مجالها، وفي الثورة على المرابطين الغرباء. فما هي طبيعة العلاقة التي ربطت ابن تومرت بقبيلة مصمودة؟ وكيف استطاع هذا الأخير كسب ولاء ومساندة القبائل المصمودية لدعوته الإصلاحية؟ وكيف تعاطفت مع مشاريعه السياسية الرامية إلى الإطاحة بدولة الملثمين؟

٢/٢-ظهور الدعوة التومرتية والانحلال الأخلاقي والسياسي المرابطي

كان للنجاح الذي حققه المرابطون في بناء دولة قوية، وضع أسسها ومعالمها الفقيه الجزولي عبد الله بن ياسين، دورًا هامًا وعاملاً محفزًا في تطلع المصامدة إلى الحكم، والسعي نحو توحيد العصبية المصمودية الكثيرة، فهم أعز نفرا وأغنى بلادًا، مستفيدين من الضعف الذي دب في الدولة المرابطية أيام علي بن يوسف، فحفزهم ذلك على الالتفاف حول دعوة ابن تومرت ومساندته على الجهاد. فما العوامل التي أدت إلى ضعف الدولة المرابطية؟

قبل الإجابة عن أسباب ضعف الدولة المرابطية، لابد في البداية من إعطاء نبذة يسيرة عن سيرة ابن تومرت، فقد أفاض أبو العباس بن إبراهيم في مؤلفه الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام[٤٤] في الترجمة والتعريف بشخصية محمد ابن تومرت، نسبة لوالده عبد الله بن عبد الرحمان بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. لقب في صغره بأسفوا ينحدر من أسرة مصمودية على قدر من العلم، وهو المشار إليه في كلام ابن خلدون "وكان أهل بيته أهل نسك ورباط".[٤٥] واختلف المؤرخون في سنة ولادته بين من أرجعها إلى ٤٨٥هـ وهو ابن خلكان، وبين من أرجعها إلى ٤٩١هـ مثل الزركشي وابن الخطيب، وأورد ابن قنفد أنه ولد بهرغة عام ٤٧١هـ، وهو نفس التاريخ الذي يقدمه للغرناطي.[٤٦]

تعلم القرآن الكريم في صغره وحفظه ثم توجه للمشرق للتبحر في العلم، حتى تضلع في علوم الشريعة والحديث النبوي الشريف وأصول الفقه والدين. ورغم تضارب الروايات التاريخية حول هذه الرحلة، وما قيل بشأن لقائه مع الغزالي، فإن الدكتور حسين مؤنس ينفي ذلك ويرى أن رحلته لم تتجاوز الإسكندرية شرقًا.[٤٧] ولما قفل هذا العالم راجعًا في اتجاه المغرب مرّ بالعديد من المراكز، مظهرًا لدينه مدافعًا عن عقيدته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ودخل بجاية وأظهر بها الوعظ والإرشاد، ومالت القلوب على محبته واتباع هديه، ولما رأى أمير بجاية حسن صنيعه وخوفًا عليه أمره بالخروج منها.[٤٨]

ويقول ابن خلدون عن شهرته العلمية: "وانطلق هذا الإمام [ابن تومرت] راجعًا إلى المغرب بحرًا متفجرًا من العلم وشهابًا واريًا من الدين"،[٤٩] ليقصد بعد ذلك ملالة ويلتقي بها بعبد المومن بن علي الكومي، الذي كانت وجهته نحو المشرق لطلب العلم، فلما سمع ببجاية بأخبار الفقيه السوسي أجَّلَ رحلته حتى يكتشف أمره وعلمه. وتصف العديد من المصادر هذا اللقاء بالأسطورة، وتقول بأن ابن تومرت تنبأ لعبد المومن بالخلافة وقيادة المسلمين قائلاً: "إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك والعلم الذي تريد اقتباسه من المشرق قد وجدته بالمغرب".[٥٠]

ومع مطلع القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، كان المغرب يعاني من أزمة ثقافية في أوساط الطلبة والعلماء، نتيجة استفحال نفوذ الفقهاء بعد تولي علي بن يوسف الحكم،[٥١] حيث تنبه ابن تومرت لهذه النقطة من الضعف في النظام المرابطي، وبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعرف على الأصحاب وتكوين الأتباع، في الوقت الذي كان فيه الحكم المرابطي غارقًا في المتناقضات، وبدأت بوادر الضعف تتسرب إليه في شتى المجالات. ولعل من بين هذه الاختلالات الفساد السياسي والأخلاقي، الذي عمَّ مختلف الجهات ممثلاً في طغيان الترف بالحواضر المغربية وعلى رأسها مدينة مراكش، مما أدى إلى ضعف الدولة واستبداد الولاة بدواليب السلطة. ونجد عند عبد الواحد المراكشي، رواية صريحة وواضحة عن هذه المستجدات، حيث يقول: "واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديدًا فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل واحد منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المؤمنين وأحق بالأمر منه".[٥٢]

وفي ذات السياق، أشار المؤلف نفسه إلى تدخل النساء السافر في الحكم وفي صنع القرارات السياسية، بقوله: "[...] استولى النساء على كل الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور"،[٥٣] والطامة الكبرى هي ازدياد نفوذ الفقهاء في عهد علي بن يوسف وتدخلهم في الحياة السياسية مشكلين بطانة العرش "فكان علي بن يوسف لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء".[٥٤] ومما يعاب عليهم كونهم أفتوا في تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له، فقد أحرق علي بن يوسف كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بإيعاز من الفقهاء وتوعد بالعقاب لمن وجده عنده.[٥٥]

إذا كانت كل هذه العوامل والأسباب ساهمت بشكل أو بآخر في إضعاف المرابطين، واستغلالها من طرف الموحدين للطعن في سلطانهم، فكيف تعامل الخليفة علي بن يوسف مع هذه الاختلالات؟

اتسم علي بن يوسف بقلة التجربة وعدم القدرة على تحمل المسؤولية، فهو لم يكن بدويًا قحا كأبيه يوسف بن تاشفين، ولم يولد بالصحراء ليتميز بالقساوة والغلظة والحزم في التحكم في زمام الأمور، فقد ازداد في سبتة من أم مسيحية من السبايا وتلقى نشأة وتربية أندلسية،[٥٦] وعاش حياة الترف والحضارة بالقصر، فغلب الطابع الديني على شخصيته وهذا ما يفسر موالاته للفقهاء، كما عرف عهده بالحرية، ولهذا أمن الناس في أيامه واطمأنوا ورخيت الأحوال في كل بلاده.[٥٧]

على أنه إذا كان علي بن يوسف على المستوى السياسي قليل التجربة، فضلاً عن اعتماده في كل أمر على الفقهاء، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ورعه وإيمانه القوي واستحضار منطق الشورى، فهل يمكن والحال هذه أن نصدق كل ما قيل عن تمسكه بحياة الترف وحبه للدنيا؟ وأن تقاعسه عن الجهاد مرده تنشئته الحضرية؟ إن مثل هذا الكلام لا يستقيم والمجهودات التي بذلها هذا الخليفة من أجل إعلاء راية الإسلام والمسلمين، والحفاظ على أمجاد المرابطين بالمغرب والأندلس، بيد أن الرجل اصطدم حلمه بعدة عراقيل، منها اعتماده على فئة من فقهاء الدنيا الذين طعن فيهم ابن تومرت، وبين هشاشة علمهم القائم على الفروع وبعدهم عن نصح الحاكمين والمحكومين،[٥٨] ليجد هذا الخليفة نفسه بين المطرقة والسندان: الحملات المسيحية بالأندلس وما تتطلبه من تكثيف الجهود وتعبئة الطاقات لحماية دار الإسلام من جهة، ودعوة ابن تومرت وما خلفته من فوضى وبلبلة وسط الرعية من جهة ثانية.

لكل ذلك، خرج ابن تومرت من قرية ملالة في اتجاه مسقط رأسه بالمغرب الأقصى، مرورًا بكل من متيجة، وتلمسان ووجدة، وكرسيف، وفاس ومكناس، مركزا في الطريق في تطهيره للمناكر على عيبين هما: الخمر والتفسخ الأخلاقي، ممثلاً أساسًا في اختلاط النساء بالرجال،[٥٩] وبفاس ذاع صيته واشتهر عند الناس بالفقيه السوسي، الذي ألقى دروسًا في العقيدة الأشعرية وانتصر في مناظرته على فقهاء فاس؛[٦٠] ونفس الشيء حصل له بمراكش بعدما تجرأ على ضرب أخت الخليفة، حيث أمرها هي ورفيقاتها بستر وجوههن، فرفضت واشتكت أمرها للخليفة علي بن يوسف،[٦١] الذي لم يجد بدًا في معرفة ابن تومرت وجمع الفقهاء والعلماء لمناظرته، فتمكن ابن تومرت من إفحام منافسيه وعدَّد عيوب السلطان، وكثرة المناكر والبدع في دولته حتى ذرفت عيناه حياءً وخجلاً لشدة كلام ابن تومرت.[٦٢]

ولما أحس مالك بن وهيب خطورة بقاء ابن تومرت بالقصر، وإمكانية استمالته من طرف علي بن يوسف وإثارته عليهم، أشار على الخليفة بقتله قائلا له: "هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه فإن وقع في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير".[٦٣] هكذا أدرك ابن تومرت أن بقاءه بمراكش محفوف بالمخاطر مع وجود مالك بن وهيب،

فنادى أتباعه قائلاً: "وأن لنا بأغمات أخا في الله نقصده فلن نعدم منه رأيا ودُعاءً وهو الفقيه عبد الحق بن ابراهيم المصمودي."(٦٤) ومن أغمات انتقل عبد الله بن تومرت بمعية أتباعه إلى مكان أكثر أمنا وتحصينا من عيون المرابطين، في قلب جبال الأطلس الكبير قريبا من وادي نفيس ويسمى الموضع بتينمل.(٦٥) فتبعته كتائب الجيش المرابطي وحال بينها وبينه تصدي القبائل المصمودية بهذه الجبال، ويفهم من ذلك مدى التجاوب بين طموحات المصامدة في التحرر وأفكار ابن تومرت في الثورة.(٦٦) فقد استفاد ابن تومرت من رحلته للمشرق من تكوين شخصيته، والتمتع بملكة النقد والثورة على مظاهر الجمود والتقليد والطعن في البدع والحوادث، مستثمرًا التيار الصوفي الذي استقطب العامة، وربط حركته بالإمام الغزالي ومزج بين الفكر الصوفي والمهدوية.(٦٧)

هكذا بدأ ابن تومرت كمصلح ديني يريد تقويم اعوجاج المجتمع والعودة به إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة، إلى منظر بعد ذلك للثورة على المرابطين وزعيمًا سياسيًا محنكًا للمصامدة الموحدين، فما هي أهم التحولات التي ساهمت في بلورة آراء ابن تومرت ومواقفه الدينية إلى آراء وطموحات سياسية؟

لا شك أن ما تعرض له ابن تومرت في مراكش من مضايقات، وتعسف السلطة الحاكمة ورغبتها في القضاء عليه، قد عمق في نفسه فكر الثورة والتغيير الشامل، أمام مظاهر الانحراف والضعف السياسي، مما جعله يخلع بيعة السلطان المرابطي علي بن يوسف عن أتباعه،(٦٨) ولتحقيق هذه الثورة وتغيير الواقع عمد ابن تومرت منذ استقراره بتنمل على تنظيم أتباعه وتأطيرهم تأطيرًا محكمًا متبعًا الخطوات التالية:

- تأسيس رابطة للعبادة وتدريس العلم، ثم تأليف عقيدة التوحيد باللسان البربري والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- اختيار طائفة من أتباعه كرسل للقبائل الأخرى للتبشير بالدعوة الموحدية.
- إعلان فكرة المهدوية، بعدما استغل جل الأحاديث التي نسبها أصحاب المهدي المنتظر للنبي صلى الله عليه وسلم، وبعدما كثرت القبائل التي قبلت دعوة ابن تومرت، كون طبقات الموحدين وحملهم على طاعته طاعة عمياء،(٦٩) إذ لم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر، وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد، إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد أنه لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لفعل.(٧٠)

٣/٢-المواجهات العسكرية التومرتية وبناء دولة الموحدين

اعتز ابن تومرت كثيرا بنسبه المصمودي، فحاول على غرار عبد الله ابن ياسين الذي جمع شتات القبائل الصنهاجية، أن يكون له هو الآخر الفضل في جمع شتات المصامدة وتوحيدهم منذ استقراره بجبل تنمل، حيث زرع في أتباعه بذور الثقة والحماس والدفاع عن تعاليم الدين الإسلامي، ورفض وجود المرابطين ووصفهم بالمارقين المجسمين الخارجين عن الدين والبعيدين عن التوحيد، حيث جاء في كتابه أعز ما يطلب ما نصه: "... والسادسة أنهم بكم يعني صم عن الحق لا يسمعون إليه، بكم عن الحق لا يقولون ولا يأمرون به."(٧١)

وأمام استفحال دعوة ابن تومرت وتماديه في انتقاص واحتقار المرابطين وذكر عيوبهم لإخراج الناس عن طاعتهم، جهز الخليفة المرابطي جيشا لمحاربته، فكان أن ضرب حصارا عسكريا واقتصاديا على الموحدين دام ثلاث سنوات من ٥١٥هـ إلى ٥١٧هـ، فجاء الرد بعد ذلك من ابن تومرت لما عاين حماس أتباعه للجهاد، حيث جهز جيشًا قويًا من أتباعه مع ما انضاف إليهم من أهل السوس وقال لهم: "اقصدوا هؤلاء المارقين وادعوهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أجابوكم فإخوانكم في الدين وإن لم يفعلوا فقاتلوهم."(٧٢) وجعل على رأس الجيش عبد المومن بن علي الكومي قائلاً: "أنتم الموحدون وهذا أميركم."(٧٣)

ولما تراءى الجمعان في موقعة البحيرة انهزم الموحدون وقتل عبد الله الونشريسي، فلما علم ابن تومرت بخيبة أتباعه سألهم عن مصير القائد عبد المومن بن علي الكومي، فأجابوه بأنه حي فهوَّن عليهم أمرهم وخفف من هزيمتهم معتبرا قتلاهم شهداء، مما زاد من تماسكهم وحرصهم على قتال المرابطين، وشن عليهم الإغارات وقطع عنهم مواد التموين.(٧٤)

وعلى إثر ذلك، بدأ الموحدون يبسطون سيطرتهم على منطقة سوس ونواحيها ويلحقون هزائم عدة بالمرابطين، ولم يزل أمير المؤمنين علي بن يوسف يواجه أتباع المهدي بن تومرت في كل مكان، ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب مدة طويلة مما كلف خزينة بيت المال موارد مالية أنفقت على هذه المعارك.(٧٥) غير أنه وابتداء من سنة ٥٣٧هـ وبعد وفاة علي بن يوسف وانتقال العرش لابنه تاشفين، بدأت الدولة المرابطية في الضعف والتراجع أمام هجمات الموحدين بقيادة عبد المومن بن علي الكومي، الذي ركز في حربه على الجبال متحاشيًا النزال مع المرابطين في سهل مراكش، فأخضع المناطق الجبلية

وصعد شمالا نحو تلمسان ونواحيها لملاحقة الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين الذي لقي مصرعه بعد عامين من حكمه عام ٥٣٩هـ. وأمام هذا المد الموحدي، تمت محاصرة فاس تسعة أشهر فسقطت في أيديهم عام ٥٤٠هـ، وفي السنة الموالية سقطت العاصمة المرابطية مراكش في يد الموحدين بعد مقتل آخر أمير مرابطي إسحاق بن علي بن تاشفين. وبذلك، دخلت البلاد تحت حكم الموحدين وأسدل الستار عن مجريات الصراع المرابطي الموحدي، حيث ازدهرت الدولة المغربية في عهد يوسف ويعقوب المنصور الموحدي، وزاد توهجها أثناء خلافة الناصر.[٧٦]

خَاتمَةٌ

لعبت الثنائية الجغرافية (السهل /الجبل)، والثنائية الجغرافية (قبيلة صنهاجة/ قبيلة مصمودة)، دورًا هامًا في تأجيج الصراع السياسي المرابطي الموحدي، إلا أن أغلب الكتابات التاريخية حول هذا الموضوع ركزت على الأحداث السياسية المباشرة، دون أن تولي أهمية للمعطى الجغرافي في فهم حيثيات هذا الصراع وتداعياته، فأمام شح المصادر والمراجع التي تناولت طبيعة العلاقة المحكومة بين السهل والجبل، كمعطيين جغرافيين امتد تأثيرهما في الزمان والمكان، أعتقد أن الصراع المرابطي – الموحدي كان فيه للعامل الجغرافي وزنه وأهميته في تأجيج هذا الصراع، فأن يستولي المرابطون الغرباء القادمون من أقاصي جنوب المغرب على مجال جغرافي هام وحيوي، كان في السابق مرتع خصب ومصدر رزق للمصامدة، سيؤدي حتما إلى اصطدام القبائل المستقرة بالقبائل الوافدة.

فاستيلاء المرابطين الوافدين من بدو الصحراء على سهل أغمات المجاور لجبل تنمل مكان ومعقل المصامدة، يعني قتل القوة الاقتصادية المصمودية التي راهنت على السهول، واعتبرتها مجالا جغرافيا لا يمكن التنازل عنه بأي حال من الأحوال، فهو مكان خصص لأنشطة فلاحية وزراعية في الوقت الذي كان فيه الجبل مرتعا للأنعام ومأوى للسكان، فدخول المرابطين لهذا المجال أحدث أضرارًا اقتصادية للمصامدة، الذين لم يكونوا مؤهلين في البداية للدفاع عن مجالهم لقوة المرابطين العسكرية، لكن الأمر لم يدم طويلاً، فلطالما تربص المصامدة بالمرابطين النازحين وبحثوا عن الفرص والأسباب للإطاحة بسلطانهم، وكان ظهور الداعية محمد بن تومرت المصمودي، بمثابة المنقذ والمصلح الديني الذي كشف عيوب المرابطين وفقهائهم، وحرض المصامدة على معاداتهم فسمى أتباعه بالموحدين، مستغلا الضعف السياسي والعسكري للمرابطين في عهد علي بن يوسف.

فكان من الطبيعي أن يستغل الصامدة الموحدون المستقرون بالجبال (جبل تنمل) الفرصة للانقضاض على صنهاجة المرابطون بالسهول (سهل مراكش وأغمات)، حيث وجهوا لهم ضربات موجعة مستغلين تشتت الجهود المرابطية بين الحفاظ على الأندلس ومواجهة الاضطرابات الداخلية من جهة، وضعف السلاطين الذين خلفوا يوسف بن تاشفين ونجله علي من جهة ثانية، فتمكنوا من تحقيق عدة انتصارات توجت بالدخول لمراكش عاصمة المرابطين عام ٥٤١هـ، وإنهاء حكمهم وإعلان الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى بقيادة عبد المومن بن علي الكومي.

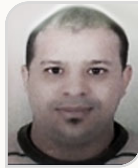
الاحالات المرجعية:

(١) ماجدة كريمي، **تجارة القوافل: آثار وبصمات على تاريخ دول المغرب الوسيط**، دار نشر الجسور، وجدة، ط ١، ١٩٦١، ص ٣٤.
(٢) أحمد بن محمد المراكشي ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، دار الثقافة بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ج ٤، ص ٢٥.
(٣) عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت المتوفي عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م، حيلته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وآثره بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٤٠.
(٤) عبد الله العروي، **"وحدة شمال إفريقيا أمام الخطر المسيحي في عهد المرابطين"**، مجلة الجامعة الشتوية، مجهودات وإسهامات الأجيال السابقة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي، دار الطباعة، مكناس، ١٩٨٨م، الجزء الأول، ص ١٥١.
(٥) أبو عبيد الله البكري، **المسالك والممالك**، حققه ووضع فهارسه الدكتور جمال الطلبة في مجلة منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الجزء الثاني، ص ٣٥٣.
(٦) عبد الهادي شعيرة، **المرابطون وتاريخهم السياسي ٤٣٠-٥٣٩هـ**، دار الاتحاد العربي للطباعة، المكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م، ص ١٢.
(٧) سعدون عباس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٨٥هـ/١٩٨٥م، ص ٣١.
(٨) حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، الطبعة ٧، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص٨٥.
(٩) عصمت عبد اللطيف دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ٤٣٠هـ_٥١٥هـ/ ١٠٣٨_١١٢١م**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٨٧.

(١٠) علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب لروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ١٦٧.
(١١) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٤١.
(١٢) علي بن أبي زرع الفاسي، م.س، ص ١٦٧.
(١٣) نفسه، ص ١٦٩.
(١٤) نفسه، ١٧٠.
(١٥) أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني مملكة مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م**، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٩م، ص ١٣٧.
(١٦) حسين مؤنس، م.س، ص ١٨٩.
(١٧) أحمد الشكري، م.س، ص ١٣٧.
(١٨) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٠٤.
(١٩) نفسه، ص ١٠٤.
(٢٠) علي بن أبي زرع الفاسي، م.س، ص ١٧١.
(٢١) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٠٧.
(٢٢) سعدون عباس نصر الله، م.س، ص ٥٧.
(٢٣) نفسه، ص ٥٨.
(٢٤) نفسه، ص ٥٩.
(٢٥) نفسه، ص ٦٨.
(٢٦) نفسه، ص ٩٤.
(٢٧) **المصامدة**: هم سكان المغرب الأصليون المنحدرون من القبائل التي سكنت في المغرب في التاريخ القديم، مشكلين اتحادية مكونة من خليط من القبائل والبطون انصهرت في مجتمع قبلي ساهم المجال المغربي المتنوع في ترابطه وتنافره أحيانًا، انظر: هاشم العلوي قاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى منتصف القرن ٤هـ/ منتصف القرن ١٠م**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص ٢٥٥.
(٢٨) محمد مزين وعبد الرحيم بن حادة، **الجبل في تاريخ المغرب**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، سلسلة ندوات أيام ٢٠ - ٢٢ أكتوبر ١٩٩٤، ص ٤١.
(٢٩) لحسن بولقطيب، "**المصامدة والنشاط التجاري إلى حدود قيام الدولة الموحدية**"، أعمال ندوة التجارة وعلاقاتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ص ٨٧.
(٣٠) عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، الطبعة الأولى، عام ١٩٨١م، الجزء السادس، ص ٢٩٨.
(٣١) عبد الرحيم بن حادة ومحمد مزين، م.س، ص ٤١.
(٣٢) أبو عبد الله الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق بريل ليندن، طبعة عالم الكتب، بيروت، الجزء الأول، ١٩٩٢م، ص ٤٢.
(٣٣) حسين مؤنس، م.س، ص ١٨٥.
(٣٤) عبد الهادي شعيرة، م.س، ص ٦٣.
(٣٥) محمد زنيبر، م.س، ص ١٣٦.
(٣٦) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ٩٩.
(٣٧) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٤٨.
(٣٨) محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، م.س، ص ٤٠.
(٣٩) محمد عبد الهادي شعيرة، م.س، ص ٦٧.
(٤٠) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ٩٨.
(٤١) محمد عبد الهادي شعيرة، م.س، ص ٦٨.
(٤٢) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٢٠٣.
(٤٣) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٣١.
(٤٤) أبو العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٥م، الجزء ٤، ص ٥٨.
(٤٥) عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت المتوفي عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م**، حيلته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وآثره بالمغرب، م.س، ص٣٧.
(٤٦) نفسه، ص ٣٢.
(٤٧) حسي مؤنس، م.س، ص ٢٠٤.
(٤٨) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٦٦.
(٤٩) عبد الله علام، **الدعوة الموحدية**، دار المعرفة، الطبعة الأولى، مارس ١٩٦٤م، ص٩٦.
(٥٠) أبو بكر بن علي الصهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدي**، دار المصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م، ص ١٦.
(٥١) محمد زنيبر، "**الخلفية الاجتماعية والثقافية لحركة المهدي بن تومرت**"، مجلة الماهل، العدد ٢٤، ص ١٢١.
(٥٢) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٦٠.
(٥٣) نفسه.
(٥٤) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٣٢.
(٥٥) حسين مؤنس، م.س، ص ٢١٥.
(٥٦) عصمت دندش، م.س، ص ١٣١.
(٥٧) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٩٥.
(٥٨) محمد زنيبر، م.س، ص ١٣٢.
(٥٩) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٩٨.
(٦٠) نفسه، ص ٩٧.
(٦١) نفسه، ص ١٠٠.
(٦٢) نفسه، ص ٩٩.
(٦٣) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٧٢.
(٦٤) عبد المجيد النجار، م.س، ص ١١٢.
(٦٥) حسين مؤنس، م.س، ص ٢٠٧.
(٦٦) محمد زنيبر، م.س، ص ١٣٩.
(٦٧) محمد الشريف، "**تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب المستفاد في مناقب العباد لأبي عبد الله محمد التميمي**"، مجلة ملتقى الدراسات المغربية والأندلسية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، عدد ٥، ص ٤٣٧.
(٦٨) عبد المجيد النجار، م.س، ص ١١٢.
(٦٩) حسين مؤنس، م.س، ص ٢٠٨.
(٧٠) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٨١.
(٧١) محمد بن تومرت، **أعز ما يطلب**، تحقيق وتقديم الدكتور عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، مطبعة وليلي، مراكش، ١٩٩٧م، ص ٣٨٥.
(٧٢) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٨٢.
(٧٣) حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، دار الطباعة العصر الحديث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، المجلد الثاني، ص ٢٠.
(٧٤) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص ٢١٢.
(٧٥) نفسه، ص ٢١٤.
(٧٦) عز الدين عمر موسى، م.س، ص ٤٤.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس من خلال فتاوى ابن رشد الجد (ت.٥٢٠هـ) وابن الحاج التجيبي (ت. ٥٢٩هـ)
دراسة مقارنة إحصائية



أنوزلا مجيد
باحث دكتوراه تاريخ وسيط
مختبر البحث في العلاقات المغربية المتوسطية
فاس. سايس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ
شكلت النوازل الفقهية مصدرًا هامًا لدراسة المجتمع في جميع مناحيه اليومية، إذ تُرصد من خلالها أهم المظاهر التي عاشها الفرد، وكذا تنفتح عبر المعرفة التاريخية على قضايا المجتمع، علاوة على أن هذا الانفتاح والداعية إلى الرجوع إلى مثل هذه المصادر التاريخية، لتنم بكل وضوح عن تراجع وبطلان مقولة "انتفاء المنفعة التاريخية من المصادر الفقهية". ولئن كانت هذه الدراسة تتخذ من فتاوى ابن رشد الجد وابن الحاج التجيبي أرضية للبحث سواء في القضايا المتفقة عليها أو المتعارضة بينهما في العلاقة بين المجتمع والشرع والعرف، وتبرز من زاوية أخرى أهم المشاكل التي عرفها المجتمع الأندلسي، وكذا سبل إيجاد حلول لها وفق المذهب المالكي. ويكتسي الموضوع أهميته من طبيعة المقاربة الإحصائية اعتمادها مقارنة بين فتاوى ابن رشد الجد ونوازل ابن الحاج التجيبي، إنها أهمية تزيد أكثر عند التعرف على مكانة هذين الفقهين في مجال النوازل التي وردت عليهما سواء من الأمراء وحاشيتهما أي من الخاصة أو من عامة الناس، والهدف هو معرفة مدى تلاؤم المذهب المالكي وتطبيقاته مع تطلعات المجتمع، حيث تؤكد النوازل المستخرجة من النصوص النوازلية مدى حضورهم القوي داخل المجتمع عن طريق المناصب التي احتلوها. وكذا معرفة أهم العلائق التي تجمع بين الفقهاء والمجتمع من خلال النوازل الفقهية؛ إذ تحفل هذه الأخيرة بتفاصيل كثيرة وبمعلومات قيمة عن الحياة اليومية لعامة الناس. وحصيلة القول إن النوازل الفقهية تعتبر إحدى الأدوات المصدرية لدراسة مجتمع الغرب الإسلامي وغدت مادة لا يمكن الاستغناء عنها لأهمية ما فيها، بغية صياغة تاريخ أكثر عمقًا في بعض جوانبه المفقودة في الكتب الإخبارية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٥	أكتوبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
النوازل الفقهية؛ ابن رشد الجد؛ ابن الحاج التجيبي؛ الوقف؛ القضاء؛ الأسرة؛ التجارة؛ الأمراض

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.204337

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
أنوزلا مجيد. "الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس من خلال فتاوى ابن رشد الجد (ت. ٥٢٠هـ) وابن الحاج التجيبي (ت. ٥٢٩هـ): دراسة مقارنة إحصائية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٨١ – ٩١.

Corresponding author: anouzlamajid[at]gmail.com

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ النوازل الفقهية[1] من المصادر التي أصبح الإقبال عليها من قبل الباحثين مُلحًا، لدراسة المجتمع من جميع نواحيه اليومية، لما عرف عن قدرتها في رصد مجموع مظاهر الحياة اليومية للإنسان. وعليه جاء مقالنا هذا لدراسة المجتمع من خلال النوازل الفقهية، ومن زاوية فقيهين عاصرا أُفُول عهد ملوك الطوائف وبداية عصر الدولة المرابطية بالأندلس، لمعرفة أهم القضايا التي عرفها المجتمع، ومدى تطابق آراء الفقيهين مع المذهب المالكي أو العرف وكذا إبراز أوجه التوافق والاختلاف في القضايا المعروضة عليهما، لما تحتويه نوازلهم من مادة تاريخية؛ فهي تبرز دراسة أهم انشغالات المجتمع سواء عن طريق النازلة المعروضة عليهما أو أجوبتهما وفق الشرع والعرف، مستندين في ذلك على أهم المصادر المرصودة في تعليل أجوبتهما. علاوة على أن نوازل الفقيهين كانت مقترنة بأحداث واقعية، مما جعلها مادة خصبة لدراسة المجتمع الأندلسي من قبل الفقيهين.

ومن المعلوم أن الفقهاء -ومن ضمنهم ابن رشد الجد وابن الحاج التجيبي-قد احتلوا مكانة متميزة في المجتمع والدولة، حيث شكلوا النخبة العالمة، والسلطة الفكرية والدينية التي لم يكن بالإمكان أبدا تجاوزها أو تجاهلها من طرف السلطة السياسية، مما أهلهم لتصدر الرأي في المجتمع والدولة. ولم يخرج المجتمع الأندلسي عن هذه القاعدة؛ فقد كانت مكانة الفقهاء سامية، وكرامتهم مصانة، وكلمتهم قوية ومسموعة، ومواقفهم محركة للتاريخ. كما تتميز نوازل هذين الفقيهين كونها مرآة كاشفة للواقع الاجتماعي والاقتصادي في تلك الحقبة التي عاشوا فيها، ومن خلال النوازل التي سنعرضها تتبين أهم القضايا المعروضة عليهما من كافة أفراد المجتمع.

هذا ويكتسي الموضوع أهميته من طبيعة المقاربة الإحصائية اعتمادها مقارنة بين فتاوى ابن رشد الجد[2] ونوازل ابن الحاج التجيبي[3]، إنها أهمية تزيد أكثر عند التعرف على مكانة هذين الفقيهين في مجال النوازل التي وردت عليهما سواء من الأمراء وحاشيتهما أي من الخاصة أو من عامة الناس، والهدف هو معرفة مدى تلاؤم المذهب المالكي وتطبيقاته مع تطلعات المجتمع، حيث تؤكد النوازل المستخرجة من النصوص النوازلية مدى حضورهم القوي دخل المجتمع عن طريق المناصب التي احتلوها. وكذا معرفة أهم العلائق التي تجمع بين الفقهاء والمجتمع من خلال النوازل الفقهية؛ إذ تحفل هذه الأخيرة بتفاصيل كثيرة وبمعلومات قيمة عن الحياة اليومية لعامة الناس.

وجاء اختيارنا لهذا الموضوع نظرًا لما عرفه الفقيهين من أهمية داخل المجتمع الأندلسي، وسلالتهما التي كانت لها مكانة هامة في القضاء، من خلال إصدار القرارات وفق المذهب المالكي. وإذا كان العنوان الذي اخترناه لهذه الدراسة يتأرجح بين الفقه والتاريخ، فهو في الواقع استحضار للمقاربة المصدرية المتمثلة في المدونات النوازلية، لكنها تظل في العمق مقاربة معرفية ومنهجية تهدف إلى إرساء دعائم منهجية يستلهم منها المؤرخ، بمعنى آخر أن المؤرخ يأتي بالفقه بمعناه التأريخي أي صلته بالتاريخ وليس لأنه هو التاريخ. علاوة أن نوازل هذين الفقيهين يعود لاقتناعنا التام في كونها تعد من بين أهم المصادر التي عرفها المجتمع المرابطي، فنوازلهما حاملة ومتضمنة للعديد من القضايا ذات الصلة بالقضاء والأسرة والوقف والأمراض. فالمقال يقدم الإجابة عن تساؤلات أساسية هي: ما مدى مقاربة الفقهين للنوازل المعروضة عليهم؟ وما هي أهم المشاكل التي عرفتها الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأندلسي انطلاقا من فتاوى الفقيهين؟ ثم كيف تعامل الفقيهين معها، مع تبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما؟

أولاً: فتاوى النوازل عند الفقيهين بين الاتفاق والاختلاف

تنوعت القضايا المعروضة على الفقيهين من لدن أفراد المجتمع، فتقاربت بذلك وجهات النظر بينهما أو اختلفت، الشيء الذي جعلنا أمام فتاوى توجه تاريخ المجتمع، كونها لها آثار اجتماعية واقتصادية وثقافية، فهي بذلك تغطي أغلب المواضيع دون استثناء، لذلك تم رصد النوازل المتفق والمتعارضة عندهما، والبحث في الحكم لدى كل واحد منهما، تشابها أو تباينا أو اختلافا؛ ليسهل رصد أسس الفتوى عند كل واحد منهما، إضافة إلى تصنيف النوازل إلى قضايا كبرى، ثم وضعها في جدول للمقارنة مع تذييلها بتعليق.

١/١-الآراء المتفق عليها بين الفقيهين

(١/١) ١-في موضوع الأسرة:

النازلة	الفقيه	المصدر
الحنث في الإيمان	ابن الحاج	ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، ج٣، ص.٤٣٩.
في تقديم الأم ابنها لعقد نكاح أخته	ابن الحاج	نفسه، ص ٤٤٥.
في حكم الرجل في النفقة إن لم يجد الصداق ولم يبن بالمرأة	ابن الحاج	نفسه، ص. ٤٥٨
في حكم الوالد يمتنع من النفقة على ابنه الصغير	ابن الحاج	نفسه، ص. ٤٥٩
مسألة في النفقة على المحضونة	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٤٦٩.
مسألة فيمن خالعت زوجها على أن حطت عنه كالتها	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٤٦٩
مسألة في أن من حلف بالطلاق على مسألة فتبين خلافها، فامرأته بائن منه	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص.٤٧٦.
في المرأة المتوفى عنها زوجها تطلب كالئها من وصيها	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٥٢٥.
مسألة في عدة مقرونة بشرط	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٥٩٣
مسألة في إنفاق رجل على امرأة من مالها في مرضها، وإقرارها له على دعواه	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص.٦٢٥-٦٢٦.
فيمن تزوج امرأة زنى بها، وعقد عليها قبل استبرائها، فتوالدا أولادا، ثم أنهما تفارقا بطلاق، وتراجعا بعدة مدة]	ابن رشد	ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، ج٢، ص.ص.١٠١٥ (الهامش)- ١٠١٧.
مخالعة المرأة لزوجها شريطة ألا يتزوج بعد عام	ابن رشد	المصدر نفسه، ص. ١١٥٩
فيمن نفى الحمل ولم يزنها، ونكل الأيمان	ابن رشد	المصدر نفسه، ص.١٥٩٩

(١/١) ٢-في موضوع القضاء:

النازلة	الفقيه	المصدر
مسألة في حكم العيوب التي تخفى عند التقليب	ابن الحاج	ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، ج٣، ص.٤٩٩
مسألة في اقتضاء الدين	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص ٥١٢.
مسألة فيمن لزمه حميل بالخصام فعجز عنه، هل يسجن أو يلزمه اليمين	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص ٥٢٩.
مسألة في الجراح	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٦٦٢-٦٦٣
مسألة في عقوبة التدمية[٤]	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٦٦٢-٦٦٣
مسألة في فرق ما بين اليمين في القسامة وبين اليمين في الحقوق	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص.٦٦٤
فيما إذا أجاز للسلطان ما للأولياء من العفو والقصاص	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٦٦٤.
في مسألة قتل محمد العاصي شقيق الحافظ أبي بحر	ابن رشد	ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، ج٢، ص ص. ٨٦٦-٨٧٠.
فيمن عرض في كلامه، أو فهم كلامه تعريض للجانب العلي النبوي أو الملكوتي بما ينبغي أن ينزه عن ذلك	ابن رشد	المصدر نفسه، ص. ٩٤٢-٩٤١.
مسألة من مسائل الغصب	ابن رشد	المصدر نفسه، ص. ١٠١٥.
عن الحكم في القاضي الملتزم بالمذهب المالكي غير العارف بالفتوى	ابن رشد	المصدر نفسه، ج٣، ص. ١٥٠٥
في القاضي المشهور بالعدالة والخير والأمانة يتهم من أقاربه	ابن رشد	المصدر نفسه، ج٣، ص.١٦٠٩
هل يصلي الإمام على من قتل في قصاص أقامه عليه	ابن رشد	المصدر نفسه، ج٣، ص.١٦٣٣.

(ا/ا) ٣-في موضوع التجارة:

النازلة	الفقيه	المصدر
مسألة في حجز رمكة بقصد التثبت من ملكيتها	ابن الحاج	ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، ج٣، ص.٤٣٣.
مسألة في إشهاد البائع للمشتري بقبض الثمن وإنكار المشتري	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص. ٤٨٨
مسألة في امرأة ضربت سبعين سوطا جزاء قبولها بيع نفسها وابنتها	ابن الحاج	المصدر نفسه، ص.٥٤٩-٥٥٠.
هل يضمن المضيع بسبب السهو والنسيان	ابن رشد	ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، ج٣، ص.١٥٧٩.
عمن يشتري جارية، وشهد شاهد بحريتها، هل على البائع رد الثمن؟ وترد عليه الجارية؟	ابن رشد	المصدر نفسه، ص. ١٦١٩.
فيمن بيعت عليها مملوكة تحت الإكراه والضغط	ابن رشد	المصدر نفسه، ص.١٦٤٤.

(ا/ا) ٤-في موضوع الوقف:

النازلة	الفقيه	المصدر
مسألة في أرض محبسة على قوم واستغلها آخرون مقابل كراء	ابن الحاج	ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، ج٣، صص.٥٣٥-٥٣٦.
في صرف غلة حبس على مسجد لا يدري كيف حبسه المحبس	ابن رشد	ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، ج٣، صص.١٥٦٧-١٥٦٨.
من مسائل الحبس المعقب	ابن رشد	المصدر نفسه، ص.١٥٦.

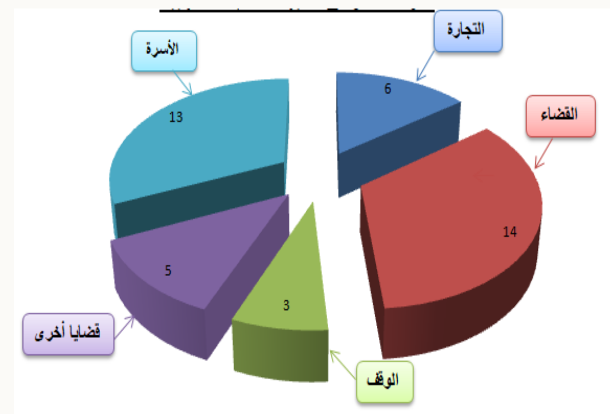
(ا/ا) ٥-قضايا متفرقة

النازلة	الفقيه	المصدر
مسألة في الاعتكاف داخل الكعبة	ابن الحاج	ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، ج٣، ص. ٤٢٤.
من تصدق بمال على ابنه ثم اغتله لنفسه	ابن الحاج	المصدر نفسه ،٥٩٣
مسألة في حكم العيوب التي تخفى عند التقليب	ابن الحاج	المصدر نفسه ، ص.٤٩٩
مسألة في نذر الرجل شهود جنائز متباينة الأقطار	ابن الحاج	المصدر نفسه ، ص.٤١٨.
مسألة في متوف أوصى في حياته لرجال لا يعلم بعضهم ببعض	ابن الحاج	المصدر نفسه ، ص. ٦٢٦.

هكذا يتبين من خلال آراء الفقيهين أنه مكننا من استخراج بعض القضايا المتفق حولها: كالقضاء والتجارة والوقف والأسرة، والتي استأثرت باهتمام الفقيهين؛ فنوازل القضاء عرفت تباينا في آرائهم بمجموع (١٣) نازلة، تليها من حيث الأهمية نوازل الأسرة بـ(١٣) نازلة، فيما كان نصيب التجارة (٧) نوازل، وقضايا متفرقة (٥) نوازل. وأما نوازل الوقف فقد عرفت ما مجموعه (٣) نوازل. ذلك بأن غالبية النوازل المعروضة على الفقيهين كانت من الأندلس بحكم وجود الفقيهين بهذا المجال، أو من المغرب، سواء من قبل فقهاء يسألون عن مسألة معينة استعصى عليهم الجواب عنها أو من عامة الناس أو خاصتهم ومن الأمراء وغيرهم، مع ذكرهم للمدن التي يقطنون فيها، وكذا المشاورين والفقهاء. وهي تحمل صفاتهم وأسمائهم، وجاءتهم من العلماء والطلبة. ومن خلال النوازل المذكورة في الجدول، يتضح من دون شك واقعيتها، وذلك بذكر أماكنها مثل جيان[٥] وطليطلة وبلنسية[٦] وقرطبة[٧] وبطليموس[٨] وبنطروح، وكذا بذكر بعض القضاة الذين عرضت عليهم مثل ابن حمدين[٩] وقاضي كورة بياسة.

ومما يؤكد قوة أجوبة الفقيهين عن النوازل التي عرضت عليهما اعتمادهما في ذلك على فقهاء تتلمذوا عليهما أو ممن يحتلون مكانة مهمة في الفتيا كابن القاسم[١٠] وابن زرق[١١] وكذا ابن حبيب وابن القطان وابن عتاب[١٢] وأشهب[١٣] ثم ابن العطار[١٤] وابن القصار[١٥] أو أبي زمنين[١٦]، إضافة إلى أن

الفقيهين اعتمدا لإصدار الأحكام على أمهات كتب المذهب المالكي كالموطأ[١٧] والمدونة[١٨]. إن الاهتمام بما يفتي به الفقهاء من قبل الفقيهين، وذلك بالإشارة إليهما لدعم آرائهم وتبيان صدق كلامهم وأوجه التشابه في الآراء، وكذا استحضارهما للأحكام الفقهية التي رويت عن السلف من أهل الأحكام وقيامها على اليسر والسهولة[١٩]، إنما يرجع إلى استطرادهما في شرح المسائل وتحليلها، مع الإضافة الخاصة لهما والتي تخالف آراء بعض الفقهاء، مما يبرز مكانتهما الاجتهادية في المذهب.



شكل رقم (١)

الآراء المتوافق عليها من قِبل الفقيهين

المصدر: من إعداد الباحث

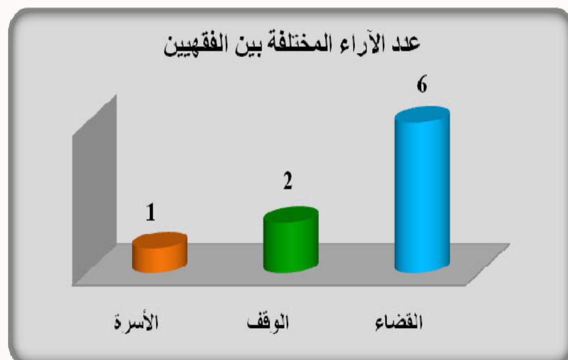
٢/١-الآراء المتعارضة بين الفقيهين

النازلة	الفقيه	المصدر
قضايا الوقف		
في متوفى أوصى في حياته لرجال لا يعلم بعضهم ببعض	ابن الحاج	ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، ج٣، صص. ٦٢٦-٦٢٧.
هل يصفق شركاء الحبس بعضهم على بعض	ابن رشد	ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، ج٣، ص. ١٥٦٩.
قضايا الأسرة		
فيمن حدث نفسه بطلاق زوجته، ثم سأل عن ذلك	ابن رشد	المصدر نفسه، ج٣، صص. ١٥٩٥-١٥٩٦
في فرق ما بين اليمين في القسامة وبين اليمين في الحقوق	ابن الحاج	ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، ج٣، صص.٦٦٤.

النازلة	الفقيه	المصدر
قضايا القضاء		
في قتل محمد العاصي شقيق الحافظ أبي بحر	ابن رشد	ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، ج٢، صص. ٨٦٦-٨٧٠.
يحلف المقر والمقر له عند إثبات الدين على غائب	ابن رشد	المصدر نفسه ج٣، ص.١٥٨٣.
هل يعمل بالشهادة إذا لم يشهد الشهود على عين المطلوب	ابن رشد	نفس المصدر، ص. ١٥٨٤.
فيما كتب في رسم الدين أنه لا يدعي فقرا ولا عدما، ثم أراد إثبات ذلك	ابن رشد	نفس المصدر، ص. ١٥٩٢.
من حفر ساقية في أرض رجل، وأقام رحى	ابن رشد	نفس المصدر، ص. ١٦٤٢.

إن أغلبية النوازل المستخرجة من كتب الفقيهين والتي عرفت عدم التوافق بينهما، نجدها تتسم بنوع من اللباقة والمحاورة بكل أدب، فنوازل القضاء استخرجت ما مجموعه ست نوازل من الآراء الغير متوافقة بينهما وذلك راجع إلى كونهما تقلدا منصب القضاء بالأندلس. فيما عرفت نوازل الوقف اختلافا في نازلتين، في حين حصدت نوازل الأسرة بنازلة في الاختلاف بينهما.

إن الاختلاف بين آراء الفقيهين يكون بكل أدب ولا تسلط بينهما، فحين تكون مسألة اختلاف نرى الصيغة التي تكتب كعبارة" رأيت أنا" أو " رأيي اعتمادًا على السلف". وهو ما عبر عن تواضع الفقيهين.



شكل رقم (٢)

عدد الآراء المختلفة بين الفقيهين

المصدر: من إعداد الباحث

ثانيًا: دراسة النصوص النوازلية المستخرجة

٢/١-القضايا الاجتماعية

(٢/١) ١-نوازل الوقف عند الفقيهين:

شكل الوقف مؤسسة سوسيو اقتصادية أسهمت عبر التاريخ الإسلامي في تحصين ظروف عيش العباد والبلاد، انطلاقًا من فلسفته القائمة على تسبيل بعض ممتلكات أولئك الذين جعلوا في أموالهم حقًا معلومًا للسائل والمحروم، فكانت الغاية تزكية النفس وشكر الله على نعمه وطلب رضاه أولاً، والحرص على تفعيل مبدأ التماسك والتضامن الاجتماعي ثانيًا، تماشيًا مع مسوغات الثقافة الإسلامية في شقها الاجتماعي. كما يعتبر الوقف[٢٠] أحد عناصر التنمية الاجتماعية، فهو يقوم على عمليات تغيير اجتماعي تركز على البناء الاجتماعي ووظائفه بغرض إشباع الحاجات الاجتماعية للأفراد وتقديم الخدمات المناسبة لهم في جوانب الرعاية الاجتماعية[٢١].

ولأن الوقف مفهومًا وغاية تأطر ونشأ ضمن الثقافة الإسلامية، فقد وجد له مجالاً واسعًا ضمن أدب النوازل، حيث خصص له مدونوا النوازل فصولا هامة في مؤلفاتهم قدمت للمجتهد والمقتصد مادة غنية عز نظيرها في المصادر التاريخية والفقهية الأخرى، سواء منها الأحباس العامة أو الخاصة. لذلك دأب سكان الغرب الإسلامي على التحبيس والتصديق من أموالهم أو من عقارات تجري المنفعة بها على المحتاجين إليها. ومن خلال النوازل المعروضة الخاصة بالفقيهين، يتضح لنا توافقا بينهما في كون أرض كانت محبوسة عليهم ومن ضمنها فرنا التي بنوها من مالهم الخاص، وعملوا على كرائها مقابل أن تكون سومة الكراء مستحق فقيه المسجد المجاور للأرض المحبسة عليهم، فألزما الفقيهين على ضرورة استخلاص باني الفرن وأن يكون هذا الاستخلاص مكتوبا عن عدل[٢٢]، لكون المالكيين نصصوا في التحبيس على التحقق من منه والمشاهرة في الاستفادة من الحبس حتى يصير ذلك كله في نقطة واحدة[٢٣]. وأيضًا أن التوثيق يكفل الطمأنينة التامة على الحقوق، واستقرار المعاملات، وإغلاق أبواب الشر والمنازعات.

كما أجاز الفقيهين صرف غلة على المسجد وتوفير ما يخدمه من وقود وحصر وبناء وحتى دفع استئجار مقيم الخطبة والصلاة[٢٤]. حيث لا يجب أن تستنفذ غلة صاحب المسجد في أجرته وقومه وحصره وزيته، والواجب فيما فضل من غلته بعد أجرة إمامه المفروضة له بالاجتهاد وبعد أجرة قومه ومما يحتاج إليه من حصر وزيت ووقيد للسداد، وبالتالي تحرى غلة المسجد على الأهم فالأهم من مصالحه من وقود وزيت وغير ذلك، فإن فصل شيء يُعَيَّنٌ من يقيم الخطبة والصلاة، وذلك ما يستشف من النازلة المعروضة في هذا الصدد. في حين اختلف الفقيهين في مسألة بيع بعض من الأرض المحبسة على البعض من القوم، فقد اشترط ابن رشد عدم إجبارهم على البيع لكون الجزء المعرض للبيع معروض في الدلالة[٢٥]، بينما خيرهم ابن رشد بين المشاركة في البيع لكون الثمن سيكون مرتفعًا، عكس إن أقدم شخص واحد على بيع حصته، مع تنصيصه على حق الاختيار في البيع[٢٦].

وفي مسألة الحبس المعقب التي حبسها أصحابها على أشخاص معينين، كأن يحبس شخص دارًا على أولاده الذكور ما تعاقبوا ليستمر انتفاعهم، أو قد تتجاوزهم في بعض الأحيان إلى باقي أفراد القبيلة، وتنظم هذه الأحباس الخاصة عن طريق عقود عدلية يتم من خلالها انتقال هذه الأملاك من الأب إلى الأبناء ذكورا وإناثا على حد سواء[٢٧]، وتقوم هذه الأحباس على الأعراف والتقاليد القبلية والاجتماعية مع التقيد بالشرع. فقد نصصا الفقيهين في إحدى نوازلهما على احترام التراتبية في الشيء المحبس على الأبناء والأحفاد والأعقاب حتى لا يقع خصام أو تجادل بين المحبسين ممن تم الوقف عليهم من قبل المُحَبس[٢٨]. من خلال نوازل الوقف المستخرجة التي تنوعت ما بين الوقف الخيري التي يصرف فيها الريع على جهات البر، وتلك التي يوقفها الإنسان على نفسه أو أولاده أو أعقابه، أو تلك المُحَبسة لأغراض دينية كالوقف على المسجد بغية استخلاص ما يحتاج إليه من مؤونة ووقود وزيت وحصر ومصاريف الإمام والمؤذن، أو أنها حبست لافتكاك الأسرى وكذا أنها حُبِست للأسرة. وتمدنا النوازل الوقفية عن أنواعها من أراضي التي تعد من بين مصادر الإنفاق على المؤسسات الوقفية.

(٢/١) ٢-نوازل الأسرة:

صدحت النصوص النوازلية المستخرجة في إعطاء صورة عن الحياة الأسرية التي عرفها المجتمع من حاجيات أساسية من نفقة للمرأة ولأطفالها سواء أثناء الحمل أو الوضع أو الخلع أو الطلاق مع إلزامية الزوج بتطبيقه ما جاء في فتاويهم، وفي هذا الصدد ألزم الفقيهين الأب الحبس للأب في حالة امتنع عن تأدية واجب النفقة لأنه يضر به ويقتله وليس كمداينة الرجل أباه[٢٩].

وفي قضية الزواج أكد الفقيهان على مسألة أن الأخ يعوض الأب في عقد نكاح أخته شرط أن يكون سديدًا عاقلاً وان كان سفيها يبطل النكاح وجدد الصداق[٣٠]. واشترطوا على الزوج إن كان الصداق واسعا فلا كسوة عليه طوال العام، وان كان ضيقا فعليه الكسوة، وليس عليها أن تتبدل الهدية إلا من حقها، ولها

أن تتزين من الهدية وقت بعد وقت[٣١]. كما أجاز الفقيهان زواج الرجل لابنة عمه ومنحه عشرة مثاقيل من قبل عمه الذي وهب له ابنته شريطة عدم ذهابه إلى الحج مع أمه وعدم زواجها مع أحد[٣٢].

وفي مرحلة الحمل ووقع الرجل في زينة ووطئها ولم يقذف بها فإنه لا يقام عليه الحد على حسب ما جاء في المدونة[٣٣].

أما المرأة المطلقة لها الحق أن تتزوج وقت ما تقدم لها أي شخص بعد طلاقها من زوجها الأول إن استوفت فترة العدة، ولا يجوز إبرام عقد يحدد فيه زمن زواجها[٣٤]. وفي قضية المرأة المطلقة وكانت في مرحلة العدة وعندها طفلة في فترة الفطام وليس لهما من معيل من أجل توفير حاجاتهم الضرورية من مأكل ومشرب وغير ذلك، أجاز الفقيهان للمرأة جمع السُنبل لكونها محتاجة إليه[٣٥]. وألزم الفقيهين أنه لا يجوز تطليق المرأة من قبل الزوج وهو مريض بكونه فاقد الأهلية وأسقطوا عنها صفة المطلقة[٣٦]، وفي حالة طلق زوجته في نفسه دون التشهير به، مكتفيا الزوج بذلك مع نفسه ولم يتكلم ولم تشهد عليه البينة، فله الحق أن يراجعها وتكون عنده طلقة واحدة[٣٧].

٢/٢-نوازل القضاء عند الفقيهين

إن القضاء عند المالكية صفة حكيمة توجب لموصفها نفوذ حكمه الشرعي، ولو بتعديل أو تجريح لا في عموم المسلمين، مع تطبيق أحكامه، فالقضاء هو إصدار حكم شرعي على سبيل الإلزام[٣٨]. وفي هذا الصدد عمل الفقيهان من خلال الأسئلة المطروحة عليهما على تطبيق هذه النوازل الفقهية على المذهب المالكي؛ من خلال المشورة بينهما من تطبيقه بغية تعديل واثبات الشهادات التي يطبقانها، ومن ذلك قد سئل الفقيهان، أن امرأة توفي عنها زوجها وتخلف [لها] بنين قدم عليهم وصيا أباها، وهي مالكة نفسها لطول البناء عليها، وهي بكر، فطلبت [كالئها] من أبيها الوصي على بنيها فنفذ الحكم بأن تحلف بأنها ما قبضت الكالئ من تركة زوجها. إنما وجب أن تحلف وهم بنوها، لأنها تريد أن تأخذ، فلا بد أن تحلف، وإذا ادعى عليها بنوها حقا ففيه قولان[٣٩].

كما أن الفقيهان صرحا في نازلة عرضت عليهما عملا فيها على تتبع الجزئيات موردين الحكم على كل جزئية، وهذا ما يستشف من خلال منعهما صاحب الساقية المبنية في أرضه من بناء حمام ورحى تحت الساقية، رغم أن أحد المشتركين يعمل لدى أحد السلاطين المرابطين، مؤكدين على رأيهما رغم التسلط وانحلال الملكية الجماعية بين الأفراد[٤٠]، وحالة اختلاف الرأي بينهما في إحدى نوازل المياه في قيام أحد الأشخاص من التسلط على الساقية وبناء الرحى بها وأحقيته لامتلاك الأرض لبناء الساقية، فأكد ابن الحاج على عدم جواز ذلك لكون الأرض ليست لهم، بينما أكد ابن رشد على أخذ الأرض وبناء الساقية مع أخذ قيمة استحقاق بنيانهم[٤١]، فمن جهة نرى خرق الأفراد للقوانين والأعراف التي تنظم استغلال هذه المادة، ومن جهة أخرى فرغم عمل أحد شركاء الساقية لدى السلطان إلا أن ذلك لم يشفع له وذلك راجع بالأساس إلى استقلالية المواقف الفكرية للفقهاء من السلطة، قد احتلوا على مر التاريخ مكانة مهمة في المجتمع والدولة الإسلامية، حيث شكلوا النخبة الماسكة بزمام السلطة العلمية، مما جعلهم دائما في معترك التاريخ، بحكم الحاجة الدائمة إليهم سواء من طرف الماسكين بزمام السلطة السياسية أو من طرف المجتمع. وقد وجدت هذه الفئة في نصوص الشرع ما يدعم مكانتها ويقوي سلطتها من الناحية النظرية. فالعلماء ورثة الأنبياء وهم أيضا أولو الأمر الذين وجبت طاعتهم. لكن من الناحية الواقعية والتاريخية كانت هذه المكانة تخضع-بالإضافة إلى السند الشرعي- لمتغيرات الواقع، وخاصة متغير العلاقة بين السلطة السياسية والسلطة العلمية وانعكاسات ذلك على الموقف من المجتمع. فكلما حافظ العلماء على استقلاليتهم عن السلطة السياسية وانحازوا لقضايا المجتمع كلما تعززت مكانتهم لديه، خاصة في ظل التوتر التاريخي الذي طبع علاقة السلطة السياسية بالمجتمع[٤٢]. وهذا ما توضحه النوازل المعروضة عليهم من كون عدم تدخل السلطان في الأحكام التي يَسُنها الفقهاء في الفترة المرابطية، وأن الحكم لازم للأشخاص، ولا نظر للعفو عليهم من طرف السلاطين ولا وجود لنص صريح يلزم الفقهاء تطبيق أوامرهم[٤٣]. كما توضح هذه النازلة الصراع بين أصحاب الجنات ومالكي الأرحاء.

كما أن القضاء صارم من ناحية تطبيق المغارم والسجن والحدود والقصاص زمن الفقيهين، وهذا ما يستشف من نوازلهما، من خلال نازلة الغصب والمتعلقة بإحدى القبائل المرابطية التي عملت على التبرع من مواشيهم رغم عدم معرفة الأصل المغصوب وعدم المشاركة في عملية الغصب، فأكدا مع التنصيص منهم عدم التصدق من أموال الماشية تلك، وتقديمها هبة للسلطان، بل ويجوز فقط التصدق بها للمحتاجين[٤٤]، أما النوازل المتعلقة بالعقوبات فيتضح تعاملهما الصارم في الخصومات ما بين الأشخاص، فإما الضمان أو السجن[٤٥]. ولم تغفل إحدى نوازل الفقيهين عن مَنْ عَمَدَ لسب أحد الأشخاص الرسول (ﷺ) على قيام الحد عليه من خلال

الضرب الموجع ويطال حبسه في السجن لما اقترفه من عمل شنيع وعدم احترامه وتوقيره للأنبياء والرسل[٤٦].

وفي مسألة الأسرى وهم المقاتلون من الكفار الذي ظفر بهم المسلمون[٤٧]، أكد الفقيهان على أنه يجب مقايضتهم بالأسرى المسلمين، أو بيعه بأكثر من الثمن المشترى به، غير أنهم وانطلاقًا مما روى عن الإمام مالك فالواجب من المسلمين فدية أسراهم من الأموال المحصلة عليها من بيعهم للأسرى أو مقايضتهم بأسرى النصارى[٤٨]. وقد اختلفا الفقيهين في مسألة قتل محمد العاصي شقيق الحافظ أبي بحر[٤٩]، إذ أفتى ابن رشد على ولاة المقتول أن يقسموا على المتهمين والمسجونين بما لحقهما، وتعلق من اللطخ والسبب الذي ذكرته، ويقتلوه على ما ثبت، بينما خالفه ابن الحاج فالذي يقتضيه الحكم عنده في أمر المتهمين بالدم بالشبهات الذي ذكرت إطالة سجنهما في الحديد، فقد روي عن مالك- رحمه الله- أنه من ألطخ بالدم، ووقعت عليه التهمة، ولم يتحقق عليه من ذلك ما تجب عليه القسمة فليس عليه ضرب مائة ولا سجن سنة، وعليه الحبس الطويل جدًا، ولا يعجل خروجه حتى تتبين براءته، وتأتي عليه السنون الكثيرة[٥٠].

أما في مسألة الجراح، فقد أفتى ابن رشد على الرجل بالسجن إذا لم يثبت عدم ضربة للرجل، في حين ألزمه ابن الحاج التجيبي أن يستدعي الرجل شهودًا للشهادة على بينته، مع تحليفه وخروجه من السجن[٥١]. أما في مسألة القصاص فألزموا عدم إلزامية الصلاة على من قُتل بقسامة، نظرًا للحكم عليه من طرف الفقهاء[٥٢]. وفي نازلة أخرى حول مسألة تطبيق الشرع في القاتل، نص الفقيهان أن القسامة مع الشاهد على القتل يراعى فيها المعاينة وظهور آثار الجرح ووجود كذلك سكين بيد القاتل مع شاهدين عادلين، وإتباع ما قاله مالك في هذا الباب[٥٣].

وعلاوة على ذلك فالنوازل المذكورة أعلاه توضح ضرورة إتباع المذهب المالكي لا غيره في القوانين والأحكام انطلاقا من القرآن والسنة، والعمل من جهة ثانية على مذهب ابن القاسم لما له من مكانة خاصة في المذهب لكونه لزم مالك أزيد من عشرين سنة، ولم يفارقه حتى توفي، ولا يغيب عن مجلسه إلا لعذر[٥٤]، ثم نجد النص والنقل وعلى الأثر والرواية[٥٥]، وهذا ما تؤكده النوازل المعروضة على الفقيهين[٥٦]، لكون عزل القاضي المعروف بالنزاهة والأحكام لا يمكن أن تسقط عليه هذه الصفة إلا بعدم التزامه بأحد الصفات المذكورة أعلاه، ولا يجوز التجريح فيه من طرف أحد أفراد عائلته لسبب من الأسباب[٥٧]، لكون القاضي المشهور بالعدالة يجب أن يكون" ذكرا حرًا مسلمًا بالغًا عاقلاً واحد وملتزما لواجبات الشرع مجتنبًا للمحرمات والمكروهات"[٥٨].

٢/٣-التجارة

لقد شكلت التجارة إحدى الدعامات الأساسية في الاقتصاد الذي عرفته الأندلس، وهذا ما تعكسه النوازل الفقهية المعروضة على الفقيهين من أنواع البيوع من بيع للآمة والحبوب وكيفية الحلف في البيع وأنواع العملات والحمال للبضائع السائدة آنذاك.

فمن خلال القراءة في النوازل المستخرجة في هذا الصدد، نجد أن الفقيهين حثا في حالة إنكار البائع لقبضه الثمن من المشتري، نصا يؤكد على منح المشتري المال للبيع وأن يحلف حتى وإن تجاوزت المسالة عشرة أعوام لكون البيع لا يتقادم إلا بتحديده في العقد[٥٩]. وفيما يخص بيع الآمة ألزم الفقيهان بيع الجارية الرومية فأفتى ابن رشد ببيعها من غير مواضعة –أي بدون الاستشارة والموافقة معها-، في حين أكد ابن الحاج على ضرورة المواضعة وحجته في ذلك ما قاله مالك في هذا الصدد أن استبراؤها ثلاثة أشهر، فإن انقلب بها المبتاع فأرى أن تحلف ثم تستبرأ، وقال أيضا ابن القاسم من تحمل الرجال منهم، يخاف عليها الحمل، ففيها الاستبراء، قال عبد الملك بن الحسن، في العتيبة، عن ابن وهب، وفي الصغيرة مثلها يوطأ، ومثلها لا تحمل، ففيها المواضعة٦٠. وهذا ما أكده النخاسون على كون الآمة الرومية ضروري أن تباع إلا بعد المواضعة بين البائع والمشتري٦١. وفيما يتعلق بقضية المرأة الحرة بعد شرائها كونها جارية، أجبر الفقيهان على وجوب تبيان حريتها بعقد في ذلك، مع إلزام البائع للمشتري إعطاء ضامن في حالة معرفة أنها حرة[٦٢].

ومن المسائل التي عرضت عليهما قضية السهو في ضياع البضاعة، فقد أضاع رجل حمل بضاعة لرجل، فجاءه إلى موضع خوف عن الطريق فحبسها بيده، ثم نزل ليبول فوضعها في الأرض، ثم قام ومشى، ثم تذكرها، فرجع إلى الموضع ولم يجدها، ولا يدري أين وضعه[٦٣]، فأكدا على أن الرجل ضامن في البضاعة[٦٤].

وفي المعاملات المالية، يلاحظ تعامل المثقال المرابطي في الكراء، وهذا ما يستشف من النازلة المعروضة على الفقيهين، إذ أظهر تفوق الدينار المرابطي على الدنانير الأخرى سواء من ناحية الوزن الذي يمتاز به، وهذا الشرط كان أساسا عند الفقهاء في تحديد النصاب، وكان ابن رشد يعتمد على نقود المرابطين من خلال إلمامه بطبيعة وصناعة النقود المتداولة وهذا ما تبرزه النازلة في أن وزن الدينار المرابطي كان اثنتين

وسبعين حبة، وأن هناك من الفقهاء ومنهم الفقيهان يرون أن وزن الدينار الشرعي هو ستة وسبعين حبة، وعليه فالدينار المرابطي هو مثقال غير ثمن[٦٥]. وهو ما يوضح من جهة أخرى المعاملات التجارية التي عرفها المجتمع المرابطي ومن ضمنها النقود، إذ نجد في هذه الفترة العملة القرمونية والعملة العبادية والعملة الشرقية والدينار المرابطي[٦٦].

٤/٢-قضايا متفرقة

لقد تعرض الفقيهان ضمن مسائلهما لقضايا الهبة بالأندلس، كعدم إرجاع الهبة بعد منحها على ضرورة إرجاع الغلة أو الصدقة أو الدار التي وهبها الأب لأحد أبنائه لا لنفسه، إذ ذكر الفقيهان على أن الصدقة باطلة، لكون وقع التعدي منه في الغلة على ابنه وعليه غُرْمُها له[٦٧]، وفي مسألة السماح بالاعتكاف في الكعبة، فأجازوا ذلك وإن لم يكن يصلى فيها الفرائض، على اعتبار أن الكعبة مسجد وإن كان لا يصلى فيها الفرائض.[٦٨]

وفي مسألة الحسبة ألزم الفقيهان على إرجاع العيوب الظاهرة عند التقليب المتواجدة في الدواب والكروم وغير ذلك وإرجاعها للبائع[٦٩]، وهذا ما نص عليه السقطي إذ كانت الأندلس تعرف هذه الظاهرة عن طريق خدع وحيل التجار في تزيينهم، لذا حث على تعيين أمينة من ثقات المسلمين الخيار أهل الدين والمروءات يؤمن عليها مكر ذلك الصنف من النخاسين وخدعهم[٧٠]. وأيضًا كان يأمر بائعي الدواب ألا يبيعوا دابة لغير شخص معلوم إلا أن يضمنه ثقة معلوم العين ويقيد في العقد، وإن كان غير معلوم العين وقبله النخاس يكون ضامنا له.[٧١]

أما المسائل المتعلقة بالوصية، فتبرز نوازل الفقيهين أهمية تطبيق الوصية وفق المذهب المالكي؛ إذ يستشف من نازلة طرأت في الأندلس، بحيث أوصى رجل بعد مماته بالثلث لشخص، غير أن ظهور طرف ثاني كان قد أوصى له الموصي قبل مماته، فأقدم الرجل الموصي الأول أربع عشر مثقال مع تنازل الموصي الثاني فتوافقا، ظهر شخص ثالث أوصى له المتوفى من أجل إخراج الأسرى من حقه في الوصية ـ فألزم الفقيهان الشخص الثاني للثالث منحه سبع مثقال وإرجاع ما تبقى للشخص الأول الموصى له كذلك[٧٢].

خاتِمَةٌ

حصيلة القول إن النوازل الفقهية كشفت عن الخصوصية السوسيو ثقافية للمجتمع الأندلسي، من خلال السياقات المعروضة على الفقهاء والتي اتسمت بسياق تاريخي أُبْرِزت فيه إسهامات الفقهاء في التعاطي مع النوازل المعروضة من كافة أفراد المجتمع، وفي جميع المجالات وإظهار قوة الفقهاء داخل النسيج المجتمعي، كونه يشكل صمام أمان للدولة، مع التزامهما بتطبيق المذهب المالكي الشيء الذي جعل منها مادة خصبة لدراسة الإنتاج الفكري لهما. كما تعتبر النوازل الفقهية إحدى الأدوات المصدرية لدراسة مجتمع الغرب الإسلامي وغدت مادة لا يمكن الاستغناء عنها لأهمية ما فيها، بغية صياغة تاريخ أكثر عمقا في بعض جوانبه المفقودة في الكتب الإخبارية؛ خصوصا أنها تعبر عن حركية المجتمع في تفاعله مع المجال ومستجداته، وفي تفاعلها مع الإنسان وآثار المستجدات عليه، وفي تفاعلها مع الفكرة عبر الزمان، فأصبح استنطاقها أمرًا مُلحًا لتجديد آليات البحث في المجتمع الوسيطي.

الاحالات المرجعية:

(١) اهتم العديد المؤرخين بدراسة هذا النوع من المصادر الدفينة بما فيه من المعلومات الهامة عن المجتمع في العصر الوسيط، وعلى الرغم من احتوائه على مواد فقهية بالدرجة الأولى، غير أن الباحثين حثوا على ضرورة الاستفادة منها من الناحية التاريخية، للمزيد عن أهمية هذا الصنف في الجانب التاريخي، انظر: حجي (محمد)، **نظرات في النوازل الفقهية**، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩م، بنميرة (عمر)، **النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ٦٧، ٢٠١٢م. مزين (محمد)، **فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٦م، ولد السعد (محمد المختار)، **الفتاوى والتاريخ، دراسة لمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا من خلال فقه النوازل**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.، فتحة (محمد)، **النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي(من القرن ٦-٩هـ)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل، ١٩٩٩م.

(٢) للمزيد عن حياة ابن رشد وأهم مؤلفاته، انظر: ابن رشد (محمد بن أحمد بن أحمد القرطبي المالكي)، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج١.

(٣) للمزيد عن حياة ابن الحاج التجيبي وأهم مؤلفاته، انظر: ابن الحاج (التجيبي القرطبي)، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، دراسة وتحقيق: أحمد شعيب اليوسفي، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ٢٠١٨م، ج١، ص٢١-٨٨.

(٤) التدمية: هو مصدر دمًى، هو من دم الأخلاط.

(٥) مدينة قديمة أزلية، بنيت على أنقاض مدينة أنتجيس القديمة، تقع جنوب الوادي الكبير، تحدها من الجنوب غرناطة ومن الشرق مرسية ومن الغرب قرطبة، رخيصة الإكثار بها الكثير من اللحوم والعسل، وغلات الشعير والباقلاء والقمح، ومدينة إنتاج الحرير، ووجود العديد من مناطق الذهب والفضة بها، انظر: ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار الحياة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص. ١٠٥. مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٨٣م، ص٤٦.

(٦) قاعدة من قواعد الأندلس، نشأت على النهر الأبيض، بها كثرة التجارة والعمارات وأشجار مثمرة، انظر: الإدريسي (الشريف)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ج٢، ص. ٥٥٦.

(٧) قاعدة الأندلس وقطبها، وأم مدائنها ومستقر الخليفة ومستقر أهل السنة والجماعة، هي مدينة أزلية من البنيان الأول، قال عنها ابن رشد: إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة، وإذا مات مطرب وأريد بيع آلاته بيعت باشبيلية، انظر: المقري (محمد)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص١٤٥-١٤٦.

(٨) مدينة إسلامية بناها الأمير محمد بن عبد الله حكم ما بين ٢٧٥-٣٠٠هـ، وهي مدينة عسكرية بالأساس، موقعها طبيعي منيع، على مقربة من الحدود البرتغالية، انظر: الإدريسي، م.س، ج٢، ص٤٤٥. الحميري (عبد المنعم)، **الروض المعطار في خبر الأخبار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص. ٥٤٨.

(٩) قاضي الجماعة بقرطبة مرتين، تفقه عن أبيه وسمع عن محمد بن فرج، وأبي على الغساني، كان نافذا في أحكامه، توفي سنة ٥٢١هـ. انظر: ابن بشكوال، **الصلة**، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١ـ ١٩٨٩م، ج٢، ص. ٦١١.

(١٠) أصله من الشام من فلسطين وسكن فلسطين، ورث ابن القاسم عن أبيه المال فنفقه في رحلته إلى مالك روى عن الليث وابن ماجشون، قال ابن الحارث عنه: هو أفقه الناس بمذهب مالك، وقال له مالك اتق الله وعليك بنشر هذا العلم، انظر: عياض(القاضي)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة ١، ١٩٩٨، ج٤، ص. ٢٤٤-٢٤٦.

(١١) هو شيخ الأندلس وإمام المالكية بها، تفقه عنه ابن الحاج التجيبي وأخذ عنه في المدونة، كان من العلماء العاملين في الدين الصالح، انظر: عياض، م.س، ج٨، ص. ١٨١-١٨٢. الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان)، **سيرة أعلام النبلاء**، تحقيق: كامل الخراط، مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٩٩٦م، ج١٨، ص. ٥١٨-٥١٩.

(١٢) الشيخ العلامة، المحدث الصدوق، مسند الأندلس، سمع من أبيه فأكثر، قال ابن بشكوال: هو آخر الشيوخ الجلة الأكابر بالأندلس في علو الإسناد، انظر: الذهبي، م.س، ج١٩، ص. ٥١٤.

(١٣) هو أشهب بن عبد العزيز بن داوود بن إبراهيم القيسي العامري، انتهت إليه الرياسة بمصر بعد المنافسة مع ابن قاسم، كان فقيها، نبيلا، حسن النظر من المالكيين الحقيقيين، وامتهن حرفة خراج مصر، وكان من انظر أصحاب مالك، انظر: الذهبي محمد، م.س، ج٩، ص٥٠٢. عياض القاضي، م.س، ج٣، ص. ٢٦٥.

(١٤) توفي سنة ٣٤٥هـ، من أهل قرطبة، يقال له صاحب الوردة، من اهل العلم والتقييد، فقيها، حافظا للمسائل، بصيرا للوثائق، انظر: عياض القاضي، م. س، ج ٤، ص. ٦٠٢.

(١٥) توفي سنة ٣٩٧هـ، من جهابذة المدققين، منزلته عظيمة في المذهب المالكي، إذ أشتد به العلماء، انظر: عياض القاضي، نفسه، ص. ٤٣٨.

(١٦) صاحب كتاب "**منتخب الأحكام**" وقد جمع فيه مسائل وأحكام القضاء، هو من قرطبة، ينسب إلى بني مرة، كان من الزهاد الذين انقطعوا عن حياة الدنيا، وتفرغوا للعبادة والعلم، وتنقل ما بين البيرة وبجانة وقرطبة، توفي سنة ٣٩٩هـ، انظر عياض القاضي، نفسه، ص. ٥٥٢.

(١٧) لصاحبها إمام دار الهجرة، انس بن مالك، توفي ١٧٩هـ، نشرها عنه يحيى بن يحيى الليثي، وهو مَدْرَسٌ الفقهاء في فقه مالك، انظر: الذهبي محمد، م.س، ج١٣، ص. ٥٣١.

(١٨) هي أصل المذهب وعمدته، حتى قيل إنها بمنزلة القرآن الكريم، وان أصل المدونة من سماع القاضي القيروان أسد بن الفرات عن عبد الرحمن بن قاسم، وهما معا من أصحاب مالك، انظر: شمس الدين أبو عبد الله (الحطاب): **مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل**، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م، ج١، ص.٤٧.

(١٩) الوزاد (محمد)، **الملامح العامة لشخصية ابن مسرة وآراؤه الكلامية**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، العدد (٣)، ١٩٨٢، ص.٣٣.

(٢٠) الوقف: هو تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة، للمزيد انظر: قلعجي (رواس محمد) وآخرون، **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، الأردن، ١٩٨٨م. - الزحيلي وهبة، **الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي**، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة ٢، ١٩٩٨م. - حماد (نزيه)، **معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء**، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٨م. - أنوزلا (مجيد)، **المضمرات التاريخية للنوازل الفقهية، نوازل الوقف بتازة**، ضمن كتاب" النوازل والتاريخ المحلي، تازة بين سوسيولوجيا الفقه ومونوغرافية التاريخ"، تنسيق: محمد البركة، منشورات فريق البحث في مجتمع الغرب الإسلامي، الكلية متعددة التخصصات، تازة، مطبعة وراقة بلال، فاس، ط، ٢٠١٩م.

(٢١) العمري (فؤاد عبد الله)، **إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية**، الأمانة العامة الأوقاف، الكويت، الطبعة (١)، ٢٠٠٠م، ص. ٤١.

(٢٢) ابن الحاج، م. س، ج٣، صص.٥٣٥-٥٣٦.

(٢٣) الونشريسي (أبي العباس أحمد بن يحيى)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تخريج مجموعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٨١م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج٧، ص. ٣٠٢.

(٢٤) ابن رشد، م.س، ج٣، ص.١٥٦٧-١٥٦٨.

(٢٥) نفسه، ص. ١٥٦٩.

(٢٦) نفسه، ص. ١٥٧٠.

(٢٧) الونشريسي، م. س، ج٧، ص.٢٢٥.

(٢٨) ابن رشد، م. س، ج٣، ص. ١٥٦٨.

(٢٩) ابن الحاج، م. س، ج٣، ص. ٤٥٩.

(٣٠) ابن الحاج، م. س، ص. ٤٤٥.

(٣١) ابن رشد، م.س، ج٣، ص. ١٦٣٦.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) نفسه، ص. ١٥٩٧.

(٣٤) نفسه، ص، ٤٦٩.

(٣٥) نفسه. ص. ٤٦٨- ٤٦٩.

(٣٦) ابن رشد، م.س، ص، ج٣، ص. ١٥٩٩.

(٣٧) نفسه، ص، ١٥٩٥-١٥٩٦.

(٣٨) ابن فرحون (إبراهيم بن علي)، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٩٩٢م، ص.٩٤.

(٣٩) ابن الحاج م. س، ج ٣، صص.٥٢٤-٥٢٥.

(٤٠) ابن رشد، م. س، ج ٣، ص ١٦٠٤- ١٦٠٥.

(٤١) نفسه، ص. ١٦٤٢.

(٤٢) محمود (علي مكي)، **وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين**، مجلة المعهد المصري للدراسات، مدريد، ١٩٥٩م، المجلد-٧ -٨، ص. ١٧٨.

(٤٣) ابن الحاج، م.س، ج٣، صص.٦٦٣-٦٦٤.

(٤٤) ابن رشد، م.س، ج٢، ص. ١٠٢٠ (الهامش).

(٤٥) ابن الحاج، م.س، ج٣، ص.٥٢٩.

(٤٦) ابن رشد، م.س، ج٢، صص.٩٤١-٩٤٢.

(٤٧) اللاقي (محمد)، **نظرات في أحكام الحرب والسلم**، دراية مقارنة، دار اقرأ للطباعة والترجمة والنشر والخدمات الإعلامية، طرابلس، ١٩٨٩م، ص. ٢٠٢.

(٤٨) ابن رشد (محمد بن أحمد بن أحمد القرطبي المالكي)، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج ١، ص. ٥٨٦-٥٨٧(الهامش)،. ابن الحاج، م. س، ج ٣، ص. ٤٢٩.

(٤٩) ابن رشد، م. س، ج ٢، صص.٨٦٦-٨٧٠.

(٥٠) ابن رشد، نفسه، صص.٨٦٦-٨٧٠.

(٥١) ابن الحاج، م. س، ج ٣، ص. ٦٦٣.

(٥٢) ابن رشد، م. س، ج ٣، صص. ١٦٣٢-١٦٣٣. ابن الحاج، م. س، ج ٣، صص.٤١٩-٤٢٠.

(٥٣) نفسه، صص.٦٦٤.

(٥٤) رياض (محمد)، **أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط١، ١٩٩٦، ص. ٤٩٣.

(٥٥) عباس (الجراري)، **أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب**، ضمن ندوة الإمام مالك، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٨٠م، ص.١٧٧.

(٥٦) ابن رشد، م. س، ج٣، ١٥٠٥ (الهامش).

(٥٧) ابن رشد، ج ٣، م. س، صص. ١٦٠٩-١٦١٠.

(٥٨) ابن رشد (أبي الوليد بن محمد بن أحمد)، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي، ط٤، مصر، ١٩٧٥م، ص.٢٤٥.

(٥٩) ابن الحاج، م. س، ج ٣، صص.٤٨٨-٤٨٩.

(٦٠) ابن أبي زيد (محمد عبد الله بن عبد الرحمن القيرواني)، **النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**، تحقيق: محمد عبد العزيز الذباغ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج٥، ص.١١.

(٦١) ابن رشد، م. س، ج٣، ص.١٦١٥

(٦٢) نفسه، ص. ١٦١٩

(٦٣) نفسه، ص. ١٥٧٩.

(٦٤) نفسه، ص. ١٥٧٩.

(٦٥) ابن رشد، م. س، ج٢، ص. ١١١٢.

(٦٦) كمال السيد (أبو مصطفى)، **دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة**، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، د.ط، ١٩٧٧م، ص. ٣١.

(٦٧) ابن الحاج، م. س، ج ٣، ص. ٥٩٣.

(٦٨) نفسه، ص. ٤٢٤.

(٦٩) نفسه، ص. ٤٩٩.

(٧٠) السقطي (عبد الله بن محمد)، **آداب الحسبة**، ضبطه: جورج كولان- ليفي بروفنسال، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية، ١٩٣١م، تقديم، حسن حافظي علوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ذخائر المكتبة، رقم٢، ٢٠١١م، ص. ٥١.

(٧١) نفسه، ص. ٢٢.

(٧٢) ابن الحاج، م. س، ج ٣، ص. ٦٢٧-٦٢٦.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

موقف ابن تيمية من الفرق الإسلامية في عصره (٦٦١ – ٧٢٨هـ) السنية والشيعية

أ.م.د. غسان محمود وشاح
رئيس قسم التاريخ والآثار
كلية الآداب – الجامعة الإسلامية
غزة – دولة فلسطين

أسماء سفيان عطا الله
باحثة في التاريخ الإسلامي
كلية الآداب – الجامعة الإسلامية
غزة – دولة فلسطين

مُلَخّصْ

يُعَدّ ابن تيمية من أكبر علماء الإسلام والمنظرين له فقد سخر قلمه للذود عن الإسلام والرد على كل التهم التي وجهت للإسلام والجدير أن ابن تيمية عاصر الدولة المملوكية التي واجهت الصليبيين والمغول وكان لابن تيمية باع طويل في الجهاد في ساحات المعارك. لذلك يُعَدّ ابن تيمية عالمًا مجاهدًا لا يخشى قول كلمة الحق فالمصادر تحدثت أنه سجن عدة مرات دفاعًا عن رأيه لذلك يعد رأي ابن تيمية في الفرق الإسلامية سواء السنية أو الشيعية، ذات قيمة حقيقية جديرة بالدراسة والمناقشة، من أجل ذلك تم تقسيم الدراسة للنقاط التالية أولاً: ترجمة ابن تيمية. ثانيًا: تعريف الفرق الدينية الإسلامية في عصر ابن تيمية. ثالثًا: موقف ابن تيمية من الفرق الدينية الإسلامية السنية. رابعًا: موقف ابن تيمية من الفرق الدينية الإسلامية الشيعية. لذلك اتبع الباحث المنهج التاريخي التحليلي فوصلت الدراسة لنتائج وتوصيات مهمة وجديرة بالدراسة ومن أهمها أن ابن تيمية كفر الفرق الدينية الإسلامية الخارجة عن الشريعة الإسلامية بشكل واضح وصريح بل وضع ابن تيمية خطة كاملة لكيفية مواجهة هذه الفرق والقضاء عليها وتشمل الخطة جزء فكري علمي وجزء منها يعتمد على استخدام السلطان للقوة ضد هذه الفرق وبعد تكفير ابن تيمية للفرق الدينية الإسلامية-المُخالفة للشريعة الإسلامية- بيّن الفرقة المؤمنة والناجية من عذاب الله، وهي من اتبعت التعاليم الدينية من مصادر الشريعة الإسلامية- القرآن الكريم والسنة النبوية- دون تحريف أو تغيير.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٨	أكتوبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
ابن تيمية؛ الفرق الدينية؛ الأشعرية؛ الرفاعية؛ الشريعة الإسلامية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.204420

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
غسان محمود وشاح, أسماء سفيان عطا الله, "موقف ابن تيمية من الفرق الإسلامية في عصره (٦٦١ – ٧٢٨هـ): السنية والشيعية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٩٢ – ١٠٤.

Corresponding author: gwshah@iugaza.edu.ps
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يُعَدّ ابن تيمية شخصية جدلية بين مؤيديه ومعارضيه، بسبب مواقفه وآرائه وفتاويه، وقد تعددت الدراسات التي تناولت شخصية ابن تيمية، فمنهم من أنصفه ومنهم من تحامل عليه، ومنهم من وقف محايدًا، ولكن الثابت ابن تيمية يعد من أكبر علماء الإسلام والمنظرين له فقد سخر قلمه للذود عن الإسلام والرد على كل التهم التي وجهت للإسلام والجدير أن ابن تيمية عاصر الدولة المملوكية التي واجهت الصليبيين والمغول وكان لابن تيمية باع طويل في الجهاد في ساحات المعارك. وكما تؤكد المصادر أنه لعب عدد من الأدوار للدفاع عن الإسلام فكان أحيانًا يذهب سفيرًا للمغول وأحيانًا مستشارًا للسلطان المملوكي وأخرى معارضًا للحكام فيدخل السجون وأحيانًا مدافعًا بفكره وقلمه يدحض افتراءات الفرق الضالة والمتطفلة على الإسلام سواء كانت سنية أو شيعية. لذلك يعد ابن تيمية عالمًا مجاهدًا لا يخشى قول كلمة الحق فالمصادر تحدثت أنه سجن عدة مرات دفاعا عن رأيه لذلك يعد رأي ابن تيمية في الفرق الإسلامية سواء السنية أو الشيعية، ذات قيمة حقيقية جديرة بالدراسة والمناقشة والجدير ذكره أن هناك عدد من الدراسات السابقة ولكنها لم تستهدف هذه الجزئية تحديدًا فهناك دراسة بعنوان موقف ابن تيمية من قضايا عصره لغسان وشاح.

أهمية الدراسة

تنبع أهمية الدراسة من خلال النقاط التالية:

١. بيان الفرق الدينية الإسلامية السنية والشيعية في عصر ابن تيمية.
٢. ابراز موقف ابن تيمية من الفرق الدينية السنية.
٣. إبراز موقف ابن تيمية من الفرق الدينية الشيعية.
٤. تسليط الضوء على منهج ابن تيمية في التعامل مع الفرق الإسلامية.

أولاً: تعريف بابن تيمية

هو أحمد بن عبد الحليم شهاب الدين أبي المحاسن بن عبد السلام مجد الدين أبو البركات بن أبي محمد عبدالله بن أبي القاسم الخضر محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله[١] بن تَيْمِيَّة[٢] الحَرَّاني المولد[٣]، النُّمَيْري النسب[٤]، الحنبلي المذهب[٥]، الدمشقي النشأة والمدفن[٦]، المُلقب بتقي الدين[٧]، المُكنى بأبي العباس[٨]، الشهير بشيخ الإسلام[٩]. ولد في حرَّان[١٠] يوم الاثنين، العاشر[١١] من ربيع الأول ٦٦١هـ/ الثامن والعشرين من يناير/ كانون الثاني عام١٢٦٣م، وانتقل من بلدته مع أسرته إلى دمشق سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٩م)[١٢]؛ بسبب غزو المغول وجورهم، وقد اصطحب والده كتبه معه[١٣]. وقد وصف الذهبي شخصيته في قوله:" وَكَانَ الشَّيْخ أَبيض، أسود الشّعْر واللحية، قَلِيل الشيب، شعره إِلَى شحمة أُذُنَيْه، كَأَن عَيْنَيْهِ لسانان ناطقان، ربعَة من الرِّجَال، بعيد مَا بَين الْمَنْكِبَيْنِ، جَهورِي الصَّوْت، فصيحًا، سريع الْقِرَاءَة، تعتريه حِدة يقهرها بالحلم"[١٤].

ظهرت عليه علامات النُّبْل منذ صغره، فقد بدأ بتحصيل العلم بكافة فنونه، حتى أتقن العلوم الدينية والدنيوية، فحفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره، واهتم بالحديث والفقه ولازم مجالس الذكر[١٥]، وسَمِعَ كتب الحديث الستة[١٦] عدة مرات[١٧]، ومُسند الامام أحمد، اضافة إلى سنن الدارقطني[١٨]، ومُعجم الطبراني الكبير، كما حصَّل الأجزاء، ونظر في الرجال والعلل[١٩]، ودَرَس التاريخ والسير[٢٠]، واهتم بالشعر[٢١]، وتعلم الجبر والحساب والطب والفلك والهندسة والعربية والمقابلة والهيئة[٢٢]، كما أجاد اللغة العبرية[٢٣] واللاتينية والفارسية[٢٤]، وتأمل كتاب سيبويه[٢٥] محصيًا فيه ثمانين خطًا[٢٦].

وقد نشأ ابن تيمية في أسرة علم، وفقه، ودين، وعبادة، فوالده عبد الحليم بن عبد السلام المُلقب بشهاب الدين(٦٢٧-٦٨٢هـ/ ١٢٣٠-١٢٨٣م) كان إمامًا وعالمًا في الفرائض والحساب والهيئة[٢٧]، ووالدته ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية (٧١٦هـ/١٣١٦م) كانت واعظة وصالحة[٢٨]، إضافة إلى جده عبد السلام العالم والفقيه والمُحدث، وشقيقيه عبد الرحمن وعبدالله، وغيرهم. توفي أسيرًا في سجن القلعة في دمشق، ليلة الاثنين في العشرين من ذي القعدة/ الخامس والعشرين من (سبتمبر/ أيلول) عام (٧٢٨هـ/١٣٢٨م)[٢٩]، عن عمر ناهز سبعة وستين.

ثانيًا: تعريف الفرق الدينية الإسلامية في عصر ابن تيمية

شهدت مصر والشام خلال عصر ابن تيمية تمازجًا في أعراق الناس، وشكَّل المسلمون الأغلبية في مصر والشام، لكنهم انقسموا إلى السنة والشيعة، وتفرع كل منهم إلى عدة فرق وهي كالتالي:

الصوفية:

إحدى الفرق السنية، ظهرت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في البصرة، عُرفت في بدايتها بالزهد وكثرة العبادة وشدتها، ثم دخلت عليها أفكار الفلاسفة الهنود، واليونان، والفرس، حتى وصل بعض منتسبيها لمرحلة انكار

وجود الله واعتبار الخالق والمخلوق واحدًا، من معتقداتهم: الرقص، والغناء، والنواح في العبادة، وقد اختُلف في سبب تسميتها فمنهم من ينسبها إلى الصَّفا، ومنهم من ينسبها إلى صفوة الله من خلقه[٣٠]، ومنهم من ينسبها إلى صُوفة بن مُرّ، ومنهم من ينسبها إلى لبس الصوف[٣١].

الأشعرية:

إحدى الفرق السنية، تُنسب إلى أبي الحسن الأشعري[٣٢]، يؤمنون بأسماء الله كلها، في المقابل ينفون صفات الله ما عدا سبعة وهي: الحياة، والقدرة، والعلم، والسمع، والبصر، والارادة، والكلام؛ وذلك لاعتقادهم بتشبيه الله بالمخلوق، والاعتماد على العقل دون النقل، كما نفوا الصفات الاختيارية لله وهي: الكلام، الرضا، الغضب، الفرح، النزول، وغيرها، متبعين في ذلك مذهب الكلابية[٣٣].

الجهمية:

نسبت إلى الجهم بن صفون السمرقندي[٣٤]، من معتقداتهم نفي أسماء الله –عز وجل- وصفاته وذلك لاعتبارهم الانسان مُجبر على أفعاله، واعتقادهم بتعدد الإله فكل صفة عندهم تعني إله، وأنكروا رؤية الله وعلوه، كما أنكروا الجنة والنار، وادعوا أن القرآن ليس كلام الله، واقتصر إيمانهم على معرفة الله دون عبادته[٣٥].

النُّصيريّة:

إحدى الفرق الشيعية ظهرت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهي عبارة عن خليط من معتقدات الشيعة والنصارى والمجوس وأفكار الفلاسفة، نُسبت إلى محمد بن نصير[٣٦]، لهم أسماء عديدة منها: الخُرَّمِيَّة، والمحمرة، والباطنية، والإسماعيلية، والنصيرية، والقرامطة، والملاحدة، أنكروا أنبياء الله والجنة والنار والبعث، واستحلوا الخمر وتقديسه، صلاتهم عبارة عن ذكر اسم علي، وحسن، وحسين، ومحسن، وفاطمة في كل صلاة، عُرفوا بالحقد والكراهية على المسلمين، وقد تحالفوا مع الصليبيين والمغول ضد المسلمين في حياة ابن تيمية فكانوا سببًا مباشرًا في احتلال الشام من قبل الصليبيين والمغول[٣٧]، كما دمروا المساجد وحولوها إلى خمارات، شعارهم "لَا إِلَـهَ إِلَّا عَـلِيٌّ وَلَا حِجَـابَ إِلَّا مُحَمَّـدٌ، وَلَا بَابَ إِلَّا سَلْمَان"[٣٨]-والعياذ بالله- وما زالت النصيرية في يومنا هذا يتمركزون في سوريا.

الدروز:

إحدى طوائف الشيعة الإسماعيلية ظهرت عام (٤٠٨هـ/١٠١٧م)، وهي خليط من الأديان وأفكار الفلاسفة، ينسبون إلى محمد بن اسماعيل الدرزي[٣٩]، الذي اعتقد أن روح الله حلت في الحاكم لأمر الله العبيدي[٤٠]، وأنكروا الجنة والنار، والثواب والعقاب، يؤمنون بخمسة أنبياء وهم: حمزة، واسماعيل، ومحمد، وأبو الخير، وبهاء، وأحلوا زواج المحارم، وزادوا في البسملة باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم، يُسمح لكل من بلغ سن الأربعين بالاطلاع على تعاليمهم، وتعاونوا مع الصليبيين والتتار ضد المسلمين[٤١].

القدرية:

جماعة نفت القدر، واعتبرت ما يجري في الكون نتيجة فعل البشر، ولا دخل لله –تعالى- فيه، ونفت علم الله وقدرته، وأول من نادى بذلك سِيْسَوَيْه -من أهل البصرة- واتبع منهجه كل من مَعْبَدٌ الجُهَنِّيُّ وغيلان بن مسلم الدمشقي، وظهرت في آخر عهد الصحابة فحاربوهم، وتنقسم إلى عشرين فرقة، منها: الواصلية، والعمرية، والنظامية، والمعمرية، والثمامية، والجاحظية، وكان النبي (ﷺ) قد حذرنا منهم بقوله:" القدرية مجوس هذه الأمة"[٤٢].

الرفاعية:

وهي إحدى طوائف الصوفية، وهم جماعة من الفقراء تُنسب لأحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة، عُرفوا بالأحمدية والبطائحية، من عاداتهم أكل الحيَّات حية، والدخول في النار المشتعلة، وركوب الأُسود والسباع[٤٣]، ولاتزال تلك الطائفة موجودة وتمارس طقوسها ليومنا هذا في عدد من البلاد العربية منها: مصر والعراق[٤٤].

الإسماعيلية:

إحدى الفرق الشيعية، تُنسب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين، وادعى أنه من ذرية محمد بن إسماعيل بن جعفر، عُرفوا بتحالفهم مع الصليبيين ضد المسلمين، كان لهم قلاع خاصة بهم وهي: القدموس، الرصافة، الخوابي، والكهف، والقلعة، والمنيقة، تمكن السلاطين المماليك من السيطرة عليهم واخضاعهم[٤٥].

القلندرية:

أصلهم من بلاد فارس يُنسبون إلى قلندر[٤٦]، اعتقدوا أن النبي (ﷺ) أطعم شيخهم عنبًا وكلمه بغير العربية، وأحلوا ما حرم الله فلا صلاة ولا صيام عندهم، وحلقوا لحاهم وشواربهم وأهدابهم، وعُرفوا بكثرة البدع والمنكرات وتشبهوا بالمجوس في لباسهم[٤٧].

القرامطة أو الخرمية[٤٨]

احدى الفرق الشيعية، تُنسب إلى حمدان بن الأشعث "القرمط"، ألغوا العديد من شعائر الإسلام كالصيام والصلاة، وأنكروا وجود الله والجنة والنار والعقاب[٤٩].

ثالثًا: موقف ابن تيمية من معتقدات الفرق الدينية الإسلامية السنية

٣/١-موقفه من الصوفية

نسبهم إلى الصوفية للبسهم الصوف، مُخالفًا بذلك من نسبهم إلى صفوة الفقهاء، أو إلى صُوفَة بن أد بن طابخة، أو إلى أهل الصفة، أو إلى الصفا، أو إلى الصف المتقدم بين يدي الله، بقوله" لو كانت كذلك لأُطلق عليهم لفظ صفي، أَوْ صَفَائِيٌّ، أَوْ صفوي، أَوْ صفي، ولم يطلق عليهم لفظ صُوفِيٌّ"[٥٠]، وبالرجوع إلى معاجم اللغة ومراجعة تلك الأسماء تبين اصابة ابن تيمية في ذلك[٥١].

حرم عباداتهم الله بالرقص والغناء مُعتبرها بدعة؛ لقوله تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)[٥٢]، معتبرها إحدى طرق الشيطان المُخالفة لطريق الله تعالى[٥٣]، كما رد عليهم لاعتقادهم بوحدة الوجود بقوله:" بَلْ الْمُكَلَّفُ هُوَ الْعَبْدُ بِلَا امْتِرَاءٍ وَلَا حَيْرَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُكَلَّفَ بِالصِّيَامِ وَالطَّوَافِ وَرَمْيِ الْجِمَارِ؛ بَلْ هُوَ الْآمِرُ بِذَلِكَ وَالْعَبْدُ هُوَ الْمَأْمُورُ بِذَلِكَ، وَمَنْ حَارَ هَلْ الْمَأْمُورُ بِذَلِكَ اللَّهُ أَوْ الْعَبْدُ؟ فَهُوَ إمَّا يَكُونُ فَاسِدَ الْعَقْلِ مَجْنُونًا؛ وَإِمَّا فَاسِدَ الدِّينِ مُلْحِدًا زِنْدِيقًا"[٥٤].

كما أبطل تفضيلهم لخاتم الأولياء على النبي (ﷺ) بالعقل: فاللاحق يتعلم ممن سبقه وليس العكس فلا يُعقل أن يتعلم الأنبياء من أولياء الصوفية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٥٥]، وبالشرع بتفضيل الله لهم في قوله تعالى: (فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ)[٥٦]، اضافة إلى تفضيل الله لأبي بكر، وعمر، وعثمان بعد الأنبياء، كما أنه لم يرد ذلك لا في القرآن ولا السنة ولا في سلف الأمة[٥٧]، وأفتى بقتل من يدعي ذلك بعد بيان القول الحق له[٥٨].

لم يقتصر موقف ابن تيمية من الصوفية على محاجتهم في معتقداتهم، بل كذَّب مؤلفاتهم من خلال تصحيح الكثير من المعلومات الواردة في كتبهم، مثل: كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي، ببيان كذب مؤلفه بادعائه مُصاحبة الحسن البصري لعلي بن أبي طالب، وسؤال الشافعي والإمام أحمد لشيبان الراعي، وذلك بإجماع أهل المعرفة على عدم ملاقاة علي للحسن البصري، أو ملاقاة أحمد والشافعي للراعي[٥٩].

بعد محاجته معتقداتهم ذكرهم بصفات الصوفي المُوافقة للقرآن والسنة وهي: البعد عن المُحرمات، والتزام الفرائض، والتوكل على الله، والسعي لكسب الرزق، ويجب الاشارة إلى أن ابن تيمية ميَّز بين قسمين من الصوفية، الأول: متصوف وفقًا للشريعة الإسلامية، مُعتمدًا على القرآن الكريم، والسنة النبوية، وسلف الأمة، والثاني: قسم مُتصوف يُخالف الشريعة الإسلامية ويُخالف القرآن الكريم، والسنة النبوية، وسلف الأمة، فالقسم الأول مؤمن والقسم الثاني كافر مُلحد برأي ابن تيمية[٦٠].

اختلف موقف ابن تيمية من الصوفية ما بين التكفير والمحاجة والانتقاد وذلك بناء على مصادر الشريعة، ويبدو أن ابن تيمية لم يُوفق في تكفيره للصوفية؛ فقد انقسموا إلى قسمين: منهم من نُسب إليهم الزهد والورع والعبادة والتقى، ومنهم من انحرف عن الشريعة الإسلامية، وقد اجتهد الطرفان في الدين، فابن تيمية لا يملك حق التكفير.

٣/٢-موقفه من الأشعرية

اختلف موقفه من الأشعرية عن غيرهم من الفرق الدينية، فقد كفرهم ووصفهم بالانحراف عن الشريعة الإسلامية تارة، ومدحهم تارة أخرى، وتبيَّن ذلك من خلال:

أولاً: مدحه لمذهب الأشعرية بشكل عام؛ لدفاعهم عن الإسلام من خلال موافقة القرآن والسنة، وردهم على الفرق الدينية الأخرى ومحاربتهم البدع وأفكار الفلاسفة، وتمثل ذلك في قوله:" فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار، وردهم ما انتفع به خلق كثير"[٦١]، وقوله:" ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام، مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين، ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم، وصدق، وعدل وانصاف"[٦٢]، وقال:" الأشعرية إنما قبلوا واتبعوا واستحمدوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان من إثبات الصانع وصفاته وإثبات النبوة والرد على الكفار من المشركين وأهل الكتاب وبيان تناقض حججهم وكذلك استحمدوا بما ردوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدرية من أنواع المقالات التي يُخالفون فيها أهل السنة والجماعة، فحسناتهم نوعان: إما موافقة أهل السنة والحديث، وإما الرد على من خالف السنة والحديث ببيان يناقش حججهم"[٦٣].

كما أثنى على أعلامهم ممن سبقوه مثل: الجويني والباقلاني، وممن عاصروه مثل: علاء الدين الباجي وابن جماعة، واشارته إلى استفادته من علمهم، فقال عن الباقلاني وابن فورك:" أكثر اثباتًا بعد الأشعري في الابانة، وبعد ابن الباقلاني ابن فورك، فإنه أثبت بعض ما في القرآن"(٦٤)، وقال عن أبي المعالي الجويني:" وأبو المعالي وأمثاله أجل من أن يعتمد الكذب لكن القول المحكي قد يسمع من قائل، لم يضبطه وقد يكون القائل نفسه لم يحرر قولهم"(٦٥)، وقال عن علاء الدين الباجي:" مثلي لا يتكلم بين يديك أنا وظيفتي الاستفادة منك"(٦٦)، وقال السبكي كان ابن تيمية لا يُعظم أحدًا من أهل العصر كتعظيمه لبدر الدين ابن جماعة(٦٧).

ثانيًا: كفرهم؛ لاعتقادهم ما يُخالف الشريعة الإسلامية وحاججهم فيها، ففي إنكارهم لصفات الله تعالى باستثناء صفات المعاني-السمع، والبصر، والكلام، والعلم، والحياة، والارادة، والقدرة، حاججهم بأن الإيمان بأسماء الله يقتضي الإيمان بصفاته، وأمرهم بالإيمان بكافة الصفات بناء على إيمانهم بأسماء الله؛ لأن الاسم يُطلق بناء على امتلاك الصفة فإثبات اسم الرحيم يوجب اثبات صفة الرحمة(٦٨)، ووجه إليهم سؤالاً "وإذا كنتم تعتقدون أن المحبة والبغض والغضب والرضا خاصة بالإنسان فلماذا تؤمنون بصفة السمع، والبصر، والعلم، والحياة، وهي خاصة بالإنسان أيضًا"؟

وأمرهم بالإيمان بكمال الله فقال:" أن يُعلم أن الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب يستحقه بنفسه المقدسة"(٦٩).

ثم نزل ابن تيمية إلى مستوى فكر الأشعرية، فقد أثبتوا صفة العلم لله بناء على حوادث معينة تستلزم العلم، مثل: شروق وغروب الشمس بوقت مخصص، وتعاقب الليل والنهار، فالأشعرية نتيجة ذلك أثبتوا صفة العلم لله، وحاججهم في ذلك بأن بُغض الله للكفار يكون بإنزال سخطه عليهم، وحب الله لعباده يكون بفتح أبواب الدنيا عليهم، فإكرام الطائعين يدل على محبة الله لهم، وعقاب الله للكفار يدل على بغضه لهم، وطالبهم بالإيمان بصفات الله وإن كان يمتلكها الإنسان كالحب والبغض والرضا والغضب، لأن لله حب يليق بذاته كما للإنسان حب يليق بذاته، وكذلك الرضا والغضب والبغض وغيرهم(٧٠)، ويُذكر أن الأشعرية قاموا بسجن ابن تيمية لمحاجته لهم في صفات الله وتكفيره لهم(٧١).

والباحثان يُخالفان ابن تيمية في تكفيره للأشعرية؛ لأنهم قدموا مساهمات جديرة بالذكر في الدفاع عن مبادئ الإسلام ضد الأكاذيب والأباطيل والتهم التي أُلصقت بالإسلام، وقد أشار ابن تيمية إلى ذلك، فناقض نفسه بنفسه، فتارة نجده يمدح بهم، وتارة أخرى يذمهم!

٣/٣-موقفه من الرفاعية

وصفهم بالجهل، ووصف أحوالهم بالشيطانية(٧٢)؛ لإفسادها العقول والأديان والأعراض، وأثبت أنها باب من أبواب الحيل والبُهتان على الناس وليست من كرامات الصالحين كما زعموا، من خلال تفسيره عدم اصابة شيوخهم بالأذى بعد دخولهم النار؛ لدهن أجسادهم بأدوية مصنوعة من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج(٧٣) وحجر الطلق(٧٤)(٧٥) فيحول ذلك بين أجسادهم وبين النار فلا يصابوا بأذى، أو لتلبس الشيطان فيهم، وبذلك يحول الشيطان بين جسدهم وبين النار، تمامًا كما يحدث مع المصروع فإنه مهما ضُرب لا يتأثر جلده من شدة الضرب وإنما يتأثر الشيطان المتلبس فيه(٧٦)، ولإثباته صحة قوله أمر شيوخهم بالاغتسال بالماء الساخن، ودلك أجسادهم بالخل ثم الدخول إلى النار أمام الناس(٧٧)، فلم يقبلوا قائلين له:" نحن أحوالنا تتفق عند التتار ما تتفق قُدام الشرع"(٧٨)، وقد ابتعد الناس من أنصارهم عنهم بعد رفضهم الاغتسال(٧٩).

كما فسر أكلهم للحيات دون الاصابة بأذى؛ بشربهم شراب يمنع سُم الحية، أو بجلبهم لحية مائية، أو بحشو جلد الحية بالطعام، أو بإمساكها بعنقصتها فلا تضرهم(٨٠)، واعتبر لباسهم الحديد بدعة؛ فلم يأمرنا الله بذلك ولم يرد مثل ذلك عن النبي (ﷺ) ولا عن أصحابه، وذكرهم بأنها من حلي أهل النار كما هو معروف فكيف لهم التشبه بأهل النار(٨١)، ولم يكتفِ بتذكيرهم بذلك بل رفع الحديد على مشايخهم، واستجاب له عدد منهم(٨٢).

وعندما اشتكاه مشايخ الرفاعية للأمراء، عقد مناظرة حاججهم فيها وبيَّن للأمراء كذبهم على من سبقهم من الأمراء، مثل: الأمير قبجق(٨٣)عندما كذبوا عليه بأن الميت يتكلم بعد وضعهم رجلاً حيًا في القبر، وزعموا أن الرجل الشعراني بجبل لبنان جاء إليه وعندما اقترب قبجق إليه وجد شعر ماعز فقلعه عنه، وبيَّن كذبهم على الأمير الأيدمري(٨٤) بمعرفتهم أخباره وأخبار بيته بعد ارسالهم نساء إلى بيته لمعرفة أخباره، كما صنعوا خشبًا ومشوا عليه كأنهم يلعبون بالزجاج وهو يراهم من بعيد على أنهم رجال الغيب وأخذوا منه مالاً كثيرًا ثم كشف دجلهم(٨٥)، وبذلك أمر الأمراء بإزالة دجلهم وقتلهم إن لم يتوبوا(٨٦)، وبيَّن لهم امتناعهم عن إقامة شعائر الإسلام

الظاهرة، وبعد سماع الناس ابن تيمية زجروا الرفاعية فلم يعد بعد ذلك من يصدقهم، وأمر الأمراء بقتل من يخرج عن الكتاب والسنة[٨٧].

وبعد البحث تبيّن إصابة ابن تيمية في استخدام الأدلة العلمية في ابطال بدع شيوخ الرفاعية؛ فبالنسبة إلى الضفدع يبقى كما هو بعد وضعه على ماء مغلي، دون اصابته بأي أذى، كما أن الامساك بعنقوصة الحية لا تضر ماسكها[٨٨].

رابعًا: موقف ابن تيمية من الفرق الدينية الشيعية

٤/١-موقفه من الشيعة

كفرهم، وأرجع أصلهم إلى اليهودية؛ نسبة إلى اليهودي عبدالله بن سبأ[٨٩]، وبيَّن سبب تسميتهم بالروافض أو الرافضة؛ لرفضهم ترحم زيد بن علي بن الحسين[٩٠] على الخلفاء الراشدين، وأشار لكذبهم وتدليسهم للأحاديث النبوية بإضافة لفظ الرافضة، مُعللاً ذلك بتسميتهم بالخشبية في عهد النبي (ﷺ)[٩١].

كما بيَّن تشابه الكثير من معتقدات الشيعة واليهود، مثل: اعتقاد اليهود أن المُلك لا يصلح إلا في آل داود، واعتقاد الرافضة أن الإمامة لا تصلح إلا في آل علي، واعتقاد اليهود أنه لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال ويُنزل سيف من السماء، واعتقاد الرافضة أنه لا جهاد في سبيل الله إلا عندما يخرج المهدي، وتأخير اليهود لصلاتهم إلى حين اشتباك النجوم، وتأخير الرافضة لصلاة المغرب إلى اشتباك النجوم، واسدال اليهود لأثوابهم أثناء الصلاة وكذلك الرافضة، وتحريف اليهود للتوراة وتحريف الرافضة القرآن الكريم، وتحريم اليهود والرافضة لأكل الجري والمرماهي[٩٢]، وبغض اليهود والرافضة لجبريل واعتباره عدوهم من الملائكة، واستحلال اليهود والرافضة لأموال وأرواح المسلمين، وتحريم اليهود والرافضة أكل الأرانب والطّحال، وتحريم اليهود والرافضة المسح على الخفين، وادخال اليهود والرافضة في قبور موتاهم سَعَفة[٩٣] رطبة[٩٤].

لم يكتفِ ابن تيمية بموقفه ذلك منهم بل أشار إلى بعض حماقاتهم والمتمثلة في:

١. كراهية الرقم عشرة وعدم استخدامه في الحياة اليومية؛ لبغضهم العشرة المبشرين بالجنة وهم: أبي بكر وعمر وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة الجراح وسعيد بن زيد والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص- باستثناء علي بن أبي طالب[٩٥]، في حين خالفهم ابن تيمية بإيضاحه مُباركة الله للرقم عشرة خلال ذكره في عدة آيات منها: قوله تعالى: (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)[٩٦]، وقوله: (وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)[٩٧]، وقوله: (وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ)[٩٨].
٢. كراهية أسماء الخلفاء الراشدين وعدم تسمية أولادهم بها، وبُغض من تسمى بأسمائهم، في حين خالفهم ابن تيمية بذلك، موضحًا أنه كان من الصحابة من اسمه الوليد مثل الوليد بن الوليد وفي المشركين من اسمه الوليد مثل الوليد بن المغيرة، وفي الصحابة من اسمه هشام مثل هشام بن حكيم ومن المشركين من كان اسمه هشام مثل هشام وهو أبو جهل، فالنبي والمؤمنون لم يكرهوا اسمًا لمجرد تسمية الكفار به، في حين يتباركون بأسماء معينة مثل: علي والحسن والحسين وجعفر وأهل السنة يتسمون بتلك الأسماء[٩٩].
٣. انتظار المهدي[١٠٠] في أكثر من مكان والمناداة عليه للخروج، وخالفهم ابن تيمية في ذلك بأنه لو كان موجودًا وأمره الله بالخروج لخرج، ولو لم يأمره الله بالخروج لن يخرج حتى لو نادوا عليه وانتظروه طول الزمان[١٠١].
٤. التمثيل بالحيوانات، بضربها وتعذيبها بشق بطونها ونتف شعرها، مُعتبرين ذلك الحيوان يُمثل شخصية يبغضوها مثل: اتيانهم بنعجة حمراء على اعتبارها تُجسد شخصية السيدة عائشة؛ لأنها تسمى بالحميراء، وكذلك اتيانهم بحلس[١٠٢] على اعتباره يُجسد شخصية عمر بن الخطاب، اضافة إلى تسمية كلابهم بأسماء أبي بكر، وعمر، وعثمان، نسبة إلى الخلفاء الراشدين[١٠٣]، في حين خالفهم ابن تيمية في ذلك بتحريم ايذاء الحيوانات والتمثيل فيها لقول النبي (ﷺ): "كالشاه التي يُحرم إيذاؤها بغير حق"[١٠٤].
٥. تعظيمهم لأبي لؤلؤة المجوسي؛ لقتله عمر بن الخطاب.
٦. اقامة المآتم والنياحة على من مات من آلاف السنين، مثل: النياحة على الحسين بن علي يوم عاشوراء، وحاججهم ابن تيمية بوفاة الأنبياء والخلفاء ظُلمًا مثل سيدنا يحيى، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، باعتبارهم أفضل عند الله من الحسين، ولم يفعل المسلمون مثلهم على أنبيائهم وخلفائهم[١٠٥].
٧. اعتمادهم على علماء وكتَّاب يعرفوا بالكذب والتدليس مثل: أبي مخنف[١٠٦]، ابن السائب[١٠٧][١٠٨].

واكتفى ابن تيمية بتحذير المسلمين من شر الشيعة بقولين للشعبي- اعتبره الشيعة زعيمًا لهم- حيث قال: "ما رأيت أحمق من الخشبية، لو كانوا من الطير لكانوا رخمًا، ولو كانوا من البهائم لكانوا حُمرًا، والله لو طلبت منهم أن يَمثُلوا لي هذا البيت ذهبًا على أن أكذب على علي لأعطوني، والله ما أكذب عليه أبدًا"، وقال:" أُحذركم هذه الأهواء المُضلة وشرها الرافضة لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبغيًا عليهم، قد حرقهم علي بالنار ونفاهم إلى البلدان منهم عبدالله بن سبأ"[١٠٩].

بعد الاطلاع على معتقدات الشيعة بشكل عام من خلال مؤلفات ابن تيمية، يُلاحظ كفر الشيعة بشكل علني وصريح؛ للعنهم الخلفاء الراشدين أمثال: أبي بكر، وعمر، وعثمان، في حين دعانا النبي للاقتداء بسنته من بعده، فإذا كان النبي دعانا للاقتداء بسنة الخلفاء فكيف للشيعة الادعاء بأنهم مسلمون وهم يلعنون الخلفاء الراشدين إلى يومنا هذا، كما أنهم يبغضون صحابة رسول الله مثل: طلحة والزبير، وغيرها من المعتقدات.

٢/٤-موقفه من الجهمية

اقتصر موقفه من الجهمية بتكفيره لهم؛ لمخالفتهم أهل السنة والسلف الصالح في معتقداتهم، وبيانه العقيدة الإسلامية الصحيحة لهم: ففي اعتقادهم بأن الله لا في داخل العالم ولا في خارجه-الحلول-، حاججهم بأن الله موجود في كل مكان فله وجود يليق بذاته، كما للإنسان وجود يليق به. وفي اعتقادهم بأن الإيمان يقتصر على التصديق بوجود الله في القلب فقد، بيَّن لهم مذهب أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله تعالى قولاً وعملاً بالقلب واللسان والجوارح[١١٠].

وفي اعتقادهم بفناء الجنة والنار بعد دخول أهليهما فيهما، استدل في مخالفتهم بذلك بآيات من القرآن كقوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[١١١].

وفي نفيهم لأسماء الله وصفاته بدعوى عدم تمثيل وتجسيم الله ومشابهته لمخلوقاته، اكتفى ببيانه مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك بقوله: "السلف آمنوا بأن الله موصوفًا بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من أن له علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا ويدين ووجهًا وغير ذلك"[١١٢]، وقال في موضع آخر: "فمن قال ليس لله علم، ولا قوة، ولا رحمة، ولا كلام، ولا يحب ولا يرضى ولا نادى ولا ناجى ولا استواء كان معطلاً جاحدًا، ممثلاً لله بالمعدومات والجمادات، ومن قال له علم كعلمي، أو قوة كقوتي، أو حب كحبي، أو رضا كرضاي، أو يدان كيدي، أو استواء كاستوائي، كان مشبهًا ممثلاً لله بالحيوانات بل لا بد من اثبات بلا تمثيل وتنزيه وبلا تعطيل"[١١٣].

واعتبر نفيهم لأسماء الله وصفاته من أعظم أسباب تكفيرهم؛ لجحدهم بها كما كفرهم الله بقوله: (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)[١١٤]. وأشار بواجب المسلم الإيمان بأسماء الله وصفاته كما أخبرنا بها في القرآن والسنة دون تكييف ولا تمثيل ولا تحريف، ولا تعطيل ودون السؤال عن كيفيتها وماهيتها[١١٥].

٣/٤-موقفه من النصيرية

عد ابن تيمية النصيرية أكثر كفرًا من اليهود والنصارى وأخطر من التتار والصليبيين، وأفتى بقتلهم واستباحة أموالهم، وتجريدهم من السلاح، وحرم الزواج منهم، وأكل ذبائحهم، وحرم دفنهم في مقابر المسلمين، والصلاة على موتاهم، وأمر بعدم تسليمهم المناصب العليا في الدولة الإسلامية خاصة الثغور والحصون[١١٦]، مُعللاً ذلك بتمكينهم الصليبيين والتتار من رقاب المسلمين وأراضيهم. ولم يقتصر موقفه بالإفتاء فقط، بل تعدى إلى أمر السلطان والمسلمين بمحاربتهم فيما عُرف بغزوة الجرد والروافض أو الكسراونين عام (٧٠٥هـ/١٣٠٥م)، فأرسل السلطان معه الأمير قراقوش ونائبه في دمشق جمال الدين الأفرم والجيش، وقاتلهم بعد رفضهم التوبة[١١٧].

أصاب ابن تيمية في محاربة النصيرية؛ فقد كانوا سببًا مباشرًا في احتلال الصليبيين لسواحل الشام وايذاء المسلمين من خلال تسليم المسلمين للتتار والصليبين، وقد برهن التاريخ صحة فتواه ضد النصيرية بعدم تنصيبهم في المناصب العليا للدولة الإسلامية، فقد كان أحد أبناء تلك الطائفة ويُدعى ابن العلقمي سببًا في احتلال التتار لبغداد واستباحة دماء المسلمين ثم بلاد الشام ومصر، وذلك بعد تقديم العون والمساعدة لهم[١١٨].

٤/٤-موقفه من الدروز

لم يختلف موقفه من الدروز كثيرًا عن النصيرية فقد اعتبرهم أعظم كفرًا من اليهود والنصارى وكفَّر من شك في كفرهم، وأفتى باستباحة أموالهم ودمائهم وعلمائهم، وأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمحاربتهم، وأفتى بُحرمة الأكل من ذبائحهم، والزواج منهم، والنوم عندهم، والمشي معهم، وتشييع جنائزهم، وتسليمهم مناصب عليا في الدولة

الإسلامية، كما بيَّن امتناعهم عن شعائر الإسلام الظاهرة كالصلاة، والصيام، والآذان، وغيرها[119].

وقد قدم ابن تيمية سببًا منطقيًا لمحاربته للنصيرية والدروز فقال:" وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين، وكان وزير هولاكو النصير الطوسي من أئمتهم وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين، وملوكهم، ثم الرافضة بعدهم فالرافضة يوالون من حارب أهل السنة والجماعة ويوالون التتار ويوالون النصارى وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغلمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة وقتل أهل بغداد ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر على المسلمين وكاتب التتار حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة ونهى الناس عن قتالهم وقد عرف العارفون بالإسلام أن الرافضة تميل مع أعداء الدين ولما كانوا ملوك القاهرة كان وزيرهم مرة يهوديًا ومرة نصرانيًا أرمينيًا وقويت النصارى بسبب ذلك النصراني الأرميني وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك الرافضة المنافقين وكانوا ينادون بين القصرين من لعن وسب فله دينار وأردب وفي أيامهم أخذت النصارى ساحل الشام من المسلمين حتى فتحه نور الدين وصلاح الدين وفي أيامهم جاءت الفرنج إلى بلبيس وغلبوا من الفرنج فإنهم منافقون وأعانهم النصارى والله لا ينصر المنافقين الذين هم يوالون النصارى فبعثوا إلى نور الدين يطلبون النجدة فأمدهم بأسد الدين وابن أخيه صلاح الدين فلما جاءت الغزاة المجاهدون إلى ديار مصر قامت الرافضة مع النصارى فطلبوا قتال الغزاة المجاهدين المسلمين وجرت فصول يعرفها الناس حتى قتل صلاح الدين شاور[120] ومن حينئذ ظهرت بهذه البلاد كلمة الإسلام والسنة والجماعة"[121].

٥/٤-موقفه من القلندرية

اكتفى بتكفيرهم، ووصفهم بالضلال، والفسوق، والفجور؛ لتأليههم شيخهم القلندري وامتناعهم عن اقامة شعائر الإسلام الظاهرة كالصلاة والصيام والحج[122].

مما سبق يتضح اختلاف موقف ابن تيمية من الفرق الدينية باختلاف فكر كل فرقة، فمثلاً حارب النصيرية والدروز وغزا أماكن إقامتهم وأفتى بقتل علمائهم وأعيانهم، وذلك لإيذائهم المسلمين ومعاونة التتار والصليبيين على حرب المسلمين، في حين اختلف موقفه من الفرق الأخرى باكتفائه بتكفيرهم وذلك بعد بيانه لهم الشريعة الإسلامية الصحيحة ومحاجتهم بالأدلة الشرعية والعقلية، كما فعل مع الرفاعية والصوفية والأشعرية والجهمية.

وهنا أورد رأي الكاتب الانجليزي في موقف ابن تيمية من الفرق الدينية حيث قال: "قدم ابن تيمية ارشادات حاسمة للمجتمع لكن بأسلوب جدلي، لكن تحت ذلك الأسلوب الجدلي يكمن موقف متوازن له حول وضع الطوائف اللاهوتية الإسلامية المختلفة، على عكس ما يمكن أن يتوقعه المرء من الشيخ المتعصب، الذي يصور ابن تيمية في مصادر اليوم الحالية، فقد اعتمد على مبدأ الأخذ بالاعتدال والفهم العميق"[123].

كما قال هنري لاوست في كتابه نظريات شيخ الإسلام في السياسة والاجتماع:" ينبغي أن ننسب ابن تيمية إذن إلى هذا التسامح القديم في موقفه من التكفير، ويمكننا أن نفهم ورعه بسهولة، إذ قام هو ذاته ببيان أسباب تكفير كل فرقة من الفرق على حدة"[124].

وبعد الاطلاع على موقفه من الفرق الدينية، تبين اصابة ابن تيمية في تكفيره لتلك الفرق واعتبارهم أعظم خطرًا من اليهود والنصارى؛ فهو لم يحكم على كفر عقيدتهم إلا بعد وضعها في ميزان العقيدة الصحيحة التي نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية واقامة الحجة عليهم-وافق ابن تيمية علماء الأمة في شروط التكفير والتي منها انكار وجود الله –عز وجل- وعدم الإيمان بالرسل والكتب والملائكة وانكار الجنة والنار ومخالفة النصوص القرآنية والسنية- فحافظ بذلك على وحدة الإسلام من التمزق والتشويه، فلا يُعقل أن ينقسم المسلمون إلى سنة وشيعة، وتنقسم الطائفتان إلى أكثر من فرقة، وجميعهم شوهوا صورة الإسلام كيفما أرادوا حتى أصبح الناس في عصر ابن تيمية يتبعون الطائفة المتقاربة من فكرهم المتناسبة مع هواهم، وقد أدى ذلك إلى تمزق وحدة المسلمين وتكالب الأعداء عليهم تارة من التتار، وتارة من الصليبيين، والأخطر من ذلك هو سيطرة أعداء الإسلام على بلاد المسلمين من خلال السماح لهم بالانتساب إلى الطائفة التي أرادوا أو حتى انشاء طائفة جديدة للإسلام تتناسب مع معتقداتهم وهواهم كادعاء التتار الإسلام مثلاً، وفي النهاية أدى ذلك كله إلى تمزق المسلمين، وأرى أن من أراد الانتساب للإسلام عليه الائتمار بما أمر الله ورسوله والابتعاد عما نهى عنه الله ورسوله؛ ليبرز دين الإسلام بصورته الحقيقية، كما أنه-رحمه الله- وضّح أسباب تكفيره لتلك الفرق، كل منها على حدة.

وأرى أنه علينا محاربة الطوائف والفرق المنتسبة للإسلام في عصرنا هذا فكريًا، كما حاربها ابن تيمية؛ للحفاظ على صورة الإسلام النقية، وعلى تلك الفرق الانتساب إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية وغيرهم، فلهم أن يختاروا ما شاءوا منها؛ لتقاربها مع فكرهم الضال المنحرف، وليتركوا الإسلام لأهله، لمن أحبه واقتنع به وأراد العمل بما جاء به ومخالفة ما نُهي عنه، فما جاءت تلك الفرق إلا لتشويه صورة الإسلام وإبعاد الناس عنه، فهو دين الرحمة والحب والسلام. وما زال أعداء الإسلام يدفعون بهذه الفرق إلى محاربة دين الله عز وجل، فكرًا وعقيدةً، وقتالاً.

خَاتِمَةٌ

يُعَدّ رأي ابن تيمية في الفرق الإسلامية سواء السنية أو الشيعية، ذات قيمة حقيقية جديرة بالدراسة والمناقشة، من أجل ذلك تم تقسيم الدراسة للنقاط التالية أولاً: ترجمة ابن تيمية. ثانيًا: تعريف الفرق الدينية الإسلامية في عصر ابن تيمية. ثالثًا: موقف ابن تيمية من الفرق الدينية الإسلامية السنية. رابعًا: موقف ابن تيمية من الفرق الدينية الإسلامية الشيعية. لذلك اتبع الباحث المنهج التاريخي التحليلي فوصلت الدراسة لنتائج وتوصيات مهمة وجديرة بالدراسة ومن أهمها أن ابن تيمية كفر الفرق الدينية الإسلامية الخارجة عن الشريعة الإسلامية بشكل واضح وصريح بل وضع ابن تيمية خطة كاملة لكيفية مواجهة هذه الفرق والقضاء عليها وتشمل الخطة جزء فكري علمي وجزء منها يعتمد على استخدام السلطان للقوة ضد هذه الفرق وبعد تكفير ابن تيمية للفرق الدينية الإسلامية، -المُخالفة للشريعة الإسلامية -بيّن الفرقة المؤمنة والناجية من عذاب الله، وهي من اتبعت التعاليم الدينية من مصادر الشريعة الإسلامية- القرآن الكريم والسنة النبوية- دون تحريف أو تغيير.

من خلال هذه الدراسة تبين أن ابن تيمية كفّر الفرق الدينية الإسلامية -المُخالفة للشريعة الإسلامية السنية والشيعية- وذلك بعد بيانه وسرده لعقائدهم المخالفة للشريعة الإسلامية، بشكل علني وصريح. وقد حارب ابن تيمية البدع والمنكرات التي انتشرت في عصره من قبل الفرق الدينية الإسلامية المُخالفة للشريعة الإسلامية، تارة بيده، وتارة بلسانه، وتارة بقلمه، وذلك بالاستناد إلى مصادر الشريعة الإسلامية إضافة إلى الأدلة العقلية. بعد تكفير ابن تيمية للفرق الدينية الإسلامية، -المُخالفة للشريعة الإسلامية -بيّن الفرقة المؤمنة والناجية من عذاب الله، وهي من اتبعت التعاليم الدينية من مصادر الشريعة الإسلامية-القرآن الكريم والسنة النبوية-دون تحريف أو تغيير.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن عبد الهادي، ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي شمس الدين. (د. ت). **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، تحقيق: محمد حامد الفقي، (د. ط). بيروت: دار الكاتب العربي. (ص ١٨)؛

(٢) الذهبي، **تذكرة الحفاظ** (ج٤/١٩٢) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايمْاز. (١٩٩٨م). **تذكرة الحفاظ**. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. الصفدي، **الوافي بالوفيات** (ج٧/١١) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (٢٠٠٠م). **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط. وتركي مصطفى، (د. ط). بيروت: دار إحياء التراث.

(٢) اختلفت كتب التراجم في سبب تسميته بابن تَيْمِيَّة، فمنهم من قال إنه اسم أم جده محمد بن الخضر وكانت واعظة، ومنهم من قال إن جده مر بطريق تيماء أثناء حجه فرأى طفلة حسناء، وكانت زوجته حاملاً، ولما عاد وجد زوجته وضعت بنتًا، ولما رآها قال: يا تَيْمِيَّة يا تَيْمِيَّة نسبة لتلك الطفلة، فسُمي بها، وترجح الدراسة أن تكون تلك الطفلة هي نفسها أم جده الواعظة. ابن المستوفي، تاريخ أربل (٩٧/١)؛ ابن عبد الهادي، العقود الدرية (ص١٨)؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات** (ج٧/١١)، وتَيْماءَ: على وزن فعلاء من أُمهات القرى، وهي بُليدة من توابع تبوك، بينها وبين الشام ثلاثة أيام، أبو عبيد البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (ج١/ ٣٢٩)؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (ج٢/٦٧). ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي. (١٩٩٥م). **معجم البلدان**. ط٢. بيروت: دار صادر.

(٣) ابن ناصر الدين، **الرد الوافر** (ج١/٤٦) ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي. (١٣٩٣). **الرد الوافر**، تحقيق: زهير الشاويش، ط١. بيروت: المكتب الإسلامي.

(٤) نسبة إلى بني نُمَيْر بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر من قبيلة هَوَازِن، ابن ناصر الدين، التبيان (ج١/ ١٩٠١)، ولتفرد ابن ناصر الدين في نسبة ابن تَيْمِيَّة لنُميْر، وأكدت بعض المصادر التاريخية تملك بنو نُمَيْر لحرَّان. ومن تلك المصادر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (ج٨/١٤٢) علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أبو الحسن عز الدين،

(١٩٩٧م). **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١. بيروت: دار الكتاب العربي؛ ابن خلدون، تاريخه (ج٤/٣٦٠) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي. (١٩٨٨م). **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، ط٢. بيروت: دار الفكر.

(٥) اتبع المذهب الحنبلي في صغره اقتداءً بوالده وجده من قبله، وجمع بين المذاهب الأربعة لما شبَّ. الصفدي، **أعيان العصر** (ج١/٢٣٤) خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين، (١٩٩٨م). **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، ط١. بيروت: دار الفكر المعاصر. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة** (ج١/١٦٨). ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. (١٩٧٢م). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط٢. الهند: مجلس دار المعارف العثمانية.

(٦) ابن كثير، **البداية والنهاية** (ج١٤/١٥٦). ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي. (١٩٨٨م). **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، ط١. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

(٧) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية** (ص١٨).

(٨) ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة** (ج١/١٦٨).

(٩) الذهبي، **تذكرة الحفاظ** (ج٤/ ١٩٢)؛ ٢٢. الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايمْاز. (١٩٩٨م). **تذكرة الحفاظ**. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ج٥/ ٦٨٧) أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين(١٤٢٣هـ). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، د.ت، ط١. أبو ظبي: المجمع الثقافي. الصفدي، **الوافي بالوفيات** (ج٧/ ١١)، ٢٦. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (٢٠٠٠م). **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط. وتركي مصطفى، (د. ط). بيروت: دار إحياء التراث. وقد ذكر ابن ناصر الدين الصفات الواجب توافرها فيمن يُطلق عليه شيخ الإسلام منها: اتباع كتاب الله والعمل به، والاقتفاء بسنة نبيه-صل الله عليه وسلم-علماً وعملاً، وإتقان أحكام القرآن ووجوه قراءته وأسباب نزوله، والقدرة على استنباط الأصول والفروع من الكتاب والسنة، مع اتقان اللغة العربية والتواضع لله تعالى، وقد توافرت تلك الشروط في شخص ابن تَيْمِيَّة فاستحق اللقب. ابن ناصر الدين، **الرد الوافر** (ج١/ ٢٢). ٤٠. ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي. (١٣٩٣هـ). **الرد الوافر**، تحقيق: زهير الشاويش، ط١. بيروت: المكتب الإسلامي.

(١٠) **حرّان**: هي مدينة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، تقع بين الرها والرقة، على طريق الموصل والشام والروم، سميت بهاران؛ نسبة إلى بانيها هاران بن آذر شقيق إبراهيم-عليه السلام- فُتحت في عهد عمر ابن الخطاب على يد عياض بن غنم بن زهير الفهري ١٩هـ/٦٤٠م، ومن الخطأ نسبته لحرَّان التي في حلب أو التي في غوطة دمشق. ابن الفقيه، **البلدان** (ج١/ ١٧٩) أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني، أبو بكر(١٩٩٦م). البلدان، تحقيق: يوسف الهادي. ط١. بيروت: عالم الكتب. ياقوت الحموي، معجم البلدان (ج٢/ ٢٣٥)؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (ج١/ ٣٨٩)، وتقع حاليًا في جنوب شرق تركيا، وتعرف باسم أورفة، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفي الدين(١٤١٢هـ). د.ت، ط١. بيروت: دار الجيل.

(١١) أجمع عدد من المؤرخين على مولده في العاشر من ربيع الأول منهم: الذهبي، **تاريخ الإسلام** (ج١٥/ ٤٩)؛ البزار، **الأعلام العلية** (ص ١٦)؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات** (ج٧/ ١١). في حين أضاف ابن عبد الهادي ولادته في الثاني عشر من ربيع الأول بجانب العاشر من الشهر نفسه، ابن عبد الهادي، **العقود الدرية** (ص١٨).

(١٢) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية** (ص١٩).

(١٣) المصدر السابق (ص١٨).

(١٤) الذهبي، **ثلاث تراج نفيسة للأئمة الأعلام** (ج١/ ٢٦-٢٧)، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايمْاز الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله (١٩٩٥م). تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، ط١. الكويت: دار ابن الأثير.

(١٥) البزار، **الأعلام العلية** (ص١٧). البزار، عمرُ بنُ عليٍّ بنِ موسى بن خليلِ البغداديُّ الأزجيُّ. (١٤٠٠هـ). **الأعلام العلَية في مَناقب ابن تيمية**، تحقيق: زهير الشاويش، ط٣. بيروت: المكتب الإسلامي.

(١٦) وتعرف بالكتب الستة أو كتب أمهات مصادر الحديث، وهي عبارة عن ستة كتب حديث عند علماء السنة، وتشمل صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسَّائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه.

(١٧) البزار، **الأعلام العلية** (ص١٨).

(١٨) يُعتبر من أشهر كتب الحديث، جعل كل عنوان في كتاب خاص به، بدأه بكتاب الطهارة، وأنهاه بكتاب السَّبَقِ بَيْنَ الْخَيْلِ. انظر الدارقطني، سننه (ج١/ ٤)، علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي، أبو الحسن(٢٠٠٤م). **سنن الدارقطني**، تحقيق: شعيب الارنؤوط، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة.

(١٩) ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة** (ج١/ ١٦٨).

(٢٠) البزار، **الأعلام العلية** (ص٢١).

(٢١) ابن الوردي، تاريخه (ج٢/٢٧٩)، عمر بن مظفَّر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعرّي الكندي(١٩٩٦م). **تاريخ ابن الوردي**، د.ت، ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. ومن أشهر قصائده: القصيدة اللامية في العقيدة، وقصيدة القدر، للاطلاع عليهما انظر: كتاب القصيدة التائية في القدر، وكتاب لامية ابن تيمية.

(٢٢) ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار** (ج٥/٦٩٦)؛ ٣٢. ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى القرشي العدوي شهاب الدين. (١٤٢٣هـ). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. ط١. أبو ظبي: المجمع الثقافي. ابن العماد، شذرات الذهب، (ج٨/ ١٤٣)، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح(١٩٦٨م). تحقيق: محمود الأرناؤوط. ط١. دمشق: دار ابن كثير.

(٢٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج٤/ ١١٠). ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (١٩٩٥م). **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (د. ط). السعودية: مجمع الملك فهد للطباعة.

(٢٤) المصدر السابق (ج٦/ ٦٣).

(٢٥) هوَ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ قَنْبَرٍ الْبَصْرِيُّ أبو بشر الملقب بسيبويه وتعني رائحة التفاح بالفارسية (١٤٨- ١٨٠هـ/٧٦٥-٧٩٦م)، فارسي الأصل، تعلم النحو عند الخليل بن أحمد الفراهيدي حتى أتقنه فعرف بإمام أهل النحو، كما برع في

اللغة العربية، ومن أشهر كتبه: كتاب سيبويه في النحو. أبو سعيد السيرافي، **أخبار النحويين البصريين** (ج١/٣٨)؛ المفضل بن محمد، **تاريخ العلماء النحويين** (ج١/ ١٠٩-١١٠)، المفضل بن محمد بن مسعر بن محمد التنوخي المعري، أبو المحاسن(١٩٩٢م). تحقيق: محمد عبد الفتاح الحلو، ط٢. القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

(٢٦) ابن الوردي، تاريخه (ج٢/٢٧٦)؛ ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة** (ج١/ ١٧٨).

(٢٧) الذهبي، تاريخ الإسلام (ج١٥/٤١٨). الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز.(٢٠٠٣م). **تاريخ الإسلام**، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

(٢٨) لم تجد الباحثة تاريخ ميلاد والدته، وترجح الباحثة ميلادها في حدود عام ٦٤١هـ/١٢٤١م؛ وذلك لأن المصادر التاريخية ذكرت أنها عاشت سبعين عامًا، وبطرح سبعين عامًا من تاريخ وفاتها يتضح ولادتها في حدود عام ٦٤١هـ/١٢٤١م. ابن كثير، **البداية والنهاية** (ج١٤/٩٠).

(٢٩) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية** (ص ٢٨)؛ شمس الدين الذهبي، **ثلاث تراجم نفيسة** (ج١/ ٢٧)؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار** (ج٥/ ٧٠٢).

(٣٠) الكلاباذي، **التعرف لمذهب أهل التصوف** (ج١/ ٢١-٢٣). الكلاباذي، محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب، أبو بكر. (د. ت). التعرف لمذهب أهل التصوف. (د. ط). بيروت: دار الكتب العلمية.

(٣١) المقريزي، **الخطط** (ج٤/ ٢٨١)، المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي. (١٤١٨هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ط١. بيروت، دار الكتب العلمية. للاستزادة عن معتقداتهم انظر كتاب تلبيس ابليس لابن الجوزي.

(٣٢) هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى أبو الحسن الأشعري، ولد ما بين عامي ٢٦٠-٢٧٠هـ/٨٧٤-٨٨٣م، مر خلال فترة حياته بثلاث مراحل: كان معتزلاً ثم كلابيًا ثم انتسب لمذهب أهل السنة، من مؤلفاته: كتاب الإبانة عن أحوال الديانة، وكتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. البغدادي، **تاريخ بغداد** (ج٣/ ٢٦٠) أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي المعروف بالخطيب(١٤١٧هـ). تحقيق: عبد القادر عطا، ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

(٣٣) الشهرستاني، **الملل والنحل** (ج١/ ٩٤-٩٧). الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد، أبو الفتح. (د. ت). الملل والنحل. (د. ط). مؤسسة الحلبي.

(٣٤) هو الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، أَبُو مُحْرِزٍ الرَّاسِبِيُّ مَوْلاهُمُ السَّمَرْقَنْدِيّ، توفي عام ١٣٠هـ/٧٤٨م، أجمعت كتب التراجم على كفره وضلاله وزندقته، فقد ترك الصلاة بحجة أنه لا يعرف لمن يُصلي، كما نفى صفات الله وأسماءه وأنكر الجنة والنار. الذهبي، ديوان الضعفاء (ج١/ ٦٧)؛ الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (١٩٦٧م). **ديوان الضعفاء والمتروكين**، تحقيق: حماد بن محمد الأنصاري، ط٢. السعودية: مكتبة النهضة الحديثة. تاريخ الإسلام (ج٣/ ٣٨٩).

(٣٥) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق (ج١/ ١٩٩-٢٠٠)؛ البغدادي، عبد القاهر طاهر بن محمد بن عبد الله التميمي الأسفراييني. (١٩٧٧م). **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**. ط٢. بيروت: دار الآفاق الجديدة الشهرستاني، الملل والنحل (ج١/ ٨١-٨٨).

(٣٦) هو محمد بن نصير البكري الفهري النميري، اعتقد أن روح الله حلت في علي بن أبي طالب وأنه لم يمت وسكن السحاب، والرعد صوته، والبرق ضحكه، واعتقد أن روح الله حلت بعد علي في الحسن، ثم الحسين، ثم زين العابدين بن الحسين، إلى أن حلت في الحسن العسكري ثم محمد بن نصير فيما عُرف بتناسخ الأرواح. النوبختي، **فرق أهل الامامة** (ص٨٧).

(٣٧) ابن تيمية، النصيرية (ص١٣-١٨)؛ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (د. ت). النصيرية. ط١. الرياض: دار الافتاء. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (د. ت). **النصيرية**. ط١. الرياض: دار الافتاء. ابن بطوطة، (ج١/ ٢٩١)، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله (د.ت). د.ت، د.ط، د.م: دار الشرق العربي.

(٣٨) ابن كثير، **البداية والنهاية** (ج٤/ ٩٥).

(٣٩) محمد بن إسماعيل الدرزي أبو عبد الله المعروف ب "نشتكين الدرزي" (٤١١هـ/١٠٢٠م) فارسي الأصل، سافر إلى مصر خلال حكم الحاكم بأمر الله العبيدي، آمن بتناسخ الأرواح فاعتقد أن روح الله –عز وجل- انتقلت إلى الحاكم بأمر الله. الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (ج١٥/ ١٣٥).

(٤٠) منصور بن نزار العزيز باللَّه بن معد بن إسماعيل بن محمد العبيدي، أبو علي، الحاكم بأمر الله (٣٧٥ – ٤١١هـ /٩٨٥ - ١٠٢١م) أحد حكام الدولة العبيدية في مصر، ادعى الربوبية، أمر بسب الصحابة، له طباع غريبة منها: حرمان الناس من أكل الملوخية والسمك، وبيع البلح، ومنع النساء الخروج إلى الشارع، كما أمر في احدى السنوات بقتل الكلاب، هدم عدة كنائس ثم أعاد اعمارها. الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج١٥/ ١٧٣-١٧٦)؛ الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (١٩٨٥م). **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط٣. بيروت: دار الرسالة. تاريخ الإسلام (ج٩/ ١٩٨).

(٤١) القلقشندي، **صبح الأعشى** (ج١٣/ ٢٥٢)، للمزيد انظر كتاب **حقيقة الدروز لزيد الفياض**، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (د.ت). د.ت، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية.

(٤٢) البغدادي، الفرق بين الفرق (ج١/ ٩٣-٩٤)؛ النووي، شرح حديث مسلم (ج١/ ١٥٤)، محيي الدين يحيى بن شرف النووي أبو زكريا(٢٠٠٩م). **الأربعون النووية**، تحقيق: محمد نورس الحلاق وآخرون، ط١، بيروت: دار المنهاج للنشر والتوزيع. الجرجاني، التعريفات (ص١٧٤)، علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني (١٩٨٣م) **كتاب التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء، ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

(٤٣) ابن العماد، **شذرات الذهب** (ج٦/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٤٤) انظر الأسناوي، أبو الفضل، الطرق الصوفية في مصر.

(٤٥) الغزالي، فضائح الباطنية (ج١/ ١٦)، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد(د.ت). تحقيق: عبد الرحمن بدوي، د.ط. الكويت: دار الكتب الثقافية. ابن تيمية، مناهج السنة (ج١/ ١٠). ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (١٩٨٦م). **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق: محمد

رشاد سالم، ط1. السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(٤٦) هو الجلال الساوجّي محمد بن يونس، حلق لحيته ورأسه وحاجبيه عام (٦٢٠هـ/١٢٢٠م)، واتبعوه الناس في ذلك فعرفوا "بالقلندرية"، توفي في دمياط عام (٦٣٠هـ/١٢٣٠م). المقريزي، المقفى الكبير (ج٧/ ٢٨١)، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي(٢٠٠٦م). المقفى الكبير. تحقيق: محمد اليعلاوي، ط٢. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

(٤٧) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٣٥/ ١٦٣-١٦٤)؛ ابن كثير، **البداية والنهاية** (ج١٤/ ٣١٤).

(٤٨) من خرم وهو لفظ أعجمي، لُقب به المزدكية وهم أهل الاباحة من المجوس، قاتلهم الخليفة العباسي المعتصم بالله. الغزالي، **فضائح الباطنية** (ج١/ ١٢-١٥).

(٤٩) عبد القاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق** (ج١/ ٢٦٧).

(٥٠) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج١١/ ١٩٥).

(٥١) الجوهري، الصحاح (ج٤/ ١٣٨٨)؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد الفارابي، أبو نصر. (١٩٨٧م). **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط1. بيروت: دار العلم للملايين. الفيومي، المصباح المنير (ج١/ ٣٥٢)؛ عمر، أحمد مختار، **معجم اللغة العربية المعاصرة** (ج٢/ ١٣٣٦-١٣٣٧)، أحمد مختار عبد الحميد عمر(٢٠٠٨م). معجم اللغة العربية المعاصرة، د.ت، ط1. بيروت: عالم الكتب.

(٥٢) [الأنعام: ١٥٣].

(٥٣) ابن تيمية، السماع (ص٢٦). ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (١٩٨٨م). **حكم السماع**، تحقيق: حماد سلامة، ط1. الأردن: مكتبة المنار.

(٥٤) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٢/ ١١٧).

(٥٥) المصدر السابق (ج٢/ ٢٢٠).

(٥٦) [النساء: ٦٩].

(٥٧) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٢/ ٢٢٠).

(٥٨) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٢/ ٢٢٠)؛ الصفدية (ج١/ ٢٤٧-٢٤٩).

(٥٩) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج١١/ ٥٨١).

(٦٠) المصدر السابق (ج١١/ ١٨).

(٦١) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج١٣/ ٩٩).

(٦٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل (ج٢/ ١٠٢). ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (١٩٩١م). **درء تعارض العقل مع النقل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط٢، المملكة السعودية: جامعة الإمام سعود.

(٦٣) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٤/ ١٢).

(٦٤) المصدر السابق (ج٦/ ٥٢).

(٦٥) ابن تيمية، **درء تعارض العقل** (ج٢/ ٣١١).

(٦٦) السبكي، **طبقات الشافعية** (ج١٠/ ٣٤٢). السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين. (١٤١٣هـ). طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، ط٢. القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٦٧) طبقات الشافعية (ج١٠/ ١٩٤).

(٦٨) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٣/ ١٧-١٨).

(٦٩) ابن تيمية، **الرسالة الأكملية** (ص٧). ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (١٩٨٣م). الرسالة الأكملية. (د. ط)، السعودية: مطبعة المدني.

(٧٠) ابن تيمية، التدمرية(ص٢٦-٣٢)، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله(٢٠٠٠م). التدمرية، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، ط٦. الرياض: مكتبة العبيكان.

(٧١) ابن عبد الهادي، العقود الدرية ص٢٦٨).

(٧٢) ابن تيمية، السماع (ص٥٩).

(٧٣) النارنج: هو شجرة مثمرة، لها رائحة عطرة، عصارتها حمضية مرّة وتستعمل أزهارها في صنع مَاء الزهر وَفي زَيْت طيار يسْتَعْمل في العطور. مَجموعة من المؤلفينَ، المعجم الوسيط (ج٢/ ٩١٢-٩١٣).

(٧٤) حجر الطلق: منه المائي والجبلي البحري، وهو يتصفح إذا دقّ صفائح بيضا دقاقا لها بصيص وبريق. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ج٢٢/ ٢٦٦).

(٧٥) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج١١/ ٤٦٥).

(٧٦) ابن تيمية، **السماع** (ص٢٨).

(٧٧) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية** (ج١/ ٢١٠-٢١١)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (ج١٤/ ٤١).

(٧٨) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية** (ج١/ ٢١٠-٢١١).

(٧٩) ابن كثير، **البداية والنهاية** (ج١٤/ ٤١).

(٨٠) ابن تيمية، **السماع** (ص٦١).

(٨١) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج١١/ ٤٤٩-٤٥٠).

(٨٢) المصدر السابق (ج١١/ ٤٥٥).

(٨٣) لم أجد له ترجمة في كتب التراجم، هو سيف الدين قبجق المنصوري، من أمراء المماليك، وتولى نيابة دمشق عام ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م. ابن كثير، البداية والنهاية (ج١٣/ ٤١٥).

(٨٤) هو بدرُ الدّين الصّالحيّ، توفي عام ٦٨٧هـ/ ١٢٨٧م، من أمراء الألولف، عُرف بالايدمري، الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج١٥/ ٥٩٠).

(٨٥) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج١١/ ٤٥٨).

(٨٦) المصدر السابق (ج١١/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٨٧) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج١١/ ٤٦٨).

(٨٨) أبوحميد، أحمد، نظرية الضفدع المغلي (١٩أبريل ٢٠١٩م). موقع بريد تلمسان.

(٨٩) يهودي من صنعاء، بعد إسلامه ادعى الألوهية في علي بن أبي طالب، وتبرأ من الخلفاء الراشدين. ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (ج١/ ٢٣).

(٩٠) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو الحسين (٧٥–١٢٠هـ/٦٩٤-٧٣٨م) إليه تُنسب الفرقة الزيدية، قال عنه أبو حنيفة:" ما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا". الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج٥/ ٣٨٩-٣٩١).

(٩١) سموا بالخشبية؛ لقتالهم بالخشب وامتناعهم عن القتال بالسيف. الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء (ج١/ ١٦٤).

(٩٢) الجري: نوع من أنواع الأسماك، والمرماهي: سمك يشبه الحيات. ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (ج١/ ٢٦).

(٩٣) السعفة: هي غصن النخل، ابن منظور، لسان العرب (ج١/ ٧٨١)، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى(١٤١٤هـ). لسان العرب، د.ت، ط٣. بيروت: دار صادر.

(٩٤) ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية** (ج١/ ٢٢-٣٣). ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي محمد عبد الله. (١٩٨٦م). **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط1. السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٩٥) ابن تيمية، **منهاج السنة** (ج١/ ٣٩).
(٩٦) [البقرة: ١٩٦].
(٩٧) [الأعراف: ١٤٢].
(٩٨) ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية** (ج١/ ٤٠)؛ [الفجر: ١-٢].
(٩٩) ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية** (ج١/ ٤٢-٤٣).
(١٠٠) يؤمن المسلمون بخروج المهدي المنتظر وأن ظهوره من علامات قيام الساعة، لكنهم اختلفوا بأنه وُلد أم سيولد، فيعتقد الشيعة بأنه وُلد وهو إمامهم محمد بن الحسن العسكري الذي دخل في سرداب سامراء ولم يخرج منه إلى يومنا هذا، في حين يعتقد أهل السنة بأنه لم يولد بعد، ويؤمن أهل السنة بما أخبر به النبي من أوصاف المهدي، وخروجه بعد ملأ الظلم في الدنيا وابداله بالعدل. عبد القاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق** (ج١/ ١٧)؛ ابن حزم الأندلسي، **الفصل في الملل والنحل** (ج٤/ ١٣٨)، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، الظاهري(د.ت). د.ت، د.ط. القاهرة: مكتبة الخانجي.
(١٠١) ابن تيمية، **منهاج السنة** (ج١/ ٤٤-٤٦).
(١٠٢) حِلْسَ: وهو الشيء يلزم الشيء، والمقصود به هنا البعير. ابن فارس، مقاييس اللغة (٢/ ٩٧).
(١٠٣) ابن تيمية، **منهاج السنة** (ج١/ ٤٩-٥٠).
(١٠٤) المصدر السابق (ج١/ ٥١-٥٢).
(١٠٥) ابن تيمية، **منهاج السنة** (ج١/ ٥٢-٥٥).
(١٠٦) هو: لوط بن يحيى، معروف بالكذب والتدليس والضعف وعدم الثقة. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان (ج٦/ ٤٣٠).
(١٠٧) هو: هشام بن محمد بن السائب، ينقل عن أبي مخنف، ومعروف بالكذب والتدليس والضعف. ابن عدي الجرجاني، **الكامل في ضعفاء الرجال** (ج٨/ ٤١٢)؛ الذهبي، **ميزان الاعتدال** (ج٤/ ٣٠٤-٣٠٥).
(١٠٨) ابن تيمية، **منهاج السنة** (ج١/ ٥٩).
(١٠٩) ابن تيمية، **منهاج السنة** (ج١/ ٢٢-٢٣).
(١١٠) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٧/ ٥٠٥).
(١١١) ابن تيمية، الإيمان (ج١/ ١٢١)، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تقي الدين أبو العباس(١٩٩٦م). الإيمان. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط٥، عمان: المكتب الإسلامي. [التوبة: ٧٢].
(١١٢) ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية (ج١/ ٣٧٢).
(١١٣) ابن تيمية، التدمرية (ص٣٠).
(١١٤) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٥/ ١٩٧)؛ [الرعد: ٣٠].
(١١٥) ابن تيمية، التدمرية (ج١/ ٧).
(١١٦) ابن تيمية، النصيرية (ج١/١٥-٢٤).
(١١٧) ابن عبد الهادي، **العقود الدرية** (ج١/ ١٩٥-١٩٧)؛ المقريزي، **السلوك** (ج٢/ ٣٨٤-٣٨٥)، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي(١٩٩٧م). **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.
(١١٨) وحديثًا رأينا كيف قدم أبناء تلك الطائفة من آل الأسد في سوريا الجولان "لإسرائيل" على طبق من ذهب، وكيف عاث بشار الأسد فسادًا وخرابًا وقتلًا للمسلمين وأطفالهم في سوريا بصفته رئيسًا للجمهورية وذلك بالتحالف مع روسيا وإيران ضد المسلمين، ومن قبله جد أبيه سليمان الأسد الذي طلب من فرنسا البقاء في سوريا لإبادة المسلمين السنة.
(١١٩) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٣٥/ ١٦١-١٦٢).
(١٢٠) هو: شاوَر بْن مجير بْن نزار بْن عشائر، السّعديّ الهَوَازنيّ، أبو شجاع، وزير مصر، قتله صلاح الدين؛ لتعاونه مع الصليبيين عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٦م. الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (ج٢٠/ ٥١٤).
(١٢١) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (ج٢٨/ ٣٦٣-٣٧٣).
(١٢٢) المصدر السابق (ج٣٥/ ١٦٣-١٦٥).
(123) Ssekarnanya، Ibn Taymiyyah on the hadith of the 73 sects (p.43. Ssekarnanya، Abdallah. (2006). Ibn Taymiyyah on the hadith of the 73 sects.
(١٢٤) لاوست، نظريات شيخ الإسلام في السياسة والاجتماع (ج١/ ١٧٤)، لاووست، هنري (١٩٧٩م). نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، ط١. القاهرة: دار الأنصار.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الموريسكيون وإعادة الانتشار: الظروف والمآلات
المجال المغاربي نموذجًا



د. محمد الغزواني

دكتوراه في التاريخ الحديث

كلية الآداب – جامعة ابن طفيل

القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

ارتبط سياق تداول تسمية "الموريسكوس 'LOS MORISCOS' باللحظة التي أعقبت سقوط إمارة غرناطة سنة ١٤٩٢م حين تأكد للمسلمين والمخالفين لهم بزوال السلطة السياسية والدينية للخلافة الاسلامية بجزيرة الأندلس، وبمجرد ما أن ساد هذا الاعتقاد، سارعت محاكم التفتيش إلى التنكيل والقتل وملاحقة كل من يحاول المقاومة ويشجع على الصمود والثبات. فهذه الطائفة التي وصفت ظلما بالموريسكية، لم تنتهي معاناتها مع لحظة السقوط الرسمي لآخر معاقل مسلمي الأندلس، بل عظمت معاناتها وازدادت أكثر بعد السقوط وصولاً إلى لحظة الخروج والرحيل، وما بين السقوط والاقتناع بالرحيل بعد صدور قرار الطرد الأخير خلال القرن السابع عشر الميلادي، ذاق الموريسكيون مختلف صنوف التعذيب والإهانة والبطش والقتل، فكان خيارهم الأخير هو الهجرة. اختلف الموريسكيون أفرادًا وجماعات حول وجهات الرحيل حين اقتنعوا بأن الهجرة هي الحل، فمنهم من توجه نحو أقطار أوربية، والآخر فضل بلاد الاسلام على بلاد الكفر، إلا أن المجال المغاربي نال حصة الأسد لأسباب متعددة في مقدمتها القرب الجغرافي الذي جنبهم عدة مخاطر، إذ غالبًا ما كانت الأسر التي تقصد أماكن بعيدة، تتعرض للقتل والسرقة، السبب الثاني يتمثل في عنصر المصاهرة والعلاقات التي نسجها سكان العدوتين منذ زمن طويل مع بعضهم البعض. ساهم موضوع الهجرة في إعادة انتشار الموريسكيين بالمجال المغاربي من جديد، فاختلفت خريطة الانتشار حسب ظروف وطبيعة كل قطر مغاربي. ولم يمر سوى وقت قصير على هذا التوطين الموريسكي ببلاد المغارب، حتى بدأ التأثير الموريسكي يتكشف في المدن والبوادي، وبدا واضحًا في السياسة والاقتصاد والفن والثقافة والمعمار وغيرها من المجالات الأخرى التي بصمها الموريسكيون ونقشوا حضاراتهم عليها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	سبتمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٢	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الموريسكيون؛ الأندلسيون؛ غرناطة؛ بلاد المغارب؛ المجال المغاربي؛ المغرب الأقصى؛ المغرب الأوسط؛ إفريقية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.204423

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد الغزواني، "الموريسكيون وإعادة الانتشار (الظروف والمآلات): المجال المغاربي نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٠٥ – ١١٣.

Corresponding author: mohamed81elghazouani@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

لم تكن الظروف الصعبة لمسلمي الأندلس تنتهي بزوال سلطتهم السياسية أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وسقوط آخر قلاعهم بيد إسبانيا، بل إن ظروفا أصعب وأكبر من ذلك أخذت تلوح في الأفق، إنها مأساة من بقي منهم هناك وعاش ظروف الاضطهاد والتعذيب والتنصير. فمحاكم التفتيش كانت تأخذ كل من له صلة بالإسلام أو يضبط متلبسًا يؤدي شعيرة من الشعائر، أو يترسم عادة من العادات. هذا الواقع المر الذي أخذ يزداد، دفع طائفة كبيرة من أهل الأندلس إلى إظهار النصرانية وإبطان الإسلام وإخفاء كل ما له علاقة بالعقيدة الإسلامية، فنعت هؤلاء باسم (LOS MORISCOS) الموريسكيين[١].

أضحت هذه الطائفة من المسلمين، منذ انهيار سلطة المسلمين بجزيرة الأندلس، مغلوبة على أمرها، بل وتعيش تحت سلطة أجنبية لم تكن مألوفة لها من قبل. لن نتحدث هنا عن وضعية حديثة أصبح فيها العالم الإسلامي تحت الهيمنة الأجنبية، فهذه وضعية معاصرة صارت معروفة ومدروسة، بل سنختار وضعية أقدم من ذلك، وضعية اهتم بها المؤرخون الأجانب على الخصوص، والعرب بشكل عام، وهي وضعية الموريسكيين بالأندلس قبل وبعد الطرد. فما هي الظروف التي عايشتها الطائفة الموريسكية بجزيرة الأندلس خاصة بعد انهيار سلطة المسلمين هناك إبان أواخر القرن الخامس عشر؟ وكيف تعامل الموريسكيون مع الظروف التي أعقبت زوال سلطتهم السياسية وتراجع نفوذهم الديني؟ وما الخيارات التي أتيحت لهم في ظل هذه الظرفية التي أصبحوا يعيشونها؟ وما حجم التأثير الذي خلفته الطائفة الموسكية داخل الأقطار المغاربية عقب قرار الطرد والهجرة؟

يفرض هذا الموضوع في بداية الأمر التركيز على الإطار العام الذي ميز وضعية الموريسكيين بالأندلس عقب سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، وما ترتب عن ذلك من انعكاسات على هذه الطائفة. ويبقى الهدف من الرجوع إلى هذا السياق التاريخي، الوقوف أولاً على أسباب الطرد وظروف الهجرة، وصولا إلى ظاهرة الانتشار الموريسكي في المجال المغاربي. كما سنحاول من خلال هذه الإضافة التي نسعى إليها في الموضوع، إحياء جانب من الذاكرة الموريسكية، نظرًا لأهمية دورها التاريخي الذي قامت به في هذه الأقطار المغاربية، وخاصة في كل ما يتصل بتأثيراتها الحضارية وحضورها القوي داخل هذه الأقطار وفي مجالات شتى.

أولاً: السياق التاريخي العام لوضعية الموريسكيين في الأندلس لحظة سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م

شكل سقوط إمارة غرناطة من الناحية التاريخية، حدًا فاصلاً بين حضارتين إنسانيتين في إسبانيا: حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الضعف والانهيار لسنوات، ولأسباب موضوعية قادتها إلى ذلك، وحضارة غربية مسيحية أخذت تكتسح كل شيء، وتفرض إيقاعها وتفوقها على الجميع، معتمدة في ذلك على كل ما يضمن النجاح ويحقق فرص القوة والسيطرة. وبين الحالة الأولى والثانية، نشأت مأساة مسلمي الأندلس، حيث أكرهوا على التنصير، وصارت الأندلس نصرانية، ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهرا، إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس.[٢]

عان الاندلسيون المسلمون عامة، والموريسكيون على وجه التخصيص كثيرًا جراء السياسة التي نهجها الملوك الإسبان ضدهم. بل ولحقهم من الاضطهاد والأذى على يد كاتوليكي غرناطة الكثير، نتيجة الأحكام القاسية التي كان قد أصدرها الملك شارل الخامس أوائل القرن السادس عشر الميلادي في حق الموريسكيين لكثرة ثوراتهم، فاتخذ ذلك سببًا للضغط والتشديد عليهم، خشية أن يقوم منهم قائم جديد. وقد اختار لهذه الغاية، شخصيات مهمة مارست ضغوطات كثيرة ومتنوعة على هؤلاء. وتعد محاكم التفتيش أهم سلطة مارست تلك الضغوط وبأشكال متنوعة وأساليب مختلفة. تمثلت الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين، والمعاقب عليها من قبل محاكم التفتيش في الوضوء والصلاة، والصوم والاحتفال بيوم الجمعة، والامتناع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير. وتبعا لذلك أصبحت محاكم التفتيش، تتابع الموريسكيين بصرامة، ففي الوصية التي تركها فرناندو الكاتوليكي لشارل الخامس، نجده يأمره بصرامة اختيار محققين أكفاء، ومخلصين للإيمان الكاتوليكي، لتضييق الخناق على طائفة محمد.[٣]

حاول المرسكيون أن يجاهدوا مصيرهم بإسبانيا، وظلوا لسنوات عديدة يعيشون تحت وطأة سلطة محاكم التفتيش، لكنهم لم يستسلموا، بل ظلوا إلى آخر لحظة من وجودهم بالأندلس، معتزين بتراثهم الحضاري، ويقاومون كل تغيير من أجل المحافظة عليه. وعلينا أن نشير إلى أن مقاومتهم لم تكن اعتباطية ولا ظرفية، بل كانت دائمًا تجري في ظل معطيات محددة في الزمان والمكان. فهم كانوا على اتصال دائم بالمغرب

وبالأتراك وحتى بالفرنسيين من أجل تنفيذ مخططاتهم، ولنا أن نتساءل عن ماذا أثمرت تلك الاتصالات؟

تدويل القضية المورسكية لم يسفر عن شيء ولم يحقق ما كان يرغب فيه المورسكيون، لكن ذلك أدى على الأقل إلى إحساسهم بأنهم ليسوا وحدهم، بل هناك من يهتم بقضيتهم ويتفاعل معها. لقد جعلهم هذا الإحساس -وإن كان في البداية – يواصلون مواجهاتهم، وهم على ثقة من أن وجودهم بجزيرة الأندلس قد يعود لهم يومان، إلا أنهم لم يكونوا مدركين لطبيعة التحولات التي كان يشهدها المجال المتوسطي، والتي بدأت معالمها تتشكل منذ القرن الخامس عشر، ولسوء الحظ تلك التحولات لم تكن في مصلحة العرب والمسلمين.

اقتنع المورسكيون مع مرور الوقت، وفي لحظة متأخرة بهذه التحولات، فخلصوا إلى ضرورة الاعتماد على النفس، فالأطراف التي علقوا آمالهم عليها وطلبوا منها المساعدة، كانت لها ظروفها الداخلية ومشاكلها الخاصة. فالضغط المتزايد عليهم من الداخل وتخلي الأطراف الخارجية عنهم، دفعهم إلى التفكير في الهجرة إلى مكان آخر قد يوفر لهم استقرارًا آمنًا، وهكذا وجدوا في الشمال الإفريقي حيث بلاد المغرب الكبير الملاذ الآمن للنجاة بدينهم وحريتهم، ومنهم مَنْ اعتبر تلك الهجرة فرصة للنجاة ورص الصفوف والشروع في الانتقام ورد الاعتبار، والبعض الآخر شبهها بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وأن العودة إلى الأصل مجرد وقت.(٤)

ثانيًا: موقف المورسكيين من الهجرة وإعادة الانتشار

أثار موضوع الهجرة بين الصفوف المورسكية مواقف متضاربة، فمنهم من عارض مسألة الهجرة إلى أي قطر آخر خارج بلاد الأندلس، وألح هذا الفريق على ضرورة البقاء بإسبانيا، إيمانا منهم بأن قضيتهم ستحل يومًا، وأن الأزمة والمعاناة التي يمرون بها ظرفية. فتشبثهم بهذا الموقف دفعهم أن عرضوا على ملك إسبانيا من خلال النبلاء والسادة ونائبه في بلنسية مبالغ مالية كبيرة، كما عرضوا عليه كذلك أن يفتدوا الأسرى الذين كانوا بأيدي مجاهدي البحر المغاربة والأتراك مهما كان الثمن، وفي الأخير قدموا عرضا تمثل في عملهم داخل السفن مقابل بقائهم، لكن الملك رفض كل تلك العروض.(٥)

أما الفريق الثاني منهم فقد قبل بالفكرة ورحب بها، واعتبر النفي والطرد هو فرج من الله، وهذا الموقف المورسكي نستخلصه من بعض المصادر المورسكية، التي تناولت هذا الجانب، حيث يذكر بن الرفيع في هذا الصدد قائلاً: "ولا يخفى أن أهل هذا الأمر عظيم ومحال عادة، لما كنا فيه معه من الشدة والضيق في النفس والدين والمال فسبحان رب السماوات والأرض الذي إذا أراد أمرًا قال له كن فيكون، فيالها من أعجوبة أعظمها ومن فضيلة أشرفها".(٦) ويزيد مورسكي آخر استقر بتونس قائلاً: "الحمد لله الذي انتزعنا من أيدي هؤلاء الكفرة، فقد كان الحقد يزداد، وإلا تابعتنا محاكم التفتيش، وانتزع منا أبناؤنا، وانتهبت أموالنا، ومست أعراضنا، وفي لحظة خاطفة كنا نجد أنفسنا في السجن مظلم كظلمة أغراضهم الدنيئة... ولهذا كنا نطلب من الله تعالى باستمرار أن يزيل عنا هذا الكرب ويسهل لنا أمر الخروج إلى دار الإسلام... وظل الأمر كذلك إلى أن أوحى الله تعالى إلى فليب الثالث بإخراجنا من إسبانيا".(٧)

وبالعودة إلى مخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع "نجد أن طائفة كبيرة من المورسكيين اختاروا الهجرة والانخراط في مشروع الجهاد البحري ضد الإسبان انتقامًا لما عانوه منهم، وحول هذا الموضوع يحدثنا صاحب "العز والرفعة" قائلاً: "وفي الزمن الذي أمر سلطان النصارى بإخراج جميع الأندلس من بلاده كنت مسجونا من أجل ما وقع لي مع بعض النصارى على أمور راجعة إلى دعوي النفس بالشجاعة، وكان لي من أكابرهم من يعينني ويصاحبني حتى خلصني لله من السجن، فأردت الخروج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس ومنعوني من ذلك تم أنفقت دراهم في الرشوات وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس حرسها الله فوجدت فيها كثيرًا من الأصحاب والأحباب من الأندلس وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي رحمه الله تعالى وقدمني على مائتين رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطانية ومائتي مُكْحُلَة ومائتين سكينا وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر، وركبنا بأصحابنا في سفنه ولم تَجُزْ إلا نحو الستة أشهر ومات رحمه الله، وبعد موته بقليل رجعنا إلى تونس بغنيمة قليلة وأنا مجروح من حرب الأعداء حتى أشرفت على الهلاك. وبعد أن بَرَيْتُ (تماثلت للشفاء) ركبنا أيضًا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم، ونحن بغرب مدينة مالقة وهي على حاشية هذا البحر الصغير تلقينا (التقينا) بإحدى عشر غَرَّابًا(زورقا)، وذلك في نصف شهر غشت، والبحر ساكن ولا شيء من الريح، ووقع الحرب الشديد ومات من الجانبين خلق كثير..."(٨)

لا يجب أن نفهم من هذا الموقف على أنه موقفًا استسلاميًا، فقد كانوا يعتبرونه مرحليا فقط الغرض منه الالتجاء إلى الاتراك لاسترجاع ما ضاع منهم. وهذا ما سجله

الرهبان الإسبان الذين قادوا عمليات الطرد، إذ صرح أزنار كاردونا Aznar Cardona قائلاً: "الموريسكيون كانوا يخرجون وهم يهددون الإسبان بأنهم سيرجعون بمساعدة الأتراك لإعادة الاسم إلى إسبانيا".[٩] فضل جل الموريسكيين الهجرة إلى المجال المغاربي، نظرًا لقربه الجغرافي من بلاد الأندلس، ولكون جزء كبير من جغرافية هذا المجال كانت تابعة للنفوذ العثماني الذي كان موقفه يتناغم مع موقف الطائفة الموريسكية. لكن قبل توضيح ظروف هذه الهجرة لابد في البداية من تناول الموقف السياسي العثماني من حدث الهجرة الموريسكية.

ثالثًا: موقف الإيالات العثمانية المغاربية من الهجرة

في البداية سنعرج على الموقف الرسمي للعثمانيين من قضية الهجرة، على اعتبار أن جزء كبير من المجال المغاربي منذ أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، كان خاضعًا للنفوذ العثماني. فالعثمانيون كانوا على علم بقضية الموريسكيين، عن طريق عدد من المراسلات التي كانت ترد إليهم سرًا، وكذلك بفضل عدد آخر من الوسطاء أمثال Jeronimo Enriguez.[١٠] لكن الذي يستدعي انتباهنا أكثر هو المساعي التي قام بها السلطان العثماني، أحمد الأول لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية لمساعدة الموريسكيين بتسهيل تحويلهم إلى الأراضي العثمانية.[١١] وفي ذلك إشارة صريحة إلى أن الموقف العثماني من الهجرة كان موقفًا مساندًا للموريسكيين الذين فظلوا الهجرة خاصة إلى مناطق نفوذهم، إذ أبدى العثمانيون تأييدهم لذلك وفتحوا الأبواب في وجههم. فإذا كان الموقف العثماني يستند إلى الدعم المطلق لقضية الهجرة فهل نفس الموقف عبرت عنه الأقطار المغاربية؟

باستقرائنا لبعض المصادر والمراجع التاريخية، التي أشارت ولو بطريقة جد مقتضبة، لموقف الإيالات العثمانية من قضية الهجرة الموريسكية إليها، خلصنا إلى وجود موقفين بارزين من الناحية التاريخية: **أولاً**: موقف رسمي يلتقي مع الموقف العثماني المركزي، باعتبار أن النظام السياسي الرسمي بهذه الإيالات كان ينسجم مع النظام العثماني في كثير من القضايا وخاصةً السياسية منها، إن لم يكن تابع له بالمطلق. **ثانيًا**: موقف العامة الذي لم يستحسن الفكرة وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة إذا ما قورن بموقف البلدان المغاربية كل حسب قراوئها وتقديرها للموقف. فإذا كانت الجزائر والمغرب رحبت رسميًا وشعبيا ولو بشكل نسبي بالموريسكيين، وتفهمت معاناتهم وظروفهم، فإن جزء من الشعب التونسي رفض هؤلاء، ولم يتقبلهم بسهولة، نظرًا لعاداتهم ومظاهرهم التي كانت أقرب إلى النصارى منها إلى المسلمين، على خلاف الموريسكيين الذين دخلوا تونس قادمين من المغرب أو الجزائر، فقد كانت أحوالهم لا تختلف عن أحوال المسلمين عامة، نظرا للمدة التي قضوها بين ظهرانهم.[١٢] أما موقف طرابلس فقد واجهتنا صعوبة في معرفة طبيعته، نظرا لشح المكتوب في هذا الموضوع، وعمومًا ونحن بصدد مقاربتنا لهذا الموضوع، يمكن القول بأن الهجرة الموريسكية إلى بلاد المغارب أثارت ردود فعل تأرجحت بين مؤيد ومعارض لها.

رابعًا: ظروف الهجرة وخريطة الانتشار

لم يكن وصول الموريسكيين إلى المجال المغاربي بالأمر الهين والسهل رغم قصر مسافة العبور، إذ تعرض هؤلاء لمخاطر كثيرة وهم في طريقهم إلى بلاد المغارب، فكثيرا ما تعرضوا للسرقة والنهب في البر والبحر.[١٣] كما أن وضعية استقرارهم داخل المجال المغاربي اختلفت من قطر إلى آخر، وذلك راجع إلى الظروف السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، التي كانت تميز كل قطر مغاربي. لكن قبل تحليل هذا الجانب لابد في بادئ الأمر إبراز عدد الموريسكيين الذين شملهم الطرد من إسبانيا، والوقوف عند أهم الوفود الموريسكية التي هاجرت إلى المجال المغاربي، معرجين ولو بشكل نسبي على الأعداد التي حطت بكل بلد مغاربي، غير غافلين عن العوامل والأسباب التي ساهمت بشكل أو بآخر في اختلاف وتباين الجالية الموريسكية بهذه الأقطار المغربية.

تضاربت أراء المؤرخين الذين عاصروا الأحداث أو شاركوا فيها، حول حجم الموريسكيين الذين شملهم الطرد من إسبانيا، فبلودا Bleda يقدرهم بحوالي ٣٤٠ ألف موريسكي، وPenalosa يقلل من ذلك العدد ويجعلهم حوالي ٣١٠ ألف موريسكي، بينما المؤرخ Salazar de Mandoza يحصر عددهم الإجمالي في حوالي ثلاث مائة وثلاثة عشر ألف موريسكي.[١٤] وعمومًا فإن هؤلاء الباحثين يتفقون على رقم ثلاث مائة ألف موريسكي مع تفاوتات بسيطة في ذلك.

ومن المعلوم أن هؤلاء المطرودين توزعوا في مناطق كثيرة من العالم، حيث مثل المجال المغاربي، نطاقا جغرافيا مهما، حيث حضي بأعداد كبيرة منهم وذلك راجع لعدة اعتبارات منها ما هو سياسي ومنها ما هو اجتماعي. فالدولة العثمانية كانت من أكثر الدول المتعاطفة مع المسألة الموريسكية من جهة، كما أن هيمنتها السياسية والاقتصادية على جزء كبير من منطقة شمال إفريقيا جعلت الموريسكيون يفضلون هذه المنطقة، إلا

أن وجودهم في مختلف الأقطار المغاربية، أثار نقاشًا واسعًا بين الباحثين والمؤرخين حول طبيعة هذا الوجود خاصة من حيث العدد. فما هي الخريطة العامة للانتشار الموريسكي ببلاد المغارب منذ خروجهم الأول وإلى لحظة سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢؟ وكيف توزعوا داخل بلدان المغارب التي كانت كلها تحت النفوذ العثماني باستثناء المغرب الأقصى؟

٤/١-الإنتشار في المغرب الأقصى (المغرب)

شهد المغرب الأقصى هجرات أندلسية مبكرة جدا تعود إلى الحقبة الموحدية، بعد سقوط آخر مملكة مسلمة بالأندلس سنه ١٤٩٢م توافد عدد كبير من الموريسكيين على المغرب الأقصى وتحديدا بقصبة سلا التي استقرت بها أعداد غفيرة منهم حتى أضحت تعرف بقصبة الأندلس، لكن مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، حج إلى المغرب الأقصى وفود موريسكية أخرى خاصة بين سنتي ١٦٠٩م و١٦١٤م، وأغلبهم أتو من قشتالة.[١٥] تشير معظم المصادر والدراسات التاريخية إلى أن عدد كبير من الموريسكيين الوافدين على المغرب الأقصى تسربوا إلى الداخل من خلال المراكز الساحلية، وخاصة التي كانت تحت الاحتلال الأيبيري، ومنها تسللوا إلى العمق المغربي.[١٦] فبالعودة إلى كتاب الاستقصا لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري نجده يحدثنا عن خروج هذه الطائفة الموريسكية إلى مجموعة من المدن المغربية وبخاصة تطاوين وسلا التي بنو بها القصور والحمامات والدور.[١٧]

فكما أسلفت الإشارة جل الموريسكيين الذين وصلوا إلى المغرب الأقصى ينحدرون من أصول قشتالية مقارنة مع باقي المناطق الاسبانية الأخرى. فبعض المصادر التاريخية التي دققت في العدد الإجمالي الذي وصل إلى المغرب الأقصى فتجعله في حوالي أربعين ألف موريسكي أغلبهم بقي في سبتة وتطاوين بالإضافة إلى بعض الثغور الساحلية القريبة من مضيق جبل طارق. وهذا الرقم تتفق معه بعض المصادر الإسبانية، في حين ترى بعض المصادر الموريسكية أن العدد الإجمالي للموريسكيين الذين وفدوا على المغرب الأقصى يصل إلى ستين ألف موريسكي.[١٨]

توزعت خريطة الانتشار الموريسكي ببلاد المغرب الأقصى بشكل متفاوت حسب المدن والأرياف إلا أن جزء كبير منهم حط الرحال في تطاون وشفشاون، وفاس والرباط وسلا، وبعض بوادي شمال المغرب، ومنهم من شق طريقه نحو باقي الأقطار المغاربية الأخرى، متحديا الصعوبات المتمثلة في ملاحقة الإسبان لهم حتى وهم داخل التراب المغربي الذي كان جزء كبير منه تحت النفوذ الإيبيري لفترة طويلة من القرن السابع عشر، وحول هذا الموضوع يحدثنا أحمد بن قاسم ابن الفقيه قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي المعروف بأفوقاي قائلاً: "وبقينا ننتظر التاجر صاحب السفينة إلى أن خرج من البريجة ومعه ستة من النصارى عيونا يتجسسون ليلا.. ويرجعون صباحا، فمروا بنا ومضوا إلى سبيلهم ونحن ننتظر التاجر حتى أظلم الليل فصلينا العشاء وقلت لصاحبي هذا وقت خير ننجو فيه بأنفسنا من (...) إلى بلاد المسلمين فعدلنا عن الطريق التي نمشي فيها لأزمور مخافة أن تلحقنا خيل النصارى، إذا أحسوا بهروبنا".[١٩]

٤/٢-الإنتشار في المغرب الأوسط (الجزائر)

فضل عدد كبير من الموريسكيون التوجه نحو الجزائر، فتحقق لهم ذلك مستعملين - وبتنكر شديد - المراكز التي كان يحتلها الإسبان في المغرب الأقصى، خاصة طنجة وسبتة ومليلية، ومن هذه الثغور كانوا يتسللون إلى تطوان وفاس ومراكش، حيث شكلت لهم هذه المدن الجسر الآمن الذي أوصلهم إلى الإيالة الجزائرية.[٢٠] تؤكد المصادر التاريخية أن المغرب الأوسط نال نصيبًا مهمًا من الموريسكيين المطرودين والمهجرين من بلاد الأندلس، وفي هذا الصدد يؤكد عبد العزيز فيلالي في كتابه "تلمسان في العهد الزياني" كان لهم تواجد مهم في بني جد ليدان القريبة من مدينة تنس، إضافة إلى تواجدهم في مدينة المسيلة خلال أوائل القرن العاشر الميلادي، كما استقرت طائفة منهم في مرسى ارزيو.[٢١] وبالعودة إلى كتاب "حرب الثلاثمائة سنة" للمؤرخ توفيق المدني نجده يشير إلى أنه خلال القرن الخامس عشر الميلادي تدفقت أعداد من الموريسكيين على السواحل الجزائرية وكان لهم دور كبير في بناء المرسى الكبير الذي سكنه معظمهم إلى جانب العرب، حتى صار هذا المرسى من أهم مراكز القرصنة الإسلامية ضد السفن المسيحية التابعة للأعداء.[٢٢]

تقدر بعض الشواهد التاريخية أن الموريسكيين الذين استقروا بالجزائر العاصمة بحوالي خمسة وعشرون ألف موريسكي.[٢٣] في حين اتجه قسم كبير منهم نحو السواحل وخاصةً الموريسكيين البلنسيين الذين لم يتم استقبالهم بالشكل اللائق حسب ما أورده المؤلفان أنطونيو دومينقير هورتز وبرنارد بنثنت في كتابهما "تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون – حياة... ومأساة أقلية".[٢٤] لكن عندما نعود إلى كتاب عبد العزيز فيلالي السالف الذكر نجد هناك تضارب في الروايات حيث يؤكد هذا الأخير أن الموريسكيين الذين حط

معظمهم عصا الترحال في عاصمة بني زيان وجدوا الترحيب والتعضيد من قبل الأسرة الحاكمة.[٢٥] استقبلت وهران حوالي اثنين وعشرون ألف موريسكي، لكنها لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم، فاضطر فريق منهم مكون من خمس مائة إلى ست مائة موريسكي التوجه إلى تلمسان. لكن الأعراب نهبوهم واتجهت جماعات أخرى مكونة من أربعين موريسكي إلى مستغانم لكن كان مصيرهم هو مصير الجماعة الأولى.[٢٦]

كانت وضعيتهم داخل الجزائر صعبة عمومًا، كما أن تواجدهم هناك لم يلق بهم، فرغم أن الشعور الأخوي تجاه الموريسكيين من الناحية الدينية كان حاضرًا وهو السائد، إلا أن المناخ السياسي كان أقوى من ذلك، على اعتبار أن الجزائر وإلى حدود بداية القرن الثامن عشر، كانت لا تستطيع التصرف بحرية في شؤونها الداخلية، ذلك أن السلطة العثمانية بتركيا كانت تعتبر الجزائر ولاية تابعة للباب العالي بإسطنبول، بالإضافة إلى هذا كان قسط وافر من شمال الجزائر محتلاً من طرف الإسبان كمدينة وهران والمرسى الكبير. وهذا الوضع السياسي المزدوج، كانت له انعكاسات على استقرار العنصر الموريسكي بالجزائر، وهذا ما دفع الكثير منهم الى التوجه صوب تونس.

٣/٤-الإنتشار في إفريقية (تونس)

سلك الكثير من الموريسكيون الذين فضلوا التوجه نحو تونس، طريقًا مغايرًا، فتوجهوا أولاً إلى مدينة مرسيليا بفرنسا، وذلك راجع إلى كون العديد من التجار الموريسكيين كانوا أنفسهم وسطاء في تلك الهجرة، والسبب في اختيار هذه الوجهة، يعود إلى تجنب القرصنة، حيث كانت السفن الفرنسية أكثر آمانا من غيرها. ومن بين أولائك الوسطاء الموريسكيين الذين كانوا يؤمنون هذه الهجرة الموريسكية المدعوا خيرونيمو أزيكس،[٢٧] وهو موريسكي من مقاطعة أرغون بإسبانيا كان يقيم بمرسيليا ويؤمن رحلات هؤلاء من إسبانيا نحو فرنسا برًا ومنها إلى تونس، وذلك كله في بواخر فرنسية. كما كان لهذا الموريسكي علاقات مع العثمانيين الذين كانوا يتفاوضون مع فرنسا وفينيسيا قصد السماح للموريسكيين بالمرور من أراضيهم إلى بعض الدول العربية الأخرى وخاصة البلدان المغاربية.

قدرت بعض المصادر التاريخية أعداد الموريسكيين الذين توجهوا نحو إفريقية بحوالي ٨٠٠٠ عائلة، وذلك ما صرح به القبطان الإنجليزي Robert Elliatt، وقد حاول الباحث الإنجليزي Lathan أن يستخرج رقمًا تقريبيًا من العدد المذكور، فقدره بحوالي ٥٠ ألف موريسكي (بمعدل ستة أفراد للعائلة).[٢٨]

إلا أن بعض المراجع الأخرى ترى عكس ذلك، فالذي أورده محمد قشتيليو في كتابه "حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا" حيث يقول: "لم تكن هجرة الموريسكوس إلى تونس بنفس الكثافة التي كانت عليها في اتجاه المغرب والجزائر"،[٢٩] ويرجع ذلك إلى عدة عوامل يمكن تناولها كالتالي:

- إقامة دولة موريسكية بتونس لم يكن بالأمر الهين بسبب الهجمات المتكررة للبحرية الإسبانية على شواطئها، وهذه الإشارة تجعلنا نتساءل من جديد هل الموريسكيون كانوا يرغبون في تكوين دولة خاصة بهم خارج الإطار الجغرافي لبلاد الأندلس وتكون مستقلة سياسيا عن باقي الأنظمة السياسية في شمال إفريقيا؟
- قرب المسافة بين الأندلس والمغرب من جهة، وبين الأندلس والجزائر من جهة ثانية، جعل هؤلاء يتدفقون بكثرة على هذين البلدين مقارنة بتونس.
- لم تكن تونس تتمتع باستقلالية تامة في التصرف كما كان الشأن في الجزائر التي كان للداي نوع من الحرية، وكان يتصرف دون تفويض من الإدارة العثمانية في كثير من الحالات.

يبدوا أننا هنا أمام إشكال تاريخي، فأي القطرين استقطب أكبر عدد ممكن من الموريسكيين. فرغم أن التونسيين في البداية لم يتقبلوا هؤلاء الموريسكيين، إلا أن رجال الدين هناك كانوا يهيبون بالناس أن يتعاملوا مع الموريسكيين ويعاملونهم معاملة حسنة، الأمر الذي جعل البعض منهم يندمج في المجتمع التونسي أكثر من باقي الأقطار المغاربية الأخرى. لقد استقطبت تونس عددًا من الموريسكيين الكاطالنيين والبلنسيين والقشتاليين، إلا أن الجزء الأوفر منهم كان ينحدر من الأصول الأراغونية، وكانت الغالبية من هؤلاء لا يحسنون اللغة العربية فطالبتهم السلطات التونسية بتعلم اللغة العربية وإغلاق المدارس الموريسكية.

إذا كانت بعض المصادر كما سبقت الإشارة إلى ذلك قللت من عدد الموريسكيين الذين توافدوا على إفريقية مقارنة بباقي الأقطار المغاربية الأخرى، فإن البعض الآخر من تلك المصادر التاريخية ترى العكس وتذهب في تقديراتها إلى أن حجم الوافدين لم يكن قليلاً وإنما هاجر إليها بعد سقوط إمارة غرناطة أعداد كبيرة من الموريسكيين على تونس العاصمة وصفاقس وحبيس وسوسة.[٣٠] وفي عهد عثمان داي منحت لهم مجموعة من الإمكانيات والامتيازات من أهمها السماح لهم ببناء القرى كما زودهم الحاكم عثمان داي بإمكانات عسكرية

للانخراط في عملية الجهاد البحري، وحول هذا الموضوع يحدثنا صاحب مخطوط العز والرفعة والمنافع قائلاً: "وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي رحمه الله تعالى، وقدمني على مائتي رجل من الأندلس، وأعطاني خمس مائة سلطانية، ومائتي مُكْحُلَة ومائتي سكين، وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر. وركبنا بأصحابنا في سفنه ولم تَجُزْ إلا نحو الستة أشهر، ومات رحمه الله، وبعد موته بقليل رجعنا إلى تونس، بغنيمة قليلة وأنا مجروح من حرب الأعداء حتى أشرفت على الهلاك. وبعد أن بَرَيْتُ ركبنا أيضا البحر، وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم.[٣١]

شكلت العاصمة تونس وحلق الوادي أهم المراكز التي حط الموريسكيين الرحال بها بشهادة صاحب مخطوط العز والرفعة والمنافع حيث يقول: "وفي الزمن الذي أمر سلطان النصارى بإخراج جميع أهل الأندلس من بلاده، كنت مسجونا من أجل ما وقع لي مع بعض النصارى على أمور راجعة إلى دعاوي النفس بالشجاعة، وكان لي من أكابرهم من يعينني ويصاحبني، حتى خلصني لله من السجن، فأردت الخروج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس، فمنعوني من ذلك، ثم أنفقت دراهم في الرشوات وخرجت من بينهم، وجئت إلى مدينة تونس حرسها الله فوجدت فيها كثيرًا من الأصحاب والأحباب من الأندلس".[٣٢] وعن تواجدهم بحلق الواد يحدثنا مرة أخرى قائلاً: "وولينا إلى تونس والأمير يوسف داي أمرني بالقعود في حصن حلق الوادي، ونحن من أهل الجيش في الراتب. وفيها كَمَّلْتُ معرفة آلات المدافع، بالاشتغال بيدي فيها، وبالقراءة في كتب الفن بالأعجمية".[٣٣]

نخلص من خلال ما سبق أن خريطة الانتشار الموريسكي ببلاد المغارب اختلفت من قطر إلى آخر من حيث العدد، أما من حيث الاستقرار المجالي الذي ميز كل قطر نلاحظ أن أغلب الموريسكيين الذين اتجهوا نحو المجال المغاربي استقروا في الحواضر بدل البوادي والأرياف، وهذا فيه إشارة قوية إلى أن "الجنس" الموريسكي كانت الحضارة متأصلة فيه، وكان متمدنا يهوى العيش في الحواضر بدل الأرياف. وإذا كان هؤلاء الموريسكيين توزعوا بطرائق متفاوتة بين كل الأقطار المغربية كما أشارت إلى ذلك المصادر والمراجع التاريخية، فإن فئة قليلة منهم فظلت الاستقرار بالمغرب، لكن هذا لا يعني أن المغرب لم يكن الوجهة المفضلة بالنسبة لهم، ولكن لأسباب موضوعية فظل الكثير منهم عدم الاستقرار بالمغرب، خاصة وأن الكثير منهم كان يريد أن يتوارى عن أنظار الإسبان لأن جزء كبير من الواجهة المتوسطية والأطلنتية كانت تحت السيطرة الإيبيرية، والجزء الآخر كان مستباحًا من قبل السلطات الإسبانية. أما طربلس فوجودهم بها ظل شبه منعدم، وفي تقديرنا ذلك راجع إلى العامل الطبيعي ولا سيما المناخي الذي كان سببًا مباشرًا في تخلف الموريسكيين عن إيالة طرابلس.

خامسًا: التأثير الحضاري للموريسكيين داخل المجال المغاربي

إذا كان طرد الموريسكيين خارج إسبانيا شكل نقمة لهم، فإنه مثل وبدون منازع نعمة لكثير من البلدان التي هاجروا إليها، وتعد بلدان المغارب واحدة من بين تلك الأقطار التي استفادت من تواجدهم على أراضيها. فمنذ هجرتهم، أصبحت العلاقة بينهم وبين المجال المغاربي مترسخة بفعل تأثيرهم القوي، إذ لم يسلم أي مجال من المجالات إلا وبصموها بثقافتهم وإرثهم الحضاري سواء في مجال الأدب والتاريخ والجغرافيا والترجمة والاقتصاد، أو في مجال الفن والطرب والعمارة والبستنة وغيرها من الفروع الأخرى. تمكن الموريسكيون بعد هجرتهم إلى بلدان المغارب من دمج كل ما سمح لهم به من ثقافتهم في هذه المجتمعات، فأضحت فيما بعد وإلى حدود الفترة الراهنة أسلوب عيشها. ففي المغرب وتونس والجزائر بدرجة أقل تبدو شواهد الحضارة الموريسكية ظاهرة وباقية إلى يومنا هذا، وهذا يؤكد مرة أخرى حجم التأثير القوي للحضارة الأندلسية على ساكنة البلدان المغاربية من جهة، والتأثر القوي لهذه الأقطار بالثقافة الأندلسية.

استطاعت الحضارة الأندلسية عامة والموريسكية خاصةً أن تتلاقح وتندمج مع الجسم المغاربي كثيرًا، ويظهر هذا التلازم في فن العمارة، حيث لم يسلم قصر من القصور ولا ضريح من الأضرحة إلا وحمل في زخرفته وهندسته المعمارية البصمة الأندلسية. أما في مجال الفن والطرب تأثر المغاربة كثيرًا بالفن والموسيقى الأندلسية التي لا زالت إلى اليوم تفرض إيقاعها وسط التلوينات الفنية الأخرى. حياة فنية أخرى لا زالت حية وتتوارث بن الأجيال تتمثل في تجربة الفرق الموسيقية النسائية التي يعود الأصل فيها إلى الحضارة الأندلسية. انتقل تأثير الحضارة الأندلسية إلى مجال الطبخ، فالأقطار المغاربية تأثرت كثيرًا بالمطبخ الأندلسي، وخاصةً في كل ما يتصل بالأطباق التي تهيأ في المناسبات الدينية.[٣٤] كما تغلغلت الثقافة الأندلسية كذلك، إلى المغاربة في كل ما يتصل بعادات الزواج والختان والعقيقة وحتى اللباس.

كـان تـأثير الموريسـكيين الـذين حطـوا رحـالهم بالمجـال المغاربي واضحًا جدًا، وبارزًا في مجالات أخرى، حيث استفادت ساكنة المجال المغاربي من خبراتهم ومهاراتهم في سائر مرافق الحياة اليومية، سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو بالشؤون الثقافية والعلمية والمهارات العسكرية المتمثلة في الجهاد البحري. ففي الجزائر وتونس كان نشاطهم أكثر في العاصمة، حيث كونوا مراكز تجارية، الأمر الذي كان من نتائجه أن تدفقت الخيرات على هاتين الإيالتين خلال الفترة الممتدة من أواخر القرن السادس عشر وإلى بداية القرن السابع عشر الميلاديين، كما كان تأثيرهم قويًا في مجال القرصنة أو ما كان يعرف آنذاك بالجهاد البحري. ولم تتوقف نتائج انتشارهم بالمجال المغاربي عند هذا الحد بل طالت لتشمل مجال الفكر والترجمة والمعمار والاقتصاد. ففي المجال الأول كان للموريسكيين دورًا كبيرًا في إحياء عدة مدن بعدما كانت تسير نحو الاندثار مثل مدينتي "شرشيل" وبليدة "الجزائريتين ومرفأ "حلق الوادي" بتونس. أما في المجال الاقتصادي كان للعنصر الموريسكي تدخل قوي في مجال الري والزراعة، حيث عاد إليه الفضل في إدخال بعض المزروعات الجديدة إلى القطر المغاربي كالقطن والكروم وغير ذلك من المزروعات.(٣٥) ففي مجال الفكر والترجمة فقد أبدع أحمد الحجري في هذا المجال كثيرًا ونظرًا لكونه كان يتقن الإسبانية والفرنسية عمل داخل البلاط السعدي مترجمًا للسلطان زيدان وحول هذه التجربة يحدثنا قائلاً: "وقد أمرني السلطان مولاي زيدان- رحمه الله- أن أترجم له كتابًا عجميًا كبيرًا سماه مؤلفه "بدران" لعظم جبل مسمى بهذا الاسم لأنه عند الجغرافيين أعظم جبال الدنيا المعروفة، ولم نر في كتب الجغرافيات مثله، وكان بلسان الفرنج وصاحب الكتاب كان فرنجيًا اسمه القبطان ـ نعتقد أنه يقصد الجغرافي بيير دافيتي Pierre Davity الذي رسم خارطة للعالم سنة ١٦١٤م ـ وبلاد الدنيا كلها مصورة في ذلك الكتاب بطول كل بلد وعرض الأنهار، وكل نهر بأي أرض وموضع منبعه وابتداؤه، والمدن التي على حاشيته كل واحدة باسمها...".(٣٦)

لم تكن إسهامات الحجري فقط في مجال الترجمة، ولكن كان له دور كبير في نقل المعرفة والتيكنولوجية العسكرية التي ظهرت بأوربا في وقت مبكر، إذ تعد ترجمته لكتاب "العز والرفعة" الذي سبقت الإشارة إليه، خير دليل على هذا الطرح، حيث شكلت ترجمته بالأساس محاولة جاهدة منه لنقل المعرفة التقنية لأوربا القرن السابع عشر إلى المجال المغاربي. لا تقتصر أهمية كتاب "العز والرفعة" في مادته المعرفية من المنظور التاريخي، بل من خلال قيمته العلمية التي عمل المؤلف على نقلها بالدرس والتحليل والتجريب، ليخلص في النهاية، إلى وضع الأسس والمبادئ العامة لصناعة الآلات الحربية خاصةً في فن المدفعية، التي اعتبرت على الأقل إلى حدود القرن السادس ثورة مهمة في مجال السلاح الناري.

قارب المؤلف هذا الموضوع بدقة كبيرة، وقدم تفاصيل دقيقة وأحيانًا مجهرية، حول مختلف الجوانب الفنية المتعلقة بهذه الصناعة. كما ركزت تفاصيل الكتاب كذلك، على وصف حوالي اثنين وثلاثين صنفا من أصناف المدافع المختلفة من حيث حجمها وطرائق صناعتها، فوضع بذلك وصفًا دقيقًا لأنواع الحجارة التي يقذفها المدفع. ولعل أهم ما ثمن الكتاب الرسومات التوضيحية التي وضعها والمتعلقة بمختلف أصناف المدافع التي تحدث عنها، كما رصد كذلك وصفًا دقيقًا لمختلف الطرائق والخطوات المتعلقة بصناعة المدافع واضعًا بذلك قواعد علمية وعملية دقيقة لفن هذه الصناعة. لقد استطاع الموريسكيون خاصةً والأندلسيون عامة من خلال تأثيرهم الثقافي والحضاري في بلدان المغارب التأسيس مبكرًا لفكرة التلاقح الحضاري السلمي بينهم وبين الشعوب المغاربية قبل القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده، كما ساهم في بناء ذات حضارية مشتركة ما زالت شواهدها المادية وغير المادية شاهدة عليها إلى يومنا الحاضر.

خاتمةٌ

سقطت غرناطة آخر الإمارات المسلمة بجزيرة الأندلس سنة ١٤٩٢م، وشكل ذلك السقوط من الناحية التاريخية بداية حقيقية لهجرة الموريسكيين وإعادة انتشارهم في مجالات جغرافية مختلفة من العالم، نال المجال المغاربي النصيب الأوفر منها. لم تقتصر إعادة الانتشار تلك على المورفولوجية البشرية للموريسكيين فحسب، وإنما شملت مختلف مقوماتهم الثقافية والحضارية، فأينما حلوا وارتحلوا إلا وتركوا طيفًا فائضًا من حضارتهم وثقافتهم التي أعجب بها الجميع ولم يتم رفضها من المجموعات البشرية العربية المخالفة لهم والمختلفة عنهم. فبقدر ما انتشر الجسم الموريسكي في بلاد المغارب، بقدر ما انتشرت معه ثقافته وحضارته حتى أضحى جزءًا لا يتجزأ من الهوية والثقافة العامة لتلك الأقطار.

الاحالات المرجعية:

(١) عبد الرحمان علي الحاجي، **التاريخ الأندلسي**، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧، ص٥٦٩.
(٢) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ١٩٩١، ص ٥٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٦٢.
(٤) الحجري الأندلسي، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، ١٩٨٧ص، ١٧.
(٥) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٦.
(٦) ابن الرفيع، **الأنوار النبوية في آباء خير البرية**، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، العدد ١٢٣٨، ص ٣٣٦.
(7) Henri Pieri , L’accuel par Les Tunisiens Aux Morisques éxpulseé d’Espagne : un temoignage morisque, inetuds sur les moriscos andalaus en tunisie, Madride,1973, P ? 132.
(٨) إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زرياء الأندلسي، **العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع**، دراسة وتحقيق: محمد الغزواني، مطبعة أم هداية، القنيطرة، ٢٠١٧، ص٦٤-٦٥.
(9) Jacqueline Fournel, Les morisques aragonais et L’inquisition de saragosse (1540-1620), Université Paul Valéry, 1980, P, 314.
(10) H.lapeyre, Géogrzphie de l’Espagne morisque, paris, 1959, p,178.
(١١) عبد الجليل التميمي، **المجلة التاريخية المغربية**، تونس، العدد ٨/٧ يناير ١٩٧٧، ص ٩.
(١٢) محمد قشتيليو، **حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها**، الطبعة الأولى،٢٠٠١، مطابع الشيوخ- تطوان- ص ٥٤.
(١٣) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، مرجع سبق ذكره، ص١٢٩.
(١٤) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، مرجع سبق ذكره، ص١٦٢.
(١٥) عبد الاله الفاسي، **مدينة الرباط وأعيانها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ١٨٣٠- ١٩١٢**، منشورات جمعية رباط الفتح، ص٥٢.
(١٦) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، مرجع سبق ذكره، ص١٢٩.
(١٧) أبو العباس خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية**، القسم الثاني، تحقيق: جعفر الناصري محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥، ص ١٢.
(١٨) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، مرجع سبق ذكره، ص١٣٠.
(١٩) الحجري الأندلسي، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦.
(٢٠) عبد الله بن عبد الحسن التركي وفتحي محمد أبو عبانة، **الأندلس الدرس والتاريخ**، دار المعرفة الجامعية، دون رقم الطبعة، ص١٨٠-١٨١.
(٢١) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر، الجزائر، ٢٠٠٢، ج١، ص١٧٤.
(٢٢) أحمد التوفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢م**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، ص ١٠٢.
(٢٣) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، مرجع سبق ذكره، ص١٣١.
(٢٤) أنطونيو دومينقير هورتز وبرنارد بنثنت، **تاريخ مسلمي الموريسكيون – حياة ... ومأساة أقلية**-، ترجمة: عبد العالي صالح طه، تقديم محمد محي الدين الأصغر، ط١، دار الإشراق، قطر،١٩٨٨، ص ٢٨٠-٢٨١.
(٢٥) عبد العزيز فيلالي، مرجع سبق ذكره، ص١٧٥.
(26) H.lapeyre, op,cit, pp.55-56.
(٢٧) عبد الله بن عبد الحسن التركي وفتحي محمد أبو عبانة، **الأندلس الدرس والتاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص٥٥.
(28) Lathan, Contribution àl’Etude des immigration Andalouses et leur place dans léhistoire de la tunisie, in Etude sur les moriscos Andalous en tunisie, P, 30.
(٢٩) محمد قشتيليو، **حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها**، ص٥٤.
(٣٠) أنطونيو دومينقير هورتز وبرنارد بنثنت، **تاريخ مسلمي الموريسكيون –حياة ...ومأساة أقلية**-، مرجع سبق ذكره، ص٢٩٠.
(٣١) إبراهيم ابن أحمد غانم ابن محمد بن زرياء الأندلسي، العز والرفعة مصدر سابق ذكره، ص ٦٥.
(٣٢) نفسه، ص٦٤.
(٣٣) نفسه، ص٦٦.
(٣٤) للمزيد حول هذا الموضوع المرجو قراءة كتاب: **"فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان"** لابن رزين التجيبي. ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، ترجمة، تحقيق: محمد بن شقرون-إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٢.
(٣٥) محمد قشتيليو، **حياة الموريسكوس الأخيرة**..... ص٥٠.
(٣٦) الحجري الأندلسي، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية وموقف المجتمع والزوايا والسلطة من ذلك خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين



محمد شونم

باحث بسلك الدكتوراه تاريخ حديث ومعاصر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

مرَّ الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، عبر مرحلتين: حيث عمل في أول أمره على احتلال السواحل المغربية الشمالية، ونهج أثنائها سياسة الحديد والنار؛ بينما في المرحلة الثانية عمل على احتلال السواحل الجنوبية، متبعًا استراتيجية جديدة، تجلت في نَخْرِ المجتمع المغربي من الداخل عبر التحالف مع بعض الزعماء المحليين من أجل تسهيل عملية الغزو. ولم يكتف الاحتلال البرتغالي بتأسيس مراكز على السواحل المغربية فقط، بل لجأ إلى استغلال خيرات البلاد الداخلية في المناطق الجنوبية؛ مما نتج عنه منافع على بعض الزعماء المغاربة المتعاونين معه، وإلحاق أضرار كبيرة بأغلبية المجتمع المغربي؛ مما دفع بهذا الأخير ألا يقف مكتوف الأيدي، بل لجأ إلى الجهاد بعد فترة من الخمول والتقاعس، فالتفَّ حول رجال الزوايا للقيام بعملية التعبئة لمجابهة الاحتلال البرتغالي الذي ألحق بهم أضرار لا تعد ولا تحصى، لكن رجال الزوايا رؤوا أن هذه المهمة جسيمة، وأنها تحتاج إلى قوة قادرة على تجميع المغاربة تحت سلطة واحدة للقيام بعملية الجهاد، فأَرْشَدُوا عامة الناس إلى الشرفاء السعديين. ولما تولَّ السعديون الحكم بمساعدة رجال الزوايا وفئة عريضة من المجتمع المغربي، استطاعوا أن يُنظموا المقاومة المغربية، وأن يعدوا العدة للزحف على الاحتلال البرتغالي، ومن ثَمَّ طرده من السواحل المغربية، باستثناء بعض الثغور (سبتة وطنجة...). وقد اتبع الباحث منهج البحث التاريخي في تناول الموضوع من خلال ثلاثة محاور: عوامل ودوافع الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية؛ الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين؛ رد فعل المجتمع المغربي والزوايا والسلطة اتجاه الاحتلال البرتغالي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٠	سبتمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٨	أكتوبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المغرب الأقصى؛ البرتغال؛ الاحتلال؛ المجتمع المغربي؛ المقاومة؛ السلطان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.204458

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد شونم، "الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية وموقف المجتمع والزوايا والسلطة من ذلك خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١١٤ – ١٢٨.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: chounem02@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

شكل القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين انتكاسة للغرب الإسلامي (الأندلس – المغرب الأقصى)، بينما شهدت الدول الأوربية، وخاصة منها الغربية، نهضة غير مسبوقة عمت عدة مجالات (ثقافية – علمية - اقتصادية – عسكرية...). وتعود دوافع هذه النهضة الأوربية إلى الانبعاث الصناعي والتجاري الذي شهدته أوربا خلال القرون الممتدة بين القرن العاشر الميلادي ونهاية القرن الثالث عشر الميلادي والذي أدى إلى تزايد عدد التجار ونمو المدن. لكن خلال القرن الرابع عشر الميلادي شهدت أوربا نقصًا حادًا في المعادن التي تصنع منها القطع النقدية، فكانت الوساطة التجارية للمسلمين (دول المشرق وشمال إفريقيا) والإيطاليين قد أدى إلى ارتفاع أثمان المعادن، مما أدى إلى عجز الميزان التجاري الأوربي خاصة البرتغالي والإسباني، مما دفع بهاتين الدولتين الإيبيريتين إلى البحث عن طرق أخرى لتجاوز هذه الوساطة والوصول مباشرة إلى مصادر المعادن والتوابل والنباتات الصبغية والحرير واليد العاملة (عبيد إفريقيا).

وأمام هذا المخاض الأوربي لولادة عصر جديد ينعم فيه الجميع حكامًا ومحكومين بقوة اقتصادية وعسكرية هامة. كانت الأوضاع الداخلية للمغرب تتسم بالفتن السياسية والعسكرية والتمردات القبلية؛ هذه الأوضاع الداخلية لمغرب القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي هي التي أدت بالبرتغاليين إلى تركيز نظرتهم الإمبريالية اتجاه السواحل المغربية المتوسطية والأطلسية. وعندما تم الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية، وما نتج عنه من أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية كان ضحيتها المجتمع المغربي عامة، والطبقة الفقيرة خاصةً. جعلت هذا المجتمع بكامله لا يقف موقف المتفرج أمام هذا الأوضاع المتفاقمة يومًا بعد يوم، بل انبثقت عنه طبقة اجتماعية متحمسة للجهاد ضد المحتل، تجلت في شيوخ الزوايا الذين نادوا إلى الجهاد عندما اتضح لهم عجز السلطة الوطاسية في الدفاع عن حوزة المغرب. ولما فشل شيوخ الزوايا بدورهم في رد الخطر البرتغالي عن السواحل المغربية، لم يجدوا بُدًّا من تجميع المجاهدين تحت قيادة موحدة قادرة على وضع استراتيجية تتم بواسطتها وضع حدًّا للأخطار البرتغالية، وهذا ما حدث فعلاً مع صعود السعديين للحكم في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

وأول الخطط التي عمل عليها السعديون في بداية أمرهم، هي:

- الانكباب على توحيد صفوف المجاهدين تحت قيادتهم.
- تأميم مصادر الدعم المالي للخزينة (احتكار تصدير السكر- ضرائب التجارة الصحراوية ...).
- فتح أسواق للتجارة الخارجية مع الدول المناوئة للبرتغاليين (إنجلترا – هولندا...) للحصول على السلاح الناري.

كل هذه العوامل أدت بالسعديين إلى القضاء على الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية، وتبعته بالقضاء على الحكم الوطاسي والزعامات الأخرى في بعض المدن (تطوان – شفشاون – القصر الكبير – المناطق الجنوبية...). وفي الأخير تم لها توحيد البلاد المغربية تحت حكمها باستثناء بعض الثغور (سبتة، طنجة...). إذن، للمرور إلى تحليل هذه المعطيات، ولو بشكل مقتضب، فلابد من طرح سؤال متعلق بالمحور الأول. ما هي عوامل ودوافع الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين؟

أولاً: عوامل ودوافع الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية

عرفت المماليك المسيحية بشبه الجزيرة الإيبيرية تحولات سياسية مهمة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أدت إلى إفراز دول مسيحية قوية (البرتغال، إسبانيا...)، أخذت تتطلع إلى غزو الأراضي الإسلامية القريبة منها؛ وكان وراء هذا الغزو عدة دوافع، حددها أحمد بوشارب في ثلاثة عوامل، هي: العامل الديني، العامل الاستراتيجي ومحاولة القضاء على الجهاد البحري، العامل الاقتصادي،[١] وحددها محمد الشريف - عند حديثه عن الاحتلال البرتغالي لمدينة سبتة - في خمسة عوامل، وهي: التفسير الفروسي/ الاجتماعي، الأطروحة الدينية، التفسير الاقتصادي، عامل القرصنة، الدوافع الاستراتيجية والسياسية.[٢]

١/١-العامل الفروسي – الاجتماعي

يبرز دور العامل الفروسي في تصريف الأمراء والنبلاء والفرسان الذين كانوا يطمحون إلى إظهار شجاعتهم الحربية، والحصول على مناصب كبيرة تليق بمكانتهم الاجتماعية، وإشغالهم في حروب مع المغاربة بعد طول فترة السلم مع قشتالة. أما العامل الاجتماعي فتجلى في تخطي الأزمة التي كان يتخبط فيها المجتمع البرتغالي من ذوي المداخيل القارة،

والتخلص من أفراد طبقة النبلاء المشاكسة والمتحمسة للغزو، بإرسالهم إلى المغرب للحصول على الوظائف الإدارية والاغتناء بسرعة، وفي نفس الوقت تجنيب البلاد التوترات المحتملة.(٣)

٢/١-العامل الديني

تمثل العامل الديني في الروح الصليبية التي أججتها الفتوحات العثمانية لأوربا الشرقية، ودعوات الكنيسة بإعلان الحرب الصليبية ضد المسلمين، كرد فعل على التوسع العثماني؛ مما دفع عددا من الإخباريين البرتغاليين المعاصرين، أن يعطوا أهمية كبرى لهذا العامل. يقول أحمد بوشارب في هذا المضمار: ‹‹لقد أعطى الإخباريون البرتغاليون المعاصرون لغزو المغرب وللكشوف (Zurara مثلاً) أهمية قصوى لهذا العامل {الديني}، وجعلوا منه المحرك الرئيسي. وسار على نهجهم من درسوا موضوع الغزو قبل استغلال الوثائق البرتغالية، أي قبل العقد الثالث من القرن الحالي››.(٤) وفي نفس السياق يضيف محمد الشريف في هذا المنوال: ‹‹يبرز زورارا، مثله مثل باقي الإخباريين البرتغاليين المعاصرين لغزو المغرب وللكشوف أهمية العامل الديني في غزو سبتة، ويؤكد أن فكرة "خدمة الرب"، كانت مسيطرة على مخططي المشروع››.(٥) ونجد مجموعة من الدلائل التي أوردها كل من أحمد بوشارب ومحمد الشريف في كتابيهما، تدل على أن العامل الديني شكل حيزا لا بأس به في تحريك البرتغاليين لغزو السواحل المغربية، لتطويق الإسلام والقضاء عليه إن أمكن، بنشر المسيحية بين المسلمين، وكان رُواد هذا الاتجاه هم رجال الدين المسيحيين، وعلى رأسهم البابا،(٦) وبعض فئات المجتمع المتحمس للغزو، ومن بينهم المؤرخ دييگودي طوريس الذي عبر عن ذلك بكل صراحة في صدد حديثه عن الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية بقوله: ‹‹في سنة اثنين وخمسمائة وألف لميلاد المسيح (...) قرر الملك دم مانويل، الذي كان يحكم البرتغال آنذاك، مدفوعًا بحمية صليبية، أن يشن الغارة على هؤلاء المغاربة أعداء ديننا، ويوسع إمارته، لذلك تابع الغزو الذي كان سلفه دم يوحنا قد بدأه في إفريقيا››.(٧)

وما يمكن أن نخرج به بعد تحليل هذا العامل، هو أن البابا ورجال الدين هم أكثر المتحمسين للعامل الديني، بينما الملوك والنبلاء والفرسان فكانت لهم مصالح ودوافع أخرى أكثر أهمية من الدين. رغم أن مارمول كاربخال كان يعطي مبررًا دينيًا للحروب التي يخوضها الملوك البرتغاليين، وذلك بقوله: ‹‹ظل مانويل، ملك البرتغال، مصمما على نشر العقيدة المسيحية، وتوسيع حدود مملكته، فراح يواصل الحروب التي كان يشنّها سلفه، ولم يكتف باحتلال الثغور المغربية، بل طفق يحصنها ويشيد القلاع››.(٨)

٣/١-العامل الاقتصادي

كانت البرتغال تفتقر لمجموعة من المواد الأساسية (القمح – الذهب – التوابل....)، مما جعلها تبحث عنها خارج البلاد الأوربية، بسبب ارتفاع أثمانها نتيجة الطلب المتزايد عليها. ونتيجة افتقار البرتغال إلى القمح، رأت أن منطقة دكالة المغربية هي الخزان الرئيس لصادرات المغرب من الحنطة اتجاه البرتغال وبعض الدول الأوربية، مما دفعها إلى احتلال هذه المنطقة الخصبة بهذه المادة لسد حاجيات ساكناتها المتزايدة. وقد أشار أحمد بوشارب إلى ذلك بقوله: ‹‹لم يتردد بعض المؤرخين في ربط احتلال السواحل المغربية بمحاولة البرتغاليين ضمان هذه المادة الأساسية {الحنطة} لبلادهم››.(٩) كما عمد البرتغاليون إلى احتلال مدينة سبتة المغربية، لأنها كانت أكبر أسواق الذهب بالمغرب، وبوابة هذا الأخير، في تصدير تبر السودان (المواد الخامة من الذهب) إلى أوربا، خصوصًا أن حاجيات البرتغال من الذهب تضاعف، مما تركها في أزمة نقدية، إضافة إلى أن المعدن الأصفر كان يلعب دورًا حيويًا في الاقتصاد العالمي.

وزيادة على ذلك، كانت رغبة البرتغال هي خنق تجارة القوافل العابرة لبلدان شمال إفريقيا، وذلك بالسيطرة على منافذها البحرية والاتصال مباشرة مع بلاد السودان لاستغلال خيراتها والتحكم في تجارتها، وهذا ما عبر عنه محمد حجي بقوله: ‹‹أخذت المزاحمة البرتغالية للمغرب فيما يتعلق بذهب السودان شكل حصار قوي حين بدأت سفن الكرافيل البرتغالية ترسو في الموانئ القريبة من معادن الذهب لتقايض السودانيين مباشرة بالبضائع المغربية التي تستولي عليها من المناطق المحتلة بسوس ودكالة››.(١٠) وكان طموح البرتغاليين أكبر، مما سبق، وهو تجاوز الوساطة الإسلامية – الإيطالية بشكل نهائي، بل و‹‹القضاء على الوساطة العربية ما بين أوروبا والمناطق الأسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور (...) ولهذا كان إغلاق البحر الأحمر في وجه الملاحة العربية أهم ما كلف به الأسطول البرتغالي الذي أرسل إلى المنطقة سنة ١٥٠٥››.(١١)

وهكذا اكتسى العامل الاقتصادي -التجاري دورًا مهمًا في دفع البرتغال إلى احتلال السواحل المغربية. وقد أورد محمد الشريف مجموعة من التفسيرات لبعض الكتاب البرتغاليين

الذين أعطوا لهذا العامل أهمية كبرى في احتلال البرتغال لمدينة سبتة بصفة خاصة، وبعض الثغور والسواحل المغربية بصفة عامة.[١٢]

٤/١-العامل الاستراتيجي ومحاولة القضاء على الجهاد البحري (القرصنة البحرية)

إن محاولة القضاء على الجهاد البحري (القرصنة) كان من بين العوامل المساهمة في الغزو، لأن القشتاليين والبرتغاليين تضرروا من المناطق والمدن التي تنطلق منها القرصنة، فعملوا على احتلال بعضها (سبتة، مليلية ...)، وتخريب أخرى (تطوان، غساسة، آنفا، العرائش...).[١٣] وكذلك شكل الموقع الاستراتيجي لمدينة سبتة، سببا للتنافس الأوربي (القشتاليين – الأرغونيين – الجنويين- البرتغاليين....) على المدينة، بحكم أنها بوابة المغرب على البحر الأبيض المتوسط، وبالتالي، السيطرة على مدينة سبتة، معناه «البحث عن التوازن بين القوى الدولية»،[١٤] للسيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وحماية سفنهم من الهجمات المضادة. يقول أحمد بوشارب في هذا المنوال: ‹‹وبهذا يكون اهتمام البرتغاليين بالناحية الاستراتيجية مزدوجًا: ضمان أمن شواطئهم وأراضيهم من كل هجوم إسلامي، بالإضافة إلى ضمان سلامة سفنهم وتوفير الموانئ لها على طول طريقها إلى سواحل غرب إفريقيا أولا، ثم إلى الهند والبرازيل منذ بداية القرن السادس عشر››.[١٥]

ويمكن القول هنا، أن العامل الاستراتيجي ومحاولة القضاء على الجهاد البحري (القرصنة)، لم يكن – حسب أحمد بوشرب - عاملاً أساسيًا يجعل البرتغاليون يقدمون على احتلال السواحل المغربية.[١٦]

٥/١-الدافع السياسي

تمثل الدافع السياسي في رغبة الإيبيريين في التوسع على حساب البلاد الإسلامية، وتطويق المسلمين سياسيا واقتصاديا؛ والاستيلاء البرتغالي على السواحل المغربية وخصوصًا الأطلسية، معناه قطع رغبات الدول الأوربية المنافسة لها في المغرب؛[١٧] وبالتالي يمكن القول إن العامل السياسي اتخذ نصيبا من بين هذه العوامل التي حركت الغزو البرتغالي للسواحل المغربية.

مما سبق، يتضح أن الاحتلال البرتغالي للسواحل والثغور المغربية، تعددت عوامله ودوافعه وأسبابه، وكل دافع أو سبب كان له مبرراته داخل الكتابات الإخبارية المعاصرة للحدث، أو الكتابات اللاحقة. ومهما كانت الدوافع والأسباب، فالاحتلال البرتغالي كان حدثًا تاريخيًا ترك بصماته على المغاربة إلى يومنا هذا. إذن: ما هي السواحل والثغور التي استطاع البرتغاليون احتلالها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين؟ وما هي الاستراتيجية المتبعة في احتلالهم؟ وكيف تعاملوا مع المناطق المحتلة؟

ثانيًا: الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية خلال القرنين ١٥ - ١٦ الميلاديين

استكملت الدولة البرتغالية وحدتها الترابية قبل الإسبان، فأصبحت تجوب البحار والمحيطات للتجارة والبحث عن المواد التي كانت في حاجة إليها، وأهمها: الذهب والقمح والتوابل ...، وسعت إلى جلبها من مصادرها الأصلية، لتجاوز الوساطة التجارية الإسلامية -الإيطالية، فأنشئت، لهذا الغرض، أساطيل ضخمة للتوغل في المحيطات والبحار.[١٨]

وأثناء سير السفن البرتغالية بمحاذاة السواحل المغربية كانت تضطر للتوقف ببعض المراكز المغربية، إما للتزود منها بالسلع أو التبادل معها تجاريًا، مما أتيحت لهم الفرصة للاطلاع على الأوضاع الداخلية المغربية التي كانت مضطربة ومفككة وضعيفة، نتيجة الصراع على الحكم وكثرة التمردات،[١٩] والكوارث الطبيعية التي كانت تتخبط فيها الدولة المغربية (الطاعون – المجاعة....)، خاصة في المناطق الشمالية؛ مما دفع بالبرتغاليين إلى شن غارات على الثغور المغربية، استطاعوا بواسطتها احتلال مدينة سبتة سنة ١٤١٥م، التي كانت مفتاح الغزو الإيبيري للسواحل المغربية، وهذا ما جعل ‹‹تيار استوغرافي واسع يعتقد أن احتلال المدينة المغربية كان الخطوة الأولى في مسيرة مشروع سياسي بعيد المدى››.[٢٠] واتضح هذا الأمر، بعد متابعة البرتغاليين غزوهم للشواطئ المغربية نزولا مع السواحل الأطلسية، عبر فترات متفرقة، حيث تم احتلال مدن ‹‹سبتة وطنجة وأصيلا والقصر الصغير والعرائش وأزمور والجديدة وأسفي وأكادير وقلعة أگوز››.[٢١]

إذن: ما هي المناطق الأولية التي تم احتلالها من طرف البرتغاليين؟ وكيف كانت تجربتهم هذه؟

١/٢-الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية الشمالية (مملكة فاس)

استغلت البرتغال الأوضاع المتردية داخل المغرب الأقصى (النزاعات والانقسامات السياسية، المجاعة والجفاف، الأزمة الاقتصادية ...)، وعملت على احتلال مدينة سبتة سنة ٨١٨هـ الموافق ٢١ غشت ١٤١٥م،[٢٢] بحكم موقعها الاستراتيجي المشرف على التجارة بين أوربا وإفريقيا عبر بوغاز جبل طارق، وتوفرها

على مناجم الذهب.[٢٣] وفي هذا الصدد يقول حسن الوزان حول احتلال مدينة سبتة: ‹‹استحوذ أسطول البرتغال على سبتة عام ٨١٨هـ، وفر من كان بها، فدخلها النصارى دون عناء، ومكثوا فيها نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد (المريني) {السلطان أبو سعيد عثمان بن أبي العباس ابن أبي سالم} الذي كان ملكا على فاس آنذاك تخاذل ولم ينهض لاستردادها، بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال. وقد قضت مشيئة الله أن يقتل هذا الملك بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتابه السابقين (...) عام ٨٢٤ للهجرة››.[٢٤]

بعد احتلال مدينة سبتة، أصبحت البرتغال تتطلع إلى السيطرة على مضيق جبل طارق والمناطق الساحلية الأخرى، وهذا ما حدث فعلا عندما أقدمت القوات البرتغالية سنة ١٤٥٨م بمهاجمة مدينة القصر الصغير برئاسة ألفونس الخامس واحتلتها.[٢٥] ويرجع احتلال مدينة القصر الصغير لإشراف مينائها على ميناءي مضيق سبتة وطنجة، وبالتالي فالبرتغال تعتمد عليها لتقوية سبتة وشن هجمات على مدينة طنجة راغبة في احتلالها.[٢٦] واحتلال مدينة القصر الصغير كان له تأثير حتى على المناطق المجاورة، فسكان جبل أنجرة المجاورين تركوا أملاكهم ومتاعهم وغادروا المدينة خوفًا على حياتهم وأرواحهم.[٢٧]

وبعد احتلال البرتغاليين القصر الصغير، تابعوا احتلالهم عدة مواقع أخرى، منها مدينة أنفا التي تقع على شاطئ المحيط الأطلسي على بعد نحو ستين ميلاً شمال الأطلس. وكان لسكان هذه المدينة زوارق خفيفة يشنون بواسطتها هجمات على الموانئ الإسبانية والبرتغالية، مما جعل ملك البرتغال يرسل أسطولا عسكريا مكونا من خمسين سفينة محملة بالجنود والمدفعية العظيمة، ولما رأى سكان المدينة هذا الأسطول الضخم، جمعوا ما يملكون وفروا إلى الرباط وسلا تاركين المدينة خالية، فدخلها الجنود البرتغاليين ونهبوها وخربوها تخريبا تاما، وأحرقوا المنازل وهدموا الأسوار، وذلك سنة (٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م).[٢٨]

وبعد مدينة أنفا، جاء الدور على مدينة المنصورة التي تقع على سهل يبعد بميلين من المحيط الأطلسي، وخمسة وعشرين ميلاً من الرباط، وهي نفس المسافة التي تبتعد بها عن مدينة أنفا. ومدينة المنصورة التي يتحدث عنها حسن الوزان، ليست هي نفس المدينة التي تقع بين الرباط والدار البيضاء اليوم؛ بل ربما يكون موقعها أبعد من ذلك قليلاً إلى الداخل. وكانت هذه المدينة مليئة بالسكان، حيث يوجد نحو أربعمائة كانون (منزل)، إلا أن سكانها غادروها أثناء تخريب البرتغاليين لمدينة أنفا.[٢٩]

وهاجمت القوات البرتغالية من جديد مدينة أصيلا سنة ٨٧٦هـ/ ٢٤ غشت ١٤٧١م واحتلتها،[٣٠] بعد أن فشلت في اقتحام مدينة طنجة بفعل المقاومة الشديدة.[٣١] ويقول الوزان في صدد حديثه عن احتلال أصيلا: ‹‹هاجم البرتغاليون أصيلا على غرة واستولوا عليها وأخذوا كل من وجدوا بها من السكان أسرى إلى البرتغال، ومن بينهم محمد (الوطاسي) ملك فاس اليوم، وكان حينئذ طفلا في السابعة من عمره، وأسرت معه أخت له في نفس السن، لأن أباهما الذي ثار بإقليم الهبط كان يسكن آنذاك بأصيلا (...) ومكث فيه سبعة أعوام تعلم أثنائها اللغة البرتغالية وأتقنها، ثم افتداه أبوه بمال كثير. ومن أجل ذلك لقبوه عندما آلت إليه السلطة بالملك محمد البرتغالي، وحاول مرارا أن يثأر من البرتغاليين وأن يسترجع منهم أصيلا››.[٣٢] وبعد احتلال مدينة أصيلا فُتح الباب على مصراعيه أمام البرتغاليين الذين اقتحموا مدينة طنجة بعد ثلاثة أيام، واحتلوها بعد أن فشلوا في ذلك من قبل.[٣٣] يقول مارمول كربخال في هذا المنوال: «وفي عام ألف وأربعمائة وواحد وسبعين شن الدون ألفونس ملك البرتغال الحرب على المسلمين في بلاد البربر وأخذ منهم مدينة أصيلا ومدينة طنجة».[٣٤]

وبعد سنين طويلة من احتلال طنجة، نزل البرتغاليون في مدينة ترغة عام (٩٠٧هـ/ ١٥٠٢م). وترغة مدينة صغيرة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتبعد بخمسين ميلا عن المضيق، وصفها حسن الوزان بأنها تحتوي على مائة وخمسين كانون تقريبا، أسوارها ضعيفة في الجملة، وسكانها صيادون يملحون ما يصطادونه من سمك ويبيعونه لتجار الجبل. ويضيف الوزان أن المدينة كانت منضبطة وسكانها كثر، لكن بعد أن وطئتها أقدام البرتغاليين، أخذت تنحط سواء في مظهرها أو في عدد سكانها.[٣٥]

وبعد مدينة ترغة جاء الدور على مدينة المعمورة ف ‹‹في سنة ٩٢١هـ أرسل ملك البرتغال أسطولاً ضخمًا لبناء حصن عند مصب النهر، وشرعوا في البناء بمجرد وصولهم، وأقاموا جميع الأسس وبدءوا في تشييد الجدران والأبراج، في حين كان معظم الأسطول راسيا في الميناء. وعلى حين غرة داهمهم أخو ملك فاس فقتل منهم ثلاثة آلاف ومزقهم كل ممزق، لا لعدم مقدرتهم ولكن لاضطراب صفوفهم››.[٣٦] ومدينة المعمورة تبعد عن مدينة سلا باثنين وعشرين ميلاً، وهي تقع على مصب

نهر سبو. كانت مدينة الرباط مهددة دائمًا من طرف البرتغاليين، وحاولوا مرارًا الاستيلاء عليها من أجل تسهيل مأموريتهم في غزو مملكة فاس بكاملها، لكن ملك فاس زودها بكل ما تحتاج من أجل الحفاظ عليها، بغرض الحفاظ على مملكته.[٣٧]

وما يمكن استخلاصه في هذا المبحث، أن البرتغاليين بعد احتلالهم لمدينتي سبتة وطنجة، فتحت شهيتهم للتوغل نحو المناطق المغربية الداخلية، وأصبحوا يتطلعون إلى السيطرة على المغرب بشكل كامل، غير أن المنافسة الإسبانية – البرتغالية حول بعض المناطق الساحلية المغربية، والخلاف بينهما، كانت تجبر قادة البرتغال على تأجيل عملية الانقضاض على المغرب،[٣٨] فتدخلت الكنيسة في فك النزاع بينهما، وأرغمت إسبانيا على الاعتراف للبرتغال بأحقيتها في السواحل الإفريقية، ورغم ذلك نشب خلاف بين الطرفين بالأساس في المسافة التي تمتد بين مدينتي آسفي وإفني تقريبًا، حيث ادعت إسبانيا بأن البراءة البابوية السابقة لم تنص على ذلك.[٣٩] كل ذلك دفع الاحتلال البرتغالي يقتصر على الثغور الشمالية، ولم يتوغل داخليًا، وهذا راجع لسببين من الأسباب، الأول: سبق الإشارة إليه، وهو المنافسة الإسبانية - البرتغالية على الأراضي المغربية؛ والسبب الثاني: شدة وقوة المقاومة المغربية، في بعض المناطق الشمالية، منها: مقاومة المنظريين بتطوان- بني راشد بشفشاون- العروسيين بالقصر الكبير...، والتي حاولت جاهدة إحباط التوغل البرتغالي والاسباني داخل الأراضي المغربية، رغم أن الثغور الشمالية المحتلة، حولتها البرتغال إلى ثكنات عسكرية منعزلة تعتمد على البرتغال في كل شيء.

إذن: هذه هي المناطق التي تم احتلالها في المنطقة الشمالية (مملكة فاس)، لكن البرتغال لم تكتف بها، بل توجهت صوب المناطق الجنوبية بغرض توسيع نفوذها بالدولة المغربية بصفة خاصة، والقارة الإفريقية بصفة عامة. والإشكاليات المطروحة هي: إذا كانت البرتغال قد نهجت سياسة الحديد والنار في احتلالها للثغور الشمالية، فهل نهجت نفس السياسة في احتلالها للمناطق الجنوبية، أم غيرت من منهجياتها وتكتيكاتها؟ وهل اكتفت بالسواحل والثغور كما فعلت في المناطق الشمالية، أم توغلت داخل البلاد؟ ذلك ما نراه في الفقرات القادمة.

٢/٢-الاحتلال البرتغالي لباقي الثغور الجنوبية (مملكة مراكش)

تقدم البرتغاليون عبر الشواطئ الإفريقية الغربية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وازدادت حاجياتهم من المواد الفلاحية (القمح، الشعير ...) والبضائع الصناعية المغربية قصد التعامل بها مع الأفارقة، ومن تم تبين لهم أهمية المنطقتين المغربيتين دكالة وسوس اللتين كانتا تنتجان هذه المواد بكثرة، خصوصًا المواد الفلاحية، فعمدوا في بادئ الأمر إلى إقامة مراكز تجارية، وعقد معاهدات مع بعض الأعيان لتسهيل عمليات التبادل التجاري معهم؛ وبعد خيبة أملهم في ذلك، لجئوا إلى احتلال الثغور المغربية الواقعة جنوب أم الربيع بداية من القرن السادس عشر الميلادي.

(٢/٢) ١-احتلال مدينة آسفي

بدأت البرتغال بمساومة السواحل الجنوبية المغربية انطلاقا من مدينة آسفي، التي سيطرت عليها سنة ١٤٨١م، وفرضت على سكانها شبه حماية برتغالية،[٤٠] بمساعدة مغاربة، على رأسهم أبو زكرياء تعفوفت،[٤١] حيث كانت مدينة آسفي تعيش أوضاع مضطربة، مما دفع ببعض التجار البرتغاليين، المتواجدين آنذاك بآسفي، بتوجيه رسائل نصح إلى ملك البرتغال تحثه على تجهيز أسطول للاستيلاء على المدينة، فتردد ملك البرتغال على القيام بهذا الغزو في بادئ الأمر، إلا أن تأكد له انقسام سكان المدينة إلى طوائف، فقام البرتغاليون بتقديم بعض الهدايا ليحيى بن تعففت لمساعدتهم على دخول المدينة دون صعوبات ولا نفقات كبيرة، وطلبوا منه أن يسمح لهم ببناء حصن على شاطئ البحر يحفظون فيه بضائعهم في أمان، بعد أن تعرضوا للنهب بعد موت حاكم المدينة عبد الرحمان، فسمح لهم تعففت بذلك مقابل أداء الإتاوات المفروضة عليهم. فبدأ البرتغاليون ينقلون الأسلحة سرا إلى هذا الحصن، إلى أن توفرت لهم الذخيرة الكافية للهجوم والدفاع، فاستغلوا بعض الظروف لإحداث اضطراب من أجل الانقضاض على المدينة، فقام غلام أحد التجار البرتغاليين بطعن جزار مسلم، فلما ثارت العامة على البرتغاليين، توجهت صوب الحصن لنهبه، فبدأ البرتغاليون يطلقون أعيرة نارية، وقتلوا أكثر من مئة مسلم، رغم ذلك، حاصر المسلمين الحصن البرتغالي عدة أيام، إلى أن ظهر أسطول برتغالي مجهز بأنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة وخمسة آلاف من الجنود، ومائتي فارس، وذلك بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٥٠٧م، ووصلت سفن أخرى عام ٩١٣هـ/ أول يناير من سنة ١٥٠٨م، فأرهب هذا الأسطول عامة الناس، وتركوا المدينة ملتجئين إلى جبال بني ماجر، ولم يبقَّ إلا تعففت وأسرته الذين وافقوا على بناء الحصن؛ فدخل البرتغاليين للمدينة وسيطروا عليها، وتم تعيين أتعففت حاكما على بواديها لجمع الضرائب وإرسالها إلى ملك البرتغال.[٤٢]

(٢/٢) ٢-احتلال مدينة مْرَامَرْ

لما احتل البرتغاليون مدينة آسفي هرب سكان مْرَامَرْ وتركوا ديارهم خالية لمدة سنة، وبعد ذلك اتفقوا مع البرتغاليين على دفع ضريبة لهم، فرجعوا إلى ديارهم. وتبعد مدينة مْرَامَرْ حوالي ٤٤ ميلاً عن مدينة آسفي، وبها نحو أربعمائة منزل.[٤٣]

(٢/٢) ٣-احتلال جبل بنْي مَاجَرْ

يبعد جبل بنْي مَاجَرْ عن مدينة آسفي ٢٢ ميلاً، وكان خاضعًا لحاكم آسفي، ولما سقط في يد الاحتلال البرتغالي، دخل أهله تحت سلطة المحتلين. فلما قدمت السلطات الوطاسية إلى هذا الجبل، فرَّ بعض المأجورين إلى آسفي، وذهب الآخرون مع الملك الوطاسي إلى مدينة فاس لعدم رضاهم العيش تحت سلطة البرتغاليين.[٤٤]

(٢/٢) ٤-احتلال مدينة أزمور

تابعت البرتغال سيطرتها على المناطق المغربية، حيث احتلت مدينة أزمور التي تُعد من المدن التابعة لمنطقة دكالة، وهي تقع على مصب نهر أم الربيع الذي يصب في المحيط الأطلسي، وهي بعيدة عن المدينة الغربية بأكثر من ٥٦ ميلاً (٩٠ كلم) شمالاً؛ كان سكان هذه المدينة يتعاملون مع التجار البرتغاليين، ولما رأى التجار أهمية المدينة أقنعوا ملك البرتغال بالاستيلاء عليها، فأرسل هذا الأخير أسطولا مكونا من عدة سفن، إلا أنه غرق بسبب قلة خبرة القائد، وذلك بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ٩٢٠هـ / ماي ١٥١٤م.[٤٥] وقد أعاد ملك البرتغال هجمته على مدينة أزمور بعد سنتين، حيث أرسل أسطول آخر مركب من مائتي سفينة؛[٤٦] أما المترجمين فيقولا إن الأسطول تكون من ٥٠٠ سفينة، نزل منه ألف فارس وثلاثة عشر ألف راجل يوم الاثنين ٢٦ جمادى الثانية ٩١٩هـ/ ٢٩ غشت ١٥١٣م.[٤٧] وعندما رأى السكان هذا العدد الهائل من الجنود والعتاد أفجعهم الأمر، ففروا مذعورين نحو الباب، فمات منهم ثمانين نفسا بسبب الاختناق الناتج عن الازدحام حول الباب، وقبل أن تبدأ المعركة بقليل اتفق اليهود مع البرتغاليين على أن يسلموا لهم مدينة أزمور مقابل الحفاظ على حياتهم، فأمنهم البرتغاليين على ذلك، ففتحوا لهم الأبواب، فاستولى البرتغاليين على مدينة أزمور فهاجر سكانها للسكن بسلا وفاس.[٤٨] بينما ‹‹تقول المصادر البرتغالية إن الجنود البرتغالية خيمت أمام أزمور يوم الخميس فاتح شتنبر ١٥١٣م، في حين كان قسم من الأسطول يدخل النهر، وفي الغد الجمعة قنبلت المدينة من طرف المدفعية، وذلك سبب فزع السكان الذين أخلوا المدينة ليلا. (...) وتقول تلك المصادر أيضًا أن اليهود لم يسلموا أزمور إلى البرتغاليين، وإنما جاء أحد اليهود إلى البرتغاليين في منتصف الليل يخبرهم بإخلاء المدينة، فاحتلها البرتغاليون دون حادث صباح السبت ثالث شتنبر ١٥١٣م / ثاني رجب ٩١٩هـ››.[٤٩]

(٢/٢) ٥-تخريب مدينة تدنست

خُربت مدينة تدنست سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢– ١٥١٣م)، بعد أن هجرها سكانها الذين فروا إلى الجبال وبعضهم إلى مراكش، كل هذا بسبب تحالف جيرانهم الأعراب بقيادة يحيى بن تعفوفت مع قائد الجيوش البرتغالية في آسفي، حيث أرادوا تسليمه المدينة، فاتفق السكان جميعهم بمغادرتها، مما أدى إلى خرابها سنة (٩٢٠هـ/ ١٥١٤- ١٥١٥م).[٥٠] و‹‹تفيد المصادر البرتغالية أن عامل أسفي نونيو فرنانديس وحليفه يحيى بن تعفوفت قائد الأعراب هزما أحمد الأعرج {السعدي} يوم فاتح محرم ٩٢٠هـ/ ٢٦ فبراير ١٥١٤م على بعد مائة كيلومتر من آسفي في طريق تدنست››.[٥١]

(٢/٢) ٦-إخلاء مدينة بُولَعْوَانْ

يصف حسن الوزان مدينة بُولَعْوَانْ بأنها صغيرة مبنية على ضفاف نهر أم الربيع، وبها نحو خمسمائة كانون (منزل). وفي عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣ – ١٥١٤م، أرسل ملك فاس أخاه ناصر الحلو الذي كان حاكم مكناس ونائب أخيه فيها وفي بلاد الشاوية، ليدافع عن بلاد دكالة ويحكمها، ولكن بمجرد أن اقترب من مدينة بُولَعْوَانْ عَلم أن الحاكم البرتغالي بأزمور قادم إلى المدينة لإفسادها وأسر سكانها، فأرسل قائدين مع ألفين فارس، وقائد ثالث مع ثمانمائة من الرماة لإنجاد مدينة بُولَعْوَانْ. فوصل الطرفين في نفس الوقت، فدارت معركة حامية الوطيس في يوم الجمعة ١٨ صفر ٩٢٠هـ/ ١٤ أبريل ١٥١٤م، انتصر فيها البرتغاليين بفضل تعاون ألفان من العرب التابعين ليحيى بن تعففت معهم، لكن الوطاسيين أعادوا تنظيم قواتهم وكروا على البرتغاليين في حملة مضادة وطاردوهم وقتلوا خمسين من فرسانهم. ولما وصل أخو الملك إلى دكالة لأخذ الخراج، وعد السكان بأنه سيدافع عنهم، لكن خذلان العرب له، جعله يعود إلى فاس، ولما رأى سكان بُولَعْوَانْ أن أخ ملك فاس غادر دون حمايتهم، فروا إلى جبال تادلة خوفا من أن يعود إليهم البرتغاليون ويفرضوا عليهم إتاوات لا يستطيعون أداءها، وبالتالي يلجئون إلى أسرهم واستعبادهم.[٥٢] ويقول المترجمين في تعلقهما على المعركة: ‹‹هناك رواية مفصلة لهذه المعركة التي جرت يوم الجمعة ١٨ صفر ٩٢٠هـ/ ١٤ أبريل ١٥١٤م، رواها حاكم أزمور "دون جاووديمينيسيس" الذي قاد الحملة مع "نينو فرنانديز" حاكم

أسفي، وذلك في تقرير قدمه للملك عمانويل الأول، زعم أنه لم يهلك من البرتغاليين سوى ٣٢ فارسًا، بينما تؤكد رواية برتغالية أخرى أنه لم تمض ثلاث ساعات على بداية المعركة حتى سقط فيه أكثر من خمسين فارسا برتغاليا زيادة على قتلى المشاة والمجروحين الذين فاق عددهم مائة. وقد هول التقرير وبالغ في أعداد قتلى المسلمين وأسراهم››.(٥٣)

(٢/٢) ٧-إغارة البرتغاليين على بلدة أنماي وفشلهم في احتلالها

يصف حسن الوزان بلدة أنماي بأنها واقعة في منحدرات الجبل نحو السهل على واد تساوت أحد روافد أم الربيع، على بعد نحو أربعين ميلا من مراكش في الطريق المؤدية إلى فاس والمحاذية لسفوح الجبل، وتسمى اليوم: سيدي رحال. وكان يحكم هذه البلدة شاب شجاع مستقل بحكمه عن ملك مراكش، وقد أظهر هذا الشاب شجاعته عندما تحالفت بعض الأعراب مع ثلاثمائة فارس برتغالي للإغارة على منطقته على حين غرة، فقاموا بذلك إلى أن وصلوا إلى أبواب المدينة، فتصدى لهم هذا الشاب بمائة فارس وعدد من الأعراب المتحالفين معه، فصرع جميع الفرسان البرتغاليين والعرب المتعاونين معهم، وذلك سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤- ١٥١٥م.(٥٤)

(٢/٢) ٨-تدمير مدينة أدِيكِيسْ

دمرت مدينة أدِيكِيسْ عام ٩٢٢هـ، وهي السنة الموافقة لسنة ١٥٠٥م، في حرب ضد البرتغاليين، ففر جميع سكانها إلى الجبال.(٥٥) إلا أن المترجمَيْن يقولا إن هناك تحريف نسخي في الأرقام، فيقولا إن المؤلف تقدم قبيل هذا وذكر العام ٩٢٣هـ/ يوافق ١٥١٤م؛ ويقولا ربما يكون الصواب هنا: ٩٢١ هـ/ توافق ١٥١٥م.(٥٦)

(٢/٢) ٩-إخلاء حاضرة "المدينة"

" المدينة " هي حاضرة من قرى دكالة، ويقول حسن الوزان أن ملك فاس نقل سكان هذه الحاضرة إلى مدينة فاس حذرا من البرتغاليين، إذ بلغه أن شيخا يدعى بميمون يتعاون مع البرتغاليين في جمع الضرائب من السكان. فبقيت هذه المدينة خالية على عروشها، وذلك سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م.(٥٧) ويقولا المترجمين: ‹‹يشكك بعضهم {يقصد المصادر البرتغالية} في كون الملك الوطاسي نقل جميع سكان تيط الى ناحية فاس، لأن حسن الوزان غادر المغرب بالقرب من هذا التاريخ فلم يكن يعرف ما إذا عمرت المدينة بعد حركة الوطاسي أو خلت››.(٥٨)

(٢/٢) ١٠-هدم قرية تِيُّوتْ

يقول الوزان عن قرية تِيُّوتْ أنها «صغيرة في سهل تكتنفه الجبال، بعيدة عن إيدَاوْ إزْكَوَاغَنْ بعشرة أميال إلى الغرب، وبها نحو ثلاثمائة كانون {منزل}».(٥٩) وأنه زارها وقضى فيها ليلة في ضيافة أهلها، وبعد طلوع الفجر غادروا المدينة وذهبوا حيث ذهب الأمير الوطاسي، وبمجرد المغادرة هدمت المدينة من طرف الرتغاليين وقتل بعض سكانها وأُسرى آخرون، وذلك سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م.(٦٠)

(٢/٢) ١١-احتلال حصن "أگدير گسيمة"

يقول حسن الوزان عن حصن "أگدير گسيمة" بأنه يقع في أقصى طرف جبال الأطلس نحو المحيط الأطلسي، وبه أراضي زراعية استولى عليها البرتغاليين، فاتفق أهل حاحا وسوس على استرجاع هذا الحصن، بمساعدة عدد كبير من المحاربين الذين أتوا من النواحي النائية، واتخذوا لهم قائد من الشرفاء، والذي قام بحصار الحصن عدة أيام، فمات خلال هذا الحصار عدد وافر من المحاربين الغرباء عن البلد، فتخلَّى بعضهم عن القتال ورجعوا إلى ديارهم، وبقي البعض مع هذا الشريف لمتابعة قتال البرتغاليين، واكتفى سكان سوس بدفع مبالغ للقائد الشريف لتجهيز الفرسان.(٦١)

(٢/٢) ١٢-احتلال مدينة تيط

تيط، مدينة تدخل ضمن منطقة دكالة، يقول عنها حسن الوزان: ‹‹تيط مدينة قديمة تبعد عن أزمور بنحو أربعة وعشرين ميلا (...) ولما احتل البرتغاليون أزمور خضعت تيط إلى ملك البرتغال باتفاق مع قائده وأدت له بعض الإتاوات. وفي عهد شبابي جاء ملك فاس بنفسه إلى تيط لينجد سكان دكالة. ولما لم يتمكن من الحصول على أية نتيجة، (...) نقل سكان تيط إلى فاس وعين لإقامتهم قرية صغيرة مهجورة منذ مدة، تبعد عن فاس باثني عشر ميلا››.(٦٢) ويقول المترجمين في تعليقهما على مدينة تيط: ‹‹ما تزال آثار تيط ظاهرة عند زاوية مولاي عبد الله أمغار على شاطئ البحر، بعيدة عن مدينة أزمور بخمسة وعشرين كيلومترا جنوبا. ومعنى تيط بالبربرية: عين جارية››.(٦٣)

إذن، أمام هذا الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية، لم يقف المجتمع المغربي مكتوف الأيدي، فكان لابد له من رد فعل اتجاه هذا الاحتلال، لكن رد الفعل هذا، اختلف لدى المجتمع المغربي. والأسئلة التي تطرح نفسها هنا: كيف كان رد الفعل المغربي اتجاه الاحتلال البرتغالي؟ هل كان استسلامي، أم تعاوني، أم دفاعي -جهادي؟ وكيف ساهمت الزوايا في تأليب المغاربة على الاحتلال البرتغالي؟ وهل برزت قوة عسكرية ذات

سلطة سياسية استطاعت تخليص المغاربة من كابوس الاحتلال البرتغالي؟ ذلك ما سنراه في الفقرات التالية.

ثالثًا: رد فعل المجتمع المغربي والزوايا والسلطة اتجاه الاحتلال البرتغالي

٣/١-الموقف الاستسلامي لبعض فئات المجتمع المغربي اتجاه الاحتلال البرتغالي

لقد نهج البرتغاليون عند احتلالهم للسواحل المغربية سياسة المراحل: ففي المرحلة الأولى سلكوا سياسة القوة في احتلال الثغور الشمالية، انطلاقا من سنة ١٤١٥م إلى سنة ١٤٨٦، فكلفتهم تضحيات كبيرة.[٦٤] أما المرحلة الثانية فاستعمل البرتغاليون الدهاء السياسي، ولجؤا إلى العمل الدبلوماسي والسياسي، وتجنبوا القوة كما فعلوا سابقا، لأن تجربتهم الاستعمارية الأولى كلفتهم خسائر مادية وبشرية، وبالتالي لم يحتلوا السواحل والمناطق الجنوبية، إلا بعد اطلاعهم على الأوضاع المغربية الداخلية الممزقة، ومطالبة بعض المغاربة الحماية والأمن من البرتغاليين مقابل الخضوع لسلطتهم، بعد انعدام الأمن داخل السلطة المغربية الحاكمة.[٦٥]

وأمام عجز السلطة الوطاسية المغربية عن ضبط الأوضاع الداخلية المتأزمة، واحتلال الغزاة الأيبيريين للسواحل المغربية، استغلت فئات من المجتمع المغربي تواجد هذا الغزو وعملت على مساعدته والدخول في حمايته، من أجل الوصول إلى السلطة أو تحقيق أرباح في التجارة الداخلية والخارجية.[٦٦] ويبدو أن ظاهرة التعامل والدخول في الحماية الأجنبية -كما يقول عبد المجيد القدوري -كانت معهودة لدى المسلمين، خاصة في الأندلس، فانتقلت آثارها فيما بعد إلى المغرب.[٦٧]

وساهم الاحتلال الأجنبي للسواحل المغربية في تحكم الدولتين الأيبيريين (البرتغال وإسبانيا) في أهم المنافذ التجارية البحرية، وتحويل جزء متزايد من تجارة السودان لصالحهم، مما دفع ببعض المدن والقبائل المحاذية للبحر إلى مهادنتهم والتعامل معهم تجاريا. فوقعت بعض المدن (دكالة – عبدة – سوس) عدة معاهدات مع البرتغاليين، وكانت هذه المعاهدات جميعها في صالح البرتغاليين وتخدم مصالحهم السياسية والاقتصادية والعسكرية،[٦٨] حتى غدى بعض السكان يصرحون بالضرر الذي لحقهم نتيجة هذه المعاهدات؛ لأن المعاهدات كانت توقع من البعض كتعبير جماعي، لكنها في حقيقة الأمر، كانت فئة عريضة ترفضها رفضًا تامًا، بحكم التمسك بالشرع الإسلامي أو نتيجة الأضرار الناجمة عنها، حيث كانت تخدم فئة معينة، وتضر بآخرين، فكانت الفئة المستفيدة تسعى إلى إبرام هذه المعاهدات مع البرتغاليين لتقوية طموحاتها الاقتصادية والسياسية عن طريق الوصول إلى الزعامة،[٦٩] ومن أهم الشخصيات التي استغلت هذه الأوضاع: أبو زكرياء يحيى بن محمد أوتعففت،[٧٠] ومالك بن داوود، وعبد الرحمان بن حدو، وهناك نماذج أخرى كثيرة ذكرتها الوثائق والمصادر؛[]وهناك من كان يفتخر بالتعامل مع البرتغاليين، ويمارس النهب والسلب في حق إخوانه المسلمين من العرب والأمازيغ.[٧١]

وبهذه السياسة الخطيرة للدولة البرتغالية، استطاعت هذه الأخيرة أن تنخر المجتمع المغربي من الداخل، وتحدث الفتنة بتسخير بعض المغاربة على البعض الآخر في حرب أهلية، مستفيدة منها في تحقيق مآربها؛ وبهذا الدهاء السياسي للقادة البرتغاليين، أصبحت السلطة المغربية، وفئات عريضة من المجتمع المغربي تتراجع وتنحط في عدة مستويات (سياسية، عسكرية، اجتماعية، أخلاقية، نفسية، دينية، تعليمية ...).[٧٢] وساهم الغزو البرتغالي لبعض الأراضي المغربية في إفراغ بعض المدن الساحلية التي أصبحت خالية على عروشها، وأخرى أُفرغت من ساكنتها، نتيجة المضايقة التي تعرضت لها الساكنة المغربية. يقول محمد حجي في هذا الصدد: «كانت البداوة طاغية على الحياة الحضرية بالمغرب أوائل القرن العاشر الهجري (١٦م) بسبب اختفاء عدد كثير من المدن، وبخاصة في المنطقة الساحلية التي استولى فيها البرتغاليون والاسبانيون على ثغور قضوا على صبغتها المغربية وحولوها إلى مراكز استيطان لجنودهم وجالياتهم، كما هجر السكان مدنا أخرى لمجرد مضايقة المحتلين ومجاورتهم أو للشعور بالعزلة بسبب اختلال الأمن وانقطاع السبل».[٧٣]

ويمكن القول إن قبول المغاربة للحماية البرتغالية في الوهلة الأولى ناتج عن الظروف المتأزمة التي كان المغرب يعيشها اقتصاديا وسياسيا وأمنيا؛ وأن زعماء المدن كانت لهم أهداف أخرى وهي الوصول إلى الحكم، وشكل أوتعففت خير نموذج لهذا التيار البرغماتي الذي ظهر في تلك الفترة، حيث كانت له مآرب وطموحات كبيرة اقتصاديًا وسياسيًا، كما يؤكد على ذلك أعدائه المغاربة والبرتغاليون، الذين كانوا يرسلون رسائل إلى الملك البرتغالي يبينون له الطموحات السياسية لأوتعففت، الرامية إلى الاستقلال بالحكم عن العرش البرتغالي.[٧٤]

وإذا كانت تجربة يحيى بن محمد أوتعففت، ومن سار على منواله، تصنف ضمن خانة الخنوع والطاعة لأعداء الإسلام والمسلمين والوطن؛ فقد كانت تجربة ثانية عكس ذلك، مثلها

المقاومين والمصلحين الدينيين الرافضين لأي تواجد أجنبي بالأراضي المغربية، وهي الفئة الراجحة من حيث العدد، وقاومت الاحتلال بكل ما أوتيت من قوة، وقد مثلتها الأغلبية الساحقة من المجتمع المغربي تحت زعامة المشايخ وأولياء الزوايا. إذن: أمام الموقف الانهزامي والاستسلامي لبعض فئات المجتمع المغربي حكام ومحكومين، في بادئ الأمر، كيف كان موقف الفئات الأخرى، وهي الفئة الساحقة داخل المجتمع المغربي برمته؟

٢/٣-قيام مشايخ وأولياء الزوايا بتأطير المجتمع المغربي لمواجهة الاحتلال البرتغالي

بذل الوطاسيون جهودًا كبيرة في إعادة تنظيم الدولة ومواجهة الحركات الانفصالية، وهذا ما جعل مواجهتهم للبرتغاليين جد محدودة، حيث اقتصروا على مهادنتهم أحيانا، وتنظيم بعض الحملات العسكرية ضدهم أحيانا أخرى. وبعد اغتيال أبي سعيد المريني، تطلع إلى الحكم أبي زكرياء الوطاسي الذي أدرك أن العامل الأساسي لتثبيت حكمه هو النداء إلى الجهاد، فقام بهذا الدور، واستطاع أن يحرر بعض الثغور المغربية من الاحتلال إلى أن حِيكت عملية اغتياله سنة ١٤٤٨م.[٧٥] لكن خلفائه في الحكم من الوطاسيين فشلوا فشلاً ذريعًا في مواجهة الغزو البرتغالي والإسباني للسواحل المغربية، بل عجزوا عن ضبط الأمن وتوحيد المغرب تحت سلطة مركزية.

وأمام هذا العجز العسكري للسلطة المركزية الوطاسية في الدفاع عن حوزة البلاد، وإيقاف الزحف البرتغالي، اضطرت القبائل المحاذية للثغور المحتلة إلى الاعتماد على إمكاناتها الذاتية لمواجهة الغزو البرتغالي بتأطير من بعض الزوايا التي انبرت إلى الدعوة للجهاد.[٧٦] يقول عبد الكريم كريم في هذا الصدد: «منذ أن تم للبرتغال احتلال سبتة، وطوال مراحل الاحتلال التالية، ظهر عجز السلطات القائمة وضعفها عن مواجهة الأحداث، فقام المخلصون من الدعاة والأئمة والمشايخ يحثون الناس على بذل النفس والنفيس للدفاع عن الوطن ولإعلاء كلمة الإسلام».[٧٧]

وهكذا ظهرت مؤسسات الزوايا كرد فعل للشعب المغربي ضد الاحتلال الأجنبي للسواحل المغربية، الذي هو امتداد لحروب الاسترداد المسيحية ضد المسلمين انطلاقا من الأندلس، وملاحقتهم في عقر دارهم بالمغرب، نتيجة ضعف السلطة المرينية-الوطاسية. وأصبحت الزوايا تشكل القوة السياسية والاجتماعية، خلال القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، حيث أطرت المغاربة، و«دافعت عن البلاد وأنقذت المغرب من فقدان هويته، وجنبت المغاربة ما حصل للهنود {الحمر} السكان الأصليين للعالم الجديد».[٧٨]

وقد برز كثير من الدعاة والأئمة والمشايخ المخلصون الذين سلكوا مسلك التأطير، ومن أبرزهم، نموذجين هما: الشيخ بن يجبش التازي الذي اندهش من غفلة الناس عن الجهاد، والانحراف عن الدين، والمستعمر يستعد لغزو ما تبقى من أقاليم الدولة المغربية، فبدأ يحث الناس على الجهاد، ويحفزهم بفضائل الجهاد عند الله، ونظم قصائد في ذلك. أما الثاني فهو الإمام الهبطي الذي بدأ بدوره يحث الناس على الجهاد، والابتعاد عن البدع والرجوع بالدين إلى حقيقته، واتخاذ السلف الصالح قدوة لهم. ولم يكتف المصلحون بتحريض الناس على الجهاد، بل لجئوا إلى جمع الأموال لصرفها على شؤون الجهاد وافتكاك الأسرى، وكانت الدعوات إلى الجهاد من طرف هؤلاء الدعاة تتزايد باستفحال الخطر المسيحي، حتى ذهب بعضهم إلى تكفير كل قادر ومتقاعس عن مهمة الجهاد، واستنكر بعضهم تخاذل السلاطين والحكام عن أمر الجهاد، ومهادنة العدو عوض تعبئة الجيوش لمحاربته.[٧٩]

والأدوار التي أُنِطت بها مؤسسة الزوايا، جعلتها تتحول من مؤسسة دينية إلى مؤسسة سياسية، وهذا ما عبر عنه عبد المجيد القدوري بقوله: «بدأت الزوايا تتحرك بصفتها مؤسسات دينية واجتماعية واقتصادية قبل أن تظهر طموحاتها السياسية. وانتشرت هذه المؤسسات في كل أرجاء المغرب».[٨٠]

واضطلعت الزوايا وشيوخها وأئمتها بوظائف مختلفة، فكانوا إلى جانب السكان يبذلون «الغالي والرخيص للدفاع عن البلاد وإعلاء كلمة الإسلام، وكانوا يستنكرون ضعف الحكام وتخاذلهم ومهادنتهم أحيانا للعدو، وبذلك تقوى نفوذ الزوايا السياسي. وتزخر كتب المناقب بالأمثلة على ذلك».[٨١] فمشاركة الأولياء في عملية الجهاد ضد الأيبيريين فتحت لهم الأبواب لتقوية «مكانتهم السياسية وبداية منافستهم للوطاسيين، {فأصبح الملوك} يتخوفون من حركة الزوايا التي أصبحت تشكل قوة سياسية وبشرية قادرة على تنظيم المجتمع وتسييره».[٨٢] وخير دليل موقف الإمام الجزولي من الوطاسيين، فبعد أن داع صيته وكثر أتباعه، وانتشرت طريقته بدأ يحث على الجهاد، ويعادي الوطاسيين، ويقدم الدعم الكامل إلى الأشراف السعديين.[٨٣] ومن تم تعددت جيوب المقاومة المغربية حول الثغور المحتلة، ونتيجة لذلك أُجبر البرتغاليون على الاعتصام

بالحصون التي بنوها على الشواطئ، حيث كانوا يشنون حملات القتل والنهب لإرهاب السكان والحصول على التموين.

ونستنتج أن رد الفعل المغربي اتجاه الاحتلال البرتغالي انقسم إلى تيارين: تيار قَبِلَ الغزو البرتغالي وتعاون معه، فكان هدفه هو الحفاظ على مصالحه الاقتصادية والسياسية، وضمان الاستقرار والأمن الذي كان يفتقر إليه المجتمع المغربي؛ ومقابل هذا التيار الذي أيدَّ الغزو البرتغالي، كان تيار آخر يرفض هذا الغزو، واعتبر قبوله بمثابة انتحار في حق البلاد والعباد، وهذا التيار الأخير كان أكثر شعبية، و«شمل جميع مناطق المغرب، وانخرطت فيه جل الشرائح الاجتماعية. وتبنى أصحاب هذا الموقف الصمود والمقاومة والدفاع عن المغرب والمغاربة ضد الهجمات المسيحية التي هي استمرار للحروب الصليبية وامتداد لحروب الاستردادات»،[٨٤] فنجح دعاة المقاومة والصمود في «تأطير المغاربة وملء الفراغ السياسي الناتج عن ضعف الوطاسيين وتنمر المسيحيين»،[٨٥] وتشكل هذا التيار بالأساس من الزوايا التي استطاعت أن تنشر تعاليمها في المجتمع المغربي، وذلك بنهج سياسة الاندماج والتأقلم مع عادات وأعراف المجتمع.

إذن: أمام الموقف الانهزامي الأول، ظهر الموقف الثاني متمثلا في المصلحين من المشايخ ورجال الزوايا الذين فشلوا بدورهم في طرد الاحتلال البرتغالي بشكل كامل، فلجئوا إلى البحث عن قيادة قادرة على تنظيم صفوف المغاربة والتصدي للحملات المسيحية، ولما لا إخراج المحتليين وطردهم نهائيا من السواحل المغربية. إذن: من هي هذه القوة الجديدة التي ظهرت على الساحة السياسية؟ وهل فعلا نجحت في مُهمتها التي بُويعت من أجلها؟ ذلك ما نجيب عليه في الفقرات الموالية.

٣/٣-صعود سلطة السعديين إلى الحكم، والقضاء على التدخل الأجنبي

ساهم الاحتلال الإسباني والبرتغالي لبعض الثغور المغربية شمالاً وجنوبًا، في إضعاف القوة العسكرية والسياسية للدولة الوطاسية، وما زاد الطين بلة، بروز معارضة داخلية تجلت في الزعامات المحلية التي استقلت استقلالا كاملا في الشمال (المنظريين بتطوان- بني راشد بشفشاون ...)، أما جنوبا، فأصبحت سلطتهم شبه منعدمة، ولم تعد لهم إلا السلطة الاسمية، ، وهذا ما عبر عنه الوفراني نقلا عن زهرة الشماريخ بالقول: «استحكمت شوكة الروم وبقي المسلمون في أمر مريج، لعدم أمير يجتمعون عليه وتجتمع عليه كلمة الاسلام، لأن بني وطاس كانت قد فشلت ريح ملكهم في بلاد سوس وإنما كان لهم الملك في حواضر المغرب، ولم يكن لهم من السلطنة بسوس إلا الاسم فقط. مع ما كان فيه بنو وطاس أيضا من معاناة قتال الكفار بثغر أصيلا والعرائش وطنجة وحجر بادس وغيرها من الثغور والمراسي».[٨٦]

وسعت كل الزعامات، بما فيها الوطاسية، إلى استغلال الجهاد ضد العدو من أجل الوصول إلى الحكم، ورفضت الاحتلال البرتغالي والاسباني، لكنها فشلت في طرده من السواحل والثغور المحتلة، وبالتالي وُضعت شرعية الزعامات على المحك لدى عامة الناس، وفقدت الآمال المعقودة عليها، وأصبحت غالبية عامة الشعب تبحث عن قوة قادرة على توحيد المغاربة تحت قيادة واحدة، وتطرد المحتل من المناطق المحتلة. وسبق وتحدثنا عن احتلال منطقة سوس من طرف البرتغاليين خلال منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، بحكم أنها أكبر المناطق المتضررة من الاحتلال البرتغالي، خاصة إذا علمنا أن بعض ساكنة هذه المنطقة لم ترغب في الدخول تحت الحماية البرتغالية، وظلت ترفض هذا الاحتلال وحمايته بتاتا، وهناك بعض الوثائق ذكرها "عبد الكريم كريم" تؤكد رفض سكان سوس للاحتلال والحماية البرتغالية، ومعاداتهم حتى للقبائل الساحلية التي استسلمت للمحتل ودخلت في حمايته.[٨٧]

وبما أن بلاد سوس هي المقر الأساسي والأولي للطريقة الجزولية، التي هي فرع من فروع الطريقة الشاذلية الصوفية، فقد قام أئمتها وشيوخها بدور كبير في دعوة الناس إلى الجهاد، وعلى رأسهم مؤسس الطريقة ابن سليمان الجزولي، مما جعل الطريقة تنتشر في عدة مناطق مغربية، وعمت شهرتها كل بلاد المغرب،[٨٨] خصوصا منطقة سوس، بحكم التفاف قبائل سوس حول فروع الزاوية الشاذلية في أقا وتيدسي لتنظيم مقاومة محلية، غير أن عدم جدوى ذلك في إيقاف التهديد البرتغالي، جعل كلا من القبائل وشيوخ الزوايا يقتنعون بضرورة تعيين قيادة قادرة على توحيد المنطقة وتعبئتها لحركة الجهاد. يقول اليفراني نقلا عن زهرة الشماريخ: «إن سبب قيام أبي عبد الله القائم أنّ أهل السوس أحاط بهم العدوّ الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة، (...) فلمّا رأى أهل السوس ما دهمهم من تفاقم الأهوال وطمع العدو في بلادهم، ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك، فذكروا له ما هم فيه من انتشار جماعتهم وافتراق كلمتهم، وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم، وطلبوا منه أن تجتمع كلمتهم عليه، ويعقدون له البيعة ويقوم بأمر الناس في إمضاء الحكم بينهم وجمعهم لقتال عدوّهم. فامتنع من ذلك، وقال لهم إنّ رجلا من

الأشراف بتكمدارت من بلاد درعة، يقول إنه سيكون له ولولديه من بعده شأن. فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب بكم وألْيَق بمقصودكم. فبعثوا إليه، وكان من أمره ما كان».(٨٩)

وهكذا استقر رأي أهل سوس وأوليائها وشيوخها على تعيين الشرفاء السعديين، فتمت مبايعة الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله على رأس القيادة سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) بمنطقة تدسي قرب تارودانت، بعد أن استجاب لندائهم وقَبِلَ مبايعته على الجهاد وتوحيد القيادة السياسية تحت سلطته،(٩٠) و من بعده ابنيه أحمد الشيخ ومحمد الشيخ.(٩١)

وبعد مبايعة أهل الجنوب للأشراف السعديين على الجهاد، انطلقت حركتهم من الجنوب، وبالضبط من منطقة سوس، التي شكلت إلى جانب أقصى جنوب المغرب، مهد انطلاق الحركات الصوفية، بحكم أنها نقطة وصل أساسية في المبادلات التجارية مع السودان،(٩٢) وبهذه المنطقة تلقى السعديون الدعم العسكري والمالي من أهل حاحا وسوس لمقاومة الاحتلال البرتغالي؛(٩٣) وإصلاح البلاد بعد أن أصبحت في فوضة عارمة وفساد كبير ومنتشر،(٩٤) وهذا ما عبر عنه مصطفى الغاشي في كلمات مختصرة بقوله: ‹‹عرف المغرب مع بدايات القرن السادس عشر أربع ظواهر أساسية: الفتن الداخلية، الغزو البرتغالي للسواحل المغربية، قيام دولة الشرفاء وحركات الزوايا››.(٩٥)

وهكذا بدأت الحركة السعدية مع محمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله بمساعدة ابنيه أحمد الأعرج ومحمد الشيخ، فيقول المؤرخ المجهول عن هاذين الأخوين: ‹‹وقد طالت الحروب مع النصارى إلى أن توجه للجهاد الأخوان مولاي محمد الشيخ وأخوه {أحمد الأعرج}، فانتسبوا لأهل سوس وقالا لهم: (نحن إخوانكم) وما لنا في درا إلا جدا واحدا ثم انتسبا لهم بأنهما شريفان، (...) فمازالا إلى أن صارا من رؤساء المجاهدين››.(٩٦) فبدأ السعديون بتأمين الموارد المالية (الزكاة والأعشار ...) لتعبئة المجاهدين، وسعوا لاحتكار السكر وتصديره للأوربيين المناوئين للبرتغاليين (انجلترا-هولندا...)، مقابل الحصول على الأسلحة النارية. يقول مصطفى الغاشي في هذا المضمار: ‹‹يتضح أن السعديين قد استفادوا من عنصرين أساسيين في تحقيق مشروعهم السياسي: الجهاد ضد الغزو البرتغالي للسواحل المغربية واستعمال السلاح الناري››.(٩٧)

إذن، ارتبطت شرعية وصول الأسرة السعدية إلى الحكم في المغرب بعامل الشرف، والعمل على تحقيق رغبة عامة الناس وخاصتهم (الأولياء – الشيوخ والعلماء...)، المتجلية في توحيد المغرب تحت سلطة موحدة، وطرد المحتل من السواحل المغربية، وهذا ما سعى إلى تحقيقه السعديون بعد وصولهم إلى الحكم، حيث عملوا بالتدرج وعبر مراحل في تحرير الثغور المغربية من الاحتلال البرتغالي.(٩٨) يقول محمد حجي في هذا الصدد: «على أن هذه السحابة السوداء لم تلبث أن أخذت تنقشع مع ظهور السعديين وانتشار نفوذهم، فلم يتوسط القرن العاشر (١٦م) حتى تخلصت شواطئ سوس وآسفي وآزمور والعرائش وأصيلا، وأسست مدن أخرى أو جددت واتسع عمرانها، كحصن المنكب (أكادير ايغير)، والمحمدية (ترودانت)، وشفشاون، وتطوان، كما استرجعت مراكش سالف عمرانها ومجدها».(٩٩) وبتحرير السعديون لحصن سانتاكروز سنة ١٥٤١م تم توجيه الضربة القوية للاحتلال البرتغالي. وعبر مراحل تم القضاء على الحكم الوطاسي، وبالتالي توحيد المغرب تحت سلطتهم.(١٠٠) ورغم ذلك استمرت التحرشات الخارجية بالمغرب (البرتغاليون-العثمانيون والإسبان ...)، إلى حدود معركة واد المخازن،(١٠١) التي وضعت حدا للأطماع الخارجية، ولا داعي للدخول في تفاصيل أحداث هذه المعركة،(١٠٢) بحكم أن أحداثها معروفة لدى الكثير، وأنجزت حولها دراسات كثيرة.

ونستنتج مما سبق، أن تجربة أوتعففت اختلفت عن تجربة الشرفاء السعديين، فأوتعففت اعتمد على القوة الخارجية في تحقيق مآربه وطموحاته، عبر مساعدة البرتغاليين في تحقيق مصالحهم عن طريق التقرب إليهم، وحارب المغاربة للوصول إلى السلطة، فكانت تجربته فاشلة في آخر المطاف؛ أما الشرفاء السعديين فاعتمدوا على القوة الداخلية المكونة من المجتمع المغربي، وأيضًا على دعم بعض الزوايا لمحاربة الاحتلال البرتغالي، وهذا ما جعلهم يحظون بثقة المجتمع الذي ساعدهم في الجهاد والوصول إلى الحكم.(١٠٣)

خَاتِمَةٌ

شكل القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين منعطفًا جديدًا في التاريخ الحديث، حيث برزت قوات جديدة استطاعت أن تكون إمبراطورية تمتد على عدة جبهات. ففي آسيا الصغرى ظهرت الإمبراطورية العثمانية التي امتد نفوذها إلى ثلاث قارات (آسيا-أوربا-إفريقيا). أما في الغرب الأوربي فظهرت الدولتين الإيبيريتين (البرتغال-إسبانيا) كقوتين استعماريتين استطاعتا أن تطوفا حول العالم، وتكتشفا عالم جديد، وبالتالي الاستيطان في هذه المناطق المكتشفة بعد أن تم القضاء على الحضارات التي كانت سائدة حينئذ. وأيضًا استطاعتا أن تؤسسا عدة مراكز على القارة الإفريقية، من أجل الوصول إلى القارة الهندية.

ومن بين المراكز التي تم تأسيسها على القارة الإفريقية، احتلال بعض الثغور على السواحل المغربية، التي فازت منها البرتغال بحصة الأسد. ولما تولَّ السعديون الحكم بمساعدة رجال الزوايا، استطاعوا أن يُنظموا المقاومة المغربية، وأن يعدوا العدة للزحف على الاحتلال البرتغالي، ومن تم طرده من السواحل المغربية، إلا أن الخلافات حول الحكم بعد وفاة محمد الشيخ السعدي، فَتح الباب من جديد أمام هذا الاحتلال لغزو المغرب، فتم إجهاض مخططاته بالانتصار عليه انتصارًا ساحقًا في معركة سميت بعدة أسماء، أشهرها معركة "واد المخازن" ومعركة القصر الكبير، ومعركة الملوك الثلاث، ومعركة واد السيل، ومعركة تامدة وغيرها، حيث توفي فيها ثلاثة ملوك من ضمنهم السلطان المغربي عبد المالك السعدي، وبوفاة هذا الأخير في يوم المعركة، تولى أخوه أحمد المنصور زمام الحكم، واستطاع أن يؤسس دولة قوية بكل امتياز.

الاحالات المرجعية:

(١) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل ٢٨ غشت ١٤٨١م – أكتوبر ١٥٤١م)**، دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، تاريخ النشر: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص: ١٤٨- ١٥٠.
(٢) محمد الشريف، **المغرب وحروب الاسترداد**، مطبعة الخليج العربي، تطوان – المغرب، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥، ص: ١٠٥ – ١٢١.
(٣) نفسه، ص: ١٠٥-١٠٦.
(٤) أحمد بوشرب، نفسه، ص: ١٤٨.
(٥) محمد الشريف، نفسه، ص: ١٠٧.
(٦) انظر: أحمد بوشرب، نفسه، ص: ١٤٨- ١٥٣. ومحمد الشريف، نفسه، ص: ١٠٧- ١١١.
(٧) دييگودي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمه إلى العربية: محمد حجي- محمد الأخضر، مطابع سلا، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٨٨م، ص: ١٢- ١٣.
(٨) مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية: مجموعة من المؤلفين، الجزء الأول، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مطابع المعارف الجديدة، الرباط – المغرب، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص: ٤٥٠.
(٩) أحمد بوشرب، نفسه، ص: ١٥٤.
(١٠) محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، الجزء الأول، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة الفضالة، في متم ربيع الثاني ١٣٩٧هـ/ ٢٠ أبريل ١٩٧٧، ص: ٤٩.
(١١) أحمد بوشرب، **"مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، والبحر الأحمر، والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل"**، مقال ضمن مقالات واردة في مجلة المناهل، عدد ٢٦، جمادى الأولى ١٤٠٣/ مارس ١٩٨٣، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ص: ٧٧.
(١٢) محمد الشريف، المغرب وحروب ....، ص: ١١١- ١١٤.
(١٣) أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي ....، ص: ١٥٣ – ١٥٤.
(١٤) محمد الشريف، نفسه، ص: ١٢٠.
(١٥) أحمد بوشرب، دكالة ....، ص: ١٥٤.
(١٦) نفسه، ص: ١٥٣- ١٥٤.
(١٧) محمد الشريف، نفسه، ص: ١١٩ – ١٢٠.
(١٨) أحمد بوشرب، **"مساهمة الوثائق البرتغالية** ....، ص: ٧٧.
(١٩) دييگودي طوريس، **تاريخ الشرفاء** ....، ص: ١٢- ١٣.
(٢٠) محمد الشريف، **المغرب وحروب الاسترداد** ....، ص: ١٢١.
(٢١) مارمول كربخال، **إفريقيا** ..، ص:٤٥٠. وأنظر: دييگودي طوريس، **تاريخ الشرفاء** ....، ص: ١٢- ١٣.
(٢٢) حسن الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمه إلى العربية: محمد حجي- محمد الأخضر، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص: ٣١٨. ومارمول كربخال، **إفريقيا**، ج١، ....، ص: ٤١٣. وأحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء الرابع، الدولة المرينية، القسم الثاني، تحقيق وتعليق: جعفر

الناصري ومحمد الناصري، طبع ونشر، دار الكتاب، الدار البيضاء – المغرب، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص: ٩٢ – ٩٣. عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، منشورات المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص: ٦.

(٢٣) عبد الكريم كريم، **المغرب** ....، ص: ٦.

(٢٤) حسن الوزان، نفس المصدر، ص: ٣١٨.

(٢٥) حسن الوزان، نفسه، ص: ٣١٦. عبد الكريم كريم، نفسه، ص: ٨.

(٢٦) عبد الكريم كريم، نفسه، ص: ٨.

(٢٧) حسن الوزان، نفسه، ص: ٣٢٢.

(٢٨) نفسه، ص: ١٩٦- ١٩٧.

(٢٩) نفسه، ص: ١٩٨.

(٣٠) الناصري، **الاستقصا** ...، ج ٤، ص: ١١٦. حسن الوزان، ج١، نفسه، ص: ٣١٨. عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص: ٨.

(٣١) انظر حسن الوزان، نفسه، ص: ٣١٤- ٣١٥. عبد الكريم كريم، نفسه، ص: ٨.

(٣٢) حسن الوزان، نفسه، ص: ٣١٢- ٣١٣.

(٣٣) انظر حسن الوزان، نفسه، ص: ٣١٤- ٣١٥. عبد الكريم كريم، نفسه، ص: ٨.

(٣٤) مارمول كربخال، **إفريقيا** ...، ص: ٤٢٣.

(٣٥) للمزيد من التفاصيل، انظر حسن الوزان، ج١، نفسه، ص: ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٣٦) للمزيد من التفاصيل، انظر حسن الوزان، ج١، نفسه، ص: ٢١٠- ٢١٣.

(٣٧) نفسه، ص: ٢٠٢- ٢٠٣.

(٣٨) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية** ....، ص: ٨.

(٣٩) نفسه، ص: ٨ – ٩.

(٤٠) نفسه، ص: ٩.

(٤١) حسن الوزان، نفسه، ص: ١٤٨ – ١٤٩.

(٤٢) نفسه، ص: ١٤٩- ١٥١.

(٤٣) نفسه، ص: ١٥٩.

(٤٤) نفسه، ص: ١٥٩ – ١٦٠.

(٤٥) نفسه، ص: ١٥٧- ١٥٨.

(٤٦) نفسه، ص: ١٥٨.

(٤٧) نفس المصدر، تعليق للمترجمين في الهامش، تعليق رقم (٧٣)، ص: ١٥٨.

(٤٨) نفسه، ص: ١٥٨- ١٥٩.

(٤٩) نفس المصدر، تعليق للمترجمين في الهامش، تعليق رقم (٧٤)، ص:١٥٨- ١٥٩.

(٥٠) نفسه، ص: ٩٩- ١٠٠.

(٥١) نفس المصدر، تعليق للمترجمين في الهامش، تعليق رقم (٣)، ص: ١٠٠.

(٥٢) نفسه، ص: ١٥٥- ١٥٦.

(٥٣) نفس المصدر، تعليق للمترجمين في الهامش، تعليق رقم (٧٠)، ص: ١٥٦.

(٥٤) نفسه، ص: ١٣٧.

(٥٥) نفسه، ص: ١٠١- ١٠٢.

(٥٦) نفس المصدر، تعليق للمترجمين في الهامش، تعليق رقم (٥)، ص: ١٠٢.

(٥٧) نفسه، ص: ١٥٢- ١٥٣

(٥٨) نفس المصدر، تعليق للمترجمين في الهامش، تعليق رقم (٦٢)، ص: ١٥٣.

(٥٩) نفسه، ص: ١٠٣.

(٦٠) نفسه، نفس الصفحة.

(٦١) نفسه، ص: ١١٨- ١١٩.

(٦٢) نفسه، ص: ١٥٢.

(٦٣) نفس المصدر، تعليق للمترجمين في الهامش، تعليق رقم (٦١)، ص: ١٥٢.

(٦٤) أحمد بوشرب، دكالة ...، ص: ١٦١ – ١٦٤. عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)**، نشر وتوزيع: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م، ص: ١٠٢.

(٦٥) أحمد بوشرب، نفسه، ص: ١٦٤ – ١٦٥. عبد المجيد القدوري، نفسه، ص: ١٠٢- ١٠٣.

(٦٦) انظر: إلى تفاصيل الامتيازات التي حصل عليها الحكام المغاربة المتعاونيين مع البرتغال: أحمد بوشارب، **دكالة** ...، ص: ١٧٦ – ١٨٥.

(٦٧) عبد المجيد القدوري، نفسه، ص: ١٠١.

(٦٨) نفسه، ص: ١٠٣.

(٦٩) نفسه، ص: ١٠٤- ١٠٥.

(٧٠) انظر: بعض المعلومات عنه: عبد المجيد القدوري، نفسه، ص: ١٠٥- ١٠٩.

(٧١) نفسه، ص: ١٠٩- ١١٠.

(٧٢) نفسه، ص: ١١٠.

(٧٣) محمد حجي، **الحركة الفكرية** ....، ص: ٥١.

(٧٤) للمزيد من التفاصيل انظر: عبد المجيد القدوري، نفسه، ص: ١٠٥- ١٠٩.

(٧٥) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية** ...، ص: ٢٨.

(٧٦) نفسه، ص: ٢٥.

(٧٧) نفسه.

(٧٨) عبد المجيد القدوري، نفس المرجع، ص: ١١٩.

(٧٩) عبد الكريم كريم، نفس المرجع، ص: ٢٥.

(٨٠) عبد المجيد القدوري، نفس المرجع، ص: ١٢٢.

(٨١) نفسه، ص: ١٢٤.

(٨٢) نفسه.

(٨٣) نفسه، ص: ١٢٦.

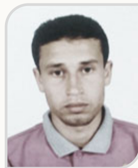
(٨٤) نفسه، ص: ١١٦.

(٨٥) نفسه.

(٨٦) محمد الصغير الوفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. ص: ٤١.
(٨٧) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية** ...، ص: ٣٥.
(٨٨) نفسه، ص: ٣٥- ٣٦.
(٨٩) محمد الصغير الوفراني، **نزهة الحادي** ...، ص: ٤١ – ٤٢.
(٩٠) نفسه، ص: ٥٠.
(٩١) نفسه، ص: ٥١.
(٩٢) عبد المجيد القدوري، نفس المرجع، ص: ١٢٧.
(٩٣) حسن الوزان، نفس المصدر، ص: ١١٩.
(٩٤) عبد المجيد القدوري، نفسه، ص: ١٢٨.
(٩٥) مصطفى عبد الله الغاشي، **العثمانيون وعلاقتهم بالمغرب خلال الفترة الحديثة**، محاضرات في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان- مرتيل، ص: ٤٥.
(٩٦) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، المطبعة: دار تينمل للطباعة والنشر، الناشر: عيون المقالات، الطبعة الأولى: ١٩٩٤.ص:١٣.
(٩٧) مصطفى عبد الله الغاشي، نفسه، ص: ٤٥.
(٩٨) انظر للتفاصيل: محمد الصغير الوفراني، نفس المصدر السابق، ص: ٥٠ –٥٥.
(٩٩) محمد حجي، الحركة الفكرية ...، ص: ٥١.
(١٠٠) للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث، انظر مؤرخ مجهول، نفس المصدر، ص: ١٣- ٣٣.
(١٠١) سُميت أيضًا بمعركة القصر الكبير في المصادر الأجنبية، ومعركة تامدة في كتاب مرآة المحاسن، ومعركة واد السيل في الكتابات العثمانية، ومعركة الملوك الثلاثة بسبب وفاة ثلاثة ملوك في المعركة.
(١٠٢) انظر تفاصيل معركة واد المخازن في كتاب المؤرخ المجهول، نفس المصدر، ص: ٥٨- ٦٢. وأيضًا انظر محمد الصغير الإيفراني، **نزهة الحادي** ...، ص: ١٣٩- ١٤٣.
(١٠٣) عبد المجيد القدوري، نفس المرجع، ص: ١١٣- ١١٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

سياسة التجنيس بالجنسية الفرنسية في الجزائر فيما بين (١٩١٩ - ١٩٣٩م) وتأثيراتها على الحياة السياسية
قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م أنموذجًا



د. العربي إسماعيل
دكتوراه تاريخ الحركات الوطنية المغاربية
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ
أحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على بعض ممارسات الإدارة الفرنسية في إطار سياستها الاستعمارية، وتتعلق هذه السياسة بتجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنسية ومنحهم صفة المواطنة الفرنسية في إطار قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م، الذي كان يخدم الإدارة الاستعمارية أكثر مما يخدم الجزائريين، على اعتبارا أن الفرنسيين قد هدفوا من خلال هذا القانون بصفة خاصة ومشاريع التجنيس الأخرى بصفة عامة، إلى زيادة عدد المجندين في الجيش الفرنسي، زيادة على محاولة استنزاف طبقة دون غيرها (= الفئة المتفرنسة)، تكون هذه الفئة في خدمة الإدارة الفرنسية تحقيقًا للمشروع الاستعماري. بالإضافة إلى محاولة تسليط الضوء في هذه الدراسة على تأثيرات هذا القانون على مسار النضال السياسي في الجزائر، من خلال تبيان ردود فعل الوطنيين والزعماء السياسيين وما تركه هذا القانون على الحياة السياسية في البلاد، وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي لاستعراض مختلف الأحداث التاريخية، بالإضافة إلى المنهج الإحصائي بالعودة إلى بعض الإحصائيات التي تعلقت بالدراسات، زيادة على المنهج التحليلي، وهذا من خلال محاولة تحليل ما أوردته مصادر ومراجع البحث. ومن خلال هذه الدراسة البسيطة لمشاريع التجنيس في الجزائر وتأثيراتها السياسية، والتطرق إلى قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م كأنموذج للدراسة، توصلنا إلى عدد من النتائج حيث شغلت مسألة التجنس حيزًا كبيرًا من اهتمام الجزائريين، وهذا من منطلق أن المسألة تخص قيم المواطنة والقومية والانتماء العربي والإسلامي، بالإضافة إلى ما في المسألة من مساس للشخصية القومية والإسلامية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	سبتمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٠	أكتوبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
السياسة الاستعمارية؛ مشاريع التجنيس؛ قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م؛ تأثيرات التجنيس؛ الحياة السياسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.205314

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
العربي إسماعيل. "سياسة التجنيس بالجنسية الفرنسية في الجزائر فيما بين (١٩١٩ – ١٩٣٩م) وتأثيراتها على الحياة السياسية: قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م أنموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٢٩ – ١٤٤.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: ismaillarbi2017@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

اتبعت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر العديد من السياسات والاستراتيجيات التي كانت تهدف من ورائها إلى فرض سيطرتها المطلقة وإحكام قبضتها على ذلك البلد، وقد كانت سياسة تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنسية وإلحاقهم- بالحظيرة الفرنسية- من بين إحدى تلك السياسات التي اتبعتها الفرنسيون، ولعل قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م هو أنموذج من بين سياسات التجنيس التي جاءت بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وهو ما يدفعنا بالبحث في مضمون هذا القانون وتأثيراته على الحياة السياسية في الجزائر كإشكالية لهذه الدراسة، التي نهدف من خلالها إلى تبيان الأثر الذي تركته سياسته التجنيس بالجنسية الفرنسية على الحياة السياسية في الجزائر، وهذا من منطلق الأهمية البالغة التي يكتسيها الموضوع، باعتباره موضوعًا حيويًا يميط اللثام عن إحدى استراتيجيات وسياسات الاستعمار الفرنسي التي تهدف إلى إذابة العنصر الجزائري في- الحظيرة- الفرنسية، وهذا في إطار ما يسمى بالقضاء على الكيان والهوية الجزائرية.

أولاً: السياق العام لاستصدار قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م

مما لا شك فيه أن لكل حادثٍ تأثيره النفسي والاجتماعي، مثلما هو الحال بالنسبة للحرب العالمية الأولى[١] والتي شكلت نقطة مفصلية في مسار ووقائع الأحداث في تاريخ الجزائر المعاصر، حيث تركت آثارًا وانعكاساتٍ على مظاهر الحياة في المنطقة، فعلى الرغم من إسهامات الجزائريين الفعالة في الحرب[٢] إلا أنها كانت بعيدة عن المسرح السياسي العالمي، على اعتبار أن الجزائر مستعمرة فرنسية وأن كل ما تقدمه ينطوي تحت خدمة- الوطن الأم-.[٣] ومع نهاية الحرب، وبعودة الجزائريين المشاركين فيها إلى بلادهم، حيث ساهمت تلك الحرب في تخمر الأفكار، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى التفكير في مستقبلهم ومستقبل وطنهم، عبر ركوب أمواج النشاط والنضال السياسي، الأمر الذي ساهم في ظهور شخصيات تأثرت بتجارب الحرب أولا، كما أثرت كل تلك الأحداث في الحياة السياسية الجزائرية[٤] إلى جانب ذلك نجد نشوء الصحافة [٥] (=بداية النشاط الصحافي كوسيلة من وسائل الحركة الوطنية) في الجزائر ثانيا. فالمتتبع لمجريات الأحداث ووقائع الحرب وانعكاساتها على الجزائريين، سيلاحظ التطورات السياسية التي عرفتها البلاد جراء الأحداث التي تزامنت مع تلك الحرب الضروس، من الثورة البلشفية وهجرات العمال ونشاط نقاباتهم، زيادة على انتصارا القوميات الأوربية بفعل ما أقرته مبادئ ويلسن Wilson[٦] الأربعة عشر، وهو ما ساهم في تغيُّر مجريات الأحداث في جزائر ما بعد الحرب.[٧]

وفي خضم تلك الأحداث، طالب- الأهالي- بمعية المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي بالحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون، وهي الفكرة التي تخمرت مع نهاية الحرب، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى المطالبة بصورة خاصة في إشراك ممثليهم في الحياة السياسة، بإدراجهم في المجالس المنتخبة، خاصة المجالس المحلية منها، وهذا بانتخاب ممثلينَ ونوابٍ يتمتعون بما يتمتع به الممثلون والنواب الفرنسيون.[٨] وقد وجد البعض في إقرار مبدأ الخدمة العسكرية بمقتضى قانون التجنيد الإجباري سنة١٩١٢م، حجة متينة للمطالبة بإدخال إصلاحاتٍ في الجزائر، موازاةً مع مشاركة الجزائريين في الحرب دفاعًا عن فرنسا، ولذلك خصصت جريدة الوقت- le temps عديد المقالات التي كان لها الأثر البالغ في كل من فرنسا والجزائر، حيث طالب بعض المعتدلين في تلك المقالات بالتساوي في الحقوق بين الفرنسيين والجزائريين، إلى جانب المطالبة بحق التمثيل النيابي في المجالس الفرنسية المنتخبة.[٩]

وبالتالي، فإن انخراط الجزائريين في الحرب وتعليق المجندين من-الأهالي- آمالاً كبيرة على جهودهم المبذولة فيها، كان الهدف منه تحقيق- نوع من الإيجابية-، الشيء الذي جسده الأمير خالد[١٠] من خلال العريضة[١١] التي تقدم بها رفقة وفدٍ إلى الرئيس الأمريكي ويلسن، بمناسبة انعقاد مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩م بباريس، والتي ظلت حبرًا على ورقٍ بالنسبة للرئيس المذكور[١٢]، وعليه خاب أمل الوفد، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، حيث وصل إلى تهديد أعضاءه بالمتابعة القضائية.[١٣] هذا، ولم تُعَّدِل ح اع مواقف الفرنسيين، فقد مُدِحَ الجزائريون المجندون من غير الاعتراف بما أكسبتهم تضحياتهم من حقوقٍ سياسيةٍ، ففي هذا الصدد صرح مارسيل سان جرمان- Marcel SAINT GERMAIN "نائب وهران بمجلس الشيوخ" قائلاً: "... قام الأهالي بواجبهم نحونا واستحقوا المجازاة، ولكن، هل من الضروري أن نلتجئ من أجل ذلك إلى إجراءات التهور !!".[١٤] وعلى الرغم من معاناة الجزائريين وما قدموه من تضحيات في الحرب، فيمكن القول أنهم انتفعوا من ذلك عبر اكتساب المزيد من الوعي السياسي، ما يفسره- بروز الحركة الوطنية بقيادة الأمير خالد-مُؤَزَّرَةً بالأفكار السياسية الجديدة التي ملأت العقول، عند

انتهاج الأمير خالد نهجًا مُكمِّلاً لحركة الشباب الجزائري[١٥] قصد التخلص من سياسة الإقصاء- والإدماج- المنتهجة من طرف الفرنسيين.[١٦]

هذا، وقد أطلقت السلطات الفرنسية خلال الحرب العديد من الوعود للجزائريين، بتوسيع دائرة الهيئة الانتخابية وتخفيف الضرائب إضافة إلى تمثيل أوسع..، وقد بقيت كل هذه الإصلاحات محل انتظارٍ، وما تم إدخاله منها، فهو ضمن سياسة فرنسا المجحفة[١٧] الأمر الذي يفسره مرسوم ٣٠ نوفمبر ١٩١٨م، والذي أسّس للمساواة الضريبية عن طريق إلغاء الضرائب العربية.[١٨] وبالموازاة مع الظروف والأسباب والأحداث (= على المستوى الداخلي) المذكورة آنفًا، لا يمكن إغفال ما كان يتزامن مع تلك الأحداث على المستوى العالمي (= على المستوى الخارجي)، والتي أدت بفرنسا إلى إقرار- الإصلاح- في الجزائر، وهو ما نلمسه في الضغوطات الخارجية من أجل ذلك (= تلك الإصلاحات) كضغوطات الدعاية الألمانية والعثمانية، زيادة على بعض الثورات التحررية وإقرار مبدأ تقرير المصير.[١٩] وفي هذا الإطار، أقرت السلطات الاستعمارية مجموعة من المراسيم والقوانين مثل مرسوم٠٧ سبتمبر ١٩١٦م[٢٠]، وبعده بأسبوعٍ، صدر مرسوم يقضي بتزويد فرنسا بـ ٧٨ ألف عامل، الأمر الذي أثار حفيظة الجزائريين الذين رفضوا التجنيد، ورفضوا خدمة بلدٍ يرفض إنصافهم ومنحهم حقوقهم السياسية، وعلى هذا الأساس قامت عدة ثورات متفرقة في الجزائر كرد فعل عن تلك السياسة.[٢١]

هذا، ولعل ما ساهم في إدخال بعض-الإصلاحات-كذلك من عواملَ وأسبابٍ تخص الجزائر، تلك الثورات والانتفاضات التي قادتها الحركة السياسية، إلى جانب اللوائح والعرائض المطلبية التي رفعها الشباب الجزائري إلى السلطات الفرنسية في العاصمة باريس، والتي تضمنت مجموعة من المطالب المتنوعة التي تهدف إلى إصلاح أوضاع الجزائريين، وتحقيق آمالهم وطموحاتهم.[٢٢] كما سبق تلك الاحتجاجات وُفُودٍ وعرائضَ أرسل بها إلى رئيس الجمهورية الفرنسية بوانكاريه-POINCARÉ[٢٣]حيث اتسمت بلهجة الاعتدال في مخاطبة السلطات الفرنسية، زيادة على استخدام الصحافة للتعبير وخاصة الفرنسية منها، وقد تزامن ذلك مع اتساع دائرة الاحتجاج والمظاهرات كما سبق الذكر[٢٤]، وهو ما- أقنع فرنسا بأن دوام الحال في الجزائر من المحال، على اعتبار أن الاحتفاظ بالحالة الراهنة غير ممكن-، وأن كل هذا سوف يؤدي إلى فقدان الجزائر.[٢٥]

وبهذا، وُضِعت فرنسا أمام الأمر الواقع، اعتبارا من الوقائع والظروف التي دفعت بها إلى إدخال بعض- الإصلاحات- إلى الجزائر، الشيء الذي انتقد فيه سعد الله وبشدة كلام (TOYNBEE) توينبي[٢٦] حول تلك الإصلاحات التي اعتبرها نتيجة للمبادرة الفرنسية، وليست نتيجة لأي ضغط من أي حركة سياسية منظمة من طرف -الأهالي-، واعتبر سعد الله أن تلك الإصلاحات هي في الأساس محطةً وصولٍ لرحلةٍ بدأت سنة ١٩١٤م.[٢٧] وعلى هذا الأساس، فقد كانت وزارة الحربية أول من فكر في منح الجنود الجزائريين صفة المواطنة الفرنسية التي وُعِدوا بها منذ أوت ١٩١٤م، ولهذا سجل كاتب الدولة للشؤون الخارجية آبل فيري-Ferry Abel[٢٨] القضية في جدول الأعمال لتاريخ٣١ديسمبر١٩١٤م، فيما نَوَّهَ بالدور البارز للجنود الجزائريين في سبيل فرنسا، مذكرًا بأن بلده تَعتبر ذلك دَيْنًا على عاتقها.[٢٩]

وعلى هذا الأساس، سجلت السنوات العشر الأولى بعد نهاية الحرب (١٩١٩م-١٩٢٩م)- تطورا ملموسا بالنسبة للأهالي- كما سبق الذكر تحت تأثير الإقامة في فرنسا جراء التجنيد والهجرة للعمل والانخراط في النقابات، وأصبح هؤلاء (= الأهالي) أقل جمودا وأقل طواعية مما كانوا عليه، الأمر الذي أدى إلى نوع من الوعي، من منطلق الاعتراض بالحجج والعرائض والوفود إلى جانب الانخراط في الجمعيات- والشُّعَبِ الحزبية-.[٣٠] وعليه، ففي سنة ١٩١٨م قدمت السلطات الاستعمارية ممثلة في حكومتها، مشروعا خاصا يقضي بإدخال بعض الإصلاحات إلى الجزائر، والذي (= المشروع) كان قد سبقه العديد من المشاريع التي تصب في قالب واحد، أبرزها مشروع موتيه[٣١]-MOTET[٣٢]، والذي تمخض عنه إصلاحات ١٩١٩م، حيث فتحت تلك الإصلاحات المجال أمام النخبة الجزائرية للتعبير عن مواقفها.[٣٣]

وعلى هذا الأساس، ومع مستهل السنة البرلمانية، درست غرفة النواب في٠٧ نوفمبر ١٩١٨م مشروع جونار- JOUNARD[٣٤] الذي دار نقاش كبير حوله بين مؤيدٍ ومعارضٍ، حيث نادى البعض من مؤيدي المشروع بالسماح للمنتخبين- الأهالي- بالتصويت في نفس القائمة الانتخابية الفرنسية، ويبدو أن ليس للأمر أهمية، اعتبارًا من زيادة القاعدة الانتخابية لا زيادة أو إدراج نوابٍ من الجزائريين في المجالس المنتخبة، ولعل في ذلك تعبير عن تأسف أنصار الاندماج.[٣٥] وبالتالي، فبفضل نضال الحركة الوطنية الجزائرية[٣٦]، وضغوطات بعض الفرنسيين ذوي الضمائر الحية، خاصة بعد مشاركة الجزائريين في ح ع١ إلى جانب فرنسا و- كمكافأة[٣٧]- على ذلك، تم إدخال بعض الإصلاحات[٣٨] إلى الجزائر

متمثلةً في قانونِ إصلاحاتِ ٠٤ فيفري ١٩١٩م، والذي جاء ببعض المبادئ الخاصة بالعلاقات الجديدة بين الجزائريين وفرنسا.[٣٩]

ثانيًا: قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م، سؤال المحتوى

أدت جهود العمال والجنود الجزائريين وتضحياتهم خلال ح ع١ علاوة على موجة الغضب التي سادتِ الجزائرَ، في ظل قيام اليسار الفرنسي[٤٠]، بتأييد حركة الإصلاح في الجزائر في ظل رفض جورج كليمنصو[٤١]-Georges Clemenceau، الإذعان لسلطة الكولون وضغوطاتهم[٤٢] لإدخال تلك الإصلاحات[٤٣] التي أكثر ما يقال عنها أنها إصلاحات - معتدلة-.[٤٤] أدخل كليمنصو بعض التعديلات على القانون[٤٥] من أجل- تحسين العلاقة الفرنسية الجزائرية التي سادها التوتر طيلة القرن ١٩م-، وقُدِّمَ القانون على أساس أنه هدية للجزائريين ومكافأة لهم جراء تفانيهم في جبهات القتال في ح ع١، حيث يُمَّكن هذا القانون لهؤلاء دخول- الحظيرة- الفرنسية، وهي في الأصل محاولة لتسهيل مهمة الاستعمار، على اعتبار أن من أدمِجوا تم توظيفهم في خدمة إدارة الاحتلال.[٤٦]

هذا وقد قام كليمنصو بتعديل القانون، وخاصة فيما تعلق الأمر بعلاقة الجزائريين بفرنسا والتي عرفت تقهقرا طيلة ق١٩م، واعتبر القانون- هدية- للجزائريين المشاركين في الحرب العالمية الأولى[٤٧]، فبعد مشاورات عديدة بين الحاكم العام في الجزائر وكليمنصو، بادرت الحكومة الفرنسية في فيفري ١٩١٩م إلى اتخاذ قرارات سياسية لترضية الجزائريين الذين كانوا ينادون بإصلاحات من جهة وتعترف لهم بالدور الفعال الذي قاموا به خلال ح ع١ من جهة أخرى، وتمثل هذا القرار في منح التصويت في الانتخاباتالمحلية لقرابة ٤٢١٠٠٠ جزائري، وإعطائهم ما كان للفرنسيين من امتيازات.[٤٨]

أصدرت سلطات الاستعمار الفرنسي قانون فيفري ١٩١٩م، والذي يحتوي على شطرين اثنين، يضم كل شطر مجموعة من المواد، فبالنسبة للشطر الأول من القانون الذي حمل عنوان " كيفية تمتع الجزائريين بالمواطنة الفرنسية" ضم ١١ فصلا[٤٩]، جاء الفصل الأول بعنوان: الوطنيون الجزائريون المسلمون يسوغ لهم التجنس بالجنسية الفرنسية التامة عملا بأحكام قانون مجلس الشيوخ (= القرار المشيخي) الصادر في ١٤ جويلية ١٨٦٥م وبموجب القانون الحالي، في حين جاء الفصل الثاني بعنوان: كل وطني جزائري مسلم ينال بطلبه الجنسية الفرنسية التامة إذا توفرت فيه مجموعة من الشروط، أما بالنسبة للفصل الثالث فقد أقر بأن الوطني الجزائري المسلم الذي يريد التجنس بالجنسية الفرنسية التامة طبق هذا القانون، يجب عليه أن يوجه إلى قاضي الصلح (= الجوج دبي) أو الحاكم القائم مقامه طلبا في نسختين، ويضيف مجموعة من المستندات والوثائق، في حين بين الفصل الرابع أن من قدم ذلك الطلب فإنه بعد شهر يُستدعى إلى المحكمة قصد التحقيق في تلك الوثائق، وبخصوص الفصل الخامس فقد بيَّن أن كل محل سكنى طالب التجنس في فرنسا أو أحد مستعمراتها أو المقاطعات التابعة لها من المحميات، فإنه يتوجه إلى محكمة الصلح في محل بلدته الأصلية من اجل النظر في طلب التجنس.

بالإضافة إلى ذلك، حوا الفصل السادس أنه بعد مُضِيِّ شهرين من يوم تسجيل الطلب في مكتب المحكمة الأهلية بحيث لم يقع عليه أي اعتراض من طرف الوالي أو وكيل الدولة عملا بالفصل السابع أو الفصل الثامن من هذا القانون، وفيما يخص الفصل السابع فقد تضمن أنه في حالة إذا ما وقع اعتراضٌ من طرف الوالي العام أو وكيل الدولة وجرى الإخبار به في الآجال المحددة بمجرد بطاقة مرسلة إلى كاتب المحكمة الأهلية، فإن هذا المحكمة تنظر في صحة الاعتراض بكونه مبنيا على عدم شرط من الشروط المنصوص عليا في الفصل الثالث، أو على تعمير ذمة الطالب بحكمٍ لارتكابه فعلا من الأفعال المذكورة في ذلك الفصل نفسه، ثم إن المحكمة تنعقد في أجل شهر انعقادا علنيًا لقبول ذلك الطلب الاعتراض أو رفضه، وفي حالة رفضه يصرح بأن الطالب مقبول في الجنسية الفرنسية.

وعن الفصل الثامن ففي نفس الشهرين المقرر بالفصل ٠٦، فإنه يجوز للوالي العام أن يصدر أمرًا بعد المحاورة فيه بمجلس الولاية وموافقة وزير الداخلية عليه يعترض به على تصريح المحكمة المنصوص عليه في هذا الفصل نفسه بدعوى أن طالب الجنسية الفرنسية غير أهل لها وإذ ذاك يصير الطلب الملغى بتلك الحيثيات لا يمكن تجديده إلا بعد مضي خمس سنوات، فيما حوا الفصل التاسع فحوى الاستئناف إلى المحكمة العليا لنقض الأحكام في الحكم الصادر من محكمة المطلب الأول بأنه مفتوح سواء لوكيل الدولة أو لطالب التجنس، وبه يتوقف الطلب وتقديم الاستئناف إلى المحكمة العليا المذكورة وحكمها فيه يقع بالوجوه والأحوال المنصوص عليها في الآمر الدولي الصادر في ٠٢ فيفري ١٩١٤م والإعلامات بالاستئناف توجه إلى وكيل الدولة أو تصدر منه.

وفيما تعلق بالفصل العاشر بالرسوم الشرعية التي تعفى من حق الطابع وتسجل مجانا وملخصات عقود الازدياد والزواج تعطى مجانا أيضا في أوراق مطلقة إما لطالبها أو لقاضي

الصلح، ويكتب في أعلى تلك الأوراق أنها استخرجت لتلك الخصوصية فقط، ولا يجوز استعمالها في غير ذلك من وجوه الاستعمال، وعن الفصل الحادي العشر فقد تعلق بنتائج الأحكام الصادرة بمقتضى الفصول ٠٦، ٠٧، والفصل ٠٩، وهي النتائج التي علقها قانون مجلس الشيوخ (= القرار المشيخي).

أما بخصوص الشطر الثاني فقد جاء بعنوان: "النظام السياسي- للأهالي- المسلمين الجزائريين غير المواطنين الفرنسيين" ضم هو الآخر ٥ مواد[٥٠]: نصت المادة الأولى من هذا الشطر أو الفصل الثاني عشر على أن الوطنيين الجزائريين المسلمين الذين لم يطلبوا الاتصاف بالجنسية الفرنسية، فَيَنُوبُ منهم في جميع مجالس المناظرة بالبر الجزائري أعضاء منتخبون بالوجه والحقوق التي هي للأعضاء الفرنسيين، مع استثناء أحكام الفصل ١١ من القانون النظامي الصادر في ٠٢ أوت ١٨٧٥م، هذا وقد جاء الفصل الثالث عشر ليُبَيِّنَ أن الأوامر الدولية تصدر في تنظيم الدائرة الانتخابية الوطنية الإسلامية وفي أسلوب انتخاب الأعضاء الذين ينوبون من المسلمين في كل المجالس، ولا يسوغ لمن يُنْتَخَبُ عضوًا في المجلس البلدي أو مجلس العمالة أو مجلس النيابات المالية أن يكون موظفا في وظيفة قائد أو أغا أو باشاغا أو خوجة في بلدة مختلطة أو خوجة في قسمة من قسمات العمالة أو حارس أو شرطي أو فارس في بلدة مختلطة.

وبخصوص الفصل الرابع عشر فقد عُني بالوطنيين غير المتجنسين بالجنسية الفرنسية بحيث يجوز توليتهم في الوظائف والمناصب العمومية بالوجه الذي يجوز في ذلك للفرنسيين، وبشروط الأهلية المطلوبة من الفرنسيين، إلا أنه سيصدر أمر من الدولة بتعيين عدة وظائف دولية لا يجوز للمسلمين أن يتولوها ما لم يكونوا متجنسين بالجنسية الفرنسية التامة، وإن الوطنيين المسلمين الذين سيستفيدون في القائمات الانتخابية لا يسوغ الحكم عليهم فيما يخص المخالفات والجنح إلا بارتكابها من الأفعال ما يرتكبه الفرنسيون أصالة أو تجنسا، ولا يحكم عليهم في ذلك إلا المحاكم التي تحكم على الفرنسيين ما عدا الأمور الخصوصية المتوسل بها بحماية الغاب وحفظه بمقتضى قانون ٢١ فيفري ١٩٠٣م، وما عدا أحكام قانون يوم ١٤ جويلية ١٩١٤م المتعلق بالنفي تحت مراقبةٍ خصوصيةٍ.

وقد تطرق الفصل الخامس عشر إلى أنه في كل دوار مُكَوَّنٍ عملا بقانون مجلس الشيوخ (= القرار المشيخي) الصادر في ٢٢ أفريل ١٨٦٥م، وفي كل قسم من أقسام الوطنيين المسلمين له جماعة ينوب عنه قانون ينتفع في خدمة الطرق والآبار والعيون وغير ذلك من الأعمال التابعة للعامة المفيدة الصالحة لسكان الدوار. هذا وقد جاء الفصل السادس عشر والأخير من هذا القانون ليبين أن أحكام هذا القانون يجري به العمل في جميع الوطن المدني بالبر الجزائري.

وقد صدر القانون في الجريدة الرسمية الفرنسية ل يوم٦ فيفري١٩١٩م، **حيث ضم المواد الآتية**[٥١] والتي تسمح-للأهلي-الجزائري التمتع بالمواطنة الفرنسية، ومنه الحصول على حق الانتخاب[٥٢]:

- السماح للجزائريين بالتجنس بالجنسية الفرنسية بشرط التخلي عن أحوالهم الشخصية.
- إلغاء القوانين الأهلية الزجرية في الشمال والجنوب.
- إلغاء الضرائب المعروفة باسم الضرائب العربية.
- إلغاء القانون التعسفي الذي كان يمنع الجزائريين حق الرعي في الغابات، ويفرض عليهم حراستها مجانا، وغرامة جماعية ما إن حدث حريق مهما كان السبب.
- وضع حد لنهب الأراضي الشخصية وأراضي القبائل والأعراش الجماعية.
- منح حق الانتخاب والترشح لكل جزائري مستوفٍ **لجملة من الشروط منها**[٥٣]:

- تأدية الخدمة العسكرية.- حامل للنياشين أو مالك للأرض.
- أن يكون موظفا أو تاجرا أو حاملا لشهادة تعليم متوسطة أو عليا.

وقد نص قانون فيفري١٩١٩م كذلك بالسماح لبعض الجزائريين بالتجنس بالجنسية الفرنسية، مع التخلي عن أحوالهم الشخصية[٥٤]، **وبخصوص التجنس فقد اشتُرِط**:

- بلوغ سن ٢٥ سنة من العمر، كما يجب أن يكون أعزبًا أو متزوجًا من زوجة واحدة.
- التمتع بالحقوق السياسية بعدم محاكمته من قبل بجريمة.
- المكوث في بلدية الإقامة أو في مستعمرة أو مقر محمي فرنسي لمدة سنتين.[٥٥]

وقد بدت هذه الشروط بسيطة في ذهن المشرع الفرنسي، الأمر الذي أدى به إلى صياغة شروط أخرى مكملة للشروط السابقة الذكر، والتي يجب توفر أحدها لطلب المواطنة الفرنسية[٥٦]، منها[٥٧]:

- الخدمة في الجيش أو البحرية الفرنسية مع شهادة حسن السلوك تمنحها له السلطات العسكرية.

- معرفة القراءة والكتابة باللغة الفرنسية، وأن يكون من أصحاب الأملاك، مزارع في الريف أو مالك من الملاك في المدينة بتقديم عقود تثبت ذلك، أو إيصالات عن دفع الضرائب لمدة سنة.
- أن يكون موظفًا أو متقاعدًا، أو من المنتخبين لشُغل منصب عام، وأن يكون حائزًا على أحد الأوسمة الفرنسية.
- أن يبلغ ٢١سنة من العمر، وأن يكون لأب جزائري هو الآخر تجنس بالجنسية الفرنسية.

وبناءً على قانون الرابع فيفري ١٩١٩م، فقد تجنس من الجزائريين قرابة ٢١٣١- أهلي-، وهذا خلال الفترة الممتدة ما بين فيفري ١٩١٩م الى غاية ديسمبر ١٩٣٨م[٥٨]، وهذا ما سنوضحه من خلال الجدول الآتي:

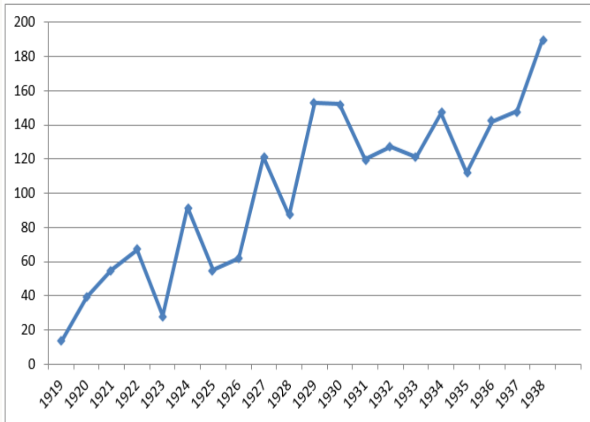
الجدول ١: عدد المتجنسين وفق قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩، من عام ١٩١٩م إلى ١٩٣٨م.

السنوات	المتجنسون وفق قانون ٠٤ فيفري	السنوات	المتجنسون وفق قانون ٠٤ فيفري
١٩١٩	١٣,	١٩٢٩,	.١٥٣
١٩٢٠	٣٩,	١٩٣٠,	.١٥٢
١٩٢١	٥٥,	١٩٣١,	.١٢٠
١٩٢٢	٦٧,	١٩٣٢,	.١٢٧
١٩٢٣	٢٨,	١٩٣٣,	.١٢١
١٩٢٤	٩٢,	١٩٣٤,	.١٤٧
١٩٢٥	٥٥,	١٩٣٥,	.١١٢
١٩٢٦	٦٢,	١٩٣٦,	.١٤٢
١٩٢٧	١٢١,	١٩٣٧,	.١٤٨
١٩٢٨	٨٧,	١٩٣٨	.١٩٠
المجموع	.٢١٣١		

المصدر: عايدة حباطي، (٢٠٠٣- ٢٠٠٤)، ص ١٢٧.

من خلال الجدول نلاحظ تطورًا مستمرًا في عدد المتجنسين، ويمكن توضيح ذلك عبر المنحنى البياني الآتي:

الشكل (١)، منحنى بياني يمثل تطور عدد المتجنسين في الجزائر في فترة ما بين الحربين وفقًا لقانون الرابع فيفري ١٩١٩.



المصدر: (رُسِمَ المنحنى بالاعتماد على الإحصائيات الواردة في الجدول أعلاه).

من خلال المنحنى البياني، نلاحظ تطور عدد المتجنسين من- الأهالي- المسلمين بالجنسية الفرنسية، حيث كان عددهم سنة ١٩١٩م ١٣ متجنسًا، ليرتفع هذا العدد إلى ٦٧ سنة ١٩٢٢م، ليعرف تراجعًا في السنة التي تليها بـ ٢٨ متجنسا، ليرتفع من جديد إلى غاية بلوغ عدد المتجنسين ١٩٠ متجنسًا مع حلول سنة ١٩٣٨م. ومما يلاحظ على المنحنى كذلك ارتفاع عدد المتجنسين في السنوات التي أعقبت ١٩٢٩م وربما يرجع ذلك إلى تسهيل إجراءات التجنس من طرف الإدارة الاستعمارية الفرنسية.

ثالثًا: قراءة في قانون الرابع فيفري ١٩١٩م

نميز في هذا القانون شقين اثنين، بين توسيع الدائرة الانتخابية[٥٩] من جهة، واكتساب المواطنة الفرنسية بالنسبة للجزائريين الذين تخلو عن أحوالهم الشخصية من جهة أخرى. وبالحديث عن الانتخابات يمكننا القول إن القانون قد وسع قليلاً من التمثيل النيابي[٦٠] بالمجالس المنتخبة خاصة منها البلدية[٦١]، وبالحصول على صفة المواطنة لدى البعض، ترتب عنه زيادة في القاعدة الانتخابية، يمكن تفسيرها بالجدول الآتي[٦٢]:

الجدول٢: مقارنة عدد المنتخبين المسجلين في سنة ١٩١٤م بالمنتخبين المسجلين في عام ١٩١٩م.

السنة	في عام ١٩١٤م:	مع حلول سنة ١٩١٩م:
الناخبون:	٧١٩ ناخبًا	٩١٧ ناخبًا.
المستشارون في البلدية:	٦ مستشارين	١٢ مستشارًا
المستشارون العامون في المحافظة:	٦ مستشارين	١٠ مستشارين

لا يمكن إغفال ما جاءت به هذه الإصلاحات، من خلال رفع عدد الناخبين الجزائريين من ٤٠ألف إلى ٤٠٠ ألف منتخِب، وعلى هذا الأساس أصبح للجزائريين الحق في انتخاب ممثليهم في المجالس الانتخابية العامة(٦٣)، وقد أصبح- الأهالي- بمقتضى ذلك ينتخبون مستشاريهم في المجالس العامة، شريطة ألا يتجاوز عدد المنتخبين الربع.(٦٤) كما أن هذه الإصلاحات زادت من عدد النواب المسلمين(٦٥) في المجالس البلدية إلى ٤٠ نواب لكل بلدية تضم بين ١٠٠ و٠٠٠انسمة، في ظل عدم تجاوز عدد النواب المسلمين١/٣ المجلس، مقارنة مع ١٨٨٤م، حيث لم يكن العدد يتجاوز١/٤ المجلس، وإذا رفع القانون من عدد النواب في المجالس العامة فقد تم تحديده أيضا بألا يتجاوز العدد ١٢نائبًا في كل مجلس عام، وبالتالي كرَّس القانون طرح الإدارة الاستعمارية دون تحقيق الديمقراطية.(٦٦)

وعلى هذا الأساس، فقد تضاربت الآراء حول هذه الإصلاحات التي اعتبرها البعض إصلاحًا هامًا، فيما اعتبرها البعض الآخر عملاً ضئيلاً، فمن جهة زاد من القاعدة الانتخابية ووسع القسم الانتخابي الجزائري كما سبق الذكر، وبالمقابل وضع القانون عراقيلا جمة أمام حصول الجزائريين على الجنسية الفرنسية، فيما اعتبره تُويَنْبِي تشريعا محافظا، في ظل عزوف البعض عن التجنس بحكم رؤية الجزائريين لذلك المتجنس الذي يعتبر خسيسًا.(٦٧) غير أن فرحات عباس(٦٨)عبّر عن قانون ١٩١٩م أنه متنفس للتمثيل النيابي للمسلمين، على اعتبار أنه فسح المجال أمام الجزائريين لتمثيلهم من طرف جزائريين يدافعون عن مصالحهم ويتولون انشغالاتهم، وهو الأمر الذي عبر عنه فرحات عباس في العديد من المقالات الصحفية، عبّر من خلالها عن استبشاره بهذه البادرة.(٦٩)

إلا أنه ما يعاب على قانون الرابع فيفري ١٩١٩م، هو عدم التساوي في عدد أعضاء المجالس المنتخبة بين الجزائريين والفرنسيين وهو ما اعتبر إجحافًا، من منطلق أن عدد النواب الجزائريين في تلك المجالس، لا يمثل سوى ١/٣ من النواب في المجلس البلدي ككل، أي١٢نائبًا من أصل ٤٨نائبا والبقية هم نواب فرنسيون، وهذا دليل على الإجحاف الممارس من طرف الإدارة الاستعمارية في حق الجزائريين، بالإضافة إلى اعتبارها إصلاحات واهية.(٧٠) وبالتالي، فقد جاء قانون ١٩١٩م بإصلاحات محدودة، وسع فقط كما سبق الذكر من الهيئة الانتخابية كما زاد عدد النواب المسلمين إلى ٤ أعضاء لكل١٠٠إلى٠٠٠انسمة إلى غاية ٢٠ عضوًا في البلديات التي بلغت ١٥٠٠٠فأكثر(٧١) كما زاد من سلطات النواب، في ظل عدم السماح للنواب المسلمين المشاركة في انتخابهم لتك المناصب السلطوية، كما بقيت نسبة١/٣ إلى غاية ١٩٤٤م.(٧٢) أما بالنسبة للشطر الثاني من القانون، والذي يخص التجنس(٧٣) أو ما يعرف بدخول المواطنة الفرنسية، فقد جاء قانون ١٩١٩م مكملاً للقرار المشيخي١٨٦٥م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذا بالرجوع إلى المادة الأولى من هذا القانون (= قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م)، والتي جاءت كما يلي: "يمكن - لأهالي- الجزائر الحصول على صفة المواطن الفرنسي بموجب إجراءات القرار الصادر في ١٤جويلية ١٨٦٥م، وهذا القانون (= قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م)".(٧٤)

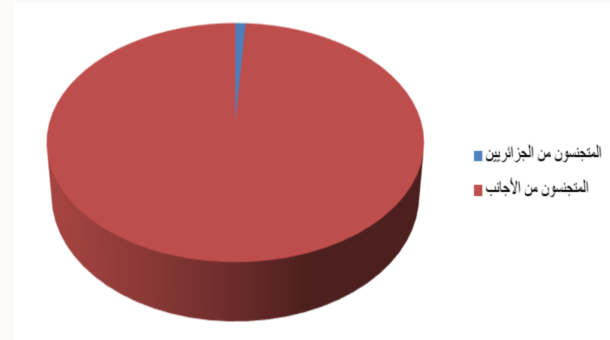
وقد منح قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م- حق المواطنة- بالنسبة للجزائريين المسلمين الراغبين في التجنس والذين تتوفر فيهم مجموعة من الشروط(٧٥) التي تجعل من هؤلاء مواطنين فرنسيين بالتجنس بناء على طلب التجنس للحصول على المواطنة الفرنسية، بعد استيفاء الشروط التي وضعت في إطار هذا القانون، على غرار شرط السن، كما أنه احتوى على مجموعة من الشروط الأخرى، والتي مثَّلت حجر عثرة في طريق الجزائريين لدخول- الحظيرة الفرنسية مقارنة مع قانون ١٨٧٠م(٧٦) وعلى هذا الأساس، يمكن القول أن قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م، قد أعطى- متنفسًا- لبعض الجزائريين الذين أرادوا الدخول ضمن المواطنة الفرنسية من خلال التجنس بالجنسية الفرنسية، وهو الأمر الذي فشل فيه (=منح الجنسية الفرنسية) القرار المشيخي- السيناتوس كونسيلت- ١٨٦٥م، وبناءً على تلك الجنسية، تم منح بعض الحقوق- للأهالي-، بدءًا من حق الانتخاب.(٧٧)

رابعًا: تأثيرات قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م على الحياة السياسية في الجزائر

مما تجدر الإشارة إليه في البداية أن إصلاحات ١٩١٩م التي مَثَّلَهَا قانون الرابع فيفري ١٩١٩م، قد تركت الأثر البالغ على الجزائريين، حيث خاب الأمل في ارتقاء- الأهلي من رعية إلى مواطن، كما لم ينل القانون رضا الجزائريين اعتبارا من أنه قد اشترط التخلي عن الأحوال الشخصية، ولعل الدليل على ذلك أنه ومنذ صدور هذا القانون إلى غاية نهاية ١٩٣٨م لم يتجنس إلا ٢١٣١ شخص من بين ٦٢٠١١٤٤ جزائري، ما يمثل نسبة قليلة جدا(٠,٣٤%)، كما تجنس في هذه الفترة ما يزيد عن ١٦٠٠٠ أجنبي، حيث بلغ عددهم الإجمالي ٩٤٦٠١٣ حسب إحصائيات ١٩٣٨م، وللتوضيح أكثر نمثل ذلك بالدائرة النسبية الآتية(٧٨):

الشكل (٢):

المتجنسون من الجزائريين بالنسبة للمتجنسين من الأجانب.



المصدر: عايدة حباطي، (٢٠٠٣- ٢٠٠٤)، ص١٣٣.

يتضح مليًا أن إصلاحات ١٩١٩م كانت هزيلة جدا، اعتبارا من أن السلطات الفرنسية قد صاغت بعض الإصلاحات بداية من ١٩٠٠م لتهدئة الحركة الوطنية الجزائرية(٧٩) في أوقات كانت عصيبة بالنسبة لفرنسا، خاصة بين ١٩١٤م- ١٩١٨م حيث كانت الإصلاحات- واعدة-، أما وبعد تحقيق فرنسا للنصر واستتباب الأمن، فقد أصبحت تلك الإصلاحات مخيبة للآمال.(٨٠) وبالتالي فإن الإصلاحات السياسية الهزيلة لسنة١٩١٩م، قد خلقت إحباطا كبيرا لدى المثقفين الجزائريين وخاصة حركة الشبان الجزائريين الذين كانوا يتطلعون إلى محاولة الضغط على الأوربيين في الجزائر عبر حكومة باريس، زيادة على المطالبة بتمثيل نيابي أكبر وأحسن في البرلمان الفرنسي. اعتبارا من أنه الجانب الأساس بالنسبة للجزائريين وهي النقطة التي أهملتها الإصلاحات تمامًا.(٨١)

ومما لا شك فيه أن التمثيل الجزائري داخل المجالس النيابية كان ضعيفا ومجحفا في ظل سيطرة ممثلي الكولون على أغلبية المقاعد، وبالموازاة مع استحواذهم على جل المقاعد النيابية، نجد القلة القليلة للجزائريين وهذه الفئة تعرف بـ" بني وي وي(٨٢)"، وبالتالي، يمكن القول إن الإدارة الفرنسية قد سيطرت على الوضع في الجزائر، ما ترتب عنه نوع من العقم السياسي في المنطقة بعدم وجود معارضة، ويعزو ذلك إلى تحكم نواب الكولون في قرارات المداولات داخل المجالس المنتخبة.(٨٣) وبمقارنة التضحيات الجسام للجزائريين في ح عابتلك الإصلاحات، فإن آمال هؤلاء قد خابت فعلا، كَوْنَهم كانوا يطمحون ويطمعون للارتقاء إلى مصاف- المواطنة الفرنسية- بما تقتضيه سياسة التجنس، في ظل الحفاظ على أحوالهم الشخصية(٨٤)، وفي ظل ذلك، نشط الأمير خالد عبر عديد المحاولات الرامية إلى توحيد صفوف المناضلين الجزائريين وتشجيعهم على خلق حزب موحد، وذلك قبل المشاركة في الانتخابات البلدية المزمع إجراؤها في نوفمبر من العام ١٩١٩م، ولعل هذه الاستراتيجية جعلت من والي الجزائر لوفيبور- Lefebure الذي تخوف من تلك الوحدة يعمل على زرع التفرقة بين الأمير خالد وحركة الشبان الجزائريين، لاسيما بث الشتات بين المثقفين.(٨٥)

وعليه فقد انقسمت النخبة على نفسها حول قضية الاندماج، وقد ظهر ذلك الانقسام جليًا في قيادة النخبة أثناء الانتخابات البلدية في العاصمة ١٩١٩م، والتي كانت تحصيل حاصل بالنسبة لإصلاحات ١٩١٩م، وعليه فقد كان الصراع محتدما بين جبهتين اثنتين، نادت الأولى بالاندماج بزعامة ابن تامي(٨٦)، فيما نادت الثانية بالمساواة في ظل الأحوال الشخصية بزعامة الأمير خالد.(٨٧) وعلى إثر هذا الانقسام، ظهر قطبان للحركة الوطنية الجزائرية(٨٨)، بالإضافة إلى مساعي الأمير خالد في البحث عن نضاليين بأتم معنى الكلمة، لا منخرطين يكتفون بالمطالبة بالإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للشعب الجزائري، في ظل الاختلاف بين القطب الأول من جماعة الشبان والقطب الثاني أنصار الأمير خالد، نادى الأول بالإدماج، بينما طالب الثاني بالمساواة.(٨٩) وبالتالي، شكلت الجبهة الثانية- أي حركة الأمير خالد- أول حركة سياسية، طالب من خلالها الأمير خالد بأن يصبح الجزائري- ذو قيمة- (٩٠)، كما عارض من خلالها كذلك وبشدة كل الشروط التي تتعلق بالتخلي عن الأحوال الشخصية من أجل تطبيق مقررات قانون ٠٤ فيفري١٩١٩م، وقد أطلق سعد الله على هذه الحركة تسمية "الحزب الإصلاحي".(٩١)

وقد شكلت هذه الحركة (= حركة الأمير خالد) والتي كانت استمرارًا لحركة الشبان الجزائريين منعطف الانبعاث السياسي في الجزائر خلال القرن ٢٠م، فمع ١٩١٩م ازدهرت حركته السياسية على إثر٣٠ أحداث بارزة كان لها الأثر البالغ في ذلك الازدهار الذي طال تلك الحركة [٩٢] وهي:

- انعقاد مؤتمر الصلح- قصر فيرساي- في باريس ١٩١٩م.
- صدور قانون ٤٠ فيفري ١٩١٩م.
- انتخابات مجلس بلدية الجزائر العاصمة في نوفمبر من عام ١٩١٩م.

في هذه الانتخابات[٩٣] سعى الأمير خالد جاهدا للفوز فيها، وهو ما حدث حيث فازت قائمة الأمير خالد التي دعت إلى التمسك بالأحوال الشخصية في ظل الهوية العربية الإسلامية، ورفضت التخلي عن كل ما يمس بتلك الهوية، ضد قائمة بن تامي الداعية إلى الاندماج.[٩٤] رغم النجاح الباهر الذي أحرزه الأمير خالد في الانتخابات كما سبق الذكر، إلا أن إحساسه تجاه كلمته الغير مسموعة والارتجالية في القرارات التي تخص الجزائر من طرف النواب الآخرين، دفعه بالاستقالة سنة ١٩٢١م[٩٥] من المجلس المنتخب، إلا أنه لم ينهِ نشاطه، بل ناضل من جديد وبحث عن مناضلين جدد أكثر عزمًا وحزمًا، وهو ما تكلل بتشكيل حزب الأخوة أو الإخاء الجزائري La Fraternité Algérienne في ٢٣جانفي ١٩٢٢م.[٩٦]

هذا وقد اختلفت تسمية هذه الجمعية أو هذا الحزب بين الأخوة الجزائرية أو الأخوة الإسلامية، حيث انخرط فيه مختلف شرائح المجتمع على اختلاف أعمارهم ونشاطهم، كما أنها مثّلت إحدى حلقات النضال السياسي ضد الإدارة الاستعمارية والكولون في الجزائر، كما كانت خطوة مهمة في التأسيس لظهور حزب سياسي جديد فيما بعد.[٩٧] وقد طالبت هذه الحركة بـ[٩٨]:

- تحسين أوضاع الجزائريين في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تهيئة ظروف الجزائريين.
- مقاومة سياسة اللامساواة والظلم والتعسف، والدعوة إلى المساواة مع الفرنسيين.
- المطالبة برفع القوانين الاستثنائية والدعوة إلى العمل بالقوانين العامة (المدنية).
- تطبيق فحوى قانون ٤٠ فيفري ١٩١٩م.
- التمثيل النيابي للجزائريين مع الاحتفاظ بالأحوال الشخصية.
- تأكيد البعد الواقعي للمطالب الجزائرية.

كل النشاط السياسي الذي تميز بالحماس المطلق للأمير خالد، بالإضافة إلى جرأته (= جرأة الأمير خالد) في طرح القضايا الوطنية وباعتباره خطيبًا بليغًا جعلت منه محط متابعة الفرنسيين[٩٩]، ونتيجة لنشاطه المضاد للسلطة الاستعمارية الفرنسية والكولون معا، فقد نفي إلى مصر سنة ١٩٢٣م ومنها إلى باريس، إلا إن ذلك لم يثن من عزيمته وواصل مسار النضال مع المغتربين[١٠٠] ليعود بعدها إلى سوريا موطنه بالولادة.[١٠١] ولِمَلْئِ الفراغ الذي تركه الأمير خالد حاول أنصاره مواصلة النشاط السياسي[١٠٢]، حيث ظهروا في قسمين اثنين: كانت مطالب القسم الأول إصلاحية في ظل الإدماج متمثلة في " فيدرالية نواب مسلمي الجزائر"، وكان من أقطابها بن جلول[١٠٣] وفرحات، بينما كانت مطالب القسم الثاني استقلالية وهي ما شكلت النواة الأولى لحزب نجم شمال إفريقيا- ENA.[١٠٤] ولكن بعد نَفي الأمير خالد، تبنى أصدقاؤه في مدينة الجزائر سكوتا حذرا حول المسألة الوطنية، فعلى عكس المودة التي عبّرت عنها الجماهير الشعبية تجاه الأمير عبد الكريم الخطابي[١٠٥] في الريف، فإن بعض المناضلين قد حادوا عن الطريق الذي حَذَوْهُ ودعَّموا إدارة الاحتلال، فالمنتخبون الذين استهوتهم الهبة الوطنية للأمير خالد في وقت ما، قد تخلوا فيما بعد عن النهج الذي سطره لهم.[١٠٦]

خاتِمَةٌ

من خلال هذه الدراسة البسيطة لمشاريع التجنيس في الجزائر وتأثيراتها السياسية، والتطرق إلى قانون ٤٠ فيفري ١٩١٩م كأنموذجٍ للدراسة، نخلص إلى النتائج الآتية:

- مثَّل قانون ٤٠ فيفري ١٩١٩م أحد مشاريع التجنيس بالجنسية الفرنسية واكتساب المواطنة الفرنسية.
- جاء قانون الرابع فيفري ١٩١٩م بطريقتين لكسب الجزائريين الجنسيةَ الفرنسيةَ، كانت الأولى بموجب هذا القانون، فيما كانت الثانية بموجب القرار المشيخي- Sénatus-Consulte، وعلى الرغم من ذلك إلا أن عدد المتجنسين كان قليلا.
- شغلت مسألة التجنس حيزا كبيرا من اهتمام الجزائريين، وهذا من منطلق أن المسألة تخص قيم المواطنة والقومية والانتماء العربي والإسلامي، بالإضافة إلى ما في المسألة من مساس للشخصية القومية والإسلامية.
- لم يلق قانون الرابع فيفري تجاوبا كبيرا من طرف الجزائريين- باستثناء النخبة المتفرنسة- على اعتبار أن القانون قد منح الجنسية الفرنسية شريطة التخلي عن

الأحوال الشخصية، والتي مثلت المتنفس الوحيد للجزائريين المسلمين، بالإضافة إلى أن المجتنس قد أُعْتُبِرَ كافرًا مارقًا خارجًا عن الدين، في ظل نظرة المجتمع لهؤلاء الذين تخلوا عن أحوالهم الشخصية وتجنسوا بالجنسية الفرنسية، والتي وُصِفُوا من خلال ذلك بأقبح الأوصاف وأبشع الألقاب.

- لم يكن التجنيس وفق قانون الرابع فيفري ١٩١٩م إدماجا، بل كان إخضاعا، وهذا من منطلق نص القانون وما جاء فيه، حيث يشترط في- الأهلي- التخلي عن أحواله الشخصية، كما أن معاملة من تجنسوا تختلف اختلافا كبيرا عن المواطنين الفرنسيين، ولم يكن لهم من الحقوق والمزايا ما كان للفرنسيين، وعلى هذا الأساس ظل هؤلاء (= من تجنسوا) رعايا في نظر فرنسا، كما يمكن القول أنهم بقوا مواطنين من الدرجة الثانية.
- تضاربت الآراء حول الإصلاحات التي جاء بها هذا القانون، حيث اعتبرها البعض إصلاحا هاما، فيما اعتبرها البعض الآخر عملا ضئيلا، فمن جهة زاد من القاعدة الانتخابية ووسع القسم الانتخابي الجزائري كما سبق الذكر، وبالمقابل وضع القانون عراقيل جمةٍ أمام حصول الجزائريين على الجنسية الفرنسية.
- كما تضاربت الآراء حول الإصلاحات التي جاء بها القانون، فالبعض من المؤرخة قد اعتبر أن هذه الإصلاحات قد جاءت نتيجة لضغط الوطنيين الجزائريين وخاصة بعد المشاركة الباسلة للمجندين الجزائريين في جبهات القتال في الحرب العالمية الأولى إلى جانب فرنسا.
- أثرت الإصلاحات أو القانون على الحياة السياسية في الجزائر، وهذا من منطلق التأثير البالغ الذي تركه من خيبة أمل لدى النخبة وحركة الشبان الذين كانوا يتطلعون إلى التمثيل النيابي ودخولهم الحظيرة الفرنسية في ظل الحفاظ على أحوالهم الشخصية.
- إزاء هذا القانون، نَشِطَ الأمير خالد عبر عديد المحاولات الرامية إلى توحيد صفوف المناضلين الجزائريين وتشجيعهم على خلق حزب موحد، قصد-مواجهة الاستعمار وسياسته.
- انقسمت النخبة على نفسها حول قضية الاندماج، وقد ظهر ذلك الانقسام جليًا في قيادة النخبة أثناء الانتخابات البلدية في العاصمة ١٩١٩م، والتي كانت تحصيل حاصل بالنسبة لإصلاحات ١٩١٩م، وعليه فقد كان الصراع محتدما بين جبهتين اثنتين، نادت الأولى بالاندماج بزعامة ابن تامي، فيما نادت الثانية بالمساواة في ظل الأحوال الشخصية بزعامة الأمير خالد.

الاحالات المرجعية:

(١) لسنا بصدد ذكر وقائع الحرب ولا مجرياتها، ولكن ما يهمنا اعتبار الجزائر طرفا مشاركا في الحرب التي أُقحمت فيها، من خلال مشاركة أبنائها في هذه الحربالتي لا ناقة ولا جمل لهم فيها، وذلك بموجب قانون التجنيد الإجباري في٠٣ فيفري ١٩١٢م، فمع بداية الحرب العالمية الأولى عبر جيش من المسلمين البحر الأبيض المتوسط وأظهر بسالة لا مثيل لها، وبالموازاة مع هذا فقد حل الكثير من العمال بـ "الميتروبول" واكتشفوا فرنسا أخرى ووسائل عمل أخرى، مما ساهم في تحريك الضمائر على شكل ثورة اجتماعية، والتي ساهمت في تنوير الفكر وبلورته ولو بالشيء القليل، الأمر الذي دفع بالجزائريين إلى اتخاذ خطوة سياسية نحو الأمام... للتعمق والتدقيق في هذا الصدد راجع، فرحات عباس: **الشاب الجزائري ١٩٣٠م**، تر- أحمد منور، منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢٣.

(٢) لم تكتف إدارة الاحتلال الفرنسي باستغلال الطاقات البشرية الجزائرية في تلك الحرب فقط، فعلى اعتبار الخيرات والثروات التي تزخر بها الجزائر، جعلت فرنسا من الجزائر مصدرًا للتموين بكل ما تحتاجه في الحرب، وفي هذا الصدد نجد أن فرنسا قد قامت بجلب العديد من رؤوس الماشية (= خاصة الخِرَاف)، تزويدًا لمتطلبات الجيش الفرنسي المتواجد على جبهات القتال، للتدقيق في هذا الصدد يُنظر:

Archive nationales de l'Algérie, FGGA, fond 5E, boite 280, rapport d'achat de mouton Algérien pour les besoins de l'Armée et exportation moutons sur la métropole, date de 1915-1919.

(٣) محمد الصالح بجاوي: **متعاونون ومجندون جزائريون في الجيش الفرنسي ١٨٣٠م-١٩١٨م**، دار القصبة للنشر، ص٤٥٦.

(٤) أحمد إسماعيل راشد:**تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر**، دار النهضة العربية، ص ١٤٩.

(٥) ارتبطت الصحافة الجزائرية بالحملة الفرنسية على الجزائر، ولعل أحسن دليل على ذلك صدور صحيفة l'Estafette de Sidi Faruch التي كانت تصدر في بواخر الحملة العسكرية، ولكن بعد ح ع١ ظهرت الصحافة كوسيلة للنضال والأمر يعود في ذلك إلى تشكيل الأحزاب والجمعيات التي كانت الصحافة منبرًا لها، زيادة على الحرب العالمية وما أحدثته من مآسي واستفادة الوطنيين من تجربتها في الحياة السياسية... للتعمق يُنظر محمد كراغل: **صحيفة الشهاب وقضايا المغرب العربي١٩٢٥م- ١٩٣٩م**، رسالة ماجستير في تاريخ الحركات الوطنية المغاربية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005 -2006، ص٤.

(٦) مبادئ ويلسن: نسبة للرئيس ٢٨ للولايات المتحدة الأمريكية ويلسن وودرو- Woodrow Wilson، فقد صاغ هذا الرئيس مجموعة من المبادئ التي حاولت فرض السلام في أوربا، لكن معاهدة فرساي في ١٩١٩م خيبت آماله في ذلك، حاول ويلسن من خلال هذه المبادئ منح حق الشعوب في تقرير مصيرها، ولكن من خلال قراءة في تلك المبادئ نستشف أن هذه المبادئ تُعْنَى بشعوب أوربا عامة وأوربا الشرقية

خاصة وليست الشعوب ككل.. يُنظر منير البعلبكي: **معجم أعلام المورد**، دار العلم للملايين، ص٤٩٦.

(7) Ferhat ABBAS, **la nuit coloniale**, pré- Abderrahmane RABAHI, éd- Alger livres, (sl et sd), p 110.

(8) Charles Robert AGERON, **histoire de l'Algérie contemporaine(18٧١- 1954)**, T 2,éd- PUF, Paris, 1979, pp 335- 336.

(٩) عبد القادر بلجة: **مسألة تجنيد الجزائريين في الجيش الفرنسي- وانعكاساتها على المجتمع الجزائري ١٩٠٧م-١٩٤٥م**، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، ٢٠١٥- ٢٠١٦، ص٢٢٥- ٢٢٦.

(١٠) الأمير خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر، ولد في ٢٠ فيفري ١٨٧٥بدمشق بعد استقرار الأمير عبد القادر هناك، ومع حلول ١٨٩٢م انتقل مع والده إلى الجزائر، وبعد سنة فقط دخل المدرسة العسكرية الفرنسية وترقى فيها إلى أن وصل رتبة نقيب، وقد شارك الأمير بين سنتي١٩١٥م-١٩١٦م في الحرب العالمية الأولى مجندا في الجيش الفرنسي، دخل معترك السياسية بداية مع ١٩١٤م من خلال المحاضرات التي كان يلقيها طوال تلك السنة للتعريف بقضية بلاده.. للتعمق يُنظر كلا من:

Mahfoud KADDACHE, **l'Emir Khaled (documents et témoignages pour servir à l'étude du nationalisme Algérienne)**, OPU, Alger, 2009, pp 11- 12.

محفوظ قداش: **الأمير خالد ونشاطه السياسي بين ١٩١٩-١٩٢٥**، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع٤، جانفي١٩٦٨.

(١١) ضمت هذه العريضة مجموعة من المطالب، نجد من أهم ما تضمنته: * الاعتراف باستقلال الجزائر *انتخاب مجلس ينبثق عنه حكومة البلاد* وضع الجزائر تحت رعاية عصبة الأمم المتحدة، زيادة على التخفيف من الضرائب ورفع القوانين الخاصة والاستثنائية... بصدد هذه الطالب التي تضمنتها هذه العريضة راجع، محفوظ قداش: **جزائر الجزائريين (تاريخ الجزائر ١٨٣٠م-١٩٥٤م)**، تر-محمد المعراجي، منشوراتANEP، ص٢٦٥- ٢٦٦.

(12) Amir Khaled, **lettre au président Wilson et autre texte**,éd- ANEP,2005, p37.

(١٣) كلثومة بن رمضان: **بوادر الكفاح السياسي وجذور الإصلاحات الفرنسية ١٨٣٠م- ١٩٢٣م**، مجلة القرطاس، ع٨، جانفي ٢٠١٨.

(١٤) نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض السياسات الفرنسية المجحفة في الجزائر والتي أثقلت كاهل الجزائريين مثل قانون-الأهالي-، ونظام الاحتجاز السري والمحاكم الرادعة، زيادة على قانون حالة الطوارئ، وغيرها من القوانين.

(١٥)حركة الشباب الجزائري: أطلقت هذه التسمية في البداية الشباب المثقف من طائفة يهود الجزائر، وفي حقيقة الأمر أن هذه الحركة قد مست الشباب الجزائري المتفرنس الدارس بالمعاهد الفرنسية حيث شغل معظمهم وظائف مرموقة، ظهرت هذه الحركة بداية القرن ٢٠م متأثرة بحركة الشباب التونسي وحركتي تركيا الفتاة وشباب مصر، ومع مرور الوقت اصطبغت هذه الحركة بالطابع الإسلامي الإصلاحي من خلال الدعوة إلى قيام نهضة عربية إسلامية في الجزائر للتدقيق أكثر حول حركة الشبان الجزائريين يُنظر كلا من الجمعي خمري: **حركة الشبان الجزائريين (١٩٠٠م-١٩٣٩م)**، ج١، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، ١٩٩٣-١٩٩٤، ص٧٠، وكذلك عمار بوحوش: **المرجع السابق**، ص٢٠٥- ٢٠٦.

(١٦) محمد بكار: **نواب الإدارة الاستعمارية في الجزائر١٩١٩م-١٩٥٦م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، ٢٠١٣-٢٠١٤، ص ٤٠- ٤١.

(١٧) شارل أندري جوليان: **إفريقيا الشمالية تسير (القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية)**، تر-المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، ص ١٣٠.

(١٨)محفوظ قداش: **جزائر الجزائريين...** المرجع السابق، ص ٢٧٢.

(١٩)أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٠٠م-١٩٣٠م)**، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ص ٢٥٧.

(٢٠) يقضي هذا القانون بإجبارية التجنيد بالنسبة للجزائريين المولودين سنة ١٨٩٠م، مع عدم منح الإعفاء لأي شخصٍ كان.

(٢١)عمار بوحوش: **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢م**، دار الغرب الإسلامي، ص٢١٣- ٢١٤.

(٢٢) أحمد الخطيب: **حزب الشعب الجزائري- جذوره التاريخية والوطنية ونشاطه السياسي والاجتماعي-**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص ٦٧.

(٢٣) ريمون بوانكاريه-Raymond POINCARÉ: (١٨٦٠م- ١٩٣٤م)، سياسي فرنسي، ترأس الجمهورية الفرنسية بين ١٩١٣م إلى غاية ١٩٢٠م، يعتبر من بين المحافظين، ورغم ذلك لم تبلغ تلك المحافظة حد الرجعية، كل ما كان يصبوا إليه هو صيانة فرنسا وحمايتها من الخطر الألماني، عمل طوال ح ع ا على الحفاظ على الوحدة الوطنية... حول هذه الشخصية يُنظر منير البعلبكي: **المرجع السابق**، ص ١١٦.

(24) Mahfoud KADDACHE, **histoire du nationalisme Algérienne (question nationale et politique Algérienne 1919- 1951)**, T1, éd- SNED, 1981, p75.

(٢٥) عبد القادر جغلول: **الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر**، تر- سليم قسطون، دار الحداثة للنشر، ص221.

(٢٦) جوزيف أرنولد توينبي-Joseph Arnold TOYNBEE: (١٨٨٩م- ١٩٧٥م)، مؤرخ وفيلسوف بريطاني، صاحب نظرية التحدي والاستجابة، عالج مشكلة الحضارة التي لا تنشأ حسب رأيه إلا في البيئة الصالحة لتحدي شعبٍ ما، له العديد من المؤلفات أشهرها دراسة للتاريخ A stady of History، يُنظر منير البعلبكي : **المرجع السابق**، ص١٤٧.

(٢٧) أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص ٢٥٧.

(٢٨) آبل فيري-Abel Ferry: (١٨٨١م-١٩١٨م)، ولد بباريس، سياسي من عائلة عريقة، عين أمينا للجمهورية الفرنسية من ١٣ جوان ١٩١٤م إلى ٢٩ أكتوبر١٩١٥م، يعتبر فيري حجر الأساس في اللجنة العسكرية للغرفة البرلمانية، يُنظر:

BaumontMICHEL, **Abel Ferry et les étapes du Contrôle aux Armées (1914 –1918)**, Rev-d'Histoire Moderne et Contemporaine, vol-10, janvier –mars١٩٦٨, p 162.

(٢٩) شارل روبير آجرون: **الجزائريون المسلمون وفرنسا ١٨٧١م-١٩١٩م**، ج٢، تر- م.حاج مسعود وع.بلعريبي، دار الرائد للكتاب، ص ٨٥٧.

(٣٠) شارل أندري جوليان: **المصدر السابق**، ص ١٣١.

(٣١) موريس موتيي-MauriceMotet: ولد في عام ١٨٧٦م، عمل في بداية الأمر كمحام، يعتبر موتيي من بين مؤسسي رابطة حقوق الإنسان عام ١٨٩٨م، كما انتخب نائب اشتراكي لمقاطعة رون-Rhône بين سنتي (١٩١٤م-١٩٢٩م) كما أصبح وزيرًا للمستعمرات في حكومة الشعبية.. للاستزادة يُنظر سباعي سيدي عبد القادر: **مسألة الإدماج في السياسية الكولونيالية الفرنسية (١٨٧٠م-١٩٤٠م) الجزائر أنموذجًا**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ٢٠١٥-٢٠١٦، ص١٥٢.

(٣٢) أحمد الخطيب: **المرجع السابق**، ص ٧٠.

(٣٣) محمد ناصر: **المقالة الصحفية في الجزائر (نشأتها، تطورها، أعلامها ١٩٠٣م-١٩٣١م)**، ش و ن ت، الجزائر، ١٩٧٨، ص ٤٤.

(٣٤) سِلِسْتِين شارل أوغست جونار- célestin Charles August JONARD: ولد سنة ١٨٥٧م، درس في سان أومار SaintOmer، لينتقل فيما بعد إلى باريس لإتمام دراسته في كلية الحقوق، ترأس وزارة الأشغال العامة، كما عين نائبا جمهوريا مواليا للحكومة سنة ١٨٨٩م، عُيِّن حاكما عاما على الجزائر لثلاث مرات، كان آخرها بين سنتي١٩١٨م- ١٩١٩م، للاطلاع أكثر حول هذه الشخصية راجع كلا من، حياة سيدي صالح: **اللجان البرلمانية وقضايا الجزائريين ١٨٧٠م - ١٨٩٥م**، دار الهدى عين مليلة، ٢٠١٢، ص ٢٤٣، وكذلك:

Louis MILLOIT: **Le gouvernement de l'Algérie**, publications du comité nationale métropolitain du centenaire de l'Algérie, Algérie, (sd), p 37.

(٣٥) عبّر موليبه-Mullet عن تأسفه في جريدة l'Humanité (٠٨نوفمبر١٩١٨م) نحو قوله: "بالتأكيد كلنا نريد أكثر من ذلك.. كلنا نسعى لتمكين-الأهالي- من أن يصبحوا مواطنين دون أن يتخلوا عن قانونهم الخاص..، وكلنا نرغب في أن نضمن لهم تمثيلا في الغرفة ومجلس الشيوخ.. سنتوصل إلى ذلك فيما بعد".. للتدقيق راجع، شارل روبير آجرون: **المرجع السابق**، ص٨٦٧.

(٣٦) نقصد بالحركة الوطنية الجزائرية هنا، الإطار الضيق لها من خلال نشاط الأمير خالد وبعض المتنورين، من خلال العرائض واللوائح التي رفعوها إلى سلطات الاستعمار الفرنسي قصد تحسين الأوضاع، علاوة على ذلك مجموع الاحتجاجات والمظاهرات التي قامت في الجزائر، على اعتبار أن كلا من هذه النشاطات تدخل ضمن المقاومة السياسية في إطار الحركة الوطنية.

(٣٧) هناك البعض من المؤرخين من اعتبر أن هذه الإصلاحات هي مكافأة للجزائريين جرّاء تجندهم في ح ع١ إلى جانب فرنسا، لكن هناك من أرجع سببها إلى استحالة استمرار الوضع السائد آنذاك على تلك الحالة، دون إدخال نوع من الإصلاحات.

(٣٨) عبرَّ كثير من المؤرخين الجزائريين عن هذه الإصلاحات بنوع من السلبية واعتبرها إصلاحات واهية، ولا ترقَ حتى لتسميتها إصلاحاتٍ، وهذا من منطلق ما جاءت به، فقد عبرَّ عنها محفوظ قداش وسمّاها الإصلاحات الهزيلة، أما أبو القاسم سعد الله فقد عبّر عن تلك الإصلاحات بسياسة ذر الرماد في الأعين.

(٣٩) أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص ٢٧٢.

(٤٠) يتجلى هذا التيار في كل من الحزب الشيوعي إلى جانب الحزب الاشتراكي الفرنسيين، ويرتكز هذا التيار على مبادئ متعددة تصب في مناهضة الاستعمار ودعم حركات التحرر في العالم، وقد بقيت أحزاب اليسار الفرنسية وفية لمبادئها وتوجهاتها خاصة بعد نهاية ح ع ٢ وبداية الثورة التحريرية، اللهم إذا استثنينا الأحزاب اليسارية الفرنسية المتطرفة.. يُنظر زبير رشيد: **موقف أحزاب اليسار الفرنسية من القضية الجزائرية**، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ع٩، ٢٠١٣.

(٤١) جورج كليمنصو- Georges Clemenceau: (١٨٤١م- ١٩٢٩م)، سياسي راديكالي فرنسي، درس الطب قبل دخوله غمار السياسة، وبذلك يعتبر أحد أبرز رجالات السياسة الفرنسية في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة، ترأس مجلس الوزراء بين سنوات (١٩٠٦م- ١٩٠٩م) و(١٩١٨م- ١٩٢٠م)، كما ترأس الوفد الفرنسي في مؤتمر الصلح المنعقد في ١٩١٩م في فيرساي والذي قدم فيه كليمنصو تسهيلات أو تنازلات بشأن مناطق في الشرق الأوسط بالنسبة للبريطانيين مقابل مناطق أخرى، يعرف بالنمر le Tigre، ترك آثارا وكتبا عديدة أهمها: ديموستين- Démosthène، للتعمق والاستزادة في هذه الشخصية يُنظر كلا من ماجد حلاوي: **فرنسا والبحث عن موقف من قضية سوريا خلال ح ع١**، صحيفة البناء، السنة٧، ماي٢٠١٥، صباح كريم رياح الفتلاوي وباحث إيمان نصيف جاسم: **مقررات مؤتمر الصلح للإمبراطورية الألمانية في عام ١٩١٩م (دراسة تحليلية)**، مجلة دراسات الكوفة، ع٦، ٢٠٠٨، وكذلك:

Maurice LE BLOND, **Georges Clemenceau (biographie critique)**, éd- E.SANSOT C(ie), Paris, (s d), pp 8- 9.

(٤٢) لقي ذلك القانون وتلك الإصلاحات، معارضة أيضا من طرف حكام المقاطعات الثلاث (قسنطينة، الجزائر، ووهران)، ولهذا يمكن اعتبار أن محاولة إدخال هذه الإصلاحات- قانون فيفري ١٩١٩م- هي انتصارٌ على اللوبي الكولونيالي ذو الأيادي الضاغطة في دواليب السلطة الفرنسية، وهي الفئة التي ترفض إدخال كل إصلاح إلى الجزائر، على اعتبار أن كل ذلك يضر بمصالحهم الشخصية في ذلك البلد، وعليه، أمام ذلك التعاطف والموقف من كليمنصو سيقف برلمانيي الجزائر الأوربيين كحاجز وسد منيع ضد وصول كليمنصو إلى رئاسة الجمهورية.. يُنظر فرحات عباس: **المصدر السابق**، ص ٢٣.

(٤٣) يرتكز الكولون في سياستهم القائمة على الضغط ورفض الإصلاحات في الجزائر على قرار ٢٣ أوت ١٨٩٨م، والذي

أعطى للحاكم كل السلطات بخصوص المشاكل العسكرية والمدنية باستثناء وزارتي العدل والتربية، الأمر الذي ساهم بشكل كبير في تحقيق حلم الكولون لما يملكونه من ضغط في المجلس الوطني والدوائر المالية، وبناء على هذا القرار، فقد أصبح الحاكم العام يستند في حكمه إلى مجلس استشاري (مجلس الحكومة الأعلى) إلى جانب نواب ماليين منهم جزائريين مواليين لفرنسا ومعروفين بخدمتهم لها... للتعمق في هذا الصدد يُنظر أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص ٢٨.

(٤٤) بسام العسلي: **الأمير خالد الهاشمي الجزائري (سلسلة جهاد شعب)**، دار النفائس، ص ٥١.

(٤٥) يعتبر قانون فيفري ١٩١٩ من بين التشريعات- الهامة- الصادرة في الجزائر بعد القرار المشيخي- SénatusConsulte الصادر في ٢٢ أفريل ١٨٦٣م، والذي يمكن اعتباره تعويضا لقانون ١٩١٩م من منطلق أنه بقي مشروعًا دون تطبيق منذ جويلية ١٨٦٥م، من خلال عدم منح الجنسية الفرنسية لجموع الجزائريين بالمقارنة مع قانون كريميو- Cremieux- الصادر في ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م، والذي منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر... للتدقيق في هذه النقطة يُنظر كلا من:

Rodolphe Dareste DE LA CHAVANNE, **de la propriété en Algérie**, loi de 16 juillet 1851, Sénatus Consulte du 22 avril 1863, 2(eme) éd, 1864, p 242.

وكذلك محمد الوكيل: **تاريخ اليهود في القارة الإفريقية**، ج٢، دار النهضة العربية للنشر، ص ١٦١.

(٤٦) كمال خليل: **المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر- التأسيس والتطور (١٨٥٠م- ١٩٥١م)**، رسالة ماجستير في تاريخ المجتمع المغاربي الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٧- ٢٠٠٨، ص ١٤٦- ١٤٧.

(47) Charles Robert AGERON, **de l'Algérie Française à l'Algérie algérienne**, éd- Bouchéne, Paris, 2000, p ١٤١.

(٤٨) عمار بوحوش: **المرجع السابق**، ص ٢١٦.

(49) **Archives nationales de la Tunisie**, le discourt de Me-Jounard, sér A, car 278, dos 19,doc 03, date de 1919.

(50) **Archives nationales de la Tunisie**, Op- cit.

(51) **journal officiel de la république Française**, n(0) 68, 51(eme) année, 06 février 1919, pp 1358- 1359.

(٥٢) حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي: **الجزائر بين الأمس والغد**، دار القاهرة للنشر، ص ٣٨.

(53) Augustin BERQUE, **écrits sur l'Algérie**, pré- Jacques BERQUE, éd- édusud, Aix en Provence, 1986, pp 158-159.

(54) Sylvie THENAULT, **violence ordinaire dans l'Algérie coloniale**, éd- Média Plus, Constantine, 2012, pp 238-239.

(٥٥) أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص ٢٧٣.

(٥٦) عايدة حباطي: **التجنس وموقف الجزائريين منه ١٩١٩م- ١٩٣٩م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ٢٠٠٣- ٢٠٠٤، ص ٩٨.

(57) Claude COLLOT et Jean Robert HENRY, **Le mouvement national algérien 1912-1954 (textes)**, éd- L'harmattan, 1990, pp 23- 24.

(٥٨) مما تجدر الإشارة إليه أن مرسوم ٠٦ فيفري ١٩١٩م، رفع من عدد المستشارين العامين المسلمين من ١٨ إلى ٢٩ أي ربع العدد الإجمالي، وعليه ارتفعت الهيئة الناخبة من ٥٠٩٠ منتخب إلى ١٠٣١٤٩ منتخب، كما اسْتُثْنِيَ الناخبون المسلمون الجزائريون من قانون- الأهالي-، كما سمح كذلك قانون ١٩١٩ بتقلد الوظائف العمومية الفرنسية، باستثناء ٤٢ وظيفة تتعلق بالحكم والسلطة، والتي تم تحديدها في مرسوم ٢٦ مارس ١٩١٩م... للاستزادة في هذا المجال يُنظر شارل روبير آجرون: **المرجع السابق**، ص ٢٧٨- ٢٧٩.

(٥٩) كَرَّسَ قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م هيمنة الكولون على الحياة السياسية، إلا أنه سمح للنخبة الجزائرية بانتزاع عدة عُهَدٍ بعد ترشحهم في الهيئة الثانية، كانت هذه العهد قبل هذه الإصلاحات حكرا على مرشحي الإدارة (بني وي- وي)، غير أن حركة الشباب الجزائري وهي في عز نشاطها سنة ١٩١٩م أصيبت بزعزعة في صفوفها، ويرجع الأمر في ذلك إلى الاختلافات الأيديولوجية والنزاعات الشخصية... للتعمق يُنظر غي برفيلي: **النخبة الجزائرية الفرنكوفونية (١٨٨٠م- ١٩٦٢م)**، تر- محمد حاج مسعود وآخرون، دار القصبة للنشر، ص ١٤٢.

(٦٠) إبراهيم مهديد وحليمة مولاي: **النشاط السياسي للنواب الجزائريين بمدينة تلمسان فيما بين ١٩١٩م- ١٩٢٥م في ظل إصلاحات ١٩١٩م**، مجلة الحكمة، ع١٠، السداسي الأول (جانفي- جوان ٢٠١٧).

(61) Mahfoud KADDACHE, **la vie politique à Alger de 1919 à 1939**, éd- ENAG, Alger, 2009, p ٣٨.

(62) Guy PERVILLE, **La politique algérienne de la France (1830-1962)** , éd- Le Seuil, Paris, (s d), p 29.

(٦٣) كريمة بن حسين: **الحياة السياسية في قسنطينة من سنة ١٩٣٠م إلى سنة ١٩٣٩م**، رسالة للحصول على دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، ١٩٨٣- ١٩٨٤، ص ٣٧.

(64) نتساءل عما إذا كانت تلك الزيادة زيادة فعلية؟ مثلت في عدد الأعضاء زيادة رمزية فقط بالاستناد إلى معدل ترشح الجزائريين الذي انخفض ضمن القوائم الانتخابية من منطلق للشروط التعجيزية (والتي سبق ذكرها في إطار التمتع بالمواطنة الفرنسية)، فالمتتبع للعملية يلمس أن عدد المترشحين الذين كانت تقبل ترشيحاتهم غالبا ما كانت بين المترشح الواحد إلى الأربع مترشحين فقط، بالمقارنة مع عدد الفرنسيين الذي طغى القوائم الانتخابية، يُنظر عبد القادر بلجة: **المرجع السابق**، ص ٢٣٨.

(٦٥) محمد بكار: **المرج السابق**، ص ٤٤ – ٤٥.

(٦٦) منع قانون ١٩١٩م الجزائريين من الحقوق السياسية على اعتبار أن قانون- الأهالي- لم يُلْغَ بعد، كما حرم هذا القانون

المتنقلين من التجنس وفقا لشرط الإقامة في البلدية لمدة سنتين... يُنظر أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص ٢٧٦.

(٦٧)عايدة حباطي: **المرجع السابق**، ص١٢٧.

(٦٨)**فرحات عباس مكي**: (١٨٩٩م- ١٩٨٥م)، ولد بدوار الشحنة في البلدية المختلطة الطاهير التابعة لولاية جيجل، من أسرة فلاحية ميسورة الحال، انتقل من المدرسة القرآنية إلى المدرسة الحديثة ليلتحق فيما بعد بالسوربون لدراسة الحقوق، حيث تأثر بالفكر التحرري في ظل ما كان يعاني منه الشعب الجزائري من ظلم وتعسف، ركب أمواج السياسية في سن العشرين من خلال نشاطه الصحفي في الجرائد والمجلات خاصة جريدة الإقدام، الأمر الذي جعله من بين أبرز سياسيي الجزائر، ترأس الحكومة الجزائرية المؤقتة الأولى والثانية بين (١٩سبتمبر١٩٥٨م و٢٧ أوت١٩٦١م)،.. للتعمق في هذا الشخصية يُنظر كلاً من علي تابليت: **فرحات عباس رجل دولة**، مؤسسة ثالة للنشر، ص٣- ٤، وكذلك:

Benjamin STORA et Zakya DAOUD, **Ferhat Abbas une autre Algérie**, éd kasbah, Alger, (sd), p18.

(٦٩)فرحات عباس: **المصدر السابق**، ص ٢٥.

(٧٠)إبراهيم مهديد: **انتخابات الأهالي في وهران (١٩١٩م-١٩٣٩م)**، رسالة في الدراسات المعمقة، جامعة أحمد بن بلة، وهران، ١٩٧٨- ١٩٧٩، ص٢٢.

(71) Augustin BERQUE, **Op- Cit**,p160.

(٧٢) عايدة حباطي: **المرجع السابق**، ص١٢٧- ١٢٨.

(٧٣) صالح بلحاج: **الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (١٩١٠م-١٩٣٩م)**، مطبوعات بن مرابط، ص٢١- ٢٢.

(٧٤)على اعتبار أن التجنس مسألة مسّت الجانب الاجتماعي، فإننا سنعالج تلك النقطة بالتفصيل في سياسة فرنسا في الجزائر في شقها الاجتماعي وتأثيراتها وتداعياتها.

(٧٥) وقوفًا عند هذا القرار-أي القرار المشيخي١٨٦٥م- وعلاقته بقانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م في مسألة التجنس ومنح صفة المواطنة الفرنسية – لأهالي- الجزائر، فإننا نستنتج أن قرار السيناتوس كونسيلت كان فاشلاً ولم يحقق شيئا بالنسبة للجزائريين، على اعتبار صياغة قانون جديد- قانون٠٤ فيفري ١٩١٩م- والذي يتضمن الفحوى نفسها بالنسبة لتجنيس الجزائريين في ظل التخلي عن أحوالهم الشخصية... للتدقيق في الموضوع يُنظر سيدي عبد القادر سباعي: **المرجع السابق**، ص١٥٥.

(76)Laure BéLIVES, **les avatars de la citoyenneté en Algérie coloniale ou les paradoxes d'une catigoration**, droit et société, N(0) 48, 2001, p596.

(77) Shepard TODD, **The Invention of Decolonization The Algerian War and the Remaking of France**, University Press, New York , 2006, p 27.

(78)Patric WEIL, **le statut des Musulmans en Algérie coloniale (une nationalité Française dénaturée)**, EUI working paper, n(0) 3, 2003, p 14.

(٧٩) **الحركة الوطنية** هي نضال خاضه أبناء البلد ضد المستعمر، قصد تحصيل بعض الحقوق خاصة في المجال السياسي، هذا وقد اختلف المؤرخة الجزائريون في ضبط تاريخ محدد لبداية الحركة الوطنية الجزائرية، فأبو القاسم سعد الله لا يفرق بين النضال السياسي في إطار الحركة الوطنية الجزائرية والنضال العسكري الذي تمثل في المقاومات الشعبية المسلحة، أما محفوظ قداش فقد اعتبر بداية الحركة الوطنية مع ظهور حركة الأمير خالد وعليه فهذه الحركة أمضت شهادة ميلاد الحركة الوطنية بالنسبة له، كما أنها رد فعل طبيعي على مجموعة من القوانين الاستثنائية أبرزها قانون التجنيد الإجباري ١٩١٢م... للتعمق يُنظر كلا من عبد الوهاب بن خليف: **المرجع السابق**، ص٩٨، وأبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص ص ٧٧- ٤٨، وكذلك يوسف مناصرية: **تطور الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين١٩١٩م- ١٩٣٩م**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص ص٩- ١٠.

(٨٠) أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص ٢٧٩.

(٨١) جمال قنان: **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ص١١٨- ١٨٢.

(٨٢) بني وي- وي: يمثلون كتلة الموالين لفرنسا من الأغنياء والمرابطين والمتقاعدين (الحزب المحافظ)، والذين لايردون بِلَا أبدا.

(٨٣) جمال قنان: **المرجع السابق**، ص ١٨٢.

(٨٤)كلثومة بن رمضان: **المرجع السابق**، ص ١٦-١٧.

(٨٥) عمار بوحوش: **المرجع السابق**، ص ٢٢٠.

(٨٦)أبو القاسم ابن تامي: ولد في١٨٧٣ بمدينة مستغانم، من عائلة عريقة كبيرة على اعتبار أن والده كان باشا، درس الطب بمعهد مونبلييه -Montpelier، ورغم كونه طبيبا إلا أنه ضلع في السياسية التي دخلها قبل ح ع١ من خلال نشاط الانتخابات التي خاض غمارها في كل من ١٩٠٣م- و١٩١٣م، تجنس بالجنسية الفرنسية وطالب في ظل بإصلاحأوضاع الجزائريين توفي في ١٩٣٧م، يُنظر كلا من عبد الكريم بوالصفصاف: **معجم أعلام الجزائر في القرنين ١٩م- ٢٠م**، ج٢، منشورات مخبر الدراسات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٣٠، وكذلك الجمعي خمري: **حركة الشبان...**، ج٢، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٨٧) كلثومة بن رمضان: **المرجع السابق**، ص١٧.

(٨٨) نتساءل عن أسباب ذلك الانقسام؟ على اعتبار التباين في الرؤى حول قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩م بالنسبة للمسلمين، وخاصة الأطراف التي- ستأخذ على عاتقا مهمة النضال السياسي-، فقد اعتبره البعض خدمة لمصالح الجزائريين فيما اعتبره الأمير خالد المتحدث باسم "حركة الشبان الجزائريين" وهمًا لأن الشعب الجزائري لم يقتنع به وما جاء به من إصلاحات ، ولعل هذا التضارب جسد الانقسام... للتعمق في هذا الصدد يُنظر هدى معزوز: **الممارسة الانتخابية أثناء الحقبة الاستعمارية ١٨٣٠م - ١٩٦٢م**، مجلة المصادر، ع١١، (عدد خاص حول المقاومة والحركة الوطنية)، السداسي الأول ٢٠١٥، ص٢٠٢- ٢٠٣.

(٨٩) أحمد الخطيب: **المرجع السابق**، ص ٧٦.

(90) Charles ROBERT AGERON, **politiques coloniales au Maghreb**, presses universitaire de France, paris, 1972, p 254.

(٩١) سمى بعض المؤرخين من الفرنسيين هذه الحركة بالحزب الوطني الإسلامي الاشتراكي(P.N.M.S)، كما سميت كذلك بكتلة المنتخبين الجزائريين(F.E.A)، للتدقيق أكثر في هذا الصدد يُنظر سليمان قريري: **تطور الاتجاه الثوري والوحدوي في الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٤٠م- ١٩٥٤م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ٢٠١٠- ٢٠١١، ص ٦٠.

(٩٢) رياض بودلاعة: **القيم الديمقراطية في الثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤م- ١٩٦٢م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٥- ٢٠٠٦، ص٢٢.

(٩٣) فاز الأمير خالد بقائمته في الانتخابات الأولى لسنة ١٩١٩م والتي ألغيت بسبب تقرير ابن تامي الذي رفعه والي الجزائر إلى باريس، والانتخابات المجرات في أفريل- جوان ١٩٢٠م والتي حقق فيها الأمير خالد نجاحا باهرا على منافسيه، خاصة وأن البعض من المنافسين كان مدعوما من طرف الإدارة الاستعمارية، حيث تمكن بذلك من الحصول على مقعد في المجلس المالي، ورغم فوزه إلا أنه أحس بأن كلمته غير مسموعة في ذلك المجلس الذي لا يريد خيرا للجزائر والجزائريين، ما أدى به إلى الاستقالة في١٩٢١م ثم العودة إلى نشاطه ليستقيل بعدها سنة١٩٢٩م...، يُنظر عمار بودوش: **المرجع السابق**، ص ٢٢١- ٢٢٢.

(94) Pierre BERTE, **genèse du code de la nationalité Française (1789- 1927)**, thèse de doctorat en droit, université Montesquieu, Bordeaux,2010-2011, p597.

(٩٥) نتساءل عن حقيقة الاستقالة، أكانت طوعية أم مفروضة؟ اعتبارا من النجاح الباهر للأمير خالد في الانتخابات زيادة على الشعبية التي حضي بها في الأوساط الجزائرية، خاصة بعد الخطاب الحماسي والجياش التي ألقاه أمام الرئيس" ألكسندر ميلران" بمناسبة زيارته للجزائر، والذي عبر فيه الأمير خالد عن آهات وآلام الجزائريين ومعاناتهم وطموحاتهم مما أثار الخطاب حماس الشعب الجزائري الذي قابله بالتصفيق الحار والهتاف والمتواصل وزغاريد النسوة، الأمر الذي أثار حفيظة السلطات الاستعمارية التي لم تغفر له ذلك، بحيث صارت تضيق عليه وعن أنصاره الذين تخلو عنه بفعل تلك المضايقات، حيث وجد بذلك نفسه وحيدا، زيادة على المساومات التي عرضت عليه من خلال الاختيار بين السجن والاستقالة مع تسديد ديونه المتراكمة بسبب الإنفاق عن نشاطه السياسي زيادة على استمرار دفع الجراية التي كان يتقاضها باعتباره متقاعدا من الجيش والجراية الأخرى على اعتباره حفيد الأمير عبد القادر...، حول هذه النقطة يُنظر أحمد النوي: **افتتاحية اليوم الدراسي حول شخصية الأمير خالد الجزائري بمناسبة الذكرى ٥٠ لوفاته**، الأحد٢٣ نوفمبر ١٩٨٦م، نشر المركز الوطني للدراسات التاريخية، ص٦- ٧.

(٩٦)سليمان قريري: **المرجع السابق**، ٦١.

(٩٧) نعني بالحزب الجديد حزب نجم شمال إفريقيا(E.N.A)، وللتعمق والاستزادة في هذه الموضوع يُنظر، كريم بن الشيخ: **التأطير الحركي للتيار الوطني في مسيرة الأمير خالد (١٩١٢م- ١٩٣٦م)**، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية، مج ٩، ع١، ٢٠١٨.

(٩٨) كريم بن الشيخ: **المرجع نفسه**، ص١٠٠- ١٠١.

(٩٩) بسام العسلي: **المرجع السابق**، ص١٧٢.

(١٠٠) هل واصل الأمير خالد نشاطه في أوربا وما هي وسائل النضال؟ فعلاً، بعد انتقال هذا الأخير من منفاه، قام بوضع برنامج سياسي لمتابعة حركته في تحرير الجزائر، وقد وسع نشاطه في أنحاء مختلفة من أوربا، حيث قام بالاجتماع بمبعوثي الحكومة السوفياتية الذين أكدوا له عطفهم ومساندتهم له في تحرير بلاده، زيادة على عقده لاجتماع مع القادة الشيوعيين بضواحي روما أواخر سنة ١٩٢٣م...، للتدقيق في الموضوع يُنظر أحمد النوي: **المرجع السابق**، ص٩.

(١٠١) محمد بكار: **المرجع السابق**، ص٦٦.

(١٠٢) بعد نفي الأمير خالد في جوان ١٩٢٣م، تضعضع أنصاره وأصيبوا بالهلع، وعليه فقد توقف البعض عن طرح القضية الجزائرية بصورة علنية، وفيما يبدوا أن البعض قد تنكر للأفكار والمبادئ التي نادى بها الأمير خالد، وبناء على ذلك فقد تغير حتى موقف التيار من تيار معارض للاستعمار الفرنسي إلى تيار ينادي بالاندماج، إلا أن القليل منهم ظل متمسكا بالمبادئ والأهداف التي رسمها الأمير خالد ولم يحد عنها، واختار هؤلاء الطريق الثوري في مواجهة سلطات الاستعمار الفرنسي، وأسسوا النواة الأولى لحزب نجم شمال إفريقيا...، للتعمق في هذا الصدد يُنظر أحمد الخطيب: **المرجع السابق**، ص ٨٠-٨١.

(١٠٣) محمد الصالح بن جلول: (١٨٩٤م- ١٩٨٥م)، مولود لأسرة ميسورة الحال بالأوراس أين تلقى تعليمه الأولي، لينتقل فيما بعد إلى قسنطينة لتلقي تعليمه الثانوي، ومنها انتقل إلى الجامعة وقد تحصل على شهادة الدكتوراه في الطب سنة ١٩٢٤م، ولم يمنعه كونه طبيبا من خوض غمار السياسية حيث انتخب مستشارا بلديا، كما ترأس جمعية النواب المسلمين وعين نائبا لشيخ بلدية قسنطينة، زيادة على ترشيحه من طرف ابن باديس لرئاسة المؤتمر الإسلامي في جوان ١٩٣٦م، أسس التجمع الفرنسي- الإسلامي الجزائري في ١٩٣٨م، إضافة إلى الحياة السياسية فقد شارك في الحياة الجمعوية عبر انخراطه في عديد الجمعيات الخيرية كما أسس الهلال الأحمر الجزائري- فرع قسنطينة-...، حول شخصية محمد الصالح بن جلول، يُنظر ناهد إبراهيم دسوقي: **دراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر(الحركة الوطنية الجزائرية في فترة مابين الحربين ١٩١٨م- ١٩٣٩م)**، منشأة المعارف، ص ص١٩٤- ١٩٥.

(١٠٤) شبوب محمد: **الجزائر في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م- ١٩٤٥م) دراسة سياسية اقتصادية واجتماعية**، أطروحة

دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد بن بلة، وهران، ٢٠١٤-٢٠١٥، ص ١١.

(١٠٥) **عبد الكريم الخطابي**: هو محمد بن عبد الكريم الخطابي، لم يرد تاريخ محدد لمولده، فقد أورد البعض تاريخ ميلاده في ١٨٨١م، ورأى البعض الآخر أنه ولد في ١٨٨٢م،١٨٨٣م أو ١٨٨٧م، لكن المتفق عليه أنه ولد في١٨٨٢م، تلقى تعليمه الأولي علي يد والده، حيث تعلم القراءة والكتابة، إلى جانب حفظه للقرآن الكريم، انتقل إلى تطوان لاستكمال النهل من معلميها وشيوخها، ومنها إلى جامع القرويين أين تحصل على الإجازة في العلوم الدينية، ليسافر إلى إسبانيا بعدها ويتحصل على شهادة في الحقوق بعد أن دخل إحدى جامعاتها، تولّد لديه شعور بوجوب مجابهة الأعداء، ولذلك أعلن الثورة على الإسبان عام ١٩١٩م، ولكن بتحالف الإسبان مع الفرنسيين الذين استطاعوا التغلب على الأمير تحتم عليه الاستسلام، وبذلك نفي إلى مرسيليا ثم إلى جزيرة لارينيون، ليجأ فيما بعد إلى القاهرة ويواصل نشاطه من هناك في إطار تحرير بلدان المغرب سنة١٩٤٧م حتى وفاته هناك، حول شخصية عبد الكريم الخطابي يُنظر كلا من منير البعلبكي: **المرجع السابق**، ص ٢٨٢، وكذلك رشدي الصالح ملحس: **سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها**، المطبعة السلفية، ص ٢٠.

(١٠٦) محفوظ قداش: **المرجع السابق**، ص٢٧٦- ٢٧٧.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الإعلام والثورة التحريرية الجزائرية
١٩٥٤

رابح محمد
باحث دكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

الجيلالي عبد القادر بلوفة
أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة وهران – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

مع مطلع القرن العشرين ظهرت صحافة وطنية جادة لتعبر عن تطور المجتمع الجزائري وعن انشغالاته وساهمت في بعث اليقظة الوطنية، وكان للأحزاب السياسية الوطنية بالخصوص دور هام وبارز في محاربة الاستعمار، وذلك عن طريق اعتمادها على الصحافة باعتبارها وسيلة إعلامية تقربه من المجتمع. فقد تعرضت الجزائر إلى هجمة إعلامية دعائية استعمارية شرسة ضد الثورة وقادتها حيث راحت الدعاية الفرنسية تروج على أن الثورة مجرد أحداث وأن قادتها عصابات وقطاع الطرق وغيرهم من الأوصاف التي تداولتها الصحافة الفرنسية آنذاك، لهذا كان من المحتم على جبهة التحرير الوطني أن تتصدى لها عبر إيجاد قنوات إعلامية لهذه الحملة الإعلامية الاستعمارية بخلق إعلام ثوري ذو مهام سياسية. تتمثل مشكلة البحث في التعرف على التحولات التي وقعت في التركيبة الاجتماعية خلال فترة الاستعمار الفرنسي وبالتحديد في خمسينيات القرن العشرين، ومن خلال هذا البحث سنحاول الإجابة على هذه الإشكالية: ما هي الإرهاصات الأولى للإعلام الثوري خلال الحقبة الاستعمارية. وقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي الذي يسمح بتوفير البيانات والحقائق حول مشكلة الدراسة من أجل تفسيرها والوقوف على دلالتها للوصول إلى النتائج والإجابة على التساؤلات المطروحة. ولعل أهم نتيجة توصلنا إليها، هو أن الإعلام الثوري تعزز وأصبح أكثر فعالية كغيره من وسائل الثورة عند تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية عام ١٩٥٨.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠
تاريخ قبول النشر: ٠٣ نوفمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الصحافة؛ اليقظة الوطنية؛ الثورة؛ العصابات؛ الإعلام الثوري.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.205396

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رابح محمد، الجيلالي عبد القادر بلوفة. "الإعلام والثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٤٥ – ١٥٣.

Corresponding author: moh1319991214@hotmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

ما تزال الكتابات حول موضوع إعلام الثورة الجزائرية قليل بالمقارنة بما كتب حول صحافة الحركة الوطنية، مما يثير الانتباه إلى ضرورة اهتمام الباحثين بهذا الجانب المهم من تاريخ الثورة التحريرية، ومن خصائصها أنها تميزت بتوظيفها كل الطاقات والوسائل وجعل عملها ينصب في المجرى الوحيد الذي حدد اتجاهه بيان أول نوفمبر ١٩٥٤ من أجل تحقيق غاية وهدف واحد هو الاستقلال.

وفي هذا السياق أدركت الثورة في مرحلة مبكرة أهمية الإعلام وضرورة توظيفه في مساندة العمل المسلح، وبالتمعن في الظروف التي واكبت انطلاق الثورة يتضح مدى عبقرية الثورة الجزائرية التي وضعت لكل احتمال حسابه، وهكذا وضعت في الحسبان أن الاعتماد على الكفاح المسلح وحده لا يؤدي إلى النتائج المرجوة وسيكون ناقصًا ومبتورًا إن لم يقترن بكفاح سياسي وتعبوي في الداخل والخارج، وكان الإعلام أحد الوسائل الرئيسة في هذا الشطر من الكفاح، حيث لم تكن المعارك على الجبهة الإعلامية لتقل ضراوة واحتدامًا من العمليات الحربية في المدن والجبال.

فإعلام الثورة التحريرية كان يهدف إلى التعبئة وكسب الرأي العام في الداخل والخارج، بعد أن كان يطالب في السابق بالدفاع وإثبات الهوية الوطنية للشعب الجزائري على الرغم من محدودية وسائل الإعلام الخاصة بها، إلا أنها كانت فعالة، فكان الإعلام مرادفًا للدعاية التي غايتها تجنيد الشعب الجزائري، واستخدمت الثورة هذا الأسلوب من أجل مقاومة سياسة التعتيم الفرنسية، لتتمكن الثورة من الحرية في تعبير وشرح برنامجها وأهدافها مما مكنها من كسب الجماهير.

إشكالية الدراسة

تتمثل مشكلة البحث في التعرف على التحولات التي وقعت في التركيبة الاجتماعية خلال فترة الاستعمار الفرنسي وبالتحديد في خمسينيات القرن العشرين، ومن خلال هذا البحث سنحاول الإجابة على هذه الإشكالية: ماهي الإرهاصات الأولى للإعلام الثوري خلال الحقبة الاستعمارية، يمكن طرح الأسئلة الفرعية التالية:

- فيما تجلى الإعلام الثوري؟
- كيف أثر على مجريات الثورة التحريرية؟
- كيف كانت ردة فعل الشعب الجزائري؟

فرضيات الدراسة

للإجابة على إشكالية البحث والأسئلة الفرعية، يمكن اقتراح الفرضيات التالية:

- الإعلام الثوري كان أحد الركائز الأساسية في نجاح الثورة.
- عبأ المجتمع الجزائري لمواصلة الكفاح.
- قضى على الدعاية الفرنسية الرامية للقضاء على الثورة التحريرية.
- تدهور المجال الاجتماعي وتفشي الآفات الاجتماعية من فقر وجوع.
- ظهور الأمراض والأوبئة بين الجزائريين.

منهجية الدراسة:

اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي الذي يسمح بتوفير البيانات والحقائق حول مشكلة الدراسة من أجل تفسيرها والوقوف على دلالتها للوصول إلى النتائج والإجابة على التساؤلات المطروحة.

أولاً: الثورة الجزائرية والإرهاصات الأولى للإعلام

أدركت الثورة الجزائرية منذ اللحظات الأولى لاندلاعها بان الإعلام هو أحد الأسلحة الفعالة للعصر الحديث، وكان المسؤولون عنها يعلمون أن نجاحها يتوقف إلى حد كبير على الكفاح المسلح أولا ثم على الدعاية و تدويل القضية قصد الترويج للثورة والتعريف بها وتنوير الرأي العام في الداخل و الخارج و الدفاع عن القضية الجزائرية في المحافل الدولية[١].

ومن أبرز الصعوبات التي واجهتها الدعاية الجزائرية أثناء الثورة هو اضطرارها إلى إدارة نشاطها الإعلامي خارج الأراضي الجزائرية مما جعلها مضطرة لمواصلة عملها في ظروف حساسة بهدف عدم الاصطدام مع الأنظمة السياسية[٢] التي قد تختلف مع سياسة الثورة الجزائرية إضافة إلى نقص الإمكانيات المادية والعناصر المدربة وانعدام الإمكانات الفنية[٣] وعدم التنسيق مع أجهزة الدعاية المختلفة التي كانت تعمل مع الثورة في مناطق متفرقة، وقصد التعريف بالثورة أكثر قام المناضلون الجزائريون بإصدار جريدة المقاومة الجزائرية بثلاث طبعات تنشر تبعًا في فرنسا وذلك سنة ١٩٥٥، المغرب في أوائل ١٩٥٦ وتونس في منتصف السنة[٤]، وفي ٢٠ أوت ١٩٥٦ اثر انعقاد مؤتمر الصومام أكد على أهمية وسائل الإعلام و الدعاية في الثورة المسلحة وضرورة تكثيف العمل الدعائي على الصعيد الدولي عن

طريق إنشاء مكاتب جبهة التحرير الوطني في الخارج والتركيز على وسائل الدعاية من صحافة ونشريات وأفلام حيث عالج المؤتمر الكثير المشكلات التي تواجهها الدعاية الجزائرية وحسم الجانب الأساسي الذي كانت تعاني منه الدعاية الجزائرية وهو انعدام التنسيق بين الأجهزة الإعلامية الناطقة باسم الثورة[٥] وقرر المؤتمر إلغاء كل طبعات جريدة المقاومة الجزائرية وتوحيدها في جريدة واحدة هي المجاهد[٦] وقد ألح المؤتمر على ضرورة الابتعاد عن الدعاية الكاذبة والاعتماد على الحقائق، حيث اعتمد على الدعاية الجزائرية منها الصحف والإذاعة السرية ولجان الدعاية الداخلية، أما بالنسبة للجبهة الخارجية فقد اعتمدت على الصحف، فالمجاهد العربية بالنسبة للرأي العام العربي والمجاهد الفرنسية بالنسبة للرأي العام الغربي، هذا إضافة إلى الأساليب الأخرى المتنوعة مثل الاشتراك في المؤتمرات الدولية وإرسال الوفود إلى الدول الأخرى واستغلال جلسات الأمم المتحدة للدعاية للقضية الجزائرية، كما حدث في دورة ١٩٥٥[٧].

ثانيًا: أجهزة الإعلام الثوري

٢/١-تأسيس جريدة المجاهد

كان ميلاد جريدة المجاهد نتيجة ظروف حتمية لتطور الثورة الجزائرية كما كان تلبية لحاجات ملحة تتعلق بضرورة خلق إعلام ثوري معبر عن مطامع الثورة الجزائرية[٨]، حيث أصبحت المجاهد لسان مركزي لجبهة التحرير الوطني إثر صدور القرار الذي اتخذه مؤتمر الصومام يوم ٢٠ أوت ١٩٥٦ إبان الثورة المسلحة[٩]. إضافة إلى صحف كانت تصدرها الولايات مثل صحيفة العامل الجزائري للعمال والشباب الجزائري للشبيبة[١٠]، كما أصدرت وزارة الإعلام بعد تأسيس الحكومة المؤقتة النشرة السياسية.

وكان أول صدور لجريدة المجاهد في جوان ١٩٥٦ في مدينة الجزائر وكانت تطبع على آلة الرنيو على شكل كراس في منزل المجاهد مصطفى بن بونيش الكائن بالقبة بضواحي العاصمة[١١]، وأحيانًا كانت تطبع داخل كنيسة الصليب المقدس saintcroix[١٢] وكانت في حجم يزيد قليلا عن الكراسة وعدد صفحاتها لا يتجاوز ست صفحات، وقد احتفظت بنفس الشكل وطريقة الإخراج في أعداد السنة الأولى واستمرت تصدر بطريقة غير منظمة حسب الإمكانيات والظروف حتى سنة ١٩٥٧[١٣]، إضافة إلى التوزيع المحدود نتيجة للوضع الثوري الموجود آنذاك في الجزائر (معركة الجزائر) ويمكننا تقسيم تطور هذه الجريدة إبان الثورة الجزائرية إلى ثلاث مراحل:

(٢/١) ١-المرحلة الأولى

تعرف هذه المرحلة بالمرحلة الجزائرية و الحقبة العاصمية أي الفترة التي كانت تصدر خلالها بالجزائر[١٤]، وتمتد هذه المرحلة من أول يوم صدرت فيه أي من جوان ١٩٥٦ إلى غاية ٢٥ جانفي ١٩٥٧[١٥]، ومن سماتها أنها لم تكن اللسان المركزي الوحيد وإنما حسب تعبيرها لسان حال جبهة التحرير الوطني[١٦]. وشهدت هذه المرحلة إصدار سبعة أعداد لم يتجاوز سحبها للعدد الواحد ٢٠٠ نسخة حيث كانت أقرب منها إلى نشرية منها إلى جريدة، وبعد إضراب ثمانية أيام تم اكتشاف مقر جريدة المجاهد في حي القصبة إبان معركة الجزائر مما أدى إلى توقفها عن الصدور.

(٢/١) ٢-المرحلة الثانية

وتعرف بالحقبة المغربية حيث أعادت قيادة الثورة إلى إصدار هذه الجريدة مدة أخرى بعد توقف دام ثمانية أشهر[١٧] وتمتد هذه الفترة من ٢٥ جانفي ١٩٥٧ إلى غاية ٠٥ أوت من نفس السنة حيث نزلت ضيفة على صحيفة المقاومة الجزائرية في مدينة تطوان، وقد عادت للظهور في هذه الفترة بشكل جديد لتأخذ شكل صحيفة و من هنا خرجت من السرية لتصبح اللسان الرسمي والمركزي للثورة الجزائرية إثر بلاغ لجنة التنسيق والتنفيذ[١٨] وإثر ذلك تم توقيف صحيفة المقاومة الجزائرية بطباعتها الثلاث عن الصدور كما تم خلال هذه المرحلة تغيير شعار الصحيفة من لسان حال جبهة التحرير الوطني إلى اللسان المركزي لجبهة التحرير وكما تم حذف شعار الثورة من الشعب وإلى الشعب.

(٢/١) ٣-المرحلة الثالثة: (التونسية)

وتعتبر أطول مرحلة من حياة جريدة المجاهد إبان الثورة الجزائرية وتمتد من أول نوفمبر ١٩٥٧ إلى غاية حصول الجزائر على استقلالها أي عقب انعقاد الدورة الثانية للمجلس الوطني للثورة الجزائرية بالقاهرة من ٢٠ إلى ٢٧ أوت ١٩٥٧ حيث عولجت مسألة تمويل وتوزيع صحيفة المجاهد ونقل مقرها من المغرب إلى تونس لتكون قريبة من قيادة الثورة[١٩]، حيث تم فصل الطبعة العربية عن الطبعة الفرنسية إلا أنهما ظلتا خاضعتان لخط افتتاحي واحد يعكس مواقف جبهة التحرير، وعقب استشهاد عبان رمضان في ٠٧ ماي ١٩٥٨ تولى الإشراف على المجاهد أحمد بومنجل إلا أن تم الإعلان عن الحكومة المؤقتة يوم ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ حيث أصبحت تابعة لوزارة الأخبار تحت إشراف محمد يزيد[٢٠].

وبنظرة عامة كانت المجاهد إبان فترة الكفاح المسلح قد أصدرت (١٢٠) عدد وصلنا منها (١١٦) عدد، وتضمنت ١٦٢٦ مادة إعلامية تنوعت على الأنواع الصحفية كما يلي:

افتتاحية	١١٤
مقالات	٢٠٩
تقرير صحفي	٢٧٣
تعليق	٢٠٠
تحقيق صحفي	١٤٩
حديث صحفي	٥٠٠
دراسة	١٥٤
عمود	٢٧

حيث تركزت على أربع محاور رئيسة الدفاع والتعبير عن جبهة التحرير الوطني إبراز أصالة الشعب الجزائري، العمل على تدويل القضية الجزائرية، فضح أساليب ودعاية العدو وأمام الرأي العام المحلي والعالمي وكل هذه المحاور مستمدة من بيان أول نوفمبر ومنهج مؤتمر الصومام.

أولت جريدة المجاهد اهتمامها الأول لشرح وتحليل سياسة جبهة التحرير الوطني سواء ما يتعلق منها بسيرة الثورة واتجاهها العام[٢١]، وقد احتلت الدور الهام والبارز بالتعريف بالقضية الجزائرية وعدالتها وبإيصال صوتها إلى جميع أصقاع العالم، حيث كانت تنور الرأي العام الوطني والدولي بأفكار جبهة التحرير الوطني وتدافع عنها وكانت مرجع أساسي لمواقف جبهة التحرير الوطني إزاء الأحداث الوطنية و الدولية ويشير "رضا مالك" أن الجريدة كانت تعمل على تنوير الرأي العام بموضوعيه إذ كانت متفتحة على العالم وكان لها مراسلون في البلدان العربية وأمريكا اللاتينية وكانت موضوعاتها موجهة إلى الرأي العام، المناضلين والمسؤولين الدوليين، وكانت الجرائد الدولية كجريدة « LE MONDE » وجرائد فرنسية كلها حتى الجرائد الأمريكية والإنجليزية كانوا يقتبسون من افتتاحية المجاهد لكي يتعرفوا على مواقف الثورة الجزائرية من التطورات التي دأبت المجاهد على تناولها من الأحداث الاستثنائية وطنيًا ودوليًا أن تخصص لها مساحات معتبرة من الصحيفة[٢٢].

واهتمت المجاهد بالجوانب الفكرية والإيديولوجية فأكثرت من الدراسات النظرية التي تعالج قضايا الفكر السياسي والثورات المعاصرة وإلى جانب ذلك اهتمت بالحركات التحريرية في آسيا، إفريقيا وأمريكا اللاتينية وساندتها واستطاعت أن تبرز من خلال مقالاتها كل أنواع القمع والإرهاب التي تسلطها قوى الاستعمار العالمي على الحركات التحريرية[٢٣]. ومن بين العناصر التي كانت تقوم بتحرير وإعداد المجاهد:

١. باللغة العربية: إبراهيم مزهودي، عبد الله شريط، محمد الميلي، عبد الرحمن شريط، لمين لبشيشي، عيسى مسعودي.
٢. باللغة الفرنسية: رضا مالك، فرانز فانون، بيار شولي.

٢/٢-الإعلام السمعي

رغم أن الصحف الجزائرية ذات البعد الثوري ظهرت إلى الوجود قبل ظهور الإذاعة، إلا أن جمهور هذه الأخيرة كان أكثر اتساعًا من الصحف وقد اعتمدت الثورة الجزائرية في بداية الأمر على إذاعات الدول الشقيقة والصديقة منها على وجه الخصوص المصرية والتونسية على وجه الخصوص[٢٤].

(٢/٢) ١-صوت العرب

هي إذاعة مصرية كانت تبث من القاهرة على تردد AM621 ومن أبرز الأعمال التي قام بها الضباط المصريون الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر(٢٥) بتاريخ ٢٣ جويلية ١٩٥٢ ضد النظام الملكي القائم في مصر حيث لعبت دورًا بارزًا في دعم قضايا التحرر في المغرب العربي وجنوب اليمن وشرق إفريقيا واستغلت الحكومة الجديدة في مصر إمكانات الإذاعة ودعت من خلالها إلى دعم المناضلين العرب ودعاة القومية العربية ومحاربة ما يسمى بالمرجعية.

وعندما اندلعت ثورة نوفمبر ١٩٥٤ وجدت من إذاعة صوت العرب كل المناصرة والتأييد بالتعاليق السياسية والكلمات الهادفة والأحاديث الدينية التي تحث على الجهاد في سبيل الله من أجل الحرية والاستقلال. وقد أسس المسؤولون عن إذاعة صوت العرب منذ السنوات الأولى لإنشائها ركنا خاصا بأقطار المغرب العربي الأربعة أطلقوا عليه اسم المغرب العربي.

وفي عام ١٩٥٦ تكون مكتب جبهة التحرير الوطني للصحافة والإعلام في القاهرة طبقا لقرارات مؤتمر الصومام التي عبرت عن أهمية وسائل الإعلام والدعاية وعلى طبيعة دورها في المعركة المسلحة، حيث خصصت ثلاث برامج أسبوعية للجزائر خصصت لكل برنامج عشر دقائق وهذه البرامج هي:

*-برنامج وفد جبهة التحرير يخاطبكم من القاهرة ابتداءا من عام ١٩٥٦ وقد بدأه الأستاذ أحمد توفيق المدني عضو وفد جبهة التحرير الوطني في القاهرة حيث كان يكتب الحديث اليومي بنفسه و يقوم بتسجيله ليلا من إذاعة صوت العرب و بعد حوالي شهر من بدء إذاعة الحديث اليومي طلب المسؤولون من رابح تركي عمامرة الانضمام إلى الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني لكي يقوم تحت إشراف و توجيه أحمد توفيق المدني

بكتابه الحديث اليومي و تسجيله بنفسه في إذاعة صوت العرب بعد الساعة العاشرة مساءا بتوقيت القاهرة تحت عنوان وفد جبهة التحرير الوطني يخاطبكم من القاهرة حيث كان الحديث باللغة العربية يتوجه أساسًا إلى الشعب الجزائري والمجاهدين في جيش التحرير الوطني ثم الرأي العام العربي.

أما البرنامج الثاني هو برنامج "هنا صوت الجزائر"[٢٦]؛ كان يذاع باللغة الفرنسية ويتوجه أساسا إلى الرأي العام الدولي وخاصة في أوربا وقد تداول على الحديث باللغة الفرنسية عدد من المناضلين بعضهم من أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني مثل المحامي محمد الصديق بن بجي والدكتور أحمد فرنسيس وتدعما في مرحلة أخرى بانضمام مجموعة من المناضلين[٢٧]، أما البرنامج الثالث فهو بعنوان "جزائري يخاطب الفرنسي" كان يذاع باللغة الفرنسية.

وفي شهر سبتمبر ١٩٥٧ انضم إلى قسم العربي عبد القادر بن قاسي الذي أنهى دراسته بجامعة القاهرة وبذلك أصبح القسم العربي يتكون من رابح تركي عمامرة ١٩٥٦، محمد كسوري ابتداءً من عام ١٩٥٧، عبد القادر بن قاسي وأصبح هذا الأخير يسجل وحدة صوت الجزائر من إذاعة صوت العرب سواء قام بكتابته هو أو أحد زملائه وذلك نظرًا لصوته الجوهري[٢٨].

وخلاصة القول؛ أن عددًا غير محدود من الجزائريين على اختلاف مواقعهم في جبهة التحرير وقد ساهموا بكتابة موضوعات عن الجزائر وثوراتها وقاموا بإذاعتها من صوت العرب باللغة العربية أو الفرنسية، وقد استمرت هذه الأحاديث باللغتين منذ تكوين مكتب الصحافة والإعلام بجبهة التحرير الوطني في صيف عام ١٩٥٦ طبقًا لقرارات مؤتمر الصومام حتى قيام الحكومة المؤقتة حيث أصبح الحديث يحمل عنوان "صوت الجمهورية الجزائرية يخاطبكم من القاهرة" إلى غاية استرجاع الاستقلال الوطني في ٠٥ جويلية ١٩٦٢ حيث توقف بدخول أجهزة الحكومة المؤقتة إلى الوطن، وفي إشارة لأحمد سعيد عن المذيعين الجزائريين أن المجموعة الأولى التي كان على رأسهم عيسى مسعودي تتمرس على العمل، وأصبحوا في مستوى الآخرين حيث استغل بعضهم مذيعين ومحررين ومترجمين ومعيدي برنامج كأنهم مذيعين مصريين يخضعون لتدريب مصري مئة بالمئة.

وبالإضافة إلى صوت العرب بالقاهرة قامت إذاعة تونس عام ١٩٥٦ باحتضان برنامج جزائري تحت عنوان "صوت الجزائر المجاهدة الشقيقة" وكان يذاع ثلاث مرات في الأسبوع ومدته ربع ساعة، وكان يشمل أخبار عسكرية وتعاليق سياسة قصيرة، حيث يبتدأ وينتهي بالنشيد القومي الجزائري[٢٩]، وقد اكتسب هذا الأخير أهمية خاصة حيث استطاعت الآلاف من الشبان الجزائريين الالتحاق بصفوف الثورة ومن دمشق قدمت إذاعتها برنامج صوت الجزائر الثائرة يوميًا ضمن أخبار عسكرية وتعليق سياسي وتحليل إخباري، توقف بث هذا البرنامج سنة ١٩٦١ وبالموازاة مع ذلك أعد بعض الطلبة الجزائريين الذين زاولوا دراساتهم في الجامعات السورية برنامج صوت الجزائر من دمشق لمدة ساعة يوميًا، ومن إذاعة بغداد تم إعداد برنامج إذاعي خاص بالثورة الجزائرية صوت الجزائر من بغداد سنة ١٩٥٨، حيث أولى أهمية بالغة بالتعريف بالثورة والدفاع عن مطالب الشعب الجزائري[٣٠]؛ وصوت الجزائر من ليبيا بمد الشعب الليبي بأخبار الثورة الجزائرية وكانت تبث ثلاث مرات في الأسبوع على مدار نصف ساعة للحصة الواحدة عبر محطتي بنغازي وطرابلس.

(٢/٢) ٢-صوت الجزائر

مع اندلاع ثورة التحرير اهتمت السلطات الاستعمارية أكثر بالإذاعة باعتبارها موجهة للرأي العام الوطني والدولي مما دفع قيادة الثورة إلى التفكير في إيجاد وسيلة تمكنها من القيام بعمل إعلامي دعائي يقوم بتزويد الجزائريين بتطورات الثورة في الداخل والخارج وشرح القضايا الوطنية من كل جوانبها، حيث تقرر في مؤتمر الصومام إنشاء هذه الإذاعة حيث بدأ نشاطها الفعلي سنة ١٩٥٧[٣١].

بدأت هذه الإذاعة المتنقلة بالبث قرب الحدود الجزائرية الغربية من خلال شاحنه من نوع JMC بجهاز إرسال من نوع 610PC حيث كانت هذه الشاحنة تحمل المعدات الإذاعية في الجبال والولايات ويعمل بها حوالي ١٠ مناضلين لم يكن لهم سابق خبرة بالعمل الإذاعي[٣٢]، وتدوم مدة البث ساعة أو ساعتين يوميًا على الموجات القصيرة مقسمة إلى ساعة باللغة العربية وتشمل على أخبار عسكرية وأخبار سياسية وتعلقين واحد بالفصحى والآخر بالدارجة، أما الساعة الثانية فكانت مقسمة إلى نصف ساعة بالأمازيغية ونصف ساعة بالفرنسية[٣٣]، وتعيد نفس البرنامج في اليوم التالي وكانت تخصص يومان في الأسبوع لتوجيه إذاعات خاصة باللغة الفرنسية للعمال الجزائريين بفرنسا وكانت تبدأ برنامجها بعبارة "إذاعة الجزائر الحرة المكافحة" أو صوت جبهة التحرير الوطني يخاطبكم من قلب الجزائر. وكانت المواد المذاعة تشمل البلاغات العسكرية التي تتلقاها عن طريق أجهزة اللاسلكي ثم تطورت لتذيع نشرات أخبار نقلا عن إذاعات أخرى كلها تتعلق بالقضية الجزائرية[٣٤]، وفي حديث للأمين بشيشي عن الإذاعة

يقول "كانت الإذاعة السرية وكانت أجهزة الإرسال على متن شاحنة متنقلة وكان لها شعاع ٧٠ كلم لأنها إذا بقيت في مكان واحد تستطيع السلطات الفرنسية أن تحاصرها وكانت تعمل هذه الإذاعة باللغة العربية والفرنسية والأمازيغية لها عدة برامج ذات طابع دعائي وتعبوي.

حيث كانت تتميز أنها جزائرية مئة بالمئة في برامجها وإطاراتها السياسية والتقنية. وقد تعرضت هذه الإذاعة في المرحلة الأولى للعديد من المشاكل والصعوبات ترتب عنها توقف الجهاز الإذاعي عن الإرسال لفترة محددة ثم تم إعادة بناؤها من جديد بهيكلة جديدة في أستوديو بمدينة الناظور المغربية وقد انعكس هذا الاستقرار على مدة البث ساعتين إلى ست ساعات مقسمة على ثلاث فقرات[٣٥].

وذلك عدا شهر نوفمبر من كل عام حيث كان الإرسال يستمر من الرابعة صباحًا حتى الثانية من صباح اليوم التالي[٣٦]، وقد قامت الإذاعة الجزائرية بدورها كاملاً في رفع معنويات المناضلين وبث الثقة في نفوس الشعب الجزائري فكانت صوتا من أصوات الثورة حيث يشرح فرانس فوانز دور إذاعة الثورة بالنسبة للإنسان الجزائري وأهميتها بقوله: "فالجزائري الذي يأمل أن يحيا في مستوى الثورة نفسه يملك إمكانية الاستماع إلى صوت رسمي هو أصوات المقاتلين[٣٧].

ويعتبر إنشاء الإذاعة السرية في قلب الجزائر حدثًا له أثر بعيد المدى على الرأي العام الجزائري وخاصة بالنسبة لمعظم قطاعات الشعب الجزائري حيث جاء وقت إنشاءها في أحرج فترات النضال حيث أصبح من الضروري بالنسبة للثورة الجزائرية أن تستكمل أجهزتها الدعائية خاصة في الداخل حتى تتمكن من تنظيم وتوجيه ملايين لمعركة تحريرية ضخمة[٣٨]، حيث بعث محمد يزيد وزير الإعلام بتاريخ ٢١ أوت ١٩٦٠ إلى مدير الإذاعة بشكر جميع العاملين فيها، جاء فيها: "لي الشرف العظيم أن أبلغكم تحيات هيئة الأركان العامة على الأداء الجيد لإرسال صوت الجزائر الحرة المكافحة، إننا نشكركم باسم هيئة الأركان والمجاهدين وهذا الشكر مبني على أساس السمع لإرسالكم من طرف المقاتلين ونطلب منكم سيدي إبلاغ هذه التحيات و هذه التشكرات لجميع عمال الإذاعة من محررين وتقنيين[٣٩].

ثالثًا: الاستراتيجية الإعلامية للحكومة المؤقتة

في يوم الجمعة ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ على الساعة الواحدة بعد الظهر صدر بلاغ في وقت واحد بالقاهرة و تونس و الرباط تم إعلان فيه عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية برئاسة فرحات عباس[٤٠].

٣/١-تشكل وزارة الإعلام

أصبح هناك وزارة كاملة للإعلام والدعاية سميت وزارة الأخبار كان يترأسها أثناء الثورة محمد يزيد وقد أصبحت هذه الوزارة مسؤولة عن كل ما يتعلق بالنشاط الإعلامي للثورة كإصدار النشريات السياسية وعقد المؤتمرات الصحفية للرد على الدعاية الفرنسية[٤١]، بالإضافة إلى الإشراف على أجهزة الإعلام الأخرى مثل جريدة المجاهد والإذاعة ولجان الدعاية الداخلية التي تقرر إنشاءها في مؤتمر الصومام ١٩٥٦ على مستوى الولايات والمنطقة والناحية حيث كانت تقوم بعقد اجتماعات أسبوعية للجنود والشعب وتتولى شرح وتحليل المشاكل العسكرية والسياسية[٤٢] وقامت بإصدار نشرات أسبوعية للرد على الدعاية الفرنسية.

٣/٢-الصحافة

تنقسم إلى صحف الولايات حيث كانت الأوراس أسبق الولايات في إصدار نشرة صحفية سنة ١٩٥٥ اسمها " الوطن". كانت تكتب باللغة الفرنسية تطبع على آلة الرونيو والولاية الثالثة نشرة اسمها "الجيل" والولاية الرابعة نشرة اسمها "حرب العصابات" كما كان يتم تبادل الإنباء بين الولايات عن طريق اللاسلكي و صحفية المجاهد[٤٣] التي سبق ذكرها. إضافة إلى الصحف الأخرى التي كانت تصدرها وزارة الأخبار من ضمنها نشرة سياسية نصف شهرية باللغتين العربية والفرنسية بالإضافة إلى نشرة شهرية تشمل أهم التعليقات والأشعار والأخبار التي أذيعت في صوت الجزائر من إذاعة تونس حيث في سنة ١٩٦٠ وكانت توزع على نطاق محدود[٤٤].

٣/٣-مكاتب الإعلام الخارجي

اعتمدت في البداية على النشرات والصفحات التي كانت تصدرها جبهة التحرير الوطني عن طريق مكاتبها في الخارج ويعتبر مكتب القاهرة أول المكاتب الإعلامية الذي فتح في عام ١٩٥٥، تلاه فتح مكاتب إعلامية أخرى في كل من دمشق، بيروت، جدة، عمان، طرابلس، أما تونس والمغرب فقد تم افتتاح مكاتب بهما بعد استقلالهما عام ١٩٥٦ ولم تبدأ جبهة التحرير نشاطها الإعلامي في أوربا إلا في أوائل ١٩٥٨[٤٥].

أما بإفريقيا فقد بدأت نشاطها الدعائي فيها بعد مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨، أما الدول التي لم تعترف بالحكومة المؤقتة فقد ظلت مكاتب الإعلام بها تعمل تحت اسم " بعثة جبهة التحرير"، أما

الإذاعات فتمثلت في البرامج التي كانت تبث في إذاعة صوت العرب، تونس، دمشق وغيرها من الدول العربية الأخرى.

وفي عام ١٩٥٩ أنشأت وزارة الأخبار قسمًا للسينما يقوم بإعداد الأفلام التسجيلية عن المعارك و عن حرب القرى والمدن ويصور نضال الأطفال ونساء الجزائر في معاركهم ضد الاستعمار الفرنسي حيث عرض أول فيلم باسم "جزائرنا" في نوفمبر ١٩٦٠ في مهرجان ليزج بألمانيا الشرقية وحصل على جائزة المهرجان[٤٦]. إضافة إلى قسم التصوير وقسم الأسطوانات لتسجيل الأناشيد والموسيقى الوطنية والخطب الهامة والمحاضرات وقد كانت تقوم بإرسالها إلى مكاتب الإعلام الخارجي.

وبعد استكمال الثورة الجزائرية أجهزتها الإعلامية من صحافة وإذاعة ومكاتب إعلام خارجية وسينما، رأت وزارة الأخبار ضرورة تأسيس وكالة أنباء وطنية تكون بمثابة نافذة إعلامية للثورة الجزائرية بالنسبة للعالم العربي أولاً ولأوربا ثانيًا عام ١٩٦٠ وكان مقرها في تونس[٤٧] وتحدد دورها في الإشراف على كل ما يتعلق بالثورة الجزائرية من أنباء وتعليقات بدقة تجنبا لتحريفها وقبل أن يتم إنشاء الوكالة الجزائرية كانت جبهة التحرير الوطني تنظم اتصالاتها الإعلامية في الدول العربية عن طريق وكالة أنباء الشرق الأوسط وبالدول الاشتراكية عن طريق وكالة تشيكا التشيكية[٤٨].

رابعًا: أهم رجال الإعلام

لم يعتمد الجزائريون في ثورتهم على قوة السلاح فحسب، بل استخدموا كل الوسائل الممكنة للوصول إلى هدفهم وتحقيق غاياتهم واختاروا لهذه المواجهة مجموعة كبيرة من أبناء الثورة الذين برزوا في الميدان الإعلامي للقيام بهذا الواجب الذي لا يقل أهمية عن المعارك في ساحة القتال سلاحهم الحقيقي الإيمان بقضيتهم وثورتهم ويمكن تصنيفهم إلى صنفين صنف نشط بالإذاعة والصنف الآخر في الصحافة المكتوبة (المجاهد).

٤/١-رجال الإعلام الذين برزوا في الإذاعة

(٤/١) ١-محمد بوزيدي

ولد محمد بوزيدي يوم ٠١ ديسمبر ١٩٣٤ في حي القصبة بالجزائر العاصمة، حفظ القرآن الكريم و عمره عشر سنوات، تتلمذ على يد الشيخ محمد العيد آل خليفة في مدرسة الشبيبة الإسلامية التي علم بها، وأصبح يشرف على إدارتها فيما بعد ١٩٢٨-١٩٤٠ وفي سنة ١٩٤٧ عندما بلغ سن الثالثة عشر، التحق بالإذاعة وشارك في البرنامج الموجه للصغار "جنة الصغار"، انضم في سنة ١٩٥٧م إلى الثورة، التحق في نفس السنة بصفوف جيش التحرير الوطني بعد الفرار من السجن برتبة جندي وخلال وجوده بصفوف جيش التحرير عمل في مجال الإعلام كمحافظ سياسي للثورة، عمل في الإذاعة "صوت الجزائر" بتونس، ثم التحق بالإذاعة السرية. وبعد استعادة السيادة الوطنية اشتغل في الإذاعة والتلفزيون الجزائريين، توفي محمد بوزيد يوم ١٠ أوت ١٩٩٤ بعد مرض طويل[٤٩].

(٤/١) ٢-عيسى مسعودي

ولد الإعلامي محمد عيسى في ١٢ مايو ١٩٣١ في وهران من عائلة فلاحية فقيرة، تعلم اللغة العربية في المدارس القرآنية قبل الالتحاق بجامعة الزيتونة حيث تحصل منها على شهادة الأهلية والتحصيل، انخرط في حركة انتصار الحريات الديمقراطية، كان عضوًا نشيطا، شغل منصب رئيس جمعية الطلبة الجزائريين بتونس عام ١٩٥٦ التحق بصوت الجزائر في إذاعة تونس واستمر كمعلق وإعلامي حتى سنة ١٩٥٩م، وفي ١٢ جويلية ١٩٥٩ انتقل إلى إذاعة الناظور بالمغرب بعد التحاقه بالجهاز اللاسلكي التابع لجيش التحرير الوطني وبها عين بإذاعة الجزائر الحرة المكافحة في أكتوبر ١٩٦١ عاد إلى تونس ليشرف على صوت الجزائر من تونس حيث كان يُعَدّ حصتين أسبوعيتين مدة كل حصة خمسة عشر دقيقة، وكان لنضاله الأثر البالغ في الرفع من معنويات الشعب الجزائري وجيش التحرير، وقد قال الرئيس هواري بومدين "أن صوت عيسى مسعودي شكل نصف الثورة".

وبالإضافة إلى هؤلاء هناك مجموعة كبيرة نشطت وأشرفت على تسيير الإذاعة السرية:

– إبراهيم غافة	- خالد التيجيني
– كمال داودي	- ولد قابلية دحو
– ولد خروبي أمحمد	- عمر مرزوق
– قدور ريان	- ولد خروبي محمد
– ابن سعد مسعود	- كمال داودي
– مداني حواس	- حمة ميسوم
– جون ميشال	- عاشور قدور
– بيرجي	- طارق
– محمد السوفي	- حومة عبد المجيد
– بوديني محمد	- كسوري محمد
– عبد العزيز شكيري	- مغبري محفوظ
– السعودي محمد	- معمري عمار
– التومي مصطفى	- غماري السعيد
– خالد سافر	- فريدة عبورة[٥٠]

خَاتِمَةٌ

ولعل أهم نتيجة توصلنا إليها، هو أن الإعلام الثوري تعزز وأصبح أكثر فعالية كغيره من وسائل الثورة عند تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية عام ١٩٥٨ ونظرًا لدور الإعلام الحيوي في الثورة فإن قياداتها قد خصصت له قطاعًا وزاريًا أشرف عليه رجال إعلام الثورة ومَنْ لهم تجربة في الإعلام والنظام، وكان لوزارة الإعلام دور في تنشيط دعاية الثورة من خلال إنشاء مكاتب إعلامية عبر مختلف النقاط الحساسة في العالم للتعريف بالقضية الوطنية وفضح الممارسات الاستعمارية. وكان الاهتمام العالمي بجانبيه العربي والغربي بها، فالصحافة المصرية كونها صحافة عربية أعطت اهتمامًا كبيرًا للثورة، فتناولت جميع نواحي القضية الجزائرية وردود الأفعال وكان لها دور فعال في توجيه الرأي العام العالمي والمصري وحث الحكومات على تقديم المساعدات للثورة.

أما الصحافة الغربية، وبالخصوص الفرنسية بشقيها اليميني واليساري، فقد عرضت تطورات الموقف إزاء الثورة الجزائرية من انطلاقها إلى غاية الاستقلال إضافة إلى الصحافة الروسية التي كان لها مواقف اتجاه الثورة. وبعد أن تتوج الكفاح بالنصر، واسترجعت السيادة الوطنية كان لابد على الإعلام في الدولة الجزائرية أن يستمر على نفس النهج الذي أخذ به أثناء الثورة التحريرية أي أن يكون إعلامًا نضاليًا له رسالة ويضطلع لمهمة لا تختلف عن سابقاتها إلا من حيث الأسلوب وطابع المهمة. استطاع الإعلام الجزائري بالفعل أن يواكب مختلف المراحل التي مرت بها البلاد وعرفت أغلب وسائله تطورًا كبيرًا على مستوى التقنيات والأداء.

الاحالات المرجعية:

(١) عبد الوحيد، **الإعلام والثورة الجزائرية**، مجلة الجيش، ع ٤٩٤، ص ٢٣.

(٢) عواطف عبد الرحمن، **الصحافة العربية في الجزائر، دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٥٠.

(٣) نفسه، ص ٥٠.

(٤) عبد الوحيد، م، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٥) مشتقة من كلمة جهاد، وهي إرادة البعث والتطلع إلى الأفضل لدى الإنسان، فمعنى الجهاد هو خلاصة الوطنية السمحاء المتجردة من كل تعصب. انظر: إبراهيم لونيسي، **جريدة المجاهد**، مجلة الرؤية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ع٣، ص ٢٠٨.

(٦) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٥٠.

(٧) نفسه، ص ٥٢.

(٨) أحمد حمدي، **الإعلام والثورة الجزائرية**، ط٢، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ١٩٩٥، ص١٢١.

(٩) أحمد حمدي، **دراسات في الصحافة الجزائرية**، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٠، ص١٥.

(١٠) لغميري ليلى، **الإعلام والدعاية إبان الثورة الجزائرية**، روضة الجندي، ع ٣٠١، المركز التقني للإعلام والاتصال والتوجيه، الجزائر، ٢٠٠٣، ص٠٨.

(١١) إبراهيم لونيسي، **جريدة المجاهد**، مجلة الرؤية، ع٣، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، ص٢٠٧.

(١٢) تحولت هذه الكنيسة إلى مسجد البراني من خلال مساعدة رئيس الدير دوكليرك الذي كان يتعاطف مع جبهة التحرير تحت إشراف عبد القادر عامري المسمى عبد القادر الرنيو المختص في الطباعة السرية، انظر: أحمد حمدي، المرجع السابق، ص ١٥.

(١٣) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٥٤.

(١٤) أحمد حمدي، **الإعلام**....، المرجع السابق، ص ١٢١.

(١٥) عبد الوحيد،م، **الإعلام والثورة الجزائرية**، المرجع السابق، الجيش، ص ٢٤.

(١٦) أحمد حمدي، **الإعلام**....، المرجع السابق، ص ١٢١.

(١٧) المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

(١٨) **لجنة التنسيق والتنفيذ (CCE)**: هي الهيئة التنفيذية للثورة الجزائرية، انبثقت عن مؤتمر الصومام وهي تمارس سلطة تنفيذية تتولى تطبيق القرارات السياسية والعسكرية التي يتخذها أعضاء المجلس الوطني للثورة وتشكلت هذه السلطة من قادة بارزين في داخل الجزائر وهم: عيان رمضان، العربي بن مهيدي، كريم بلقاسم، بن خدة، بن يوسف وسعد دحلب، انظر: عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧، ص ٣٩٧.

(١٩) عبد الوحيد.م، المرجع السابق، ص٢٤.

(٢٠) عُين وزيرًا للاعلام خلال إنشاء الحكومة المؤقتة، مثل الجزائر في الخارج، كان من دعاة تفصيل العمل السياسي على الجانب العسكري خلال الثورة أحد أعضاء الوفد الجزائري الذين وقعوا اتفاقية إيفيان، انظر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، **تاريخ الجزائر ١٨٣٠- ١٩٦٢**، القرص المضغوط.

(٢١) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٩١.

(٢٢) أحمد حمدي، **دراسات في الصحافة الجزائرية**، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٠، ص٢١.

(٢٣) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٩٢.

(٢٤) عبد الوحيد. م، المرجع السابق، ص٢٣.

(٢٥) ولد جمال عبد الناصر في ١٥ جانفي ١٩١٨ في مصر العُليا في قرية بين مد، كان والده موظف في بريد بسيط، درس في الإسكندرية ثم جامعة القاهرة، شارك في المظاهرات الوطنية عام ١٩٣٥، دخل إلى الكلية الحربية وشكل هناك مع أنور السادات وزكريا محي الدين حركة الضباط الأحرار، أصبح برتبة عقيد خلال الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩١٨، قاد الكفاح ضد القوات البريطانية وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢، قاد الانقلاب العسكري للضباط الأحرار واستولى على السلطة في مصر، أصبح رئيسًا للجمهورية المصرية في نهاية عام ١٩٥٤، وبعد كارثة ١٩٦٧ استقال من منصبه، لكن أعاده، توفي في أكتوبر ١٩٧٠. انظر: **تاريخ العالم في القرن العشرين**، عظماء القرن، ص٩٦- ٩٧.

(٢٦) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢٧) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٦٠.

(٢٨) نفسه.

(٢٩) اختلفت المراجع في تحديد مدة بث هذا البرنامج ما بين ربع ساعة وثلاثين دقيقة، عبد الوحيد.م، الإعلام خلال الثورة، ص٢٤.

(٣٠) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٥٩.

(٣١) عبد الوحيد.م، **الإعلام خلال الثورة الجزائرية**، ص٢٨.

(٣٢) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٣٣) مسعود كواتي، **دور محمد بوزيدي في الإعلام الثوري السمعي**، المصادر، ع٧، ص١٤٤.

(٣٤) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، المرجع السابق، ص٦٠.

(٣٥) مسعود كواتي، المرجع السابق، ص١٤٥.

(٣٦) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٦١.

(٣٧) مسعود كواتي، المرجع السابق، ص١٤٥.

(٣٨) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٦٢.

(٣٩) مسعود كواتي، المرجع السابق، ص١٦٤.

(٤٠) عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧، ص٤٧٥.

(٤١) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٥٢.

(٤٢) نفسه، ص٥٣.

(٤٣) عبد الوحيد.م، **الإعلام والثورة الجزائرية**، ص٢٥.

(٤٤) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٥٥.

(٤٥) نفسه، ص٥٧.

(٤٦) عواطف عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٦٢.

(٤٧) نفسه، ص٦٣.

(٤٨) نفسه، ص ٦٤.

(٤٩) مسعود كواتي، **دور محمد بوزيد في الإعلام الثوري السمعي**، المصادر، ع٧، ص١٤٦.

(٥٠) عمار معمري، **بعض الجوانب التقنية من الإذاعة، التسليح والمواصلات أثناء الثورة التحريرية من ١٩٥٦- ١٩٦٢**، ص٥٦-٥٧-٥٨.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

مواقف وردود الفعل الفرنسية على القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة

١٩٥٥-١٩٦١م



د. رفيق تلي
شعبة التاريخ – قسم العلوم الإنسانية
جامعة الدكتور مولاي الطاهر – سعيدة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

كان من بين استراتيجيات جبهة التحرير الوطني في خوض معركة التحرير ضدّ الاستعمار الفرنسي هو تدويل القضية الجزائرية التي كانت من بين الأهداف الخارجية للثورة التحريرية، حيث أنّ القضية الجزائرية قطعت أشواطًا شاقة من أجل التعريف وتدويل نفسها أمام الرأي العام العالمي وإيجاد حل عادل سلمي لها، حيث مرت القضية في دورات هيئة الأمم المتحدة التي لم تبخل فيها الدول الأفروآسيوية في إعرابها عن تأييدها ومساندتها لآراء ومواقف جبهة التحرير الوطني، كما ظلت تؤكد في كثير من المناسبات على عدالة القضية الجزائرية، وعلى أحقية الشعب الجزائري في تقرير مصيره وفي ضرورة حصوله على الحرية والاستقلال بناء على ميثاق هيئة الأمم المتحدة، لكن فرنسا كانت لها مواقف وردود مخزية اتجاه القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة، وذلك بانتهاجها التمادي دائمًا في سياسة الكرسي الشاغر ومقاطعة جلسات مناقشة القضية الجزائرية. وبفضل دبلوماسية جبهة التحرير الوطني داخل هذه الهيئة وقوة الثورة التحريرية ومجهودات الكتلة الأفروآسيوية التي كانت تقوم بمساندتها وتأييدها، وأمام إصرار الشعب الجزائري لنيل الاستقلال بحثت فرنسا على مخرج مشرف لها وذلك بجلوسها مع الطرف الجزائري للوصول إلى مفاوضات عادلة تضمن حق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٥	يونيو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	يوليو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
جبهة التحرير الوطني؛ الثورة الجزائرية؛ الاستعمار الفرنسي؛ الدبلوماسية؛ هيئة التحرير الوطني

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.205559

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
رفيق تلي. "مواقف وردود الفعل الفرنسية على القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة ١٩٥٥-١٩٦١م".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة -العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٥٤ – ١٦٩.

Corresponding author: rafik.telli87@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

نظرًا لأهمية الدبلوماسية في التعريف بالقضية الجزائرية اهتمت جبهة التحرير الوطني على وضع أسس الحركة الدبلوماسية لتوضيح أهداف الثورة الجزائرية، ودحض الشبهات التي قامت الحكومة الفرنسية ودبلوماسيتها وصحافتها الكبرى على نشرها بدعم من حلفائها خلال قرن وربع القرن وإثارة الرأي العام الدولي، وإخراج القضية الجزائرية التي حمل الشعب الجزائري السلاح من أجلها من الانغلاق والحصار الذي فرضه عليها معتمدة في ذلك على بيان أول نوفمبر ١٩٥٤، الذي حدد الخطوط العريضة للنشاط الدبلوماسي وهو الأمر الذي ركز عليه كذلك مؤتمر الصومام ١٩٥٦، وهو العمل على كسب تأييدها على المستوى الأممي والعربي والإفريقي والرأي العام العالمي، وبحكم دراستنا سنركز على القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة ومواقف وردود الفعل الفرنسية 1955-١٩٦١. ومنه طرحنا الإشكاليات التالية:

- كيف عملت جبهة التحرير الوطني على تدويل القضية الجزائرية؟
- ما هي الدورات التي مرت بها القضية الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة؟
- كيف كانت مواقف وردود الفعل الفرنسية من القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة؟

أولاً: تدويل القضية الجزائرية

لقد كان من بين استراتيجيات جبهة التحرير الوطني في خوض معركة التحرير ضدّ الاستعمار الفرنسي هو تدويل القضية الجزائرية التي كانت من بين الأهداف الخارجية للثورة التحريرية[١]، حيث أنّ جبهة التحرير الوطني منذ ١٩٥٤ كانت تهتم في الأساس بالبعد العربي والإسلامي وهو عمق طبيعي، ولكن البعد العالمي كان يتجلى في البداية في الامتداد الأفروأسيوي ثم منظمة الأمم المتحدة عندما أصبحت الظروف الدولية ملائمة، وهذه الرؤية البعيدة المدى لأهمية تدويل القضية الجزائرية لم تغب عن قادتها ومنظريها منذ الوهلة الأولى لانطلاقتها، حيث يؤكد "محمد يزيد" أنّه تم تبني الفكرة من حيث المبدأ منذ البداية، ذلك أنّ صدور بيان أول نوفمبر ١٩٥٤ بحدّ ذاته كان بهدف تدويل القضية الجزائرية وجعلها معروفة لدى الأوساط العالمية خاصة، وأنّ ذلك تزامن مع كفاح الشعبين التونسي والمغربي اللذان عرضت قضيتهما على الأمم المتحدة وكان حلم قيادي الثورة الجزائرية أن تدرج هي الأخرى ضمن اهتمامات جدول أعمال منظمة الأمم المتحدة[٢].

كما حاولت فرنسا من جهتها منع تسرب النداء الأول (نداء أول نوفمبر) لجبهة التحرير الوطني لكي لا يطلع عليه المواطنين، لكن الأمور كانت مدروسة بدقة وعناية فائقة من طرف معدي النداء، إذ لأنّ أخبار الثورة ومجريات العمليات الأولى منها أذيعت من الخارج عن طريق وكالات الأنباء الدولية وعلى رأسها إذاعة صوت العرب التي كانت سباقة في هذا المجال، وعند ذلك لم تجد السلطات الفرنسية في الجزائر بدّا من تشويه تلك الحقائق وهو ما صرح به الحاكم العام الفرنسي "روجي ليونار" وقال بأنّ جميع الأدلّة والقرائن تثبت بأنّ عناصر أجنبية هي التي خططت وقادت هذا التمرّد، قصد لفت انتباه الرأي العام العالمي بمناسبة انعقاد الدورة العادية للأمم المتحدة والتمكن من تدويل ملف المغرب العربي[٣].

ونظرًا لتطور العلاقات الدولية من خلال انقسام العالم إلى معسكرين، وتغير الأوضاع الداخلية للعديد من الدول الأفروأسيوية، عملت جبهة التحرير الوطني كل ما في وسعها لاستثمار دبلوماسيتها للتعريف بالثورة الجزائرية على المستوى الخارجي انطلاقا ما تضمنه بيان أول نوفمبر ١٩٥٤ وميثاق الصومام، وهذا لكسب العديد من الأنصار بهدف كسب تأييدها ودعمها، كما أكد هذا الأخير (أي مؤتمر الصومام) في ٢٠ أوت ١٩٥٦ بدوره على العمل الدبلوماسي[٤] الذي أكد المشاركون فيه من خلال الوثيقة السياسية على الأهداف المرجوة من مباشرة النشاط الدبلوماسي ومن تم حصرها في ضرورة بدل الجهود لإسماع صوت الثورة إلى كل شعوب العالم والعمل بكل الوسائل كسب المزيد من التأييد للثورة وإقناع المتعاطفين مع الثورة من شخصيات وهيئات ودول[٥].

لقد أدرك مفجرو الثورة بأنّ الكفاح المسلح في الداخل مرهون بحركة دبلوماسية واسعة[٦] في الخارج توفر الدعم المادي والمعنوي لاستمرار ونجاح الثورة التحريرية بالداخل، وتم تعيين السادة "محمد خيضر" و"حسين آيت أحمد" على رأس الوفد الخارجي[٧] لجبهة التحرير الوطني، وهذا يعدّ بمثابة ترجمة لقناعة الثورة التحريرية بضرورة العمل على تدويل الصراع الجزائري الفرنسي وحشد الدول العربية الشقيقة لدعم الثورة التحريرية في مواجهة الجيش الاستعماري، حيث قاموا بالاتصال بالسلطات المصرية ومن بعد ذلك سعوا إلى إنشاء مكتب لهم في العاصمة المصرية القاهرة يكون بمثابة المنطلق لنشاطهم وتحركاتهم داخل مصر وخارجها[٨] ثم إنشاء من بعد ذلك عدّة

مكاتب لجبهة التحرير الوطني في مختلف دول العالم بهدف كسب دعمها وتدويل القضية الجزائرية.

وتدعيما لهذا المسعى شاركت جبهة التحرير الوطني في مختلف المؤتمرات وذلك من خلال المشاركة في مؤتمر طنجة ما بين ٢٧ و٣٠ أفريل١٩٥٨ ومؤتمر تونس في ١٦اجوان ١٩٥٨، حيث تم التأكيد على مواصلة دعم كفاح الشعب الجزائري والمشاركة في مؤتمر جامعة الدول العربية المنعقد بالدار البيضاء –المغرب الأقصى- في سبتمبر١٩٥٩، والذي توج بضرورة السعي إلى مساعدة الشعب الجزائري، والمشاركة في المؤتمر الآفروأسيوي الذي عقد بأكرا العاصمة الغانية في أفريل ١٩٥٨ والذي أدّى إلى اعتراف الدول المستقلة من القارتين بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره وأكّدت أيضا على التزامها لمساندته في منابر الأمم المتحدة، كما تحركت دبلوماسية جبهة التحرير الوطني في ذات الإطار من خلال مشاركتها في المؤتمرات العالمية لما لها من تأثير ليس فحسب على فرنسا وحتى في مسار العلاقات الدولية ضمن ظروف الحرب الباردة، ومن أبرز هذه المؤتمرات تلك التي انعقدت بموسكو في فيفري١٩٥٩، وستوكهولم في ماي ١٩٥٩ حيث تمت مناقشة قضايا الاستعمار والسلم العالمي، إضافة إلى ذلك مشاركتها في مؤتمر الأممية الاشتراكية الذي انعقد في هامبورغ من ١٤ إلى ١٨ جويلية١٩٥٩ والذي استنكر جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر[٩].

وهكذا استطاعت جبهة التحرير ومن ورائها أعضاء بعثتها الدبلوماسية -وفي فترة زمنية قصيرة-من خلق معالم حركة تضامنية أفروآسيوية، لها وزنها في رسم ملامح السياسة الدولية المستقبلية وكسب احترام وعطف الرأي العام، وإحراج الحكومة الفرنسية وممثليها في العديد من المناسبات العالمية، وكان تدويل القضية الجزائرية، بداية معركة دبلوماسية وسياسية شرسة وصعبة، بذل فيها ممثلوا الجبهة جهودا جبارة ومضنية من أجل توسيع التأييد والدعم للقضية الجزائرية[١٠].

ومن الأمور التي يجب أن نشير إليها، أن النشاط الخارجي للوفود الجزائرية لم يقتصر فقط على حضور المؤتمرات والندوات الدولية، وإنما تعدّدت مظاهره، من خلال إلقاء المحاضرات والتصريحات والبرامج السياسية في الإذاعات العربية والأجنبية، زيادة على كتابة المقالات والتحليلات في صحف جبهة التحرير الوطني أو في الصحف العالمية، دون أن ننسى النشاطات التي كانت تقوم بها بقية التنظيمات النقابية والشعبية والفنية والرياضية، وقد ساهمت هذه النشاطات والفعاليات المختلفة، في تعريف العالم بالثورة الجزائرية ومعاناة الشعب الجزائري من جراء السياسة الاستعمارية الفرنسية المطبقة[١١].

وكان أهم عمل دبلوماسي قامت به جبهة التحرير الوطني هو سعيها المبكر في العمل على المشاركة في أكبر محفلين دوليين هما مؤتمر باندونغ في أفريل ١٩٥٥[١٢] والدورة العاشرة للأمم المتحدة في سبتمبر ١٩٥٥[١٣].

ثانيًا: القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة

٢/١-الدورة العاشرة ١٩٥٥

لتحقيق الثورة التحريرية أهدافها كان عليها استغلال كل الوسائل المتاحة وخاصة الاعتماد على مساعدة ودعم حلفائها السابقين وفي مقدمتهم الدول العربية والإسلامية[١٤]، وفي مقدمة هذه الدول نجد المملكة العربية السعودية التي أدت اهتماما ملحوظا بالقضية الجزائرية منذ اندلاع الثورة التحريرية عام ١٩٥٤، إذ دعا الملك "سعود بن عبد العزيز" عام ١٩٥٥ إلى إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة[١٥] ففي يوم ٠٥ جانفي ١٩٥٥م قدم مندوب المملكة العربية السعودية مذكرة إلى مجلس الأمن لفت فيها نظره إلى خطورة الحالة في الجزائر التي تهدد الأمن والسلام العالميين إضافة إلى سياسة القمع الوحشية ضدّ الشعب الجزائري[١٦] وهذا الذي سيوجه النظر لها دوليا لكي ينالوا حقهم بالاستقلال، كما التقى الوفد السعودي مع أعضاء الوفود العربية والدول الإفريقية والأسيوية في الجمعية العامة لدعم الموقف السعودي[١٧].

على إثر انعقاد مؤتمر باندونغ في ١٨ أبريل١٩٥٥ [١٨] أوصت دول هذا المؤتمر بعرض القضية على الأمم المتحدة، والجدير بالذكر أنّ دول الكتلة الأفروآسيوية كان لها موقف اتجاه قضية الجزائر بحيث أجمعت على إدانة فرنسا والمطالبة باستقلال الجزائر التام، وهذا الموقف الصريح الصارم لايستند إلى أي مصلحة وإنمّا يستند على روح الإنسانية العالية خالية من كل غرض مصلحي، ولهذا يعتبر هذا التضامن الافريقي الآسيوي مع الجزائر مثالا رائعا للتضامن بين الشعوب[١٩]، فقدم مندوبو أربع عشرة دولة من الدول الافريقية والأسيوية بهيئة الأمم رسالة إلى الأمين العام يوم ٢٦ جويلية طلبوا منه فيها إدراج قضية الجزائر في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة المنعقدة سبتمبر ١٩٥٥ وهذا بناء على تعليمات حكومتهم[٢٠]، وقد أوضح مندوبو هذه الدول للأمين العام في تلك المذكرة بحق الجزائر في تقرير مصيرها وأوضحوا تدهور الحالة في الجزائر مما يؤدي إلى تهديد السلم والأمن في العالم، وبعد دراسة هذه

المذكرة من طرف الجمعية العامة كانت الموافقة على إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمالها بأغلبية ثمانية وعشرون صوتا ضد سبعة وعشرين وإمساك خمسة عن التصويت، وهو الأمر الذي أغضب الوفد الفرنسي الذي كان يترأسه "كريستيان بينو" وزير الخارجية، واحتج على ما أسماه بتدخل المنظمة الدولية في الشؤون الفرنسية الداخلية، ثم انسحب من الاجتماع وقاطع جلسات الأمم المتحدة من أول أكتوبر إلى أواخر شهر نوفمبر[٢١]، ورغم أن القضية الجزائرية أصبحت تسجّل في دورات هيئة الأمم المتحدة إلا أنها لم تكن تطرح للمناقشة، وذلك بسبب مواقف فرنسا الرافضة لذلك.

إنّ هذه المبادرة شجّعت جبهة التحرير الوطني في ٢٢ أوت ١٩٥٥ بتوجيه مذكرة إلى الدول الأعضاء في الأمم المتحدة لحثها على إيجاد تسوية سلمية وعادلة للقضية الجزائرية استنادا إلى ميثاق منظّمة الأمم المتحدة خاصة ما تعلق منه بحق تقرير المصير الشعوب كمبدأ أساسي تعمل المنظمة لتعميمه على كل الشعوب المسيطر عليها[٢٢].

وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٥٥ قدم ممثل الهند عريضة للجمعية العامة يطلب فيها تأجيل القضية الجزائرية من جدول الأعمال فوافقت الجمعية على ذلك وأرجأت القضية الجزائرية، وعلى الرغم من أنّ القضية لم تناقش في الدورة العاشرة إلاّ أنّها لفتت أنظار العالم إلى خطورة ما يحدث في الجزائر على الأمن الدولي[٢٣].

٢/٢-الدورة الحادية عشر ١٩٥٦

تجدر الإشارة إلى أنه في الفاتح من أكتوبر١٩٥٦ تقدّم وفد أفروأسيوي بطلب تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية في دورتها الحادية عشر، وقد وقّع الطلب ثلاث عشرة دولة وأرفقت هذه الدول مع طلبها مذكرة تعبر فيها عن الحالة المزرية في الجزائر، وعلى مستوى مقر الأمم المتحدة سلم وفد جبهة التحرير الوطني يوم ١٢ نوفمبر ١٩٥٦ مذكرة لرئيس الدورة زكى فيها طلب تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة وضرورة تمكين الشعب الجزائري من حق تقرير مصيره، كما كشفت عن اللقاءات التي جرت ما بين أعضاء جبهة التحرير الوطني وممثلين رسميين وغير رسميين من الحكومة الفرنسية فيما بين أفريل ١٩٥٦ وسبتمبر١٩٥٦، وتوقفت هذه اللقاءات على إثر إقدام السلطات الفرنسية على خطف الطائرة التي كانت تقل القادة الجزائريين وهو ما نددت به هذه المذكرة وختمت المذكرة عرضها بالتأكيد على أنّ استقلال تونس والمغرب الأقصى لن يكون له أي مغزى بدون استقلال الجزائر[٢٤].

وعندما تمكنت القضية الجزائرية من الدخول في الجمعية العامة وضمان مؤيدين لها أصبحت باستمرار موضوعا مطروحا انعقدت بشأن القضية سبعة عشرة اجتماعا ما بين ٠٤ و١٣ فيفري ١٩٥٧، ففي ٠٥ فيفري ١٩٥٧ تقدمت ١٨ دولة أفروأسيوية بمشروع[٢٥] وطلبت من فرنسا أن تعترف بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير والتفاوض من أجل تسوية سلمية مع الوطنيين الجزائريين، كما طالبت من الأمين العام أن يساعد في إجراء المفاوضات إلا هذا الاقتراح فشل عند عرضه للتصويت ومن تم لم يقدم للتصويت كاملا[٢٦].

إضافة إلى هذا المشروع فقد تقدمت ثلاث دول هي (اليابان، الفلبين، تايلاند) بمشروع ثاني رأى أن تعرب الجمعية العامة عن أملها في أن تحاول تقريب وجهات النظر بين فرنسا وشعب الجزائر عن طريق المفاوضات والوصول إلى نهاية سفك الدماء وإلى تسوية سلمية للمشاكل القائمة، وصوت على هذا المشروع[٢٧] بالموافقة بأغلبية٣٧ صوتا ضدّ٢٧ صوتا وامتناع ١٣ دولة عن التصويت[٢٨]، كما تقدّمت ست دول هي: (الأرجنتين، البرازيل، كوبا، جمهورية الدومنيكان، إيطاليا، والبيرو) بمشروع ثالث[٢٩] الذي كان أقرب إلى المحتوى العام للمشروع الثاني وعبرت عن الأمل في التوصل إلى حل سلمي وديمقراطي وعادل وقد تمت الموافقة على هذا القرار بتصويت ٤١صوتا مقابل ٣٣ صوتا وامتناع ٠٣ عن التصويت[٣٠]، وهو ما جعل اللجنة تقرر في الأخير عرض المشروعين الثاني والثالث أمام الجمعية العامة للتصويت عليهما غير أنّ ذلك لم يأت بجديد، إذ أنّ أيا منهما لم يحصل على أغلبية الثلثين من الأصوات اللازمة لاعتماده، وقد تطلب الأمر لتجنّب هذا الإشكال لإجراء اتصالات ومشاورات عن تبني مشروع مشترك قدّم إلى الجمعية العامة ووافقت عليه في ١٥ فيفري ١٩٥٧ بالإجماع مع امتناع فرنسا عن المشاركة في الاقتراع وذلك بـ٧٧ صوتا ضد لا شيء[٣١] وغابت كل من جنوب إفريقيا والمجر[٣٢]، وهذا المشروع المشترك الذي كان يحمل رقم١٠١٢ هذا نصه:" إنّ الجمعية العامة قد استمعت إلى جميع البيانات التي أدلى بها المندوبون وناقشت قضية الجزائر، ونظرا لأنّ الحالة في الجزائر تسبب كوارث وخسائر في الأرواح، تعبر عن أملها في روح التعاون للوصول إلى حل سلمي ديمقراطي عادل بواسطة الوسائل المناسبة، وطبقا لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة"[٣٣].

ومنه نستنتج على الرغم من أنّ القضية الجزائرية لم تحقق انتصارا كبيرا في هذه الدورة إلا أنها اكتسبت أصدقاء جدد لمساندتها وتأييدها، وبالتالي أصبحت قضية دولية لها شأن كبير

ما بين دول العالم بعد ادعاءات فرنسا بأنها قضية داخلية ولا يحق لهيئة الأمم مناقشتها وتقرير مصير الشعب الجزائري.

٣/٢-الدورة الثانية عشر ١٩٥٧

لقد ظل الهدف الرئيسي لجبهة التحرير الوطني ومكاتبها بالخارج هو تدويل القضية الجزائرية ليس بغرض التعريف بها وجلب اهتمام الرأي العام العالمي وتعاطفه معها فقط، بل لأجل طرحها في هيئة الأمم المتحدة، فإلى غاية ١٩٥٧ طرحت القضية الجزائرية ضمن جدول أعمال الهيئة ستة مرات خلال دوراتها العادية والاستثنائية، وتجدر الإشارة إلى أنّه بدءا من سنة ١٩٥٧ ستطرح القضية الجزائرية بصفة جدية من طرف المجموعة الدولية رغم مساعي الدبلوماسية الفرنسية للحيلولة دون ذلك[٣٤].

وحتى يُدعم موقف الكتلة الأفرآسيوية للقضية الجزائرية في مواجهة السياسة الفرنسية ودبلوماسيتها، رأى رؤساء وملوك الحكومات العربية الفاعلة على الساحة العربية والدولية والأعضاء في الكتلة ضرورة عقد اجتماع لمناقشة ما يمكن تقديمه للقضية الجزائرية عربيا ودوليا، وقد تم انعقاد هذا الاجتماع الذي عرف بمؤتمر الأقطاب العربية (سعود، حسين، عبد الناصر، القوتلي) في ٢٧ فيفري ١٩٥٧ بالقاهرة تم فيه التطرق إلى القضية الجزائرية، وقد تضمن البيان المشترك التأييد غير المشروط لحق شعب الجزائر في تقرير مصيرهم وفي الحرية والاستقلال والعمل على تمجيد كفاحهم الجبار ضدّ الاستعمار الفرنسي الغاشم[٣٥].

كما تقدمت كل من المملكة العربية السعودية وسوريا واليمن وليبيا ولبنان والفلبين وباكستان وبرمانيا وسريلانكا إلى طلب تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة الأممية، وقد جاء في هذا الطلب الموجه إلى رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة ما يلي:" إنّ هؤلاء الممثلين يلفتون نظر رئيس مجلس الأمن للأمم المتحدة إلى أنّ جميع الأسباب متوفرة كي تتدخل الأمم المتحدة في القضية الجزائرية..."، كما أرسلت بدورها جبهة التحرير الوطني في ٢٠ جانفي١٩٥٧ مذكرة إلى السيد رئيس اللجنة الأولى التابعة للدورة الخاصة، تتعلق بالمحادثات التي جرت بين ممثلي جبهة التحرير الوطني والسلطات الرسمية الفرنسية خلال عام ١٩٥٦ قصد الوصول إلى حل سلمي للقضية الجزائرية[٣٦].

وانطلاقا من هذا عولجت القضية الجزائرية من طرف اللجنة الأولى ودرست في اللقاء الرابع عشر وقدم مشروع القرار الأول حول القضية من قبل ١٧ حكومة إفريقية آسيوية في ١٥ ديسمبر١٩٥٧ وهو عبارة عن وثيقة قدّمها ممثل إندونيسيا باسم هذه الحكومات وقد أشارت الفقرات الثلاث الأولى إلى قرار الدورة الحادية عشر للجمعية العامة، في حين اعترف بالشروط الملزمة بقابلية تطبيق مبدأ تقرير المصير للشعب الجزائري، ويدعوه إلى المفاوضات، وفي ٠٦ ديسمبر١٩٥٧ اقترحت إيرلندا والنرويج تعديلين لمشروع قرار ١٧ دولة، فالتعديلان هما بديل للاعتراف بمبدأ تقرير المصير، أي أنّ الشعب الجزائري مؤهل أن يرسم مستقبله الخاص بطريقة ديمقراطية، يقترحان مناقشة حقيقية بدلا من مفاوضات.

والهدف من تقديم هذين التعديلين هو الحصول على الموافقة العامة للجنة، وأملا للوصول إلى قرار من نوع جماعي، غير أنّ التعديلين وجدا اعتراضات من مقترحي مشروع القرار الأصلي، وخاصة فيما يتعلق بحذف حق تقرير المصير، ومهما يكن فإنّ التعديلين قد تم إقرارهما في ٠٦ ديسمبر١٩٥٧ بأغلبية ضئيلة ٣٧ مقابل٣٦ وامتناع٠٧، كما أنّ اللجنة كان منقسما بالتساوي تقريبا، لذلك قدّم مشروع قرار الدول (١٧) المعدل للتصويت وكان هناك تعادل ٣٧ مقابل ٣٧ وامتناع٠٦، وكان نص التعديل عن الموافقة هو صوت ليبيريا بدلا من الامتناع[٣٧].

كما اقترحت ليبيريا مشروع قرار ثان من الأرجنتين والبرازيل وكوبا وجمهورية الدومنيكان وإيطاليا والبيرو وإسبانيا في ٠٥ ديسمبر١٩٥٧ وكان نص المشروع نفسه المقدم في الدورة الحادية عشر حيث أعرب المشروع عن الأمل من أجل حل سلمي وديمقراطي وعادل، وهذا بعد هزيمة مشروع تعديل ١٧ دولة، وبذلك فإنّ مقترحي هذا القرار أعلنوا أنّهم لا يدفعون بممثلهم للتصويت لذلك السبب لم توصي اللجنة بشيء للجمعية العامة الموافقة عليه، وفي نفس الوقت جرت مفاوضات خاصة بين الوفود وهكذا أحيل مشروع قرار مشترك مباشرة من الأرجنتين والبرازيل وكندا وكوبا وجمهورية الدومنيكان والهند وإيران وإيرلندا وإيطاليا واليابان والمكسيك والنرويج والبيرو وإسبانيا وتايلند إلى الجمعية العامة.

ومن خلال هذا فإنّ الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد أن ناقشت القضية الجزائرية، وبالإشارة إلى قرارها في ١٥ فيفري ١٩٥٧

١- تعبر مرة أخرى عن اهتمامها بالحالة في الجزائر.

٢-علمت بالعرض المقدم من ملك المغرب الأقصى والرئيس التونسي لوساطتهما وبذل مساعيهما الحميدة لحل المشكلة.

٣-تعبر عن رغبتها في روح التعاون الفعال، بأن تبدأ المحادثات، وباستخدام وسائل أخرى لهدف الوصول إلى حل يتفق مع أهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

وقد صادقت الجمعية العامة بالإجماع على هذا المشروع يوم ١٠ ديسمبر١٩٥٧[٣٨].

٢/٤-الدورة الثالثة عشر ١٩٥٨

ظلت الثورة التحريرية مستمرة في الجزائر متسببة في زيادة الخسائر المادية والبشرية وليس ثمة أي شيء يوحي بوجود حل يتماشى مع أهداف ومبادئ الأمم المتحدة بل هناك دلائل تثير الخوف والقلق لأنّ الوضعية ازدادت خطورة[٣٩]، حيث واكبت هذه الدورة الثالثة عشر للجمعية العامة للأمم المتحدة ميلاد الحكومة الجزائرية المؤقتة[٤٠]، وغياب فرنسا عن جلسات الجمعية العامة على الرغم من أنّ القضية الجزائرية احتلت صدارة الأحداث الدولية بفضل الدور الذي لعبه ممثلوا الكتلة الأفروأسيوية[٤١].

لقد نوقشت القضية الجزائرية في عشرة اجتماعات متتالية في اللجنة الأولى في ديسمبر ١٩٥٨، وقد تم مشروع قرار واحد حول القضية تقدمت به ١٧ دولة من إفريقيا وآسيا في ١٢ ديسمبر ١٩٥٨، وجاء في المقدمة إشارة إلى القرارات التي تمت المصادقة عليها في الدورتين السابقتين وتعترف الفقرات الملتزمة الأخرى بحق الشعب الجزائري في الاستقلال وأنّها معنية بمواصلة الحرب ولاحظت استعداد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية على التفاوض، وأشار مشروع القرار هذا أنّه لأول مرة تطلب فيها مجموعة البلدان الأفروآسيوية باستقلال الجزائر صراحة بدلا من السعي نحو مبدأ تقرير المصير[٤٢].

وفي ١٣ ديسمبر١٩٥٨ أدخلت هايتي تعديلين على قراري الدول ١٧، فالتعديل الأول يستبدل الإشارة إلى الحق في الاستقلال، والحق في تقرير المصير بأنفسهم، والملاحظة الثانية هي رغبة قادة الحركة الوطنية الجزائرية في التفاوض لكن مقترحي هذا التعديل أعلنوا بأنفسهم أنّه لا يمكن قبولهم للتعديلين، وهكذا أصر وفد هايتي على أن يقدم التعديلين للتصويت، حيث صوتت اللجنة على التعديل الأول الذي رفض بـ٤٨ مقابل ١٣ صوتا وامتناع ١٩ ولم يدفع وفد هايتي التعديل الثاني للتصويت، لذلك السبب عملت اللجنة على مشروع قرار ١٧ دولة الذي نجح بـ٣٢ صوتا مقابل ١٨ وامتناع ٣٠، وهكذا أوصت اللجنة الأولى قرار الدول١٧، وطالب وفد الملايا في الجمعية العامة حذف الفقرة الإلزامية " يلاحظ استعداد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية"، حيث طالب بهذا الحذف حتى يمكن وفده ووفود أخرى التي امتنعت عن التصويت في اللجنة الأولى لصالح مشروع القرار وبالتالي حذفت الجمعية العامة الفقرة الإلزامية، ومن تم صوتت الملايا واليونان وإيرلندا لصالح القرار بدلاً من الامتناع، وامتناع الولايات المتحدة بدل التصويت ضدّ القرار، وكنتيجة التصويت في الجمعية العامة ٣٥ مقابل١٨ وامتناع ٢٨، ورفض مشروع القرار لأنه لم يحصل على ثلثي الأغلبية بسبب صوت واحد لذلك، وتركت القضية الجزائرية بدون نشاط في الدورة الثالثة عشر للجمعية العامة[٤٣].

وبذلك اختتمت الدورة الثالثة عشر دون أن تحقق رغبة الكتلة الأفروآسيوية في تحقيق نصر للقضية الجزائرية، لكنها وقفت في وجه فرنسا ودبلوماسيتها ومن يؤيد طروحاتها في الجمعية العامة للأمم المتحدة وهذا ما جاء على لسان ممثل المملكة العربية السعودية "أحمد الشقيري" في سؤاله الذي طرحه في الجمعية لحل القضية الجزائرية وتم الجواب من طرفه قائلا:"...وما هو الحل؟ إنّ الجواب بسيط عن هذا السؤال ...إنّ الحل يسهل عرضه وشرحه...هنالك سيدي الرئيس حل واحد و واحد فقط، إنه الحرية والسيادة والاستقلال للشعب الجزائري...إنه لحل الوحيد الذي يضمن السلام لإفريقيا بأسرها...وإنّ مثل هذا الحل، فيه استجابة كاملة لميثاق الأمم المتحدة روحا ونصا، وفيه تحقيق للآمال القومية للشعب الجزائري، وانصياع لتطلعات الأسرة الدولية، ويصبح من واجب الأمم المتحدة أن تعلن تأييدها لهذا الحل، وهو في واقع الأمر لذاتها وميثاقها.. من استقلال الجزائر، وتنظيم علاقاتها بفرنسا في إطار مفاوضات حرة، هو مفتاح الموقف بأسره، وهو السبيل السوي لتحقيق سلام يقوم على العدل والحق ...إنني أركز على السلام لأنّ استمرار الحرب هو البديل الذي لا بديل سواه، إذا لم تعملوا على تأييد هذا الحل وتنفيذه... إنّ الجزائر شعبا وحكومة، مصممة على مواصلة القتال حتى النهاية... وإنّ النهاية هي النصر للجزائر..."[٤٤].

٢/٥-الدورة الرابعة عشر١٩٥٩

وأما ونحن بصدد الحديث عن القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة ودور الدول الأفروأسيوية فإنّ جهود جبهة التحرير الوطني ومعها هذه الدول قد تواصلت خلال الدورة الرابعة عشر في ديسمبر ١٩٥٩، إلا أنّ هيئة الأمم المتحدة كانت في كل مرة تكتفي بتسجيل القضية دون مناقشتها ومع ذلك فإنّ ضغط الكتلة الأفروأسيوية المتواصل على هيئة الأمم المتحدة أجبر فرنسا لحضور معالجة القضية الجزائرية[٤٥]،كما كانت

الدول الأفروأسيوية تندّد دائما مما يحدث في الجزائر من آلام ومعاناة الشعب الجزائري بفعل السياسة الوحشية للاستعمار الفرنسي لذلك نجد مندوبو هذه الدول يدافعون عنها فنجد مثلا تدخل مندوب المملكة العربية السعودية يعبر عن تعاطفه مع القضية الجزائرية بقوله:"...إنّ القضية الجزائرية لها عواطفها وأحاسيسها.. لها تجاربها الأليمة ومآسيها القاسية، وإن لها كذلك الحوافز الإنسانية، على أشد ما تكون لهفة وشوقا لتحقيق السلام والحق والعدل، بل لها كذلك تاريخها الطويل، لمائة وخمسين عاما تميزت بالحرب، واليتم والخراب، والقمع والإرهاب ...كل هذه المآسي تعيش في صميم القضية الجزائرية بكل ما تثيره من أحاسيس الثأر والانتقام والكراهية... إنّ الحالة في الجزائر حتى هذه الدقيقة، تقشعر لها الأبدان..."[٤٦]، ولقد أحرزت القضية تقدّما في المنظمة الأممية بفضل ضغط الرأي العام العالمي، حيث وفي ظل تصريح الجنرال "ديغول" بتاريخ ١٦ سبتمبر حول تقرير المصير للشعب الجزائري، فقد ثمنت الدورة هذا القرار لإجراء مفاوضات بين الطرفين[٤٧]، ومن أجل ذلك بدأت مناقشة القضية الجزائرية في اللجنة الأولى بعد أن تقدمت ٢٢ دولة أفروآسيوية بمشروع قرار في ٠٣ ديسمبر١٩٥٩ ويعترف القرار بحق تقرير المصير والاستقلال للشعب الجزائري ويدعو الجانبين إلى الدخول في مفاوضات في أقرب وقت لوقف إطلاق النار وتقرير المصير، وأشار إلى رغبة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في التفاوض وعرض المشروع للتصويت ولكنه لم يحرز أغلبية الثلثين المطلوبة في اللجنة إذ حصل على ٣٨ صوتا ضد ٢٦ صوتا وإمساك ١٧ عن التصويت[٤٨].

وبذلك تقدمت باكستان إلى الجمعية العامة بمشروع قرار معدل يوم ١٢ ديسمبر ١٩٥٩، وعبرت فيه عن أملها في الوصول إلى حل سلمي ديمقراطي عادل طبقا لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وذكرت الجمعية بقرارها الصادر في ١٠ ديسمبر ١٩٥٧ الذي عبرت فيه عن رغبتها في بدء المحادثات بين الطرف الفرنسي والجزائري، كما ذكرت الجمعية بالمادة الأولى في الفقرة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة وتبدي اهتمامها العميق باستمرار القتال في الجزائر، وتعترف بحق شعب الجزائر في تقرير المصير وذلك بدخول الطرفين في مباحثات لإيجاد حل سلمي طبقا لميثاق الأمم المتحدة.

وكانت التصويت على المشروع هي موافقة ٣٨ دولة ورفضته ٢٦ دولة وامتناع ١٧ دولة عن التصويت، وعلى الرغم من نتيجة التصويت فقد تم رفض المشروع إذ لم يحصل على أغلبية الثلثين المطلوبة[٤٩]. وبذلك فإنّ هذه الدورة لم تحقق للقضية الجزائرية أي انتصار، بل كانت كسابقتها، بسبب وقوف الغرب إلى جانب فرنسا وإذا كانت القضية الجزائرية في هذه الدورة أصيبت بخيبة أمل من هيئة الأمم المتحدة، فإنّ ذلك يعود بالدرجة الأولى للموقف الغربي المؤيد لفرنسا في حفظ ماء الوجه لحكومة ديغول أمام شعوب العالم[٥٠].

٦/٢-الدورة الخامسة عشر١٩٦٠

ومع ازدياد تماطل الطرف الفرنسي في حل القضية الأمر الذي أدّى بهيئة الأمم المتحدة إلى عدم تمكنها من إيجاد حل للقضية الجزائرية على الرغم من المناقشات العديدة في دوراتها خلال خمس سنوات، لكنّه ومع مجيئ سنة ١٩٦٠ ازدادت المطالبة الدولية بأن تمارس الأمم المتحدة مهامها كما يجب، وذلك بغرض تطبيق تقرير المصير، وما ميز هذه الدورة هو مجيئ عدد كبير من الدول الإفريقية المستقلة حديثا التي أضافت قوة جديدة وقفت إلى جانب دبلوماسية الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أثناء مناقشات الدورة والتي ساهمت بدون شك في تحرر إفريقيا وإخراجها من العزلة التي كانت مفروضة عليها من قبل الاستعمار، ولهذا أعطت الحكومة المؤقتة المواقف الإفريقية كل أهميتها ومنحها المكانة اللائقة بها قبل الشروع في مناقشات القضية الجزائرية في هذه الدورة[٥١].

وقد صرح "محمد يزيد" وزير الأخبار في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية قبل امتطائه الطائرة في طريقه إلى نيويورك بالتصريح التالي:" إنّ الوفد الجزائري في الدورة الخامسة عشر للأمم المتحدة سيبذل قصارى جهده للتحصيل على قرار من الجمعية العامة يكلف الأمم المتحدة بمهمة تنظيم ومراقبة استفتاء بالجزائر على قاعدة حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، ونحن نقدم هذا الموضوع للأمم المتحدة لأول مرة خارج نطاق إمكانية التفاوض المباشر بين فرنسا والجزائر وقد وصلنا إلى هذا الموقف الذي لا تراجع فيه البتة بعد المحاولات العديدة الرامية لفتح التفاوض مع فرنسا والتي كان مصيرها الفشل، ونحن نعتبر أنّ المسئولين الفرنسيين لا يرغبون في التفاوض زيادة على أنّهم عاجزون على مجابهة الوضعية بصفة واقعية"[٥٢].

وقبيل حلول موعد افتتاح أعمال الجمعية العامة طلبت ٢٥ دولة أفروآسيوية يوم ٢٠ جويلية ١٩٦٠ إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمالها[٥٣]، وعند حلول موعد مناقشتها في اللجنة السياسية قاطع الوفد الفرنسي جلساتها، وأعلن معظم وفود الدول عن ارتياحهم لقبول الطرفين مبدأ تقرير المصير الذي

أعلنه ديغول في تصريح ١٦ سبتمبر ١٩٥٩، وتركزت جهود المندوبين خلال المداولات على دورة الأمم المتحدة في إجراء الاستفتاء لتقرير المصير، كما تقدمت ٢٤ دولة افروآسيوية بمشروع قرار ينص على ضرورة إشراف الأمم المتحدة على استفتاء تقرير المصير ووافقت عليه ٢٧ دولة ورفضته ٢٠ وأمسكت ٢٨ دولة عن التصويت، وعليه أدخل تعديل في الجمعية العامة فحذفت منه الفقرة الرابعة التي تنص على إجراء الاستفتاء تحت إشراف الأمم المتحدة، وقد نص المشروع على:" إنّ الجمعية العامة لما كان الطرفان الجزائري والفرنسي قد اتفقا على قبول مبدأ حق تقرير المصير تقرر:-حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره واستقلاله – الحاجة لإيجاد ضمانات لتنفيذ هذا الحق على أساس احترام وحدة التراب الجزائري – إن الجمعية مسؤولة عن تنفيذ هذا القرار بصورة كاملة".

وقد تمت المصادقة على هذا المشروع المعدل بأغلبية ٦٨ صوتًا ضد ٢٧ صوتًا وإمساك ثمانية وفود عن التصويت، وبذلك خطت القضية الجزائرية خطوة كبيرة في هذه الدورة حيث اعترفت في مشروع قرارها بأنّ الوضع في الجزائر يكون تهديدا للسلم والأمن العالمي وإنّ مشكلة الجزائر ليست قضية فرنسية داخلية كما تدعي فرنسا وأكدت على حق الشعب الجزائري في الاستقلال وحقه في تقرير مصيره، كما اعترفت بوحدة تراب الجزائر وأكدت مسؤوليتها في توفير الضمانات لتحقيق تقرير المصير الشعب الجزائري(٥٤).

٢/٧-الدورة السادسة عشر١٩٦١

بعد القرارات الصادرة عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في الدورة السابقة أخذت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى العمل على تنفيذها في الدورة السادسة عشر التي تعتبر من أهم الدورات لأنها تميزت بذهاب القضية الجزائرية إلى حل نهائي بعد أن قبلت فرنسا تحت ضغط الثورة التحريرية في الدخول في مفاوضات التي فشلت بين الطرف الجزائري والطرف الفرنسي في لقاءات مولان وافيان ولوغران بسبب مساوات فرنسا ومن بينها فصل الصحراء عن التراب الجزائري(٥٥)، وقد فضحت جبهة التحرير كل تلك الأساليب وكشفتها للرأي العام العالمي، وما إن انتهت فرنسا من الاستفتاء الشعبي في ٨ جانفي حتى أعلنت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية استعدادها للدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية على أساس تقرير المصير والاستقلال، والجدير بالذكر أنّ الحكومة المؤقتة كانت دائما تقترح المفاوضات في حين أنّ فرنسا كانت ترفض ذلك، والواقع أنّ الشعب الجزائري قد لجأ إلى الثورة لأنّ فرنسا قد رفضت أن تتفاوض مع جبهة التحرير الوطني لتحقيق تسوية سلمية، وهذا على الرغم من مناورات فرنسا ودبلوماسيتها إلا إن جبهة التحرير الوطني لم تدع فرصة تمر إلا وأعلنوا فيها عن رغبتهم في المفاوضات وحتى حين كانت الثورة الجزائرية على أشدها ملحقة ضربات قاصمة للقوات الفرنسية حيث لم تتردد جبهة التحرير الوطني في الدعوة للمفاوضات لإيجاد تسوية سلمية(٥٦).

وتجدر الإشارة إلى أنّ فرحات عباس قبل انعقاد هذه الدورة ذكر دول المجموعة الأفروآسيوية بواجبها نحو الجزائر، حيث بعث إلى رؤساء الدول المجموعة ورؤساء حكوماتها برسائل يلفت فيها انتباهها إلى خطورة الوضع في الجزائر، وإلى الأهمية التي تعلقها الحكومة الجزائرية والشعب الجزائري على موقف هذه الدول من القضية الجزائرية بمناسبة قرب مناقشة القضية الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة... وأعرب عن أمله في أن تطبق هذه الدول سيادتها وتؤدي رسالتها في العدالة والتضامن(٥٧).

ولذلك أثيرت من جديد القضية الجزائرية في هذه الدورة السادسة عشر للأمم المتحدة، وتولت ٤٢ دولة أفروأسيوية تقديم طلب بهذا الشأن، ومن تم أحيلت القضية بعد أن قبلت إلى اللجنة السياسية حيث أدرجت كبند خامس، وقبل بدأ اللجنة للقضية طلب رئيس البعثة الجزائرية في نيويورك "عبد القادر شاندرلي" عقد اجتماع مع مندوبي الدول الإفريقية الأسيوية، حيث أطلعهم على الخطوط العريضة لسياسة الحكومة المؤقتة حتى يتم اعتمادها من طرف هؤلاء المندوبين عند عرض القضية للمناقشة(٥٨).

شرعت اللجنة السياسية في مناقشتها يوم ١٤ ديسمبر١٩٦١، وانتهت يوم ١٦ ديسمبر من نفس الشهر ضمن تسع جلسات تناول الكلمة خلالها ٥٤ مندوبا، واقتصرت تدخلات مندوبو الدول المؤيدة للقضية الجزائرية على ضرورة الإسراع في المفاوضات بين الجزائر وفرنسا لتطبيق القرارات السابقة للأمم المتحدة بشكل يضمن تحقيق الاستقلال الكامل للشعب الجزائري ضمن الوحدة الترابية الجزائرية(٥٩).

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ "كريم بلقاسم" وزير الخارجية ورئيس الوفد الجزائري إلى الأمم المتحدة بتصريح علق فيه على تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة حول المشكلة الجزائرية وبعد أن تعرّض للمناقشات التي دارت في اللجنة الساسية والجمعية العامة للأمم المتحدة وجه الشكر إلى كل البلاد التي ساندت كفاح الشعب الجزائري من أجل استقلاله وأضاف قائلا:" إنّ الحكومة الجزائرية لم تندهش لتصويت الولايات

المتحدة وبريطانيا وبعض بلدان الحلف الأطلسي. ثم عبر عن خيبة الأمل العميقة التي يشعر الشعب الجزائري إزاء سلوك بعض الدول الإفريقية التي تدعى باسم "المتكلمة باللغة الفرنسية" والتي نالت استقلالها أخيرا...وختم السيد "بلقاسم" قائلا:" إنّ تصويت الأمم المتحدة يعبر أقوى تعبير عن رفض الرأي العام العالمي للنظام الممنوح الذي يريد الجنرال ديغول فرضه على الجزائر وهو يعتبر استنكارا لمجموعة التدابير المتخذة من طرف واحد والمستوحاة من الروح الاستعمارية الجديدة والتي بدا ديغول يطبقها في الجزائر"[٦٠].

وهكذا فإنّ مناقشات هذه الدورة لم تطل لأنّ الطرفين كانا على وشك الوصول إلى الحل الذي انتهوا إليه في مساء يوم ١٨ مارس ١٩٦٢، وهو إيقاف القتال وتنظيم استفتاء تقرير المصير الذي أدى إلى استقلال الجزائر في مطلع شهر ١٩٦٢[٦١].

ثالثًا: مواقف وردود الفعل الفرنسية على القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة

إنّ فرنسا الاستعمارية كانت تنظر إلى الثورة الجزائرية خارجة عن القانون وجيش التحرير لا يمثل الشعب الجزائري بل مجموعة من العصابات وأنّ الجزائر فرنسية وعليه فليس هناك طرف شرعي يتفاوض مع فرنسا وهو ما أكده "فرانسوا ميتران" وزير داخليتها في ٠٥ نوفمبر ١٩٥٤ "التفاوض الوحيد في الجزائر هو الحرب"[٦٢]، كما حاولت منع تسرب النداء الأول (نداء أول نوفمبر) لجبهة التحرير الوطني لكي لا يطلع عليه المواطنين[٦٣].

لقد كانت فرنسا على دراية كاملة بدعم الكتلة الأفروأسيوية للقضية الجزائرية، لذا راحت تعتمد على حلفائها في إجهاض كل المحاولات الرامية إلى دعم القضية الجزائرية، حيث ضبطت عددا من الاتصالات عن طريق وزير خارجيتها السيد "بينو" في عهد حكومة غي مولي مع عدد من الدول الهدف منها هو عزل الثورة الجزائرية دوليا وفك كل أنواع التضامن معها من خلال مؤتمر باندونغ وموقف الأمم المتحدة، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا من الدول الأوروبية الكبرى السباقة إلى دعم الموقف الفرنسي والوقوف ضدّ طلب الكتلة الأفروآسيوية حول إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الأمم المتحدة[٦٤]، غير أنّ القضية سجلت في الدورة العاشرة لأول مرة لكنها لم تحظى بالمناقشة وهو الأمر الذي لم تتقبله فرنسا من خلال انسحاب ممثلها السيد "بينو" من الجلسة وذلك باعتبار أنّ القضية الجزائرية قضية فرنسية داخلية[٦٥]، وبذلك قررت الكتلة الأفروأسيوية في الدورة عدم دفع القضية أكثر من ذلك، وذلك بسبب التوترات المتزايدة وسط مختلف الكتل من جهة، وعلى أمل إعطاء الحكومة الفرنسية فرصة كافية لإيجاد حل عرضي لهذه القضية المعقدة من جهة أخرى[٦٦]، وفي الأخير تأجلت القضية إلى الدورة القادمة.

لكن فرنسا الاستعمارية وعلى النقيض من ذلك استخدمت هذا التأجيل لدعم جهدها العسكري لتحطيم آمال الشعب الجزائري[٦٧]، حيث شاركت فرنسا في مناقشة الدورة الحادية عشر للجمعية العامة وبتحفظ، وبينت فرنسا خلالها عدم قبولها لأي نشاط وعمل تقوية الأمم المتحدة، وقدم هذا التحفظ في إطار قانوني لأنّ فرنسا تعتقد أنّ المسألة الجزائرية هي من اختصاص قانونها المحلي، وعليه فإنّ الموقف الفرنسي فيما يتعلق بالجزائر وفقا لذلك كان قائما على فكرة قانونية أي أنّ الجزائر جزء من فرنسا، وإنّ الوفد الفرنسي أشار أنّ الحكومة الفرنسية قد بدأت مؤخرا ببرنامج واسع للإصلاحات في كامل الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وألغيت جميع العوامل التمييزية، وادعى أنّ الاتحاد السوفياتي والبلدان العربية يتدخلون في الشؤون الداخلية لفرنسا وذلك من خلال ما تقدمه هذه الدول من مساعدة ودعم في مختلف الأشكال لا سيما الدعم المادي، وأشار إليها الوفد الفرنسي على أنها أعمال هدامة كانت بلا ريب وعلى نحو واضح تتعارض مع أهداف ميثاق الأمم المتحدة، كما تم مناقشة حق تقرير المصير، وأظهر الوفد الفرنسي أنّه لا يمكن تطبيقه لأنّ الحق الجماعي في استقلال الأقلية وحقوق الأفراد، سيؤدي بلا شك إلى مزيد من الاستبداد أما الصعوبة الكبرى في تطبيق حق تقرير المصير سيؤدي إلى تجنب خضوع الأقلية لحكم الأغلبية، وبالتالي رأت فرنسا في هذه الدورة الحادية عشر أنّ الحل الأساسي هو العرض الفرنسي بوقف إطلاق النار من غير شرط، وتوقيف الحرب على أن يتبع حل سياسي بوسائل ديمقراطية عن طريق إجراء انتخاب، ويجب ضمان حرية الانتخاب التي تخضع إلى إشراف الملاحظين من بلدان أخرى رغم معارضة الأمم المتحدة[٦٨].

وفي الوقت الذي بدأت فيه عملية التصويت عند نهاية المناقشة في الدورة الحادية عشر وفي اللجنة الأولى أشار الممثل الفرنسي بأنّ وفده لن يشارك في مناقشة مختلف مشاريع القرارات وأنّه لن يشارك في التصويت نظرا للتحفظ الذي تقدم به في البداية، ومن تم الموقف الفرنسي في الدورة الحادية عشر للجمعية العامة سيكون واضحا بعد البرنامج الذي

سيقدمه الوزير الأول غي مولي عند توليه السلطة في جانفي ١٩٥٦ ويقوم البرنامج على فكرة الجزائر جزء من فرنسا الأم[٦٩].

وتجدر الإشارة قبل انعقاد الدورة الثانية عشر التي كانت في سنة ١٩٥٧[٧٠] وبالضبط في شهر نوفمبر سافر من الجزائر إلى نيويورك موظفان ساميان أحدهما مدني وهو "بيار شوساد" والآخر عسكري وهو الكولونيل "بول ديكورنو" وهما عضوان في ديوان "روبير لاكوست" يحملان إلى "هرفي" سفير فرنسا بالولايات المتحدة الأمريكية تقريرا عن السياسة الفرنسية في الجزائر وعن مدى نجاحها وعند وصولهما صرحا للصحافة بمجموعة من الادعاءات والأكاذيب وزعما بأنّ جبهة وجيش التحرير الوطني هي التي تقوم بالحملة العسكرية ضد فرنسا وأنّ جبهة التحرير تخسر الآن في جميع الميادين، وبعد أسبوع عاد الرجلان من أمريكا إلى فرنسا وأعلنا أنّهما قد زودا الوفد الفرنسي الدائم لدى الأمم المتحدة بمعلومات كافية[٧١]، وهذا بطبيعة الحال من أجل تضليل الرأي العالمي عن حقيقة القضية الجزائرية العادلة.

وعلى كل بدأت اللجنة السياسية التابعة للأمم المتحدة في دورتها الثانية عشر مناقشتها للقضية الجزائرية بخطاب ألقاه وزير الخارجية الفرنسية أعاد فيه من جديد تحذيراته المعهودة إلى الأمم المتحدة بأن لا تتدخل في قضية فرنسية داخلية وإنّ وجوده هو في هذه الجلسة ليس إلا مجاملة للأمم المتحدة وليس اعترافا لها بحق التدخل في القضية، حيث قابل أعضاء المجلس خطابه ببرودة وكان الرد من طرف الكتلة الأفروأسيوية بمجموعة من الخطب وإتباعها طيلة أسبوع كامل تأييدا للقضية الجزائرية، ولكن إلى جانب المناقشة الجارية في الجلسة الرسمية كان هناك نشاط آخر وكان أبطال هذا النشاط هم الوفد الأمريكي ووفود من دول الحلف الأطلسي حتى أنّ صحيفة لوموند تعترف في افتتاحية يوم الاثنين ٩ ديسمبر ١٩٥٧ بأنّ الوفد الفرنسي قد استطاع أن يحمل الوفد الأمريكي على بدل خدمة كبيرة، وكان من جراء هذا النشاط في أروقة الأمم المتحدة أن خرجت اللجنة السياسية بعد مناقشة مستفيضة بنتيجة مخزية وهي أنّها لم تستطع المصادقة على أية لائحة[٧٢].

ولكن وعلى الرغم من تمكن فرنسا من الحصول على نتائج ترضيها في هذه الدورة من خلال موافقة الجمعية العامة على القرار المعدل الذي ينص على إيجاد حل سلمي ديمقراطي خاصة وأنّ فرنسا كان دائما وفي كل مرة، هو أنّه لا يحق لهيئة الأمم المتحدة أن تتدخل في القضية الجزائرية على اعتبار أنّها قضية داخلية مستدلة في ذلك بالفقرة السابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة والتي تنص على أنّ الهيئة الدولية لا يحق لها التدخل في الشؤون الداخلية للدول، ومع ذلك قبلت فرنسا في هذه الدورة مناقشة القضية الجزائرية، لكن دون ان تقبل بأية توصية بشأنها، ومهما كان مضمونها[٧٣].

ولكن بالنسبة لجبهة التحرير الوطني فإنّ هذه الدورة كانت بمثابة انتصار حققته على فرنسا وذلك من خلال أنّ الدبلوماسية الفرنسية منيت بخيبة أمل بعد أن تم عرض القضية على الجمعية للأمم المتحدة فنجد أنّ الوفد الفرنسي قد اعتمد على عدّة ملفات فاشلة للدفاع عن وجهة النظر الفرنسية، وعلى أنّ أهم خيبة منيت بها السياسة الفرنسية في هذه القضية هي مسألة الإطار القانوني، فقد أرسلت من أجله وفود إلى آسيا وآخرين إلى أمريكا الجنوبية وإلى الولايات المتحدة الأمريكية يبشرون كلهم بما في هذا الإطار من محاسن، ولكن كل هذه الجهود وادعاءات فرنسا الكاذبة باءت بالفشل، وذلك بفضل جهود جبهة التحرير الوطني المدعمة من طرف الكتلة الأفروأسيوية، وتجدر الإشارة إلى أنّ الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة أصدرت توصيتها إلى الطرفين الفرنسي والجزائري ووضعتهما بهذه الصيغة في مستوى متعادل مما يقتضي أن يكون الطرفان متساويان أي أن يرتفع الطرف الجزائري إلى مستوى الطرف الفرنسي ليمكن التفاوض بينهما تفاوضا حقيقيا مجديا، وهذا لا يمكن أن يكون بطبيعة الحال إلا إذا اعترفت فرنسا بأنّ الجزائر ليست فرنسا كما أن فرنسا هي ليست الجزائر، وكانت التوصية تتضمن البحث عن حل سلمي عادل وديمقراطي، وكل هذه الكلمات الثلاثة واضحة لا غبار عليها أمام النوايا النزيهة المعقولة فالحل السلمي هو أن توقف فرنسا عدوانها لأنها معتدية، لكن فرنسا تجاهلت هذه التوصية واستمرت في عدوانها وحرب الإبادة على الشعب الجزائري العزل، وزعمت فرنسا أنّها لم تخطئ وقامت بتأويل توصية الأمم المتحدة فهي ترى أنّ الحل السلمي معناه قبول جبهة وجيش التحرير الوطني لنداء "غي مولي" بوقف القتال دون قيد ولا شرط وأنّ الحل العادل هو قبول الجزائريين لدستور تسطره لهم فرنسا ويأتي في مادته الأولى "أنّ الجزائر جزء لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية، وهكذا تزعم فرنسا أنّها طبقت توصية الأمم المتحدة[٧٤].

ولكن جبهة التحرير الوطني كانت لها خطتها وهي خطة واضحة مستقيمة عندما تقدمت إلى هيئة الأمم المتحدة وذلك بالاعتماد على الحلول السلمية العادلة الديمقراطية التي تتماشى

مع دستور الأمم المتحدة والتي استوحت منها هذه الهيئة توصيتها في شهر فيفري ١٩٥٧، وهذه الخطة التي اعترف كثير من الفرنسيين أنها خطيرة على موقف فرنسا في الدورة الحالية للأمم المتحدة " إنّ الأمم المتحدة يجب أن تشعر بقيمة مسؤوليتها أمام هذه المعركة، أن تتذكر أنّ لها ميثاقا يبرر وجودها وهو إنصاف الديمقراطية والسلم والعدل الحقيقي، إنّ الشعب الجزائري يريد أن يعرف أنّ العالم يقف إلى جانبه في معركته العادلة، وإنّ فرنسا في حاجة لأن تعرف بصراحة أنّ العالم لا يقر الإجرام الاستعماري ولا يشجعه، ولو كان مقنعا بألفاظ الاشتراكيين الفرنسيين المدلسة، هذا ما ننتظره من الأمم المتحدة في هذا الامتحان، ونرجو لها مخلصين أن تنجح فيه..."[٧٥].

لقد استمرت فرنسا بمناوراتها الدبلوماسية خلال الدورة الثالثة عشر والتي كانت سنة ١٩٥٨، وعرفت هذه السنة كما ذكرنا سابقا ميلاد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتميزت بمواصلة فرنسا عرقلتها للمداولات بانسحابها من المناقشات وعدم المشاركة في التصويت حين عرضت القضية، وحيث أصبح جاريا في السياسة الفرنسية أثناء انعقاد دورات هيئة الأمم المتحدة فتلوح بالوعود المبهمة والحلول الغامضة وهكذا فإنّ ما يجيء به اليوم الجنرال "ديغول" ليس بالشيء الجديد بل يندرج في السياسة التقليدية للاستعمار الفرنسي فهو يظهر بوجهين مختلفين وجه يتقدم به إلى الرأي العام العالمي الذي يرمي إليه بكلمات مغرقة في الغموض والإبهام وقابلة لشتى التأويل وبالتالي يمكن استعمالها كسلاح في معركة الأمم المتحدة، ووجه آخر يسفر عنه إزاء الجزائر وهو الوجه الحقيقي لـ "ديغول" وسياسته الاستعمارية التي تقوم على تبني الأساليب العتيقة للاستعمار الفرنسي بإتباع سياسة الإبادة العسكرية والإدماج السياسي القهري للشعب الجزائري وإنكار وجوده القومي واتجاهه التاريخي[٧٦].

كما قامت بممارسة الضغوط والمناورات وفي هذا الصدد أرسلت فرنسا "لوي جاكيتو" المبعوث الخاص للجنرال "ديغول" في جولة لدى دول أمريكا اللاتينية حيث زار بعض حكوماتها، وعقد مؤتمر مع سفراء فرنسا لدى دول أمريكا اللاتينية على أساس أنّ هذه الأخيرة تقتنع بحجج فرنسا المقدمة للجمعية العامة، وكذلك فرنسا تعتمد كثيرًا على أصوات أمريكا اللاتينية في الأمم المتحدة لأنّها لا تقل عن عشرين صوتا، ثم لأنّ حليفتها أمريكا تستطيع أن تضغط على هذه الدول بسهوله أكثر مما تضغط على غيرها[٧٧].

ولم تُفد هذه الضغوط والمناورات الفرنسية وحلفائها في الحيلولة دون وصول دبلوماسية الحكومة المؤقتة إلى مبتغاها، فقد شرع في مناقشة القضية الجزائرية من طرف اللجنة السياسية من ٠٨ إلى ١٣ ديسمبر١٩٥٨، واستغرقت المناقشة ٢٠ جلسة قاطعتها فرنسا كلها، واعتبر بعض الوفود هذه المقاطعة من المآخذ على فرنسا، وأخذ الكلمة في هذا النقاش ٣٩ خطيبا بما فيهم الوفود المؤيدين لفرنسا الذي كان موقفهم محرجا جدا، حيث لم يجدوا ما يقولونه في المناقشة إلا إعادة أفكارهم المعتادة، كما أنّ قرار فرنسا بالانسحاب من المناقشات الخاصة بالقضية الجزائرية قد سمح للمدافعين عن وجهة نظر الحكومة المؤقتة بقيادة "محمد يزيد" من الحصول على انتصار دبلوماسي ملحوظ بعد الاتصالات التي قام بها أعضاء الوفد الجزائري بمندوبي الدول في الجمعية العامة[٧٨].

وقد عبر ممثل المملكة العربية السعودية عن موقف فرنسا التي قاطعت حضور جلسات مناقشة القضية الجزائرية بقوله:"...أجد أنّ مقعد فرنسا شاغر، ليس فيه أحد من الوفد الفرنسي.. إنّ هذا مؤسف حقا فرغما عن أنّ موقف فرنسا من القضية الجزائرية فارغ تماما، فليس لها أن يكون مقعدها فارغا...إنّه إهانة موجهة للأمم المتحدة، إنّه استخفاف بالقضية الجزائرية وما تنطوي عليه من أهداف نبيلة، إنّه تناقض فرنسا مع ذاتها وإنّه فوق ذلك ازدراء بالجنرال ديغول...إنّها بداية سيئة للجمهورية الفرنسية الخامسة في بداية عمرها..."[٧٩].

وقد كتبت جريدة المجاهد في أعمدتها بعد مناقشة القضية الجزائرية للمرة الرابعة في الجمعية العامة للأمم المتحدة ولم تجد هذه الأخيرة حلا لها ما يلي:" إنّ على الأمم المتحدة أن تفهم حقيقة السياسة الفرنسية الاستعمارية بعد هذه التجارب كلها وأن تستخلص منها النتيجة المنطقية وهي أنه ما دامت قراراتها لم تحترم من طرف الحكومة الفرنسية التي استغلت كل مهلة أعطيت لها في توسيع حرب الإبادة التي أصبحت تهدد بخطر الانتشار في كامل أرجاء المغرب العربي، وما دامت السياسة الفرنسية لم تتغير رغم هذه المدة الطويلة فإنّه يجب أن يتخذ نحوها موقف جديد مخالف للمواقف السابقة التي لم تُجد كثيرا، إنّ القضية الجزائرية تعرض للمرة الرابعة على الأمم المتحدة ولا يمكن أن تعامل هذه المرة كما عوملت في المرات السابقة..."[٨٠].

وأما ونحن بصدد الحديث عن مواقف وردود الفعل الفرنسية فقد انعقدت الدورة الرابعة عشر للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٩، وكان أهم حدث عرفته تطورات القضية

الجزائرية خلال هذه السنة هو إعلان "ديغول" في ١٦ سبتمبر عن اعترافه للشعب الجزائري بحق تقرير المصير، وبمقتضى هذا الإعلان كان مفروضا أن يوجد حل لمشكلة الجزائر، ولكن هذا المشروع كان غامضا جدا، ومحاطا بكثير من العراقيل والقيود، في حين كانت الحرب على أشدها ويقوم الجيش الاستعماري الفرنسي بعمليات ضخمة واسعة وفق برنامج شال الكبير[٨١].

وقد نقلت جريدة المجاهد مقالا عن جريدة لكسبريس الفرنسية للصحفي الفرنسي "جان دانيال" بعد أن قضى شهرا كاملا بالولايات المتحدة الأمريكية الذي استطاع أن يكتشف حقائق عديدة أخفتها الحكومة الفرنسية عن الرأي العام الفرنسي حتى يبقى بعيدا عن الواقع ومسايرًا لحكومته الاستعمارية، كما بذلت كل مجهوداتها من أجل كسب مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية ودول الحلف الأطلسي في مدارج هيئة الأمم المتحدة من الدعاية لصالحها ضد القضية الجزائرية خاصة في هذه الدورة حيث جاء في المقال ما يلي:"...وتلقى سفير فرنسا في واشنطن تعليمات من حكومته بأن يبذل كل نشاط ممكن في الميدان الأمريكي استعدادا لمناقشة القضية الجزائرية...إنّ المناقشة المقبلة في الأمم المتحدة تبدوا حسب الظروف الراهنة وخيمة العواقب على فرنسا، ذلك أنّ أقوى حليف لنا في الأمم المتحدة هو الولايات المتحدة ولكن هذا الحليف قد امتنع عن التصويت في الدورة السابقة ويوشك أن يمتنع من جديد في الدورة القادمة..." ويضيف قائلاً: "... وقبل أن أصل إلى الولايات المتحدة كنت أعتقد مثل جميع الناس بصحة الدعاية الرسمية التي تزعم بانّ دول أمريكا اللاتينية تشعر بتعاطف متين مع فرنسا وأنّه يكفي أن يقوم "سوستيل" أو "بينو" بجولة واحدة وذلك لنضمن تصويتهم إلى جانبنا غير أن هذا الزعم باطل من أساسه، وإنّ فرنسا تعلم جيدا في جميع الحالات التي كانت دول أمريكا الجنوبية ستصوت فيها ضدنا لولا تدخل مندوب الولايات المتحدة الأمريكية لدى الأمم المتحدة السيد كابوت لودج..."، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على مخاوف فرنسا من فقد حلفائها وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تتدخل في كل مرة للتصويت لصالح فرنسا داخل هيئة الأمم المتحدة، وبالتالي تدين الأمم المتحدة سياسة الحكومة الفرنسية في الجزائر وإنّ هذا الموقف سيكون له أثر كبير على فرنسا[٨٢].

إنّ سياسة الجنرال "ديغول" على رأس الجمهورية الفرنسية الخامسة كانت تهدف إلى مواصلة ضغطها وسيطرتها على الجزائر أي أنّ سياسته لم تتغير، وهذا على الرغم من المجهودات التي قامت بها هيئة الأمم المتحدة وذلك من خلال الزيارة التي قام بها السكرتير العام "همر شولد" إلى العاصمة باريس للقيام بمحادثات مع الجنرال "ديغول" حول القضية الجزائرية، لكن ديغول كان يزعم أنّ القتال قد انتهى في الداخل، وأنّ جبهة التحرير الوطني قد اختنقت في الخارج، وأنّ القضية الجزائرية هي قضية فرنسية داخلية، وهو الأمر الذي جعل فرنسا الاستعمارية تقاطع الدورة الرابعة عشر لهيئة الأمم المتحدة لسنة ١٩٥٩[٨٣].

وخلال انعقاد الدورة الخامسة عشر للجمعية العامة فإنّ مدارج هيئة الأمم المتحدة ظلت راكنة بخصوص القضية الجزائرية نتيجة السياسة الاستعمارية الفرنسية وذلك في التمادي دائما في سياسة الكرسي الشاغر ومقاطعتها لهذه الدورة، إلى أن تناقلت أنباء مظاهرات ١١ ديسمبر ١٩٦٠ التي خاضها الشعب الجزائري، والتي نزلت كالصاعقة على ممثل الحكومة الفرنسية بالهيئة الأممية بخصوص المجازر التي ارتكبتها السلطات الفرنسية في حق الشعب الجزائري، مما عزز موقف جبهة التحرير الوطني من مسألة تدويل القضية الجزائرية بالأمم المتحدة، حيث هذه الأخيرة لائحة قررت فيها اعترافها بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، واعترفت بأنّها مسؤولة على تطبيق هذا القرار عن طريق إشرافها على استفتاء حق تقرير المصير الذي يجب أن يجري تحت رعاية أممية[٨٤].

أما في ما يخص الدورة السادسة عشر فقد طغى على جلساتها التي غابت عنها فرنسا كعادتها، قضية المفاوضات بين الطرفين المتنازعين، وطريقة دعمها على أساس أنّها وسيلة عملية وسليمة تقود إلى اتفاق سلمي يرضي الجميع دون اللجوء إلى الحرب، ففي ٣٠ مارس ١٩٦١ أصدرت الحكومة الفرنسية من باريس بيانا رسميا أعلنت فيه أنّ المفاوضات ستدور حول تقرير المصير والأمور المتعلقة به، وقد وافقت الحكومة الجزائرية المؤقتة على ذلك، مثلما سبق وأن وافقت في جانفي ١٩٦١ على قبول الدخول في مفاوضات رسمية مع فرنسا استجابة لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، وبمعية من دول الكتلة الأفروأسيوية، وقد تجسد ذلك في محادثات إيفيان في ماي ١٩٦١ التي تناولت القضية الجزائرية بكل جوانبها[٨٥].

وبذلك شهد تطور المشكل الجزائري خلال سنة ١٩٦١ مساره نحو الحل النهائي بعد أن قبلت فرنسا تحت ضغط عنف الثورة التحريرية الدخول في المفاوضات مع الحكومة المؤقتة الجزائرية حول إجراءات تقرير المصير لتحقيق الاستقلال الكامل، وهكذا فإنّ مناقشات هذه الدورة لم تطل لأنّ الطرفين اتفقوا على

إيقاف القتال وتنظيم استفتاء تقرير المصير الذي أدى إلى استقلال الجزائر في مطلع شهر١٩٦٢.

خَاتِمَةٌ

وعند هذا المقام وبعد دراستنا لموضوع (القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة ومواقف وردود الفعل الفرنسية) يمكن القول أنّ القضية الجزائرية قطعت أشواطًا شاقة من أجل التعريف وتدويل نفسها أمام الرأي العام العالمي وإيجاد حل عادل سلمي لها، حيث مرت القضية في دورات هيئة الأمم المتحدة التي لم تبخل فيها الدول الأفروآسيوية في إعرابها عن تأييدها ومساندتها لآراء ومواقف جبهة التحرير الوطني، كما ظلت تؤكد في كثير من المناسبات على عدالة القضية الجزائرية، وعلى أحقية الشعب الجزائري في تقرير مصيره وفي ضرورة حصوله على الحرية والاستقلال بناء على ميثاق هيئة الأمم المتحدة، كما عملت جبهة التحرير الوطني والثورة التحريرية من جهة والكتلة الأفروآسيوية من جهة أخرى بالضغط على فرنسا هذه الأخيرة التي كانت لها مواقف وردود مخزية اتجاه القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة وذلك بانتهاجها التمادي دائما في سياسة الكرسي الشاغر ومقاطعة جلسات مناقشتها، إضافة إلى الأساليب الملتوية ومناوراتها الدبلوماسية، وللإشارة فإنّ دبلوماسية جبهة التحرير الوطني داخل هذه الهيئة وقوة الثورة التحريرية وبفضل مجهودات الكتلة الأفروآسيوية التي كانت تقوم بمساندتها وتأييدها، وأمام إصرار الشعب الجزائري لنيل الاستقلال بحثت فرنسا على مخرج مشرف لها وذلك بجلوسها مع الطرف الجزائري للوصول إلى مفاوضات عادلة تضمن حق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال.

الاحالات المرجعية:

(1) وزارة المجاهدين، **النصوص الأساسية لثورة نوفمبر ١٩٥٤ (نداء أول نوفمبر، مؤتمر الصومام، مؤتمر طرابلس)** منشورات أناب الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٠٩ – ١٣.

(٢) أحمد بن فليس، **السياسة الخارجية للثورة الجزائرية الثوابت والمتغيرات ١٩٥٤-١٩٦٢**، أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة بن يوسف بن خدّة، الجزائر،٢٠٠٧، ص٢٦٢.

(3) عبد السلام كمون، **مجموعة الاثنين والعشرين ودورها في تفجير الثورة الجزائرية ١٩٥٤**، رسالة ماجيستر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة أدرار، الجزائر، ٢٠١٣، ص١٥٣-١٥٤.

(٤) وزارة المجاهدين، **النصوص الأساسية لثورة نوفمبر ١٩٥٤ (نداء أول نوفمبر، مؤتمر الصومام، مؤتمر طرابلس)**، ص١١-١٦، وانظر أيضًا: محمد لحسن أزغيدي، **مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية ١٩٥٦-١٩٦٢**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،٢٠٠٩، ص١٣٥-١٤٥.

(5) أحسن بومالي، **أدوات الدبلوماسية أثناء ثورة التحرير الجزائرية**، العدد١٦، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(٦) تجدر الإشارة هنا إلى أنّ جبهة التحرير الوطني علقت أهمية على المساعدة التي يمكن أن تقدّمها الطبقة العاملة الحرة من الشعب الفرنسي الذي لم يكن مطلعا بكفاية على ما يترتب باسمه من الجرائم، ويذهب بيان أول نوفمبر إلى حد الاقتناع بهذه الفئة، وانطلاقا من هذا الاقتناع أوصت الجبهة بإجراء اتصالات سياسية مع المنظمات والحركات واللجان القائمة ضدّ الحرب مثل: الصحافة والاجتماعات الشعبية والإضرابات التي تنظم ترحيل الجنود وشحن الآلات والذخائر الحربية إلى جانب تقديم مساعدات مالية للمقاومين وتنظيم الهجرة الجزائرية بفرنسا وتعبئة العمال الجزائريين دون أن ننسى أي عملية وهي إثارة الرأي العام الفرنسي والعالمي عن طريق نشر أخبار الثورة في الجزائر عبر الصحف والمجلات، انظر: بودرهم فاطمة، **حزب جبهة التحرير الوطني دراسة سياسية اجتماعية مقارنة ١٩٥٤-١٩٦٤**، مذكرة ماجيستر مقدمة لقسم التنظيمات بمعهد العلوم السياسية، جامعة الجزائر، الجزائر، ١٩٩٤، ص ص١٣-١٤.

(٧) تعزز الوفد الخارجي لحركة انتصار من أجل الحريات الديمقراطية بالقاهرة منذ مطلع الخمسينات بعناصر جديدة شابة وفاعلة مفعمة بالحيوية، ففي جوان ١٩٥١ قدم إلى القاهرة محمد خيضر حيث أصبح نائبًا للشاذلي المكي، وفي ٢٢ جويلية ١٩٥٢ التحق حسين آيت أحمد، وبعده بسنة تقريبًا التحق أحمد بن بلة في أوت ١٩٥٣، حيث في أعقاب الأزمة التي عصفت بالحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية ما بين جوان ١٩٥٣ إلى منتصف سنة ١٩٥٤ وتشكيل اللجنة الثورية للوحدة والعمل، وفي هذه الأثناء كانت بعثة حركة

انتصار من أجل الحريات الديمقراطية تتشكل من: أحمد بن بلة، حسين آيت أحمد ومحمد خيضر، لينقسم الوفد ويصبح بن بلة وآيت أحمد ممثلون لجبهة التحرير الوطني حديثة الولادة ثم التحق بهم محمد يزيد المركزي، بينما أصبح أحمد مزغنة الذي التحق بالقاهرة منذ نهاية صيف ١٩٥٤ ممثلا للتيار المصالي رفقة الشاذلي المكي، انظر: عمر بوضربة، **نضال أحمد بن بلة في صفوف وفد جبهة التحرير الوطني بالقاهرة (١٩٥٤-١٩٥٦)**، الملتقى الدولي حول أحمد بن بلة في بعديه الوطني والدولي يومي ٠٤ و٠٥ ديسمبر٢٠١٦ المنعقد بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، تلمسان، ٢٠١٦، ص١٦٤-١٦٥.

(٨) عمر بوضربة، **النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سبتمبر ١٩٥٨-جانفي١٩٦٠**، دار الحكمة للنشر، ٢٠١٠، ص١٢٧- ١٢٩.

(٩) سيد علي أحمد مسعود، المرجع السابق، ص ص١٧٧-١٧٩.

(١٠) الغالي غربي، **فرنسا والثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٥٠٤.

(١١) نفسه، ص٤٨٥.

(12) شارك في هذا المؤتمر السيدان حسين آيت أحمد ومحمد يزيد ومن خلاله سجلت القضية أول انتصار حققته دبلوماسية الجبهة وسرعان ما يتوج بسلسلة من الانتصارات تكبدت خلالها الدبلوماسية الفرنسية فشلاً ذريعًا، انظر: سيد علي أحمد مسعود، **التطور السياسي في الثورة الجزائرية ١٩٦٠-١٩٦١**، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ٢٠١٠، ص١٧٧.

(13) أحمد سعيود، **تدويل القضية الجزائرية**، العدد١٥، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(١٤) محمد ودوع، **مواقف المغرب الأقصى اتّجاه الثّورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، ج٢، رسالة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ٢٠١٢، ص٧٧.

(15) إخلاص بخيت الجعافرة وخديجة عبد الكريم النعيمات، "**موقف المملكة العربية السعودية من الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢) من خلال صحيفة أم القرى السعودية**"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الأردن، ٢٠١٢، ص٨٨.

(16) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرون**، ج١، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٢٨٦.

(١٧) إخلاص بخيت الجعافرة وخديجة عبد الكريم النعيمات، المرجع السابق، ص٨٨.

(١٨) انعقد المؤتمر في الفترة ما بين ١٨ و٢٤ أفريل ١٩٥٥ أي بعد أقل من ٠٦ أشهر من اندلاع الثورة التحريرية، ويأتي انعقاده بناء على التوصية التي جاءت في اللائحة التي أقرها المجتمعون في بوقور في ديسمبر ١٩٥٤، وحضرت وفود إلى المؤتمر تمثل ٢٩ دولة كما دعيت لحضوره أربع حركات تحررية (تونس، الجزائر، المغرب، قبرص) كأعضاء ملاحظين، وقد شاركت جبهة التحرير بوفد يتكون من السيدين حسين آيت أحمد ومحمد يزيد، وقد كانت للوفد الجزائري عدّة أنشطة تمثلت في تعريف المؤتمرين بالوضع المأساوي الذي يعيشه الشعب الجزائري وطلب من المؤتمرين تقديم الدعم للقضية الجزائرية في الأمم المتحدة، حيث كان من بين القرارات السياسية للمؤتمر تأييده لشعوب (الجزائر، مراكش، تونس) أن تقرر مصيرها بنفسها وأن تعلن استقلالها وبحث الحكومة الفرنسية على اللجوء إلى وضع حل سلمي لقضايا هذه الشعوب دون تأخير. انظر: أحمد سعيود، "**الذكرى الخمسون لمؤتمر باندونغ**"، مجلة المصادر، عدد ١٢، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(19) جريدة المجاهد، **الكتلة الإفريقية الآسيوية**، العدد١٩،بتاريخ ٠١مارس١٩٥٨، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(٢٠) الدول هي: مصر، ليبيا، لبنان، سوريا، والعراق، والملكة العربية السعودية، واليمن، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، والهند، وبورما، وتايلاند، وأندونيسيا، يُنظر: يحي بوعزير، المرجع السابق، ص٢٨٧.

(٢١) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٨٨-٢٨٧.

(٢٢) أحمد بن فليس، المرجع السابق، ص٢٦٤.

(23) رشيد ولد بوسيافة، **تعامل مصر مع الثورة الجزائرية من خلال كتاب عبد الناصر وثورة الجزائر**، رسالة ماجيستر في تاريخ الثورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، ٢٠١5، ص٨٥-٨٦.

(٢٤) أحمد سعيود، **تدويل القضية الجزائرية**، المرجع السابق، قرص مضغوط.

(25) نص المشروع تضمن ما يلي: "إنّ الجمعية العامة نظرًا لحالة القلق والاضطراب، والنزاع السائد في الجزائر، والتي تسبب كثيرًا من الآلام، وتهدد العلاقات بين الأمم، واعترافا بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير طبقًا لنص ميثاق الأمم المتحدة: أ- تطلب من فرنسا الاستجابة لرغبة الشعب الجزائري في ممارسة حقوقه الأساسية في تقرير المصير. ب-تدعو فرنسا والشعب الجزائري للدخول فورا في مفاوضات لإيقاف القتال وتسوية الموقف سلميا طبقا لميثاق الأمم المتحدة. ج-تطلب من السكرتير العام أن يساعد الطرفين على إجراء التفاوض، وأن يقدم تقريرا للجمعية العامة في دورتها الثانية عشرة القادمة. انظر: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٨٩.

(٢٦) علي تابليت وآخـرون، **القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة (١٩٥٧ – ١٩٥٨)**، سلسلة المشـــاريع الوطنية للبحث، إصدارات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، وزارة المجاهدين، الجزائر،٢٠٠٧، ص١٠٠.

(٢٧) هذا نص المشروع: "إنّ الجمعية العامة نظرا لحالة القلق والاضطراب في الجزائر التي تسبب خسائر في الأرواح،

وإيمانا بأنّ هذه الحالة الغير مرضية التي تسود الجزائر الآن يمكن بجهود مشتركة من فرنسا والشعب الجزائري للوصول إلى حل عادل طبقا لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة تعبر عن أملها في أن تسعى فرنسا والشعب الجزائري بواسطة المفاوضات، لإنهاء إراقة الدماء وإيجاد تسوية سلمية للمصاعب الحالية"، انظر: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٩٠.

(28) أحمد بن فليس، **السياسة الدولية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ١٩٥٨ -١٩٦٢**، رسالة ماجيستر في العلوم السياسية، جامعة الجزائر، 1990، ص٣٥٤.

(29) نص المشروع: "إنّ الجمعية بعد أن استمعت إلى بيانات المندوب الفرنسي والمندوبين الآخرين. ناقشت قضية الجزائر، وتعبر عن أملها في الوصول إلى حل سلمي ديمقراطي للقضية".

(٣٠) علي تابليت وآخـــــــــرون، المرجع السابق، ص١٠١- ١٠٢.

(٣١) أحمد بن فليس، **السياسة الدولية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ١٩٥٨-١٩٦٢**، المرجع السابق، ص٣٥٥.

(٣٢) علي تابليت وآخــــــــرون، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٣٣) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٩١.

(٣٤) سيد علي أحمد مسعود، المرجع السابق، ص١٨٠.

(35) مريم صغير، **المواقف الدولية من القضية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ٢٠١٢، ص٣١٤-٣١٥.

(٣٦) نفسه، ص٣١٥-٣١٦.

(٣٧) علي تابليت وآخــــــــرون، المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٤.

(٣٨) جريدة المجاهد، **مقتطفات من خطب رؤساء الوفود في الأمم المتحدة**، العدد ١٤، ١٥ ديسمبر ١٩٥٧، ص٠٥.

(39) رفيق تلي، **"الدور المغربي في تدويل القضية الجزائرية ١٩٥٦-١٩٦١"**، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، العدد٣٠، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥، ص٢٤٥.

(٤٠) إنّ فكرة تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كانت تختمر في أذهان قادة الثورة الجزائرية منذ سنة ١٩٥٦، وفي هذا الإطار يذكر السيد رضا مالك "بأنّ فكرة تأسيس حكومة مؤقتة بدأت تتبلور بعد اختطاف الطائرة الزعماء الخمس يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦، ثم طرحت الفكرة بشكل أكثر جدية سنة ١٩٥٧ خلال جلسات المؤتمر الثاني للمجلس الوطني للثورة الجزائرية المنعقد بالقاهرة من ٢٠ إلى ٢٨ أوت ١٩٥٧، حيث اتخذ قرار تم بموجبه التفويض للجنة التنسيق والتنفيذ، بتأسيس حكومة جزائرية حينما تحين الظروف المواتية، وتم الإعلان الرسمي عن تأسيس الحكومة المؤقتة ج.ج يوم ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ بالعاصمة المصرية القاهرة ، وقد تم تسجيل أولى الاعترافات بها خلال ذلك الحفل من طرف حكومة الجمهورية العربية المتحدة ثم الجمهورية العراقية فالمملكة الليبية ثم دولة باكستان، انظر: محمد العربي الزبيري وآخرون، **كتاب مرجعي عن الثورة التحريرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، سلسلة المشـــاريع الوطنية للبحث، إصدارات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، وزارة المجاهدين، الجزائر،٢٠٠٧، ص١٠٥-١٠٨.

(٤١) مريم صغير، المرجع السابق، ص٣٢٢.

(٤٢) علي تابليت وآخــــــــرون، المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٤٣) نفسه، ص١٠٦-١٠٨.

(44) أحمد الشقيري، **قصة الثورة الجزائرية**، الطبعة الإلكترونية الأولى، المؤسسة العربية الدولية للنشر، بيروت،٢٠٠٥، ص٧٧-٧٨.

(٤٥) نفسه، ص ص٨٠-٨١.

(٤٦) نفسه، ص٨٢.

(٤٧) رفيق تلي، المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٤٨) عبد الملك عودة، **قضية الجزائر في الأمم المتحدة**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص٢٠.

(٤٩) جريدة المجاهد، **"في الأمم المتحدة معسكر الحرية ومعسكر الاستعمار وجهًا لوجه"**، العدد ٥٧، ١٥ ديسمبر ١٩٥٩.

(٥٠) مريم صغير، المرجع السابق، ص٣٣٤-٣٣٥.

(٥١) أحمد بن فليس، **السياسة الدولية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ١٩٥٨-١٩٦٢**، المرجع السابق، ص٣٧٨-٣٧٩.

(٥٢) جريدة المجاهد، **تصريح محمد يزيد وزير الأخبار**، العدد (٧٧)، بتاريخ ١٩ سبتمبر١٩٦٠، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(٥٣) للاطلاع على الرسالة الموجهة من الدول الأفروآسيوية إلى السكريتارية العامة للأمم المتحدة، انظر: جريدة المجاهد، **رسالة الآسيوية والإفريقية إلى السكريتارية العامة للأمم المتحدة لتسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة الخامسة عشر**، العدد٧٣، بتاريخ ٠٨ أوت ١٩٦٠، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر،٢٠١٠.

(٥٤) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٩٨.

(55) بن يوسف بن خدة، نهاية حرب في الجزائر اتفاقيات ايفيان، تر: لحسن زغدار ومحمد العين جبائلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص١٨-٢٤.

(٥٦) أحمد الشقيري، المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩.

(57) جريدة المجاهد، **الجزائر في معابر الأمم المتحدة، بتاريخ١٠ أكتوبر١٩٦٠**، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(58) أحمد بن فليس، **السياسة الدولية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ١٩٥٨ -١٩٦٢**، المرجع السابق، ص٣٨٦.

(٥٩) نفسه، ص٣٨٥-٣٨٦.

(٦٠) جريدة المجاهد، **تصريح رسمي لوفد الجزائر لدى الأمم المتحدة**، العدد٨٦، بتاريخ ٠٢ جانفي١٩٦١، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر،٢٠١٠.

(٦١) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٩٩.
(62) رضا مالك، الجزائر في إيفان تاريخ المفاوضات السرية ١٩٥٦-١٩٦٢،تر:فارس غصوب، ط١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٣، ص٣٥.
(63) عبد السلام كمون، المرجع السابق، ص١٥٤.
(٦٤) مريم صغير، المرجع السابق، ص٢٩٩.
(٦٥) جريدة المقاومة، العدد١٠، بتاريخ ٠٥ سبتمبر١٩٥٧.
(٦٦) علي تابليت وآخـــــــرون، المرجع السابق، ص٦٣.
(٦٧) جريدة المقاومة، العدد٠٣، بتاريخ ٠٣ ديسمبر١٩٥٦.
(٦٨) علي تابليت وآخـــــــرون، المرجع السابق، ص ص٦٣-٦٦.
(٦٩) نفسه، ص ٦٧.
(٧٠) الجدير بالذكر أنّ فرنسا قبل بداية الدورة الثانية عشر للجمعية العامة واجهت العديد من المشاكل في الداخل والخارج، إذ أنّه في ٣٠ مارس ١٩٥٧ وقعت كلا من تونس والمغرب الأقصى معاهدة في الرباط تعهدتا فيها لإيجاد حل عادل للقضية الجزائرية هذا في الخارج، أما في الداخل فإنّ ميزانية الحرب الفرنسية ارتفعت إلى ثلاثة ملايين دولار في اليوم وهذا ما سيؤثر على الاقتصاد الفرنسي، بالإضافة إلى هذا فإنّ الثورة الجزائرية وبفعل قوتها أدت إلى سقوط العديد من الحكومات الفرنسية المتعاقبة مثل إسقاط حكومة غي موللي في ٠١ ماي ١٩٥٧ وإسقاط حكومة بورجيس مونوري في شهر سبتمبر ١٩٥٧ وغيرها من الحكومات، انظر: علي تابليت وآخـــــــرون، المرجع السابق، ص ص٦٨-٧١.
(٧١) جريدة المجاهد، **من تقرير لاكوست إلى الأمم المتحدة ...إلى تقرير الحقيقة في الصحف الفرنسية**، العدد١٢، بتاريخ ١٥ نوفمبر١٩٥٧، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.
(72) جريدة المجاهد، **سياسة فرنسا تنهزم في الأمم المتحدة رغم حلفائها**، العدد١٤، بتاريخ ١٥ ديسمبر١٩٥٧، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر،٢٠١٠.
(73) جريدة المجاهد، **القضية الجزائرية للمرة الثالثة**، العدد١١، ٠١ نوفمبر ١٩٥٧، العدد١٤، بتاريخ ١٥ ديسمبر١٩٥٧، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر،٢٠١٠.
(٧٤) جريدة المجاهد، نفس المصدر، قرص مضغوط.
(٧٥) جريدة المجاهد، نفس المصدر، قرص مضغوط.
(76) جريدة المجاهد، **قضية الجزائر في الأمم المتحدة للمرة الرابعة**، العدد٣٢، بتاريخ ١٩ نوفمبر١٩٥٨، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.
(77) جريدة المجاهد، **قضيتنا أمام الشعوب وأمام الأمم المتحدة**، العدد٢٩، بتاريخ ١٧سبتمبر١٩٥٨، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.
(٧٨) جريدة المجاهد، **الدبلوماسية الجزائرية الناشئة تسجل انتصارا أكيدا في الأمم المتحدة**، العدد٣٤، بتاريخ٢٤ ديسمبر١٩٥٨، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر،٢٠١٠.
(79) أحمد الشقيري، المصدر السابق، ص١٧٢-١٧٣.
(80) جريدة المجاهد، **قضية الجزائر في الأمم المتحدة للمرة الرابعة**، العدد٣٢، بتاريخ ١٩ نوفمبر١٩٥٨، المصدر السابق، قرص مضغوط.
(81) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢٩٧-٢٩٨.
(82) جريدة المجاهد، **الجزائر في الأمم المتحدة**، العدد٤٥، بتاريخ٢٦ جوان ١٩٥٩، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.
(٨٣) جريدة المجاهد، العدد٤٧، بتاريخ٢٧ جويلية ١٩٥٩، قرص مضغوط، الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.
(84) سيد علي أحمد مسعود، **التطور السياسي في الثورة الجزائرية ١٩٦٠-١٩٦١**، المرجع السابق، ص١٨٢.
(85) مريم صغير، المرجع السابق، ص٣٤٥.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

البعثة العلمية بالمغرب مطلع القرن العشرين
بحث علمي أم حملة دعائية؟



د. محمد الكرادي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّص

لطالما ركزت الدراسات التاريخية على الأهمية السياسية التي لعبتها البعثة العلمية الفرنسية المؤسسة بمدينة طنجة منذ سنة ١٩٠٤م كمؤسسة علمية تسعى إلى اكتشاف الوسط المغربي والكشف عن خصوصياته الاجتماعية والثقافية، ابتغاء تحقيق احتلال مرتقب بأقل تكلفة ممكنة. لكن واقع المراسلات التي دارت بين مسؤولي البعثة ودهاقنة الاستعمار الفرنسي أبانت عن فجوة كبيرة بين طرفين، إذ لم يعر السياسيون والعسكريون الفرنسيون اهتمامًا كبيرًا لما كتبه واستقاه السوسيولوجيون والانثروبولوجيون من أرض الميدان أثناء التخطيط لعملية غزو المغرب. إذا كانت المجهودات الاستعلامية الفرنسية التي حققتها بالمغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كافية لإقناع الرأي العام الميتروبولي بأن ثمار البلاد المغربية قد أينعت وحان وقت قطافها وإن فرنسا لصاحبتها، فإن مجهودات أولئك الرحالة والمستكشفين ظلت ناقصة لكونها انطلقت من قاعدة استدلال تقوم على قياس نظرة أصحابها وآرائهم الذاتية المسبقة عن أحوال المغرب، فتم البحث عن آليات عمل جديدة تكون قادرة على بلورة نظرة أكثر وضوحًا عن واقع البلاد بالاعتماد على البحث العلمي الدقيق، لما يشكله ذلك من تيسير لعملية اختراق المغرب واحتلاله لاحقًا. لذلك تحاول هذه الدراسة الإجابة عن سؤال ما الجدوى من تأسيس البعثة العلمية بالمغرب قبيل الاحتلال؟ وسنحاول الإجابة على ذلك من خلال تسليط الضوء على السياق التاريخي الذي ساهم في إنشاء هذه المؤسسة، لفهم الأهداف الحقيقية التي كانت وراء وجودها بالمغرب مطلع القرن العشرين.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٣١	أكتوبر	٢٠٢٠
تـاريخ قبــول النشــر:	١٨	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
البعثة العلمية؛ التغلغل الاستعماري؛ صورة المغرب؛ الاستشراق؛ السوسيولوجيا؛ الأنثروبولوجيا.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.205912

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد الكرادي، "البعثة العلمية بالمغرب مطلع القرن العشرين: بحث علمي أم حملة دعائية؟".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٧٠ – ١٧٧.

Corresponding author: mohamedelgraddi@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إذا كانت المجهودات الاستعلامية الفرنسية التي حققتها بالمغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كافية لإقناع الرأي العام الميتروبولي بأن ثمار البلاد المغربية قد أينعت وحان وقت قطافها وإن فرنسا لصاحبتها، فإن مجهودات أولئك الرحالة والمستكشفين ظلت ناقصة لكونها انطلقت من قاعدة استدلال تقوم على قياس نظرة أصحابها وآرائهم الذاتية المسبقة عن أحوال المغرب، فتم البحث عن آليات عمل جديدة تكون قادرة على بلورة نظرة أكثر وضوحًا عن واقع البلاد بالاعتماد على البحث العلمي الدقيق، لما يشكله ذلك من تيسير لعملية اختراق المغرب واحتلاله لاحقًا[١].

في هذا الإطار تم إرسال "إدموند دوتي" إلى المغرب سنة ١٩٠٠م في مهمة رسمية بهدف البحث عن الوسيلة الفضلى للتغلغل الفرنسي في المغرب، وجاءت النتيجة في شكل تقرير مفصل تحت عنوان (Des moyens de développer l'influence française au Maroc) مما جاء فيه: "...يجب أن تتبع الحملة العلمية في المغرب بدون انقطاع، كما يجب أن تُدعم البعثات العلمية والدراسات المغربية بكل الطرق...، وتنشر من خلال الكتب والجرائد بطريقة تحبب وتغري برؤية هذا البلد الجميل"[٢]، وأوصى في نفس التقرير بإتباع عدة وسائل منها ما هو رسمي ديبلوماسي ومنها ما هو علمي -في ظاهره على الأقل- عن طريق تنظيم رحلات استكشافية وبعثات علمية، وإصدار منشورات دعائية ومقالات صحفية، وإقامة محاضرات لجلب الفرنسيين للاستقرار بالمغرب[٣]، مؤكدًا على ضرورة التكامل بينهذه الوسائل قائلاً: "وسائل تغلغلنا ذات أهمية متساوية، ولا يجب إقصاء إحداها، فباجتماعها فقط يمكن الوصول إلى هدفنا، (لذا) يجب استعمالها بكثافة وبشكل تركيبي وبطريقة تدريجية."[٤]

أصبح وجود مؤسسة علمية تسعى إلى تعبيد طريق الاحتلال مسألة ملحة، مع التركيز على الدراسات السوسيولوجية، باعتبارها الأداة المفضلة والمؤهلة لمقاربة الوسط المغربي من الناحية العلمية، وبالتالي الانتقال من مرحلة المسح الجغرافي الذي تكلفت به الرحلات الميدانية إلى مرحلة الدراسة الوظيفية لبنيات المجتمع المغربي، وعن ذلك يقول دانييل ريفي: "مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي حدث انعطاف، إن لم نقل تحول، فالجرد استبدل بالكشف، والباحث حل محل الكشاف، واستبدلت الرحلة الخطية التي اتبعت خطًا دقيقًا على طول محاور العبور المفروضة من طرف المخزن وبعض الوسطاء... بالتحري والسبر وتمشيط النطاقات الجهوية التي يختارها الباحثون"[٥]. فبرزت إلى السطح مؤسسة "مغربية" تعنى بهذا البحث أطلق عليها اسم البعثة العلمية. لكن التوظيف العلمي لم يخل من إيحاءات وصور عملت على شرنقة المغرب داخل إطار ظل صامدًا فيه لقرون. فما هي ظروف تأسيس البعثة العلمية؟ وما هي أهدافها بالمغرب؟ وأي صورة حملتها إنتاجاتها عن المغرب؟

أولاً: السياق التاريخي لظهور البعثة العلمية

١/١-إحداث لجنة المغرب

إذا كانت الحركة الإمبريالية الفرنسية قد نمت وترعرعت في سياق تاريخي جد حساس تميز بالتنافس مع باقي القوى الرأسمالية الكبرى بغية إثبات الوجود السياسي وتحقيق المكاسب الاقتصادية، فإن الأمر لم يخل من مشاكل تنظيمية جمة عكست الروح الاستعجالية لساسة فرنسا، وعن ذلك يقول "شايلي بيرت"(Chailley-Bert): "بنيت إمبراطوريتنا بشكل ارتجالي وعلى غير استعداد، إذ لم نكن نتوفر على مخطط أو منهج واضح، وأخذنا يومًا بعد يوم ما كان بإمكاننا أخذه، واستهوتنا في ذلك السهولة أكثر من الفائدة التي يمكن أن نجنيها من التوسع، واليوم ندرك ما ينقصنا"[٦].

تُفسِر هذه القولة من جهة الارتباك الذي لازم السياسة التوسعية الفرنسية إلى عهد قريب من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ومن جهة ثانية انقسام الطبقة السياسية الفرنسية بين مؤيد ومعارض لتلك السياسة التي بدأت تتسم بعدم الجدوى، أو على الأقل بغياب التصور الشمولي مقارنة مع باقي القوى الإمبريالية الأخرى، وهو تصور لم يجد "شايلي بيرت" حرجًا في الإعلان عنه قائلاً: "فرنسا تجهل مستعمراتها أكثر من أي بلد آخر"[٧].

وهو محق في ذلك خلال تلك الفترة على الأقل، إذ كانت إنجلترا مثلا تتوفر على مجموعة من المستندات حول مستعمراتها مثل سجل المكتب الاستعماري (Colonial office List) الذي ضم معلومات قيمة وأرقاما قديمة وأخرى حديثة عن كل مستعمرة على حدة، بالإضافة إلى الحوليات التي حوت بين دفتيها عددا لا يحصى من المعلومات المفيدة نشرتها مختلف المستعمرات ووزعها مسؤولون حكوميون، بالإضافة إلى الإحصائيات الاستعمارية التي نشرت في سلسلتين مختلفتين وتناولت مواضيع تهم الحكوميين والعلماء والتجار[٨]. هذا في الوقت الذي لم تول فيه فرنسا، خلال بداية مشروعها

التوسعي، نفس الأهمية للجانب المعرفي حول المستعمرات، وهو ما نستشفه من قول "شايلي بيرت" دائمًا: "من الأمور المثيرة، أن فرنسا لم تحرص أبدا على معرفة مستعمراتها، فبعد سبعين سنة من غزو الجزائر ما تزال فرنسا تبحث عما يمكن للأرض أن تنتجه وما تحويه من ثروات، وفضلا عن ذلك فقد كانت كل الاكتشافات تقريبا من إنجاز الخواص، ولم تساهم الإدارة سوى بالنزر اليسير"[٩].

لتعويض هذا النقص الحاد في المعطيات الدقيقة حول المستعمرات الفرنسية أو المناطق المزمع استعمارها إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تم تأسيس لجنة إفريقيا في خريف ١٨٩٠م من قبل بعض الأشخاص بدافع من الغيرة الوطنية -حسب "برونشفيك"-[١٠] لتسليط الضوء على هذه المناطق، والعمل على جردها، وتفكيك طلاسم مجتمعاتها. وقد حددت تلك اللجنة هدفها في "العمل وبكل الوسائل المتاحة لديها على تنمية النفوذ والتجارة الفرنسيين في إفريقيا الغربية والوسطى والشمالية"[١١].

تمكنت لجنة إفريقيا خلال الفترة المتراوحة بين ١٨٩١م، و١٩٠٦م من توجيه وتمويل ما يقرب من ثلاثين بعثة علمية خاصة بإفريقيا[١٢]، حظي المغرب ضمنها بمكانة خاصة منذ مطلع القرن العشرين، فقامت بتأسيس عدد من اللجن الفرعية كان آخرها لجنة المغرب سنة ١٩٠٤م[١٣]، وتحددت مهمتها في جانبين أساسيين هما: الإخبار والدعاية، بهدف غزو الرأي العام الفرنسي وإقناعه بأهمية "القضية المغربية لمستقبل فرنسا، وعليها أن تصبح قضية وطنية"[١٤].

ولإقناع الرأي العام الفرنسي بأهمية القضية المغربية حرصت لجنة المغرب على إرسال مجموعة من البعثات الدراسية والكشفية من أهمها البعثة الهيدروغرافية، ثم بعثات سيكونزاك. وقد تزامنت هذه البعثات مع الصراع الفكري الذي دار بين قطبين من أقطاب البحث العلمي الفرنسي، والمتمثل من جهة في الجمعيات الجغرافية الفرنسية ولجنة إفريقيا، والأجهزة العلمية الموجودة بالجزائر، والتي ضمت في صفوفها أكبر جماعة من العلماء المعترف بهم من الذين كانوا على إطلاع واسع بشؤون شمال إفريقيا بما في ذلك الانثروبولوجيين واللسانيين المتخصصين في القضايا الإسلامية العامة[١٥]، ومن جهة أخرى "أوغسطس برنار" و"أوغيستموليراس" و"وليام مارسي" وآخرون ممن قاموا بعدد من البعثات الناجحة إلى المغرب[١٦]. لكن الحسم النهائي في هذا الصراع كان لصالح "ألفريد لوشاتولي" مؤسس البعثة العلمية ومدبر سقوط مدرسة الجزائر، على حد تعبير "إيدموند بورك"[١٧].

٢/١-تأسيس البعثة العلمية للمغرب

أسفرت كل التطورات السابقة عن ميلاد البعثة العلمية بالمغرب بداية القرن العشرين الميلادي بقرار صادر عن الحاكم العام للجزائر "سلستان جونار" (Célestin Jonnart)، وتألف مكتب إدارتها من عدة شخصيات سياسية وعلمية فرنسية مرموقة كانت تحت المراقبة المباشرة لوزارة الشؤون الخارجية بموجب قرار "جونار" الصادر بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٠٣م[١٨].

تبعت هذه البعثة من الناحية الإدارية لكرسي السوسيولوجياوالسوسيوغرافيا بـ"كوليج دوفرانس" تحت إشراف "ألفريد لوشاتولي"، والذي اختار من جهته جورج سالمون (G. Salmon) ليكون مسؤولا على هذه البعثة باقتراح من "گاستوناسبيرو"(Gaston Maspéro)، رغم المعارضة الشديدة التي واجهها من طرف المدرسة الجزائرية، حيث اتُّهم سالمون بعدم الكفاءة العلمية باعتبار أن تخصصه في علم الآثار لا يؤهله للإلمام بكامل منطقة إفريقيا الشمالية، هذا فضلا عن جهله باللغة المحلية لسكان المنطقة[١٩]. غير أن محدودية الوسائل المادية الكفيلة بإنشاء مكتبة للدراسات في عين المكان، وتوفير الأدوات والمواد اللازمة للعمل، كانت من أكبر المشاكل التي واجهتها البعثة "المغربية" المستحدثة، فتم تخصيص ميزانية قدرها ١١,٠٠٠ فرنك، تكلف بتأمينها عدد من المؤسسات، جاءت على الشكل التالي:

- مساهمة الحكومة الجزائرية ٨٠٠٠ فرنك.
- مساهمة وزارة الخارجية ٢٠٠٠ فرنك.
- مساهمة وزارة التعليم العمومي ١٠٠٠ فرنك.
- المجموع ١١٠٠٠ فرنك[٢٠].

إلى جانب هذه الميزانية استفاد الفرع الجديد بالمغرب من مساعدات عينية استجابة للدعوة التي وجهها "أوجين إيتيان" إلى كل المهتمين والمعنيين بالأمر للمساهمة في جمع التبرعات والهبات اللازمة، وهي الدعوة التي لُبيت على نطاق واسع، مما أدى إلى تطوير سريع للمكتبة في ظرف زمني وجيز[٢١].

ساهمت في تلك التبرعات أوساط متعددة، منها شخصيات سياسية مثل: رئيس الجمهورية الفرنسية والأمير "دارنبيرغ" وبعض أعضاء مجلس النواب، وأخرى تنتمي إلى الميدان الجغرافي وخاصةً الجمعيات مثل: الجمعية الجغرافية الباريسية، والجمعية الجغرافية الوهرانية، وجمعية مارسيليا، وبعض الشركات من بينها الشركة المغربية. كانت هذه التبرعات إما

على شكل اكتتاب مالي أو على شكل تبرعات بالكتب والمجلات والدوريات، وقد بلغ عدد الكتب التي توصلت بها البعثة العلمية في نهاية ١٩٠٤م ما يزيد عن ١,٤٩٦ كتابًا تدور مواضيعها حول التاريخ والجغرافيا واللسانيات، سواء تعلق الأمر بالمغرب أو بمنطقة إفريقيا الشمالية ككل[٢٢].

غير أن تلك الهبات لم تف بالغرض بعدما وصلت مصاريف البعثة سنة ١٩٠٤م وحدها إلى ١٧,٠٠٠ فرنك، أي بزيادة ٦,٠٠٠ فرنك عن موارد البعثة، توزعت على الشكل التالي:

- مصاريف إنشاء المقر ٦,٠٠٠ فرنك.
- تعويضات عن السكن وصيانة المكتبة وتكوين سكرتير أهلي ٢,٠٠٠ فرنك.
- مصاريف السفر في المغرب ٤,٠٠٠ فرنك.
- منشورات البعثة (١٢٠٠ صفحة) ١,٠٠٠ فرنك.
- مصاريف النشر ٣,٥٠٠ فرنك.
- مطبوعات أخرى ٥٠٠ فرنك[٢٣].

دفع هذا الخصاص "لوشاتولي" إلى مراسلة وزارة الخارجية لرفع مساهمتها كاتِبا: "في اعتقادي سيكون من المرغوب فيه أن ترفع وزارة الخارجية مساهمتها المقدرة بـ ٢٠٠٠ فرنك إلى نفس مقدار مساهمة الحكومة الجزائرية بـ ٨٠٠٠ فرنكا لضمان مسار عادي للبعثة في المستقبل، ونظرًا للظروف الخاصة للمغرب يفضل تبعية المؤسسة لقسم (الشؤون الخارجية)"[٢٤].

ثانيًا: أهداف البعثة العلمية

حُددت وظيفة البعثة العلمية منذ بدايتها في دراسة المجتمع المغربي بمختلف مؤسساته الدينية والاقتصادية والاجتماعية، إلى جانب دراسة قضايا أخرى ذات طابع علمي مثل التاريخ والأركيولوجيا واللسانيات إلخ... وذلك لتحقيق معرفة معمقة بالوسط المغربي قادرة على التخفيف من حدة توتر العلاقات بين فرنسا والمغرب، لتصبح بذلك القاعدة الأساسية لسياسة مغربية سليمة. مع التركيز على الدراسات السوسيولوجية على حساب الدراسات الأركيولوجية واللغوية والتاريخية، التي اعتبرت آنذاك دراسات تكميلية فقط للنمط الأول، إذ حدد "ميشو بلير" مهمة البعثة العلمية في عصرين اثنين:

- البحث عن الوثائق التي تسمح بمعرفة ودراسة المغرب في الميدان.
- العمل على إعادة تنظيم هذه الوثائق ومنحها الحياة، ليس فقط عبر الاعتماد على الكتب والمخطوطات، ولكن عبر المعلومات والروايات الشفوية والتقاليد الأسرية والقبلية[٢٥].

شكلت البعثة العلمية في المغرب انعكاسا لتجربة استعمارية طويلة خاضتها فرنسا بكل من إفريقيا الشمالية والغربية والهند الصينية، حيث تم الاقتناع بأن الأداة الكفيلة لبلوغ تلك المعرفة هي السوسيولوجيا، وهذا ما نستشفه من "أوجين إيتيان" الذي صرح قائلا: "لقد قادنا التجريب الاستعماري إلى لزوم تطبيق المذاهب التي قام بصياغتها تلاميذ أوجسْت كُونْت، أولئك الذين كانت السوسيولوجيا بالنظر إلى السياسة في أعينهم على غرار ما كانت عليه البيولوجيا بالنسبة للطب، فلنعرف كيف نستلهم الفكر الوضعي بالمغرب إذا ما كنا نطمح إلى تحقيق إنجاز علمي في هذا البلد، ولنبدأ من حيث انتهينا في جهات أخرى بمعاينة كل ما كان عليه المجتمع المغربي في تطوره القديم والحديث، وذلك حتى نتمكن من قيادته بثقة تامة في النفس...نحو تطوره في مستقبل الأيام، مستقبل التقدم السلمي في ظل رعاية فرنسا الديموقراطية"[٢٦].

يعطينا هذا التصريح فكرة واضحة عن أهداف وتوجهات البعثة العلمية بالمغرب قبيل الحماية، والتي جعلت من نفسها خادما للآلة الاستعمارية الفرنسية أكثر من أي شيء آخر، مع تلافي تكرار التجربة الدموية بالجزائر وإنجاز التغلغل والسيطرة بأقل الخسائر البشرية الممكنة[٢٧]. وهو ما عبر عنه "أوجين إيتيان" بشكل صريح قائلاً: "إن البحث العلمي ضرورة من الطراز الأول (لإتمام) العمل الذي شرعنا فيه بالمغرب، وإذا أردنا أن نطبق بإخلاص سياسة مصالحة وتهدئة تجاه القبائل المغربية، فلا يمكننا أن نستغني عن دراسة تقاليدها وأعرافها ونظمها الاجتماعية بأكثر ما يمكن من الدقة، تفاديا للأخطاء الاجتماعية في المغرب وما يمكن أن ينتج عن ذلك من عواقب"[٢٨].

حاولت البعثة العلمية أن تزاوج بين إرادة المعرفة وإرادة الغزو والاختراق، مع إرضاء الرأي العام الغربي عموما والفرنسي على وجه الخصوص، وإقناعه بمشروعية تدخله العسكري في المغرب، وربطه بمسألة التحضير، فهناك رسالة إنسانية ينبغي أن يقوم بها الأوربي المتحضر تجاه المجتمعات غير الغربية "البربرية"، بإخراجها من حالتها تلك. وهي المهمة التي أوكلت للدراسات الأنتروبولوجية من خلال دراساتها المتعددة للزوايا الطرقية، ولأهل الجبل "الأبرياء" مقابل أهل السهل الغزاة وللمرأة والعائلة و...إلخ. وإذا كانت بعض الدراسات قد أشارت

إلى الدور الكبير للبعثة العلمية في خدمة قضية التغلغل السلمي، عبر تسخير أبحاثها ومعارفها لتسهيل الاحتلال[٢٩]، فواقع الأمر يظهر أنها لم تكن سوى أسلوب دعائي موجه بالأساس لغزو الرأي العام الفرنسي وإقناعه بمشروعية التدخل بالمغرب قبل كل شيء.

فرغم المجهودات التي بذلها أعضاء البعثة، وما أنجزوه من دراسات، وما جمعوه من رصيد وثائقي مهم، لم تكن هذه الحصيلة أداة من أدوات التسرب السلمي بالمغرب كما كان مأمولاً أثناء التأسيس، إذ بقيت القرارات السياسية والعسكرية بيد الدبلوماسيين والإداريين والعسكريين، وظلت البعثة أداة دعائية لا تشذ عن باقي الوسائل الأخرى، ذلك أنها لم تُستشر في الشؤون المغربية إلا نادرا، واتخذت الحكومة الفرنسية قراراتها الخاصة في تغييب تام للبعثة العلمية وأعضائها، باستثناء بعض المراسلات التي جمعت بين "لوشاتولي" ووزير الشؤون الخارجية أواخر مارس سنة ١٩١١م[٣٠] موازاة مع اضطرابات مدينة فاس، ولم تعر الحكومة أي اهتمام للإنتاج "العلمي" الذي كانت تنجزه البعثة، ولا للرصيد الوثائقي الذي جمع بخصوص عدد من القضايا التي اعترضت سبيلها بالمغرب، فعندما طُرحت قضية توات المغربية أمام البرلمان الفرنسي، انقسمت آراء السياسيين، وذهبت في ذلك مذهبين مختلفين ومتعارضين، حيث أكد البعض على ارتباط توات تاريخيا بالمغرب، بينما اعتبرها البعض الآخر منطقة مستقلة تماما، وهو الموقف الذي تبنته الحكومة الفرنسية. لكن بعد الاحتلال أوضح لوشاتولي في إحدى رسائله لوزير الخارجية الفرنسي -سنة ١٩١١م- أن الحكومة صارت تتوفر على مجموعة من الوثائق المكونة من: اللائحة الكاملة لولاة المخزن على تلك المنطقة، والمراسلات المتبادلة بين الطرفين، واللائحة الكاملة للضرائب التي كان أهل توات يدفعونها للمخزن، أي كل العناصر التي تؤكد تبعية المنطقة طيلة القرون الثلاثة الأخيرة إلى إحدى عمالات المغرب، لكن تلك الوثائق منعت من النشر بقرار إداري[٣١].

وقد أثار تجاهل المعلومات الميدانية المستقاة من طرف أعضاء البعثة العلمية وعدم تكليفهم بأي مهمة رسمية قبل التدخل الفرنسي المباشر في المغرب استياء "ألفريد لوشاتولي" الذي وجه رسالة شديدة اللهجة لوزير الخارجية الفرنسي سنة ١٩١١م، يتهم فيها الحكومة الفرنسية بالاستعجال وضيق الأفق، جاء فيها: "لم يسبق للسياسة الفرنسية أن وضعت نصب أعينها العبارة لتالية: «شيء ما يقف أمامنا، ولا نعرف ما هو، وسنقوم بدراسته، وقد يتطلب هذا الأمر ستة أشهر، أو سنة أو سنتان، لا يهم. فمن الأفضل أن نضحي ببعض الوقت والعمل عوض إراقة الدماء، وتبذير الأموال»"[٣٢]

هكذا لم توظف الحكومة الفرنسية مجهودات البعثة العلمية في سبيل تسطير سياسة استعمارية خاصة بالمغرب، ولم تكن أبحاثها أداة من أدوات "التسرب السلمي" كما كان مأمولا أثناء التأسيس، حيث أبعد أعضاؤها عن دائرة القرار السياسي الذي بقي حكرًا على رجال السياسة لا العلم، الذين اكتفوا بنشر أعمالهم في عدد من الدوريات أشهرها: "الوثائق المغربية" (Archives marocaines) و"مجلة العالم الإسلامي" (Revue du monde musulman)، وغيرها من المنشورات التي تجاوزت البحث عن التاريخ السياسي للمغرب إلى التنقيب عن الخلفيات الثقافية والاجتماعية للساكنة المحلية على اختلاف أصولها، مكونة صورة توافق إلى حد بعيد أهواء الحزب الاستعماري الفرنسي وما كان رجاله يروجون له داخل مجالس الجمعية العامة.

ثالثًا: صورة المغرب من خلال الأبحاث العلمية الكولونيالية

منذ استحداث البعثة العلمية بطنجة تم إصدار العديد من الأبحاث ذات الطابع العلمي ظاهريا على الأقل، في محاولة لدراسة مختلف بنيات المجتمع المغربي في إطار مقاربة جديدة تدمج مختلف فروع العلوم الإنسانية، مع التركيز على طبيعة الشخصية المغربية، وأسس تربيتها ونسقها القيمي والتقليدي، في محاولة للإحاطة بسيكولوجية الإنسان المحلي. احتفت هذه الأبحاث بمقولات الاستشراق التقليدي وأنتروبولوجيا الفكر الغرائبي الذي تحكمه "الأورو- مركزية" كمنطق وتفكير، إذ تم تقديم عقلية الإنسان المغربي بوصفها عقلية ميالة إلى الإفراط في التدين، وقاصرة على القيام بالاستدلال التدريجي والتأمل النظري الخالص، بالإضافة إلى كونها عقلية تنفر من محاولات التركيب والتحليل[٣٣]، إلى غير ذلك من القيم المعيارية التي وصفت بها هذه العقلية. بموازاة ذلك حاولت الأبحاث النظرية والميدانية أن تصور المغرب كمملكة للمفارقات والتناقضات المتعايشة بشكل غريب على عدة مستويات أهمها:

٣/١-المستوى الاجتماعي

تم تصوير الاقتصاد المغربي كنظام فقير مبني على العلاقات الخارجية والتنظيم الذاتي للقبائل، مقابل علاقات اجتماعية مبنية على البذخ والإسراف، سواء في الصراعات والخصومات والجنائز، أو من خلال الأفراح والهدايا، رغم الفقر، حيث تحضر

العزة والفخر والرضي عن العيش في ظل اقتصاد الكفاف الذي بنى عليه الفرنسيون إحدى الفرضيات المهمة لفهم الكيفيات والآليات الثقافية التي يدبر بها المغاربة نمط عيشهم[٣٤].

جعلت الأنتروبولوجيا الكولونيالية من الاختلال الحاصل بين الاقتصاد والمجتمع أحد خصائص المجتمعات البدائية، وهو ما أكده "إيدموند دوتي" خلال جولته المغربية، معتبرا الساكنة المحلية ما هي إلا نموذج للمجتمعات البدائية التي تستطيع وحدها أن توازن بين آليات تدبير اقتصاد الكفاف وبذخ العلاقات الاجتماعية[٣٥]. فتم تصوير المجتمع المغربي على أنه لا يزال يعيش في الحالة التي كان عليها في تلك الأزمان السابقة لتوافد العرب أيام "يوغرطة" و"تاكفاريناس"[٣٦]. بل درج بعض علماء الإيثنولوجيا على اعتبار المجتمع المغربي بأنه لا يزال في مراحل التشكيل الأولى[٣٧]. وبقدر ما يتوغل المرء في البوادي والأرياف فهو يجد مختلف مظاهر ذلك "المجتمع البدائي" وصوره، ويصادف أنماطا من الاعتقادات وأشكالا من العادات والتقاليد، وأنواعا من البراءة والطيبوبة على نحو ما يصفه روسو في حديثه عن الإنسان الأول في حالته الطبيعية[٣٨].

٣/٢-المستوى السياسي

حظي المخزن بحيز مهم من أبحاث البعثة العلمية، حيث كتب "إدموند دوتي" بحثا مطولا عن السلطة المغربية، ونشط "ميشو بلير" في البحث عن موضوعات الزوايا الدينية وضريبة النائبة وبعض مكونات الحكومة المخزنية"[٣٩]. بينما ركزت أبحاث "أوگيستبيرنار" و"جورج سالومون" وغيرهما على ضعف السلطة المغربية رغم شراستها، فإذا كانت تفرض طاعتها في المدن والسهول، فإنها لم تتمكن مطلقا من غزو الجبال والمناطق الهامشية التي تُكون ثلثي البلاد[٤٠].

حولت هذه الدراسات السلطة المغربية إلى بناء هندسي ربما كان الهرم أقرب الأشكال إليه، قمته هي السلطان وقاعدته القبائل العربية باشتمالها الضمني على الجيش السلطاني. وتتألف الروابط بين القمة والقاعدة من وزراء وقواد من جانب أول، ومن الأعيان والعلماء ورجال الزوايا -في أحوال مصالحتها مع السلطان- من جانب ثاني، وبالتالي فهو تجاور واجتماع بين سلطتين، إحداهما دينية وأخرى "لائكية"، بينما يمسك السلطان بأعنتهما معا[٤١].

لم يكن المخزن داخل هذه الأبحاث الكولونيالية يعني السلطة والأمن، بقدر ما كان يمثل آلية للتغلغل الاستعماري بحكم ضعف سلطته، حيث كتب "ميشو بيلير" قائلاً: "المغرب الرسمي والمغرب الدبلوماسي هو ذلك الذي نتعامل معه ونقرضه المال، وهو الذي نرغمه على دفع التعويضات، وفي كلمة واحدة إنه مغرب الجزيرة الخضراء"[٤٢].

أما عند تناول القبيلة ورغم تعدد الدراسات التي عالجت هذا الموضوع فإن السوسيولوجياالكولونيالية لم تهتم بالعالم القروي بقدر ما اهتمت بمفهوم القبيلة، فتم تصوير المغرب كمجال لسيادة نوعين من القبائل: النوع الأول هو القبائل البربرية، والنوع الثاني هو القبائل العربية، وهذه القسمة لا تعود إلى أصل عرقي، بل الفاعل في القسمة هو اعتبار وجود هذا النوع أو ذاك من الأعراف والتقاليد والعادات، وسلوك هذه الممارسة أو تلك. هكذا فإن اسم البربري ينطبق بشكل خاص على السكان الذين حافظوا على عادات وتقاليد وأنماط تعود إلى سلوكاتسابقة على الإسلام، في حين تم تخصيص نعت العربي لتلك الفرق التي تمت أسلمتها على نحو أفضل[٤٣].

ظلت القبيلة جسمًا فارغًا عديم الروح فاقدا للدلالة، فهي هيكل تتصدع فيه الهوية المغربية، لم يتم تناولها كمفهوم تاريخي قابل للتطور، وإنما تم التعامل معها كمفهوم أنتروبولوجي نزع منها كل الأبعاد التاريخية. بالمقابل وسم سكان المدن بتدني الأخلاق والانحطاط حيث يقول "إدموند دوتي": "...السمة الغالبة في طباع المغاربة، وحديثنا الآن عن سكان المدن وسهول الغرب، هو حبهم الشديد للبذخ والإسراف، فاحترامهم بالتالي لملكية الغير ضئيل، وهم يميلون إلى إخفاء الحقيقة، ويسعون إلى التملص من عهودهم ومواثيقهم متى كان ذلك يجلب لهم نفعا شخصيا"[٤٤]. ولذلك كان النفاق والتذبذب في الالتزام بأوامر الدين وقواعده دينهم الحقيقي، ومن ثَمَّ كانوا يحتالون في أوامر الدين بحيث يأخذونه على النحو الذي يرضي سعيهم إلى الثراء ومراكمة الأموال والممتلكات[٤٥]، فأصبح بذلك تناقض الشعب المغربي شعار الكتاب الاستعماريين، تمتع داخله البربري بفكر ديمقراطي وأخلاق عالية، فهو لا يكره الأجنبي، ولا يعارض التقدم، عكس الإنسان العربي الذي نعتوه بالكسل والخمول والخداع[٤٦].

إننا في هذه الحالة أمام نظرة أوربية متمركزة حول ذاتها، تطلعنا بشكل كبير على الافتراضات المسبقة لصاحبها، أكثر مما تطلعنا على الحقيقة المدروسة، وبالطبع فنظريات من هذا القبيل لا تقدم سوى تصورات شبه علمية للمجتمعات المعنية، ومن تم ضرورة القيام ببحث علمي، خاصة إذا ما سلمنا بما أورده نور الدين الزاهي في دراسته المهمة بعنوان "مدخل لعلم الاجتماع" حيث قال: "لم يكن الرحالة المستكشفون علماء سوسيولوجيا أو أنتروبولوجيا، مثلما لم تكن لهم خبرة أكاديمية

بالمناهج الكمية والكفيلة المؤهلة لتحصيل المعلومة بشكل دقيق"[٤٧]، مستدلا بمثال على "أوكيستموليراس" "الذي قدر ساكنة المغرب نهاية القرن ١٩م بما يناهز ٧٠ مليون نسمة، أما كميات الثروات المعدنية بشمال المغرب فلا تعد ولا تحصى من ذهب ونحاس وحديد... إلى جانب وجود ساكنة بسيطة في تفكيرها وبدائية في نمط عيشها"[٤٨].

وإذا كنا نعلم اليوم بما لا يدع مجالا للشك أن ما توصل له موليراس من جرد للخصائص الطبيعية والبشرية بالمغرب قُبيل الحماية هو محض خيال لا وجود له من أساس في الواقع، فإن ما كتبه عن عقلية وسلوكات المغاربة لا يخرج عن نفس الخيال، فالباحثون من خلال توظيفهم منهجا متسرعا وشاذا من الناحية العلمية –حسب "جيرمان عياش"- بنوا نظريات مدهشة على قاعدة غير مأمونة الجوانب، تلك النظريات التي تدعي بأنها قادرة على تسليط الأضواء بكلمتين أو ثلاث كلمات على قرون أو آلاف السنين من التاريخ[٤٩].

فاختزل تاريخ المغرب في مجموعة من المفارقات تقوم على منطق ثنائي من قبيل:

- عرب/ بربر على المستوى العرقي.
- سهل/ جبل على المستوى الإيكو – طبيعي.
- بلاد المخزن/ بلاد السيبة على المستوى السياسي.
- الشرع/ العرف على المستوى القانوني.

خَاتِمَةٌ

شكلت هذه الأعمال مرحلة انتقالية بين الاستشراق والإثنوغرافيا، فهي تجمع بين الكتابة من وجهة نظر المستشرق الذي يتعامل بحس تاريخي مع النصوص والمؤسسات الكبرى مثل الشرفاء والأضرحة...، ووجهة نظر الإثنوغرافي الذي يستند إلى دراسات ميدانية. فكانت المحصلة صورة غير جديدة تمامًا من حيث المضمون عن سابقاتها، لكنها كذلك من حيث طريقة التناول، جعلت العديد من الأوساط الفرنسية تتقبلها في حلتها العلمية المرتكزة على البحث السوسيولوجي الذي وضع الإنسان والمجتمع المغربي أمام مرآة السيكولوجيا الكولونيالية. إنها نتاج طبيعي لتواطؤ المعرفة مع السياسة، يصبح فيه البحث العلمي خادمًا للاستعمار، فينحرف عن خطوط الاستواء الموضوعية، ويفقد تلقائيا طابعه التوثيقي، ليتحول بذلك إلى مجرد أداة للدعاية وتبرير السيطرة والتدخل، بعدما أصبحت القضية المغربية القاسم المشترك بين الأوساط الاقتصادية والسياسية والعلمية.

الاحالات المرجعية:

(١) المازوني محمد (تقديم)،دوتي إدموند، **مراكش، قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة سنتي ١٩٠١/١٩٠٢**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، مطبعة أنفو-برانت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، فاس، ص٣-٤.

(2) Doutté Edmond, **Des moyens de développer l'influence française au Maroc. Première partie: Analyse des moyens généraux d'influence**, rapport fait à la demande du gouverneur général de l'Algérie, F. Levé, Paris, 1900, p 20.

(3) Ibid, pp 24-25

(4) Ibid, p 118.

(5) Rivet Daniel,"Exotisme et «pénétration scientifique»: l'effort de découverte du Maroc par les français au début du XXe siècle", in **Connaissance du Maghreb sciences sociales et colonisation**, Editions C.N.R.S, Paris, 1984, pp 95-96.

(6) Chailley-Bert Joseph,**Dix années de politique coloniale**, Edition librairie Armand colin, Paris, 1902, pp 28-29.

(7) Ibid, p14.

(8) Ibid, p15.

(9) Ibid, pp 141-142.

(10) Brunschwig Henri, **Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français 1871-1914**, Armand Colin, Paris, 1960, p 116.

(11) Ibid, p 117.

(12) Ibid, p 121.

(13) Robert-AgeronCharles, **France coloniale ou parti colonial**, édition Erreur, presses universitaires de France, Paris, 1978, p 139.

(14) Ibid, p 148.

(15) BurkeIII Edmund, "La mission scientifique au Maroc: science sociale et politique dans l'âge de l'impérialisme", in **B.E.S.M**, n° double 138-139, 1979, p 41.

(16) Ibidem.

(17) Ibid, p 43.

(١٨) حسن كمال، "مؤسسات البحث والتعليم بالمغرب خلال فترة الحماية الفرنسية، مقاربة تاريخية"، **رسالة الدكتوراه في التاريخ**، إشراف محمد كنبيب، جامعة محمد الخامس، السنة الجامعية ٢٠٠١-٢٠٠٢، ص ٨٤

(19) Burke III Edmund, op-cit, p 48.

(20) BoutbouqaltTayeb, La politique d'information du protectorat français au Maroc **(1912-1956)**, Les éditions Maghrébines, Casablanca, 1996, 1erédition, p 103.

(٢١) حسن كمال، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.

(٢٢) نفس المرجع، ص ٨٠.
(23) Boutbouqalt Tayeb,op-cit, p١٠٤ .
(24) Ibidem.
(٢٥) الزاهي نورالدين، **المدخل لعلم الاجتماع المغربي**، دفاتر وجهة نظر، العدد ٢٠، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ١٥.
(٢٦) أورده: العلوي سعيد بنسعيد، "صورة المغرب في الاستشراق الفرنسي المعاصر"، ضمن **المغرب في الدراسات الاستشراقية**، أعمال الندوة السادسة التي انعقدت في مراكش يومي ٥ و٦ أبريل ١٩٩٣، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ص ٤٤.
(٢٧) الزاهي نور الدين، مرجع سبق ذكره، ص٩.
(28) Etienne Eugene, **Projet de résolution ayant pour objet de créer un institut marocain**, Edition Motteroz, Paris, 1904, p2.
(٢٩) العلوي سعيد بن سعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.
(30) Messal Raymond, **La Genèse de notre victoire marocaine : un précurseur : Alfred Le Chatelier (1855-1929)**, Edition Dunod, Paris, 1931, p 259.
(٣١) أورده: حسن كمال، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤.
(٣٢) نفسه.
(33) Hardy Georges,"L'âme marocaine d'après la littérature française", in B.E.P.M, n°74, avril 1926, éditeur Emile Larous,Paris, pp 54-55.
(٣٤) الزاهي نور الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٣.
(٣٥) نفس المرجع، ص٤٣.
(36) E-Michaux-Bellaire, "Sociologie marocaine", in **Archives Marocaines**, Vol XXVII, Librairie ancienne Honoré Champion, Paris, 1927, pp 297-299.
(37) Ibid, p 423.
(٣٨) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.
(٣٩) نفس المرجع، ص ٥٠.
(40) J-P. Langlois, "Introduction", in **Revue générale des sciences pures et appliquées**, n° 7, 25e année, 15 Avril 1914, tome XXV, Edition Armand Colin, Paris, 1914, p 291.
(٤١) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٥١.
(٤٢) نفس المرجع، ص ٥٠.
(٤٣) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.
(٤٤) نفسه.
(٤٥) نفسه.
(٤٦) بوزوية سمير، **مكر الصورة: المغرب في الكتابات الفرنسية: (١٨٣٢-١٩١٢)**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،2007، ص ٢٢٥.
(٤٧) الزاهي نور الدين، مرجع سبق ذكره، ص١٠-١١.
(٤٨) نفس المرجع، ص ١١.
(٤٩) عياش جرمان، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص٦-٧.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تشريح الثورة الوطنية المغربية
ثورة فاس، ثورة الحجامي، ثورة أحمد الهيبة



د. عبد السلام بوطافي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

شهد المغرب، إثر توقيع معاهدة الحماية في ٣٠ مارس ١٩١٢، اندلاع ثورات وطنية، اختلفت عن سابقاتها من التمردات ضد السلطة المركزية، فلأول مرة في تاريخ المغرب تنصهر، تحت الضغط الخارجي، وتفاعل التناقضات الداخلية، قبائل المغرب على اختلافها "قبائل الكيش وقبائل النايبة وقبائل السيبة" في بوتقة الوطنية الجهادية متعالية على أحقادها التاريخية، لتوقع على فعل تاريخي مميز، فتح عهدًا جديدًا يختلف كليًا عما سبقه من العهود، في عالم التمرد والانتفاضات، حيث تسامى العنف المغربي إلى مستوى الثورة بكل ما تحمله الكلمة من تجدد ورغبة في خلق عالم جديد خاصةً على مستوى بناء الهيكل السياسي. سوف نرصد معالم هذا التميز من خلال تشريح ثورة فاس الحضرية، التي أطلق شرارتها العساكر المغاربة، لتتحول إلى ثورة شعبية، وفي ثورة الحجامي ذات الأهداف المحددة، مما جعلها ترقى على أن تكون مجرد تمرد بدوي قبلي دوري طالما ميز التاريخ المغربي ضد السلطة المركزية. وأخيرًا في ثورة أحمد الهيبة، التي استهدفت إقامة هيكل سياسي جديد، وبناء وعي سياسي يمتزج فيه الديني بالدنيوي. وقد اتضح أن لهذه الثورات فرادتها التي تجعلنا نقول مطمئنين بأن هذه التجارب التاريخية الثلاث كانت أكثر من مجرد مقاومة وأقرب إلى الثورة بمعناها المفهوم في الأدبيات الغربية المنظرة لهذه الظاهرة الإنسانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٦ أكتوبر ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الثورات الوطنية؛ الصحافة الفرنسية؛ الجماهير؛ السلطة المركزية؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.206479

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام بوطافي. "تشريح الثورة الوطنية المغربية: ثورة فاس، ثورة الحجامي، ثورة أحمد الهيبة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٧٨ – ١٩١.

Corresponding author: abdesselamb5@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

شهد المغرب مع دخول الاحتلال الفرنسي، انطلاق ثورات وطنية ذات مسوح دينية واضحة، لأن الوطنية المغربية لم تكن قد تشكلت في ذلك الوقت، بمعناها المعروف فيما بعد. ونحن نقوم بتشريح الثورة الوطنية المغربية، ممثلة في الثورات الثلاث نموذج الدراسة، حاولنا الإجابة عن إشكالية ما الذي يجعلها أكثر من مقاومة و يرقى بها إلى مستوى الثورة، وذلك بالبحث في مستويات التقاطع بينها وبين الثورات الكبرى بتبني منهجية مقارنة، عبر الإجابة عن مجموعة من الأسئلة، التي طرحتها دراسة هذه الظاهرة في الأدبيات الغربية المهتمة: من هم الفاعلون في هذه الثورة، ما المشاعر التي سيطرت عليهم وقادتهم على سبيلها، هل كانت نتيجة أسباب ظرفية، أثارها التدخل الخارجي، أم كانت نتيجة لأسباب عميقة سببها توقف دوران النخبة المغربية وانحطاط الطبقة الحاكمة. كما سنحاول الإجابة عن سؤال ما الذي جعل الثورة الوطنية المغربية شديدة العطب، وغير قادرة على اكتساب خاصية الديمومة والاستمرارية، وعبور مرحلة التحول والانتقال من الثورة إلى الدولة بنجاح.

أولاً: الثورات الوطنية المغربية بين التخطيط والتلقائية

تعتبر ثورة فاس وثورة الحجامي وثورة أحمد الهيبة، إحدى أهم الثورات الوطنية المغربية ضد الاحتلال الأجنبي. وكانت الثورة الحضرية التي شهدتها فاس بمثابة الحجر الذي قدحت عليه شرارة الثورة، حاملة معها النفس الثوري إلى أبعد مدى على خريطة الإمبراطورية الشريفة. وقد اختلف في شأنها فيما يتعلق إن كانت ثورة مخطط لها أم مجرد حادث عفوي طارئ، وبالرجوع إلى الصحافة الفرنسية المواكبة للحدث، ولرواية السفير الفرنسي رينيو، نلمس دفاعهما عن أطروحة ترجعهما لمجرد حادث معزول، وكان تحليلهما لهذه الثورة الحضرية تحليلاً كرونولوجيًا، ولم تغصا في أعماقها واكتفيا بذكر الأسباب الظرفية، ولم تسعيا إلى معرفة الخبايا والأسباب العميقة الكامنة وراءهما، ولم تكلفا نفسيهما عناء وضع هذه الثورة الحضرية موضع السؤال، لم تتساءلا إن كانت نتيجة أيد خفية، والجدير بالذكر هنا أن جاك هوبير[١] مراسل جريدة لوماتان[٢] الباريسية قد لمح في تقريره إلى هذه الفرضية إلا أنه لم يقف عندها كثيرا[٣].

بتمحيص رواية جاك هوبير، التي اعتمد فيها على شهادات حية لثلاثة مؤطرين عسكريين فرنسيين نجوا من المذبحة[٤]، ومقارنتها برواية السفير الفرنسي رينيو، الذي أرجع سبب الثورة إلى الهجوم الذي شنه عساكر طابور قصبة شراردة، بسبب القرار القاضي بتخفيض رواتب العساكر، نقف على تهوينها من ثورة فاس معتبرة إياها مجرد حادث معزول ليست له أية مضاعفات سياسية، مادام الجند أنفسهم هموا الفتك بالقاتل[٥].

نستخلص من الروايتين استبعادهما لفكرة التخطيط، والدفاع على وجهة النظر القائلة بالتلقائية. ويرجع السبب في ذلك إلى اعتمادهما التحليل الكرونولوجي السطحي للأحداث، ولم تغصا في أعماقها، فاكتفيا بذكر الأسباب الظرفية، ولم تسعيا إلى معرفة الخبايا والأسباب العميقة الكامنة وراءهما. وهذا التحليل الكرونولوجي هو الذي كان وراء إحجام جاك هوبير على المضي بعيدًا في دراسة هذه الثورة الحضرية، والاكتفاء بمجرد التلميح لفرضية التخطيط، إلا أنه سرعان ما يتجاوزها دونما تبرير معتبرًا إياها مجرد إشاعة لا ترقى إلى اليقين، فالثورة في نظره لم تكن سوى اضطراب عسكري منشؤه مطالب مهنية صرفة، إلا أنها كانت ذات ارتدادات داخل الطبقات الشعبية[٦]، وبذلك يكون قد برأ المخزن والطبقات المتنورة من التواطؤ مع فاعليها.

إذا كان جاك هوبير ومعه الصحافة الفرنسية قد اعتبرا ثورة فاس الحضرية حادثًا معزولاً وتلقائيًا، غاب عنه التخطيط، فإن التقارير العسكرية اعتبرتها ثورة مخطط لها من طرف المخزن، بل أشارت صراحة إلى تواطؤ المولى عبد الحفيظ، واتهمته بالوقوف وراء انتفاضة وتمرد العساكر، وقالت بوجود علاقات مريبة نسجت بين السلطان والعساكر، الذين أشعلوا فتيل الثورة. هذه الفرضية لا تجد لها سندا في الواقع[٧]، بل يرفضها دانييل ريفي رفضًا قاطعًا، بدعوى الرعب الذي قذفته الثورة في قلب السلطان، وكيف انكفأ على نفسه في انتظار نجدة القوات المعسكرة بدار الدبيبغ[٨].

إن أطروحة العسكر القائلة بالتخطيط للثورة لا تبدي إلا مدى مقدار العمى، الذي غشي أبصار العسكرية الاستعمارية لحقدها وكراهيتها للمولى عبد الحفيظ، وكانت عملية من عمليات تصفية الحساب بين مؤطري المؤسسة العسكرية الفرنسية والسلطان الرافض للتنظيمات الجديدة، ومن أسباب بروز هذه الأطروحة كذلك الصراع والتنافس المرير والدسائس التي كانت تعرفها الأوساط العليا للسلطة المخزنية[٩].

قامت أطروحة التخطيط على عدد من المسوغات، منها ترك باشا فاس الجديد "بامحمد الشرقي" الملاح عرضة للنهب والسلب، وعلى سلبية باشا فاس البالي "أحمد المقري"، في تعامله مع الأحداث، بعدم إغلاقه أبواب المدينة في وجه الثوار، إلا أن هذين التبريرين لا يصمدان كثيرا إذا علمنا أن الرجلين قد قاما فعلا بإنقاذ عدد لا يستهان به من المؤطرين العسكريين والمدنيين الأوروبيين، كما قامت هذه الأطروحة على فرضية دعم المخزن والفئات المرفهة والطبقات المتوسطة على دعم الثورة والتخطيط لها بتخوفهم من فقدان امتيازاتهم بتغير الأوضاع بفرض إصلاحات ستضر خاصة بامتيازات العلماء والشرفاء وكبار التجار. يدفع أصحاب هذه الأطروحة لتبريرها بالقول بتخوف العلماء من فقدان سيطرتهم الإيديولوجية على المجتمع، المؤسسة على التشريع والإفتاء فيما تعرفه ساحته من مستجدات، أما الشرفاء فقد تخوفوا من فقدان الرأسمال الرمزي، الذي يحوزونه لانحدارهم من سلالة النبي، أما كبار التجار فقد رأوا في الإصلاحات تهديدا لامتيازاتهم الطبقية كالإعفاء من الضرائب والحق في عدم التقاضي أمام المحاكم المغربية، بموجب قانون الحماية الدولية، باعتبارهم محميين دوليين، وبذلك ترى هذه الأطروحة أن الفئات الثلاث المذكورة قد استغلت تعصب الفئات السفلى من المجتمع "الرعاع"، وميلها للنهب والسلب والقتل، فدفعت بها في طريق الثورة، تقودها في ذلك الرغبة في إشباع غرائزها المتعطشة للانتقام من عدوها التقليدي "المسيحي".

بعد عرضنا للأطروحة المعتمدة على الرواية الرسمية[١٠] وأطروحة العسكر، وباستقراء الوثائق المتوفرة لدينا عن ثورة فاس الحضرية[١١]، يتبين أن دوافعهما كانت أساسا بسبب التجديدات، التي أدخلها المحتل، ولم يراع فيها التدرج الزمني، فرأى هؤلاء العساكر في بعضها تدميرًا لهويتهم الجمعية، وعصفا بهياكلهم التقليدية، ومسا خطيرًا بتراتبيتهم العسكرية، وتهديدًا لوضعهم الاجتماعي، والشيء نفسه يمكن أن نقوله عن العلماء والشرفاء، مما يرجح فرضية انطلاق الثورة بشكل عفوي لكن سرعان ما تم تبنيها من طرف هؤلاء أو على أقل تقدير تعاطفوا معها.

من خلال استقراء الوقائع التاريخية المستنبطة من الصحافة الفرنسية المواكبة للأحداث، يتبين أن القيادة المخزنية ومعها كبار التجار لم تتجاوب بأي شكل من الأشكال معها[١٢]، واعتبرتها لا تختلف في شيء عن الفتن، التي طبعت مسار التاريخ المغربي، وكانت محل حنقها وكراهيتها، حجتنا في ذلك التجاوب الكبير للبرجوازية الفاسية مع الحماية، التي رأت فيها إحدى الأدوات الخادمة لتطلعاتها[١٣]. وعليه فإن غياب التخطيط أو التواطؤ بلغة المؤرخ الفرنسي، تظل الأطروحة الأقرب لتفسير هذه الثورة الوطنية. إلا أن هذا لا يمنعنا من القول بأن فرضية التلقائية لا تنطبق سوى على بدايات الثورة، وخاصةً في مرحلتها الحضرية، لأنها ما إن برحت مركزها الحضري لتشمل المحيط القبلي، أي حين أصبحت ثورة فلاحين، دخلت منعطفًا جديدًا خضع فيه مسارها للتوجيه والتخطيط، شأنها في ذلك شأن أي ثورة عرفها التاريخ الإنساني في انتقالها من التأثير والدعاية إلى تنظيم العمل المباشر[١٤]، لقد كانت المرحلة الحضرية مرحلة اختمار تعتمد وسائل الدعاية والعمل العفوي المحدود، لأنها ثورة بلا رأس، ولم تدخل مرحلة العمل المنظم إلا حينما تجاوزت إطارها الحضري.

نلمس هذا التجاوز للإطار الحضري من خلال التعبئة التي عرفتها القبائل المتناثرة جغرافيا الواحدة تلو الأخرى، فقد انتفضت قبائل آيت يوسي وآيت شغروشن على ضفاف نهر سبو، وهددت قبائل زيان عين اللوح، واجتمعت قبائل الحياينة و التسول والبرانس نواحي فاس، وعينت قبائل بني امطير قوادها العسكريين[١٥]، وتشكلت بتازة حركة من حوالي ثلاثة آلاف ثائر[١٦]، وبلغ التخطيط ذروته بالاجتماع الذي شهده منتصف شهر ماي شرق فاس لقبائل الحياينة ولمطة وأولاد الحاج والشراردة والتسول والبرانس وبني سادن وبني وراين، وقد جعلت هذه القبائل ذوات الأصول المختلفة من عرب وبربر من أهدافها تحرير السلطان "أسير الفرنسيين" وإلقاء المستعمر في البحر[١٧].

إن الرغبة في تحقيق أهداف الثورة جعلتها تخضع لتخطيط محكم، بخلق قيادة موحدة وبعقد اجتماعات لتدارس الخطط والغايات، فلأول مرة تنصهر قبائل النايبة والكيش والسيبة في بوتقة الوطنية متعالية عن القطائع التاريخية المؤسسة على الأحقاد والتمايزات الإثنية، ثم تقوت الثورة الوطنية بالتحاق موجة من العساكر الفارين من سلك الجندية[١٨]، مهددين المحتل بتشكيل داخل الثورة أنوية منظمة لديها القابلية لوضع عمليات عسكرية وفق النمط الأوروبي الحديث، مساهمين في نفس الوقت في ردم هوة النفور المتوارث بين الفلاح المغربي والعسكري، فقد ذاب واندمج العنصر العسكري في صلب الواقع البدوي، الذي طالما كان غريبا عنه[١٩].

إن دور ثورة فاس في تعميم الثورة الوطنية المغربية على باقي مناطق خريطة المغرب، يظل معطى عصيا على التجاوز، فباستقراء الوقائع التاريخية كما تناولتها الصحافة الفرنسية المواكبة للحدث، ندرك كيف منحت هذه الثورة قبلة الحياة لحركة المقاومة بالجنوب المغربي، التي كانت على وشك الانطفاء، بعد الهزيمة التي تلقتها المقاومة بقيادة الشيخ ماء العينين، المتوفى سنة ١٩١٠، على يد قوات أوبير[٢٠]، فنضب على إثرها معين الهدايا والزيارات، ليموت الشيخ منبوذًا في عزلته القاتلة[٢١]. مع ثورة فاس، تجاوزت الثورة الوطنية المغربية بالجنوب طور الدعاية والتأثير، لتدخل طور التنظيم والعمل المباشر، فمن المعروف أن أحمد الهيبة قد استغل الشائعات والأخبار الرائجة عن أحداث فاس ١٩١١، لإعادة الهيبة لحركة والده المنطفئة، فأشاع خبر وفاة السلطان المولى عبد الحفيظ، ومنع إقامة صلاة الجمعة باسمه بالمسجد الأعظم بتزنيت، وأعلن نفسه إمام الزمان، أي المهدي المنتظر، وقائد الجهاد. وبعد أسبوع من هذا دخل مسجد تزنيت متخذا جميع شارات السلطنة الشريفة "المظل الإمبراطوري والعرش المرصع بالذهب،"[٢٢] ضافيًا على نفسه في نفس الوقت نفحة دينية/ غيبية بادعائه المهدوية. انطلقت ثورة الهيبة الوطنية، بعد أن استوفت الطور الأول، المميز بالدعاية والتبشير وحشد الأنصار والحلفاء، لتدخل طور العمل المباشر. تنامت الثورة بشكل تصاعدي، وتضخمت بالأعداد الهائلة المنظمة إليها.

من نافل القول إن رغبة الهيبة في السلطة، والبحث عن مخرج لتحقيقها، كان أحد أبرز العوامل، التي يمكن أن نستدل بها على التخطيط لثورة الهيبة. فما هي أهم سمات التخطيط في ثورة الهيبة، بالرجوع إلى الاستقراء الكرونولوجي لثورة الهيبة استنادًا على الصحافة الفرنسية، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل مع تبيان معالم التخطيط والتصميم خلال كل مرحلة:

المرحلة الأولى "ماي/ يونيو ١٩١٢": تمكن خلالها من فرض نفوذه على سوس[٢٣] والسفح الجنوبي للأطلس الغربي، باستثناء تازورالت وماسة[٢٤] وحاحة[٢٥] المناطق الخاضعة للقايد أنفلوس، ونفس الشئ يمكن أن نقوله عن القبائل الخاضعة لنفوذ المتوكي، التي ظلت بمنآى عن حمى الثورة. وخلال هذه المرحلة بدأت الثورة تنحو منحى جديدا بإضفاء طابع الدولة عليها، وإن كان الأمر لا يزال في مرحلته الجنينية، فقد بويع سلطانا على تارودانت من طرف قايدها يوم الجمعة ٢٦ يونيو ١٩١٢[٢٦].

المرحلة الثانية "منتصف يوليوز/ منتصف غشت ١٩١٢": اندفعت الثورة نحو الشمال حتى مراكش، التي دخلها دون حرب تذكر، ويرجع دانييل ريفي ذلك إلى المساومات البارعة[٢٧]، التي أجراها مع كبار القياد، في حين أرجعت الجرائد الفرنسية عجز القياد على وقف تنامي الثورة وزحفها نحو الشمال على ضغط الجماهير الشعبية، التي أرغمت كل من الكندافي وعيسى بن عمر وأنفلوس على الوقوف مكتوفي الأيدي أمام موجة الثورة الصاعدة، أما كبار الشخصيات الأرستقراطية والمخزنية والعسكرية فقد أجبرت على الانضمام للثورة[٢٨] الآخذة في التحول الكبير بدخول قائدها مراكش، و خلال هذه المرحلة فقدت الثورة أهم خصائصها بتحولها إلى دولة.

المرحلة الثالثة "١٥ غشت/ ٥ شتنبر ١٩١٢": بلغت الثورة أوجها خلال هذه المرحلة، وفي أجواء الليالي الرمضانية المضمخة بالنفحات الروحية، وصل صدى الثورة إلى أبعد مدى، مبشرة بدولة دينية آخذة في التشكل على هيئة مؤسسية مع استقرار الهيبة بمراكش. فرض الهيبة نفسه كسلطان محرر في كل المناطق الساحلية[٢٩] إلى حدود مازاكان باستثناء المناطق الساحلية الخاضعة للقايد عيسى بن عمر، وبتادلة تعبأت القبائل لتمهيد الطريق له نحو فاس، أما بنو مطير فقد اتفقوا مع موحى أوحمو الزياني لشن هجوم على مكناس، وبالشاوية الخاضعة للمخزن حمل أهلها السلاح[٣٠]، يملأهم يقين راسخ بأن الوقت قد حان لمواجهة المحتل.

إن هذه المراحل الثلاث تبرز أن الثورة الوطنية بقيادة أحمد الهيبة كانت تخضع منذ البداية لمنطق التصميم والتخطيط، فأهدافها ببناء دولة جديدة، كانت واضحة[٣١]، مستغلة النسق الاجتماعي والسياسي الأشبه بالنظام الفيودالي الذي ساد الجنوب المغربي[٣٢].

ثانيًا: الفاعلون في الثورة الوطنية المغربية

كانت ثورة فاس في مرحلتها الحضرية قبل امتداداتها القبلية/ البدوية ثورة شعبية بلا رأس، لكونها كانت تدين في اندلاعها لحادث عفوي، كما برهنا على ذلك من قبل. التحم فيها الغضب الشعبي المستعر بالرضا التام لبعض أفراد النخبة المخزنية[٣٣]، والنخبة الفاسية من الشرفاء والتجار والعلماء، التي لا ندعي دعمها للثورة كما يذهب إلى ذلك دانييل ريفي، وإنما نقول فقط بتعاطفها نتيجة إقصاء السلطان لهم من المفاوضات مع البعثة الفرنسية بقيادة رينيو، أثناء فرض

الحماية على المغرب، فرأت في ذلك تهديدا لامتيازاتها وخيانة لعقد البيعة "بيعة ١٩١١" وضربا عرض الحائط لمبدأ الشورى الإسلامي. ويبقى السؤال المطروح هنا هل كان المخزن فاعلا ثوريا، أم مجرد متفرج منفعل بها، الحقيقة أن دانييل ريفي يبرأ المخزن من التواطؤ مع الثوار، أي أنه ليس فاعلاً ثوريا بلغتنا، ويرى أن إقحامه في اللعبة قد جاء نتيجة لحقد وكراهية العسكريين الفرنسيين له، فنقض حججهم الواحدة تلو الأخرى، جاعلاً من موظفي البنيقات الفاعل الحقيقي وراء تعميم الثورة، وإخراجها من إطارها المطلبي الصرف لمجموعة من العساكر، والارتقاء بها إلى مستوى ثورة شعبية، وقد جاء تبنيهم للثورة وانخراطهم في صفوفها كفاعلين عبر تعميمها نتيجة لتهميشهم من طرف مؤسسة الحماية، خاصة من طرف مصلحة الاستعلامات، فبعثوا برسائل ممهورة بخاتم المخزن[٣٤] تدعو كل من الطوابير المتناثرة على جغرافية المغرب وكبار القياد للانضمام إلى الثورة، الذين ظلوا عمومًا على الحياد[٣٥].

إذا صدقنا دانييل ريفي فيما يتعلق بموظفي البنيقات، نكون إذن أمام فاعلين غير متوقعين، وإن كان هو نفسه يدفع بفرضية تورط تلك الفئة في تعميم الثورة خارج إطارها الجغرافي وخارج وقودها البشري، على سبيل الترجيح فقط. إذا كنا قد عرفنا أسباب التحاق هذا الفاعل بالثورة، فإن أسباب التحاق فاعل آخر بالثورة، وإن بقي إخلاصه للثورة موضع شك لدينا[٣٦]، ممثلاً في التجار والشرفاء والعلماء، دائمًا وفق دانييل ريفي، يرجع إلى تخوفهم من فقدان امتيازاتهم: - تخوف التجار من الخضوع لضريبة الترتيب. -خشية العلماء من فقدان التحكم في المجتمع، باعتبارهم مراجع في إصدار الأحكام الشرعية التي من خلالها يمارسون نفوذهم الإيديولوجي على المجتمع. –تخوف الشرفاء من فقدان امتياز الإعفاء الضريبي والقضائي[٣٧].

إذا كانت مساهمة موظفي البنيقات في إشعال أوار الثورة، ونثر جذوتها خارج نطاقها الحضري، تقوم فقط على الترجيح، فالثابت هو الحضور المميز لفاعل جديد، غير متوقع بسبب خضوعه لتكوين عسكري لا يدين بالولاء إلا للمؤسسة العسكرية الاستعمارية وللحماية المتخفية وراء شرعية السلطان، هذا الحضور الذي نسجله بانضمام جزء من عساكر الطوابير الفرنسية المنتشرة بربوع الإمبراطورية الشريفة، التي استجابت لنداء الثورة، فقادت الانشقاقات أحيانا في وقت انحرت فيه الثورة المغربية، مما يشي بالطابع البطولي والقدر المأساوي لهؤلاء الجند المغاربة، خاصة بالغرب[٣٨] وبالجنوب[٣٩] وكذا بعض قياد الجنوب[٤٠].

وباستنطاق مكونات العناصر الفاعلة في الثورة الوطنية المغربية سواء في انطلاقاتها الحضرية أو في امتداداتها البدوية، يتضح أنها مزيج من عدة مكونات، من حرفيين وطوائف دينية وروابط مهنية "أصحاب الدكاكين و الحرفيين التقليديين[٤١]"، فالمكون الشعبي يظل حاضرًا بقوة في الثورة الوطنية المغربية، فأخلص الناس إيمانا بأهداف الثورة بالجنوب من الفاعلين فيها نجد المريدين، الذين تسميهم المصادر الفرنسية بالطلبة[٤٢]، وبعض القياد كالكلولي[٤٣] والتريعي[٤٤]، أما التجار فقد اكتفوا في أحسن الأحوال بموقف المنتظر المتردد.

فقد اتخذ كبار تجار فاس موقف المترقب، أما بمراكش حيث قام الهيبة بمصادرة منازلهم لإيواء جنده، فقد كتموا مشاعرهم في صدورهم إزاء الثورة، والوحيدون الذين أبدوا موقفا عدائيا واضحا إزاء الثورة، فكانوا كبار تجار الدار البيضاء باقتراحهم قطع الطريق على محلة مربيه ربه، المعسكرة بالرحامنة، بواسطة غارة خاطفة لخيالة عبدة انطلاقًا من آسفي، تحت قيادة عيسى بن عمر، ويرجع دانييل ريفي موقفهم هذا إلى تخوفهم من وقوع مراكش تحت طائلة السلب والنهب تماما مثل ما حدث للدار البيضاء سنة ١٩٠٧[٤٥].

إن خذلان الثورة من طرف فاعليها المرفهين سوف يتعمق بشكل جلي بعد هزيمة سيدي بوعثمان، فقد تخلى عنها تقريبا جميع كبار قادتها "أعضاء المخزن الذي أسسه الهيبة"، الذين فروا مع زمرة من الصحراويين ليستقروا بسوس إلى الأبد. عبر الناجون من الموت من أهل الصحراء وسوس جبال الأطلس، بعد أن حظر عليهم الإقامة بمراكش.[٤٦] والملاحظ أن التعامل اللين للقايد عمر السكتاني، الذي لم يهتبل هزيمة سيدي بوعثمان لمطاردة الثوار تدعم وجهة نظرنا في كون النخبة المغربية لم يتجاوز دعمها للثورة نطاق العواطف والمشاعر، فالقايد السكتاني لم يجهز على الثوار في محنتهم مخليا سبيلهم.

هناك فاعل آخر غالبًا ما يتم التغاضي عنه، ويتمثل في هذا العنصر المتحمس درجة العصاب والهذيان، من الأطفال والنساء والشيوخ لاعتقادهم المنقطع النظير بقداسة الثورة. وهو الفاعل الذي احترق بلهيبها، لقد ذهبت معركة سيدي بوعثمان، التي وضعت حدًا لثورة الهيبة، معلنة موتها وتحولها لمجرد حركة للمقاومة حتى وفاته سنة ١٩١٩، بألفي شهيد. كانت مذبحة عظيمة، تمت تحت شمس الزوال اللاهبة، للحفاة العراة، الذين لا يملكون من الوطن إلا حبه الذي يجري في عروقهم. ففي صبيحة ٥ شتنبر ١٩١٢، اشتبكت القوات الفرنسية المكونة من أربع مئة جندي بقيادة مونجان[٤٧] بقوات الهيبة

بسيدي عثمان. كانت قوات الهيبة رغم توفرها على طابور وعدد قليل من المدافع واثني عشر ألف من المشاة والفرسان، إلا أنها لم تكن توحي بأنها قوات منظمة، لقد كانت عبارة عن موسم[٤٨] نصفه من الأطفال والشيوخ[٤٩]، أغلبهم من العزل غير المسلحين إلا بحبال لتقييد الرومي، ولم يكن سلاح الفرسان سوى استعراض فخم لألعاب الفروسية، تلاشت مع أولى طلقات المدفعية والرشاشات الفرنسية الثمانية، أما باقي قوات الهيبة فقد اندحرت وتراجعت تحت حماس واندفاع الخيالة من السنغاليين والكوم.[٥٠]

ثالثًا: الثورة الوطنية المغربية بين الإنساني/ العلماني والميتافيزيقي/ الغيبي

إذا كانت الثورة الوطنية المغربية قد تمت في إطار الزمن العلماني، فإنها قد تلفعت بمسوح دينية مفارقة للواقع. هذه المفارقة بقدر ما وجدت لها بيئة حاضنة، تقبلت خوارقها ومعجزاتها واحتضنتها بحرارة، بقدر ما كانت موضع ريبة بعض المغاربة وسخرية المستعمر[٥١]. ويمكن تحليل التجربة الثورية لكل من الهيبة والحجامي على ضوء طرفي المعادلة: العلماني/الإنساني والميتافيزيقي/ الغيبي.

فالهبة الشعبية التي فصلنا في مفرداتها وفق تصورنا لمفهوم الثورة، سرعان ما دخلت في تشكل سياسي موحد تحت تأثير الشريف الحجامي، الشخصية الغامضة، المنحدرة من بني زروال، وأحد أتباع الطريقة الدرقاوية، وذلك في مرحلة الامتداد القبلي لثورة فاس وتحولها لثورة فلاحين. ونلمس هذا الانتماء للزمن الإنساني/ العلماني في أفقه المادي المحض، في قيادته لعمليات منظمة، منضبطة وفق تكتيك عسكري غاية في الإتقان. فقد تحصل كورو[٥٢] داخل خيمة الشريف، حين تم الاستيلاء عليها، في فاتح يونيو على سلسلة من الوثائق الدالة على وجود قيادة عسكرية حقيقية، وعلى نظام عمليات موضوع على أساس علمي دقيق[٥٣]، وهو الأمر الذي أثار دهشة ليوطي، فأبدى استغرابه برؤيته وللمرة الأولى لوثيقة عسكرية أهلية تتناول بشكل دقيق وبذكاء خططا تكتيكية تستجيب لضرورات واحتياجات الخطط العسكرية.

نلمس كذلك هذا الاستيعاب للإنساني/ العلماني، والرضوخ لمتطلباته في الثورة الوطنية المغربية في وجود قوات متلاحمة، ذات علم واحد، وروح واحدة، واجهت العمليات التي استهدفت فك الحصار عن فاس بقيادة كورو وفي الانضباط لتوجيهاته القائد بعدم نهب الفاسيين وعدم التعرض إلا للفرنسيين من الأجانب. لكن رغم هذه الجدة التي وسمت الثورة الوطنية المغربية، في معانقتها للعلماني في آخر محصلاته، إلا أننا عند فك رموزها، نجدها صناعة كلاسيكية، وإن اعتراها نوع من الفرادة، فقد ظلت ذات مضمون كلاسيكي، لأنها كانت ذات حمولة إيديولوجية جهادية مستندة على رؤية تقسم العالم إلى جزأين متضادين: دار الإسلام ودار الكفر. فهي لم تكن حركة مضادة للمخزن، سيبة يتولد من رحمها محاولة لبروز سلالة جديدة، فحتى ثورة الهيبة لم تكن واضحة فيما يتعلق بهذا الجانب كل الوضوح، فقد اعتراها التردد والتقية، اعتمدت خطابين مختلفين، فقد خاطب الشيخ العالم الخارجي وتعامل معه كسلطان، وخاطب وتعامل مع أتباعه وأنصاره كشيخ، وظل حتى وهو يتبنى جميع شارات السلطنة، يروج بين أصحابه أنه مجرد خليفة لأحد أبناء تافيلالت المنحدر من صلب نفس السلالة الحاكمة.[٥٤]

تميز الاستيعاب للإنساني العلماني في الثورة الوطنية المغربية بالضبابية، سواء تعلق الأمر بالمستوى السياسي أو العسكري، فثورة الحجامي كانت تعبيرًا عن اللايقين، عن التردد، وعن الانتظارية. فالحجامي لم يكن روكيا، وفي نفس الوقت لم يكن مرتبطا بالسلطان، أو متحالفا معه، ولكنه في نفس الوقت لم يشن هجومه على قصر السلطان[٥٥]. من هنا تلمس ضبابية موقف الحجامي، فهو لم يسعى إلى تغيير النسيج المجتمعي أو تغيير الهيكل السياسي، لقد كانت غايته القصوى تتمثل في التحرر لا الحرية، وهذه إحدى معضلات الثورة الوطنية المغربية لأنها لم تسر على خطى الثورات الكبرى التي استهدفت تحقيق التحرر والحرية[٥٦]. وتتعمق كلاسيكية الثورة الوطنية المغربية في ادعاء كل من الحجامي والهيبة للمهدوية، واعدان الأتباع بمنحهم القدرة على امتلاك أجساد فوق بشرية لا تتأثر بالرصاص وقذائف الكفار.

إن فقدان الثورة الوطنية المغربية لأهداف وغايات كبرى على شاكلة الثورات العظيمة التي عرفها التاريخ الإنساني، هو الذي دفع المؤرخ الفرنسي دانييل ريفي يرى في ثورة الحجامي، رغم اعترافه بفرادتها مجرد ثورة بدوية صرفة، ثورة فلاحين ضد كبار الملاك عبرت عن نفسها في غليان صاحب عرفته ضواحي فاس، وفي إحراق قرية بامحمد الشرقي ببلاد شراكة، وفي نهب مخازن الحبوب. ويستند في كونها مجرد ثورة بدوية، لا تخرج عن صراع بين الفقراء من الفلاحين المعدمين وكبار الملاك والبرجوازية الحضرية، على رد الفعل الرافض الفزع لهؤلاء، وهو

ما سجله أحد الضباط الفرنسيين، حين تحدث عن الصيحات التي تعالت حول باب جيسة، ليلة ٢٥-٢٦ ماي، بالشكر والامتنان للقوات الفرنسية بإنقاذها لمدينة فاس من الاكتساح البدوي، المهدد لممتلكاتهم بالسلب والنهب[٥٧]، وهي نفس الأجواء التي سجلتها الصحافة الفرنسية[٥٨]، وبذلك وضعت هذه الحوادث حدا لذلك الاتحاد النادر الذي عرفه شهر أبريل بين فاس ومحيطها القبلي.

من الملاحظات المسجلة حول الثورة الوطنية المغربية في تمزقها بين العلماني والغيبي هو هذه القواسم والقطائع بين مختلف مكوناتها، فثورة الحجامي شبيهة تماما بثورة الفشتالي "صيف ١٩١٢" وعلى طرفي النقيض مع ثورة الهيبة، فعلى الرغم من استنادهما على المرجعية الدينية بادعاء المهدوية للأول وإتيان أعمال السحر وبعض البهلوانيات وأعمال الخفة للثاني[٥٩]، وتنامي ثورتيهما البدوية إلا أنهما لم يستطيعا على المستوى العلماني خلق القطيعة والاستقلال بنفسيهما للخروج من الدائرة المكرورة النمطية للثورات البدوية ضد السلطة المركزية، وإن كانت ثورة الحجامي قد غيرت من أعدائها المستهدفين، إلا أن جوهرها لم يختلف عن الثورات المغربية المعتادة، فقد أبانت في أكثر من مرة على أنها مجرد ثورة ضد كبار الملاك وضد البرجوازية الفاسية، كما أبانتا على محدودية أفقهما السياسي. أما ثورة الهيبة فقد كانت أكثر وضوحا في أخذها بالعلماني على المستوى السياسي، إذ سعت إلى تغيير الهيكل السياسي، فقد تخلى الهيبة عن كل رموز العهد السابق، أحرق النزالات، وألغى الضرائب غير الشرعية، ولم يعترف بالظهائر الموقعة على عهدي المولى عبد العزيز و المولى عبد الحفيظ[٦٠]، في حين كان أقل علمانية على مستوى التخطيط العسكري مقارنة مع ثورة الحجامي، فقد تشكلت غالبية قواته العسكرية من الفلاحين والمعدمين والمساكين، وحتى عسكريوه فإن تكوينهم العسكري كان عتيقا لم يخرج عن التكوين الذي تلقاه الجيش المغربي على عهد المولى الحسن الأول. فالتعلق غير الواعي والمتذبذب بالعلماني للثورة المغربية جعلها شديدة الهشاشة والعطب، تعمقت جراحها بتعلقها بالغيبي المطلق، وفي استنادها على كاريزما القادة المهددة بالعطب، المعرضين لفقدان هيبتهم ما أن يتم تحول الثورة إلى دولة، ومن أسباب الضعف الكامنة في أعماق الثورة الوطنية المغربية كذلك قيامها على البركة، فقد كانت مطالبة باستمرار باجتراح المعجزات، مما جعلها موضع سخرية واستهزاء الخصوم[٦١].

فالتعلق بالغيبي والمطلق لعب فعلاً دورًا كبيرًا في منح الثورة الوطنية المغربية زخمًا وتألقًا في بداياتها، لقد حرر أعماق الشعب المغربي المصدوم بالاجتياح الفرنسي، تعلقت الأحلام بأسطورة السلطان المخلص، أسطورة تشبث بها الشعب المغربي كتعويض نفسي عن القهر والبؤس وسوء الحال المتعذر تجاوزه باتخاذ الأسباب المادية للتأخر التاريخي القاهر إزاء الخصم، لكن هذا التعلق الغيبي سرعان ما تحول إلى عبء ثقيل على الثورة حينما همت بالتحول إلى دولة، وقد كان الهيبة على وعي بهذه الخطورة لذلك ظل ملتبسا في تعامله مع الأتباع، وتعاظم هذا العبء عند الهزائم والانكسارات، فتعرضت بركة الهيبة لهزات عميقة دفعت به إلى تجنب الناس، والانعزال بعيدا عن الأعين، تاركا لأتباعه الحرية في تأول الأحداث ووضع التفسيرات لإقناع الجاحدين والمتشككين[٦٢].

إن انغراس الثورة الوطنية المغربية في الغيبي، وضعها على حافة الفشل، رغم أخذها بالأسباب المادية، وأحيانا بشكل واع، وارتباطها بالدنيوي في أكثر تجلياته وواقعيته المفرطة، فتحول ثورة الهيبة من ثورة إلى دولة بيروقراطية بمراكش جعلها مهددة بالاندثار، وكان الرجل على وعي بخطورة هذه المرحلة الانتقالية، كما تم الإشارة إلى ذلك من قبل. لقد كان حريصا على الحفاظ على شهر العسل الوهمي للثنائي المستحيل، الواقعي والمثالي[٦٣]، يتبين ذلك في تردده في اتخاذ شارات المخزن/ السلطان بشكل واضح لا لبس فيه، فقد توجه إلى العالم الخارجي كسلطان، وفي نفس الوقت حرص على التخلص تماما من مصطلحات ومفردات القاموس المخزني في تعامله مع شيوخ القبائل[٦٤]. حرص على استخدام مصطلحات ومفاهيم منحوتة من قاموس الإخاء والحب، وهي مصطلحات غريبة عن القاموس المخزني، قريبة من الأدبيات الصوفية، كما عامل دائرته الضيقة كأمير وليس كسلطان.

عانت الثورة في زمنها العلماني وهي تتحول إلى دولة من عدم التحاق النخبة العسكرية والمثقفة "العالمة" بها بمراكش، ولا يمكن تفسير تلكئها إلا بلعبها على الحبلين، فقد كانت تكتفي بالمحاباة والتعاطف، تحت ضغط الجماهير، وفي نفس الوقت لم تكن مستعدة للمجازفة بالورقة الفرنسية. هنا يطرح علينا سؤال لماذا لم يمارس مخزن الهيبة جاذبيته على النخبة الحضرية، واكتفى بالمنخرطين في سلك الجندية من ذوي الرتب الصغيرة، ومن أتباع الطرقية، وأبدى كبار التجار، إزاء الثورة، نفورهم أو كراهيتهم أو على الأقل انطووا على مشاعرهم المكبوتة[٦٥]. في رأينا أن عجز الثورة الوطنية المغربية عن

التحول إلى دولة واجتياز المرحلة الانتقالية بين الثورة والدولة بنجاح وتحقيق أهدافها في الحرية والتحرر يرجع إلى عجزها عن التوفيق بين العلماني/ الإنساني والميتافيزيقي/ الغيبي، فالهيبة مثلا كان في تعاملاته لا يحتكم إلا إلى السيف/ السلاح الذي لم يتقن أبجدياته الحديثة، فخانه في معركة سيدي بوعثمان، ولم يعترف بأهمية التفاوض مع الخصم لأنه لم يكن سلطانا، ولأن التفاوض مع الجيوش الغازية يعد خيانة في أعين الثوار[٦٦] المتعلقين بمثاليات الثورة وقداستها.

رابعًا: علاقة العواطف المسيطرة على وجدان الشعب باندلاع الثورة الوطنية المغربية

أشرنا فيما سبق إلى أن ثورة فاس قد افتقدت القيادة والتخطيط، وتحكمت فيها العواطف المتأججة، التي سيطرت على المغاربة، إثر توقيع عقد الحماية، وفقدان البلد لسيادته لصالح دولة أجنبية، إلا أن امتداد الثورة خارج إطارها الحضري لتخترق المحيط القبلي، كانت عبارة عن منعطف جديد، اجتازته الثورة وهي تعبر مرحلة انتقالية من ثورة تلقائية إلى ثورة مخطط لها وذات قيادة. وترجع الصحافة الفرنسية هذا الامتداد الثوري إلى القلق النفسي وهيجان الخواطر بسبب الدماء الكثيرة التي أريقت بفاس[٦٧]، والأكيد أن الثورة حين أصبحت تحت قيادة الحجامي، المدعي للمهدوية، ومع تشكل حركة من حوالي ثلاثة ألف مقاتل نواحي تازة[٦٨]، وأخرى لا تقل أهمية بناحية صفرو[٦٩]، وانشقاق طابور عرباوة والتحاقه بقبائل جبالة[٧٠]، تجعلنا نقول إن هذه التحركات كانت تخضع في اندفاعاتها لقوة تتعالى على مجرد مشاعر السخط والغضب، وإنما تدين في ذلك لمرجعية إيديولوجية يمكن أن نطلق عليها الإيديولوجية الجهادية[٧١].

قد تدين الثورة في بداياتها، حينما كانت ثورة حضرية، إلى مشاعر الغضب والسخط المحض، الذي كان وراء هذا السيل العرم من شتى ألوان الطيف المجتمعي الذي اكتسح المدينة، لكن الإيديولوجية الجهادية كانت وراء تعبئة الجماهير داخل القبائل، خاصة وأن الثورة أصبحت تحت قيادة رجل ادعى المهدوية، فالشعور الوطني هنا أصبح ذا مسحة دينية واضحة، هذا الشعور الديني سوف يتعمق مع اندلاع ثورة الهيبة بالجنوب. دليلنا في اتخاذ الثورة من الإيديولوجية الجهادية مرجعا منه تستمد الشرعية، أن المغرب كله كان قبلها وبعدها على أهبة الاستعداد يضم سلاحه على صدره، حابسًا أنفاسه في انتظار إشارة السلطان لانطلاق الجهاد.

نلمس احتكام الثورة في تأطيرها لمرجعية الوطنية الجهادية، أنها على الرغم من مظاهر الغضب الحاد، الذي طغى على صفوف الجماهير، إلا أنه كان مؤطرًا بشكل جيد. فقد توجه الغضب الشعبي، واتخذ هدفًا له الفرنسيين والجزائريين العاملين في صفوف قوات الاحتلال والمغاربة المرتبطين بالاستعمار، فلم يسجل ترهيب مغربي واحد من سكان المدينة أو من الأوروبيين غير الفرنسيين. ورغم ذلك فإن دانييل ريفي يقلل من نقائها الثوري ومن طهرانيتها، فجعلها لا تخرج عن دائرة التمردات، التي كانت تشهدها البوادي المغربية، بشكل دوري، ضد السلطة المركزية[٧٢]. ومن المفارقات العجيبة التي يخرج بها المؤرخ الفرنسي عن ثورتي فاس والحجامي، اللتين نعتبرهما ثورة واحدة، أنه على الرغم من نفيه لعنصري القيادة والإيديولوجيا عن الأولى إلا أنه يسمها بالثورة، ويرى عكس ذلك بالنسبة لثورة الحجامي، يراها جهادا في لبوس ثورة، فهو ينفي عنها النفس الثوري على الرغم من توفرها على عنصري القيادة والإيديولوجيا، وبالتالي فهي ذات فعل واع، ويجعلها مجرد تمرد ضد الحكم الأجنبي المركزي، لا تخرج عن دائرة التمردات القبلية، رغم اتخاذها للأجنبي المحتل هدفا لها. فما الذي يجعله يقف منها هذا الموقف، ربما يرجع ذلك في نظرنا إلى سيطرة فكرة المهدوية عليها، وشطرها للعالم إلى شطرين، في صورة مانوية مبسطة، رغم تنبهه إلى أن الحجامي لم يجعل هدفا لثورته سوى المعتدين، بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والدينية، لقد استعدى رجاله على الجزائريين والمغاربة المسلمين المتواطئين مع المحتل، وسالم الأجانب من غير الفرنسيين، إن هذه النظرة الإنسانية المتعالية على الأحقاد التاريخية المتولدة عن الحروب الصليبية، لم تستدر تعاطفه، لأنها ببساطة هددت الوجود الفرنسي الوليد وكادت أن تقتلع جذوره.

إذا كان اندلاع الثورة يرتبط بطبيعة العواطف المسيطرة على وجدان الشعب أو الجماهير[٧٣]، فإن هذا العنصر نجده بارزا كل البروز، يفعل فعله في تأجيج الثورة الوطنية المغربية. فالخوف الذي دب في قلوب ساكنة فاس، وهم يرون السلطان يغادر مدينتهم صوب الرباط، وخشيتهم من تحويل الرباط عاصمة للمغرب عوضا عن فاس، كان وراء تأجيج غضبهم اتجاه الحماية، لتخوفهم من غياب الوسيط، ممثلا في السلطان، بينهم وبين المستعمر، وخشيتهم من وجودهم وجها لوجه مع السلطة العسكرية، التي لامسوا عن قرب مدى قسوتها وغطرستها، وغياب الحس السياسي لدى قادتها. امتزجت

مشاعر الخوف بشعور وطني لا يزال في مرحلته الجنينية، ذي مسحة دينية، وتعلق بالمكان، لا نستطيع تحديد طبيعة العلاقة ودرجة الحدود الفاصلة بينهما[٧٤].

ساد المدينة كلها شعور بالعزلة المطلقة، وأنها تركت وحيدة في مواجهة مصيرها، عند خروج السلطان، فكان رد فعلها عنيفا قاسيا، فارتدت على نفسها في جنون تلتهم روحها. فقد استحوذ على الشعور الجمعي للمغاربة كون فاس المقدسة قد دنست بدخول المحتلين، وبخروج السلطان منها، فلا حرج إن تم تدميرها إلى آخر حجر فيها في عملية تطهر روحي عنيف، هستيريا جماعية، لقد كانت أكثر من مجرد تمرد حضري، كانت ثورة وجدانية ومادية عنيفة. يمكننا ملامسة طبيعة المشاعر وهيجان الخواطر، التي كانت وراء اندلاع الثورة المغربية في تمثل مشاعر العناصر الفاعلة في الثورة، وفي علاقة طبيعة المشاعر باهتزاز وضعها الاجتماعي:

-الفيلاليون: الذين رأوا في المس بالسلطان مسا بكرامتهم لانحدارهم من نفس السلالة؛

-السكان المهجرون من قصبة شراردة، لتوطين الطابور الفرنسي. ويمكن هنا تمثل مدى الإحساس بالغبن والغربة والمنفى داخل الوطن، الذي استحوذ عليهم، بسبب الاجتثاث الممارس عليهم من طرف الدخلاء؛ -نساء العساكر المتخوفات على مصير أزواجهن[٧٥]؛

-العساكر الذين رأوا في الإصلاحات تدميرا لهويتهم الجمعية، وتغييرا لولائهم من الولاء للسلطان إلى الولاء للمؤسسة العسكرية، التي كانت تستهدفها الإصلاحات، وحفاظًا على تلك الهوية ربطوا مصيرهم بمصير السلطان، وطالبوا في بداية الثورة بحماية السلطان وتحريره من قبضة الفرنسيين، ثم نادوا فيما بعد بمرافقته إلى الرباط، وحين تأكدوا أن السلطان لا يعدو أن يكون مجرد واجهة للاحتلال، اندفعوا في ثورة عنيفة يجللها اليأس والقنوط.

أما بالنسبة لثورة أحمد الهيبة، فقد كانت المشاعر الدينية واضحة كل الوضوح، لوجود شخصية دينية على رأسها، تحيط بها هالة من الوقار لانتمائه الشريف، وخضوع زاوية كبيرة لنفوذه الروحي[٧٦]، ولادعائه المهدوية. تنامت هذه المشاعر في تسام مطلق مع طبيعة الذهنية الخرافية السائدة يومئذ، ثم تعززت مع دخول المخزن في مفاوضات مع الجيش الغازي، الأمر الذي يعد خيانة من الناحية النفسية[٧٧]، فانعكس ذلك على طبيعة أنصاره، الذين لم يكونوا إلا من المساكين والمعدمين والفقراء، في الوقت الذي اتخذت النخبة العسكرية والمخزنية وكبار التجار موقف المتعض والمرتقب، باستثناء النخبة العالمة[٧٨]، وكانت هذه الذهنية الخرافية سببا في الانهيار السريع لحركته عند أول صدام مع قوات الاحتلال الفرنسي، في معركة سيدي بوعثمان، التي على إثرها تلاشت الجموع وتبخرت، وكان أول المتخلين عنه "مخزنه"، ولم يكن باعتقادنا أن انهيار ثورة الهيبة نتيجة لتحولها إلى دولة، كما يذهب إلى ذلك دانييل ريفي[٧٩]، وإنما السبب هو سيادة الذهنية الخرافية بين صفوف أنصاره، البعيدة كل البعد عن جوهر الإسلام في نقائه وتجرده.

رزح المغاربة تحت وطأة مشاعر الإحساس بالقهر والعنت، فخلال صيف ١٩١٢، عانت أغلبية الشعب المغربي من انهيار نفسي عميق، وانتابته حالة من حالات فقدان الهوية، وانهيار منظومة القيم، فأصبح الجميع أمام أزمة أخلاقية ووجودية بالدرجة الأولى. غمرت موجة اليأس حتى كبار الشخصيات، من النخبة المثقفة/ العالمة والتجارية، فرسالة أحد كبار الملاك[٨٠]، التي اعترضت مصلحة الاستعلامات الاستعمارية طريقها، قبل أن تصل مجلة الحق، تنضح بالمرارة، كانت صرخة موجعة عاجزة. ونفس الرؤى القيامية نجدها عند المختار السوسي[٨١]، وفي أسفل المجتمع سيطرت حالة من القلق الجماعي، غذتها الثقافة الشعبية السائدة عن دنو ساعة الفناء، وتعمقت هذه المشاعر بالاختلالات التي كان يمور بها المجتمع المغربي.

خامسًا: تحليل النتائج

يتبين من خلال تشريح الثورة الوطنية المغربية، أنها تشترك مع الثورات الكبرى في خصائص وتختلف عنها في أخرى. فالصراع الطبقي، الذي يعد أحد أهم محركات الثورة[٨٢]، يظل حاضرًا في ثورة فاس، التي يرى فيها دانييل ريفي ثورة فلاحين معدمين فقراء ضد كبار الملاك وضد البرجوازية الفاسية، كما لقيامها علاقة بانحطاط الطبقة الحاكمة[٨٣]، ويتعمق هذا الانحطاط بدخول الأخيرة في مفاوضات مع الجيش الغازي، مما يعد خيانة من الناحية النفسية، ومن مؤشرات هذا التدهور عدم قدرتها على استخدام القوة بمهارة لقمع المنتفضين[٨٤]، وهو ما دفع السلطان المولى عبد الحفيظ "١٩١١" للاستعانة بجيوش الاحتلال[٨٥]، ناهيك عن ارتباطها بطريقة جمع الضرائب وفرضها. فبالرجوع إلى المصادر الكولونيالية، يتبين لنا وحشية وعنف الدولة في الجبايات، التي تبلغ أحيانا حد قتل الرجال واغتصاب النساء[٨٦]. ونلمس هذا التشابه في تحول مظاهرات الشوارع والانتفاضات إلى ثورة[٨٧]، في ثورة فاس حين خرجت من إطارها الحضري، فأصبح لها برنامج عمل لتحقيق أهدافها وغاياتها، وكان في اعتناق وانحياز المولى الكبير[٨٨]، ابن عم

السلطان، لقضايا الفئات الساخطة والمقهورة[٨٩]، مؤشرا على حدوث انقلاب في الوضع القائم، وهو الذي جسدته سرعة امتدادات الثورة، لتشمل المغرب الشرقي وآسفي وقبائل الرحامنة والسراغنة[٩٠] ودكالة والشاوية وعبدة ونواحي فاس وتازة، وبلغ الانقلاب ذروته بقيام ثورة الهيبة بطموحها لتحقيق تغيير جذري مستغلة توقف دوران النخبة لكسب الساخطين إلى جانبها[٩١]، فكان أولى الأعمال التي باشرها الهيبة، قيامه بعزل قياد المخزن وتعويضهم بآخرين من اختيار الجماعات، التي كان يؤسسها في كل منطقة أخضعها لنفوذه[٩٢]، إلا أن عطبها و عجزها عن الارتقاء إلى مصاف الثورات الكبرى، فيتمثل في عدم قدرتها على استمالة كبار العسكريين، مكتفية بأصحاب الرتب الدنيا، كما أشرنا من قبل، وبمن هم تحت السلم الاجتماعي من الأطفال والشيوخ والنساء، ممَنْ تعوزهم التجربة والخبرة، والشيخ نفسه كانت المرحلة تتجاوز قدراته الإنسانية، فلم يمتلك القدرات الذهنية للتجار أو الخبرة الدبلوماسية للسلطان في التفاوض، وهي مرتكزات لا غنى عنها في نجاح الثورة[٩٣]، وفوق هذا فقد كان رجل دين ولم يكن رجل سلاح[٩٤]، وجد نفسه مجبرًا على حمل الإرث الثقيل لعائلته بحكم الدم والانتساب البيولوجي، وقد ساعدته ثقافته الدينية على أن يكتسب إحدى صفات الثوري في قدرته على الحشد واستمالة الأتباع والأنصار في بدايات الثورة، لكن مع دخولها طور العمل المباشر والمواجهات الدموية، يجد رجال الكلمات صعوبة في التأقلم مع العمل الشاق، بل لا يصلحون له[٩٥].

يبقى السؤال أين تتقاطع وتختلف الثورة الوطنية المغربية مع الثورات كما تم التنظير لها في الأدبيات الغربية المهتمة بدراسة ظاهرة الثورة في التاريخ الإنساني، خاصة الأوروبي والأمريكي. فحنة أندرت ترى أن الثورة أكثر من مجرد تمردات ناجحة[٩٦]، ترى ماذا تعني بذلك؟ دون شك تقصد أنه لا يمكن الحديث عن الثورة إلا حين يحدث التحول، ويكون بمعنى بداية جديدة، وعليه فإننا لا يمكن أن نطلق صفة الثورة على أي شكل من أشكال العنف، إذ لابد أن يرافق هذا العنف أو أن ينتج عنه حدوث تغيير ما. تغيير في النسيج المجتمعي أو في الهيكل السياسي، في هذه الحالة ماذا يمكن أن نقول عن الثورة الوطنية المغربية؟ الواقع على أن هذا الشكل من التغيير والتحول لا نجده إلا فيما يتعلق بالثورة الوطنية بالجنوب المغربي، بقيادة الشيخ أحمد ماء العينين، حقا أن الهيبة كان يعتبر عصره امتدادًا لعصر المولى الحسن الأول، والواقع أن هذه الاستدارة إلى الوراء لا تشين ثورة الهيبة في شيء، فهذا التطلع إلى استرجاع الماضي، حيث كانت الأمور كما يجب أن تكون[٩٧]، تظل قاسما مشتركا بين جميع الثورات بما فيها الثورة الأمريكية والفرنسية، لكننا نسجل هنا أن الثورة الوطنية المغربية هي أكثر شبها بثورات العصور القديمة، فالحاكم المغربي كان لابد أن يولد حاكمًا، وأن ينحدر من سلالة النبي، فقد رأينا كيف أعلن الهيبة أنه مجرد خليفة لأحد المتواجدين بتافيلالت والمنحدر من صلب السلالة الحاكمة[٩٨]، فصدى الثورات القديمة وتشابهها مع الثورة الوطنية المغربية أكثر وضوحًا مقارنة مع الثورات الحديثة[٩٩].

من معيقات الثورة الوطنية المغربية، مقارنة مع الثورات الحديثة، وعدم نضجها أنها على المستوى الذهني ظلت حركة اعتيادية، فاللغة السياسية المغربية لم تشهد تطورًا يذكر لقد ظلت رهينة المرجعية الدينية القائمة على ثنائية دار الكفر ودار الإيمان، وحتى التطورات الطفيفة التي شهدتها ثورة الحجامي، في استيعابها للبعد الإنساني في تعاملها مع الخصوم، لم تصمد كثيرًا أمام ثقل الإرث التاريخي، فسرعان ما أبانت على أنها لا تختلف في شيء عن التمردات البدوية السابقة، حين انحدرت في طريق السلب والنهب، لأنها كانت مطبوعة بالعشوائية، لضبابية الخصم. فإذا كان موقفها واضحا من السلطة الاستعمارية الدخيلة، فإن الموقف من المخزن، كحكومة محلية غير مناسبة، ظل مشوبا بالتردد والغموض، حتى في حالة ثورة الهيبة، التي كان يجب أن تكون أكثر وضوحا. سؤال آخر يطرح نفسه علينا ونحن نقارن بين الثورة الوطنية المغربية والثورات الكبرى، أية صفة هي تلك التي يمكن أن تنعث بها الثورة الوطنية المغربية؟ هل هي ثورة شعبية أم ديمقراطية؟ الواقع أن كلتا الصفتان تنطبقان، إلى حد ما، على الثورة الوطنية المغربية، مادمنا أمام أكثر من وجه لها. فالثورة الوطنية التي شهدتها فاس ونواحيها يظل المنحى الشعبي فيها أكثر وضوحا، لأن العنصر الغالب على فاعليها هم العامة/ الغوغاء[١٠٠]، في حين استهدفت ثورة الهيبة تحقيق بعض المكاسب الديمقراطية، إذ بالإضافة إلى استهدافها تحقيق التحرر من الأجنبي، استهدفت خلق مجتمع نموذجي وفق المثل العليا للإسلام، عن طريق تغيير النخبة السياسية المتحكمة والمعينة من طرف السلطة المركزية، وتعويضها بأخرى يتم اختيارها من طرف الجماعة، أما على المستوى الاقتصادي فقد أحرقت التزالات، رمز الاستغلال، وألغت الضرائب غير الشرعية، ربما يرجع هذا التميز إلى نمط التنظيم السوسيوسياسي المؤسس على المساواة والمشاركة، الذي ساد الجنوب المغربي[١٠١]. فتحقيق الحرية والتحرر

متضمنان، إلى حد ما، في ثورة الجنوب المغربي، ما دامت قد استهدفت التحرر من نير المستعمر ومن تجاوزات المخزن[١٠٢]، وتجلى تحقيق الحرية في تبني مبدأ الحق في المشاركة في الحياة السياسية للسكان المحليين من خلال حرية اختيار ممثليهم، وبالتالي خلق شكل جديد في الحكم[١٠٣].

جدول رقم (١) **مراحل الثورة الوطنية المغربية ومميزاتها**

اختبار	نتيجة ١	نتيجة ٢	نتيجة ٣
ثورة الهيبة	القدرة على استقطاب العامة وصغار النخبة	محاولة بناء الدولة	الفشل في تحقيق التحول من الثورة إلى الدولة نتيجة الضعف العسكري وغلبة الديني على الدنيوي
ثورة فاس	الانتقال من تمرد مطلبي إلى ثورة حضرية	تعميم الثورة خارج فاس لتشمل باقي مناطق المغرب	عدم القدرة على الاستمرارية لافتقادها القيادة والإيديولوجيا معا
ثورة الحجامي	ثورة فاس في امتدادها القبلي	تبلور الإيديولوجيا والتوفر على القيادة	الفشل في تحقيق الأهداف لضبابية المواقف

خاتمةٌ

قدمنا عرضًا مفصلاً لثلاث ثورات وطنية مبكرة شهدها المغرب بفعل الضغط الخارجي وانتكاس السلطة المركزية وجورها. حاولنا في هذا العرض أن نرصد مكامن الضعف والقوة في كل واحدة منها. ومن أجل فهم أعمق لهذه الظاهرة حاولنا أن ندرسها باعتماد المنهج المقارن بدراستها في ضوء التجارب الثورية الكبرى، مما ساعدنا على إبراز بعض خصائصها، التي جعلتها تسموا على أن تكون مجرد عنف أعمى دوري، ضد السلطة المركزية، طالما ميز التاريخ المغربي أو مجرد مقاومة للأجنبي المحتل. وبينا كيف إنه على الرغم من اشتراكها مع الثورات الكبرى في بعض الخصائص من مثل توفر بعضها على القيادة والإيديولوجيا وطبيعة العواطف المسيطرة على جماهيرها، فقد عجزت عن تحقيق أهدافها، خاصةً فيما يتعلق بالانتقال من الثورة إلى الدولة، لعدم اجتماع كل شروط النجاح لواحدة من تلك الثورات الثلاث هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها على الرغم من أخذ بعضها، كمثيلاتها الدولية، بالتخطيط والاستراتيجي والعلماني إلا أن غلبة الميتافيزيقي/ الغيبي عليها واحتكامها إليه، بادعائها استمدادها العون من قوى الغيب، من أجل التعبئة وحشد الجماهير، ترسبت بذور انحلالها وتفككها في أعماقها منذ البداية، حينما عجزت عن اجتراح المعجزات، وعاندتها الصدف التاريخية. وعلى الرغم من كل ذلك فلهذه الثورات فرادتها التي تجعلنا نقول مطمئنين بأن هذه التجارب التاريخية الثلاث كانت أكثر من مجرد مقاومة وأقرب إلى الثورة بمعناها المفهوم في الأدبيات الغربية المنظرة لهذه الظاهرة الإنسانية.

الاحالات المرجعية:

(1) Jaques Hubert

(2) Le Matin

(3) La Dépêche Marocaine, Récits d un témoin, Un dahir de Moulay Hafid aux soldats chérifiens, 8(ème) année – N°2226, Tanger, mercredi 3 mai 1912, p ,1.

(4) La Dépêche Marocaine, Les Journées de Fez, 8(ème) année – N°2224, Tanger, mercredi 1 mai 1912, p ,1.

(5) La Dépêche Marocaine, La Situation à Fez et dans les tribus, 8(ème) année – N°2234, Tanger, samedi 11 mai 1912, p ,1.

(6) La Dépêche Marocaine, La Situation à Fez et dans les tribus, 8(ème) année – N°2234, Tanger, samedi 11 mai 1912, p ,1.

(7) La Dépêche Marocaine, Récits d un témoin, Un dahir de Moulay Hafid aux soldats chérifiens, 8(ème) année – N°2226, Tanger, mercredi 3 mai 1912, p ,1.

(8) Rivet, Daniel , **Lyautey et l'institution du protectorat Français au Maroc 1912-1925**, Tome 1 , Editions L Harmattan, Paris, 1988 ,p,129.

(9) Ibid.

(10) La Dépêche Marocaine, L enquête officielle sur les événements de Fez, 8(ème) année – N°2228, Tanger, dimanche 5 mai 1912, p ,2.

(١١) وهي عبارة عن مقالات لجرائد فرنسية واكبت الأحداث.

(12) La Dépêche Marocaine, A Fez, Par Radio télégramme « de notre envoyé spécial » Fez, 14 juillet « matin », 8(ème) année – N°2296, Tanger, mardi 16 juillet 1912, p ,1.

(١٣) لمعرفة كيفية خدمة الحماية لمصالح البرجوازية الفاسية يمكن الرجوع إلى:

Yakhlef ,Mohammed , **La Municipalité de Fez à l'époque du protectorat 1912-1956** université libre de Bruxelles , Faculté de philosophie et lettres ,institut de langues et civilisations orientales ,thèse de doctorat d'état en histoire contemporaine du Maroc sous la direction de Robert Anciaux 1990 ,tome 3, p ,180 et Gruner ,Roger, **Du Maroc traditionnel au Maroc moderne** ,le contrôle civil au Maroc 1912-1956 nouvelles éditions latines ,Paris ,1984 ,p ,161.

(١٤) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**، ترجمة سمير الجلبي، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، دار الفارابي، ص ٦٨.

(15) La Dépêche Marocaine, Autour de Fez, 8(ème) année – N°2238, Tanger, mercredi 15 mai 1912, p ,1.

(16) La Dépêche Marocaine, La situation à Fez L agitation dans les tribus, 8(ème) année – N°2240, Tanger, samedi 18 mai 1912, p ,1.

(17) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 132.

(18) La Dépêche Marocaine, Après la mutinerie, 8(ème) année – N°2226, Tanger, vendredi 3 mai 1912, p ,1.

(19) Rivet, Daniel, Lyautey et l'institution...op, cit, p ,133.

(20) Aubert

(21) Rivet, Daniel, Lyautey et l'institution...op, cit, p, 136, « Référence 563 ».

(22) Ibid., p, 136.

(23) La Dépêche Marocaine, Dans le Sous, 8(ème) année – N°2300, Tanger, lundi 22 juillet 1912, p ,1.

(24) La Dépêche Marocaine, Les Faits et gestes d Ahmad El Hiba, 8(ème) année – N°2304, Tanger mercredi 24 juillet 1912, p ,1.

(25) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 136.

(26) La Dépêche Marocaine, La Semaine Marocaine, 8(ème) année – N°2302, Tanger, lundi 22 juillet 1912, p ,1.

(27) Rivet, Daniel, **Lyautey et l institution**...op, cit, p137.

(28) La Dépêche Marocaine, Dans le Sud, Les émissaires d Ahmad El Hiba sont repoussés, 8(ème) année – N°2318, Tanger, mercredi 7 aout 1912, p ,1.

(29) La Dépêche Marocaine, La situation dans le sud, 8(ème) année – N°2322, Tanger, mercredi 11 aout 1912, p ,1.

(30) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p ,137.

(31) La Dépêche Marocaine, Aux prises avec le sultan bleu, 8(ème) année – N°2337, Tanger, lundi 26 aout 191, p ,1.

(32) Montagne, Robert, **Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc**, Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires « groupe chleuh » Librairie Félix alcan, Paris ,1930.

(33) La Dépêche Marocaine, L attitude équivoque de Moulay El Kabîr, 8(ème) année – N°2285, Tanger, vendredi 5 juillet 1912, p, 2.

(34) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 130.

(35) La Dépêche Marocaine, La semaine Marocaine, 8(ème) année – N°2302, Tanger, lundi 22 juillet 1912, p ,1.

(36) La Dépêche Marocaine, L opinion publique, 8(ème) année – N°2203, Tanger, mercredi 10 mai 1912, p ,1.

(37) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p 130.

(38) La Dépêche Marocaine, Après la mutinerie, 8(ème) année – N°2226, Tanger, vendredi 3 mai 1912, p ,1.

(39) La Dépêche Marocaine, La situation dans le Protectorat, 8(ème) année – N°2453, Tanger, lundi 23 décembre 1912, p, 1.

(40) La Dépêche Marocaine, Le Prétendant du Sud, 8(ème) année – N°2291, Tanger, jeudi 11 juillet 1912, p ,1.

(41) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p ,131.

(42) La Dépêche Marocaine, La situation de Moulay Hiba, 8(ème) année – N°2320, Tanger, vendredi 9 aout 1912, p ,1.

(43) La Dépêche Marocaine, Dans le Sud, « par radio télégramme » de notre correspondant particulier, Mogador 14 juillet, 8(ème) année – N°2297, Tanger, mercredi 17 juillet 1912, p ,1.

(44) La Dépêche Marocaine, Le caïd Trai, Protégé espagnole, 8(ème) année – N°2322, Tanger, dimanche 11 aout 1912, p ,2.

(45) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p ,142.

(46) Ibid.

(47) Mangin.

(٤٨) تشبيها لها بالمواسم السنوية التي تقام بمختلف مناطق المغرب بالقرب من أضرحة من يعتقد بصلاحهم وولايتهم.

(49) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p ,143.

(50) Ibid.

(51) La Dépêche Marocaine, Les Faits et gestes d Ahmad El Hiba, 8(ème) année – N°2304, Tanger, mercredi 24 juillet 1912, p ,1.

(52) Gouraud.

(53) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p ,135.

(54) Gerlier, H, La Dépêche Marocaine, La Marche sur Marrakech, 8(ème) année – N°2339, Tanger, mercredi 28 aout 1912, p ,1.

(55) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p ,135.

(٥٦) سوف نتطرق لمسألة الحرية والتحرر في الثورة الوطنية المغربية في محور الخلاصات والاستنتاجات.

(57) Rivet, Daniel, Lyautey et l'institution ...op, cit, p ,135.

(58) La Dépêche Marocaine, La Semaine Marocaine, 8(ème) année – N°2229, Tanger, lundi 6 mai 1912, p ,1.

(59) La Dépêche Marocaine, Les origines du Rogui, 8(ème) année – N°2293, Tanger, samedi 13 juillet 1912, p ,2.

(60) La Dépêche Marocaine, La situation de Mouley Hiba, 8(ème) année – N°2320, Tanger, vendredi 9 aout 1912, p ,1.

(61) La Dépêche Marocaine, Les faits et gestes de Mohamed Hiba, 8(ème) année – N°2304, Tanger mercredi 24 juillet 1912, p ,1.

(٦٢) للاطلاع على بعض التفسيرات التي أشاعها أنصار الهيبة لتبرير الهزائم وقوبلت من طرف الشيخ بالصمت يمكن الرجوع إلى دانييل ريفي الصفحة ١٤٠.

(٦٣) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**،....، ص ١١٦.

(64) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p ,141.

(٦٥) تم التفصيل في ذلك من قبل.

(٦٦) برينتن، كرين، **تشريح الثورة** ....، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(67) La Dépêche Marocaine, La Situation à Fez et dans les tribus, 8(ème) année – N°2234, Tanger, samedi 11 mai 1912, p ,1.

(68) La Dépêche Marocaine, La possibilité d une Marche sur Taza, Un article du «Siècle », 8(ème) année – N° 2237, Tanger ,mardi 14 mai 1912 ,p ,1.

(69) La Dépêche Marocaine, Autour de Fez, 8(ème) année – N° 2238,Tanger ,mercredi 15 mai 1912 ,p ,1.

(70) La Dépêche Marocaine, Après la mutinerie, 8(ème) année – N° 2226, Tanger, vendredi 3 mai 1912, p ,1.

(٧١) يرى دانييل ريفي أن ثورة فاس قد افتقدت القيادة والإيديولوجيا معا، ونحن نتفق معه في ذلك لكن خلال مرحلتها الحضرية، وبالضبط خلال شهر أبريل، للاطلاع على موقف دانييل ريفي يمكن الرجوع إلى:

Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution** ...op, cit, p ,131

(72) Rivet, Daniel,....op, cit, p ,131.

(٧٣) رينتن، كرين، **تشريح الثورة**، ....، مرجع سابق، ص ٩٤.

(74) Pour bien comprendre les fondements du nationalisme marocain, Voir : Laroui, Abd Allah, **Esquisses historique**, Centre Culturel Arabe, 1993, de p, 135 à 145.

(75) Rivet, Daniel, ...op, cit, p131,

(76) La Dépêche Marocaine, Dans le Sous, 8(ème) année – N° 2300, Tanger, samedi 20 juillet 1912, p ,1.

(٧٧) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**....، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٧٨) نموذج المختار السوسي.

(79) Rivet, Daniel,...op, cit, p ,141.

(80) Rivet, Daniel,...op, cit, p ,13٨.

(81) Ibid.

(٨٢) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**....مرجع سابق، ص ٨٢.

(٨٣) نفسه....، ص ٨٤.

(٨٤) نفسه،....، ص ١٢٧.

(85) Laroui, Abdallah, **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830-1912**, Centre Culturel Arabe 1993, p ,401.

(86) La Dépêche Marocaine, L Armée Chérifienne, 8(ème) année – N° 2235, Tanger, dimanche 12 mai 1912, p ,2

(٨٧) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**، ....، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(88) La Dépêche Marocaine, L attitude équivoque de Moulay El Kabîr, 8(ème) année – N°2285, Tanger, vendredi 5 juillet 1912, p, 2

(٨٩) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**، ....، مرجع سابق، ص ٨٦.

(90) La Dépêche Marocaine, La Situation dans le Sud, 8(ème) année – N°2237, Tanger, mardi 14 mai 1912, p ,2.

(٩١) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**...، مرجع سابق، ص، ٩٩.
(92) Rivet, Daniel,...op, cit, p ,139.
(٩٣) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**..، مرجع سابق، ص، ١٢٧.
(94) La Dépêche Marocaine, Faut – il négocier avec El Hiba, 8(ème) année – N°2342, Tanger, samedi 31 aout 1912, p ,2.
(٩٥) برينتن، كرين، **تشريح الثورة**..، مرجع سابق، ص، ١٦١.
(٩٦) أرندت، حنة، **في الثورة**، ترجمة عطا عبد الوهاب، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، سبتمبر٢٠٠٨، ص،٤٦.
(٩٧) نفسه، ص، ٦٠.
(98) La Dépêche Marocaine, Gerlier, H, La Marche sur Marrakech, 8(ème) année – N° 2339, Tanger, mercredi 28 aout 1912, p ,1.
(٩٩) تحدد حنة أرندت مجموعة من الشروط لكي يصبح المرء حاكمًا، إذ لا يكفي أن يقوم بتمرد ناجح لتحقيق الوصول إلى السلطة وممارستها فلابد له من أن يولد حاكما، وأن يولد حرًا في العصر القديم؛ وأن يكون من النبلاء في أوروبا الإقطاعية، انظر: أرندت، حنة، **في الثورة**.... مرجع سابق، ص، ٥٥
(100) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 127.
(101) La Dépêche Marocaine, Robert de Caix, Un Aperçu du Grand Atlas, 8(ème) année – N° 2191, Tanger, mercredi 27 mars 1912, p ,1.
(١٠٢) يمكن الرجوع إلى دانييل ريفي للاطلاع على التجاوزات التي مارسها المولى عبد الحفيظ، قبل الاحتلال الفرنسي، ضد سكان ضواحي مدينة فاس، الذين اغتصب منهم أجود وأخصب أراضيهم الفلاحية.
(١٠٣) لمزيد من التفصيل لمعرفة الفرق بين مفهومي الحرية والتحرر يمكن الرجوع إلى حنة أرندت، **في الثورة**، الصفحات من ٣٨ إلى ٤٧.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

النمط التأليفي في الكتابة الإخبارية المغربية
خلال العصر الحديث



محمد المنتفع
أستاذ باحث في التاريخ الحديث
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
جهة كلميم وادنون – المملكة المغربية

مُلَخّص

يروم هذا المقال إلى الكشف عن أهمية كتب الإخباريين المغاربة وقيمتها التاريخية خلال العصر الحديث، باعتبارها مواد مصدرية ثمينة في الكتابة التاريخية في مستوياتها المختلفة، فهي تتميز بتحريها لمواضيع متنوعة، وبانتظام أسلوبها في الكتابة، إذ تعرض الحدث ثم تعقبه بذكر التفاصيل، وتتناول التواريخ واحدة بعد أخرى حسب تسلسلها التاريخي، وتقف على مواضيع سياسية وإدارية واقتصادية وديمغرافية وثقافية، ولا تغفل الظواهر التاريخية مثل الجفاف ودورية المجاعات والأوبئة وارتفاع أسعار الحبوب وغلاء المعيشة وآثارها الاجتماعية. وتمثل إخبارية "مناهل الصفا" للفشتالي و"المنتقى المقصور" لابن القاضي، و"تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية" لمؤرخ مجهول، و"نزهة الحادي" للإفراني، و"نشر المثاني" للقادري نموذجًا معبرًا لهذا النمط من التأليف، ورغم حمولتها السياسية فإن متونها المصدرية تحمل دلالات وأبعاد وغايات تتطلب جهدًا لاستنطاقها. نظرًا لأهمية هذه الدراسة بذلت أقصى الجهد في أن أنهج نهجًا علميًا خالصًا، لا أميل مع الأهواء ولا أتعصب لرأي، ولم يكن يحفزني إلا الموضوع نفسه، ولم يكن بد من آخذ نفسي بتحري المنهج التحليلي والوصفي والمقارن حتى أتمكن من الإجابة عن الإشكالية والتساؤلات التي وضعتها، لذا سأعرض في هذه المساهمة البحثية دور هذه المؤلفات في تقدم الكتابة التاريخية خلال العصر الحديث، وأهميتها في المعالجة التاريخية بمختلف مستوياتها، وكشف نواقصها، وحدود وقيود الإخباري في ظل ارتباطه بالسلطة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٩	سبتمبر	٢٠٢٠
تـاريخ قبـول النشـر:	١٨	أكتوبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المؤرخ الإخباري؛ الكتابة التاريخية؛ السلطة؛ المغرب؛ العصر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2020.206480 DOI

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد المنتفع، "النمط التأليفي في الكتابة الإخبارية المغربية خلال العصر الحديث".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة -العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص١٩٢ – ١٩٨.

Corresponding author: Elmountafiamed@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ كتب الإخباريين المغاربة من طبقة الفشتالي وبن القاضي والإفراني ومؤرخ مجهول والقادري أهمية كبيرة في تطور الكتابة التاريخية خلال العصر الحديث، رغم أن خيوط الأحداث التي نسجتها بعض مؤلفاتهم كانت وفق منظور يساير توجهات السلطة الحاكمة مما لا يترك لهم مجال إبداء رأيهم وتصورهم حول مختلف الوقائع والظواهر التي عاشها المغرب آنذاك، ومع ذلك فإن هذه الإخباريات ملأت فجوات عدة في مستويات تاريخية مختلفة، إذ من خلال قراءة متأنية لنصوصها تنكشف للمؤرخ صور دقيقة عن الماضي البعيد في جوانبه المتعددة، فهي مؤلفات تعالج قضايا وإشكالات جديدة على مستوى الاشتغال التاريخي شريطة إخضاع متونها إلى نقد تاريخي نزيه ومحكم لإثبات صحة موضوعها ومدى واقعية الإخباري في تناوله للأخبار، خاصةً وأنه غالبًا ما يغيب حقائق كثيرة إما بدافع سياسي إذا كانت أخبارًا سياسية أو عسكرية، أو بدافع ديني أو عاطفي إذا كان الخبر عن الرموز والشخصيات الفاعلة في الحكم والسياسة، وبالتالي فالوقوف على ما تقوله نصوصها يطرح عدة إشكالات من قبيل قيمتها التاريخية، وهل يحكمها الحس التاريخي أم السياسي؟ وهل يكتفي المؤرخ الإخباري بتسجيل الخبر التاريخي فقط أم يعلله ويفسره؟

كانت دراسة هذا النمط التأليفي محجوزة عند ليفي بروفنصال فهو أول من قارب موضوع هذه الكتابات بمنهجية تجلو الغموض عن أبعادها وغاياتها، وذلك في مؤلفه "مؤرخو الشرفاء" الذي أكد فيه على أن أغلب هذه المؤلفات عبارة عن تواريخ الأسر الحاكمة، وأن وظيفة الإخباري محصورة في إحاطة سلطتها ورموزها بالعظمة وإضفاء الخيالات البعيدة عليها، وانطلاقًا من هذه المقاربة الجديرة بالاهتمام سنسعى عبر هذه الدراسة إلى إبراز النواقص التي تعتري هذه الإخباريات، وإظهار حدود وقيود الإخباري في ظل ارتباطه بالسلطة، وأهمية هذه الكتب في المعالجة التاريخية في مستوياتها المتعددة، ودورها في تقدم الكتابة التاريخية.

أولاً: النمط التأليفي في الكتابة الإخبارية وخطواتها المنهجية

كتب محمد جادور في مقال له عن "الإخباري المخزني بين التاريخ والسياسة" ما مفاده أن حرفة الكتابة الرسمية تتسم بوحدة النمط التأليفي، إذ تعبر "بجلاء عن التمثلات الذهنية والفكرية للكاتب المخزني، لما اتخذت ولي نعمتها مركزاً لإنتاجها التاريخي، وقرأت وأولت الأحداث من خلاله ولصالحه، بل وبحثت عن مختلف المرجعيات التاريخية لتبريرها".[١] لذا فإن نصوصها تحمل بعدًا بطوليا، حيث تعطي الفرد أهمية قصوى وتمنحه صفة الجبرية المطلقة، وتعتبره ذا أثر حاسم في الفعل التاريخي، ولأن مصدرها ينبع من غايات الحكام وأهدافهم فإن الأحداث التي تنسجها ليست بأخبار متناسقة وثابتة، لذلك تبقى مجرد تواريخ تعج بالعديد من الإشكالات والمعاني.[٢] ولوحظ ذلك في التأليف الإخباري خلال العصر الحديث الذي أحاط الدولة بالعظمة وأضفى عليها خيالات بعيدة عن الواقع، وإثارته للكثير من التفاصيل والجزئيات الدقيقة حول الرموز، وكانت غايته "إثبات سياسة عامة للمخزن المغربي".[٣] وقد تنبه ليفي بروفنصال إلى المواضيع المشتركة للحوليات المغربية بقوله: "إن موضوع أكثر المؤلفات التاريخية لا يتجاوز إلا نادرًا ذكر أخبار أسرة من الأسر الحاكمة، وأحيانا ذكر أخبار أمير واحد من أمراء تلك الأسرة، فهي في حقيقة الأمر تواريخ أسر كان بيدها في عهد من العهود، زمام الحكم، ولنذكر على سبيل المثال أن نزهة الحادي كتب لتدوين أحداث الدولة السعدية وإن البستان والجيش ألفا لتسجيل أحوال الدولة العلوية، وأن المنتقى المقصور يتكلم عن أحمد المنصور بيد أن الظل الوريف يتكلم عن المولى إسماعيل"،[٤] فكانت بذلك كتبا للمديح والتقريظ للأسر الحاكمة.

برز المؤرخ الإخباري في تأليفه عن الأسر الحاكمة موهبته كناثر وشاعر، يمجدها بمقاطع شعرية بليغة، مما جعل مؤلفه يدخل في عداد كتب الأدب.[٥] ونجد أغلبهم يوظف النكت الغريبة والطرائف العجيبة، لزيادة المؤلف رونقا وتشويقا، "يصغي إليها المنتهي والعاكف في ربع الآداب والبادي".[٦] ويستعملون عبارة "حدثنا"،[٧] و"ذكروا"،[٨] و"مما سمعناه"،[٩] و"ما يذكرون"،[١٠] وغيرها من المفردات المقحمة في مؤلفاتهم تدل دلالة صريحة على أن أحداثها مبنية على المرويات المتوارثة شفويًا جيلاً عن جيل، وبالتالي فهو تاريخ بالخبر أي الوصف الشفوي للواقعة.[١١] ويتبع أغلبها السياق التاريخي للأحداث مستشهدة برواية المعاصرين لها من الفقهاء والعلماء وغيرهم. ويميل بعض الإخباريين أحيانا إلى تصوير الوقائع بدون زيادة وتسجيل الحدث بدون استغراب، وبالتالي عوض أن يستفسر حول كل جوانب الحدث يكتفي بالاستخبار، يطرح السؤال (ما الخبر) يسجل ولا يتعدى التسجيل، لا لأنه غبي لا يتطلع إلى مزيد من التوضيح، ولكن لأنه لا يشعر بأي حاجة إلى مزيد".[١٢] واكتفاء الإخباري بالمشاهدة أو تدوين التواريخ دون

تعليل يفسر إما بتقربه من البلاط أو سعيه وراء المنصب والمال. ومع ذلك يعمد أغلب المؤرخين الإخباريين بعد سرد الخبر إلى أنواع من العلل لتفسيره إما بدافع فكري أو مذهبي أو تربوي.[١٣] وفي ذلك يقول بروفنصال أن المؤرخين "المغاربة القلائل الذين أشاروا بدافع من الدوافع إلى بعض العلاقات التي أبرمت بين المغرب والدول الأجنبية كانوا لا يتورعون إلا نادرا عن الانسياق لأهوائهم وعن تشويه الحقائق لإرضاء ما يشعرون به من تفوق واستعلاء بالنسبة لأصلهم وثقافتهم ودينهم."[١٤]

من معالم تفسير الخبر ما رواه الإفراني عن حدث ظهور آفة شرب الدخان أو "التبغة" التي أرجع سبب دخولها عام ١٥٩٢م على يد جماعة من السودان أتوا بفيلة إلى أحمد المنصور، يقول: «وبسبب دخول هذه الفيلة للمغرب ظهرت العشبة الخبيثة المسماة تبغة (...) يشربونها ويزعمون فيها منافع فشاعت عنهم في درعة ومراكش وغيرها من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتاوي العلماء».[١٥] ولم يمنع القادري الإيمان بالله في وقوع حدث ما "من البحث عن السبب المباشر المؤدي للحدث"،[١٦] فكان يقدم وصفًا دقيقًا للواقعة ثم يعطي سبب وقوعها، مثل حدث أزمة الغذاء في عهد المولى إسماعيل، قال عنها: «اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ووقع مرض في الناس ومات كثير بمرض وغيره من عدم الأقوات»[١٧]. كما فسر أوضاع مدينة فاس بحدث ظلم وجور السلطان سيدي محمد بن إسماعيل، يقول: «أمر (...) بنهب جميع من يظهر عنده الزرع بمكناس وبزرهون وفاس، فكانوا يدخلون لدار هذا اليوم ومن الغد يدخلون لدار الآخر وبعده لدار غيره (...)، وظهرت السياب بفاس في الليل، فكانوا يقلعون أبواب الدروب ويدخلون على الناس في ديارهم بالأربعين رجلا وأكثر، بفناراتهم وعدتهم وآلات حروبهم، ويأخذون جميع ما يجدونه فيها من زرع وأثاث (...)، فأخيفت السبل وقطعت الطرق جهرا».[١٨]

وهكذا فإن المؤرخ الإخباري لا يكتفي بسرد الأخبار فقط وإنما يعلل بعضها "إما تعليلاً طبيعيًا أو ثقافيا أي باعتبار النظم والعادات والعقائد، أما الأحداث التي تسجل بدون تعليل؟ نلاحظ أنها قريبة من المؤلف قربا مكانيا أو زمانيا أو ثقافيا."[١٩] وكان تعليل الخبر يتخذ دائمًا شكل القياس، حيث نجد الإخباري، الناظر في الأحداث والواصف لها، يقيس باستمرار الحاضر على الغائب، لإعادة البداهة إلى الأحداث.[٢٠] وتوظيف القياس في عملية الاستخبار كان لغاية قياس صواب الشيء من عكسه لتخوفه من رواية خبر يشك فيه، لذلك يقيسه بما ورد عند مؤلف آخر، ولا يرغب في تحمل المسؤولية عن روايته. ونجد ذلك في خلاصات ومقتبسات إخبارية الإفراني عن المؤرخ الفشتالي، ومع ذلك لم تخل هذه الإخباريات من انتحال وسرقة النصوص من بعضها البعض، ولا تراعي في ذلك أمانة رواية الخبر. فينقل أكنسوس مثلاً في كتابه "الجيش العرمرم" من مؤلف الزياني "البستان" برمته من غير أن يذكره، ونقل عن نزهة الحادي الفصول الخاصة بالدولة العلوية، خلافا للإفراني الذي "ذيل كتابه بقسم كبير من كتاب الفشتالي مؤرخ أحمد المنصور وبين بكامل الدقة مبتدأ ومنتهي كل فصل من الفصول المنقولة بعد عزوها إلى صاحبها."[٢١]

بناءً على ما سبق ذكره، يمكن إبداء عدة ملاحظات حول خطوات التأليف الإخباري ومنهج المؤرخ في رواية الخبر التاريخي، نلخصها على الشكل الآتي:

- وحدة نمط الكتابة الإخبارية، بحيث تسجل الأخبار والوقائع حسب السنين أو تضبط تواريخ وقوعها باليوم والسنة والشهر، وتعتمد الرواية الشفوية في نقل الخبر؛
- مؤلفات مليئة بالاستطرادات الأدبية وذكر محاسن مركز إنتاجها؛
- تتميز بالطلاوة واستعمال المحسنات البديعية، سيما حينما تريد أن تلف بعض الحقائق المرة، وتوظف الاستعارات المعقدة،[٢٢] وتضمنها لمفردات شعبية وتعابير تقنية، تركية وفرنجية؛[٢٣]
- اكتفاء بعضها بالمشاهدة دون تعليل الأخبار المروية؛
- ارتباط أغلب مادتها بالسياسة وخدمة السلطة، مما يجعل المؤرخ مقيدا مجردا من سلطة تقييم الوقائع وإبداء الرأي.

وعمومًا، تتطابق وتتجانس هذه المؤلفات في محتوى نصوصها القديمة، وهو تطابق تتمظهر جوانبه في اجترار نفس الأخبار والروايات حول الحوادث والوقائع، وتأتي ببراهين وشهادات تساند ما سجلته من الأحداث التي يستند بعضها إلى عدم المنطقية بتغييب الحقيقة وكتم الأسرار، إما لإثبات قضية معينة أو خلق جو يتناسب مع القصة الغرائبية وحبكة الرواية.

ثانيًا: المؤرخ الإخباري: بين الخبر التاريخي والفعل السياسي

تزخر إخباريات العصر الحديث بمادة تاريخية غنية رغم ارتباطها بالسياسة وخدمة أهداف السلطان وتبرير أفعاله وشرائعه، ويعد الإخباري عبد العزيز الفشتالي أحد أقطاب هذا

النمط من التأليف الإخباري خلال عهد الشرفاء السعديين، كلفه السلطان أحمد المنصوربتدوين حوليات كل ما يقع في المغرب خلال فترة عهده، سماها "مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء"، وهي إخبارية تصنف ضمن كتب "التراجم والسير والأسر الحاكمة، فهو يهتم بتاريخ الأسرة المالكة وسيرة أحد ملوكها كما يدون أخبار دولته وأهم مميزاتها دون أن يغفل عن التعرض لأهم رجالاتها في ميادين السياسة والحرب والعلوم".[٢٤] وكان طبيعيا أن يضفي هذا المؤرخ على رمز السلطان هالة أسطورية لأنه مؤرخ رسمي لدولته، فيعتبره بذلك فردا حاسما في الفعل التاريخي، إذ يقول: "إن رجاله [السلطان المنصور] الأبطال كانوا إذا أحرقهم شرر البندق ولفحت وجوههم نار البارود تقهقروا يتدرق بعضهم ببعض حتى يتدرق جميعهم بأمير المؤمنين ويمتدوا من ورائه حبلا فيبدو تحت الألوية غير متوار بدو القمر من تحت الغمام".[٢٥] وهذا الخطاب العجائبي للفشتالي عن أحمد المنصور يعد بمثابة فعل سياسي يمارسه المؤرخ الإخباري تنعكس خطورته في أن رموز العظماء ترفع إلى مرتبة القدسية، وتجعل روايته للخبر في عداد الإخباريين الذين يبررون "كل شيء حتى غير المعقول بأنه حدث بالفعل".[٢٦] وفي مقابل ذلك، يغيب الفشتالي أخبار الأحوال العامة، فهو لا يقف كثيرا على الأنماط الحياتية للبيئة المغربية بل إنه يتكتم على بعض القضايا التي أثيرت في عهد المنصور مثل قضايا الفساد والرشوة في الإدارة، هذا بالإضافة إلى رذالة أخلاق وفسق رجالات الجيش وفجورهم، ونهبهم لأموال الرعية وممارستهم للعنف والاستبداد.[٢٧] يُضاف إلى ذلك تستره على قضية تأثير مسلمة النصارى واليهود في إدارة المنصور وخزينة ماليته مما أثار حفيظة مشايخ الزوايا.[٢٨]

ويُعَدّ أحمد بن القاضي من أبرز مؤرخي الشرفاء، خصص مؤلفه "المنتقى المقصور" للحديث عن محاسن السلطان المنصور كاعتراف له بالجميل عقب افتدائه من الأسر مما جعله يضع خيالات عن عظمة المنصور التي لم يسبق لها أحد من الملوك في فضائله، ومناقبه الكثيرة، يرى أنه سلطان عادل وورع، وعالم بالعلوم الشرعية، وبموسم المولد النبوي وما إلى ذلك. وحسب ابن القاضي فهي صفات اجتمعت فيه وتفرقت في غيره من الملوك. نقرأ في إخباريته ما مفاده : "اجتمع لمولانا من الحسب، والملك، والعلم، والحلم، وحسن المعاشرة، وكرم الأخلاق، وكثرة البذل، والتودد لرعيته وجبر قلوبهم، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، ما لم يجتمع لملك قبله".[٢٩] بل وصلت به هذه الحماسة إلى إعطائه معركة وادي المخازن دلالة رمزية مبالغ فيها جعلته يقارنها بمعركة بدر، يقول: "وكانت غزوة عظيمة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى أنها أشبه شيء بغزوة بدر".[٣٠] ومن هفواته تغييب الكثير من الأحداث والرموز والشخصيات الأخرى التي كانت فعلا حاسما في هذه المعركة، يقول: "فلم ير في سالف الأزمان مثل ما اتفق لهذا الملك في هذه الغزوة العظيمة"،[٣١] لتظل بذلك إخبارية بن القاضي متشبثة بنفس النسق الذي صارت على منواله معظم الإخباريات.

أما إخبارية "تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية" لمؤرخ مجهول، فقد ركزت على فترة محمد الشيخ مقارنة مع أحمد المنصور، ويمكن تفسير ذلك إما أن المؤلف على علم باهتمام الإخباريين بعهد المنصور أو لموقفه السلبي ضده، فهو يرى عدم فائدة رواية الخبر عن المنصور وقلة جدواه. وقد علق العروي على ذلك بالقول: "ليس للخبر حجم معلوم، قد يجزأ إلى ما لا نهاية، وقد يلخص حسب رغبة المخبر".[٣٢] ويبدو أن هذا المؤرخ الإخباري اختار الأحداث التي يريد التعليق عليها، وترك الباقي أو عرج عليه في إشارات سريعة دون تعليل، لكن ما يميز هذا الإخباري عن غيره تنزهه عن العاطفة في سرد الوقائع. ومما يعاب عليه تحامله الشديد على الدولة السعدية، فتغاضى عن المحاسن وذكر المساوئ. ومما نقرأه في إخباريته عن المولى زيدان أنه كان «معتكفًا على خموره ولذاته وفجور أموره وشهواته».[٣٣] وقال عن محمد الشيخ بن المنصور: «كان قبيح الذات والأفعال (...) مسرعًا إلى الفساد في القينات والصبيان والأولاد مصرا على الخمر والحشيش (...) قليل الهيبة يضر بالمساكن ويأكل أموال الرعية».[٣٤] ولم يسلم من تقريعه عبد الملك ولد المولى زيدان إذ اعتبره شخصا «مصرا على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج وهو سكران فمات مخمورا»[٣٥]. وتحامل المؤرخ المجهول على دولة الشرفاء جعل الإفراني في إخباريته "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" كثير التحفظ فيما ينقل منه ويوجز كل ما فيه نوع من التحامل على رجالات الدولة السعدية".[٣٦]

خصص الإفراني حيزا كبيرا من إخباريته "نزهة الحادي" للحديث عن سيرة أحمد المنصور إلى حين وفاته. ولعل من دواعي ذلك ميله العاطفي لأشراف موطنه بسوس، ورغم هذه العاطفة الجياشة تجاه الأشراف لم يكن منصفًا في الحديث عن باقي ملوك الدولة السعدية، إذ نجده يقفز بسرعة ودون تنبيه من التعريف بنسبهم وفترة جلوسهم على العرش إلى زمن المنصور، بل إنه لم يعط لحدث معركة وادي المخازن إلا برهة

فوقف عليها قليلا، وكأن شيئا يحركه إلى فترة هذا السلطان الذي بدأ في تحرير منجزاته. وكان يأخذ بعض معلوماته من إخبارية مؤرخ مجهول، لكنها كانت مختصرة، محاولا في ذلك تجاهل مواقفه المعادية للدولة السعدية، بل نجده يغض الطرف عما ذكره هذا المؤرخ، فلم يشأ أن يورد في إخباريته عبارات "لا يرتاح عادة لسماعها أرباب السلطة ولا تتسع لها صدورهم ولكنه كان دائما يتخلص من تبعتها بإسنادها إلى أصحابها."[٣٧] وفي هذا الأمر يقول الإفراني: "وهذه أمور شنيعة إن صح أنه فعلها، ولست أدخل في عهدتها، إنما رأيتها في أوراق مجهول المؤلف، اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية،... ووصف دولتهم بالخبيثة، فلذاك تجنبت منها كثيرا من الأخبار التي لا تظن بأولئك السادات الأشراف رحمهم الله."[٣٨]ورغم أهمية إخباريته إلا أنه للأسف لم يتوقف عند عدة حوادث وقعت خلال عهد المنصور من تجاوزات قواد جيشه وحاشيته، والفساد الذي كان شائعا في الإدارة والقضاء،[٣٩] فهو بنفسه يعترف بانتشاره وغلبته، لكنه لا يصرح بذلك كثيرا، وقد استدرك تجاوزاته وهفواته وعدم موازناته في كتابه الصفوة.[٤٠]

وعمومًا، كانت معظم إخباريات العصر الحديث تساير الخط الإيديولوجي للسلطة الحاكمة، فكانت تمرر الكثير من المغالطات، وتغيب الحقائق وتكتم الأسرار، وتبرر وقائع غير معقولة بحدوثها، وتطمس حياة الطبقات المهمشة والفئات الفاعلة في المجتمع. ورغم ذلك فإن فائدتها كانت كبيرة في نسج خيوط تأليف تاريخي متنوع بتلاقي رؤاها واختلافها رغم نسبية الحقائق في بعضها، لأن التاريخ بالنسبة لها مجرد مرآة تعكس أوامر الحكام وغاياتهم، والإخباري مجرد موظف لا يحق له نقد إملاءات السلطة، ومع ذلك فإنها تملأ فجوات عدة في تاريخ المغرب، لذلك تبقى سندا مرجعيا مهما في بلورة مقاربة تأملية حول مستويات تاريخية عدة، ومادة أساسية في طرح الفرضيات اللازمة واستخلاص النتائج الأساسية.

ثالثًا: أهمية الإخباريات في الكتابة التاريخية الحديثة

تمثل إخباريات العصر الحديث مواد مصدرية مهمة في الكتابة التاريخية، إذ تكشف عن جوانب تاريخية عديدة، ومع ذلك لم تستغل بالشكل الكافي في البحث التاريخي. ومن أهم المؤلفات الإخبارية التي تتيح إمكانية وضع مقاربات تاريخية متعددة الجوانب إخبارية الفشتالي الذي رغم تخلفه عن الحياد وإحكام العقل في سرد الوقائع بتمجيد خيالي للسلطة الحاكمة وتبني رؤيتها بالتدقيق في مآثر السلطان والغلو في تعظيمه، وتبرير سلوكيات قواته الغازية، لا يعني أن جميع الأخبار التي أوردها غير صحيحة بل بالعكس من ذلك، إذ ذكرت أمورا غاية في الأهمية حول سياسة الدولة المجالية،[٤١] ونطقت بالكثير من المعلومات حول تفاعل مؤسسات المغرب مع المجال المتوسطي على مستوى التنظيمات الإدارية والعسكرية،[٤٢] ومدى تأثره بالنظام الاقتصادي السائد بالعالم المتوسطي، وفي ذلك يقول: «ومن أعظم آثاره [أحمد المنصور] المعاصر السكرية التي ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشيشاوة من عمل مراكش»[٤٣]. كما أوردت إخباريته معلومات اجتماعية في غاية الأهمية.[٤٤]

والشيء نفسه يقال عن بن القاضي في إخباريته "المنتقى المقصور"، الغنية بالمعلومات النادرة حول البنية السياسية، والمؤسسات الإدارية، والعسكرية للمغرب، كوصفه لتعداد الجيش،[٤٥] ووصف معداته،[٤٦] وإشاراته حول الحصون والأبراج.[٤٧] كما لا تخلو إخباريته من بعض الإشارات حول العمران ومآثر الدولة في البناء.[٤٨] وكذلك إخبارية الإفراني الغنية بالمعلومات حول العمران،[٤٩] والتنظيمات العسكرية،[٥٠] والإدارية،[٥١] والاقتصادية،[٥٢] وهي معطيات تاريخية مهمة يمكن استثمارها، بشكل أفضل في توضيح مدى قدرة المغرب على التفاعل مع دول المجال المتوسطي، والاستفادة من التقدم العمراني، والتنظيم الاقتصادي والعسكري والتقني الذي حققته المدن والدول المتوسطية آنذاك.

ورغم مواقف مؤرخ مجهول المعادية لتوجه الشرفاء السعديين فإن مؤلفه يعد ثمينا خاصة وأن صاحبه جاء برؤية جديدة مغايرة لما تحدث عنه وذكره مؤرخو السلطة، إذ كان مؤلفه شموليًا تضمن أخبار المغرب الداخلية عن ملوكه وعامته، وأخبار الأزمات ثم سجل وقائع خارجية مثل أحداث استرجاع العثمانيين لحلق الوادي عام ١٥٧٤م، وفتح السودان. وتناول مؤلفه دور السلاطين السعديين في تحديث الإدارة ومؤسسة الجيش ومكوناته في عهد محمد الشيخ، يقول: "لما تملك محمد الشيخ فاس خدموا عنده انكشارية وهم أهل الركاب فاستحسن خدمتهم وملئوا عينه وقلبه لأنهم كانوا جافين، فكانوا يمشون بإزائه وأمامه وينزلون بقربه وكانوا نحو أربعمائة، وكان السلطان يعنى بحقوقهم ويخاف من عقوقهم."[٥٣] ونظرًا لغزارة الأخبار الواردة في إخباريته وتنوعها تبقى ذات قيمة تاريخية مهمة نابعة من كون صاحبها "ليس ممن يزخرفون الأقوال ويكيلون المدح والثناء بالمكيال الأوفى لكل من يجول لهم الصلات ويغدق عليهم العطايا".[٥٤]

ومن الإخباريات التي وقفت على الأزمات الاقتصادية والمعاشية، ومختلف الظواهر التي تعرض لها المغرب، مثل الجفاف وانحباس المطر والمجاعات والأوبئة، إخبارية القادري"نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني"،التي تعد نموذجا مختلفا عن النمط التأليفي الموحد للإخباريات الأخرى، معتمدا في رواية الأخبار على المشاهدة،[٥٥] وتقييدات أهل العلم والثقة، يقول: "وكل ما قيدته هنا في هذه الترجمة [خبر وفاة المولى إسماعيل] وغيرها من الحوادث والتواريخ كله وجدته مقيدا بخط من يظن به الثقة"،[٥٦] بالإضافة إلى "الرواية الشفوية التي يضفي عليها صبغة النسبية بل التحفظ، ملمحًا إلى ذلك بعبارة: "فيما قيل"، أو "وذكروا"."[٥٧]

ركزت إخبارية القادري على الأزمات الخطيرة التي بدأت مع النصف الأول من القرن السابع عشر مثل أزمة غلاء القمح عام ١٦٢٥م،[٥٨] وأزمة ١٦٦١م حيث الصراع كان قائما بين الدلائيين والإمارة العلوية الناشئة مما نتج عنه حصار الدلائيين لمدينة فاس "فأفسدوا بذلك الفواكه والزروع ونهبوا وسبوا وأهلكوا، وهكذا غلت الأسعار بسبب ذلك، وأكل الناس الموتى والجيف بفاس وذبح الأطفال للاستراحة منهم.[٥٩] وذكر الآفات والنكبات العامة التي تعرض لها المغرب مثل هجوم الجراد في أوائل رمضان ١٧٥٣م والذي قضى على المزروعات ولم يسلم منه إلا الزرع الذي صادفه يابسا.[٦٠] وعموما كانت فائدة إخبارية القادري كبيرة في التأليف الاقتصادي والاجتماعي عن المغرب، وتحيل إخباريته على تطور مهم للكتابة التاريخية خلافًا لباقي الإخباريين من عصره أو ممَنْ سبقوه الذين غيبوا وأقصوا ثقافة الهوامش بجعل مؤلفاتهم في خدمة السلطة الحاكمة.

نلمس أهمية هذه المواد المصدرية للمؤرخ في تحريها لمواضيع مختلفة، وتناولها الخبر التاريخي بالتفصيل، ورغم حمولتها السياسية فإنها لها أهمية كبيرة في تطور الكتابة التاريخية، ولا تتطلب سوى استنطاقها وإخضاعها للدراسة والتحليل حتى يتمحص الصحيح من سقيم المعلومات الواردة بها.

خَاتِمَةٌ

من جملة ما يمكن استشفافه، أن إخباريات العصر الحديث، من طبقة الفشتالي وبن القاضي والإفراني ومؤرخ مجهول والقادري وغيرهم، تعطي وجهة نظر مختلفة عن التأليف الأوروبي، فهي إرث حقيقي عن عدة أحداث عاشها المغرب، على الرغم من أن بعضها لم يصور وقائعها بشكل دقيق وشامل، وأحيانًا تقدم الحدث بشكل ملغوم. ورغم ما يشوب هذه المؤلفات من قصور لا يجب الإعراض عنها بل ينبغي استغلال موادها قدر الإمكان باستنباط مستويات تاريخية لم يتم التفكير فيها بعد، وذلك وفق منهج استقرائي ومقارن لأحداثها مع تفادي السقوط في دوامة التأويل البعيد الذي يفضي إلى استنتاجات ناقصة خاصة وأن من هذه المؤلفات ما يشفي الغليل في الكتابة التاريخية، فهي تُعَدّ سندًا مرجعيًا مهمًا للباحثين في التاريخ الاقتصاد والاجتماعي الغني بالإشكالات التي ما تزال عالقة في ظل سطوة التاريخ السياسي، والذي بسبب ميل المؤرخ للسلطة وارتباط مادته بها غابت الحقائق عن الأوضاع الاجتماعية لساكنة الأرياف والمدن وظروف حياتهم اليومية، ودور التقلبات المناخية، والأمراض والأوبئة على البنية السكانية، ولذلك لم ترتسم بعد اللوحة الكاملة عن المجتمع المغربي كما رسمها المؤرخون الأوربيون عن مجتمعاتهم، كما أن تقديم معلومات دقيقة بشأن المؤسسات الإدارية والعسكرية لا يتأتى إلا بالعودة إلى هذه المصادر الوطنية لملء الفجوات عن هذا التاريخ الناقص الذي أشرف عليه الأجانب.

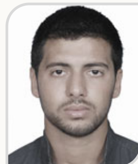
الاحالات المرجعية:

(١) محمد جادور، **الإخباري المخزني بين التاريخ والسياسة أبو القاسم الزياني نموذجًا**، أعمال الحلقة الدراسية: التاريخ والسياسة مقاربات وقضايا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، (٢٠١٣): ١١٧.
(2) Eric Vigne, «Le temps de l'histoire en question», vingtième siècle, revue d'histoire, N 6, avril-juin (1985): 132.
(٣) نفسه، ١١٧.
(٤) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، (الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧)، ٦٨.
(٥) نفسه، ٨١.
(٦) أحمد بن القاضي، **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**، الجزء الأول (الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٩٨٦)، ٢٤٠.
(٧) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية** (دار تنمل للطباعة والنشر١٩٩٤)، ١٢.
(٨) محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، الجزء ٢ (الرباط: دار المغرب، ١٩٧٧)، ٦٧.
(٩) نفسه، ٧٨.
(١٠) نفسه، ٨١.
(١١) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، الطبعة الرابعة (بيروت-لبنان: المركز الثقافي العربي)، ٩٩.
(١٢) نفسه، ٢٩٣.
(١٣) نفسه، ٢٩٤.
(١٤) بروفنصال، مؤرخو، ٦٧.
(١٥) محمد الصغير الوافرني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، (أنجى ١٨٨٨)، ١٦٢.
(١٦) العروي، ٢٩٣.
(١٧) القادري، **نشر المثاني**، ج ٣، ٢٥٣.
(١٨) نفسه، ٣٩٩.
(١٩) العروي، **مفهوم**، ٢٩٢- ٢٩٣.
(٢٠) نفسه، ٢٩٤- ٢٩٥.
(٢١) بروفنصال، **مؤرخو**، ٦٤.
(٢٢) نفسه، ٧٤.
(٢٣) نفسه، ٧٧.
(٢٤) عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا** (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، ١٩٧٢)، ٢٢.
(٢٥) المصدر السابق، ١٨.
(٢٦) العروي، **مفهوم**، ٣١٧.
(٢٧) عبد الرحمان السعدي، **تاريخ السودان** (باريس، ١٩٨١)، ١٧٤.
Henry De Castries, Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, première série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Angleterre, Tome II, (Paris : paul Guthner, Londres : Luzac et C (ie), 1925) : 396.
(٢٨) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس- الجزائر- المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م**، الجزء الثاني، الطبعة الثانية (تونس: الدار التونسية للنشر ١٩٨٥)، ٢٧٢.
(٢٩) بن القاضي، **المنتقى المقصور**، ٢٤٤.
(٣٠) نفسه، نفس الصفحة.
(٣١) نفسه، ٢٤٥- ٢٤٦.
(٣٢) العروي، **مفهوم**، ٢٩٧.
(٣٣) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة**، ٩٣.
(٣٤) نفسه، ٦٩.
(٣٥) نفسه، ٩٤.
(٣٦) بروفنصال، **مؤرخو**، ٩٩.
(٣٧) نفسه، ٩١.
(٣٨) الوفراني، **نزهة الحادي**، ٤٩.
(٣٩) نفسه، ١٥٨- ١٥٩.
(٤٠) محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، الطبعة الأولى (مركز الفرات الثقافي المغربي، ٢٠٠٤)، ٦٧.
(٤١) الفشتالي، **مناهل الصفا**، ٢٣.
(٤٢) نفسه، ١٦١- ١٦٢- ١٩٧- ٢٠٧.
(٤٣) نفسه، ٢٠٩.
(٤٤) نفسه، ٢١١.
(٤٥) بن القاضي، **المنتقى المقصور**، ٨٣١.
(٤٦) نفسه، ٦٧١.
(٤٧) نفسه، ٨٣٦- ٨٣٧.
(٤٨) نفسه، ٨٣٤- ٨٣٥.
(٤٩) الوافرني، **نزهة الحادي**، ١٠٢.
(٥٠) نفسه، ١١٥.
(٥١) نفسه، ١٦٤.
(٥٢) نفسه، ١٠٣.
(٥٣) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة**، ٣٠.
(٥٤) بروفنصال، **مؤرخو**، ١٠٠.
(٥٥) بدر المقري، "**أزمات التغذية في المغرب من خلال حوليات محمد بن الطيب القادري (ت. ١١٨٧هـ)**"، مجلة أمل، العدد السابع عشر، السنة السادسة، (١٩٩٩): ١٧.
(٥٦) القادري، **نشر المثاني**، ج ٣، ٢٩٢.
(٥٧) المقري، ١٧.
(٥٨) القادري، ج ١، ٢٦٥.
(٥٩) نفسه ج ٢، ١٢٩.
(٦٠) نفسه، ج٤، ٩٩.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

قراءة في تطور مفهوم الوثيقة التاريخية
من ما قبل الوضعانية إلى التاريخ الجديد

زكرياء البدراوي
باحث دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية



مُلَخّص

يقدم هذا المقال قراءة سريعة للتطور الذي عرفه مفهوم الوثيقة التاريخية لدى المؤرخين الغربيين وبالتحديد لدى الفرنسيين منهم، من مرحلة ما قبل المدرسة الوضعانية (النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي) إلى سيادة مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد (النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي)، وذلك بالوقوف عند المحطات المفصلية الكبرى التي طبعت تطور المفهوم ممارسة وتنظيرًا. وخدمة لهذه الغاية، فقد انطلقنا من إسطوغرافيات العصور القديمة والوسيطة ثم الحديثة لتسليط الضوء على التصور السائد حينها لمفهوم الوثيقة التاريخية بارتباطه بالغاية من الكتابة التاريخية نفسها، مع رصد لأهم التحولات التي عرفتها تصورات المؤرخين للوثيقة وللكتابة التاريخية خلال هذه العصور. لننتقل بعدها للنصف الثاني من القرن ١٩م، حيث سيعرف مفهوم الوثيقة التاريخية تطورا حقيقيا مع الوضعانيين الذين اعتبروا الوثائق بمثابة مادة أولية لاشتغال المؤرخ وحجر الزاوية في البحث التاريخي، بل وأولوها اهتمامًا خاصًا بلغ حد "التقديس". غير أن التصور الوضعاني للوثيقة لم يكن محط إجماع. فقد انتقد الكثير من المؤرخين نظرة الوضعانيين الضيقة تجاه الوثيقة، وحطهم من قيمة الوثائق غير المكتوبة. وكان من أشرس المنتقدين مؤرخو مدرسة الحوليات الذين انبروا منذ ثلاثينيات القرن العشرين للتصدي للتاريخ الوضعاني ولممارساته بخصوص مفاهيم الحدث والوثيقة. وعملوا في المقابل على تقديم تصور بديل يقوم على توسيع مفهوم الوثيقة التاريخية ليشمل كل ما يحمل أثرًا لماضي البشر، انعكس على إنتاجاتهم التاريخية وكتاباتهم التنظيرية الإبستمولوجية في حقل التاريخ التي جاءت أكثر شمولاً وانفتاحًا مقارنة بسابقاتها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١١	أكتوبر	٢٠٢٠
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٣	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الوثيقة التاريخية؛ المدارس التاريخية؛ الوضعانية؛ الحوليات؛ التاريخ الجديد.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.206492

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

زكرياء البدراوي. **"قراءة في تطور مفهوم الوثيقة التاريخية من ما قبل الوضعانية إلى التاريخ الجديد".**- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٩٩ – ٢٠٤.

Corresponding author: zakariaelbadraoui@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

من نافل القول، أن الوثائق التاريخية تعد بمثابة المادة الأولية لصنعة المؤرخ. فبها يستحضر وقائع الماضي ويبني سيناريوهات وقراءات لأحداث لم يعشها، وربما حدثت قبله بعشرات القرون... لذا فإن الوثيقة التاريخية -كانت وما تزال- تمثل حجر الزاوية في الكتابة التاريخية. فماذا نقصد بالوثيقة التاريخية؟

تشير كلمة "وثيقة" في اللغة العربية، إلى معاني الائتمان، المصداقية، الإحكام، والعهد. فيقال: وثق به يثق وثاقا وثقة أي ائتمنه، ويقال فلان ثقة أي ذو مصداقية عالية، والوثاق والوثيق أي ما يشد به بقوة وإحكام. أما الموثق والميثاق والمواثقة فهو العهد، الذي قد ينعت كذلك زيادة في الإحكام بالعهد الوثيق[١]، ومنه جاءت كلمة وثيقة للدلالة على الحامل الذي تكتب عليه العهود والمواثيق في البيع والشراء والدين ومعاهدات السلم وغيرها. ويقابل كلمة "وثيقة" في اللغة اللاتينية مفرد (documentum) الذي يحمل معنى قانونيًا[٢]، ومنه اشتقت كلمات (Document) الفرنسية، و(document) الإنجليزية اللتان تحملان معان تحيل على السجلات الرسمية للدولة[٣] المتضمنة للمراسيم والقوانين والمعاهدات والمراسلات الديبلوماسية، وغيرها من كنانيش الجباية والمحاصيل والمخازن.

تأسيسًا على ما سبق، يتضح بأن المعنى اللغوي للوثيقة يبقى ضيقًا، فهو لا يتصورها إلا كأثر مكتوب أو خبر مروي، وبالتالي يظل غير كاف لتمكيننا من استجلاء دقيق لمفهومها. فمفهوم الوثيقة هو مفهوم واسع، متجدد ومتعدد بتعدد زوايا وأوجه النظر إليه. وهنا نستحضر مثالاً معبرًا كان قد ساقه المؤرخ والفيلسوف المغربي عبد الله العروي في سياق حديثه عن التنوع الذي يطبع مفهوم الوثيقة أو الشاهدة كما يفضل هو أن يسميها. يقول صاحب مفهوم التاريخ: "لو سألنا باحثًا في متحف أثري عن ماهية الوثيقة، لقال على الفور: هي بقايا حجرية، حيوانية، أو نباتية. لو سألنا باحثا على عتبة مكتبة وطنية، لقال: هي المخطوطات والرسائل والكناشات. لو سألنا متخصصا في تاريخ القرن التاسع عشر الميلادي، لقال: هي التقارير القنصلية والصور الشمسية والنقود. لو سألنا متخصصًا في تاريخ القرن العشرين، لقال: هي الخطب المسجلة والأفلام الوثائقية والاستجوابات والأشعار والأغاني..."[٤].

يبدو إذن أن مفهوم الوثيقة التاريخية لا يعرف تباينا بين ذوي التخصصات المختلفة فقط (المؤرخ، الأركيولوجي، المحقق، الأرشيفي،...). بل أيضًا بين أوساط المؤرخين المحترفين أنفسهم الذين لم يتفقوا حول مفهوم محدد للوثيقة. إذ اختلفت الرؤى باختلاف الاهتمامات والانتماءات والتيارات...، وهو ما يتضح عند تتبع تطور مفهوم الوثيقة التاريخية بارتباطه بالهزات المنهجية الكبرى التي عرفتها المعرفة التاريخية منذ القرن التاسع عشر الميلادي إلى وقتنا الراهن. فكيف تطور مفهوم "الوثيقة التاريخية" من مرحلة ما قبل الوضعانية ثم الوضعانية وصولا إلى عصر الحوليات والتاريخ الجديد؟

أولاً: الوثيقة التاريخية في المرحلة ما قبل الوضعانية

بحكم انكباب الإسطوغرافيات القديمة (اليونانية والرومانية) بأروبا على التأريخ لملاحم الأبطال وسير الملوك والوزراء والقادة العسكريين العظام والإشادة بإنجازاتهم وعبقريتهم. فإن دور الوثائق بالنسبة لأغلب المؤرخين لم يتعدى كونه شواهد تعزز عظمة الفرد المراد الإشادة به، وبالتالي اقتصر عمل المؤرخين على تجميع أكبر قدر من القصص والمغامرات والأشعار والأساطير ثم حبكتها في قالب أدبي درامي دون النظر في صحتها، وهو ما جعل كتاباتهم خليطا من الوقائع التاريخية بالخيال[٥]. ويبقى المؤرخ اليوناني "توسيديد" (Thucydide) الاستثناء. فهو الوحيد تقريبًا من بين معاصريه الذي حرص على استبعاد الأساطير والخرافات والتثبت من صحة الأخبار والمرويات. كما يرجع له قصب السبق في الإعلان عن مصادر معلوماته. ففي كتابه "الحروب البلوبونيزية" استعملت ولأول مرة كلمة "مصدر" (Source) للدلالة على البيليوغرافيا أو المادة المصدرية الموظفة من قبل المؤرخ[٦].

خلال القرون الوسطى ستواصل الكتابة التاريخية بأوروبا اتباع نفس النهج تقريبًا، إذ لم تحدث قطيعة مع الممارسات والتصورات السابقة بخصوص مفاهيم الزمن، الحدث والوثيقة. فاستمر بذلك الاهتمام بكتابة سير العظماء. ولم يطرأ التغيير إلا في تصور مفهوم العظمة والبطولة والمغزى من التاريخ. فانصب بذلك التدوين التاريخي -الذي أصبح محتكرًا من طرف المؤسسة الدينية- على التأريخ لحياة القديسين والزهاد المسيحيين وكبار الرهبان وخدام الكنيسة خدمة لأهداف أخلاقية ووعظية تربوية[٧].

انطلاقا من أواسط القرن الرابع عشر الميلادي وتزامنًا مع تقوي تحالف الكنيسة والإقطاع القائم على رعاية المصالح المشتركة بين الطرفين، سيتزايد اهتمام كتاب الكنيسة المشتغلين بالتدوين التاريخي بالمجال السياسي على حساب الديني. فتكاثرت الكتابات الممجدة لأعمال الملوك والنبلاء والسادة الإقطاعيين إبان فترات السلم والحرب. وبدأت الوثائق والسجلات الرسمية للدولة ومراسلات الملوك تتصدر البيبليوغرافيات المعتمدة من قبل المؤرخين مقارنة بالمرويات والنصوص الدينية.

وسيتقوى هذا الاتجاه أكثر زمن النهضة الأوربية باقتحام أقلام من خارج الكنيسة لعالم التدوين التاريخي. فبدأت تتجه التاريخيات شيئًا فشيئًا نحو دراسة تاريخ الملوك (السلطة الزمنية) عوض تاريخ القديسين (السلطة الدينية). ومن أوائل من دشنوا هذا التحول من الديني إلى السياسي نجد "نيكولا ميكيافيلي" (Nicolas Machiavel) في كتابه "الأمير" (١٥٣٢م) "جان بودان" (Jean Bodin) في "ستة كتب عن الجمهوريّة" (١٥٧٦م) و"طوماس هوبز" (Thomas Hobbes) في مؤلفه "اللفياثان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة" (١٦٥١م)[٨].

وبالموازاة مع هذا التحول في اهتمامات المؤرخين المشار إليه، عرفت أوروبا -وبشكل منفصل عن حقل التاريخ- تزايد الاهتمام بأعمال التوثيق والأرشفة. ببروز أولى المحاولات لوضع أسسه كعلم مستقل، ويعتبر كتاب "مابيلون" (Mabillon) المعنون بـ "علم الوثائق الرسمية" (De Re Diplomtica libri) (١٦٨١م) عملاً تأسيسيًا ورائدًا في هذا الجانب، خلد صاحبه كمؤسس حقيقي لنقد الوثائق الأرشيفية كما صرح بذلك "مارك بلوك"، فقد وضع قواعد صارمة في مقاربة الوثائق الأرشيفية، مشددًا على أن الشهادات تستمد قيمتها من ذاتها لا من أصحابها، قالبا بذلك المعادلة التي كانت سائدة في القرون الوسطى حيث كانت الأحقية تمنح للشهود على حساب قيمة الشهادة[٩].

كما ترجم الاهتمام بالوثائق أيضًا ببداية تأسيس دور الوثائق و"مرابض الأرشيف" التابعة للكنائس والأديرة أو لمؤسسات علمية أو لجهات رسمية منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، لتتضاعف أعدادها وتعم مختلف الأقطار الأوروبية بعد الثورة الفرنسية نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. إلا أن هذا التقدم الذي شهده علم التوثيق والأرشفة ظل بعيدًا عن الكتابة التاريخية على الأقل إلى حدود مطلع القرن التاسع عشر الميلادي[١٠].

ثانيًا: المدرسة الوضعانية والتأسيس لمبدأ "لا تاريخ بدون وثيقة"

تصدرت المدرسة الوضعانية أو المنهجية ميدان الدراسات التاريخية بفرنسا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. وكان لسان حالها "المجلة التاريخية" (La revue historique) التي تأسست على يد "غابريال مونود" (Gabriel Monod) سنة ١٨٧٦م. ويعتبر الكتاب المشترك "لشارل فيكتور لانغلوا" (Charles-Victor Langlois) و"شارل سينوبوس" (Charles Seignobos) "مدخل للدراسات التاريخية" (١٨٩٨م)، وكتاب "المنهج التاريخي المطبق على العلوم الاجتماعية" لشارل سينوبوس (١٩٠١م) من أهم مراجعها النظرية[١١].

سعت هذه المدرسة إلى جعل التاريخ علمًا، عبر تطبيق منهج الطبيعيات على التاريخيات، واعتقدت أن بإمكان المؤرخ بلوغ أقصى درجات الموضوعية والعلمية إن هو بنى أحكامه على الوثيقة الملموسة وابتعد قدر الإمكان عن ميثولوجيا وتأملات فلاسفة التاريخ وعن "جرائم الأدب التي تلطخ الخطاب التاريخي العلمي"[١٢]. كما عارض المؤرخون الوضعانيون التيارات الرومانسية والكاثوليكية وانتقدوا بشدة مفهوم العناية الإلهية التي وظفت في تفسير الوقائع التاريخية[١٣].

لقد نظر الوضعانيون للتاريخ على أنه علم للوقائع. فلصناعة تاريخ منطقة ما، يكفي المؤرخ أن يجمع كل أصناف الوثائق المؤكدة للحوادث ثم يرتبها ترتيبًا زمنيًا لكي تتشكل له لوحة جامعة للتطور التاريخي[١٤]، يقول "لانغلوا" و"سينيوبوس": "التاريخ يصنع من الوثائق. والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم، [...] وبفقدان الوثائق صار تاريخ عصور متطاولة من ماضي الإنسانية مجهولاً، إذ لا بديل عن الوثائق، وحيث لا وثائق فلا تاريخ"[١٥]. ويقول "ليوبولد فون رانكه" (Léopold von Ranke) "أن وظيفة المؤرخ هو "تصوير ما حدث بالضبط"[١٦]، وفي نفس السياق يصرح Fustel De Coulange) "فوستيل دو كولانج"، أن "لا تاريخ بدون نصوص...[فهو] علم لا يتخيل بل يرى، وهو نظير كل علم ينظر إلى الأحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها، والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه بدراسة النصوص بإمعان ودقة، والطريقة واحدة في كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة"[١٧].

إذن، حيث لا وثائق فلا تاريخ أو لا تاريخ بدون وثيقة، كان هذا هو الشعار الذي رفعه الوضعانيون. فما مفهوم الوثيقة من المنظور الوضعاني؟

من حيث المبدأ يتصور الوضعانيون الوثيقة التاريخية على أنها "كل الشواهد والآثار التي خلفها إنسان الماضي"[١٨]. لكن هذا التصور لم يترجم عمليا بمعناه الواسع في إنتاجاتهم التاريخية. فقد اقتصرت الوثيقة عندهم على المصادر والأرشيفات المكتوبة التي تعاملوا معها كأساس لعمل المؤرخ ووسيلته للاطلاع على الماضي وكشف الحقائق التاريخية. فالوضعانيون في أدبياتهم يركزون علاقة المؤرخ بالوثيقة في ثلاث لحظات أساسية:

الأولى، لحظة الكشف عن الوثائق، والتي لا تتأتى حسب "لانغلوا" و"سينيوبوس" إلا بالمعاينة المباشرة للوقائع التاريخية أو عبر شهادات شفوية لمشاركين أو معاصرين لها، أو عن طريق الوثائق المحفوظة في دور الأرشيف والمكتبات[١٩].

اللحظة **الثانية**، تتعلق بإنتاج المعرفة التاريخية. فالمنظور الوضعاني يربط كتابة التاريخ بتوفر الوثائق، وبمدى صدقيتها. مع التشديد على نسبية المعرفة التاريخية التي لا يمكن أن نقر مطمئنين بيقينيتها إلا إذا تمكنا من تجميع شواهد كثيرة ومن مصادر متفرقة تتفق حول واقعة معينة، فحينها يمكننا القول بأن هذه الواقعة قد حدثت بالفعل.

اللحظة **الثالثة**، تهم النقد التاريخي أو استثمار الوثائق. فعلى اعتبار أن الوثيقة مادة أولية فلا بد أن تخضع لعملية النقد قبل استغلالها. وقد وضع "لانغوا" و"سينيوبوس" قواعد جد صارمة لنقد الوثائق بيناها في كتابهما "مدخل للدراسات التاريخية"، إذ ميزا بين نوعين من النقد، نقد خارجي (يهم نقد موثوقية ومصدر الوثيقة وطابعها للكشف عن صحتها من عدمه) ثم نقد داخلي (يستهدف مضمون الوثيقة بقراءتها ومقارنتها بوثائق أخرى، مع ضرورة التسلح ببعض العلوم المساعدة كعلوم اللغة وعلم الخطوط وغيرها...)[٢٠].

ثالثًا: الحوليات والتاريخ الجديد (نحو مفهوم جديد/ متعدد للوثيقة التاريخية)

انطلاقًا من مطلع القرن العشرين الميلادي، تعرضت المدرسة الوضعانية بفرنسا لموجة واسعة من الانتقادات، انصبت بالأساس على تصوراتها بخصوص مفاهيم الحدث والوثيقة، وعلى تركيزها المفرط على التاريخ السياسي، العسكري والديبلوماسي ذي الطابع السردي الحدثي، مقابل تغاضيها عن معالجة الإشكالات والقضايا المرتبطة بالاقتصاد والمجتمع. كما انتقد مؤرخوها لتوجهاتهم القومية المبررة لسياسات الدول القائمة والبعيدة كل البعد عن شعاراتهم بالحياد والموضوعية[٢١].

ويعتبر الفيلسوف الفرنسي "هنري بير" (Henri Berr) المشرف على "مجلة التركيب التاريخي" التي تأسست منذ سنة ١٩٠٠م من أوائل معارضي المدرسة الوضعانية، هذا الرجل الذي وصفه "فرناند بروديل" بأنه "الحوليات قبل نشوئها"[٢٢] يرجع له الفضل في ممارسة تأثير كبير على جيل من المؤرخين الشباب، على رأسهم "مارك بلوك" (Marc Bloch) و"لوسيان فيفر" (Lucien Febvre) مؤسسي مجلة "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" سنة ١٩٢٩م والتي سرعان ما ستتحول إلى مدرسة تاريخية رائدة عرفت باسم مدرسة الحوليات.

لقد اعتبر تأسيس الحوليات تأسيسا لوجهة جديدة في الكتابة التاريخية، فقد عملت على إحداث قطيعة مع ممارسات المدرسة التاريخانية[٢٣]، وعلى رأسها تقديس الوثائق المكتوبة، وبالتالي الانتقال نحو تبني مفهوم وتصور جديد للوثيقة التاريخية، فما أوجه القطيعة والاستمرارية في مفهوم الوثيقة لدى مؤرخي الحوليات والتاريخ الجديد؟

لا شك أن للوضعانيين الفضل في كشف وتحقيق وصيانة وحفظ الملايين من الوثائق المكتوبة، وفي ربط دور الأرشيف والوثائق والمخطوطات بحقل الدراسات التاريخية، إلا أن هذا غير كاف في نظر مؤرخي الحوليات، إذ يظل مفهوم الوثيقة ضمن هذا التصور محدودًا جدا، وبالتالي فإنه لن يمكن المؤرخ من فتح أعينه واسعا على قضايا وإشكالات جديدة. يقول "لوسيان فيفر" في هذا السياق: "لا شك أن التاريخ يكتب اعتمادًا على الوثائق المكتوبة، إن وجدت. لكن يمكن، بل يجب، أن يكتب اعتمادًا على كل ما يستطيع الباحث، بمهارته وحذقه، أن يستنبطه من أي مصدر: من المفردات والرموز، من المناظر الطبيعية ومن تركيب الآجر، من أشكال المزارع ومن الأعشاب الطفيلية، من خسوفات القمر ومن مقارن الثيران، من فحوص العالم الجيولوجي للأحجار ومن تحليلات الكيميائي للسيوف الحديدية"[٢٤].

إسوة بزميله، يؤكد "مارك بلوك" (Marc Bloch)، على أهمية الوثائق المكتوبة، لكنه يعتبرها غير كافية، يقول "بلوك": "لأنه لا ينبغي الاكتفاء بالوثائق وحدها كمصادر للتأريخ، إن ركام الوثائق التي يمتلكها التاريخ ركام غير محدود. ولا يقتصر التأريخ على الوثائق المكتوبة: يمكن استكمال دراسة الحركات السكانية والهجرات، من خلال المقابر الأثرية في منطقة من المناطق أو

حضارة من الحضارات، ثم إن المعتقدات والمشاعر والعواطف يمكن أن تنبئ عنها الصور والرسوم والتماثيل أكثر مما تنبئ عنها النصوص..."[٢٥].

في ذات السياق، ينتقد "فرناند بروديل" (Fernand Braudel) التاريخ الحدثي القائم على سرد الوقائع والأحداث عبر تسلسلها الزمني المحدد وفق الترتيب الموضوع للوثائق المكتوبة، ويعتبر هو الآخر أن النصوص غير كافية لرصد حركية الاقتصاد والمجتمع في الماضي[٢٦].

مما سبق، يتضح بأن مؤرخي الحوليات لم ينكروا دور الوثائق المكتوبة كمصادر للتأريخ، لكنهم اتفقوا على أنها غير كافية لوحدها، ومن هنا جاءت دعوتهم لتوسيع مفهوم الوثيقة، إذ لا يجب أن تظل كلمة "وثيقة" مرادفا لما هو مكتوب فقط. فكل شيء مصدر ووثيقة تاريخية، بما في ذلك المشاهد الجغرافية، الفلكلور، الأمثال الشعبية، العادات والتقاليد، الطقوس الاحتفالية والجنائزية، الطبونيميا، شواهد القبور، الصور الجوية، النقوش والرسوم الصخرية، مظاهر السحر وأدوات الزينة والمطبخ وغيرها.

وقد أسعف هذا التصور "الرحب" لمفهوم الوثيقة مؤرخي الحوليات من توسيع حقل التاريخ نفسه باتجاه دروب بحثية جديدة: إذ تم الاستعاضة عن التاريخ السياسي والعسكري والديبلوماسي بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، الأنثروبولوجيا التاريخية، الديمغرافيا التاريخية، تاريخ العقليات أو الذهنيات، تاريخ المناخ، العادات الغذائية...إلخ.

بالموازاة مع التطور الحاصل في مفهوم الوثيقة التاريخية على مستوى الممارسة، حصل تطور آخر على مستوى التنظير. إذ ستتبلور أفكار الجيل الأول والثاني من الحوليات حول الوثيقة في دراسات إبستيمولوجيين أمثال "هنري مارو" (Henri-Iréné Marro)، "إدوارد كار" (Edward Carr)، و"بول فاين" (Paul Veyne). فهذا الأخير يرى بأن التاريخ -من حيث الجوهر- هو "معرفة بواسطة الوثائق، ولكن السرد التاريخي يتجاوز كل الوثائق ويضع نفسه فيما وراء الوثائق. ويرجع ذلك إلى كون أي وثيقة لا تستطيع أن تكون هي بذاتها الحدث، فالوثيقة ليست محاكاة للحدث بل هي حكاية عنه"[٢٧]، يقاسم "إدوارد كار" نفس وجهة نظر "فاين" تقريبا، إذ يعتبر بأن: "الوثائق هي أشياء أساسية بالنسبة للمؤرخ، ولكن عليه تجنب جعلها معبودًا. فهي لا تشكل التاريخ بحد ذاتها إلا أنها تعطي في ذاتها جوابًا غير جاهز عن السؤال المتعب ما هو التاريخ؟"[٢٨]. أما "هنري مارو" فكان أكثر شمولاً في تعريفه للوثيقة، إذ عرفها على أنها: "كل مصدر للأخبار يتمكن من خلاله فكر المؤرخ من استخلاص شيء من أجل معرفة الماضي البشري منظورًا إليه من خلال الإشكال المطروح وشيئًا فشيئًا تتسع الفكرة وتنتهي باحتواء نصوص وآثار وملاحظات من كل نظام"[٢٩]. كما اعتبر بأن مفهوم الوثيقة مفهوما غير ثابت فهو يتقدم بتقدم فكرة التاريخ، ذلك أن الإدراك الضيق للوثيقة الشاهدة في نظره يؤدي بالضرورة إلى كتابة تاريخ حدثي ذي إيقاع سريع.

خَاتِمَةٌ

ختامًا، يمكن القول بأن مفهوم الوثيقة مفهوم غير ثابت مر بمنعرجات وتقلبات كثيرة وما يزال. فإذا كان الفضل يرجع للوضعانيين في ترسيخ تقاليد صارمة في نقد الوثائق الأرشيفية وتحقيقها، ولمؤرخي الحوليات والتاريخ الجديد في توسيع مفهومها ليشمل كل ما يحمل أثرًا لماضي البشر والطبيعة، وبالتالي جعل الطريق سالكًا أمام المؤرخين لاقتحام دروب بحثية غير مألوفة. فإن الوثائق اليوم تطرح على المؤرخين تحديات مستجدة ترتبط بخصوصية حاضرنا، لعل من أكثرها إثارة للجدل قضايا "مفهوم الوثيقة التاريخية في زمن الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي وسبل تعامل المؤرخ مستقبلا مع هذا الصنف من الوثائق الذي هو في طور التراكم حاليًا".

الاحالات المرجعية:

(١) ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي)، **لسان العرب**، حرف الواو -مادة "وثق"، جزء ١٥، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٥٢.
(٢) العروي (عبد الله)، **مفهوم التاريخ: الالفاظ والمذاهب، المفاهيم والأصول**، الجزء ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥، ص ٨٢.
(٣) عبد الغني إبراهيم (عبد العزيز)، **الوثائق التاريخية المسجلة وأهمية مقارنتها بالروايات الشفهية**، مجلة الوثيقة، عدد ٣٨، السنة ١٩، يوليوز ٢٠٠٠، ص ١٠٦.
(٤) العروي (عبد الله)، **مفهوم التاريخ**، مرجع سابق، ص ٨٠.
(٥) طحطح (خالد)، **الكتابة التاريخية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص٦٦-٦٧.
(6) Le Pellec (Jacqueline), Marcos-Alvarez (Violette), Leduc (Jean), **Construire l'histoire**, Collection didactique, Bertrand-Lacoste, 1998, p. 37.
(٧) بارنز (هاري إلمر)، **تاريخ الكتابة التاريخية**، ترجمة: محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، جزء ٢، ص ٤٥.
(٨) كوثراني (وجيه)، **تاريخ التأريخ: اتجاهات-مدارس-مناهج**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٣، صص ١٤٧-١٤٩.
(٩) طحطح (خالد)، **عودة الحدث التاريخي**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص ١٢.
(10) Le Pellec (Jacqueline) et autre, **Construire l'histoire**, Op.cit. p. 38.
(١١) الحسناوي (عبد الرحيم)، **حفريات في مفهوم الوثيقة التاريخية...مقاربات وتصورات**، المجلة العربية: مجلة شهرية، دار المجلة العربية للنشر، الرياض، عدد ٥٠٨، يناير ٢٠١٩م/جمادى الأولى ١٤٤٠هـ، ص ٤٨.
(١٢) طحطح (خالد)، **الكتابة التاريخية**، مرجع سابق، ص ٧٨.
(١٣) كوثراني (وجيه)، **تاريخ التأريخ**، مرجع سابق، ص ١٦٩.
(١٤) ليشته (جون)، **خمسون مفكرًا أساسيًا معاصرًا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة**، ترجمة: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ١٩٣.
(١٥) لانجوا (شارل)، سنيوبوس (شارل)، **المدخل إلى الدراسات التاريخية**، ضمن كتاب النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن البدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١، ص ٥.
(١٦) صهود (محمد)، **مفهوم الوثيقة التاريخية بين المعرفة العالمة والمعرفة المدرسية**، مجلة التدريس، عدد ٨، السلسلة الجديدة – دجنبر ٢٠١٦، كلية علوم التربية – جامعة محمد الخامس الرباط، ص ٩٣.
(١٧) نفسه.
(١٨) لانجوا (شارل)، سنيوبوس (شارل)، **المدخل إلى الدراسات التاريخية**، مرجع سابق، ص ٥.
(١٩) لانجوا (شارل)، سنيوبوس (شارل)، **المدخل إلى الدراسات التاريخية**، مرجع سابق، ص ٦-٧.
(٢٠) المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣.
(٢١) السبتي (عبد الأحد)، **قضايا منهجية، في التاريخ والذاكرة: أوراش في تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ١١٧.
(٢٢) حبيدة (محمد)، **بحر بروديل**، مجلة رباط الكتب: مجلة إلكترونية متخصصة في الكتاب وقضاياه، ٦ مارس ٢٠١١، رابط المقال: https://ribatalkoutoub.com/?p=579
(٢٣) كوثراني (وجيه)، **تاريخ التأريخ**، مرجع سابق، ص ٢٠٦.
(٢٤) العروي (عبد الله)، **مفهوم التاريخ**، مرجع سابق، ص ٨١.
(25) Bloch (Marc), **Apologie pour l'histoire ou métier d'historien**, Armand Colin, Paris, 1974, p. 56.
(26) Braudel (Fernand), **Ecrits sur l'Histoire**, Flammarion, Paris, 1969, pp. 22-23.
(٢٧) الحسناوي (عبد الرحيم)، **حفريات في مفهوم الوثيقة التاريخية**، مقال سابق، ص ٥٢.
(٢٨) نفسه.
(٢٩) نفس المقال السابق، ص ٥٣.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

ذاكرة الهــجرة الدولــية بسهل تادلا
نموذج بني عمير كحوض هجروي



يونس معديني
أستاذ التعليم الثانوي وباحث في الهجرة الدولية
جامعة السلطان المولي سليمان
بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

على الرغم من غنى مواردها الفلاحية، ظلت منطقة بني عمير مجالاً طاردًا للمهاجرين خاصةً نحو إيطاليا وإسبانيا، وقد شغلت هذه الظاهرة تفكير عدد من سكان المنطقة، وصارت حلمًا يسعى كل واحد إلى تحقيقه لتتحول في ظرف وجيز إلى حوض هجروي مهم على الصعيد الوطني. وقد تحكمت في ذلك مجموعة من العوامل والآليات، منها ما له علاقة بالقرابة الدموية والجغرافية والعلاقات الاجتماعية، ومنها ما هو مرتبط بالشبكة الهجروية (Réseau migratoire) التي وفرها المهاجرون الأوائل بكل من إيطاليا وإسبانيا، حيث ظلت تقدم مجموعة من الخدمات لأبناء المنطقة، هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته بعض المناطق المجاورة لبني عمير في انتشار ثقافة الهجرة بين الأفراد. وبذلك صارت المنطقة تحتضن ذاكرة هجروية مهمة. تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على العوامل التي تحكمت في إنتاج هذه الظاهرة الاجتماعية غير المسبوقة على صعيد المنطقة، وذلك من خلال الاعتماد على منهج بيوغرافي يقوم على سير حياة المهاجرين Récits de vie للكشف عن الذاكرة الفردية والجماعية المرتبطة بحدث الهجرة بمنطقة بني عمير وقد كشفت الدراسة عن أهمية العلاقات الاجتماعية في انتشار الفعل الهجروي خاصة وأن هذا الحدث تزامن مع ما عرفته المنطقة من تأزم القطاع الفلاحي نتيجة توالي سنوات الجفاف، والنتائج السلبية لسياسة التقويم الهيكلي على القطاع الاجتماعي، الشيء الذي جعل المنطقة تتحول في ظرف وجيز الى حوض هجروي طارد لأبنائها في اتجاه البلدان الأوربية خاصة إيطاليا وإسبانيا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٢	سبتمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	أكتوبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الهجرة الدولية؛ بني عمير؛ ذاكرة الهجرة؛ شبكة الهجرة؛ حوض هجروي طارد.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.206494

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يونس معديني. "ذاكرة الهـجرة الدولـية بسهل تادلا: نموذج بني عمير كحوض هجروي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٢٠٥ – ٢١٦.

Corresponding author: younes.madani32@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

تعتبر الهجرة الدولية من الظواهر التي أصبح يعرفها عالمنا اليوم: فكل دول العالم صارت تستقبل مهاجرين جدد، وفي الوقت نفسه يغادرها هي الأخرى عدد من سكانها نحو بلدان ودول أخرى. لكن مع وجود فارق كبير: فهناك دول صارت وجهة لعدد مهم من المهاجرين مقابل دول تعرف نزوحا لعدد من سكانها نحو بلدان أخرى، وهذا ما جعل بعض الباحثين من أمثال "أنطوني غدنز"[١] يصفون هذا العصر بـ"عصر الهجرة". فقد تحول هذا العالم وفق التعبير الذي استعمله المشاركون في المؤتمر الثامن للجغرافية إلى قافلة.[٢] لقد كانت الهجرة الدولية المغربية إفرازًا للسياق الوطني والدولي، فقد برزت الظاهرة خلال الفترة الكولونيالية أي خلال مرحلة الاستعمار،[٣] فحسب بعض الباحثين أدى الاحتلال الفرنسي لعدد من المناطق المغربية إلى نزوح عدد من ساكنتها القروية نحو المراكز الحضرية، وكذلك إلى هجرة عدد من ساكنة المدن نحو الخارج خاصة في اتجاه فرنسا للعمل هناك في الجيش والمناجم أو المصانع.

ضمن هذا السياق الوطني ظهرت مناطق جديدة لانطلاق الهجرة الدولية، حيث لم تعد تيارات الهجرة الدولية مصدرها فقط المناطق الفقيرة اقتصاديًا والمهمشة اجتماعيًا والمتمثلة أساسًا في مناطق الدير والجبل، بل نجد أن هذه التيارات صارت تغذيها كذلك مناطق غنية من الناحية الاقتصادية. وبموازاة مع ذلك، ظهرت بلدان هجرة جديدة صارت تجذب نحوها عددًا من المهاجرين، ونعني هنا كل من إيطاليا وإسبانيا بعدما تحسنت أوضاعهما الاقتصادية. مع هذه الموجة الثانية التي اندمج فيها سهل تادلا حدث تحول نوعي إذ لم نعد نتحدث عن هجرة ذكورية كما كان الشأن بالنسبة للموجة الأولى، بل أصبح النساء يهاجرن لوحدهن بالإضافة إلى فئة الطلبة والموظفين..، مما جعلها تصنف ضمن ما أطلق عليه إعلاميًا ب"مثلث الموت le Triangle de la mort" أو "مثلث الهجرة"،[٤] نظرًا لحجم التيارات الهجروية التي انطلقت منه خلال عقدي الثمانينات والتسعينات. في الوقت الذي تعتبر فيه مثلثا للثروة في المغرب، وهو ما يمثل بالفعل مفارقة لمنطقة غنية اقتصاديا لكنها فقيرة اجتماعيًا. في هذا السياق برزت منطقة "بني عمير"[٥] بسهل تادلا كحوض هجروي انطلقت منه تيارات هجروية مهمة، فهذه المنطقة لم تكن منغلقة على نفسها إذ ظلت تربطها علاقات تاريخية بالمناطق المجاورة لها. فبعدما كان هذا المجال يستقطب عددا مهما من المهاجرين الباحثين عن فرص شغل بالقطاع المسقي أصبح حاليًا يغذي تيارات هجروية مهمة نحو الخارج وخاصةً نحو إيطاليا وإسبانيا.

الهدف من الدراسة

ذلك أن "أهمية البحث العلمي تكمن في إثراء العلم بالحقائق والنظريات"[٦]. يكتسي هذا البحث أهميته من خلال محاولته الوقوف على خصائص الذاكرة الهجروية سواء في بعدها الفردي أو الجماعي، وكذا ظروف وعوامل تشكلها بمنطقة ظلت تعتبر مختبرا للهجرة على الرغم من تجربتها السقوية المبكرة. فالهدف هو محاولة توثيق الفعل الهجروي بالمنطقة وتحديد الكيفية التي انتشرت بها الهجرة الدولية، وذلك اعتمادًا على منهج بيوغرافي يقوم على سير حياة المهاجرين الأوائل.

توطين مجال الدراسة

في هذا الإطار شمل بحثنا هذا بالدراسة منطقة بني عمير، حيث اعتمدنا في اختيار الدواوير موضوع الدراسة على معيار القرب الجغرافي من منطقة بني مسكين، بهدف معرفة الدور الذي يمكن أن تكون قد لعبته هذه المنطقة في انتقال الفعل الهجروي. وعلى هذا الأساس قمنا باختيار كل من دوار "أولاد امبارك" و"أولاد سالم". كما كان اختيارنا لكل من دوار "أولاد ركيعة" و"أهل امربع" نظرا لبعدهما عن منطقة بني مسكين وكذا الهجرة المبكرة لأفرادها، أما بالنسبة لدوار "أولاد احمد" فقد كان اختياره نظرًا لكون ساكنة الدوار في الأصل قد نزحوا عن موطنهم الأصلي الذي يتواجد على الحدود مع بني مسكين، وذلك بهدف التعرف على مدى استمرارية تأثير الهجرة الدولية بها.

تحديد الإشكالية

كيف تحولت منطقة بني عمير في ظرف وجيز الى حوض هجروي طارد، بالرغم من غنى موادرها الفلاحية؟ وبهدف توضيح الإشكالية المطروحة، لابد من طرح مجموعة من التساؤلات التي ستعيننا على إماطة اللثام عن العناصر الأساسية للإشكال المطروح، وفي هذا الإطار قمنا ببلورة الأسئلة التالية: ما هي الظروف والعوامل التي جعلت من بني عمير منطقة طاردة للمهاجرين؟ كيف انتشرت ظاهرة الهجرة بمنطقة بني عمير؟ وهل ساهم في هذا الانتشار عوامل خارجة عن المنطقة؟

فرضيات البحث

كما هو معلوم في حقل العلوم الاجتماعية فهي تستوجب وضع فرضيات تكون بمثابة تخمين أو استنتاج يصوغه الباحث لشرح ما يلاحظه من حقائق وظواهر، في هذا الصدد قمنا

بصياغة مجموعة من الفرضيات للإجابة عن إشكالية البحث المطروحة والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

الفرضية الأولى: شكلت الهجرة الدولية في اتجاه إيطاليا وإسبانيا في السنوات الأخيرة حدثا بارزا بمنطقة بني عمير بشكل خاص وسهل تادلا بشكل عام، وهو حدث انخرط فيه عدد من سكان المنطقة بمختلف أعمارهم.

الفرضية الثانية: تحكمت مجموعة من العوامل والآليات في انتشار الفعل الهجروي بالمنطقة، فقد كان للقرابة الدموية والجغرافية والعلاقات الاجتماعية دور في انتشار ثقافة الهجرة وانتقالها بين الأفراد، وظلت الشبكة الهجروية تعمل على توجيه عدد مهم من المهاجرين نحو كل من إيطاليا وإسبانيا. كما ساهمت بعض المناطق المجاورة لبني عمير في هذا الانتشار.

منهجية البحث

لا شك أن المنهجية المعتمدة في البحث تعتبر من الخطوات المهمة باعتبارها تنير الطريق أمام الباحث وتجنبه التيه والابتعاد عن صميم الموضوع، ذلك أنها لا تقل أهمية عن الجوانب المعرفية. وانطلاقا من هذه المسلمة فقد اعتمدنا المنهجية التالية:

المرحلة الأولى: وجهنا اهتمامنا إلى الإطلاع على النظريات التي اهتمت بالهجرة وكذلك الدراسات السابقة حول الظاهرة، من أجل ضبط مختلف الآليات المتحكمة فيها وذلك حتى نتمكن من جمع أكبر قدر من المعلومات والوقوف على أراء الدارسين و الباحثين وزوايا معالجتهم للموضوع.

المرحلة الثانية: وترتبط هذه المرحلة بالبحث الميداني، وذلك بهدف الاقتراب من واقع الموضوع حيث حاولنا الجمع بين "المنهج الكيفي Méthode Qualitative" والمنهج الكمي Méthode Quantitative نظرًا لأهميتهما في فهم الظاهرة،[7] من خلال اعتمادنا على **منهجية السير الحياتية "Récits de vie**.[8] وهي نموذج بحثي يقوم على المنهج البيوغرافي من خلال توظيف منهجية "سير الحياة récits de vie" التي تستهدف إعادة إحياء تجربة الفاعلين. هذا المنهج يعتبر من المناهج النوعية الهامة في العلوم الإنسانية والاجتماعية على حد سواء.

أولاً: سهل تادلة حوض هجروي تطور بشكل مهم خلال العقود الأخيرة

١/١-انطلقت الهجرة الدولية بشكل مبكر من منطقة الجبل والدير بسهل تادلة

اقتصرت الموجة الأولى للمهاجرين بسهل تادلة على المناطق الجبلية ومناطق الدير، حيث كانت بداياتها خلال مرحلة الحماية واستمرت بعد الاستقلال، فقد ظلت وجهتها الرئيسة هي فرنسا نظرًا لحاجتها الملحة إلى اليد العاملة لإعادة بناء اقتصادها بعد الحرب العالمية الثانية.

حيث تميزت بكونها هجرة انتقائية ارتبطت تاريخيًا بالفرنسي فيليكس مورا Félix Mora الذي كان يسهر على تدبيرها، وهي هجرة منظمة من طرف الحكومة الفرنسية عن طريق عقود العمل ومن بين هذه المناطق التي شملتها الموجة الأولى من الهجرة، نذكر "القصيبة" التي كان حاكمها ويدعى "سعيد واسو" على معرفة شخصية بهذا الضابط الفرنسي.

لقد كانت الهجرة بمنطقة الدير والجبل (نموذج القصيبة) تتم وفق مجموعة من المعايير في انتقاء الأشخاص الذين يتوفرن على مؤهلات جسمانية تجعل الشخص قادرا على القيام ببعض الأعمال الشاقة مثل قطع الأشجار بالغابات الفرنسية. على هذا الأساس توجه المهاجرون الأوائل نحو فرنسا بعدما تمكنوا من الحصول على عقد عمل، لتتوسع دائرة الهجرة بعد التحاق مهاجرين آخرين عن طريق شراء عقود للعمل ومنهم من أبرموا عقد زواج مصلحة مع إحدى الفرنسيات للحصول على أوراق الإقامة. إن ما يميز الموجة الأولى من المهاجرين هو انطلاقها من مناطق فقيرة اقتصاديا، تتميز بظروف طبيعية قاسية وتعاني من التهميش الاجتماعي. وهذا عكس الظروف السوسيواقتصادية للموجة الثانية. كما ظلت الهجرة إلى أوربا (نموذج فرنسا) خلال الموجة الأولى (فترة الستينيات) ينظر إليها في غالب الأحيان بشكل سلبي ويتم تمثل فاعليها على أنهم فاشلين اجتماعيًا ومعرضون للتنصير دينيًا وعدم شرعية الأموال التي يتم جنيها ببلاد النصارى.

١/٢-ظلت منطقة بني عمير في منأى عن الهجرة الدولية المنظمة

لم تندمج منطقة بني عمير ضمن الهجرة الدولية المنظمة التي عرفتها مناطق الدير والجبل، ويعزى ذلك إلى جملة من الاعتبارات تتمثل أساسًا في الأهمية الاقتصادية للسهل على المستوى الوطني نظرًا للتجربة السقوية المبكرة التي عرفها، فقد شكل النشاط الفلاحي العصري وبعض الوحدات الصناعفلاحية والإدارية بنى تحتية ساهمت في تأخر هذا الاندماج. ففي بداية القرن العشرين عرفت منطقة بني عمير مجموعة من التحولات الفلاحية، والتي انطلق مسلسلها بإدخال السقي العصري مما ساهم في الانتقال من بنيات فلاحية ما

قبل رأسمالية تعتمد على الزراعة الموسمية والرعي الواسع إلى بنيات فلاحية رأسمالية ترتكز على نظام كثيف في الزراعة وتربية الماشية[9] وكنتيجة لعملية السقي فقد ارتفع ثمن الأرض ليبلغ ثمن الهكتار المسقي العالي الجودة حوالي ١٨ مليون سم، بينما لا يتعدى ثمن الهكتار البوري ٤ ملايين سم، كما ارتفع الإنتاج وتعددت أنواع المحاصيل الزراعية مما خلق فرص مهمة للعمل.[10]

٣/١-انخرطت منطقة بني عمير ضمن الموجة الثانية من الهجرة الدولية مع بداية الثمانينيات

على الرغم من أن منطقة بني عمير تشكل نموذج لمناطق السهل التي عرفت تجربة سقوية مبكرة فانها تحولت إلى حوض هجروي، وهو ما أشار اليه أحد الدارسين، فالسهل الغني بتجهيزاته الهيدروفلاحية يأبى إلا أن ينخرط في تيار الهجرة الدولية التي مست% ٢٠ من أسره أي ١٢٠٠٠ مهاجرًا دوليًا ليعاكس أطروحة ارتباط الهجرة الدولية بالنطاقات الفقيرة وغير المجهزة، فما هي خصائص هذه الهجرة؟

عرفت منطقة بني عمير خلال أواسط الثمانينيات من القرن العشرين هجرة مهمة، شكلت كل من إيطاليا وإسبانيا وجهتها الرئيسة وهي هجرة اتخذت شكلاً غير منظم عكس ما شهدته منطقة الجبل والدير. فمن خلال البحث الميداني أمكننا الوقوف على التطور الكرونولوجي لهذه الهجرة. يتضح لنا من خلال االبحث أن حوالي ٢٠% من المهاجرين كانوا يتواجدون بالخارج قبل سنة ١٩٧٦، بل أن أحد هؤلاء المهاجرين العميريين الأوائل قد هاجر نحو أوربا سنة ١٩٥٧ (يتعلق الأمر بشخص ينتمي لدوار "أهل امربع" قد تمت هجرته سنة ١٩٥٧، حيث شكل استثناءً منفردًا داخل المجال العميري)، وبذلك فالهجرة الدولية بمنطقة بني عمير قد برزت أهميتها بشكل بارز خلال أواسط الثمانينيات، وإن كانت بوادرها الأولى قبل ذلك كما سبقت الإشارة، غير أنها كانت ضئيلة ولم يكن لها تأثير كبير. **ويمكن الوقوف على خصائص كل مرحلة على الشكل التالي:**

الفترة ما قبل ١٩٧٦

لقد شكلت هذه الفترة البوادر الأولى لانطلاقة للفعل الهجروي بالمنطقة، فعدد المهاجرين إبان هذه المرحلة ضئيل مقارنة بالمراحل اللاحقة، والبعض من هؤلاء المهاجرين هاجر خلال أواسط الستينات، ويمكن القول أن الأمر يتعلق بعدد قليل من الأشخاص الذين كانوا يتعاطون للتجارة بشكل موسمي ولا يتوفرون على بطاقة الإقامة بدول الاستقبال التي ظلت تعتبرهم مهاجرين غير قانونيين على أراضيها نظرا لكونهم دخلوا الأراضي الايطالية بجواز سفر فقط، لكنه ونظرًا لحاجة اقتصادها لليد العاملة فقد كانت تتعامل بنوع من المرونة مع هؤلاء المهاجرين، يقول أحد المستجوبين: "هاجرت إلى إيطاليا سنة ١٩٧٢ (...) وكنا نهاجر فقط بجواز السفر (...) والبلد الذي يتساهل مع وضعيتنا (المهاجر يكون في وضعية غير قانونية عند وصوله لإيطاليا) كما أخبرني أبناء الدوار هو إيطاليا (...) فعلى الرغم من أني كنت أمر عبر فرنسا فإني لم أفكر يوما أن أستقر فيها، لأنني لا أعرف عنها أي شيء... كما أن تعامل الفرنسيين معنا يطبعه العنصرية" (مهاجر ب.ن ٦٠ سنة).

بل إن هذا التعاطف قد يصل أحيانا إلى تقديم المساعدة عكس الممارسات العنصرية التي يواجهونها في بعض البلدان، كما أن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا خلال هذه الفترة تأثروا بهجرة المناطق المجاورة، ونعني هنا منطقة "بني مسكين" التي راكمت رصيدًا هجرويًا مهمًا وشكلت شبكة هجروية réseau migratoire مبكرة بإيطاليا.

الفترة (١٩٧٦-١٩٨٥)

وخلال المرحلة الثانية (١٩٧٦-١٩٨٥) بدأ يتزايد عدد المهاجرين في التدفق نحو إيطاليا بشكل، كما أننا نسجل تقارب في وتيرة الهجرة لدى الدواوير التي شملها البحث. ومما ساهم في هذه الهجرة الدور الذي لعبه المهاجرون الأوائل بكل من إيطاليا وإسبانيا بفضل توفر شبكة هجروية réseau migratoire ناهيك عن الظروف المتأزمة التي عرفه القطاع الفلاحي بالمنطقة نتيجة الإجراءات التي طبقتها الدولة في إطار سياسة التقويم الهيكلي لسنة ١٩٨٣ والتي تمثلت في تخفيض الدعم المقدم للفلاحين، وتزامن ذلك مع ما شهده المغرب من توالي سنوات الجفاف مما ساهم في ارتفاع تكاليف الإنتاج بالإضافة إلى ارتفاع حدة البطالة في صفوف الشباب.

الفترة (١٩٨٦-١٩٩٥)

عرفت الهجرة وتيرة أسرع خلال المرحلة الثالثة (١٩٨٦-١٩٩٥) ويعزى ذلك إلى عمليات التسوية القانونية التي بادرتها الحكومة الايطالية وتشجيعها للتجمع العائلي، فمعظم المهاجرين من الجيل الأول قد تمكنوا من التأقلم مع طبيعة الحياة في بلدان الاستقبال ونجحوا في تحقيق نوع من الاستقرار، وهو ما دفع بهم إلى استقدام أفراد عائلتهم بعدما تمكنوا من تسوية وضعيتهم القانونية بكل من إيطاليا وإسبانيا خلال هذه الفترة، كما صرح بذلك العديد من المستجوبين: "حصلت على أوراق الإقامة بإيطاليا سنة ١٩٨٦، ففكرت في اصطحاب ٣ من أبنائي سنة ١٩٨٨ ثم لحقتهم والدتهم سنة ١٩٩٠ وقمت بكراء

شقة والاستقرار بها" (مهاجر ط.م ٦٠سنة). فالمهاجر بعد حصوله على أوراق الإقامة بالمهجر اضطر إلى تغيير ظروف عيشه من خلال استقدام أفراد أسرته وتوفير مسكن يضمن لهم الاستقرار، كما اضطر إلى تغيير وضعيته المهنية من خلال الاشتغال بأعمال قارة وذلك حتى يتمكن من تجديد أوراق إقامته.

الفترة (١٩٩٦-٢٠٠٥)

خلال الفترة (١٩٩٦-٢٠٠٥) بدأ عدد المهاجرين نحو إيطاليا في التراجع ويفسر ذلك بصعوبة العبور إلى الضفة الأخرى، حيث شرعت بلدان الاتحاد الأوربي ومن بينها إيطاليا في تشديد مراقبتها للحدود نتيجة التدفقات الكبيرة للمهاجرين، وبدأت نظرتها تتغير اتجاه هؤلاء بعدما حققت تطورها الاقتصادي، يقول أحد المستجوبين: " فيما قبل كانت الحدود الايطالية مفتوحة لكنه ومع تطبيق نظام التأشيرة أصبح العبور نحو إيطاليا صعبا للغاية (...) فأصبح الحل هو الهجرة السرية "الحريك" (...) وإذا أردت الهجرة فيلزمك مبلغ مالي قد يصل إلى ٧٠,٠٠٠ درهم تقدمها لأحد الوسطاء والسماسرة." (مهاجر س.ك).

الفترة ما بعد ٢٠٠٦

وخلال الفترة الأخيرة (ما بعد ٢٠٠٦) تراجع عدد المهاجرين بشكل مهم جد وذلك بفعل الأزمة الاقتصادية لسنة ٢٠٠٨ التي أثرت سلبًا على اقتصاديات بلدان المهجر، حيث بدأت تظهر بوادر هجرة معاكسة ونعني هنا "هجرة العودة"، في انتظار أن تتحسن الأوضاع الاقتصادية بهذه البلدان ليهاجروا إليها مرة أخرى.

ثانيًا: العوامل التي ساهمت في الهجرة الدولية ببني عمير

٢/١-دوافع اقتصادية

كا ينتظر من منطقة بني عمير بعد ادخال السقي أن تصبح مجالاً جاذبًا للهجرة الداخلية من المناطق المجاورة، لكن نجدها عكس ذلك قد أصبحت حوضًا هجرويًا بامتياز. هذه المفارقة يمكن تفسيرها بمجموعة من العوامل في مقدمتها العامل الاقتصادي، فما أصبح يعانيه القطاع الفلاحي من مشاكل مرتبطة بالظروف التي عرفتها المنطقة خلال بداية الثمانينيات خاصة بعدما أصبحت تتناقص فيها وسائل العيش المحلية قد دفع بالعديد من الأفراد إلى التفكير في الهجرة. فالقطاع الفلاحي الذي ظل يشكل قطاعًا أساسيًا بالنسبة لمجال بني عمير قد أصبح يعاني من خلل ستكون له انعكاسات وخيمة على أبناء المنطقة، فقد عرفت تكلفة الإنتاج ارتفاعًا متزايدًا، حيث بلغت تكلفة الهكتار الواحد من الأرض حوالي ١١٠٠ درهم سنة ١٩٩١ نظرًا لارتفاع تكلفة اليد العاملة.[١١] وعلى الرغم من أن ثمن المنتوجات الفلاحصناعية قد عرف ارتفاعًا مهمًا فثمن الكيلوغرام الواحد من القطن ارتفع سنة ١٩٩٣، إلا أن هذا التطور لم يكن يوازي تكاليف الإنتاج لهاته المادة مما جعل هامش الربح ضيقا ولم يتجاوز ٦٧٨ درهم للهكتار سنة ١٩٩١، وأحيانًا تفوق تكلفة الإنتاج الربح.

هذا في الوقت الذي تراجع فيه دعم الدولة للفلاح نتيجة تطبيق المغرب لبرنامج التقويم الهيكلي (PAS 1983) في المجال الفلاحي حيث تم إلغاء الدعم المخصص لبعض المزروعات ولبعض المعدات ووسائل الإنتاج الفلاحي. فبدءا من التسعينات تغيرت سياسة المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي حيث أصبح الفلاح مطالبا بتسديد الديون التي في ذمته قبل فترة الإنتاج، فعلى سبيل المثال فان فاتورة ماء السقي يجب أن تسدد كل ٣ أشهر وهو ما ساهم في ارتفاع تكاليف الإنتاج خاصةً بعدما أصبح الفلاح يقوم باقتناء كل معداته الفلاحية دون مساعدة من الدولة، يقول أحد المستجوبين: "(...) في تلك الفترة لم أعد أستطيع الاستمرار في الفلاحة، فقد أصبحت غير معول عليها لضمان مستوى عيش أفضل (...) فالدولة لم تعد تقدم لنا المساعدة (...) كما أنك تظل تشتغل كأجير بأجر قليل..." (مهاجر، ط.م ٦١ سنة).

وقد تزامن هذا الوضع مع ما عرفته المنطقة من توالي سنوات الجفاف حيث تعتبر الفترة الممتدة من سنة ١٩٨٠ إلى غاية ١٩٩٥ من أشد فترات الجفاف الفلاحي التي عرفها المغرب، وهو ما كان له انعكاسات خطيرة على الوضع الفلاحي خاصة بالعالم القروي الذي كان يعاني من التهميش الاجتماعي. كما أن التطور الذي عرفته الفلاحة المسقية بالمنطقة لم يصاحبه احداث وحدات صناعية قادرة على تثمين الانتاج الفلاحي وتحويل مواد فلاحية إلى منتوجات صناعية، بشكل يضمن توفير فرص الشغل لفئة مهمة من الشباب الذي يعاني من البطالة، مما شكل دافعا مهما للهجرة الدولية. وفي هذا الإطار يمكن أن نستدل بمقولة الديمغرافي "Alfred Sauvy" إما أن ترحل الثروات حيث يوجد البشر وإما أن يرحل البشر حيث توجد الثروات".[١٢] فالأفراد يتنقلون بحثا عن حياة أفضل. وإلا كيف نفسر التحركات الجماعية للمهاجرين الأفارقة نحو أوربا؟ فقد غدت أوربا مركزًا لهذه الثروات وصارت تغري عددا من مهاجري الدول الفقيرة.

٢/٢-دوافع اجتماعية

عرفت منطقة بني عمير ارتفاع حدة البطالة كنتيجة لتدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي فقد تبين لنا من البحث الميداني أن نسبة مهمة من اليد العاملة كانت تشتغل بالقطاع الفلاحي الذي تأزم نتيجة ارتفاع تكاليف الإنتاج، كما ظلت فئة مهمة من السكان تعاني من البطالة. فما يمكن استنتاجه هو تأزم الظروف الاجتماعية للمهاجرين قبل الهجرة، ويعزى ذلك إلى الأزمة التي أصبح يعرفها القطاع الفلاحي وعجزه عن توفير فرص الشغل لفئة عريضة من شباب المنطقة نتيجة إملاءات المؤسسات المالية الدولية على المغرب في إطار برنامج التقويم الهيكلي، والتي كانت نتائجه كارثية في القطاع الاجتماعي إذ ستساهم في تخفيض فرص الشغل. حيث اضطر العديد من شباب المنطقة بسبب تأزم الوضع الاجتماعي إلى الهجرة كوسيلة لتحسين ظروفهم المادية، نظرًا لما تتيحه دول الاستقبال من إمكانات لتحقيق ذلك، وبذلك يصبح المهاجر مدركا للمنفعة التي سيحققها من مشروعه الهجروي إذا ما أقبل على تنفيذه وهو ما يحيلنا على نموذج الفرص أو الإمكانات الوسيطة ضمن النظرية الاقتصادية.

كما أن العديد من المهاجرين يعتبرون العزلة التي تعانيها مناطقهم القروية دافعًا للتفكير في الهجرة، فمن جهة هناك قلة فرص الشغل ومن جهة أخرى فالدولة لم تتدخل لدعم القطاع الفلاحي الذي تأزمت أوضاعه. هذا في الوقت الذي عجزت فيه المدرسة عن أداء الأدوار التي كانت تقوم بها فيما مضى كعامل للارتقاء الاجتماعي فسياسة التقويم الهيكلي كانت نتائجها سلبية على القطاع العمومي، ولعل هذا ما يفسر لنا غياب وضعف البنيات التحتية بالمنطقة خاصة تلك المتعلقة بالتعليم حيث لم تتمكن شريحة مهمة من سكان المنطقة حسب البحث الميداني من الولوج إلى المدرسة، كما أن نسبة مهمة من السكان لم تستطع متابعة دراستها بمختلف أسلاك التعليم.

ومن ثَمَّ فالبنية الثقافية لغالبية سكان المنطقة عامل مفسر للبنية المهنية، كما أنها عامل مشجع لمجموعة من الشباب على اتخاذ قرار الهجرة نحو الخارج من أجل تحسين وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية كما صرح بذلك العديد من المستجوبين. فقد أمكننا البحث الميداني من الوقوف على بعض من الدواوير التي تفتقر للعديد من المرافق التعليمية والبنى التحتية، هذه الظروف شكلت دافعًا قويًا لمغادرة الدوار والبحث عن فرص أفضل في الخارج. وعليه كانت الهجرة هي الحل

كما عبر عن ذلك الباحث عبد الرحيم العطري بالقول" تؤشر الهجرة دومًا على نوع من الحراك الاجتماعي داخل المجال، والذي يفترض انتقالا اجتماعيا من فضاء إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى".[١٣]

٣/٢-دوافع ثقافية

ظلت الهجرة الدولية كثقافة متجذرة وراسخة في مجتمع بني عمير، فالهجرة هي ظاهرة إنسانية والمعطى الثقافي يعتبر أحد أهم الدوافع التي تدفع هذه المجموعات إلى الهجرة من مكان إلى آخر. ومن ثم يمكن اعتبار الهجرة بمثابة سلوك مكتسب من المحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد، فغالبية الأسر ببني عمير تمتلك مهاجرا على الأقل بالخارج، أي أن الفرد له مجموعة من الأقارب (أخ، عم، خال...) بالخارج حيث يصير الفعل الهجروي ثقافة ويتحول إلى سلوك، يقول أحد المستجوبين: "(...) بْدِيتْ نْفَكَّرْ نْمْشِي لْطَّالْيَانْ مْلِّي كُنْتْ صْغِيرْ، عْمَامِي وْ خْوَالِي وْ وْلَادْهُمْ كُلْهُمْ مْشَاوْ حْتَّى الْفْقِيهْ دْيَالْ الدُّوَّارْ مْشَا (...) هْنَا فْالدُّوَّارْ كَتْصِيبْ فْخْدَة كُلْهُمْ فْالطَّالْيَانْ (...) هَادْ الْبْلَادْ دَّاتْ لِينَا الْعْقَلْ، نْفَكْرُوا فِيهَا بالِّيلْ وْ النْهَارْ..."(مهاجر، م.ر٦٩ سنة) (بدأت التفكير في الهجرة منذ الطفولة، فكل أقاربي قد هاجروا ولم يسلم من هذه الهجرة امام مسجد قريتنا... وبصراحة فالخارج قد سلب كل عقولنا نفكر فيه باستمرار).

ومما يؤكد أن الهجرة قد صارت ثقافة ببني عمير هو أن العديد من المهاجرين كانوا ينتمون لأسر ميسورة تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي المسقية، حيث لم تعد مقتصرة على الأسر الفقيرة. هذه الثقافة قد تتحول إلى مرض كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين" هكذا تتجدر هاته العدوى في مناطق الانطلاق لتصبح مرضًا متفشيًا علاجه الوحيد هو الهجرة الدولية ذاتها"[١٤] فيصبح الحل هو الهجرة الدولية ذاتها، ومن ثم تصير الهجرة ظاهرة تغذي نفسها بنفسها.

٤/٢-دوافع نفسية

مارست الهجرة تأثيرًا قويًا على فئات عريضة من شباب المنطقة، حيث ظل هذا الحلم يراود كل فرد فعبارة "بْغِيتْ نْمْشِي لْطْلَايْنْ نْجِيبْ فْلُوسْ خْرَايْنْ" (أريد الهجرة نحو إيطاليا للحصول على المال) تتردد باستمرار بل ترسخت في الذاكرة الجماعية للمنطقة. فالزيارات المتكررة للمهاجر وحجم تحويلاته المالية والقيمة التي يحضى بها داخل الأسرة والدوار، كل ذلك يؤجج في نفوس الشباب فكرة الهجرة وتتأكد الفكرة كلما تأزمت الظروف الاقتصادية والاجتماعية، مما يجعل حدث

الهجرة قريبا منه نفسيًا كما أشار إلى ذلك الباحث "أبو العز" في دراسته لمنطقة تادلا.

إذ لم تعد للمسافة الكيلومترية أي معنى أمام المسافة النفسية التي تجعل حدث الهجرة قريبا إلى المهاجر العميري، فتصبح العراقيل والحدود الجغرافية التي تفصله عن الوصول إلى وجهته ولا تشكل بالنسبة إليه أية صعوبة، ولذلك نجده يقطع الأدغال أو يعبر العديد من البلدان في سبيل الوصول إلى إيطاليا.

فحلم الوصول إلى الضفة الأخرى لا يفارق الفرد حيث يشكل هاجسًا نفسيًا بالنسبة له، نتيجة صورة النجاح الاجتماعي التي يجسدها المهاجر خلال زيارته لموطنه الأصلي، والتي تعطي انطباعا لباقي الأفراد على أن المهاجر يعيش في البذخ والثراء ببلدان المهجر،[١٥] فالمهاجر هو ذلك الشخص الذي يحس بنوع من العنف في موطنه الأصل نتيجة ما يتصوره عن الحياة والعيش بدول المهجر، من خلال ما يراه في حيه ومدينته من أثار الهجرة الخارجية مما يدفعه نحو التفكير في المغامرة. هذه التصورات حول طبيعة الحياة بالخارج سرعان ما تدفعه نحو التقليد الاجتماعي، أي تقليد أفراد من محيطه الاجتماعي نجحوا في الهجرة، فالتقليد هنا هو إعادة إنتاج السلوك الذي شكله شخص أخر.

وعليه فإن ظهور الهجرة الدولية بمنطقة بني عمير هو نتاج لهذه العوامل مجتمعة، فهي ظاهرة معقدة يتداخل فيها ما هو اقتصادي واجتماعي وثقافي ونفسي، ولا يمكن النظر إليها من زاوية واحدة بل المطلوب دراستها من زوايا متعددة وفق رؤية شمولية. وعلى الرغم من ذلك تبقى نظريو أرنست رافينستين Raffinistine Arneste في تفسير الهجرة على أساس اقتصادي سنة ١٨٨٥ في مقال له بعنوان "قوانين الهجرة" من أهم النظريات المفسرة للفعل الهجروي،[١٦] حيث خلص إلى أن فعل الهجرة محكوم بعوامل الدفع والجذب، فالظروف الاقتصادية المتأزمة والفقر تدفع كل فرد إلى التفكير في الهجرة نحو مناطق خارج بلده أكثر جاذبية وتتوفر فيها ظروف اقتصادية أفضل مقارنة مع مناطق الانطلاق.

ثالثًا: عوامل وآليات انتقال الفعل الهجروي ببني عمير

لقد تفننت أدبيات الهجرة بوصف المنطقة على أنها حوض هجروي مهم، من هذا المنطلق سيكون من اللازم تحديد الكيفية التي جعلت من هذا المجال حوضًا هجرويًا، وذلك من خلال الوقوف على آليات انتقال الفعل الهجروي. حيث لعبت الشبكات الهجروية وما ارتبط بها من قرابة جغرافية ودموية دورًا مهمًا في انتشار الفعل الهجروي، كما كان للقرب الجغرافي لبني عمير من منطقة بني مسكين دور لا يقل أهمية عن سابقه في انتقال الهجرة.

٣/١-دور الشبكة الهجروية في انتشار الهجرة الدولية داخل منطقة بني عمير

تُعَدّ الشبكة الهجروية Réseau migratoire بمثابة الوسيلة التي من خلالها استطاع عدد من المهاجرين الوصول إلى بلدان الاستقبال، فهي تمارس تأثيرها على المرشح الجديد للهجرة إذ قبل هجرته فهو يحتاج إلى ما يضمن نجاح مشروعه الهجروي ببلد الاستقبال وبعد وصوله يحتاج إلى من يوجهه ويساعده. هذا الدور موكول للمهاجرين الأوائل الذين شكلوا شبكة هجروية في كل من إيطاليا وإسبانيا، فمن أجل ضمان تعلقهم واستمرارية علاقتهم بالموطن الأصلي يعمدون إلى تأسيس مجتمع قروي مصغر يستجيب لنفس القواعد والتنظيم للموطن الأم مما يضمن الارتباط الوثيق به. وهو ما شجع على هجرة العديد من المهاجرين، يقول بعض المستجوبين: "(...) هاجرت إلى إيطاليا لأن بها ما يمكن إن يساعدني فأبناء الدوار وبعضا من أفراد العائلة يتواجدون بها (...) كما تعلم لا بد من شخص يجب أن تلجأ اليه عند وصولك (...) وأن يساعدك في السكن والعمل، لهذا قررت أن أهاجر..." (مهاجر، س.أ. ٧٥ سنة).

فقد لعبت الشبكة الهجرية دورًا مهمًا في احتضان المهاجر الجديد ببلد الوصول، ذلك أن حوالي ثلاثة أرباع من المهاجرين الذين شملهم البحث الميداني قد استفادوا من خدمات مهاجرين آخرين، وهو ما يشكل دليلا قويا على العلاقات الاجتماعية ومدى دورها في انتقال الفعل الهجروي ببني عمير. فالقرابة الدموية بين المهاجرين والمرشحين للهجرة لعبت دورا مهما في انتشار الفعل الهجروي وانتقاله بين أبناء المنطقة. فمن المؤكد أن الهجرة بالمنطقة لعبت فيها العلاقات الاجتماعية دورًا أساسيًا، فالمهاجر يظل مرتبطا بموطنه الأصلي بحكم أواصر القرابة الدموية القريبة والبعيدة التي تربطه بالدوار، فخلال زياراته المتكررة يعمل على اصطحاب أحد أفراد أسرته أو من تربطهم به قرابة دموية أو انتماء جغرافي، كما يوفر لهم مجموعة من الخدمات والمساعدة ببلد المهجر فتتسع دائرة الهجرة بالمنطقة وتتطور الشبكة الهجروية.

(١/٣) ١-المستوى الأسري ضمن الشبكة الهجروية:

تلعب الأسرة دورًا مهمًا في توجيه المشروع الهجروي للأفراد المقبلين على الهجرة وحتى في انتقال الفعل الهجروي بينهم، ففكرة الهجرة تكون أقرب إلى ذهن الفرد وتمارس عليه ضغطا يوميا كلما توفر في أسرته مهاجرون، بل تزيد من احتمال الهجرة وتوجيهها نحو وجهة معينة دون أخرى، "فالأسرة تعبر عن أهمية الروابط التي تربط بين مناطق الانطلاق والاستقبال" كما تمثل استمرارية لهذه العلاقات. من هنا يمكن القول إن الأسرة ظلت تلعب دورًا أساسيًا في هجرة أحد أفرادها فالمهاجر، منذ وصوله يظل على اتصال بمحيطه وأسرته، هذه الأخيرة تظل تبحث عن المعارف أو ما يمكن تسميته بشبكة ثقة réseau de confiance التي يمكن أن يعتمد عليها هذا الفرد سواء أثناء سفره أو عند وصوله إلى بلد المهجر. في هذا الإطار اعتبر Laurent Faret أن المستوى الأسري ضمن الشبكة الهجروية ذو أهمية كبرى في تسهيل قدوم المهاجرين ببلدان الوصول حيث تصير الهجرة بمثابة استراتيجية أسرية، تسعى من خلالها الأسر إلى تقديم مجموعة من الخدمات التي تدفع بالمهاجر نحو وجهة رئيسية دون أخرى.

لقد تحكمت الروابط الاجتماعية في هجرة أبناء المنطقة نحو الخارج، ذلك أن الأسرة التي يهاجر أحد أفرادها سرعان ما تشهد أيضا هجرة أفراد آخرين مقارنة بالأسرة التي لا تملك مهاجرًا فتنتقل بذلك عدوى الهجرة، فقد ظلت القرابة الدموية حاضرة بقوة في انتقال الفعل الهجروي، فالأب يصطحب أبناءه والابن يحاول الالتحاق بوالده والأخ يعمل على مساعدة أحد إخوته على الهجرة. حيث تتوفر عوامل انتشار وانتقال الفعل الهجروي بالنسبة للأسرة الأولى، وهو ما اتضح لنا خلال البحث الميداني إذ أمكننا الوقوف على تيارات هجروية متعاقبة. هذه التيارات الهجروية سوف تعمل على توسيع دائرة الهجرة لتشمل الأقارب والأصدقاء وأبناء الدوار من قريب أو بعيد، وبذلك تصير الهجرة ظاهرة تغذي نفسها بنفسها لتجعل من بني عمير مجالاً هجرويًا.

حيث تظل المؤسسة الأسرية كما أوضحت الباحثة "سارة هاربيزون"، بشأن اتخاذ قرار الهجرة حافزا جوهريا في قرار الهجرة، هجرة فالأشخاص يتنقلون حيث يوجد بعض أفراد عائلتهم (أخ، عم، خال...) مما يوفر لهم الدعم المادي والنفسي مما يساهم في التقليل من مخاطر وتكاليف المشروع الهجروي ويضمن نجاحه. ومن ثَمَّ تحولت الهجرة إلى نوع من الاستثمار تتأكد فاعليته من خلال الزيارات المتكررة للمهاجرين وتحويلاتهم المالية. وهو ما يحيلنا على نموذج الربح ناقص الكلفة الذي أسس له Sjaastad، حيث تدرك الأسرة أن المنفعة التي ستحصل عليها من هجرة أبنائها تفوق بكثير التكاليف المترتبة عنها، وهو ما عبر عنه أحد الباحثين بـ "عودة الاستثمار".

(١/٣) ٢-المستوى العائلي ضمن الشبكة الهجروية:

تتوسع دائرة الهجرة لتتعدى المستوى الأسري ضمن الشبكة الهجروية، حيث تساهم القرابة الدموية والروابط العائلية في انتشار الفعل الهجروي، هذه الروابط سواء كانت موروثة أو مستحدثة نتيجة المصاهرة بين الأفراد تعتبر من الأليات التي تساهم في انتشار الهجرة، حيث لا يتردد أبناء العمومة في مساعدة بعضهم البعض من أجل الهجرة نحو الخارج. فقد أمكننا البحث الميداني من الوقوف على عدد مهم من المهاجرين الذين هاجروا نحو إيطاليا وإسبانيا بفعل مساعدة أحد أقاربهم سواء أثناء السفر أو عند الوصول إلى بلد المهجر، حيث صرح العديد منهم على دور أفراد العائلة الذين هاجروا مبكرا في توجيه هجرتهم نحو كل من إيطاليا وإسبانيا. فشبكة الهجرة تسهل إقامة المهاجر الجديد[١٧] باعتباره وافدًا لا دراية له بالعالم الذي يستقبله، حيث يتم توجيهه وتقديم المساعدة له من طرف مهاجرين من أفراد عائلته، يصرح بعض المستجوبين: "مْلِّي وْصَلْتْ لْطَّالْيَانْ مَكْنْتْ كَنْعْرْفْ وَالُو، دْخْلْتْ لْعَالَمْ غْرِيبْ عْلِّيَّا(...) وْلَآدْ عْمَّي هْزُّونِي (قدموا لي المساعدة)، وْوَرَّوْنِي كِيفَاشْ نْبِيعْ وْ نْشْرِي فالطَّالْيَانْ (...) الْمُهِمْ بْقِيتْ ١٥ يُومْ (...) وْ مْنْ بْعْدْ وْلِّيتْ كَنْجِيبْ السْلْعَة بُوحْدِي...".(مهاجر م أ ٥٦ سنة) (عندما وصلت الى إيطاليا لم أكن أعرف أي شيء، غير أن أبناء عمي قدموا لي يد المساعدة وساعدوني في ممارسة التجارة وبعدها بدأت أعتمد على نفسي). ومن ثَمَّ فالروابط العائلية (أخ، عم، خال، ابن العم...) ساهمت بدورها في هجرة عدد مهم من الأفراد من خلال الخدمات التي يقدمها المهاجرون لأبناء عمومتهم سواء خلال السفر أو بعد الوصول إلى الخارج. وعليه تشكل هذه الروابط رأسمال عالي القيمة له دور مهم في نجاح مشروع الهجرة، كما يعتبر من آليات انتشار هذه الظاهرة.

(١/٣) ٣-يعتبر الانتماء الجغرافي القبلي مستوى مهم ضمن الشبكة الهجروية:

فالدوار يشكل وحدة اجتماعية قوية،[١٨] مما يجعل أبناءه وان لم تربطهم علاقات دموية لا يترددون في تقديم المساعدة لبعضهم، حيث تدخل شبكة الأصدقاء والمعارف ضمن الرأسمال الاجتماعي، الذي يلعب دورا مهما في توسيع دائرة

الهجرة الدولية بين مناطق الانطلاق ومناطق الوصول، كما أن الانتماء المشترك لنفس الدوار أو الفخذة القبلية يجعل العديد من المهاجرين يقدمون المساعدة للأفراد الراغبين في الهجرة.

لقد ساهمت الروابط القبلية والانتماء الجغرافي المشترك في هجرة العديد من الأفراد ببني عمير، حيث توسعت دائرة الهجرة وتطورت الشبكة الهجروية لتشمل الدوار بأسره، إذ لم تعد تقتصر على القرابة الدموية بل تعدت ذلك فأصبح الانتماء إلى موطن واحد يتحكم في توجيهها. وهو ما يفسر لنا أشكال التضامن المتعددة بين المهاجرين بالمهجر بحكم انتمائهم لنفس الدوار ونفس المجال الجغرافي فيقدمون خدمات لمهاجرين لهم نفس الانتماء القبلي. مما يحيلنا عن الحديث آنذاك عن شبكة هجروية على المستوى المحلي وأحيانا تشمل هذه الخدمات مهاجرين من مناطق أخرى خارج بني عمير بحكم الانتماء إلى نفس الإقليم أو الوطن فيصبح للشبكة الهجرية حينئذ مفهوم جهوي أو وطني. هذا التطور الذي عرفته الشبكة الهجروية كان متزامنا مع تطور الهجرة بالمنطقة وانتشارها وهو ما ساهم إلى جانب عوامل أخرى في خلق حدث الهجرة وتحول منطقة بني عمير إلى حوض هجروي بامتياز.

وعمومًا فإن هجرة أحد الأفراد يبقى سلوكًا فرديًا في ظاهره ولكن أن تصير مهاجرًا بإيطاليا أو إسبانيا هو صيرورة اجتماعية تلعب فيه الشبكة الأسرية والعائلية دورًا مهمًا، فالفرد ينبغي أن يتوفر على ما أسمته الباحثة "أعراب شادية" بـ المعرفة الهجروية savoir-migrer، ونعني بها مجموع الخبرات والمهارات التي يراكمها المهاجرون من خلال الشبكات الهجروية التي توفر كل الخدمات التي يحتاجها المهاجر الجديد لنجاح مشروع هجرته سواء بمناطق الانطلاق، أو العبور، أو الوصول. ووفق هذا النموذج انتشرت الهجرة الدولية بمنطقة بني عمير.

٢/٣-الزيارات المتكررة للموطن الأصلي تعتبر من عوامل انتشار الهجرة

تشكل تلك الزيارات التي يقوم بها المهاجر إلى مسقط رأسه، فرصة لإظهار مدى نجاح مشروعه الهجروي فأثناء زيارته يعمل على توزيع عدد من الهدايا مثل "بن وعطور وملابس وأجهزة منزلية وكهربائية"، كما يستغل هذه الزيارات ليقدم لأسرته ما ادخره من مال بالمهجر ذلك أن المهاجرين الأوائل يحرصون على تحويل ما جمعوه من مال بشكل عيني (أوراق نقدية) لأسرهم، دون إرساله عن طريق البريد أو المؤسسات البنكية نظرا لعدم انتشارها بما يكفي آنذاك. أضف إلى ذلك أن هذا المهاجر خلال زيارته يصطحب معه وسيلة نقل خاصة مما يشكل مؤشرا على نجاح مشروعه الهجروي ومظهرًا يعكس "الوجاهة الاجتماعية"، ويؤثر على باقي أفراد أسرته وأبناء جيرانه وشباب المنطقة، وهو ما أسماه أحد الباحثين "باستعراض العضلات".[١٩]

هذه السلوكات تعتبر من الآليات المرئية التي تمارس تأثيرًا نفسيًا على الفئات المرشحة للهجرة من خلال الضغط والاستفزاز الذي تمارسه، والذي يؤدي في نهاية المطاف بهذه الفئات إلى الاقتناع بفكرة الهجرة وعمل المستحيل على تنفيذها ومن ثَمَّ انتشار ثقافة الهجرة. وتشكل هذه الزيارات التي يقوم بها المهاجر كل سنة نحو موطنه الأصلي جزءًا من ثقافة الهجرة بالمنطقة، فالبحث الميداني يؤكد هذه الحركية mobilité المستمرة. ومن طبيعة الحال فالمهاجر من خلال هذه السلوكات فإنه يعبر عن مدى نجاح مشروعه الهجروي وتحقيقه لأحلام الشباب، فلا تلبث تترسخ في ذهن كل فرد فكرة الهجرة خاصة أولئك الذين تربطهم قرابة أو معرفة بالمهاجر العائد. إذ سرعان ما يسترجعون في الأذهان ماضي هذا المهاجر لمقارنته بالحاضر، مما يدفع بهم الى التفكير بجدية في إمكانات التحرر من قطران الوطن"، ومن ثَمَّ تصير الهجرة وسيلة للحراك الاجتماعي وللقطيعة مع الماضي. هذه السلوكات تمارس تأثيرها على الفئات المرشحة للهجرة حيث" تؤجج في أعماق الذين انسدت في وجههم الآفاق سؤال الهجرة نحو الضفة الأخرى (...) فعسل الفردوس المفقود يصير مشاهدًا من قبل الجميع، بل إنه يصير محرضًا ومحفزًا".[٢٠]

٣/٣-القرب الجغرافي من بني مسكين ساهم في انتقال الفعل الهجروي نحو بني عمير

بالإضافة إلى العوامل الداخلية ببني عمير والتي تحكمت في انتقال الفعل الهجروي بين مناطقه، فقد ساهمت عوامل خارجة عنه في ترسيخ ثقافة الهجرة بهذا المجال، ونعني هنا التأثير الذي قامت به منطقة "بني مسكين". تعتبر منطقة بني مسكين التي تقع بالجنوب الشرقي لإقليم سطات من المناطق التي هاجر أبناؤها نحو إيطاليا منذ الستينيات واستفادت في ذلك من علاقاتها مع الدار البيضاء والتسهيلات التي حضي بها الأفراد للحصول على جواز السفر، وهو ما جعل هذه المنطقة تراكم رصيدًا هجرويًا مهمًا حيث استطاع المهاجرون الأوائل من إنشاء شبكة هجروية Réseau migratoire نجحت في استقدام مرشحين جدد.

فقد استفاد العديد من المهاجرين من خدمات ووساطة مهاجري منطقة بني مسكن التي راكمت رصيدًا هجرويًا مهمًا، مما مكنهم من إنشاء شبكة هجروية مبكرة بإيطاليا سيكون لها دور كبير في توجيه هجرة بني عمير وتقديم المساعدة اللازمة لهم سواء أثناء الهجر أو عند الوصول. كما ساهم القرب الجغرافي في استقرار العديد من الأفراد من بني مسكين في مناطق بني عمير، مما شكل عاملاً مهمًا في انتقال الفعل الهجروي، فيكفي أن نقف على أحد الدواوير لمعرفة مدى مساهمة هذا العامل في إدخال ثقافة الهجرة، ففي دوار "أولاد ركيعة" مثلاً وجدنا أن أحد المهاجرين الأوائل من "بني مسكين" كان استقراره بالمنطقة منذ مدة في إطار العلاقات الفلاحية ليهاجر إلى إيطاليا رفقة اثنين من أبناء الدور وخلال زياراته المتكررة للدوار كان يصطحب معه أفرادا آخرين مما ساهم في توسيع دائرة الهجرة في المنطقة.

خَاتِمَةٌ

هكذا يتضح لنا بأن بني عمير على الرغم من تجربتها السقوية المهمة، قد أصبحت منطقة لانطلاق عدد من المهاجرين في اتجاه كل من إيطاليا وإسبانيا مما جعل منها حوضًا هجرويًا مهمًا على الصعيد الوطني بدءًا من الثمانينيات. هذا الاندماج في مسلسل الهجرة الدولية مرده إلى الظروف التي عرفتها المنطقة خلال هذه الفترة، والتي تمثلت في تأزم القطاع الفلاحي بسبب النتائج السلبية لبرنامج التقويم الهيكلي على القطاع الفلاحي، وما عرفه المغرب آنذاك من فترات جفاف متعاقبة. هذا الوضع انعكس سلبًا على القطاع الاجتماعي حيث ساهم في الرفع من حدة البطالة، مما دفع بالعديد من شباب المنطقة إلى التفكير في الهجرة خاصةً بعد ظهور دول جديدة تعاملت بنوع من المرونة مع المهاجرين، ونعني هنا كل من إيطاليا وإسبانيا فهذان البلدان قد تحسن نظامهما الاقتصادي وأصبح عاملاً مشجعًا لاستقطاب المهاجرين. فالهجرة عرفت انتشارها الواسع بالمنطقة بفضل تواجد شبكة هجروية مهمة ببلدان الاستقبال نجح في إنشائها المهاجرون الأوائل، حيث لعبت العلاقات الاجتماعية والروابط العائلية والأسرية دورًا مهمًا في انتشار الفعل لهجروي. كما كان لمنطقة بني مسكين دور أساسي في هجرة العديد من الأفراد من بني عمير بحكم علاقة الجوار الجغرافي التي جمعتهم.

التوصيات

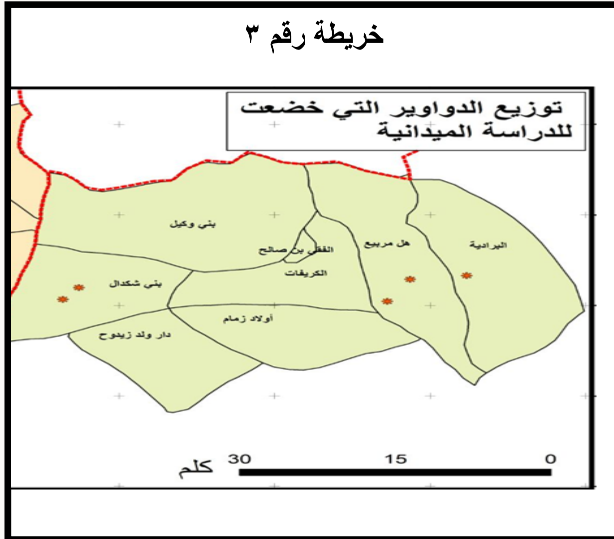
انطلاقًا من نتائج هذا البحث يمكن الخروج بالتوصيات التالية:

- ضرورة تثمين الذاكرة الهجروية للمنطقة باعتبارها تشكل رافعة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، فالهجرة قد ساهمت في مجموعة من التحولات المجالية والمجتمعية.
- العمل على إعادة الاعتبار للمهاجر واعتباره قاطرة لتحقيق التنمية المنشودة بالمنطقة وليس فقط مصدر للعملة الصعبة، فالتجارب والخبرات التي حصل عليها العديد من مهاجري بني عمير تفوق قيمتها قيمة العملة الصعبة.
- اعتبار الذاكرة الهجروية للمنطقة بمثابة رأسمال رمزي ينبغي توظيفه في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وذلك من خلال الالتفات لوضعية المهاجرين ومحاولة التقرب منهم ومعالجة مشاكلهم وكذا توجيههم في الاستثمار بميادين منتجة.

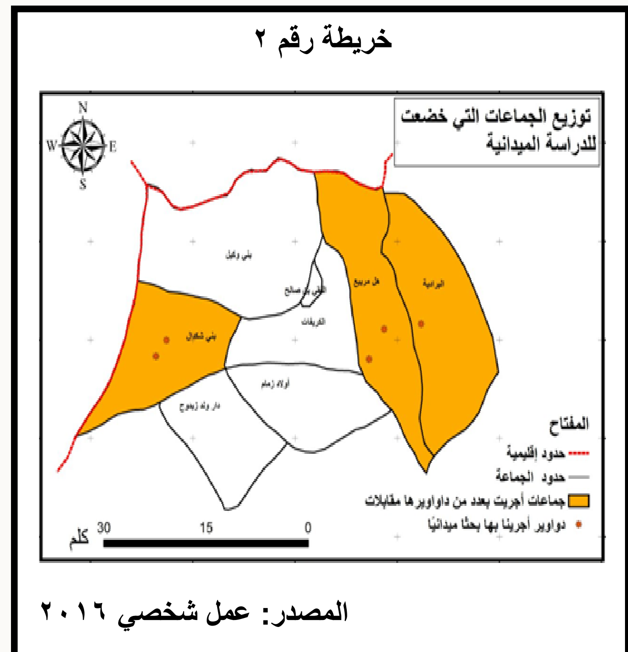
الملاحق



توطين مجال الدراسة على المستوى الجهوي



توزيع الدواوير الخاضعة للدراسة الميدانية



توزيع الجماعات الخاضعة للدراسة الميدانية

الاحالات المرجعية:

(١) غدنز انتوني، **علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)**، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٤ (بيروت) ٢٠٠١، ترجمة فايز الصايغ، ٢٠٠٦. ص ٦٠.

(٢) أبلال عياد، **الهجرة السرية مقاربة سوسيولوجية**، مطبعة أنفو برانت، ط ١، (فاس)، ٢٠٠٦، ص٢٧.

(٣) أقلال أحمد، **هجرة المغاربة إلى الخارج الدواعي التاريخية والاجتماعية للهجرة المغربية**، مطبوعات أكاديمية المملكة: سلسلة الندوات، ١٢-١٣ مايو ١٩٩٩، مطبعة المعارف الجديدة، (الرباط)، ٢٠٠٠ ص:٥٠.

(٤) بشير حمدوش، **تطور دواعي الهجرة المغربية إلى الخارج**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الندوات ١٢-١٣ مايو ١٩٩٩، مطبعة المعارف الجديدة، ا(الرباط)، ٢٠٠٠، ص: ٨٦.

(٥) تقع منطقة بني عمير بين خطي طول (٦,٤٥-٦,٤٠ كلم (غرب خط غرينتش وخطي عرض (٣٦,٢٠-٣٦,١٠) شمال خط الاستواء وترتفع بحوالي ٤٤٠ عن سطح البحر وتنتمي إداريًا إلى دائرة الفقيه بن صالح، كما تمتد على طول النصف الشمالي من الإقليم، ويحدها شمالاً إقليم خريبكة وجنوبًا دائرة بني موسى، وشرقًا إقليم بني ملال، وغربًا إقليم خريبكة وسطات.

(٦) أو ما يُسمى أيضًا بـ "قاعة انتظار الهجرة السرية" نظرًا لحجم الضحايا التي تخلفها هذه الظاهرة، وقد أطلقت على كل من (بني ملال، خريبكة، قلعة السراغنة)، لأول مرة من طرف "خالد جماح"، (رئيس جمعية أسر ضحايا الهجرة السرية AFVIC) بخريبكة.

(٧) توفيق اكومي، **"البحث في الجغرافية البشرية بين مفترق الطرق بين المنهجين الكمي والكيفي"**، مجلة جغرافية المغرب، مجلد ٢٠، السلسلة الجديدة، عدد١-٢، سنة ٢٠٠٠، ص:١٧-٢٤.

(٨) مرجع سابق، ص ٢٤.

(٩) مدينة محمد، ١٩٩٢، **بعض مظاهر تكثيف أنظمة تربية الماشية بسهل تادلا...**" ص:٢٤٦.

(١٠) أبو العز، مقال بعنوان **"المقاربة النسقية وشروط التداخل مثال: حقل العلوم الإنسانية، زاوية نظر الجغرافيا الاجتماعية"**، مجلة كلية الآداب بني ملال، عدد ٥، ٢٠٠٢، ص: ٣٢.

(١١) انظر عبد المجيد ازمو، **"التوسع الحضري واستهلاك المجال الفلاحي بسهل تادلة حالات بني ملال والفقيه بن صالح والسبت أولاد النمة"**، أطروحة لنيل الدكتوراه كلية الآداب، بني ملال،٢٠٠٦.

(12) Mohamed Nadif, migration et développement au Maroc; quelle perspectives, AMERME, Communication in Europian parliament, 01-03-2005, p :4

(١٣) العطري عبد الرحيم، **"تحولات المغرب القروي: أسئلة التنمية المؤجلة"**، طوب بريس، الرباط، ط ١، ٢٠٠٦، ص:١١٥.

(١٤) منير صالح، **"من الفقيه بن صالح الى ميلانو: الهجرة الدولية المغربية إلى إيطاليا وتأثيرها على مناطق الانطلاق"**، أطروحة لنيل الدكتوراه، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٦،ص:٢٩٩.

(15) Khadija Elmadmad, les migrants et leurs droits au Maghreb 2004. p.27.

(١٦) عبد الرحيم العطري، مرجع سابق، ص:١٢٤.

(١٧) أرنست رافينستين، **صحيفة جمعية الإحصاء**، لندن، ١٨٨٥، ص:١٦٧-٢٢٥.

(١٨) الأسعد، ٢٠٠٥، **التحولات المعاصرة للمسكن الريفي**، "التحولات المعاصرة للمسكن الريفي: حالة هضبة بن سليمان"، في كتاب: **دينامية المجالات الفلاحية بالمغرب**، تنسيق: موسى كرزازي، محمد الأسعد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالربط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ١٢١، الرباط، ط١، ص٥١، ص:٥١.

(١٩) عبد الرحيم العطري، نفسه، ص: ١٢٩.

(٢٠) العطري، نفسه، ص: ١٢٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الصراع العربي – الإسرائيلي (١٩٤٨ - ١٩٧٣)
شهادات إسرائيلية



أ.م.د. يوسف محمد عيدان
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة كركوك – جمهورية العراق

مُلَخّص

تضمنت الدراسة متابعة تأريخية للشهادات الإسرائيلية المتعلقة بالحروب العربية الإسرائيلية في الحقبة (١٩٤٨-١٩٧٣)، التي تم إستخلاصها من المذكرات الشخصية لقادة سياسيين وعسكريين إسرائيليين فضلاً عن الدراسات التأريخية، والصحف الإسرائيلية المترجمة عن العبرية. إن التعامل مع الشهادات الإسرائيلية يتطلب من الباحث الحذر في توثيق المعلومة قبل مراجعتها وتدقيقها، وذلك لكون أغلب القادة الإسرائيليين يعدّون منظّرين لدعاية مضادة تهدف إلى إضعاف معنويات المقابل وتحقيق ما يعرف بـ (الهزيمة النفسية)، لذا يلاحظ القارئ المطّلع عند قراءته المذكرات الشخصية الإسرائيلية على سبيل المثال تأكيدها على إبراز جانب التفوق الإسرائيلي في مختلف المجالات، ومحاولة إظهار الآخر بمظهر المتأخر عن مواكبة الحضارة والتقنية بما فيها التقنية العسكرية. كما إن وجهة النظر الإسرائيلية تبرر كل اعتداء عسكري إسرائيلي على أنه واجب مشروع يهدف إلى ردع التجاوزات العربية على حدود دولة إسرائيل الناشئة، وإن تلك العمليات العسكرية لابد منها لتحقيق الحدود الآمنة لإسرائيل. اعتمدت الاستراتيجية الإسرائيلية على الحرب الهجومية المباغتة وعدم إعطاء الفرصة للخصم بأن يكون هو البادئ لأن ذلك سيدفعهم إلى اتخاذ موقف دفاعي (سلبي). لقد تم تطبيق تلك الاستراتيجية بنجاح في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧، إلا إن الأمر اختلف تمامًا في حرب تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٣، إذ إن القوات العربية كانت هي البادئة في شن الهجوم العسكري كما إنها اختارت توقيتًا مناسبًا باغتت فيه الجانب الإسرائيلي حين تزامن الهجوم مع (عيد يوم الغفران) وهو من الأعياد المقدسة لدى اليهود إذ يكون تواجدهم في الغالب إما في بيوتهم أو في دور العبادة، وبذلك حقق الجانب العربي في هذه الحرب عنصر المفاجأة، وتحققت له نجاحات واضحة في الأيام الأولى للحرب. إلا إن التدخل الأمريكي وما رافقه من ضغوط على القيادتين المصرية والسورية قد أحال تلك الحرب من حرب تحرير للأرض إلى حرب تحريك للموقف السياسي الذي اتسم بالجمود، وتم بناءً على ذلك الدخول في مفاوضات سياسية لفك الاشتباك بين القوات العربية والإسرائيلية. ولا يفوتنا أن نذكر أخيرًا بأن بعض الشهادات الإسرائيلية اعترفت بالتفوق العربي في مراحل مختلفة من الصراع وغالبًا ما كان هذا الاعتراف مقترنًا بتسليط الضوء على جوانب التقصير الإسرائيلي ومحاولة تفاديه في الجولات العسكرية القادمة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ أغسطس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ أكتوبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

حرب فلسطين؛ حرب السويس؛ حرب حزيران؛ حرب الاستنزاف؛ حرب تشرين الأول

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.206579

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يوسف محمد عيدان. "الصراع العربي – الإسرائيلي (١٩٤٨-١٩٧٣): شهادات إسرائيلية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٢١٧ – ٢٣٢.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: dr.yousifma@uokirkuk.edu.iq
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

تضمنت الدراسة متابعة تاريخية للشهادات الإسرائيلية المتعلقة بالحروب العربية الإسرائيلية في الحقبة (١٩٤٨-١٩٧٣)، التي تم استخلاصها من المذكرات الشخصية لقادة سياسيين وعسكريين إسرائيليين فضلاً عن الدراسات التأريخية، والصحف الإسرائيلية المترجمة عن العبرية. إن التعامل مع الشهادات الإسرائيلية يتطلب من الباحث الحذر في توثيق المعلومة قبل مراجعتها وتدقيقها، وذلك لكون أغلب القادة الإسرائيليين يعدّون منظّرين لدعاية مضادة تهدف إلى إضعاف معنويات المقابل وتحقيق ما يعرف بـ (الهزيمة النفسية)، لذا يلاحظ القارئ المطّلع عند قراءته المذكرات الشخصية الإسرائيلية على سبيل المثال تأكيدها على إبراز جانب التفوق الإسرائيلي في مختلف المجالات، ومحاولة إظهار الآخر بمظهر المتأخر عن مواكبة الحضارة والتقنية بما فيها التقنية العسكرية. كما إن وجهة النظر الإسرائيلية تبرر كل اعتداء عسكري إسرائيلي على أنه واجب مشروع يهدف إلى ردع التجاوزات العربية على حدود دولة إسرائيل الناشئة، وإن تلك العمليات العسكرية لابد منها لتحقيق الحدود الآمنة لإسرائيل.

تناول البحث دراسة خمسة من الحروب العربية – الإسرائيلية عن طريق ما كتب عنها في المصادر العبرية تحديدًا، ولم يقتصر ذلك على المذكرات الشخصية لقادة عسكريين أو سياسيين إسرائيليين، بل شمل ذلك أيضًا وجهات نظر أساتذة جامعات وكتاب ومثقفين وقسم منهم لم يكن مؤيدًا بشكل كامل للسياسة التوسعية التي اتبعتها إسرائيل. تناول البحث في أول محاوره الحرب العربية الإسرائيلية الأولى التي عرفت بحرب فلسطين وأطلق عليها اليهود حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ والتي كانت البداية الفعلية لمحاولة يهودية جادة في تثبيت جذورهم في ارض فلسطين ومحاولة تصفية سكانها الأصليين بمختلف الوسائل وفقاً لما يعرف بالاستعمار الاستيطاني. أما الحرب الثانية التي تناولها البحث بالدراسة فتمثلت بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، التي تطلق عليه المصادر العبرية تسمية حملة سيناء وتتضح فيها النوايا التوسعية الإسرائيلية ومحاولة القضاء على النظام المصري الذي بات يشكل خطرًا على الكيان الإسرائيلي الوليد، لاسيما بعد أن عقدت مصر صفقة أسلحة مع الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٥.

ثم يتناول البحث مسالة الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية وتوتر العلاقات بين الطرفين، ومن ثم تدخل مصر وفقًا لسياسة الدفاع المشترك بينها وبين سوريا، وغلق خليج العقبة وما ترتب على ذلك من قيام إسرائيل بشن حرب خاطفه عرفت بحرب حزيران ١٩٦٧ أو كما تصفها المصادر العبرية بحرب الأيام الستة، وبعد الهزيمة العسكرية في ٥ حزيران ١٩٦٧ حاولت القيادة المصرية البدء بحرب طويلة الأمد، لاعتقادها بان النصر الإسرائيلي كان دائما نتيجة الحروب الخاطفة، لذا بدأت القيادة المصرية حربًا جديدة لاستنزاف خصمها أطلقت عليها تسمية حرب الاستنزاف، لكن الدعم الأمريكي المطلق لإسرائيل جعل الأمور تسير في صالح الأخيرة، فضلاً عن قيام الطيران الإسرائيلي بقصف العمق المصري مما اجبر القيادة المصرية على الموافقة على مبادرة روجرز ووقف إطلاق النار. وبعد تولي السادات السلطة في مصر حاول جاهدًا أن يسترجع شبه جزيرة سيناء التي تم الاستيلاء عليها من قبل إسرائيل في حرب مباغتة في تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٣ في يوم عيد الغفران اليهودي وبينما عرفت تلك الحرب بحرب تشرين ١٩٧٣ عربيًا. أطلق عليها اليهود حرب يوم الغفران التي حققت القيادة المصرية في بدايتها بعض الانتصارات لكن تدخل الولايات المتحدة وانحيازها إلى الجانب الإسرائيلي جعل التوازن سمة من سمات تلك الحرب التي انتهت بفك الارتباط بين الطرفين.

أولاً: حرب فلسطين عام ١٩٤٨
(حرب الاستقلال)

تزايد التوتر بين العرب واليهود طوال عام ١٩٤٧وبدأ كلا الجانبين يسرع من خطى استعداده العسكري بتوسيع قوته البشرية وزيادة تدريبها والحصول على المزيد من الأسلحة وما لبث أن بدا واضحًا انه في حال انسحاب القوات البريطانية من فلسطين فإن صدامًا عامًا لا يمكن تجنبه بين العرب واليهود سيحدث نتيجة لذلك الانسحاب.[١] وبعد صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧بدأت المناوشات بين الطرفين، ويقول دافيد بن غوريون (أول رئيس وزراء لإسرائيل ١٩٤٨-١٩٥٣): "بعد صدور قرار التقسيم بدأ العرب يهاجمون اليهود على الطرق واعتدوا على الوسط التجاري اليهودي في القدس، وكانت الهجمات في المدن المختلطة والتحرش بالمواصلات اليهودية السمة التي ميزت الحرب منذ مستهل كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ حتى منتصف كانون الثاني/ يناير١٩٤٨".[٢]

أما جولدا مائير (رئيسة وزراء إسرائيل ١٩٦٩-١٩٧٤) فتتحدث عن مقدمات حرب عام ١٩٤٨ قائلة: "في اليوم الثاني ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧ اندلعت اضطرابات وسارت تظاهرات في جميع

أنحاء فلسطين وخلال إحدى التظاهرات قتل ٧ من اليهود في باص، وفي ٢ كانون الأول /ديسمبر أحرق العرب المركز التجاري اليهودي في القدس، أما الجيش البريطاني فوقف جانبًا لا يتدخل إلا عندما كانت الهاجانة تتدخل".[٣]

وفي ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين بناء على قرار الأمم المتحدة الصادر في ٢٩ (تشرين الثاني/ نوفمبر) ١٩٤٧ وأعلن بن غوريون عن قيام دولة إسرائيل وفي اليوم التالي قامت جيوش خمسة دول عربية – مصر وشرق الأردن والعراق وسوريا ولبنان- بخوض الحرب ضد الدولة اليهودية الفتية، لتبدأ بذلك الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى، التي عرفت في الأدبيات العبرية بـ (حرب التحرير) أو (حرب الاستقلال).[٤] يقول يغال آلون (القائد العام لقوات البالماخ الإسرائيلية آنذاك): "إن إعلان قيام دولة إسرائيل في وجه تهديدات صريحة بالتدمير من جانب قوات عربية متفوقة تفوقًا عدديًا ساحقًا قد يبدو عملا من أعمال الجسارة الخارقة إن لم نقل مجازفة كبرى".[٥] وعن بداية حرب ١٩٤٨ تقول جولدا مائير ما يأتي: "رأيت في فجر السبت وبأم عيني من خلال الشبابيك ما يسمونه البداية الشكلية لحرب الاستقلال، أربع طائرات مصرية حربية تغير على المدينة في طريقها لتفجير محطة توليد الطاقة الكهربائية في تل أبيب والمطار، كانت أول غارة جدية خلال الحرب".[٦]

ويبدو إن الأيام الأولى للحرب قد شهدت انتصارات عربية وتراجعًا يهوديًا إذ يقول إسحق رابين (رئيس أركان الجيش الإسرائيلي السابق) في مذكراته ما نصه: "كشفت المراحل الأولى من حرب الاستقلال ضعفنا حتى قبل أن تقوم الجيوش العربية النظامية بغزونا، فقد كنا نمتلك أسلحة قليلة أقل حتى من الضروري وأقل حدًا مما كان بالإمكان إعداده، وكنا نعاني من نقص خطير في الطاقة البشرية المدربة ولولا (البالماخ) فأنني لا أؤمن بأن الحرب ستنتهي بالشكل الذي انتهت عليه أو إننا استطعنا أن نصل إلى المكاسب التي حققناها".[٧]

قد يكون رابين محبطًا بسبب عدم مقدرة القوات اليهودية على مواجهة الجيش الأردني الذي هاجمها في البلدة القديمة وجبل صهيون، حينها كان التراجع والانسحاب اليهودي أمرًا لا مفر منه، ويضيف رابين متحدثاً في مذكراته عن الموقف العسكري يوم ٢٠ أيار/ مايو ١٩٤٨: "كان ذلك اليوم يومًا مريرًا بالنسبة لي، يومًا حاسبت فيه نفسي وأخذت أتساءل لماذا وصلنا إلى الحرب ونحن في حالة عدم استعداد فهل كان ذلك محتمًا وهل كل من كان يستطيع الحرب حارب، وهل هذا هو السلاح الذي يستطيع اليهود توفيره لجنودهم".[٨]

أعلنت الهدنة الأولى في١١ (حزيران/ يونيو) ١٩٤٨ وكان احد شروطها ألا تقوم إسرائيل والدول العربية بإدخال أسلحة جديدة إلى منطقة القتال ولكن الطرفين خرقا هذا الشرط بصورة سرية.[٩] جاءت تلك الهدنة لتنقذ الموقف الحرج وتخرج القوات اليهودية من محنتها وتم إعادة تنظيم تلك القوات المنهكة، وبدأ اليهود بتحشيد قوات إضافية وشراء أسلحة تمكنهم من الصمود في المعارك العنيفة.[١٠]

كانت الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية في مرحلة ما بعد الهدنة الأولى تتمثل في إزالة الخطر عن تل أبيب والمناطق المحيطة بها مباشرة عن طريق تحرير مناطق (اللد –الرملة) والتوغل في التلال الريفية الواقعة شرقي السهل الساحلي، وفك الحصار عن القدس، وكانت المهمة الثانية تأمين منطقة حيفا بتحرير الناصرة والأجزاء المتبقية من الجليل الأدنى.[١١] وقد نجحت إسرائيل في تحقيق تلك الاستراتيجية وكان القتال بين الجانبين العربي واليهودي يجرى ليلاً ونهارًا في مجموعات كبيرة تدعمها المدفعية مصحوبة بعمليات عسكرية من نوع حرب العصابات، ويقول آلون: "لو لم تفرض الأمم المتحدة هدنة ثانية يوم ١٩ (تموز/ يوليو) ١٩٤٨ لاستمر الهجوم الإسرائيلي دون عائق تقريبا مشتتًا الجهد الرئيسي للعدو بين جبهة وأخرى إلى أن يتم تدميره تمامًا أو على الأقل انسحابه من جميع أراضي فلسطين".[١٢]

وبعد انتهاء مدة الهدنة الثانية في ١٠ (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ استهدفت القوات اليهودية مدينة بئر سبع في يوم ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٤٨، وعن ذلك يقول الجنرال آرييل شارون: "في الجنوب احتل قائد الجبهة يغال آلون بئر سبع مكبدًا المصريين أولى هزائمهم النكراء وفاكًا الطوق المضروب حول النقب، ولم يكن هدفنا هذه المرة الصمود، بل خلق حقيقة سياسية ووقائع حسية على الأرض، ومن أجل هذا أطلق بن غوريون على العملية الأخيرة من حرب الاستقلال اسم (عملية الوقائع)".[١٣] مع ذلك يعترف شارون في مذكراته بالمقاومة الشرسة التي أبداها اللواء التاسع للجيش المصري المحاصر في منطقة الفالوجة قائلاً: "كان الأربعة آلاف جندي مصري في الفالوجة تحت أمرة ضابط سوداني هو العميد سعيد طه بك، رجل معارك شجاع تلقى تدريبه العسكري في الجيش البريطاني، كان بطلاً حقيقيًا، فمع أن لواءه لم يكن يملك أي أمل في فك

الحصار أو تلقي نجدة ما، فقد أظهر مقاومة شرسة وصد كل هجوماتنا".[١٤]

لقد فشل هجوم القوات اليهودية على الفالوجة في ٢٧ (كانون الأول/ ديسمبر) ١٩٤٨، ونتيجة لصمود القوات المصرية خسر اليهود ٩٨ جنديًا من مجموع ستمائة جندي اشتركوا في المعركة. وفي ٢٧ (شباط/ فبراير) ١٩٤٩ عُقد في جزيرة رودس اليونانية اتفاق لوقف نهائي لإطلاق النار بين مصر وإسرائيل، وبعد ذلك بين إسرائيل وكل من سوريا والأردن ولبنان.[١٥] وفي بداية (آذار/ مارس) ١٩٤٩ كانت معارك الحرب بين القوات العربية والقوات اليهودية قد توقفت، وبدأت بلدان العالم بالاعتراف بقيام دولة إسرائيل التي تخلصت –على حد تعبير شارون- من عقدة مولدها.[١٦] وانتهت بذلك الجولة الأولى من جولات الصراع العربي –الإسرائيلي وكانت الجيوش العربية هي المغلوبة، وقد اضطرت مصر إلى قبول توقيع الهدنة شريطة تحرير جنودها المحاصرين مع أسلحتهم في الفالوجة.[١٧]

بعد انتهاء حرب عام ١٩٤٨ بدأت القيادات الإسرائيلية تتعامل مع الدول العربية المجاورة وفقًا لسياسة الأمر الواقع، وأصبحت أي عملية يقوم بها الفلسطينيون ردًا على احتلال أراضيهم تصوّر وفقًا للمنظور الإسرائيلي على أنها عملية إرهابية (تخريبية)، وأخذ الجانب الإسرائيلي يتبع سياسة العنف بلا ضوابط من أجل ردع خصومه ضمن غارات عسكرية وصفتها جولدا مائير بـ (الغارات التأديبية).[١٨] ومن الأمثلة على ذلك المجزرة التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية في قرية قبية الفلسطينية في منتصف (تشرين الأول/ أكتوبر) ١٩٥٣. وقد اعترف شارون (قائد تلك العملية الانتقامية) في مذكراته بأن ما حدث في قبية من دمار وانتهاك لحقوق الإنسان كان مأساة، إلا إنه يبرر ذلك بأن عملية قبية كانت رسالة للحكومات العربية ولكل من يحاول المساس بأمن إسرائيل بأن الثمن سيكون غاليًا.[١٩]

إن حرب عام ١٩٤٨ ونتائجها أملت بشكل عملي سياسة إسرائيل إزاء العرب، وأصبح من الصعب أكثر تغييرها مع مرور السنين، فإسرائيل استخدمت وسيلتين لمقاومة رغبة العرب بالانتقام، فقد زادت من قوتها العسكرية في محاولة لموازاة وإذا أمكن التفوق على القوة العربية، واعتمدت أيضًا على مبدأ الردع العسكري وعلى مقابلة أي هجوم عسكري بهجوم مضاد أقوى. وأدت هذه السياسة إلى سلسلة من الأحداث الدامية إذ كانت العمليات الانتقامية الإسرائيلية تفوق كثيرًا الاستفزاز الذي تتعرض له إسرائيل.[٢٠]

ثانيًا: حرب السويس عام ١٩٥٦ (حملة سيناء)

يتحدث يغال آلون في كتاب (إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي) عن مقدمات حرب السويس محددًا الأسباب التي دفعت بإسرائيل إلى خوضها إلى جانب كل من بريطانيا وفرنسا بما يأتي: بعد حرب ١٩٤٨ أصبحت دولة إسرائيل الناشئة تعاني من عيوب جغرافية –استراتيجية كان على قادة البلاد مواجهتها والاستعداد لأي حرب مفاجئة قد تتعرض لها إسرائيل من جهات عدة، وأن على الجيش الإسرائيلي أن يمتلك زمام المبادرة والهجوم بدلاً من البقاء في وضع دفاعي، ولكون إسرائيل محاطة بجوار معاد لها، وقد أخذت دول ذلك الجوار بعقد صفقات أسلحة، وإعداد جيوش قوية لاسيما جمهورية مصر التي عقدت صفقة عسكرية مع الكتلة الشرقية عام ١٩٥٥، وباتت تملك جيشًا نظاميًا يهدد أمن إسرائيل لذا تم استهداف مصر وفقًا لنظرية المبادرة الإسرائيلية الشاملة أو الهجوم (الاجهاضي) على حد تعبير آلون وبالتعاون مع القيادتين البريطانية والفرنسية اللتين كانتا على خلاف مع القيادة المصرية.[٢١]

وبعد تأميم قناة السويس في ٢٦ (تموز/ يوليو) ١٩٥٦ تزايدت العمليات الانتقامية الفلسطينية ضد المستوطنات الإسرائيلية ولم تعد ردود الفعل العنيفة الصادرة من الجانب الإسرائيلي تجد نفعًا عندها قررت إسرائيل التخطيط لعملية عسكرية كبرى تستهدف النظام السياسي في مصر.[٢٢] وعن التنسيق الفرنسي– الإسرائيلي يقول موشي ديان (وزير الدفاع الإسرائيلي السابق) في مذكراته ما نصه: "وفي اليوم الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦ وصلتنا أول معلومات عن اهتمام فرنسا بالتنسيق مع إسرائيل في هجوم على مصر وجاء ذلك من خلال برقية لملحقنا العسكري هناك وصلتني خلال اجتماعي مع هيئة الأركان بحضور بن غوريون".[٢٣] وفي ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦عاد كل من بن غوريون وموشي ديان وشيمون بيرس من فرنسا إلى إسرائيل بعد أن اتفقوا مع القيادتين الفرنسية والبريطانية على عملية عسكرية موجهة ضد مصر يحقق فيها كل بلد من البلدان الثلاثة أهدافه ويقول شارون: "هدفنا كان سيناء كان علينا أن نفك حصار مضائق تيران، أن تدمر القواعد الإرهابية في غزة وتبدد أحلام الرئيس عبد الناصر في زعامة العالم العربي وربما التسبب أيضًا في سقوطه .أما فرنسا وبريطانيا العظمى فيقيمان من جديد سيطرتهما على قناة السويس".[٢٤]

تمثلت خطة الحرب بأن تشن القوات الإسرائيلية في مساء ٣٠/٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦ هجومًا واسع النطاق ضد القوات المصرية بهدف الوصول غداة الهجوم إلى منطقة القناة، ثم تقوم حكومتا بريطانيا وفرنسا كل على حدة ولكن في الوقت نفسه تقوم عند علمها بهذه الأحداث بتقديم مطلبين إلى حكومتي مصر وإسرائيل بالابتعاد عن منطقة القناة ووفقًا للاتفاق ستقبل إسرائيل بالمطلب فورًا، وبالطبع فأن مصر سترفض ذلك، عندها تتدخل القوات الفرنسية والبريطانية لإعادة تشغيل القناة فارضة سيطرتها عليها بينما تتابع إسرائيل أهدافها الخاصة بتدمير القوات المصرية في سيناء.[٢٥]

ويبدو إن النوايا الإسرائيلية بشن حملة عسكرية واسعة النطاق على مصر كانت حاضرة منذ عام ١٩٥٣، إذ يعترف موشي شاريت (رئيس الوزراء الاسرائيلي١٩٥٤-١٩٥٥) بأن إعلان حرب شاملة على مصر بهدف احتلال وضم غزة وقسم من سيناء كان أمرًا موضوعًا على أجندة القيادة العسكرية الإسرائيلية منذ خريف ١٩٥٣على الأقل، وإن الاعتداء العسكري الإسرائيلي على غزة عام ١٩٥٥ كان مثل عمل تمهيدي أتخذ عن سابق عزم وتصميم على خوض الحرب ضد مصر، في حين كانت إسرائيل تبالغ إعلاميًا بالتأكيد على الخوف من الخطر المصري على الرغم من معرفتها الجيدة بأن طاقات الجيش المصري قد استنفذت في صراعات داخلية على السلطة.[٢٦]

تتحدث جولدا مائير في مذكراتها عن بداية الحملة العسكرية على مصر قائلة: "بدأت حملة سيناء كما كان مقرر لها أي بعد الغروب في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر وانتهت في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر، لقد كلفنا القيام بالحملة تشغيل قوات الدفاع الإسرائيلية كافة التي كانت مؤلفة من جنود احتياطيين يشكلون تصنيفات تحملها عربات عسكرية ومدنية، استغرقت العملية مائة ساعة لعبور وسلب المصريين قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء اللذين يشكلان ما يقارب ضعفي مساحة إسرائيل نفسها، كانت العملية سريعة ومفاجئة أربكنا بها الجيش المصري".[٢٧]

ويعزز موشي ديان شهادة مائير بالقول: "بدأت المعركة مساء يوم ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦عندما تم إسقاط ٣٩٥ مظليًا من الفرقة ٢٠٢عند المدخل الشرقي لممر متلا على بعد ٣٠ ميلاً من القناة، وفي الساعة الخامسة والثلث كانوا قد أقلعوا بـ (١٦) طائرة طراز داكوتا تطير على ارتفاع منخفض لتجنب الرادار المصري وقبل أن تصل الطائرات إلى منطقة الإسقاط بدقيقتين علّت إلى الارتفاع اللازم للإسقاط، وكانت أربع من طائراتنا طراز موستانج قد قامت قبل ذلك بساعتين بقطع أسلاك التلفونات المصرية كافة في سيناء بمحركاتها وأجنحتها وهي تطير على ارتفاع أربع أقدام فقط".[٢٨] وقد يكون استهداف مصر دون غيرها من بلدان المواجهة العربية في تلك الحملة العسكرية عائدًا بالدرجة الأولى إلى السياسة الخارجية التي اتبعتها القيادة المصرية حينذاك من جهة، و إلى اعتقاد القيادة الإسرائيلية بأن مصر أصبحت قاعدة تنطلق منها العمليات الفدائية الفلسطينية من جهة أخرى.[٢٩] ووفقًا لدراسة إسرائيلية معاصرة فأن هدف حملة سيناء المعلن تمثل بتدمير قواعد الفدائيين الفلسطينيين، وفتح مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية، أما هدفها غير المعلن والذي لم يتحقق فتمثل بالتوسع الإقليمي الإسرائيلي، والإطاحة بالرئيس المصري جمال عبد الناصر.[٣٠]

وفي حين تحدد جولدا مائير الغاية من الحملة على مصر بهدف واحد قائلة: "لكنني سأؤكد حقيقة واحدة هي انه بالرغم من محاولة فرنسا وبريطانيا الفاشلة لاستعادة قناة السويس فأن شن الحرب الإسرائيلية ضد المصريين عام ١٩٥٦ كان لها هدف واحد فقط هو منع تخريب الدولة اليهودية".[٣١] يرى آفي بتلهيم في كتاب: سلاح المشاة الإسرائيلي إن الهدف من الحملة العسكرية هو ضرب مصر قبل أن تستكمل استيعاب الأسلحة الحديثة التي حصلت عليها، ومنع خرق ميزان القوى في الشرق الأوسط.[٣٢] وقد يكون في هذا الكلام قدرًا كبيرًا من الصحة على العكس من شهادة مائير التي تحاول أن تبرر العدوان على مصر بأنه كان ردة فعل على العمليات الفدائية الفلسطينية والتي كان يصفها قادة إسرائيل بـ (التخريبية).

ثالثًا: حرب حزيران ١٩٦٧ (حرب الأيام الستة)

شهد عام ١٩٦٧ توترًا في العلاقات بين سوريا وإسرائيل وصل إلى حد التصعيد. وفي أيار/مايو ١٩٦٧ أبلغت القيادة السوفيتية النظام المصري بأن هناك حشودًا إسرائيلية تتألف من (١٢) لواء جاهزة للتقدم في أي وقت بين ١٦-٢٢ أيار/ مايو، وأن سوريا ستواجه وضعًا صعبًا خلال الأيام القليلة القادمة، وكان على القيادة المصرية اتخاذ بعض التدابير التي يفهم منها التلويح بالحرب ومناصرة سوريا في أزمتها، لاسيما إن هناك اتفاقية دفاع عسكري مشترك قد وقّعت بين البلدين في عام ١٩٦٦.[٣٣]

ويشير أحد الصحفيين الإسرائيليين الذين واكبوا الأحداث السابقة للحرب إلى إن استعدادات مصر للحرب قد بدأت منذ ١٤ أيار/ مايو ١٩٦٧ ويضيف قائلاً: "وفي صباح يوم الثلاثاء الموافق

السادس عشر من مايو تلقى الجنرال (اندرجباركها)، القائد الهندي لقوات الطوارئ الدولية المرابطة على الحدود المصرية الإسرائيلية رسالة خاصة من رئيس أركان حرب الجيش المصري الجنرال محمد فوزي واحتوت هذه الرسالة على أمر تفصيلي إلى الجنرال الهندي للعمل على سحب قواته الدولية من موقعها دون تأخير".[٣٤]

وعندما أغلقت القيادة المصرية خليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية والسفن التي تحمل موادًا استراتيجية لإسرائيل في ٢٢ (أيار/ مايو) ١٩٦٧، كان هناك انطباع لدى الاستخبارات الإسرائيلية بأن الرد بالقوة هو الحل، وان إسرائيل إذا لم ترد على تلك الخطوة المصرية فإنه لن تبقى أية أهمية لقدرة الردع التي يتمتع بها الجيش الإسرائيلي، وستقوم الدول العربية بتفسير ضعف إسرائيل كفرصة ممتازة لضرب أمنها ووجودها بالذات.[٣٥] وكان أغلب جنرالات الجيش الإسرائيلي يؤيدون القيام بحرب مباغتة ضد مصر بالسرعة الممكنة، كما إنهم كانوا من مؤيدي القيام بحرب عامة وضد فكرة تقسيم العمليات العسكرية إلى مراحل، وكان من ضمن خطة الهجوم الإسرائيلية أن يقوم الطيران الإسرائيلي بتوجيه ضربة استباقية يدمر فيها تجمعات الطيران المصري ويخرجه من المعركة بينما تقوم القوات البرية الإسرائيلية بمواجهة القوات المصرية المرابطة على الحدود.[٣٦]

واستمرت الاجتماعات على مستوى القيادة الإسرائيلية وأخذ الجيش الإسرائيلي يتأهب لمواجهة أي عمل عسكري مصري يوجه ضد إسرائيل، مع إجراء الاستعدادات وإعداد الخطط لشن هجوم مباغت على مصر، وقد كان رأي وزير الدفاع الإسرائيلي موشي ديان عدم الوصول إلى قناة السويس على اعتبار كونها هدفًا دوليًا وليس مصريًا، كما أكد ديان على عدم احتلال قطاع غزة في المرحلة الأولى من الحرب لكي لا تُكلّف إسرائيل بمعالجة مشكلة اللاجئين في مراحل الحرب الأولى، والتأكيد على أن تشمل العمليات الحربية احتلال شرم الشيخ، بينما كان اسحق رابين يرى إن الأهم من كل ذلك هو تدمير سلاح الجو المصري.[٣٧]

وتعود جولدا مائير لتبرر مرة أخرى في مذكراتها تلك الحرب الخاطفة على مصر بانها حرب انتقامية موجهه ضد الفدائيين الفلسطينيين إذ إنها ترى أن مقدمات حرب ١٩٦٧ متشابهة مع مقدمات حملة سيناء ففي كلا الحربين كانت القيادة المصرية تمثل حاضنة رئيسة للفدائيين الفلسطينيين تقدم لهم الدعم المالي والتشجيع المعنوي على المستوى الإعلامي، ثم تتطرق مائير إلى الغارات السورية على المستوطنات الإسرائيلية وتعدّها من الأسباب التي دفعت بإسرائيل إلى الإسراع في اتخاذ قرار الحرب عام ١٩٦٧ وتضيف مائير قائلة: "وعندما تجاوزت غارات وتحرشات السوريين حدها بدأت قواتنا الجوية تقوم بواجبها لوقف كل تلك الأعمال لتنعم المستوطنات بالراحة والطمأنينة. ففي نيسان/ أبريل ١٩٦٧ أرسلت طائراتنا للقيام بأعمال الدورية والحراسة وعادت لتحول الأمر إلى معركة جوية انتهت بإسقاط ست طائرات سورية من طراز ميغ".[٣٨]

أما موشي ديان فيحمّل القيادة المصرية مسؤولية الحرب إذ يقول: "وقد نشبت هذه الحرب بسبب القرارات الخاطئة للرئيس المصري جمال عبد الناصر، كانت الأسباب المباشرة تتمثل في سلسلة من الحوادث بين إسرائيل وسوريا والأردن أيضًا وفي رد فعل مصر أو فلنقل رئيسها، كان عبد الناصر يعلم أن إسرائيل سوف تعتبر أعماله العدوانية ولاسيما إغلاق المضائق بمثابة عمل حربي لكنه كان يفترض إن القوى الكبرى سوف تمنع إسرائيل من الحركة، وإن إسرائيل لن تستطيع اختراق الخطوط المصرية في سيناء ولابد لمجلس الأمن أن يتحرك ويأمر بوقف القتال فيتحقق لعبد الناصر فرض الحصار البحري بشكل مستمر".[٣٩]

وأشارت بعض المصادر الإسرائيلية إلى الدور السوفيتي في افتعال حرب ١٩٦٧ حتى أن الدبلوماسي الإسرائيلي دايفيد كيمحي يصفها بحرب برجنيف[٤٠] نسبة إلى الدور الذي أداه الزعيم السوفيتي ليونيد برجنيف في أحداث الشرق الأوسط آنذاك. بل إن أحد المصادر الإسرائيلية يحمل السوفييت مسؤولية قيام الحرب كونهم قد أمدوا القيادة المصرية بمعلومات غير مؤكدة تفيد بأن إسرائيل تحشد قواتها على الحدود السورية استعدادًا للهجوم على سوريا، ويدعم المصدر المذكور كلامه ببعض الأسانيد التي يحاول من خلالها التأكيد على أن السوفييت كانوا مع افتعال حرب عربية-إسرائيلية يتسنى عن طريقها للطيران السوفيتي ضرب المفاعل النووي الإسرائيلي المعروف بمفاعل (ديمونا).[٤١] إن تلك الأسانيد التي يقدمها المصدر الإسرائيلي لا أساس لها من الصحة بدليل أن السوفييت لم يتخذوا أي موقف هجومي تجاه إسرائيل أثناء الحرب.

عندما شن سلاح الطيران الإسرائيلي الحرب في الساعات الأولى من يوم ٥ (حزيران/ يونيو) ١٩٦٧، كانت أهدافه الأولى هي المطارات التي ركز فيها سلاح الطيران المصري طائراته الحربية وكان الطيارون الإسرائيليون على معرفة تامة بمواقع منشآت الرادار المصرية ونقط الرادار العمياء، وقد مضوا عبر تلك

الخطوط دون أن يكتشف أمرهم أحد حتى اللحظة الأخيرة، وكانت لديهم معرفة دقيقة بشأن موعد تناول الطيارين المصريين إفطارهم وفي ذلك الموعد بالضبط شرع الإسرائيليون في الهجوم.[٤٢] وفي تلك الدقائق بالغة الخطورة دمر الإسرائيليون معظم سلاح الطيران المصري، وكانوا يقصفون السرب تلو السرب من الطائرات المصرية الجاثمة على الأرض، ومما زاد من دهشة المصريين إن طائرات الميراج كانت تميّز الطائرات المصرية الحقيقية من طائرات التمويه، فلم تضع قنبلة واحدة عبثًا، وفيما بعد وجدت الوحدات الإسرائيلية المدرعة طائرات التمويه سليمة تمامًا بين الحطام المحيط عندما تقدمت تلك الوحدات في سيناء بعد أيام قلائل.[٤٣]

ويتحدث ديان عن مزايا الضربة الجوية الإسرائيلية الأولى قائلاً: "إن الحرب لم تبدأ إلا من لحظات ولكنها بداية مشجعة للغاية وقد أصبحت مصر بلا طيران ولم يكفل ذلك إبعاد الخطر عن مناطقنا السكانية فحسب بل أضاف ميزة كبيرة لقواتنا البرية التي أصبح بوسعها أن تعمل بمساعدة الطيران بينما تعمل القوات المصرية بلا غطاء جوي".[٤٤] كان الهجوم الإسرائيلي على قواعد الطيران المصرية قد تم على مرحلتين الأولى بين الساعة ٧،١٤ و٨،٣٥ صباحًا، وقد هوجمت خلالها ١١ قاعدة جوية ودمرت ١٨٩ طائرة على الأرض و٨ طائرات في الجو، وأصبحت ٦ مطارات مصرية غير صالحة للاستعمال، كذلك أصبحت ١٦ محطة رادار غير صالحة للعمل. وفي الموجة الثانية هاجمت (١٦٤) طائرة إسرائيلية ١٤ قاعدة جوية وقامت بتدمير (١٠٧) طائرة مصرية. ويضيف ديان قائلاً: "كانت خسائرنا ١١ طيارًا منهم ٦ قتلى خمسة في الموجة الأولى وواحد في الموجة الثانية و٢ أسير وثلاثة جرحى، وعادت ٦ طائرات سالمة رغم ضربها وتم إصلاحها. وقد فقد المصريون في هذا الصباح ثلاثة أرباع طيرانهم (٣٠٤ طائرة من مجموع ٤١٩".[٤٥]

كانت حرب حزيران ١٩٦٧ نقطة تحول في تأريخ الصراع العربي – الإسرائيلي وقد نتج عنها ظهور موجة أخرى من اللاجئين الفلسطينيين الذين أصبح قسم منهم لاجئًا للمرة الثانية، لكنها في الوقت نفسه أعطت دفعة قوية لمنظمة التحرير الفلسطينية في كفاحها ضد الاحتلال الإسرائيلي. ومع انتهاء أحداث الحرب كانت إسرائيل قد استولت على شبه جزيرة سيناء من مصر ومرتفعات الجولان من سوريا والضفة الغربية من الأردن، وأصبح لدى الدول العربية منذ ذلك الوقت علاقة مباشرة في الصراع مع إسرائيل إذ أرادت تلك الدول استعادة أرضها وتبنت شعار (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة)، ومن هذا المنطلق فقد أدت حرب حزيران إلى تأجيج الصراع بين إسرائيل وجيرانها العرب على كلتا الجبهتين: جبهة الدول العربية والجبهة الفلسطينية.[٤٦] وهناك وجهة نظر إسرائيلية ترى أن حرب ١٩٦٧ قد زادت من حدة القضية الفلسطينية وانه لو لم تحتل إسرائيل الضفة الغربية عام ١٩٦٧ لأصبح الفلسطينيون الساكنون في الضفة الغربية بعد أن عاشوا تحت الحكم الأردني مدة عشرين عامًا يشعرون بشكل تدريجي بأنهم أردنيون، ولما كان بهم حاجة إلى احتفاظهم بهوية فلسطينية مستقلة، ولكن بعد عام ١٩٦٧ توقفت عملية (التأردن) في الضفة الغربية وأخذ شعور السكان هناك بأنهم فلسطينيون يزداد في اطراد.[٤٧]

ووفقًا لوجهة النظر العسكرية الإسرائيلية فان حرب حزيران ١٩٦٧ أحدثت تحولاً كبيرًا في إحدى النظريات الرئيسة للجيش الإسرائيلي إذ يقول اسحق رابين في مذكراته: "حتى حرب حزيران كنا نعتقد بأننا في ظروف معينة نستطيع خوض الحرب في جبهتين أو ثلاث جبهات، ولكن الجيش الإسرائيلي لا يستطيع أن يحقق حسمًا كاملاً إلا في جبهة واحدة في حين أننا في الجبهتين الأخريين نتلقى الضربات وندافع وننتظر وصول القوات التي ستتفرغ بعد حسم المعركة في الواجهة الأولى لكي تنتقل إلى هجوم معاكس وتحقق الحسم، وفي حرب حزيران حقق الجيش الإسرائيلي حسمًا كاملاً في الجبهتين المصرية والأردنية في آن واحد، أما في الجبهة السورية فقد القينا قوات اشتركت قبل ذلك في الحرب في الجبهتين الأخريين. هذا المكسب تحقق بفضل الأعداد التابعة للقوات البرية، وبفضل المكاسب العجيبة التي حققها سلاح الجو الذي تفرغ بسرعة بعد تدمير أسلحة الجو المصرية والأردنية والسورية للاشتراك في النشاطات المكثفة في الحرب التي خاضتها القوات البرية وإنزال ضربة قاصمة بقوات الدروع والمنشآت العينية للجيوش المعادية".[٤٨]

وفي ٢٩ آب/ أغسطس١٩٦٧عقد مؤتمر للقمة العربية في مدينة الخرطوم في السودان وكان القادة والملوك العرب قد اتفقوا فيه على سياسة عرفت بـ (اللاءات الثلاث): لا سلام مع إسرائيل ولا اعتراف بها ولا مفاوضات معها.[٤٩] كانت النتيجة العملية والمباشرة لمؤتمر الخرطوم هي تصعيد جهود الحرب ضد إسرائيل. وفي ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٧ أغرقت الصواريخ المصرية الغواصة الإسرائيلية إيلات مع طاقمها المتكون من ٤٧ رجلاً. وعلى سبيل الانتقام دمرت المدفعية الإسرائيلية بعد أربعة أيام المجمع البتروكيميائي الواقع في ضاحية مدينة السويس.[٥٠]

رابعًا: حرب الاستنزاف (١٩٦٨ - ١٩٧٠)

في الحقبة التي أعقبت حرب حزيران ١٩٦٧ أخذت القيادة المصرية تعمل على إعادة بناء الجيش المصري بالتعاون مع الاتحاد السوفيتي، وقد نجح السوفييت في إعادة تنظيم الجيش المصري واستكمال إجراءات تسليحه. وفي فترة قصيرة نسبيًا أصبح الجيش المصري أكثر قوة من السابق بفضل إمداده بمعدات أحدث فقد تحسن موقفه العسكري كثيرًا بعد إحلال المقاتلات ميج ٢١ محل ميج ١٧ و١٩، ودبابات تي ٥٤ وتي ٥٥ محل تي ٣٤، وترتب على عملية إعادة تسليح الجيش هذه المزيد من التدخل السوفيتي في مصر، في بداية الأمر خصص للجيش المصري المئات من المستشارين العسكريين السوفييت لكن عددهم أخذ يتزايد تدريجيًا حتى بلغ الآلاف، وقد انصب اهتمامهم في البداية على تقديم المشورة في مجال التنظيم والتدريب لكنهم سرعان ما صاروا يتدخلون في مجالات القوات المسلحة المصرية.[٥١] وعن ذلك التدخل يقول شارون: "حتى غدا الروس الذين أدخلهم الرئيس عبد الناصر الى الشرق الاوسط للمرة الاولى في ١٩٥٥ متورطين الآن حتى آذانهم في المجهود الحربي المصري".[٥٢]

كان الهدف من وراء الاستعدادات العسكرية المصرية هو خوض حرب استنزاف طويلة مع الجانب الإسرائيلي في محاولة لإجبار إسرائيل على الانسحاب من الأراضي التي أحتلتها عام ١٩٦٧، وقد أخذت هذه الحرب تزداد حدة في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٨، وكان هناك ما يقرب من (١٥٠) ألف جندي مصري يتمركزون بطول قناة السويس، وبدأت القوات المصرية بإطلاق النيران على المواقع الإسرائيلية، وكان الهجوم المصري منسقًا مع حملة إعلامية كبيرة من جانب المصريين.[٥٣] وبسبب عدم قدرة إسرائيل على مواجهة مصر بما لديها من ترسانة كبيرة من المدافع السوفيتية فقد سعت إلى استخدام طائراتها كمدافع جوية لكن وجود صواريخ سام ٢ على الضفة الغربية لقناة السويس جعل المهمة غالية الثمن، وكان الصراع محتدمًا بين الطرفين والخسائر متبادلة، وبعد أن حصلت إسرائيل على طائرات الفانتوم الأمريكية بدأت تشن حملة من الاستنزاف المضاد الذي استهدف العمق المصري وأحدث خسائر في أرواح المدنيين المصريين.[٥٤]

مع استقرار حرب الاستنزاف زاد عدد المعارك الجوية. وفي ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩ فقد المصريون ١١ طائرة مقابل طائرة إسرائيلية واحدة، وواصل المصريون هجماتهم عبر القناة وقام الإسرائيليون بعدد من الغارات طويلة المدى على صعيد مصر.

وكانت أكثر العمليات إثارة وفقًا للتصوّر الإسرائيلي هي عملية الهجوم على محطة الرادار السوفيتي الحديث في ليلة ٢٥/٢٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٩، الذي أقام المصريون محطة له في منطقة الغردقة، ولم يكن هدف إسرائيل من العملية تحطيم الرادار بل الاستيلاء على وحدة الإرسال وهي أهم قسم في الرادار، والتي كانت تزن سبعة أطنان ونقلها إلى إسرائيل، إذ كان الحصول على أحدث الرادارات السوفيتية من طراز بي ١٢ شيئًا مهمًا بالنسبة لإسرائيل والقوى الغربية في مجال الحرب الإلكترونية المضادة. وقد عبرت القوة الإسرائيلية خليج السويس إلى مصر على متن طائرات هليكوبتر (إتش سي ٥٣) ووصلت منطقة محطة الرادار وقامت القوة الجوية بضرب أهدافها في منطقة مجاورة بهدف التضليل، بينما شقت القوة المهاجمة طريقها نحو موقع الرادار وتغلبت على الحامية المصرية فقتلت البعض وأسرت البعض الآخر، وقامت بنقل وحدة الإرسال الرئيسة للرادار السوفيتي إلى إسرائيل. وقد نفذت هذه العملية بناء على معلومات استخبارية في غاية الدقة.[٥٥]

كانت القيادة المصرية تراهن على مسألة أهمية العنصر البشري لدى الجانب الإسرائيلي وما سيتركه استنزاف الطاقة البشرية الإسرائيلية من آثار على الأوضاع داخل إسرائيل وعن ذلك يقول شارون: "عندما اطلق المصريون حربهم الاستنزافية كانوا يراهنون على الحساسية المفرطة عند الإسرائيليين لخسارة أرواح بشرية ويأملون في تكبدنا ما يكفي من خسائر تجعل الوضع لا يطاق في نظر الشعب وكنا على علم بما يراهنون عليه ولذلك فعلنا المستحيل لنبرهن إن مصر هي أكثر عرضة للتجريح منا وإن قصفهم المتواصل سيرتد عليهم".[٥٦]

لم تقتصر حرب الاستنزاف على تبادل إطلاق النار بين الجانبين المصري والإسرائيلي بل تخلل ذلك اشتباكات بين القوات المسلحة للجانبين.[٥٧] ويرى دايفيد كمحي إن الأسلوب الذي استخدمته إسرائيل والذي عرف بالاستنزاف المضاد كانت له نتائجه الواضحة. وأن الهجمات الإسرائيلية المضادة كانت أكثر تدميرًا من تلك المصرية، وإن السلطات المصرية اضطرت في عام ١٩٦٩ إلى إجلاء أكثر من مليون مدني من منطقة القناة[٥٨] وقد نجم عن الغارات الإسرائيلية والهجوم المتواصل من جانب سلاح الجو الإسرائيلي انخفاض في الروح المعنوية لدى أفراد القوات المسلحة المصرية.[٥٩] لقد اتبعت إسرائيل أسلوبًا آخر في إدارة العمليات العسكرية تمثل بعدم الاكتفاء بضرب القوات المصرية على طول القناة بل وبالتركيز على ضرب

العمق المصري كذلك ويبدو أن ذلك الأسلوب الجديد كان من بنات أفكار اسحق رابين الذي كان حينها سفيرًا لإسرائيل في الولايات المتحدة الأمريكية والذي يقول في مذكراته ما نصه: "وفي ٢٥ أكتوبر ١٩٦٩ اقترحت في برقية أرسلتها إلى القدس تطوير نشاطات عسكرية جادة لتغيير الوضع بل وواقع حرب الاستنزاف، وزعمت بأنه لا يمكن إحراز ذلك فقط بواسطة ضرب القوات المصرية على طول القناة واقترحت بأن تتغلغل طائرات سلاح الجو إلى عمق مصر وضرب الأهداف العسكرية هناك، وهكذا فقط يحتمل تحقيق الهدف السياسي: إرغام مصر على العودة إلى اتفاق وقف إطلاق النار، وهذا الأمر لن يتحقق بدون إلحاق الضرر بمكانة عبد الناصر ونظامه".[٦٠]

ويبدو إن تكثيف الغارات الإسرائيلية على العمق المصري في مطلع عام ١٩٧٠ كان الهدف منه إضعاف ثقة الجماهير المصرية في الدعاية الرسمية التي نشرها النظام المصري ومن ثَمَّ الإطاحة بالرئيس المصري جمال عبد الناصر، لظهور آراء إسرائيلية تقول بأن الرئيس المصري الذي سيخلف عبد الناصر في حال الإطاحة بنظامه سيكون أكثر ميلاً للوصول إلى اتفاق سياسي مع إسرائيل.[٦١] وإن هذه الآراء كانت صائبة، إذ أثبتت الأيام اللاحقة صحتها، وعندما تولى أنور السادات سدة الحكم في مصر سعى إلى صلح منفرد مع إسرائيل.

وقد وصفت جولدا مائير استراتيجية إسرائيل العسكرية الجديدة في حرب الاستنزاف المضاد بالقول: "إن الطريق الوحيد الذي نستطيع فيه منع مواجهة تلك الحرب الشاملة التي كان ينادي بها الرئيس عبد الناصر ليلاً ونهارًا كان بضرب حصونهم في العمق وضرب المواقع العسكرية بشدة وقصفها ليس فقط عبر خطوط وقف اطلاق النار بل في عمق مصر نفسها وفي كل مواقعها الاستراتيجية، لم يكن قرارًا سهلا خاصة وإننا كنا نعلم إن الاتحاد السوفيتي سيزيد من تدخله وتورطه مستقبلا في مصر ... وهكذا بدأنا انتقامنا بالضرب في الأعماق مستعملين طائراتنا لقصف المطارات العسكرية قرب مدينة القاهرة حتى يدرك الشعب المصري إنه لن يصطاد عصفورين بحجر واحد: محاربتنا والحصول على السلام".[٦٢]

واعتبارًا من شهر أيار/ مايو ١٩٧٠ ظهرت بطاريات صواريخ سوفيتية في الخطوط الخلفية لمنطقة القناة. ومنذ النصف الثاني من شهر حزيران وحتى سريان وقف إطلاق النار في آب/ أغسطس ١٩٧٠ اشترك السوفييت بصورة فعالة في محاولات المصريين لتقديم شبكات صواريخهم نحو القناة. وكذلك الحال مع سلاح الجو المصري إذ بدأ الطيارون السوفييت بالقيام بعمليات حربية ضد القوات الإسرائيلية قرب قناة السويس أجبرت القوات الإسرائيلية على إيقاف غاراتها على العمق المصري لكنها زادت من هجماتها على منطقة قناة السويس وألحقت بالجيش المصري خسائر كبيرة، كما كشف الجيش الإسرائيلي كمائن الصواريخ التي استقدمها المصريون حسب مشورة السوفييت إلى منطقة القناة وقام بتدميرها.[٦٣] ويقول شارون: "وفي ١٢ حزيران/ يونيو١٩٧٠ عبرت قواتنا القناة إلى الضفة الغربية شمال القنطرة وحطمت في أثناء الليل المواقع العدوّة على جبهة تمتد ٣ كيلومترات. وفي ٢٥و٢٧ تموز/ يوليو حصلت مناوشات بين مطارداتنا وطائرات الميغ السوفيتية، وفي ٣٠ من الشهر نفسه جابه طيارونا مباشرة العدو فأسقطوا خمس طائرات ميغ يقودها روس من دون أن يخسروا أي طائرة".[٦٤]

وفي ٧ آب /اغسطس١٩٧٠ وضعت الدبلوماسية الأمريكية حدًا لتلك الحرب عن طريق مبادرة وزير الخارجية الأمريكية وليم روجرز التي وافق عليها أطراف الصراع وقد أعطت جولدا مائير وصفًا موجزًا لما أعقب تلك المبادرة من تطورات مهمة قائلة : "في آب ١٩٧٠ أعلن الرئيس عبد الناصر موافقته على مبادرة السيد روجرز ولكن القدر كان بالمرصاد فقد توفي الرئيس عبد الناصر في ٢٨ أيلول من نفس العام وتسلم نائبه الرئيس أنور السادات سدة الرئاسة وظهر إن السادات كان منطقيًا وعقلانيا أكثر، ويمكن أن يؤمن السلام لشعبه فضلاً عن إن دلائل كثيرة أظهرت إنه لم يكن على علاقة طيبة بالروس".[٦٥]

خامسًا: حرب تشرين الأول ١٩٧٣
(حرب يوم الغفران)

بعد أن تولى السادات السلطة في مصر عام ١٩٧٠ قدّم مبادرة دبلوماسية خاصة به وأقترح على إسرائيل تسوية مؤقتة قائمة على انسحاب إسرائيلي محدود من سيناء وإعادة فتح قناة السويس. وقد رفضت مبادرة السادات من قبل جولد مائير رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك، التي وصفت من قبل بعض المصادر الإسرائيلية بالجمود. وكانت السياسة الإسرائيلية – الأمريكية المشتركة تتلخص في جعل السادات يستنفذ كل جهوده وبالتالي تتضاءل خياراته ولا يبقى أمامه في النهاية سوى استجداء السلام وفقًا للشروط الإسرائيلية. ولكنه بدلا من ذلك اختار القتال، وفي يوم عيد الغفران وهو من الأعياد المقدسة لدى اليهود الذين يعظّمون طقوسه عادة بالصوم والاعتكاف في بيوتهم، والذي يوافق آنذاك يوم ٦ تشرين الأول/

أكتوبر ١٩٧٣ شنت مصر وسوريا هجومًا مباغتًا على إسرائيل، أدى ذلك الهجوم إلى كسر الجمود الدبلوماسي وحث القوى العظمى على التدخل لإيجاد حل منصف ونهائي للصراع العربي - الإسرائيلي.(٦٦)

لقد تضاربت الشهادات الإسرائيلية حول معرفة القيادة الإسرائيلية بتوقيت ساعة الصفر للهجوم المصري في ٦ تشرين الأول، ويقول مؤلف كتاب: الملاك – الجاسوس الذي أنقذ إسرائيل، إن أشرف مروان - الذي كان يشغل منصب مكتب الرئيس أنور السادات وقد تم تجنيده عميلا لجهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد) وفقًا لرغبته- قد زوّد إسرائيل بوثائق تتضمن بنية الجيش المصري ولوائح بأسماء القادة وعدد الفرق العسكرية وأسماء قادتها والأسلحة المخزنة في المستودعات، ولوائح مفصلة عن الطائرات الحربية، ومواقع أسراب طائرات القوة الجوية، ومجموعات واسعة من التفاصيل حول جميع الوحدات العاملة في الجيش المصري، وبفضل تلك المعلومات الدقيقة التي قدمها أشرف مروان أصبح لإسرائيل إطلاع كامل على الخطط الحربية المصرية، كما إنه زوّد الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بسلسلة من المؤشرات الواضحة والجديدة عن موعد شن الهجوم العسكري المصري، ولو إن الإسرائيليين أعاروا تلك المؤشرات مزيدًا من الاهتمام في الأيام التي سبقت يوم ٦ تشرين الأول/ أكتوبر لكانوا استطاعوا أن يعرفوا متى سيتم الهجوم بالضبط.(٦٧)

لقد افترضت القيادة الإسرائيلية على ضوء الدروس المستفادة من حرب ١٩٦٧ إن مصر لن تشن حربًا جديدة إلا بعد أن تشعر انه بمقدورها قصف المطارات الإسرائيلية وتهميش دور سلاح الطيران الإسرائيلي، كما تصوّرت قيادة جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية إن مصر لن تشن الحرب قبل حلول عام ١٩٧٥. أما السادات فقد توصل إلى قناعة مفادها أنه لم يعد بوسعه الانتظار لتفاقم المشاكل السياسية التي انعكست على الأوضاع الاجتماعية في مصر فاتجه إلى خيار الحرب التي تم إحاطة قرارها بحملة خداع ذات دقة متناهية، لذا فشلت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية في تحديد ساعة الصفر.(٦٨) كان السادات يدرك جيدًا أن التأخير في اتخاذ قرار الحرب سيزيد الأوضاع الداخلية في مصر سوءًا لاسيما إن روح التمرد واليأس قد انتشرت بين صفوف الجيش المصري، كما إن البلاد قد شهدت في مطلع عام ١٩٧٢ اضطرابات قام بها طلبة الجامعات المصرية ونالت اهتمامًا واسع النطاق في الصحافة العالمية، لقد تضمنت المطالب الطلابية: رفض أي حل سياسي لأزمة الشرق الأوسط، وتراجع مصر عن الاعتراف بقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ والتأييد الكامل للمنظمات الفلسطينية وتأميم الشركات الأمريكية التي تعمل في مصر، وانتهاج اقتصاد حرب يحدد الأجور، وإبعاد الاقتصاد المصري عن السوق الرأسمالية الدولية.(٦٩)

كان قرار الحرب والهجوم المصري في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر صادمًا ومفاجئًا للقيادة الإسرائيلية على الرغم من وصول أكثر من إشارة تفيد بقرب حدوث الحرب إذ تقول جولدا مائير في مذكراتها: "في يوم الجمعة ٥ تشرين الأول استلمنا تقريرًا في الحقيقة أخافني، من خلال التقرير علمت إن عائلات المرشدين الروس في سوريا تحزم أمتعتها لترحل بسرعة فائقة، لقد ذكّرني ذلك بما حصل قبل حرب الأيام الستة، لقد أخافني التقرير، لم السرعة؟ ما الذي تعرفه تلك العائلات الروسية ونجهله نحن".(٧٠) كانت التكهنات التي قدمتها الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية تستند على إن العرب لن يخوضوا الحرب لعدم وجود مساندة من دولة كبرى لهم ولافتقارهم للوحدة والتنسيق ولكونهم ليس لديهم ردًا مناسبًا لقدرة سلاح الطيران الإسرائيلي.(٧١)

إن تحديد موعد الهجوم بيوم ٦ تشرين الأول/ أكتوبر لم تضعه هيئة أركان الحرب المصرية اعتباطًا، فلقد كانت هناك عوامل حاسمة عدة أولها إن الليلة التالية للهجوم مباشرة سيكون القمر فيها بدرًا وإن ضوء القمر سوف يساعد قوات الهجوم في الساعات الحرجة، وثانيها إن سرعة التيارات المائية في القناة قد درست بعناية لإمكان اختيار أفضل وقت للعبور، وثالثها إن الإسرائيليين سيكونون في يوم عيد الغفران أقل ما يمكن استعدادًا ماديًا ونفسيًا للرد على الهجوم.(٧٢)

لقد تطرق الجنرال دافيد اليعازر (رئيس أركان الجيش الإسرائيلي السابق) في مذكراته إلى إن احتمالية قيام القيادة السياسية المصرية بحرب محدودة من أجل تعزيز موقفها في المفاوضات السياسية المرتقبة كان واردًا، إلا إن اليعازر يضيف مؤكدًا مفاجأته بقرار الحرب الشاملة التي شنتها القيادة المصرية قائلاً: "في الواحدة ظهرًا كنا نتبادل الانخاب نهنئ أنفسنا بيوم الغفران وكانت الاحتفالات بجميع أنحاء البلاد (إسرائيل) تسير بشكل عادي حتى الساعة الثانية وعشر دقائق إذ بدأت الإشارات والبرقيات تتوالى على مركز القيادة الفرعية الموجودة في القنطرة شرق وفي وسط سيناء وأم ثليل والعريش والقنيطرة ورفح وجبل الشيخ، وكل البرقيات والإشارات التي توالت على القيادة العامة كانت تفيد أن تشكيلات جوية مصرية قد

هاجمت مواقعنا شرقي بور فؤاد والقنطرة وأم ثليل ويقدر عددها بأكثر من مائتي طائرة، وهي تركز ضرباتها بكثافة على مراكز الإرسال والاتصال والقيادة والإمداد، وفي نفس الوقت تحركت تشكيلات جوية أخرى من الطائرات السورية وبدأت بضرب مراكز مواقعنا الرئيسية في هضبة الجولان وجبل الشيخ".(٧٣) ثم يضيف اليعازر قائلاً: "ولم تمض ساعة من الزمن حتى كنا جميعًا في غرفة العمليات الرئيسية نتابع الموقف ونحن في حالة اجتماع دائم، وقبل أن تستقر مقاعدنا جاءتنا إشارة ثانية تفيد بأن هناك عمليات إنزال لقوات الصاعقة المصرية خلف خطوطنا، وهذه العمليات تستهدف عزل المنطقة الشرقية وتطويقها كلها كما أفادت هذه الإشارة إن بعض هذه العمليات قد نجحت واستطاع الكوماندوز المصريون التسلل إلى مواقعنا وإن القتال يدور وجهًا لوجه".(٧٤)

ويقول الجنرال الإسرائيلي رفائيل إيتان: "الآن بعد أن اتضح حجم الحرب والتنسيق بين الجيشين المصري والسوري أدركنا بأن هذه الحرب مصيرية بالنسبة لوجود إسرائيل لم نواجه حربًا كهذه منذ حرب التحرير. إذ أن نتائج هذه الحرب لن تحدد حدود الدولة أو مساحتها بل هل ستبقى أم لا؟".(٧٥) ويصف إيلي زعيرا (رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية آنذاك) ضعف الدفاعات الإسرائيلية بعد أن يلقي اللوم في عدم الأخذ بالتقارير الاستخباراتية على رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع قائلاً: "القوة المدافعة النظامية كانت صغيرة لدرجة السخف مقارنة بالقوة المهاجمة فلم تنجح في صد العدو على قناة السويس ذاتها وعلى خط الحدود في هضبة الجولان إن التخطيط العملي الذي قال إنه بمقدور (٣٠٠) دبابة في الجنوب و(١٨٠) دبابة في الشمال وبمعاونة من الطيران صد الهجوم لحين وصول الاحتياط أثبت إنه تخطيط غير واقعي، لم ينجح سلاح الطيران في تدمير تشكيلات الصواريخ أرض –جو وعلى هذا كانت معاونته للقوات البرية في أول أيام الحرب صغيرة، ولم يكن له تأثير فعال على مصير المعركة البرية".(٧٦) إن تلك الشهادات تقدم دليلا قاطعًا على أن القيادة الإسرائيلية استبعدت قيام القيادة المصرية باتخاذ قرار الحرب على الرغم من التقارير الاستخباراتية الدقيقة التي أكدت على قرب الهجوم العسكري المصري، وإنها تفاجأت باندلاع الحرب.

ويتحدث المؤرخ العسكري الإسرائيلي حاييم هرزوج عن الهجوم المصري على القناة قائلاً: "وعند ساعة الصفر من يوم السادس من أكتوبر قامت ٢٤٠ طائرة مصرية بعبور القناة وكانت مهمتها هي قصف ثلاثة مطارات في سيناء وتدمير بطاريات صواريخ (هوك) أرض – جو الإسرائيلية، وكذلك تدمير ثلاث مقار قيادة إسرائيلية فضلاً عن محطات رادار ومواقع مدفعية، والمراكز الإدارية والنقط الإسرائيلية الحصينة المعروفة باسم (بودابوست) على الضفة الرملية شرقي بور فؤاد وفي الوقت نفسه انطلقت نيران ألفي مدفع على طول الجبهة :مدفعية ميدان ومدفعية متوسطة وثقيلة وهاونات ثقيلة، وسقط على المواقع الإسرائيلية في الدقيقة الأولى عشرة الأف وخمسمائة قذيفة أي بمعدل ١٧٥ قذيفة في الثانية الواحدة .وأطلق لواء صواريخ أرض/ أرض نيرانه وتحركت الدبابات نحو مرابضها المعدة على الساتر الرملي لتدك بمدافعها ونيرانها القريبة النقاط الإسرائيلية الحصينة ثلاثة الأف طن من الدمار المكثف على حفنة من التحصينات الإسرائيلية أحالت الضفة الشرقية لقناة السويس بكاملها إلى جحيم على مدى ثلاث وخمسين دقيقة".(٧٧)

يقول اليعازر واصفًا الموقف العسكري في الأيام الأولى للحرب: "كانت أخطر الإشارات التي وصلتنا حينئذ قد أفادت بأن المصريين بدأوا في صنع ممرات عبر السواتر الترابية السميكة باستخدام الضغط المائي أو قوة دفع المياه عن طريق مضخات خاصة كانوا يستخدمونها في ستار كثيف من نيران المدفعية. كانت بالفعل تلك الإشارة هي أخطر الإشارات لأنها كانت تعني إن أي تقدير للموقف العسكري الذي تقوم به مصر وسوريا أصبح تقديرًا متأخرًا، كما أتضح إن العملية لا تقتصر على توجيه ضربة بل هي محاولة مستميتة للتقدم والعبور".(٧٨) ويضيف اليعازر قائلاً: "في الساعة الثانية إلا ثلث مساءً كانت حصون خط بارليف الحصينة قد أصبحت تحت سيطرة المصريين، وبحثنا عن بارليف فلم نجده، ومنهم من قال إنهم شاهدوه يسرع خارجًا والدموع في عينيه، إلا إن الحقائق بدأت تتضح أمامنا شيئًا فشيئًا، وكانت هناك حقيقة واحدة مؤكدة تصيبنا جميعًا بالوجوم والذهول، وهذه الحقيقة هي انه قبل حلول الظلام في يوم ٦ أكتوبر كانت تسع مواقع حصينة من قلاع خط بارليف قد سقطت في أيدي المصريين فضلا عن ١٧ موقعًا من المواقع القوية الأخرى والبالغ عددها ٣١ موقعًا قويًا. وخط بارليف كان يتكون من ٢٢ قلعة حصينة فضلا عن ٣١ نقطة قوية، كما إن الإشارات كانت تؤكد إن أكثر من ثلاثين ألفًا من الجنود المصريين أصبحوا يقاتلون في الضفة الشرقية وما زالت المعدات الثقيلة تعبر الجسور الى الضفة الشرقية وهذا يعني بالدرجة الأولى إن مرحلة صعبة من القتال سوف تبدأ".(٧٩)

لقد حدد وزير الدفاع الإسرائيلي السابق موشي ديان ثلاثة مواقف بالغة الصعوبة على إسرائيل مواجهتها، أولها حجم القوات العربية المجهزة بأسلحة سوفيتية متطورة وثانيها سلاح الصواريخ بعد إسناده بصواريخ سام ٦ التي كانت تعيق تقدم الطائرات الإسرائيلية. أما الموقف الثالث فيتمثل بحاجة إسرائيل إلى المحافظة على الجبهات مع وجود قوات قليلة فيها إلى أن يتم استدعاء قوات الاحتياطي ووصولها إلى الجبهات. وقد فضل ديان انسحاب القوات الإسرائيلية إلى الخط الثاني لمحاربة المصريين في مسافة ١٢ ميلاً من القناة.[٨٠] إلا إن اقتراح ديان هذا قد قوبل بقلق شديد من جولد مائير رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك، التي كانت تفكر بشن هجوم معاكس على المصريين في يوم ٨ تشرين الأول/ أكتوبر. إن النجاحات التي حققتها القوات المصرية والسورية في الأيام الأولى من الحرب قد أذهلت القيادات العسكرية الإسرائيلية وأحدثت انهيارًا في معنوياتهم إلى درجة إن وزير الدفاع الإسرائيلي كان يفكر في الاستقالة لولا إصرار رئاسة الوزراء على بقائه في منصبه.[٨١]

ويرى اليعازر إن هناك نقطة جوهرية اختلفت فيها حرب ١٩٧٣ عن حرب ١٩٦٧، وكان لها أثر كبير على نجاح خطة المصريين تمثلت بعدم وجود اتصالات أو إشارات فرعية بين قيادات القطعات والألوية المصرية يمكن أن تلتقطها الجهات الاستخبارية الإسرائيلية وتحدد بعد ذلك خطوتها التالية إذ كانت الخطة المصرية هذه المرة محكمة وكان كل قائد يعرف مهمته بالتحديد ودون الرجوع إلى القيادة عن طريق اتصالات وإشارات.[٨٢]

وبعد أن قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتعزيز القوات العسكرية الإسرائيلية بالأسلحة عن طريق جسر جوي أمد القوات الإسرائيلية بحاجتها من الأسلحة المتطورة تمكن الإسرائيليون في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر من احتواء الهجوم المصري المدرع باتجاه ممرات سيناء بعد معركة شرسة بين الدبابات وأثناء ذلك بدأ سلاح الجو الإسرائيلي يحرز نجاحًا متزايدًا وتمكن من فتح ثغرة في الدفاعات السورية، وفجرت الطائرات الإسرائيلية مصفاة نفط سورية كبيرة، ثم جرى تدمير محطة رادار في لبنان كانت تزود السوريين بالمعلومات، كما نجح الطيران الإسرائيلي في إسقاط ثلاثة طائرات سورية من طراز (سوخوي سو٢٠) المقاتلة قرب جبل حرمون، فضلا عن ذلك تمكنت إسرائيل من إسقاط طائرتين من طراز (توبوليف تو١٦) تابعة لسلاح الجو المصري .وعندما أطلقت القوات البرية السورية صواريخ أرض/ أرض على المستوطنات الإسرائيلية ردّ عليها سلاح الجو الإسرائيلي بقصف دمشق، وحاولت طائرتان سوريتان الهجوم على حيفا فأسقطت الأولى وفرت الثانية، وأطلقت القاذفات المصرية ٢٥ قذيفة (كليت جو/ أرض) على أهداف إسرائيلية لكن سلاح الجو الإسرائيلي تمكن من تفجير ٢٠ صاروخًا منها ولم تصب الصواريخ الباقية أهدافها باستثناء صاروخين.[٨٣]

وفي ١٦ تشرين الأول نجحت القوات الإسرائيلية في إيصال كتيبة من الدبابات عبر القوات المدرعة المصرية في سيناء واجتياز قناة السويس بها، وإقامة رأس جسر قرب منطقة الدفرسوار على الضفة الغربية للقناة .ويقول الجنرال الإسرائيلي شارون الذي أوكلت إليه مهمة اختراق ثغرة الدفرسوار: "عند هبوط المساء كنّا قد تأكدنا من وجود ثغرة مفتوحة بين الجيش المصري الثاني في الشمال والجيش الثالث في الجنوب وكانت هذه الثغرة فرصة مثالية يجب عدم تفويتها، والمصريون لم يلاحظوا تغلغل وحدتنا الاستطلاعية وكانت الطريق المؤدية إلى القناة المفتوحة إلى مصر تؤمي إلينا على مايبدو".[٨٤] وتجدر الإشارة هنا إلى إن ثمن هذه العملية -التي وصفت من قبل القيادة الإسرائيلية بـ (عملية الشجعان) –كان فادحًا .ففي ليلة السادس عشر من تشرين الأول ١٩٧٣ أصيب نحو ١٢٠ مقاتلاً إسرائيليًا من اللواء (١٤) بين قتيل وجريح وهو رقم قياسي في معركة واحدة، ومنذ ليلة العبور وحتى ١٨ تشرين الأول تحمل اللواء معظم الأعباء القتالية، وفي هذه المدة سقط ١٤٥ مقاتلاً من اللواء، أما الكتيبة (٨٩٠) فقد أحصت في ليلة ١٧ تشرين الأول ٤٣ قتيلاً وأكثر من ١٠٠ جريح، والكتيبة (١٠٠) كتيبة المدرعات بقيادة إيهود باراك التي هرعت للمساعدة فقدت أيضًا عشرة قتلى ونحو عشرين جريحًا، وفقد سلاح الهندسة ٧٤ من رجاله .علمًا إن تلك الخسائر لم تنشر في حينها بسبب تحفظ القيادة الإسرائيلية على الأبحاث والدراسات التي تناولت مسألة العبور الإسرائيلي بشفافية، وتم حظرها كافة من قبل رئاسة شعبة التأريخ في الجيش الإسرائيلي.[٨٥]

اتضحت الأهمية الكاملة للثغرة الإسرائيلية في الأيام التالية عند كلا الجانبين فقد اندفع الإسرائيليون بمزيد من الدبابات وبنوا جسرًا للتعجيل في عبور القناة، واستجاب الطيران المصري بعنف من أجل إزالة التهديد، ثم قام الطيران الإسرائيلي بهجمات معاكسة، ونشبت معارك دموية فوق الثغرة الإسرائيلية الآخذة بالتوسع. وفي ١٩ تشرين الأول أعلن الإسرائيليون عن تدمير ١٠ بطاريات من طراز سام، وبذلك أوجد الإسرائيليون ممرًا خاليا من صواريخ سام تستطيع الطائرات

الإسرائيلية أن تسلكه إلى داخل مصر، وتمكنت القوات البرية الإسرائيلية من الالتفاف حول الجيش المصري في سيناء والجيش الثالث بجوار مدينة السويس. بعد ذلك نادت الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار في ٢٢تشرين الأول/ أكتوبر، وتوقف القتال في يوم ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٣.[٨٦]

وفي دراسة إسرائيلية حديثة عن حرب عام ١٩٧٣يرى الباحث دان شيفتمان أن إسرائيل تعرضت أثناء الحرب وبعدها لأخطر أزمة في تأريخها، ففي المجال العسكري فشلت إسرائيل ليس فقط بسبب الصورة التي ظهرت بها في الحرب فعلياً منذ البداية وإنما لأنها أصيبت بالذهول والإحباط الشديد من قدرتها العسكرية في المرحلة الأولى للحرب ومن الواقع العسكري الذي خلفته في النهاية .وفي المجال الاقتصادي نشأت أزمة شديدة أوقفت نمو الاقتصاد الإسرائيلي وسخرته بشكل غير مسبوق لصالح الإنفاق العسكري وخلقت ارتباطًا غير مسبوق بالولايات المتحدة الأمريكية. وفي المجال الدبلوماسي عانت إسرائيل من عزلة شديدة تجلت بشدة في فتور العلاقات مع الدول الأوربية وفي انهيار مكانة إسرائيل في المنظمات الدولية.[٨٧]

بينما يرى البروفسور يتسحاق جلنور إن حرب يوم الغفران أحدثت تصدعات خطيرة في جزء من البناء الذي يمثل العلاقة بين المجتمع والسياسة، وانهار هذا الجزء على الفور ونشأ شعور بعدم ثقة الجمهور الإسرائيلي بقيادته.[٨٨] أما البروفسور يعكوف برسيمانتوف فيصف حرب يوم الغفران بأنها ذات أهداف سياسية واستراتيجية وعسكرية محدودة نسبيًا فقد كانت هذه الحرب تهدف إلى كسر جمود الموقف المؤلم التي وجدت دول المواجهة العربية نفسها فيه ولاسيما مصر بعد حرب ١٩٦٧، وكان الهدف من الحرب هو تغيير المناخ السياسي بهدف تغيير الوضع الراهن على المستوى السياسي وفيما يتعلق بالأرض على حد سواء.[٨٩]

وتجدر الإشارة إلى شهادة رئيس الأركان الإسرائيلي اليعازر التي جاء فيها: "أود أن اقر إن الجنود العرب قد نجحوا في استخدام الأسلحة الإلكترونية الحديثة، وأنهم تقدموا تكتيكيًا على استخدام العتاد الحربي المتطور كما إنهم نجحوا في إخفاء استعدادهم للحرب وموعد الهجوم فضلاً عن نجاحهم استراتيجيًا إذ سيطروا على مناطق استراتيجية هامة في سيناء فضلا عن قناة السويس كما إنهم نجحوا في عبور القناة وفي إتلاف أجهزة الإشعال على الضفة الشرقية، ولست أريد التحدث عن الثغرة التي أحدثها جيشنا في الضفة الغربية من قناة السويس لأن رجل الشارع في إسرائيل أصبح يدرك تمامًا أن معناها الوحيد أنها مصيدة نصبها الجيش المصري لاستمرار النزيف من شريان الدم الإسرائيلي، وأخيرًا استخدموا سلاح البترول بمهارة ودقة فائقتين".[٩٠]

خاتمِةٌ

كان التصوّر الإسرائيلي لمسألة الصراع مع العرب يستند بالأساس إلي المبالغة بالتفاخر بالنجاحات التي حققتها الحركة الصهيونية في إنشاء دولة إسرائيل من العدم، والتي اعتمدت في تحقيق تلك الغاية على المبدأ القائل: الغاية تبرر الوسيلة، إذ استخدم اليهود مختلف الوسائل والأساليب التي مكنتهم في النهاية من تحقيق غايتهم، وبعد أن نجحوا في كسر الحظر المفروض على توريد الأسلحة قاموا بتنظيم جيشهم والانتقال به من مرحلة التنظيمات الدفاعية إلى مرحلة الجيش النظامي، كما انهم استغلوا توقيتات الهدنة في حرب عام ١٩٤٨ لتعزيز دفاعاتهم ومن ثم المبادرة بالهجوم، وقد ساعدتهم ظروف مختلفة في تحقيق الانتصار وإعلان دولتهم، وانتزاع الاعترافات الدولية بها بشكل تدريجي.

ثم إن القيادة الإسرائيلية عملت منذ البداية على مبدأ: الهجوم خير وسيلة للدفاع، لأنهم كانوا على يقين تام بأن أي مباغتة من الجانب العربي ستجعلهم في وضع عسكري صعب للغاية، لذلك شهدت الحروب العربية الإسرائيلية التي أعقبت قيام دولة إسرائيل مبادرة عسكرية إسرائيلية أطلق عليها تسمية: الهجوم الإجهاضي ومباغتة الخصم، وهذا ما حدث في حملة سيناء عام ١٩٥٦ وفي حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. وكانت النظرية الإسرائيلية قد بنيت منذ البداية على التعامل مع الدول العربية وفقًا لسياسة الأمر الواقع، والرد على أي عمل عدائي تجاه الدولة الوليدة بفعل مضاعف، لذا كانت غارات الردع الانتقامي الإسرائيلية تجاه القرى الفلسطينية مبالغ في قسوتها. وكانت الدعاية المضادة والحرب النفسية إحدى الوسائل الإسرائيلية في التقليل من أهمية أعدائهم وتأصيل مبدأ التفوق الإسرائيلي وعدم جدوى المقاومة في نفوسهم، وقد أطلق بعض الكتاب العرب على تلك الدعاية الإسرائيلية المضادة تسمية: النابالم الفكري، لذا وجب التعامل مع الشهادات الإسرائيلية بحذر شديد.

وبعد الهزيمة العسكرية التي تعرضت لها الجيوش العربية في حرب عام ١٩٦٧، قررت القيادة المصرية القيام بحرب استنزاف طويلة الأمد مع إسرائيل، بعد إدراكها بأن الجيش الإسرائيلي يعتمد في تحقيق انتصاراته على الحرب الخاطفة. إلا إن الدعم الأمريكي المتزايد لإسرائيل وتزويد قواتها المسلحة بأسلحة ردع متطورة، مكن الجيش الإسرائيلي من قصف العمق المصري لتبدأ مرحلة جديدة من الحرب عرفت بـ (مرحلة الاستنزاف المضاد)، التي حدت من فاعلية حرب الاستنزاف المصرية وجعلت القيادة المصرية تسارع بالموافقة على مبادرة وقف إطلاق النار عام ١٩٧٠. أما حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ فقد كانت حربًا مختلفة عن سابقاتها وقد أعترف القادة السياسيون والعسكريون الإسرائيليون بعدها بالتقصير وأجمعوا في مذكراتهم على أنها كانت حربًا مفاجئة، تركوا المبادرة فيها للجانب العربي، وعلى الرغم من إن لجنة التحقيق الإسرائيلية التي عرفت بـ (لجنة اجرانات) -والتي كانت مكلفة بالتحقيق في مسألة التقصير الاستخباراتي وعدم النجاح في تحديد التوقيت الفعلي للحرب-قد ألقت اللوم على قيادة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية متمثلة بالجنرال إيلي زعيرا، وأعفت كلا من رئيسة الوزراء جولدا مائير ووزير الدفاع موشي ديان من المسؤولية، واللذان يتحملان قدرا كبيرا من تلك المسؤولية في عدم تحليل التقارير الاستخباراتية التي كانت تنذر بقرب اندلاع الحرب، مع ذلك فأن جولدا مائير بذلت جهودًا في مسألة الحصول على أسلحة أمريكية متطورة، كما إن مائير سارعت في تجنيد القوات الاحتياطية كافة، تلك القوات التي ساهمت بشكل كبير في تغيير موازين حرب عام ١٩٧٣، والتقليل من آثار الانتصارات العربية في الأيام الأولى للحرب.

إن الشهادات الإسرائيلية عن الصراع العربي –الإسرائيلي تؤكد دائمًا على مسألة التقليل من شأن الجانب العربي ووصفه بالتخلف والتأكيد على إن الانتصار الإسرائيلي تحقق بسبب التفوق العلمي، والتفاخر بأن النوع الإسرائيلي تغلب على الكم العربي بفضل مواكبة التطور الغربي لاسيما في مجال صناعة الأسلحة الحديثة وإتقان استخدامها بينما كان الجانب العربي متأخرًا في هذا المجال وإنه عندما قام الاتحاد السوفيتي بتزويد مصر وسوريا بأسلحة متطورة واجهت جيوشهم مشكلة استخدامها، لذا استعانوا بعدد كبير من الخبراء السوفييت، الذين لم يكتفوا بتقديم المشورة فحسب بل إن قسمًا منهم كانوا مقاتلين في صفوف الجيوش العربية .مع ذلك فأن بعض الشهادات الإسرائيلية اعترفت بالتفوق العربي في مراحل مختلفة من الصراع بين الجانبين، وجاء هذا الاعتراف متزامنًا مع التأكيد على وجود تقصير في أداء القيادة الإسرائيلية بهدف تفادي ذلك التقصير مستقبلاً وعدم تكرار الأخطاء في الجولات العسكرية القادمة.

الاحالات المرجعية:

(١) يغال آلون، **إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي**، ترجمة: عثمان سعد، دار العودة، (بيروت،١٩٧١)، ص١٠٩.

(٢) دافيد بن غوريون، **يوميات الحرب ١٩٤٧-١٩٤٩**، ترجمة: سمير جبور، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، (بيروت،١٩٩٣)، ص٢٥.

(٣) جولدا مائير، **الحقد**، سلسلة يوميات قادة العدو، تسلسل (٢) ترجمة: منير بهجت حيدر، سمية أبو الهيجا، دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر، (بيروت،١٩٧٩)، ص١٦٩.

(٤) **حرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)**، ط٢، **ترجمة** عن العبرية: أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة دراسات، رقم (٦٥)، (بيروت،١٩٨٦)، ص٤٨٨.

(٥) آلون، المصدر السابق، ص٦١-٦٢.

(٦) مائير، المصدر السابق، ص١٨١.

(٧) **مذكرات اسحق رابين** – القسم الأول، سلسلة شخصيات صهيونية، تسلسل (١/١١)، ترجمة: دار الجليل، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، (عمان،١٩٩٣)، ص٥٧.

(٨) المصدر نفسه، ص٥٢.

(٩) **ديان يعترف**، إعداد شوقي إبراهيم، منشورات مركز الدراسات الصحفية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، (القاهرة،١٩٧٧)، ص٧٢.

(١٠) **مذكرات اسحق رابين**، القسم الأول، المصدر السابق، ص٥٧.

(١١) آلون، المصدر السابق، ص١٢٢.

(١٢)المصدر نفسه، ص١٢٣.

(١٣) **مذكرات آرييل شارون**، ترجمة: أنطوان عبيد، مكتبة بيسان، (بيروت، ١٩٩٢)، ص٨٣.

(١٤)المصدر نفسه، ص٨٣.

(١٥) للتفاصيل يُنظر: توم سيغف، **١٩٤٩ الإسرائيليون الأوائل**، ترجمة عن العبرية: خالد عايد وآخرون، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الدراسات رقم ٧٣، (بيروت،١٩٨٦)، ص١٧-٥٢.

(١٦)**مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص٨٤.

(١٧)اهرون بريغمان، جيهان الطهري، **إسرائيل والعرب حرب الخمسين عامًا**، ط٢، ترجمة: سالم سليمان العيسى، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، (دمشق، ٢٠٠٤)، ص٤٤.

(١٨)مائير، المصدر السابق، ص٢١٥.

(١٩)**مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص١١٤.

(٢٠) **مذكرات ناحوم غولدمان**، سلسلة شخصيات صهيونية، العدد ١٢، ترجمة: دار الجليل، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، (عمان، ١٩٩٣)، ص ٢٦٠.

(٢١)يُنظر: آلون، المصدر السابق، ص ١٤٤-١٦٢.

(٢٢) **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٢٣) **ديان يعترف**، المصدر السابق، ص١١٥.

(٢٤) **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٢٥) يُنظر: يوسي ملمان، **"إسرائيل تكشف وثائق حرب ١٩٥٦"**، صحيفة هآرتس (إسرائيل)،١/١٠/١٩٩٦، نقلاً عن: مجلة مختارات إسرائيلية، العدد ٢٣، السنة الثالثة، نوفمبر ١٩٩٦، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، مؤسسة الأهرام للصحافة والنشر (القاهرة)، ص٤١.

(٢٦) يُنظر: ليفا روكاخ، **قراءة في يوميات موشي شاريت الخاصة –خطة إسرائيل لإقامة الكيان الماروني**، دار ابن خلدون، (بيروت،١٩٨١)، ص ١٥-١٦؛ ص٩٤.

(٢٧) مائير، المصدر السابق، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢٨) **ديان يعترف**، المصدر السابق، ص١٤١.

(٢٩) يُنظر: **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص١٦٣؛ مائير، المصدر السابق، ص٢١٩.

(٣٠) آفي شليم، **إسرائيل وفلسطين – إعادة تقييم وتنقيح وتنفيذ**، ترجمة وتقديم: ناصر عفيفي، المركز القومي للترجمة والنشر، العدد ١٩١٩، (القاهرة، ٢٠١٣)، ص١٥٤.

(٣١) مائير، المصدر السابق، ص٢٢١.

(٣٢) نتان روعي وآخرون، **سلاح المشاة الإسرائيلي**، ترجمة: دار الجليل، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، (عمان، ١٩٨٩)، ص٤٨.

(٣٣)ميشيل، ب، أورين، **ستة أيام من الحرب –حزيران ١٩٦٧م وصناعة شرق أوسط جديد**، ترجمة: د. إبراهيم الشهابي، مكتبة العبيكان، (الرياض، ٢٠٠٥)، ص١١٧.

(٣٤) شلومو نيكدمون، **ما قبل ساعة الصفر-قصة الأحداث التي سبقت حرب الأيام الستة**، منشورات وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، سلسلة كتب مترجمة، العدد ٦٨٩، (القاهرة، ١٩٦٨)، ص٧، ص١٢.

(٣٥)**مذكرات اسحق رابين –القسم الأول**، المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٣٦) **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص٢٤١.

(٣٧) **مذكرات اسحق رابين –القسم الأول**، المصدر السابق، ص١٤٨، ص١٦٨.

(٣٨) مائير، المصدر السابق، ص٢٥٩.

(٣٩) **ديان يعترف**، المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٤٠)يُنظر: دايفيد كيمحي، **الخيار الأخير ١٩٦٧-١٩٩١**، منشورات مكتبة بيسان، (بيروت، ١٩٩٢)، ص١٥ وما بعدها.

(٤١)يُنظر: إيزيبلا جينور، **"الخطة السوفيتية في ١٩٦٧ قصف المفاعل النووي في ديمونا وإنزال قوات في حيفا"**، صحيفة يدعوت أحرنوت (إسرائيل) ٢٧/٥/٢٠٠١، نقلاً عن: مجلة مختارات إسرائيلية، العدد، ٨٠، السنة السابعة، آب ٢٠٠١، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، مؤسسة الأهرام، (القاهرة)، ص٣٤.

(٤٢) دينيس ايزنبرغ وآخرون، **الموساد جهاز المخابرات الإسرائيلية السري**، ط٤، ترجمة عن النص العبري، دار الجليل للنشر، (عمان، ١٩٩٠)، ص١١١.

(٤٣) المصدر نفسه، ص١١١.

(٤٤) ديان يعترف، المصدر السابق، ص١٩٧.

(٤٥) المصدر نفسه، ص١٩٨.

(٤٦) شلذيم، **إسرائيل وفلسطين**، المصدر السابق، ص٧٧.

(٤٧) **إسرائيليون يتكلمون**، حوار بين إسرائيليين حول القضية الفلسطينية والصراع العربي –الإسرائيلي، ترجمة: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الدراسات رقم (٤٧)، (بيروت،١٩٧٧)، ص٥.
(٤٨) **مذكرات اسحق رابين**، القسم الأول، المصدر السابق، ص ١٩٠-١٩١.
(٤٩) **ديان يعترف**، المصدر السابق، ص٢٥٣.
(٥٠) مذكرات آرييل شارون، المصدر السابق، ص٢٨٢.
(٥١) حاييم هرزوج، **الحروب العربية –الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٨٢**، ترجمة: بدر الرفاعي، سيناء للنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٩٣)، ص٢٣٢.
(٥٢) **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص٢٨٢.
(٥٣) هرزوج، المصدر السابق، ص٢٣٣.
(٥٤) موري روبنشتاين، ريتشارد غولدمان، **قصة القوة الجوية الإسرائيلية**، ترجمة: محمد عبد الرحمن عطوة، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت،١٩٨١)، ص١١٧.
(٥٥) هرزوج، المصدر السابق، ص٢٤٨؛ عوود اغرانوت، **سلاح الاستخبارات الإسرائيلي**، ترجمة: دار الجليل للنشر، (عمان،١٩٨٨)، ص١١٧.
(٥٦) **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص ٣٠٠.
(٥٧) **ديان يعترف**، المصدر السابق، ص٢٥٥.
(٥٨) كيمحي، المصدر السابق، ص٢٥.
(٥٩) دافييد دوانتج، جاري هيومان، **حرب بلا نهاية وسلام بلا أمل –ثلاثون سنة من الصراع العربي -الإسرائيلي**، الهيئة العامة للاستعلامات، سلسلة كتب مترجمة، تسلسل (٧٤١)، (القاهرة، ١٩٨٠)، ص٢١٥.
(٦٠) **مذكرات اسحق رابين**، القسم الأول، المصدر السابق، ص ٢٤٠.
(٦١)يُنظر: **صحيفة يدعوت احرنوت** في ١٩٧٠/١/٢٣؛ صحيفة هآرتس في ١٩٧٠/١/٢٣، نقلاً عن كتاب: من الأرشيف الصهيوني –وثائق ونصوص، جمعها إسرائيل شاحاك، سلسلة كتب فلسطينية، العدد ٦٦، منشورات منظمة التحرير الفلسطينية –مركز الأبحاث، (بيروت، ١٩٧٥)، ص٧٤.
(٦٢) مائير، المصدر السابق، ص ٢٧٥-٢٧٦.
(٦٣) غرانوت، المصدر السابق، ص١١٩.
(٦٤) **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص٣٠٢.
(٦٥) مائير، المصدر السابق، ص٢٨٥.
(٦٦) آفي شليم، **الحرب والسلام في الشرق الأوسط**، ترجمة: ناصر عفيفي، منشورات مؤسسة روز اليوسف، (القاهرة،٢٠٠١)، ص٥٥-٥٦.
(٦٧) يُنظر: يوري بار جوزيف، **الملاك- الجاسوس المصري الذي أنقذ إسرائيل**، ترجمة: فادي داؤود، الدار العربية للعلوم ناشرون، (بيروت،٢٠١٧)، ص١٠١-١٠٢؛ ص١٧٣.
(٦٨) **صحيفة هتسوفيه** (إسرائيل) ١٩٩٥/١٠/٣، نقلاً عن: مجلة مختارات إسرائيلية السنة الأولى، العدد الحادي عشر، نوفمبر١٩٩٥، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام (القاهرة)، ص٣١-٣٢.
(٦٩) عمي آلون وآخرون، **النظام الحاكم والمعارضة في مصر في عهد السادات**، الهيئة العامة للاستعلامات، سلسلة كتب مترجمة، تسلسل (٧٧٠)، مطابع الأهرام التجارية، (القاهرة، د.ت)، ص٥٢-٥٣.
(٧٠) مائير، المصدر السابق، ص٣٠١.
(٧١) **صحيفة يدعوت احرنوت**، في ١٩٩٧/١٠/١٧، نقلاً عن مجلة مختارات إسرائيلية، السنة الثالثة، العدد (٣٦)، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، (القاهرة) ديسمبر ١٩٧٩، ص٤٢.
(٧٢) يشعياهو بن فورات وآخرون، **التقصير(المحدال)**، ترجمة: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة دراسات رقن (٣٨)، (بيروت، ١٩٧٤)، ص٥٢.
(٧٣) **من مذكرات جنرال دافيد اليعازر**، ترجمة: رفعت فودة، دار المعارف، (القاهرة،١٩٧٩)، ص٥٤، ٩٩.
(٧٤) المصدر نفسه، ص١٠٠.
(٧٥) **مذكرات الجنرال رفائيل ايتان**، ط٣، ترجمة: غازي السعدي، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، (عمان،٢٠١٥)، ص٦٤.
(٧٦) ايلي زعيرا، **حرب يوم الغفران - الواقع يحطم الأسطورة**، ترجمة: توحيد مجدي، منشورات المكتبة الثقافية، (بيروت، ١٩٩٦)، ص٢٣٥.
(٧٧) هرزوج، المصدر السابق، ص٢٨٠-٢٨٢.
(٧٨) **من مذكرات جنرال دافيد اليعازر**، المصدر السابق، ص١٠٣.
(٧٩) المصدر نفسه، ص١٠٨-١٠٩.
(٨٠) **ديان يعترف**، المصدر السابق، ص٢٧٥-٢٧٦.
(٨١) يُنظر: مائير، المصدر السابق، ص٣٠٤-٣٠٥.
(٨٢) **من مذكرات جنرال دافيد اليعازر**، المصدر السابق، ص١١٦.
(٨٣) روبنشتاين، غولدمان، المصدر السابق، ص١٤١-١٤٢.
(٨٤) **مذكرات آرييل شارون**، المصدر السابق، ص ٤٠٠.
(٨٥) يُنظر: رونين برجمان، "حظر نشر بحث يتناول أداء الجبهة الجنوبية في حرب عيد الغفران"، يدعوت أحرنوت،٢٠٠٩/٩/٢٥، نقلاً عن: مجلة مختارات إسرائيلية، العدد ١٧٩، السنة الخامسة عشر، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، (القاهرة)، نوفمبر ٢٠٠٩، ص١٠٣.
(٨٦) روبنشتاين، غولدمان، المصدر السابق، ص١٤٢.
(٨٧) **دان شيفتمان، "نظرة جديدة لحرب عيد الغفران"**، ترجمة أشرف الشرقاوي، مجلة مختارات إسرائيلية، السنة الثالثة عشر، العدد ١٤٧، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، (القاهرة)، مارس ٢٠٠٧، ص٢٩.
(٨٨) يتسحاق جلنور، **"آثار الحرب –التحول في السياسة الداخلية"**، مجلة مختارات إسرائيلية، السنة الثالثة عشر، العدد ١٤٩، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، (القاهرة)، مايو ٢٠٠٧، ص٢٩.
(٨٩) يعكوف برسيمانتوف، **"الحرب كنقطة تحول نحو السلام"**، المصدر نفسه، ص٣٦.
(٩٠) **من مذكرات جنرال دافيد اليعازر**، المصدر السابق، ص ١٥٠.



www.kanhistorique.org

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org